

نحو أفق بعيد

- ٨ -

احتمالات امكانات ، لا صيرورة ، واحدة ذات وجوه شتى في أزمنة غابرة هي اليوم وغدا . شمس لا تشرق ولا تغيب ، بدر ليس له تمام ولا فراق ، نهر يجري وليس له منبع ولا مصب . السراب في صحراء الغفمور ماء حقيقة ، عثت منه إبل أبي العلاء المعري حتى ماتت من الرئي . الزرع في حقول الجزيرة ينمو وأبدأ لا يصل الى درجة الحصاد . الأمطار تهطل والأنهار تفيض ، ويعم الخير في هيئة مجاعة يموت فيها الناس من النخمة . الطائرة لن تقوم وسوف تقوم ، وقد قامت بالفعل .

ما أروع هذه المدينة اللامدينة في هذا الوطن الذي هو كذكرى وطن أو كحلم وطن . وقد سالك الشاعر ، سالك أنت بالذات ، دون خلق الله جميعا :

ابكت تلكم الحمامة أم غثت على فرع
غصنها الميثاق ؟

يا سيدي فداك نفسي . لقد كنت كائنك لم تكن . أما الآن وقد صرت الى العدم المخض ، فانت ملء السمع والبصر . وقد حيرني سؤالك زمانا فما وجدت له اجابة الا الآن فقط ، في هذه اللحظة التي كانها الابد .

ان الحمامة قد بكت وغثت فما بكت ولا غثت ، لان الغصن الذي حطت عليه هو في واد هو احتمال واد في وطن هو حلم لوطن .

الا ، لا ارى مثلي افترى اليوم في رسم
تغصن به عيني وينكره وهمي
انت صور الاشياء بيني وبينه
فجهلي كلا جهل وعلمي كلا علم .

غفر الله للحسن بن هانيء ، وغفر لك يا ابا العلاء وانت ترجر مطايك في ذلك السراب الابدی .

وانت يا ابا تمام . اسأل الله ان ينزل فيوض الرحمة على قبرك بين العدوتين ، فانت قد قلت البيتين يقينا ، وذلك البيت إن لم تقله فكانك قد قلته ■



يكتبها : الطيب صالح

الأربعاء ، ١٩٨٨/٩/٢١
مطار الخرطوم ، صالة المغادرين
الساعة ٤ ، ٥٠ مساء .

تنتظر ، وفي خيالك ذلك النسيم الذي يلاحقك من وادي النيل ، يحمل عطرا لن ينضب ما دمت حيا . والنيل منك على مرمى حجر . الا تعلم ؟ لكن كانه في عالم آخر ، او كانه ليس موجودا البتة . النيل بعيد . كما قال الشاعر . لا توجد ساعة في هذه المحطة . وساعتك وقفت بتأثير قوة غامضة تصيب الحركة بالشلل في هذا المكان . وكان الزمن فرس رهان ، زلت به القدم . وهو يكاد يبلغ نهاية الشوط . عشر دقائق . عشر دقائق فقط . وتكتمل الساعة الخامسة . لكنها لن تكتمل . وسوف تظل هكذا الى الابد . معلقة بين الثمام والنقصان . تنوق الى الكمال . ولا تكتمل . الحيطان المشققة . والالوان الباهتة . والصور العتيقة . والوجوه المتعبة الصابرة . الحلم ونصف الحلم . واللا حلم . الفعل ورد الفعل واللا فعل .

اختلطت الاشياء فكوئت عجينا مطاطا لا مغزى له ولا ذات محددة . كأن الاشياء قد بدأت وانتهت . او كأنها لم تبدأ بعد . المكان كذكرى مكان أو كحلم الى مكان . والمدينة كلا مدينة . والوطن كلا وطن . السواقي وقفت منذ زمن وصمت غناؤها الحزين للنيل . ولكنها ما تزال تدور . يخرج منها ماء هو احتمال ماء ، لا يسقي زرعاً ولا بدر زرعاً . وسفن النيل وقطارات سكك الحديد توقفت . ولكنها تجري . وسوف تظل تجري بين الساعة الرابعة الا عشر دقائق . والساعة الخامسة تماما . والى الابد . ولا تصل الى غاياتها . الحرب اشتعلت وخمدت وبدأت ووقفت فهي تدور ولا تدور . فالقتل هم القتل . والجيش هو الجيش . والمطامح هي المطامح . والمزاعم هي المزاعم . هي ليست حربا ولكنها ذكرى حرب او احتمال حرب . شبت منذ اعوام . وشبت منذ قرون . وتشب الآن في مساحة طولها عشر دقائق وطولها الابد . الزعماء السابقون والزعماء اللاحقون اصفوا احلام . ذكريات زعامات .

نحو أفق بعيد

- ٩ -

لا يستحقون الثروة التي هبطت عليهم. وهذا باختصار ما تقوله كل هذه الكتب والمقالات الصحفية التي يكتبها الأوروبيون والأمريكان عن العالم العربي. وخاصة عن منطقة الخليج. اللهم الا قلة قليلة يكتبها اناس شرفاء امثال مايكل آدمز.

اغافلني الكتاب ايما اغاظلة، ولكن سرني عني قليلا انها لم تكتب عن قطر الا صفحة واحدة كانت الافتراءات التي تضمنتها اخف كثيرا من غيرها.

وكما هو متوقع، صاحبت صدور الكتاب ضوضاء اعلاميه مخطط لها في أوروبا. اذكي جذوتها لسوء الحظ العرب انفسهم، كما يفعلون دائما. وتحول هذا الكتاب الثقافه الى شيء مرغوب، طبعته منه عشرات الآلاف من النسخ. وتحولت الكاتبة بين ليلة وأخرى من صحفية من الدرجة الثالثة او الرابعة، الى صحفية

مشهورة تكتب عموداً أسبوعياً في واحدة من كبريات الصحف البريطانية، وتكتب في كبريات المجلات الأمريكية. تلك الأيام أيضاً هبط علينا، كاتب له بعض الشهرة كنت قد سمعت به، ولما قابلته خيل لي انه رجل جاد رزين، فأكرمنا وفادته واحسنا ضيافته. وسافر عنا، ونشر كتابه فاذا هو اكاذيب كبقية الاكاذيب، في زي مذهب اقل فحشا من كتاب صاحبتنا تلك. ثم جاءنا كاتب من صحيفة «الديلي تلغراف» اللئيمة. قلت له اول ما قابلته:-

«نحن نعتقد ان صحيفتكم منحازة ضد العرب، وانتم تكتبون عن العالم العربي اما عن جهل او عن سوء قصد».

فقال لي: «لهذا انا جئت لاصلاح الصورة، فانا لست من نوع الكتاب الذين يتحدث عنهم».

والحق انني خدعت في الرجل، فقد بدا لي مهذباً غاية التهذيب عنده رغبة صادقة، كما خيل لي، ليفهم، ويرى الامور على حقيقتها. وكان انجليزيا قحاً، له شارب مثل شوارب ضباط الجيش، يتكلم بلهجة اكسفوردية خالصة. فساعد كل ذلك على تضليلي. لذلك اكرمت منواه اكثر من المعتاد، وانفقت عليه من زمني وقتاً. ثم رحل الرجل عنا، وظهر كتابه، فاذا الكذب نفسه، واذا البذاءة نفسها ■



يكتبها: الطيب صالح

في عام كذا وسبعين، أيام كنت مديراً لوزارة الاعلام القطرية، حلت علينا صحافية انجليزية، نحيلة الجسم، كأنها مصابة بالسل، متوترة مثل قطة مذعورة، عينها عسلتان واسعتان، كان يمكن لو كان وجهها منبسطة سمحا، ان تكونا جميلتين. لكنهما لم تكونا كذلك، فقد كان في هيئة المرأة بأكملها شيء منفر، سببه، كما ادركت فيما بعد، ذلك الشبق الذي تراه في وجوه بعض الناس، أنهم يريدون ان يحققوا هدفاً غير شريف بأي وسيلة. ولأن العرب ناس كرماء، ودولة قطر دولة كريمة فقد استقبلناها في المطار، واستضفناها في الهوتيل. ولأنني عشت بين ظهرائي هؤلاء القوم ربحاً، فقد ادركت من اول لقاء لي معها، دون كبير جهد، ان تلك السيدة لم تجيء باحثة عن الحقيقة، لم تجيء لترى وتسمع وتفهم، فتنقل الى قرائها الانجليز صورة صادقة عن انجازات الانسان

العربي في هذه البقعة من الأرض، وطموحاته ومقاصده كبقية خلق الله. بل على النقيض، جاءت لتعطي المصادقية لصورة أئمة ظالمة كانت قد استقرت في ذهنها قبل ان تصل. فضربت حولها سياجا كثيفاً ولم ادعها تقابل احداً أو تكلم احداً. خرجت من عندنا الى دولة الامارات ومن ثم الى الكويت، وكانت قد زارت المملكة العربية السعودية قبل ان تصل اليها. ثم ظهر كتابها فكان كما قدرت، اكاذيب وافتراءات، بل فحش في بعض الاحيان.

عجبت وانا اقرأ الكتاب، واتذكر ذلك الوجه الكئيب والذراعين النافرتين العروقتين، والجسم المتوتر الهزيل والسمت العصبي، انها رسمت لنفسها صورة جذابة كأنها «صوفيا لورين» في زمانها، وان الرجال حينما حلت، كادوا يفتنون انفسهم هيأما بها، وجرياً وراءها، وان رجلاً ثرياً جعلها في رحلة قصيرة الى القاهرة في طائرته الخاصة، وعاد بها، حتى لا تضيع عليه ولو دقيقة واحدة من حديثها الشهي ومحياتها البهي! الى غير ذلك من هذه الاكاذيب الساذجة. والكتاب في مجمله يقول ان هذه المجتمعات مجتمعات مترفة فاسدة، وان الحكام متسلطون لا يعرفون كيف يدبرون امور دولهم، وان الرجال همج شبقون يسيل لعاب الواحد منهم لمنظر المرأة وخاصة اذا كانت اوروبية، وخاصة اذا كانت في فتنة مثل هذه الصحفية الغاضلة! بل ان الكتاب ذهب في الفحش والكذب ابعد من ذلك، وتخلص الكاتبة الى ان هؤلاء العرب «الهمج»

نحو أفق بعيد

١٠

ثم رأيتها في حفل الاستقبال الذي أقامته في البيت. الملكي، بريثانيا، وكانت في ذلك المساء ترتدي ثوباً جميلاً بسيطاً لا أحسب ان وصيفتها اعترضت عليه، وكانت هي وزوجها ينتقلان بين المدعوين ويتبسطان معهم في الحديث. وكانت الملكة تقول لكل شخص تلقاه عبارة أو عبارتين تعنيان له شيئاً، وتعلقان بذاكرته. كنت ليلتها ارتدي جلابية سودانية وعمامة وعباءة، وكانت الملكة قد زارت السودان. قالت لي:

هذا ليس زياً قطرياً، قلت لها لا.

فقلت:

هذا زي سوداني، ليس كذلك؟ بالتأكيد أنت سوداني.

لم تكن الجملة في حد ذاتها مهمة، ولكنها اسعدتني، فقد بذلت السيدة جهداً، وكانت هي اسعدتني لأن ظننها قد صدق، وقلت لنفسى: والله هذه الملكة سيدة لطيفة بنت حلال، ولم لا؟ فالمرء لا يكره الناس ضربة لازب.

بعض الناس يلومونني ان لي صديقاً او صديقين من الاثرياء، وهم اناس صادقهم منذ امد، قبل ان يكونوا اثرياء، فهل اتركهم لان الله سبحانه وتعالى اسبغ عليهم من فضله، واعطاهم مالا هم مستخلفون فيه؟ ليس

ذلك كان يكون لك صديق ثري، فاذا افتقر قلبت له ظهر المخجل؟

منذ اشهر، والشئ بالشئ يذكر، لقبت شاباً في ندوة في الكويت، فقال لي:

يقال انك توقفت عن الكتابة لسببين.

ما هو السبب الاول؟

يقال انك انجرفت في التدوين واستحوذت عليك الجماعات الدينية.

ضحكت لانني اعلم كم انا مقصر في جنب الله، وان بعض الناس يقولون انني ملحد او حتى شيوعي.

يا ابن اخي، انا لا افعل اكثر من انني اصلي صلاة الجمعة كسائر المسلمين، وكثيراً ما تفوتني صلاة الفجر في وقتها، ها، والسبب

الثاني؟

يقولون انك تصادق الاثرياء والوجهاء.

قلت له:

يا بُني، صحيح ان لي صديقاً او صديقين يقال انهم اثرياء، والله ما ادري مقدار ثرائهم، وهو امر لا يعنيني في كثير او قليل.

وهو ليس اكثر من صفة تعلق بالانسان، كان يكون نحيلاً او بديناً او احمر او اسود، واما الوجهاء فقد قابلت منهم عدداً ولكن لا اذكر لك صديقاً واحداً بينهم، ولكن دعك من هذا، قل لي بالله كيف تراني؟

هل ابدو لك كائن خبيث اثرياء ووجهاء، ام انك ترى رجلاً أما اذا الشمس عارضت فيضخى واما بالعمى فيحصر؟

قلت له ذلك لانه شاعر.

هذا ما كان من امر ملكة بريطانيا، اما من امر اولئك الصحفيين الازال، فسوف اقصه عليكم الاسبوع القادم ان شاء الله ■



يكتبها: الطيب صالح

حل علينا في تلك الايام ايضاً، جيش من الصحفيين الانجليز، رجالاً ونساء، كانوا يرافقون الملكة في جولاتها في بلدان الخليج، دعوتهم الى داري، كما كنت افعل مع الصحفيين الاوروبيين خاصة، واقول لعلني اصح بعض الافكار الخاطئة، لعلني ابذر في اذهانهم بعض الحقائق، لعلني استطيع ان اوجه انظارهم الى الامور الجوهرية في حياة الناس وانجازات الدولة، واصرفها عن التوافه التي اعلم انهم مشغولون بها، وجدتهم مجموعة من الهمج حقاً، باستثناء قلة منهم، كانوا ساخطين على كل شيء، وكانوا يحتقرون ملكتهم، ويسمونهم «برندا»، ولا اعلم لماذا اختاروا لها هذا الاسم، ولكنه اسم يوحى بالخدمات في حانات «سوهو» ومقاهي «كاسيدن تاؤن»، وكانت بينهم صحيفة تجيد المحاكاة، فعمت تقلد الملكة ووصيفتها، وكان الوصيفة ناظرة مدرسة والملكة تلميذة صغيرة، فاذا ارتدت الملكة ثوباً لمناسبة ما، تقول الوصيفة بصوت حازم كمن يخاطب طفلة:

«برندا، اترعى هذا الثوب فوراً، انه لا يناسبك».

فتقول الملكة بصوت خافت كسير:

«انا اسفة يا ليدى هسي».

ثم تجرب ثوباً آخر، فتقول الوصيفة غاضبة:

«برندا، كم مرة نبهتك الى ان اللون الازرق لا يناسب لون بشرتك اخضره حالا».

وتظل الملكة المسكينة تجرب الثياب، ثوباً بعد ثوب، والوصيفة القاسية لا ترضى على اي منها، واخيراً تجهش الملكة بالبكاء مثل طفلة.

ماذا افعل يا ليدى هسي؟ انني لا استطيع حضور حفل العشاء، فليس عندي ثوب مناسب.

تصرخ الوصيفة:

«برندا، كفي عن البكاء فوراً والا ضربتك على مؤخرتك، تذكرني انك لم تعودى طفلة، انت ملكة بريطانيا العظمى».

وظلت الصحفية التي تمثل دور الملكة تبكي بحرقة، وظل زملاؤها يضحكون بمتعة، وقلت لنفسى:

لا حول ولا قوة الا بالله، اي خير يرجى من هؤلاء الرعاع اذا كان هذا حالهم مع ملكتهم؟

وعجبت ايضاً، فقد كنت قد رايت الملكة عن قرب مرتين، مرة حين طاف بها وزير الاعلام في جولة في متحف قطر الوطني، وهو متحف جميل حقاً، فلم يكن غريباً ان الملكة وزوجها دوق اندرره اعجبا بما رايا، رايتها سيدة مهذبة بسيطة بشوشة، تسمع باهتمام وتسال أسئلة ذكية، وكان واضحاً ان تربيتها جعلت تلك الشمائل فيها فطرة وليس تكلفاً، وقد قال لي زميل في الوزارة:

هذه السيدة لطيفة الى حد انك تود ان تدعوها للعشاء مع عائلتك وتحس انها سوف تقبل الدعوة.



نحو أفق بعيد

١١

بحرية الصحافة والإذاعة وما شابه وهي شئشئة قديمة عرفناها عنهم . لم يلتفتوا الى مظاهر العمران الواضحة . ولا الى الخضرة التي انبتت في هذا المكان اليباب . ولا الى مصانع السجاد وتسييل الغاز وصهر الحديد وتحلية المياه . قالوا ان هذه اشياء مملة لا تثير خيال القارئ الانجليزي الذي يؤثر مواضيع ذات بعد انساني . واقول لهم :

ولكن اي بعد انساني في ذبابة حطت على وجه الملكة ؟ واي بعد انساني في صور الطعام يوضع في الاواني ؟ وهل من الذوق ان تدعو انسانا الى دارك وتولم له . فيصر على تفحص المطبخ والتأكد ان الطعام يُعَدُّ بطريقة هائجينية . كما تقولون ؟

واسوا من هذا كله . انهم حينما حلوا في تلك الرحلة . كانوا يحسبون انهم الهدايا التي يقدمها رؤساء الدول المضيفة الى الملكة . ويبالغون في الحساب . ليومهموا قراءهم ان هؤلاء القوم الاثرياء

مبدرون لا يدرون ماذا يفعلون باموالهم . وهم بذلك يتجاهلون الحكمة الانجليزية القائلة . لا تتفحص فم الحصان الذي يُهدى لك .

قال لي فؤاد جميعي . وهو صديقي منذ عهدي بهيئة الاذاعة البريطانية . وقد رافق هؤلاء الرعا مندوباً عن القسم العربي في هيئة الاذاعة البريطانية . وهو رجل محب للانجليز . تعلم في جامعاتهم . وتزوج منهم . ويجيد لغتهم :

« انني لم اكن أدرك قبل هذه الرحلة . الى اي درجة يزور هؤلاء الصحفيون الانجليز الحقائق . لقد كنت أشهد الاحداث معهم . ثم اقرا ما يكتبونه في صحفهم . فاذا هي مخالفة تماما لما راينا وسمعنا . »



يكتبها :
الطيب صالح

كُنَّا نؤمل ان يستغل اولئك الصحفيون مناسبة زيارة ملكتهم الى قطر . فينظروا الى مجتمع ليس معروفاً لقراءهم بعيون مفتوحة . ان لم يكن فيها عطف . فليس فيها كراهية . ها هنا اناس يعيشون مثلهم تحت الشمس على سطح هذا الكوكب الصغير . الذي برّبه الخالق سبحانه عباده جميعاً . على اختلاف الوانهم واديانهم ومذاهبهم ومشاربهم . اناس يحلمون مثلهم ويسعدون ويشقون مثلهم . ويولدون ويموتون مثلهم . لهم طريقتهم الخاصة في العيش . ونظرتهم المميزة الى الكون . لو فعلوا ذلك لعلمهم كانوا يزحزحون ولو قليلاً . ما ليس عقول قراءهم من خطل وجهل . وماذا يضير قارئ الـ « ديلي ميل » او الـ « ديلي اكسبرس » او الـ « تلغراف » ان يقرأ ولو مرة واحدة شيئاً مفيداً عن عالم بعيد مجهول . من هذه العوالم البشرية المتنوعة المتعددة ؟ اليس ذلك خيراً له من

اخبار الجرائم والفصائح والتفاهات التي تغطي على صحفهم ؟ لكن لسوء الحظ امعن هؤلاء الصحفيون الا القليلين منهم . في ضلالهم القديم . فحين اقترب « يخت » الملكة من الميناء . وكان الامير والوزراء ورجال الدولة ينتظرونها على الرصيف . انشغل الصحفيون والمصورون برجل وامرأة اوروبيين في قارب شرعي صغير . وقد زعموا بعد ذلك في مقالاتهم انهما كانا يشرفان على الغرق . ولم يكن ذلك صحيحاً . وفي الوليمة التي اقامها الامير للملكة في خيمة في البر . سلط الصحفيون كمراتهم وسلط مصورو التلفزيون الاتهم على ذبابة حطت على وجه الملكة . وتسلسل فريق منهم الى المطابخ وراء الخيمة . حيث يُعَدُّ الطعام . والتقطوا صوراً يُقصد منها الاساءة . ولما راجعناهم في ذلك احتجوا لنا

نحو أفق بعيد

١٢



يكتبها: الطيب صالح

لعلك ظننت أننا سوف نرجعك بالحجارة أو نعلقك من فرع شجرة لأنك يهودي .
لم يجبني . لكنني كنت متأكدا ان عبارتي قد احدثت بلبلة كبيرة لديه .
اسمع يا مستر كرافت . كونك يهوديا .. هذه حقيقة ليست مذهشة . بالنسبة لنا .
نظراي وفتح فاه . ولكنه لم يقل شيئا .
ولما وصلنا الى دار .ديفيد رايت . اسرعت بالنزول قبله . وفتحت له باب السيارة بالطريقة نفسها . والعبارة نفسها .
تفضل يا مستر كرافت فانت رجل مهم جدا .
لكن سرعان ما طغى دفا استقبال مستر .ديفيد رايت . لنا . على اي استمزاز قد يكون خطر لمستر كرافت . فقد كان ديفد رايت انسانا عفويا ليس في طبيعه التحفظ المانور عن الانجليز . وجدنا بالفعل . خليطا من الناس . عربا واوروبين . واتخذ الحديث طرقا متشعبة . من السياسة الى الادب الى الفن الى التاريخ . وكنت معنيا طوال السهرة بوقع كل ذلك على صاحبي مستر جوزف كرافت . فاري وجهه يزدأ احيانا وينبسط احيانا . لكنه ظل صامتا لا يفصح عما يخلج في صدره . ولما عدت به الى فندق الخليج . قلت له :
ارجو الا تكون وجدت هذه الاسمية مضبغة

اذكر جيدا ذلك الامريكي العصبي العابس الوجه . كانت سلامحه يهودية لا مراة فيها . وكانت النظارة السمكة على عينيه توحى لك بأنه ضيق الصدر . وهو احساس اكتشفت فيما بعد انه احساس خاطيء . لا انكر انني نظرت منه اول ما قابلته . ليس لانه يهودي . فانا لا احمل مشاعر من هذا النوع . فقد عرفت يهودا فضلاء ويهودا اراذل . لا . لم يكن ذلك . ولكن لانه بدا لي متغطرسا متعجرفا . وربما كان معه بعض الحق ان يغتر بنفسه . فقد كان جوزف كرافت صحفيا امريكا واسع النفوذ . يكتب عمودا في صحيفة الـ "هيرالد تريبيون" . وتنشره في الوقت نفسه نحو من عشرين صحيفة في كل انحاء الولايات المتحدة . كان على صلة وثيقة بصناع القرار . وكان مع ذلك معروفا بحماسة للصهيونية ولدولة اسرائيل وعدائه للعرب . وقد رأى السفراء العرب في واشنطن . في لحظة من لحظات الالهام . ان يرسلوه الى العالم العربي . ولم يكن قد زاره من قبل . ليقابل الناس . ويتعرف على انماط الحياة . ويرى مظاهر التقدم وال عمران . فلعله يغير من افكاره . او على الاقل يخفف من حدة عدائه للعرب . وكانت دولة قطر اول دولة يزورها . كان السفير الامريكي متوترا جدا متخوفا من تلك الزيارة . ولان طائرة مستر كرافت فلا السفير الامريكي ولا انا استطعنا ان نكون في استقباله في المطار . ذهبت اليه في الجناح الذي حجزناه له في فندق الخليج . فوجدته ثائرا محمر الوجه . اول ما دخلت وعزفته بنفسه صرخ : اسمع . انا رجل مهم جدا . ليس عندي وقت اضيعة . اريد . صيدا ضخما . I want to Shoot Big . اريد ان اقابل حالا الامير . (وكان ينطقها . امير) ووزير الخارجية . ووزير المالية .
قلت له . كل هذا سوف يحدث . لكن الوقت متأخر الآن . خذ راحتك وسوف امر عليك في المساء . وسوف تبدأ مقابلاتك صباح غدا . ولما عدت اليه في المساء . وجدته كما تركته . متوترا متوجسا . قال لي أثناء الحديث . دون اي مناسبة .
هل تعلم انني يهودي ؟
قلت له :

طبعاً أنا اعرف انك يهودي . فانا اقرأ مقالاتك في الـ "هيرالد تريبيون" . لم يبدُ عليه انه استوعب قولي . وكنت قد بدأت استغريء صحبتي له . قلت له :

انا مدعو هذا المساء للعشاء في دار الملحق التجاري البريطاني . اقترح ان تاتي معي فسوف تقابل عددا من الناس وتستمع الى آراء مفيدة .

قبل الاقترحي على مريض . وقدرت انه اعتبر ان في ذلك تقليلا من قيمته . ان يبدأ نشاطه الاجتماعي في الدوحة . بدعوة من ملحق تجاري لا اكثر . وليس بدعوة من سفير او وزير . لكنني كنت اعلم ان تلك الاسمية في دار الملحق التجاري البريطاني . سوف تحدث قدرا ليس قليلا من الفوضى في عقل مستر جوزف كرافت . كان .ديفيد رايت . شابا ودودا مستنيرا . وكانت تجمعني به صلة حسنة . لذلك كنت اعلم يقينا ان ميله للعرب لم يكن من قبيل التفاني الدبلوماسي . ولكنه كان عن قناعة حقيقية لديه .

فتحت لمستر جوزف كرافت باب السيارة . وانحنيت له بطريقة مبالغ فيها . وقلت له :

تفضل يا مستر كرافت . فانت رجل مهم جدا .
نظر اتي شرا ولم يقل شيئا . وكنت قد اخذت اتمع اكثر بصحبتني لذلك الانسان العجيب . وفي الطريق الى دار مستر .ديفيد رايت . قطعت عليه صمته بغتة . فقلت له

لوقتك الثمين .
نظر اتي برهة خلال نظارتيه السميكتين . وخجل اتي ان طيف ابتسامة خوم حول عينيه . كأنه ادرك . انه ان كان جاء يطلب صيدا ضخما . فقد صادف صيدا له احابيل من نوع لم يخطر له على بال .
في الصباح رافقته لمقابلة وزير الاعلام . فاستقبله الوزير بلطفه المعهود وابتسامته المضبغة . ولا بد ان مستر كرافت عجب اصلا ان شابا عربيا ليس الخطرة والعلال . يمكن ان يتحدث اللغة الانجليزية بتلك الطلاقة . ويقلب الافكار بتلك المهارة . ثم مضينا في زيارتنا التي توجت بمقابلة سمو الامير . ولما خرجنا من عنده نظرت اتي صاحبي فاذا هو . لأول مرة . فرحا . متفعلا من شدة الفرح . واذا ذلك الوجه المنجهم بأساريه المشدودة . كأنه وجّه لانسان آخر . كنت اعلم ان الذي ألم به قد حدث لانه قد وجد . صيدا ضخما . على حد قوله . قال لي وهو على تلك الحالة :

هين .. هذا الامير انسان لطيف . هؤلاء الناس لا باس بهم . لا باس بهم ابدا . قلت اعكس عليه الآية هذه المرة . فنظرت اليه كما كان ينظر اتي طوال مرافقتي له . ولم اقل شيئا .

ثم جمعته بمستر .هوارذ . الذي كان يزور الدوحة في الفترة نفسها . ويقيم هو ايضا في فندق الخليج . كان مستر .هوارذ . امريكيا من الولايات الجنوبية . شديد العداء للصهيونية ولإسرائيل ولليهود على وجه العموم . وقد انتج فلما عن احتلال اسرائيل لمدينة القنيطرة . وسرعان ما شبت بين الرجلين حرب كلامية لا هوادة فيها . وجلست بينهما . لا اشارك في الجدل . ولكنني استمع واضمح . امريكي يكره الصهيونية واليهود . وامريكي يهودي متحمس للصهيونية . وكانهما في حلبة ملاكمة . ورايت صاحبي مستر جوزف كرافت ينوء تحت وابل اللكمات التي وجهها له مستر .هوارذ . فقد كان هذا ملاكما شرسا . يضرب كيفما اتفق . ويضرب بلا شفقة . ولما ودعت مستر جوزف كرافت في المطار احساست انه يتركنا وهو في حيرة عظيمة من امره . كان وجهه وهو يغادر الدوحة مختلفا عن الوجه الذي جاء به . وتابع مقالاته في صحيفة الـ "هيرالد تريبيون" . مدة بعد تلك الرحلة . فلم اجد انه ذكر زيارته بالخبر او بالشر وان كنت لاحظت ان حماسه للصهيونية قد فتر بدرجة نسبية . ثم وانا في باريس قرأت نبا وفاته . تذكرت صحبتي له في الدوحة . واللحظات الممتعة التي اتاحها لي من معابتي اياه ولا اخفي عليكم انني شعرت بشيء من الحزن ■

نحو أفق بعيد

١٣



يكتبها: الطبيب صالح

قلت لما انت جاهل وأنا علماء ولكن صدقتني انت انت الاستاذ ونحن الجهلاء لقد شعرنا أثناء حديثك أننا نألف...
نجلس بين يدي استاذ

أما الشيخ عبد العزيز ، قد جلس من المنتهي كما يحسن التلميذ بين يدي استاذ . وأرسل نفسه منه بمنزلة التابع ، يفتلي أثره بين اليمامة والدهناء يحل اذا حل ويرحل اذا رحل . يلازمه كظله ، يحاوره ويداوره يوافقه وبخالفه ، يحبه ويحاول ان يجد فكاهة من حبه . ولكن مبهات فكل من وقع في أسر المقتني ، أصبح اسيراً ليس له فكك . وهذه العلاقة التي ابتدعها الشيخ عبد العزيز ، هي في حد ذاتها نمط جديد . ليس له نظير في الادب العربي . قلت للشيخ :

هذه العلاقة التي رسمتها لنفسك ازاء المقتني علاقة عجيبة . لقد كان المقتني يامل طوال حياته ان يحصل على مثل ما حصلت انت عليه . ألم يكن يسمى : لا يمل . السعي وراء الرفعة والسلطان ؟ ثم ها انتذا وكأنت قد لو كان لك ما كان للمقتني . وكأنت تريد ان تكون المقتني وسيف الدولة في ان واحد .

لكنني ايقنت بعد ذلك . حين برزت الشيخ اكثر . انه لا يطمح مثل هذا الطموح . وان تفقيه اثر المقتني بين اليمامة والدهناء . كان بمثابة جري وراء اطياف العالم الذي الله واحبه في طفولته وصباه ثم ضاع منه الى غير رجعة . لذلك فهو يفتي امتداد لكل اولئك الشعراء الذين مروا بهذه الديار . ووقفوا على اطلالها . وناجوا اطياف محبوباتهم على كئيباتها واوديتها وجبالها . ليس صوت الشيخ عبد العزيز يذكر بصوت غيلان . ذي الرمة . وهو يلف على رمال الدهناء

ذاتها التي وقف عليها الشيخ :

تمن ان مني كما حن نازع
دعاه الهوى فارتاد من قيده فصرأ
فقلت ارسا يا صاحب يدمنية
بذي الرمت قد أثوت منازلها عصرا
بل . ولكن حيث جرى امرؤ القيس وراء طيف صاحبه هز . ولاحق عنتره اطياف عبلة بين لمعان الاسنة . وبكى امام الباكن غيلان . طويلا على اطلال مني . فان الشيخ عبد العزيز قد ابتدع رمزا جديدا طريفا . هو في الوقت نفسه امتداد لتلك الرموز . فلاحق خيال الشاعر المبقري الذي ابتلع في جوفه اخيلة كل اولئك الشعراء . وتلك . واثم الحق . جرة من الشيخ ليس مثلها جرة .

هل نعمة سلمى او ليل او هند او مني ؟ لا بد . اذا لماذا لم يبع الشيخ بكل اسراره . ولماذا اختار هذا الرمز العسير . والرموز الغربية المثل بين يديه ؟

في تلك الزيارة . سمعت لأول مرة قراءات لرسائل الشيخ للمقتني . اعجبني الصوت وانضح في الضوء اكثر . فكتبت واحدا من كثيرين اهابوا به ان ينشر كتاباته على الملأ . تراء . كثيرا . يقدم ويخجم . وبعد لأي اصدر كتابه الاول . في اثر المقتني بين اليمامة والدهناء . بعد ان اطل فيه النظر . وحذف منه اجزاء كثيرة جميلة . ليته ابقاها . استقبل الكتاب . كما توقع . باستحسان كبير . ثم اخرج الشيخ كتابه «رسائل الى ولدي» في جزأين . اعقبه كتابه . حاطب ليل ضجر . وما يزال عنده الكثير . لم يشأ ان ينشره بعد .

ولكن الشيخ عبد العزيز بن عبد المحسن التويجري . اكثر من هذا كله . على ان هذا ليس قليلا . انه انسان متميز . من اميز الناس الذين عرفتهم . وهو حيث هو في الرياض . يشع ضوءا يضي مساحات واسعة حوله . لقد اتني عليه وعلى كتاباته اناس كثيرون . بينهم علماء اجلاء . امثال الدكتور زكي نجيب محمود والدكتور حسن ظاظا والدكتور مصطفى هدار . ومنهم نقاد كبار مثل رجاء النقيش . وكانوا صادقين فيما ذهبوا اليه . وكنت قد البت على نفسي ان ارجي الحديث عنه الى حين . يقول في الشيخ :

انت يا الطبيب صالح القيني على قارة الطريق ثم تركتني .
واقول له .

اخشى ان تظن انني اجامك . فقلت اترك غيري يكتبون عنك . وها انت ترى اسانذة كبارا هم خير مني . يعيرون عن اعجابهم بكتاباتك .

وبعد . فليس هذا ما اردت ان اقله عن هذا الشيخ الجليل والانسان الفريد . فان الحديث عنه يطول . وسوف يأتي وقته ان شاء الله . اما هذا الان . فقط احتفاء بابلال الشيخ من علته . وعودته سالما الى حواء ليواصل باذن الله . الدور الذي ارتضاه لنفسه . دليلًا للحاترين . ومنازة للسايرين والمقوين

لا اظن ان احدا في هذا العصر . شاعرا او شائرا . وقف على اطلال العالم القديم في نجد . ذلك العالم الذي تقوضت اركبانه تحت وطأة التقدم والعمران . كما وقف الشيخ عبد العزيز بن عبد المحسن التويجري . ما من احد يكتي بكاه . ولا احد رثى رثاه . ليس لانه لا يؤمن بالتقدم والعمران . فهو في احاديثه وكتبه . مفتتح بغوائد العلم . متحمس للتغيير مسحور بانجازات الحضارة التكنولوجية . ولكن لانه وعي بحسه المرفف ان كل ريح وراءه خسارة . وكل انجاز يصحبه ضياع . وان ذلك العالم المفقود الذي يرتفع على انقاضه هذا العالم الجديد الاكثر رفاهية . كان على علاقته . علما اليغا ودودا .

سافقتني الى معرفته وأنا في الدوحة منذ نحو عشر سنوات . رسالة جامعتي منه على غير معرفة سابقة . كنت قد ذهبت لزيارة المملكة العربية السعودية عدة مرات . فلم استلمع تلبية الدعوة لنسب او لآخر . ثم جامعتي تلك الرسالة الجميلة . والتي تضمنت . كما ادركت فيما بعد . كل خصائص أسلوب الشيخ عبد العزيز صفاء اللغة . وحرارة التعبير . وسبحات الخيال . واضاءات من فكر طريف . تلمع فجأة بين السطور . قال في الشيخ في رسالته :

ان صوتي قد وصله . وانه يحب ان يتعرف بي . لم اكن اعرف من هو الشيخ عبد العزيز بن عبد المحسن التويجري . ولكنني احسست ان هاهنا رجلا غير عادي .

يستحق ان يسعى الانسان اليه . فاننا كما قال النحوي «أكلف بالاشراف طرا من كل بيت» . الكاتب يخاطب الناس جميعا . ولكنه يكتب بصفة خاصة لانس «مختارين» . قد يعرفهم وقد لا يعرفهم ولكنه يعلم انهم اذا سمعوا ارفعوا السمع . واذا نظروا دلفوا النظر واذا ناداهم صوت محب . استجابوا له بمحبة . دون قيد ولا شرط . هؤلاء هم الناس الذين اذا قرأت لهم . او علمت انهم يقرأون لك . احسست بال «وش» كما يقول يوسف ادريس . فهذا عالم موحش . وعالم الكتابة اكثر وحشة . وهذه الأرواح المجردة . والاصوات المتألفة المتواصلة . تخلف من وحشة العالم . وتوهن ولو قليلا . من احزان حامل القلم .

وهكذا كان . رايت قبسا من ضوء الشيخ في تلك الرسالة فقلت اسير وراءه واتفلي اثره . والحكمة ضالة المؤمن . وكذلك المحبة . ولم اكن اعلم حينئذ ان الشيخ نفسه . كان متجديا الى ضوء عجيب . وصوت عبقري فريد . كان الضوء لطيفا . وكان الصوت . صوت الشيخ . اليغا صافيا لا يشوبه كدر . ثم اذا أنا في مجلس اهل في الرياض . واذا أنا برجل كالسيف . اقرب الى الطول . واقرب الى النحول . اسمر مشرب بحمرة عليه وسام كروان المطر خلف زجاج النافذة . لعله في الاربعين او لعله في السبعين . يبتسم . ولكن لم يعجب عني انه مثل بالاحزان . ولكنها احزان نبيلة . كانت عاناها الشعراء في هذه الديار منذ عهد نابغة بني ذبيان . ولان فؤادي ليس خلوا من هذا كله . فقد سلمت عليه وكافني اعرفه من زمن . سلمت عليه بمودة مشوبة بالعطف . ولم مضيت بعد ذلك في علاقتي بهذا الانسان الفريد . اعجب به واحبه . واشفق عليه . فذلكم العطف . وهو يرثي لحالي . وتلك لعمري قسمة عادلة وعلاقة متكافئة .

مثل اخي فتح الرحمن البشير . اقول لنفسي . يا للعجب . كأنهما ثوامان تلك الحموية . وتلك الازيحية . كان قلبه يخرج من بين اضلاعه ويسابق بدنه ليلفك مرحبا . يهش لك ويسبحك من يدك سحبا . ويدنيك من مجلسه . ويلحظ الطعام عليك افعاما . ويبدل لك من نفسه كأنك الوحيد لديه . وكل واحد عنده سبان في بذله .

اعجبني دارة . وهي مجموعة دور حول حوض سباحة . قلت له ذلك . فقال ضاحكا هذا من علامات الساعة . فقال :

«الا تعرف الحديث الشريف ان من علامات الساعة ان يتناول الحفلة العراة رعاة الابل في البنيان» .

كذلك هو . يبلغ في التهوين من شأن نفسه . ويسخر من حوله وطوله ويؤكد لكل من يلقاه انه جاهل لم يدخل مدرسة ولم يتعلم في جامعة . ولقد رايت منذ عامين أثناء مهرجان الجنادرية . يهدي كتبه لأكثر من عشرين كاتبا ومفكرا . كان يعمل اهداء يملا صفحة كاملة لكل واحد منهم . وكل اهداء مغاير لما سبقه . وفي كل اهداء فكرة طريفة او عبارة انيقة لم ترد من قبل . ثم رايت اواخر هذا العام . يتحدث في داره الى جمع غفير من اسانذة الجامعة الامريكيين ندا حديثه كعادته بال تأكيد على جهله . ثم حلق في افق شاسعة . متقللا من السياسة الى الادب الى التاريخ . خاطبا الجذ بالهزل . بمس يرفق مكان سوء الفهم لديهم . ويصحح ما علق ماذاهم من تصورات خاطئة عن العرب والمسلمين . بمهارة تثير الاعجاب . وبعد ان فرغ من حديثه واجاب عن تساؤلاتهم . شكره اكبر الاسانذة سنا وقال له في ختام كلمته

نحو أفق بعيد

١٤



يكتبها: الطيب صالح

«أعني أن تعلن شركاتكم عن نفسها في الصحف القطرية، فيعلم القطريون بوجودها فإذا كانت لهم حاجة بها تعاملوا معها. تذكر يا مستر.. أن شركاتكم ليست الوحيدة في السوق، ودولتكم ليست الوحيدة في العالم».

بعضهم كان كأنه يستيقظ من نوم، وكأنه نسي أن عهداً قد انقضى، وعهداً قد اطل. وأحياناً كان الواحد منهم حين يبلغ به الضيق مبلغه وتعوذه الحجة، يتفكر في وجهي طويلاً، ثم يقول لي بصوت بارد: «أنت لست قطرياً، اليس كذلك؟».

كنت حين أوصل الواحد منهم إلى هذا الحد، أحس أن يومي لم يذهب سدى، فقد كنت أعلم تمام العلم ماذا يقصد بقوله: «وأني له أن يدرك أن كوني لست قطرياً ما كان ليغير من الأمر شيئاً، وأني له أن يدرك أنه أن كان قد جاء يطلب صيداً، فقد لاقى صياداً له شبك من نوع آخر، أنه يرى أمامه رجلاً يجلس وراء مكتبه على شكل حدوة حصان

منفرجة، في مكتب مُصفر الحيطان في الطابق العلوي من مبنى التلفزيون، أنه يشغل منصباً ليس ذا خطر، في حقيقة الأمر، ولكنه قد يبدو لوهلة للطامعين والمغامرين والحالمين، أنه قد يكون وسيلة لتحقيق كل ذلك، أنه وضع صعب، وأصعب منه الرجل الذي يجلس وراء ذلك الرجل، رجل لا يرويه ولكنه يراقب عبث الناس والأعياب الحياة، كأنه بمعزل عنها، ويمتص التجارب كما تمتص الصحراء قطرات المطر، يتركها تتجمع وتغور بعيداً في قيعان الذاكرة، ثم ينساها، يتركها تنصهر في بوتقة «الفن» ريثما تنضج، وهو يعلم أنها سوف تطفو فجأة بعد أمد، على هينات مختلفة، وأشكال لم تكن في الحسبان».

هكذا كنت أسري عن نفسي، وأدافع الوحشة التي تخامرني، وحشة الكتاب والشعراء والمفكرين، حين أجد الوقت وخلو البال أسري عن نفسي يمثل تلك المواجهات والمعابشات، ولا أنكر أنني كنت أقسو على الإنجليز بصفة خاصة، فانا أخبر بمسالكهم، وأنا في حقيقة الأمر أكثر ميلاً إليهم من بقية الأوروبيين، فقد عاشرتهم زمناً، ومارست عندهم أكثر ثمرات حياتي، أيام كان الشباب «مطية الجهل، ومحسن الصبوات والعزل»، وقد أكلت من عيشهم وملحهم، وعلمت علم اليقين، أنهم رغم كل شيء وعلى علاقتهم، قوم خيرهم أغلب من شرهم».

بلى، كان الخير وفيراً في تلك الأيام، فجذب أفواجا إلى تلك الأرض الهادئة القصية من بلاد العرب، كما يتجمع الذباب على صحن العسل، وكنت أقول: «ليتني أجد الوقت لأسجل كل هذا، هذا يصلح شخصية في رواية وهذا لو رسمته كما هو على الورق لما صدقني أحد، لكن مايكل آدمز كان من طراز آخر».

مايكل آدمز كان شأنه مختلفاً عن أولئك الصحفيين الأوروبيين الذين حلوا على هذه الديار الآمنة، كمل تحل عصابة من قطاع الطرق خلال السنوات التي قضيتها في وزارة الإعلام القطرية، رأيت أنماطاً عجيبة من البشر، مروا أمام ناظري كما تمر الأشباح منهم أفاقون وباحثون عن الشهرة وباحثون عن أدوار يلعبونها على مسرح الحياة وهاربون من سام الحياة التي الفوها في بلادهم، وقليل منهم المخلص الباحث عن الحقيقة».

ذلك الصحفي الذي اتفقنا معه على نشر ملحق عن دولة قطر، اشترينا منه كذا صفحة بثمن كبير، لعراقة الصحيفة وسعة انتشارها، وساعدناه على جمع الإعلانات، ثم صدر الملحق فإذا به يتضمن مقالات لا علم لنا بها، مليئة بالأخطاء وسوء الفهم، اعترضت على ذلك، فقال لي: «هذه مادة تحريرية لا سيطرة لقسم الإعلانات عليها».

«أنتم تنشرون مثل هذه المقالات في صحيفتكم على أي حال، ولكن لماذا تصرون عليها الآن في هذا الملحق بالذات، علماً بأنه لم يكن ليصدر لولا الصفحات التي اشتريناها منكم والإعلانات التي ساعدناكم على جمعها؟».

«أنت تعلم بأن صحافتنا حرة، ومثل هذه المادة تعطي الصحيفة مصداقيتها، هذه هي الحقائق كما نراها فهل تريدوننا أن نغير الحقائق لجرد انكم اشتريتم منا بضع صفحات؟».

«اسمع، لا تحدثني عن حرية الصحافة، فانا أفهم جيداً ماذا تعني حرية صحافتكم، اليس عندكم مثل يقول: «الذي يدفع أجر المغني من حقه أن يختار الأغنية؟ هل تريد أن تقنعني أن دولة قطر تدفع لكم مبلغاً ليس قليلاً لتصدروا ملحقاً تشتمونها فيه؟ أي منطق هذا؟».

أحياناً كانوا يقتنعون بوجهة نظرنا، وأحياناً كنا نضطر إلى إيقاف التعامل معهم، ومرة جاءني صحفي يعرض علي أن ننشر ملحقاً عندهم، وخطر لي أن أعبت به قليلاً، قلت له: «وما هي الفائدة من ذلك؟».

«اليس هذا واضحاً؟ توجد هنا حركة تنمية عظيمة، وللدولة احتياجات كثيرة، لا بد أن تعلن دولة قطر عن احتياجاتها فتعلم بها شركاتنا فئاتنا إلى هنا وتساعد الدولة في إنجاز التنمية».

«شيء عجيب، تقصد أن دولة قطر تدفع كل هذا المال لصحيفتكم لتقولوا لشركاتكم: «دولة قطر تريد أن تعطيكم مالاً اذهبوا وخذوه منها؟» اليس المعقول هو أن يحدث العكس؟».

«ماذا تعني؟».

نحو أفق بعيد

١٥



يكتبها: الطيب صالح

لا أعلم كيف بدأت صلة مايكل آدمز بالعالم العربي، ولكنني أذكره في الخمسينات والستينات، يكتب بانتظام في صحيفة الـ «غارديان» منذ أن كان أسماها الـ «مانشستر غارديان»، كان واحداً من الكتاب المرموقين، من حفنة أعطوا هذه الصحيفة العتيقة، السمعة التي تتمتع بها إلى اليوم. منهم «ديفد هولدر» الذي قُتل منذ سنوات في القاهرة في ظروف غامضة، ومنهم «جيمس مورس» الذي تحول إلى امرأة وهو على عتبة الأربعين بعد أن تزوج وأنجب، وما يزال يكتب باسم جان مورس.

كيف حاققت مايكل آدمز بلوى الدفاع عن قضايا العرب، فذلك بالنسبة للكتاب الأوروبي والأمريكي امتحان عسير وبلاء مستطير وعبد لا يقوى على حمله إلا أولو العزم. لقد حطمت تبني قضايا العرب، بريطانيين سراً منذ لورد كيزن الذي كان يبدو وكأنه سفينة لن تغرق، كان من صفوة الأرستقراطية البريطانية، التي ثراء واقتدار وسعة نفوذ وجاذبية، جعلت من المؤكد أنه سوف يصبح رئيساً للوزارة، كان وزيراً في وزارة «لويد جورج» التي أصدرت وعد بلفور المشؤوم، وما كان محباً للعرب بقدر ما كان

محبا للحق، ظل يقول ببساطة ولا يني عن الالتحاح في مجلس الوزراء، أنتم تتحدثون عن إعطاء وطن قومي لليهود في فلسطين، انكم تقصدون قيام دولة، يهودية في فلسطين، والأرض ليست خالية من السكان، لم يُصغ أحد لكلامه وتبددت أحلامه في رئاسة الوزارة، ثم مستر «أرنست بلن» وزير الخارجية في حكومة العمل برئاسة «كلمنت آتلي» كان في شكله الجسدي، وفي قوته وسعة نفوذه في الحزب، يبدو هو الآخر مثل بارجة حربية لا يمكن إغراقها، صرخ في مجلس العموم في وجه النواب اليهود «أنني أرى هنا يهوداً ولكنني لا أرى عرباً»، فقد منصبه ومات كسير القلب، ثم مستر «انتوني بنتش» كان وزيراً للدولة في وزارة الخارجية وكان مقرباً من رئيس الوزراء «انتوني إيدن» وكانوا يتحدثون عنه كرئيس وزراء مقبل، كانت أنجحه في صعود، ومقاديره في صعود، استقال من منصبه أثناء حرب ٥٦، حين تآمرت بريطانيا وفرنسا مع إسرائيل على غزو مصر، وقال في خطاب استقالته الموجه إلى استاذة وصديقه ووليه «يوسفني أنني لا أستطيع أن أدافع عن سياسة حكومة صاحبة الجلالة، ماذا حدث له وابن هو الآن؟

حتى «جورج براون» المسكين، كان محتملاً أن يكون رئيساً لحزب العمال ورئيساً للوزارة بدلاً من «هارولد ولسن» لم يكن العرب في حد ذاتهم يعنونه كثيراً ولعله كان أميل لليهود فقد كانت زوجته يهودية، ولكنه كان أزيجي النفس شجاع القلب، ولعله فهم أبعاد القضية الفلسطينية بفضل مجهودات بذلها رجال أمثال اميل البستاني، في تلك الأيام الحالكة بعد هزيمة ٦٧، حين عزّ النصير، كان صوته من الأصوات القليلة التي ارتفعت في بريطانيا منادياً «الفلسطينيون لهم قضية، الفلسطينيون لهم قضية، فقد كل شيء، ومات من كثرة الشراب ووجع القلب.

من هؤلاء الناس الشرفاء، يهود أيضاً، منذ لورد مونتاجيو الوزير اليهودي الوحيد في حكومة لويد جورج، ومنهم يهود أمريكيون أمثال «حنا أرندت» و«ناومو جينسكي» و«الفرد لينينثال» بل واسرائيليون مثل الجنرال «ماتايو بلز» الذي كان قائداً للطيران الإسرائيلي في حرب ٦٧، ثم تغيرت حياته، وتخصص في اللغة العربية، وكان أحد أساتذته في جامعة «بيركل» الشاعر الفلسطيني المرحوم توفيق صايغ، وهو الآن استاذ اللغة العربية في الجامعة العربية.

ما الذي رمى بمستر مايكل آدمز هذا المرمي، وأصابه بهذه العدوى؟ لا أدري، ولكنني أعلم أن بريطانيا بقدر ما ألحقت أضراراً جسيمة بالعرب، ظهر فيها دائماً أناس شرفاء رجلاً ونساء، سبحو عكس التيار

وتصدوا لآراء قوية معاكسة، ولم يجبنوا عن المناداة بما رأوا أنه الحق والعدل، وتلك والحق يقال، سجية في طبيعتهم، الدفاع عن القضايا الخاسرة، والتحيز للضعيف، ولعل ذلك لا يرضي غرور العرب الذين ينهزمون وكانهم ينتصرون، ويخجل لهم مع خسارتهم أنهم رابحون!

كذلك أنا أعلم، أن ديار العرب، باتساعها وتنوعها وذكائها وغناها وسحرها وأوهامها وهداها وإباطيلها، قد جذبت إليها منذ دهر، أوروبيين كثيرين، وإنجليز بصفة خاصة، جاءوا إليها لأسباب شتى ثم وقعوا في أسرهما فلم يستطيعوا منه فككتاً، لورد وفرد بلنت، وسير ريتشارد بيرتن وقيرتود بل، وليدي هينشز ستانوب، وداواي ونسجر، وتي إي لورنس، وليدي دث قوردن وفلبي وغيرهم، هذا العالم الذي بدا لهم كسراب الصحراء، اغواهم وحيرهم وأركب عليهم حياتهم، وكانوا منه كما قال المتنبي العظيم الذي يصيب كبد الحقيقة كل مرة: وتولوا بعمّة كلهم منه

وأن سر بعضهم أعياناً، لكن مايكل آدمز حين تقابله لا يبدو لك كأنه يمكن أن يكون أسيراً لأية أوهام.

تري رجلاً هادئاً واضحاً جازم التواضع، ولعلك لا تدرك إلا إذا أمعنت النظر، أن تحت ذلك الإهاب، فؤاداً جريئاً، وعقلاً مصمماً إذا قرئت فيه فكرة آمن بها، لا يتزحزح عنها، ويدافع عنها حتى آخر رمق، كان، كما قلت لكم، صحفياً مرموقاً، ولو سارت به الأمور سيرا طبيعياً، لأصبح دون شك رئيساً لتحرير صحيفة كبرى، ثم قليلاً قليلاً بدا يغفط في ذلك البحر العربي المتلاطم الأمواج، أخذت مقالاته تزداد قوة وأحساسه بالغبن الذي حاق بالفلسطينيين يزداد حدة، وكانت مقالاته شيئاً آخر، قليلون من يستطيعون أن يكتبوا مثلها حتى من العرب أنفسهم، كان صوته قوياً واضحاً مختصاً ينفذ إلى العقل والقلب معا، وقليلاً قليلاً بدا أنجحه بأف وبدات حفظه تنعكس، ثم انقطع عن الكتابة اللهم إلا من مقالة أو رسالة تنشرها له الـ «غارديان» أو الـ «تايمز» من حين إلى آخر على استحياء.

قابلته في باريس منذ بضع سنوات في مؤتمر من هذه المؤتمرات، دعوته إلى داري مع آخرين، منهم الديبلوماسية الذكية النشطة ليل فانوس، ومنهم مستر روبرت ستيل الذي كان يعمل وقتها محرراً للشؤون السياسية في صحيفة «الايونير»، ويتولى شرح قضايا العرب بأسلوبه الهادئ، مثله في ذلك مثل زوجته الدكتورة هلفا قريبهم، سألته ماذا يعمل فأجابني ببساطة:

«أعمل دليلاً سياحياً، عجبت أشد العجب وقلت له: ماذا تقصد دليلاً سياحياً؟ «أرافق السواح إلى البلاد العربية، وقد عدت لثوي من زيارة لعملي، ولما رأيت دهشتي تزداد، قال لي: دون أي أنفعال «عندي ولدان يدرسان في الجامعة ولا بد أن أكسب عيشي بطريقة ما، سكت، ولكنني رددت ببني وبين نفسي قول الشاعر الإنجليزي: «ماء ماء حيثما نظرت، ولا قطرة واحدة تشرب، بعد ذلك في جولاتي في العالم العربي، كنت أقول لكل من قابلهم من أصحاب الشأن ومن يبددهم الحل والربط: هل تعلمون أن مايكل آدمز، مايكل آدمز، يعمل دليلاً سياحياً؟ «وكانوا يتعجبون أشد العجب، ويعدون خيراً، ثم هبت لنجدته دولة قطر.

إنه الآن، حسب علمي، يحيا حياة أكاديمية هادئة، أرجو له العافية وراحة البال، حيثما كان، فقد حوّل إلى يسترخ، ثم، يا رعاك الله، ليس أهل مكة أدري بشعبها؟ بل ليس أهل مكة أولى برفضاء أرضها ومطل شعبها؟

نحو أفق بعيد

١٦



يكتبها: الطيب صالح

أبوه وأنجب بعدها. وهذه حقيقة مهمة في حياته. كانوا فقراء مستورين ولم تكن الحياة سهلة. وصل الجامعة بعد جهد. فدرس اللغة الإنجليزية في جامعة الاسكندرية فأتقنها. لفظاً ومعنى. بشكل ملفت للنظر. وكان أضرابه قليلين في إتقانه للغة الإنجليزية بين من عرفت من العرب. كان صعباً أن يقتنع الناس أن «منسي» في عبته وهذره يمكن أن يتقن أي شيء. وقد قضيت كل سنوات معرفتي له. أحاول أن اقنع الناس. أنه إنسان عنده مواهب. وأنه يتقن أشياء كثيرة. قاده حبه للغة الإنجليزية بطبيعة الحال. إلى إنجلترا. فوصلها العام ٥٢. بعد سلسلة من المغامرات والألعاب والد. أوطلة. وانخرط في الدراسة في جامعة ليفربول. كان فقيراً لا يملك قوت يومه. فكان يدرس ويعمل. فعمل حملاً وغاسلاً للصحن في المطاعم. وممرضاً. ثم انتقل إلى لندن. وكان في كل تحركاته كما أخبرنا فيما بعد. يستعين بالجمعيات الخيرية والهيئات الكنسية ويلعب على كل الحبال.

عرفته العام ٥٣. أول عهدي بهيئة الإذاعة البريطانية. فكان نعطيهِ أشياء يكتبها أو يترجمها وأدواراً صغيرة في التمثيليات الإذاعية تعينه على العيش والدراسة. ظل طول حياته يحب التمثيل. وحتى بعد أن اثنى. كان يأتي إلى الإذاعة. ويؤدي أدواراً في التمثيليات. ويصر على تقاضي الأجر. وكنت أقول له «أنت ممثل جيد في الحياة. ولكنك ممثل فاشل في الفن».

قبل أن تتوقف صلتني به في تلك الأيام. زارني ذات يوم في داري. وكان يسكن مني غير بعيد في حي «فلهام». وأنا في حي «ساوث كنزنجتون». قدم لي زوج جوارب من نوع رخيص. قلت له: «ما هذا».

هدية.

وما هي المناسبة؟

قال ضاحكاً:

«بمناسبة عيد ميلادك».

أي عيد ميلاد؟ يا أخي اليوم ليس عيد ميلادي. والفرض أنه عيد ميلادي. هذه رشوة.

قال ضاحكاً:

«يعني...».

«الله يخبك. يعني حين تريد أن ترشوني. تعطيني رشوة لا تزيد قيمتها عن ثلثين».

لم يبد عليه أي شعور بالحرج. وقد كانت تلك من ميراثه الكبرى في الحياة. أنه لا يخجل ولا يهاب ولا يبالي ولا يحس بالحرج. قال لي وهو يضحك من أعماق قلبه. بطريقة طفولية كانت من مقومات جاذبيته. «قلت أجرب. من عارف».

لكننا أصبحنا صديقين حميمين بعد ذلك. بل أنني من بين سائر أصدقائنا المشتركين. أصبحت بمثابة «أب روحي» له. رغم أننا كنا من سن واحدة. ربما لأن الآخرين. عيد المنعم الرفاعي. وأكرم صالح. وعبد الحي عبد الله. ونديم صوالحة وغيرهم. كانوا. على جبههم له. يعاملونه بفضافة. ولا يأخذونه مأخذ الجد.

في مثل هذا الوقت من العام الماضي توفي رجل لم يكن مهماً بموازين الدنيا. ولكنه كان مهماً في عرف ناس قليلين. مثل. قبلوه على عواهنه. وأحبوه على غلاته. رجل قطع رحلة الحياة القصيرة وثباً وشغل مساحة أكبر مما كان متاحاً له. وأحدث في حدود العالم الذي تحرك فيه. ضوضاء عظيمة. حمل عدة أسماء. أحمد منسي يوسف. ومنسي يوسف بسطاوروس. ومايكل جوزف. ومثل على مسرح الحياة عدة أدوار. حملاً وممرضاً ومدرساً وممثلًا ومترجماً وكتيباً واستاذاً جامعياً ورجل أعمال ومهرجاً. ولد على ملة ومات على ملة. ترك أبناء مسيحيين وأرملة وأبناء مسلمين. حين عرفته أول مرة. كان فقيراً معدماً. ولما مات ترك مزرعة من مائتي فدان من أجود الأراضي في جنوب إنجلترا. وقصراً ذا اجنحة. وحمام سباحة. وأسطبلات خيل. وسيارة «رولز رويس». وكاديلاك. ومرسيدس. وجاغوار. وماركات أخرى. وخلف أيضاً مزرعة من مائة فدان في ولاية «فرجينيا». بالولايات المتحدة. وبيتاً في «واشنطن». ومطعماً وشركة سياحة.

لما بلغني نبأ وفاته. اتصلت بدارده في «ثاتشيري». في ضواحي ساوثهامبتون. بإنجلترا. أجنبي صوت أمريكي لشباب. هو ابنه الأكبر «سايمون». علمت منه أن الموت أخذ أباه على حين غرة وهو في أوج الصحة والعافية. فاصيب بسرطان الكبد الذي قضى عليه خلال أسابيع. وكنت وقتها في السودان. ثم خطر لي أن أسأله كيف دفن أبوه فأخبرني أنهم لم يدفنوه بعد. وكان قد مضى على موته نحو عشرة أيام. وأنهم ينتظرون أن تتم الإجراءات لحرق جثمانه. قلت له «ولكن أبك رجل مسلم. وحرق الجثمان محرم عند المسلمين».

فأجابني «نحن لا نعلم عن إسلامه شيئاً. الذي نعلمه أن والدنا كان مسيحياً. وكان يقول لنا «حين أموت أحرقوا جثمانى».

قلت له «اسمع. لا يوجد أدنى شك أن أبك كان مسلماً. وأنا شاهد على ذلك. أنه أمر خطير أن تحرقوا جثمان رجل مسلم. وتذكر أن أبك خلف أرملة مسلمة ولكم منها أخ مسلم. إذا قُلت أنه لم يكن مسلماً فمعنى هذا أن زواجه هذا كان باطلاً».

اتصلت بزوجه في الرياض فاستغاثت بوزارة الخارجية السعودية التي سارعت بالتدخل. فحسم الأمر. ودفن «منسي». كما كنا نسميه - كمسلم. وأقيمت عليه شعائر المسلمين. وذلك بعد نحو شهر من موته. ومع ذلك نشرت صحيفة «الاهرام». أن أهله في مصر أقاموا القداس على روحه في الكنيسة القبطية. ورغم حزني عليه فقد ضحكت. قلت هكذا «منسي. لغز في حياته ولغز في مماته. لقد أربك الناس حوله وهو حي. وهامو يربكهم وهو ميت. كانت الحياة بالنسبة له. نكتة كبيرة. وضحة متصلة لا تنقطع. كانت الحياة. سلسلة من «شغل الحليسة» كما كان يقول.

ولد ونشأ قبطياً في بلدة «ملوي». في عمق صعيد مصر. وكان يقول لنا أنه كان يقضي معظم أوقاته مع أطفال المسلمين من سنه. فنشأ أقرب إلى المسلمين. توفيت والدته وهو بعد صبي. وكان أكبر أخوته. وتزوج

نحو أفق بعيد

١٧



يكتبها: الطبيب صالح

سير توماس مور جد زوجتي العزيزة هو الوزير الفيلسوف مؤلف كتاب «يوتوبيا»... انت يا عبد الحي جاهل، طبعاً لم تسمع بكتاب «يوتوبيا». كان الوزير الاول للملك هنري الثامن، نعم، الملك الشهير الذي تزوج ثماني زوجات. امر الملك باعدامه لانه رفض ان يؤدي له قسم الولاء حين فصل الملك هنري الكنيسة الانجليزية عن سلطة البابا في روما. كذلك رفض سير توماس مور ان يطلق الملك زوجته كاثارين أوف اراجون ليتزوج من ان بولين، فاهمين يا جهلة! اه سير توماس مور هو بطل المسرحية التي ألفها روبرت بولت عنه، مسرحية «رجل لكل المواسم» هذا باختصار هو الرجل الذي تنحدر من سلالة زوجتنا العزيزة.

في مثل هذه المواقف يكون «منسي» في احسن حالاته. يستعرض احادته للغة الانجليزية، ودقة معرفته بتاريخ الانجليز. وها هو الآن يجد سبباً اضافياً انه هو شخصياً قد اصبح جزءاً من تاريخ الانجليز. وازداد عجبنا حين علمنا ان «العروس» بالإضافة لكل هذا، فهي ايضا عازفة بيانو موهوبة تزاد شهره يوماً بعد يوم، وتقيم حفلات «كونسرت» في قاعة «وخمور» الشهيرة.

ويقول له عبد الرحيم «وايه اللي رمى ست محترمة زي دي علي واحد بغل زيك؟»

حكى لنا انه تعرف بها في اجتماع لنادي «شباب حزب المحافظين» على اثر مناظرة حامية تصدى فيها «منسي» لرئيس وزراء بريطانيا آنذاك سير انتوني ايدن. وسوف نرى فيما بعد كيف ان منسي قد مناظرة عن قضية فلسطين، وهو لا يعرف كثيراً عن قضية فلسطين، في مواجهة احد جهابذة السياسة في بريطانيا، وخرج منتصراً. يقول منسي انه كان رائعاً في تلك الليلة وهو يواجه الضربات لسير انتوني ايدن، ذلك الديبلوماسي المحنك والسياسي العنيق. دافع عن تأميم مصر لقناة السويس وهاجم سياسة حكومة سير انتوني ايدن العدوانية نحو مصر. بعد الاجتماع جاءت تلك الفتاة الطبية واعربت له عن اعجابها بشجاعته وقوة دفاعه عن بلده، ودعته الى دارها وعرفته بأهلها. يقول «منسي» انه قرر في تلك الليلة ان يتزوجها.

وهكذا تحول «منسي» بين عشية وضحاها من حال الى حال. انتقل من غرفته البسيطة في حي «فولهام» الى دار من طابقين في شارع «سني» الشهير، في حي «تشلسي» العريق. كانت «ماري» تعيش هي ووالدتها وحدهما فقد كان اخوها واختها متزوجين. وسرعان ما أصبح «منسي» سيداً مطلق السلطان في تلك الدار الانجليزية المحافظة. كانت حماته التي تربت على ايدي مربيات فرنسيات، وتتحدث اللغة الانجليزية بلكنة فرنسية، تعيش في الطابق الارضي، فاستوى هو على الطابق العلوي. كنت نراه متى زوجه يجري طالبا نازلاً امراً ناهياً. قلب تلك الدار رأساً على عقب. وسرعان ما اخذت الدار تمتلئ باصناف من البشر لم تخطر على بال اجداد «ماري» النبلاء الرافدين في مضاجعهم الدارسة في اطراف انجلترا. يفتح «منسي» لك الباب، فتهمج عليك روائح الملوخية والكمونية والكوارع والمسفعة، روائح تتلوى منها دون شك، امعاء اولئك الاسلاف في مراقدهم النائية.

يقول له عبد الحي، وقد كان يحضر للدكتوراه في الاقتصاد في جامعة اوكسفورد، بلهجة فلاحي الدلتا التي يعتز بها...

«يا صعيدي يا قبطي يا ابن الس... والله عل... بقي انت تجي بلاد الانجليز آخر الزمن وتتزوج مين؟ حفيد سير توماس مور؟»

يترجرج جسم «منسي» الذي بدأت تظهر عليه اثار النعمة، ويتقلص وجهه المستدير، ويشيع في عينيه الوميض ضحك طفولي كان من مكونات جاذبيته...

«انت اسلك فلاح ما تفهمش حاجة، تفكر دي حكاية كبيرة؟ ظف. وايه يعني سير توماس مور؟ ثم ما تفهمش اني أنا من سلالة ملوك الفراغة في صعيد مصر».

«انت من سلالة ملوك الفراغة؟ انت من سلالة شحاتين في الصعيد».

«استك يا فلاح. قال ايه جايي يعمل دكتوراه في الاقتصاد. جاتك نيلة. ايه اللي عرف الفلاحين في الاقتصاد؟»

لو ان قسامة «منسي» كانت اقصر ببوصة واحدة او ببوصتين، لاصبح قزماً ومع تقدم السن، ترغل جسمه. وصار له كرش كبير، ومؤخرة بارزة، فكانت تنظر الى كرة شفت نصفين، نصف اعلى ونصف اسفل. وكان شديد العناية بمظهره. يلبس قمصان الحرير، والد «بدل» الفاخرة، يحصل عليها باثمان بخسة. كان ياديء الامر بفصل ثيابه عند «ترزي» في نواحي «هولبورن»، وكان هذا يحصل على القماش بسعر الجملة من محلات «دورمبي»، المعروفة في بيكاديلي. وذات يوم انشغل فتطوع «منسي» ليحضر له القماش، فاعطاه الرجل بطاقته، واستغل «منسي» الفرصة فسجل اسمه عند «دورمبي» على انه «ترزي» وحصل على بطاقة. واصبح بعد ذلك يحصل على القماش بسعر الجملة بهذه الصفة. واشهد ان «منسي» كان كريماً معنا، فكان نذهب معه الى «دورمبي» ونشتري ما يلزمنا بسعر الجملة. كذلك اكتشف «منسي» بقدرته الخارقة على الاكتشاف، ترزياً ماهراً في منطقة الـ «ايسنت أند» الفقيرة، يتقاضى ربع الاسعار التي يتقاضاها التريزية في وسط لندن، فاصبح يفصل ثيابه عنده. حتى بعد ان هاجر الى امريكا وفتح الله عليه هناك، كان يحضر خصيصاً الى لندن، فيشتري القماش من «دورمبي» ويفصله عند صاحبه ذاك الـ «ايسنت

اند». كان يفتني البذل والقمصان بالعشرات دفعة واحدة. ولا بد انه ترك كميات كبيرة منها بعد موته، لن يستفيد منها احد لسوء الحظ، لانني اشك ان يكون في كل هذا العالم الطويل العريض، شخص واحد مثل «منسي».

ومع ذلك لم يعدم طوال حياته نساء يحببته، بعضهم كن جميلات جمالا بيتنا، فارعات، تراه يخلت الى جانب الواحدة منهن، فكان نخلة الى جانب شجرة الذوم. كان وجهه صوباً يعيل الى الاستدارة تزجعه عينان واسعتان وقحطان يركزهما على محدثه طول الوقت، دون ان يطرف له جفن. وكانت تلك حيلة نعرفها عنه، فكان نعايته بوسائل شتى، وكان سريع الضحك، فلا يلبث وجهه ان يتكسر بضحك طفولي. هذا مع سرعة بديهة وتملك تام لناسبة اللغة الانجليزية، وقدرة عجيبة في الذهاب بها كل مذهب. وكان جريئاً، يقتحم الناس اقتحاماً، ويرفع الكلفة فوراً كانه يعرف الشخص من زمن، وكان هذا الشخص مهما علا شأنه دونه مرتبة. رافقني الى حفل تخرجي من الجامعة، فقابل لأول مرة، سفيراً عربياً وزوجته، وكانا من اسرة حاكمة. انشغلت عنه فترة ولما عدت اليه، وجدته قد اوقف الرجل وزوجته، ووقف هو بينهما، يضرب الرجل على كتفه مرة، ويضرب السيدة على كتفها مرة، ويقول وهو يهقه بالضحك:

«أه، اتكلموا كمان، والله لهجتكم ظريفة جداً».

جروته عنهما، وقلت له...

«انت مجنون؟ الا تعرف هؤلاء؟».

«حيكونوا مين يعني؟».

ولما فهمته، قال...

«وايه يعني؟».

كانت الواقعة تنفعه احياناً، وتضره احياناً، ولكنها كانت تسعفه مع النساء في الغالب.

حكى لنا اوائل معرفتنا به، انه احب فتاة في ليفربول حباً ملك عليه نفسه، وقد خطبها وحذوا موعد الزواج. ولكنها ماتت موتاً مأساوياً في حادث سيارة. قال انها كانت حبه الاول والاخير، وانه لن يتزوج بعدها. وسوف يظل وفياً لذكرها الى الابد. كانت طريقته عجيبة في الحزن، يقول لك انه حزين، ولكن لا تبدو عليه اية علامات للحزن. لم يمض وقت طويل حين جاء بخبرنا انه قد تزوج. دهشنا دهشة عظيمة، ثم تأكدنا انه قد تزوج بالفعل فتاة من اسرة انجليزية عريقة تنحدر من سلالة سير توماس مور. بعضنا كان يعرف من هو سير توماس مور. والذين لم يسمعو به من قبل اعطوا «منسي» الفرصة ليتباهى امامنا جميعاً، فشرح للذين يعرفون وللذين لا يعرفون من هو سير توماس مور بلغة انجليزية متقنة وكاننا في فصل دراسي...

نحو أفق بعيد

١٨



يكتبها: الطبيب صالح

كانت في «منسي» خصلتان حميدتان .
حبه للبسطاء وحفاظه للنود . وقد
ظل طول حياته يحتفظ بكل الصداقات
التي كونها منذ بداية حياته ويضيف صداقات
جديدة . كانت قدرته مذهلة على التعرف بالنس
واصطناع الاصدقاء والاحتفاظ بهم . وكان
اصداؤه من مختلف الاجنس . وشتى المذاهب
والشارب والافكار والمزاج . وكلوا كلهم عنده
سواسية . الامر مثل الفقير . يعاملهم ببساطة
ودون تكلف . الا انه كان يعنى بالفقراء والاطفال
عناية خاصة . ويكون معهم على سجيته تماما .
ومع الاطفال يكون كأنه طفل . لقد زار الدوحة اول
عهدي بها . منذ خمسة عشر عاما وتعرف
بطريقته العجيبة على عدد كبير من الناس في وقت
قصير . كلهم مازالوا يذكرونه ويسألون عنه .
خاصة بين سانقي سيارات الاجرة . كان يترك اثرا
عند الناس لا ينسى . اثرا حسنا في الغالب . وفي
احيان قليلة شيئا من الضيق والنفور . ولكن مهما
كان الامر فان كل من يتعرف به لا ينساه ابدا .
لذلك كان يجد اصدقاء جديدا زهد . حين

والفني في رحلتي الى الهند والى استراليا . وهي قصة سوف ارويها لكم فيما
بعد . زاره شاب في الفندق الذي اقمنا به في سيدني . كان الشاب يخاطبه باحترام
بالع لفت نظري . سألت «منسي» . فقال .

«هذا ابن فلان الجزار . تذكر الجزار في سلون ستريت ؟»

اول مرة والفقت فيها «منسي» الى محل ذلك الجزار اعطاني كمية عظيمة من
اللحم وطلب مني مبلغا ضئيلا . قلت للرجل :

«لا بد انك اخطأت في الحساب . هذا اللحم يستحق اكثر من هذا بكثير . تلفت
الرجل حوله . وكان المحل مزدحما بالزبائن . قال لي : «نعم . انا اسف» .

ثم اعاد اللحم الى مكانه ووزن في الكمية التي طلبتها . وتقاضاني ثمنا كبيرا
عليها . ولما خرجنا قل لي «منسي» غاضبا

«انت مش حتبطل التخفيل بتاعك دا ؟ الرجل عاملك معاملة خاصة لاني فهمته
انتك صالحبي» .

«طيب يا اخي مش كنت تفهمني ؟ انا ظنيت انه اخطا فعلا . ايه عرفني انك
بتعمل شغل الاونة حتى مع الجزائريين» .

لكن لم يكن ذلك «شغل اونة» . فقد كان الرجل صديقه . كما علمت فيما بعد .
وقد اقام عنده اول قدومه الى لندن . واصبح كأنه فرد من افراد عائلته . وظل
«منسي» ولها لتلك الصلة طول حياته . ولما فتح الله عليه . كان من بعض هداياه
الى صديقه الجزار . سيارة «روفر» .

في سيدني . سألت «منسي» لماذا يعامله الشاب بذلك الاحترام المبالغ فيه .
فاجابني :

«لاني انقذته من مصير قاتم . وانا السبب في انه درس في الجامعة واصبح
مهندسا» .

ولما استوضحته اكثر . حكى لي ان صديقه الجزار كان ينتمي الى جماعة دينية
متزمتة تعيش بمعزل عن الناس ولا تتعامل معهم الا في اضيق الحدود ويرفض
افرادها ان يدخلوا ابناءهم المدارس . وقد ظل «منسي» يحاور الرجل حتى غير فكره
واخرجه من الجماعة كلية . واقنعه بادخال ابنه المدرسة وكان ابنه الاكبر .
يقول «منسي» .

«لولاى لكان هذا الشاب الآن جزارا في سو
«سمفيلد» او غالا في ميناء لندن» .
قلت له

«كنت ادخلت الرجل الاسلام بالمرة وكسبت
اجرا» .

يقول «منسي» ضاحكا
«ايامها كنت كافرا . ولو كنت مسلما . كنت
ادخلته الاسلام . بس ما تنساش اني انا ادخلت
عشرات في الاسلام في امريكا» .
واقول له

«سبحان الله . ربنا حكمته بالغة . يتحول
واحد كافر زيك الى داعية للاسلام» .

يضحك بمتعة حقيقية فقد كانت تناقضات
الحياة تستهويه وتنعش روحه كما ينتعش
النبات بالماء . يقول

«تصور واحد زيك يتجوز واحدة من الاشراف .
وانتو المسلمين اولاد المسلمين اللي متجوز
انجليزية واللي متجوز سويسرية واللي متجوز
مش عارف ايه» .

زارته ايضا سيدة مصرية مع زوجها
الاستراني . وقد حكى لي «منسي» انه كان يعرفها ويعرف عائلتها ايام كان طالبا في
جامعة الاسكندرية وانه لم يرها منذ ثلاثين عاما . تذكر ايامها في الاسكندرية .
والسيدة تضحك بسعادة . وهو يسألها عن افراد عائلتها . ماذا حدث للفلان
واين فلانة الآن . والزوج بيتسم . والزوجة تقول لزوجها :

«هذا هو مايكل الذي طلنا حدثتك عنه . كان يحبني ويريد ان يتزوجني .
اليس كذلك يا مايكل ؟»

والقول له باللغة العربية :

«انت حترجع مايكل ثاني والا ايه ؟ مش خلاص اسلمت وبلى اسمك احمد ؟»
يظل يضحك . فقد كانت سيدني جميلة في تلك الايام . وكان هو في احسن
حالاته . وقد عاد الزمن ثلاثين عاما الى الوراء . ومذايقهم ان كان اسمه «مايكل» .
او «احمد» .

ذلك لم يمنعه من ان يدعو كل اولئك الاصدقاء القدامى الذين اكتشفهم في
سيدني . على حسابي . كان يدعوهم للغداء او العشاء ويوقع الفاتورة على رقم
غرفتي . وقد اسعده ذلك سعادة هائلة . وظل يحكي القصة بعد ذلك مرارا
وتكرارا ويضحك كل مرة بالطريقة نفسها . فلم يكن احب اليه من ان يبرهن على
انه «حقي» وانني «مغل» .

بتلك الطريقة . اصبح «منسي» شخصية معروفة في كل منطقة جنوب غربي
لندن بل وابعد من ذلك . كان معروفا في «دوست كنزنجتن» و«ايرلز كورت» .
«ساوث كنزنجتن» و«تشلسي» و«سلون» و«بلجرافيا» و«ماي فير» . يعرف بلانسي
الخضار والجزائريين واصحاب المطاعم والحانات والمقاهي . والاطباء والمرضات
في المستشفيات . ورجال الشرطة والعمال والعمالات في المحلات التجارية
واصحاب محلات البقالة والممثلين والممثلات واعضاء في البرلمان واساتذة في
الجامعة ورجال دين واصنافا لا تحصى من البشر . ولم تكن معرفة سطحية .
كانوا جميعا اصدقاء يزورونه في داره ويوزورهم في دورهم . طائفة هائلة نادرة
المثل . طائفة «نابوليونية» كما كان يقول . وسيارة مثل فقاصة الصليبون وتسمى
«الفقاصة» (Bubble Car) ظهرت لفترة قصيرة تلك الايام ثم اختفت . كانت له
«عجلة» اول مجيئه الى لندن . وبعد ان تزوج وانتقل الى «سيدني ستريت» .
وتحسنتم احواله نسبيا . اشترى تلك السيارة العجيبة . كانت اكون معه احيانا
فنتحشر في عز الزحام في بيكاديلي بين حائلتين من باصات لندن الحمر الضخمة
ذوات الطابقين . يثير منظر تلك السيارة القبيحة المكورة بسقفها الزجاجي ونحن
قابعان في جوها . سخريه الركاب من وراء ومن امام . ويتحول ميدان
«بيكاديلي» الى سيرك . الناس يهتفون والسيارات ترمز . ونحن جيبسان في تلك
الفقاصة . و«منسي» يضحك ويضحك ويضحك ■

للحديث بقية .

نحو أفق بعيد

١٩



يكتبها: الطيب صالح

لكن «منسي» لم يكن يستطيع، فالحياة شيء والفن شيء، والأولوية قد تصلح في الحياة، ولكنها لا تصلح في الفن أبداً. في الحياة، يمثل بالسليقة، وكان قوي غير مرئية تسنده، يجازف، ويتخطى الحواجز، ويذهب أبعد مما يجب، تماماً كما يفعل الشعراء الموهوبون. ولو أنه رضي بذلك الدور الذي هيأته الحياة له، لعله كان ينجز أكثر مما أنجز بكثير. وأما لا أشك، أنه كان في متناول يديه لو أراد، أن يصبح من أساطين التجارة والمال. لكن «منسي» كان يريد أن يحيا وأن يكتب وأن يمثل، وهو في كل شيء، أن يضحك. كانت تلك متعته الحقيقية، أن يحول أحداث حياته إلى مادة للضحك. ولم تكن تراه أسعد حالاً منه وهو يتصدر مجلساً والناس منجذبون إليه وهو يحكي لهم بعض ما حدث له. ذلك كان مسرحه الحقيقي ويستحسن أن يوجد شخص، مثل، يكون شارك في تلك الأحداث، لكي يذكره ويذكره جذوة حماسه. أحك لهم يا طيب لما سافرنا لبيروت، حصل إيه في المطار.

هذا معناه أنه يريد أن يحكي هو القصة، فأعطيه طرف الخط، وأضيف شيئاً من حين لآخر، وأوجه الوجهة التي يريد بها بالفعل. لذلك لم أضيف إلى أنني كنت «أبا روحياً» له، فقد كنت ألوم بدور الممثل المساند في العروض الكوميديّة، كما عند «لوريل وهاردي»، و«موركم ووايز». تجد شخصين في هذا النوع من الكوميديا، بينهما تباين واضح جسمياً وقلبياً فالنحيل إزاء السمين والطويل إزاء القصير. واحد ذكي واسع الخيلة يخرج من المشاكل مثل الشعرة من العجين، والثاني «أهبل»، يتعثر ببقع ولا يدري أين الباب فيخبط رأسه في الحائط، وهو الذي تقع على رأسه المشكلة. عموماً هذا كان دوري، وأعترف أنه دور فمت به طائفاً مختاراً وعن أدراكك تلم، فأني جانب مودتي العميقة له، فقد كان «منسي» ظاهرة فريدة، ظللت أسأله وأراقبه بحيرة ودهشة وضيق في بعض الأحيان ومتعة بصحته في أحيان كثيرة. لقد كان مثلي في هذا كل أصدقائه الحميمين، ولكن لعلمي كنت الوحيد بينهم الذي قبله على علانيته وأخذه مأخذ الجد. إنما «منسي» نفسه لم يأخذ الدور الذي هيأته الحياة له مأخذ الجد، وأراد أن يلعب أدواراً لم يكن مهياً لها. وكان حين يخطئ في الحياة يخطئ لأنه يتصرف كـ «فنان» في ذلك الفن الحقيقي الموهوم، فيصبح مثل ممثل على المسرح ينسى دوره ويتعلم ويفقد حسنة التوقيت والقدرة على الاستجابة لذلك اكتفى بمضعة ملايين بدلاً من مليارات، وبغص واحد بدلاً من قصور وبخوت وطلنرات خاصة وبنوك وشركات. والآن، وقد مات فجأة مثل حصن سابق كما ولما يبلغ نهاية الشوط أعود فأقول، أنه كان حكيماً بل زاهداً بدرجة ما، فعندما يصير الإنسان بعد الموت أنه لم يترك وراءه شيئاً، وماذا يجدي أنه ترك مليوناً أو ملياراً؟

كان يكتب تمثيليات لا قيمة لها ثقيل بعضها ونرفض أغلبها. وأذكر أنه كتب مرة تمثيلية عن رجل صاف رجلاتهم أن ينتحز بالقاء نفسه في النهر من الجسر. فأخذ يحاوره إلى أن اقتعه بعدم الانتحار. ذهب الثاني إلى حال سبيله، وانتحز الأول بان الذي بنفسه في النهر. كان «منسي» سعيداً بها، ولكنني حين قرأتها وجدتها ميتة ليس فيها حياة، وكان مثلاً ثائراً وأضحا بالكتائب المسرحي الكبير «ساميول بكت»، دون أي شيء قريب من فكر «بكت»، وأعماقه الفلسفية. لذلك رفضتها. وعجبت حين علمت فيما بعد، أن منسي عرضها مترجمة إلى اللغة الإنجليزية، على «ساميول بكت» شخصياً، وأن ذلك الكاتب العملاق الذي أحدث فتحاً حقيقياً في المسرح العالمي بمسرحيته «في انتظار غودو» قد قرأها بلعناً وتلأث «منسي» عنها باهتمام، وأنه أثنى عليها وقال له

هذا عمل جميل ملأت للنظر.

للحديث بقية.

كان باب شقنا في «شيرلوبليس» قبالة متحف فكتوريا والبورت، يفتح على المسر الذي يؤدي إلى الدار الفاخرة التي تسكنها «مارفو فونتين» فنانة الباليه الشهيرة مع زوجها سفير بنما. كانت شقة واسعة تحت الأرض Basement تقاسمتها مع صلاح أحمد محمد صلاح، ولما عاد إلى السودان تركها لي، فسكن معي محمد إبراهيم الشوش. كان صاحب الدار، «مستر بومبيرج» وهو أخو الرسام المعروف «ديفد بومبيرج»، يزورنا أحياناً أو آخر المساء مع زوجته، وتتحدث في الفن والشعر والأدب والمسرح والسليسة، وما شئت من أحاديث يسوقها شرح الشباب وهدوء الليل والفتح الشهية للحياة. لم أشتري الشقة لسوء الحظ كما نصحتني «مستر بومبيرج» بذلك الثمن القليل الذي عرضه أكراماً لتلك الاسماء. وكان ذلك واحداً من القرارات الكثيرة الخاطئة والفرص الضائعة. والآن وقد أخذ العمر يتقاصر ويستحيل ظل الماضي، انظر إلى الوراء فأرى تلك الأخطاء تترتب باعنائها كالجبال عند خط الأفق. يضحك «منسي» ويقول لي «أنت حافل مغل». أراي تضيق فرصة زي دي؟ ولعله كان على حق، فمن غير «مغل»، مثل يدفع فواتير الحساب لرجل مليونير مثل «منسي».

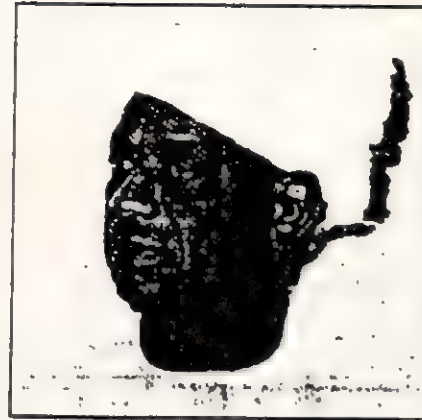
١٩

كنت أرى «مارفو فونتين» وأتة أو غادية في سيارتها الـ «رولز رويس» فتحييني وأحييها على البعد، ولم يخطر على بالي أن أذهب أكثر ولم ألبسها وجهاً لوجه وأتحدث إليها، إلا بعد عامين من سكني جوارها. وكان ذلك في دمشق. أما «منسي»، فما أن أدرك أنها جارتني حتى سارع بالتحرف عليها وعلى زوجها وصار يزورها ويؤرهما ويؤرانه. كذلك تعرف على الممثل الأسترالي المعروف «بيتر فنش»، والممثل الأيرلندي الشهير «بيتر أوتول»، وكنا يسكنان قريباً منه في «تيلسي». كان حي «تيلسي» تلك الأيام محط الرسامين والشعراء والكتّاب والممثلين، ثم ارتفعت أسعار السكن في السبعينات فهاجروا بعيداً إلى شرق وشمال لندن، وبعضهم ذهب إلى الريف. لم يكن عسيراً على «منسي» أن يتوغل في ذلك المجتمع الجذاب، وهو مجتمع منفتح بطبيعته، أقل غموراً من الأتساق الأجنبية، من المجتمعات الإنجليزية الأخرى. وهب أنه لم يكن كذلك، فهل كان الأمر يستعصي على «منسي» أبداً، أنه الآن على أي حال مسلح تسلحاً غير عادي. فهو، بالإضافة إلى جرأته ولغته الإنجليزية المطوعة، يسكن في شارع معروف في حي عريق، ووراءه أصهاره الأملج، ثم زوجته عازقة البيانو المعروفة في الأوساط الموسيقية. العجيب أن «ماري» زوجة «منسي» لم تكن تكتثر بالوسط الفني ولم يكن يبدو على سمته أنها «فنانة». كانت سيدة بيت عادية، تجدها دائماً تكتس أو تغسل أو تطبخ، بينما هو يتصدر المجلس يتدفق في الحديث عن الرسم والشعر والمسرح والموسيقى وما شابه.

عن طريق هذه الصلات الواسعة، حصل على أدوار صغيرة في السينما. كان يهول لنا الأمر، كأنه هو البطل، ثم ذهب ونشاهد الفيلم فإذا «منسي» سائق تكتسي في القاهرة أو «جرسون» في مقل في بيروت، وإذا دوره لا يتجاوز دقيقة أو دقيقتين. ولو كانت عنده أدنى موهبة في التمثيل لعلته تلك الصلات بعيداً، ولكنه كان ممثلاً موهوباً في الحياة فقط. أما في «الفن»، فكان شيئاً آخر. ما أن يقف أمام الميكروفون أو الكاميرا، حتى يصبح فائراً أو يبالغ في الأداء فيبدو سخيفاً. كان جمال الكنانة رحمه الله، وقد كان رئيساً لقسم الدراما في الإذاعة تلك الأيام، يحبه ويعطيه دوراً في أي تمثيلية يخرجها، ليستمتع بمعرفته وشتمه. كانوا كلهم يشتمونه يبدؤون حديثهم معه بيا كذا، ويا ابن كذا، يصرخ جمال كناني «يا واد يا ابن... أنت طول الوقت عمل تقنط وتترقص وأول ما يولع النور الأحمر ويبدأ التسجيل تنهد. الله يخرب بيتك. ما تحط شوية من الأونطة دي في الشغل».

نحو أفق بعيد

٢٠



يكتبها: الطيب صالح

كان العرب في ذلك الاجتماع مجمعين على نصرته القضية الفلسطينية وتأييد كفاح الجرائر الذي كان قد أبلغ وحان قطافه . ومختلفين على كل ما عداهما . لكنني كنت غرض الأهل جدا . وكذلك العالم العربي . ومصر وسورية متحدتين . ودمشق . الفيحاء . فيحاء بحق وحقيق . والقاهرة . الظاهرة تصنع احلاما تبدو كلها قريبة . المنال . صلاح جاهين يكتب وام كلثوم تغني . وعبد الوهاب . وصباح تتهل . كأنها تصدق ما تقول . أنا عارفة السكة لوحيدة . من الموسكي لسوق الحميدية . مسكين سوق الحميدية . كان تلك الايام حول الجامع الاموي العتيق . كما كان على ايام هشام بن عبد الملك . لم يكونوا قد ازالوا بعد . ذلك الماضي السحيق العريق ولم يشقوا طرق الاسفلت . ولبنان كأنه في حلم جميل لن ينتهي . المال يتدفق من كل الجهات . كما قال الشاعر القطري . البيب فاض ومصب السيل لبنان . والمصارف لا تدري اين تضع

«البيرتات» . والميرة مثل الذهب . والمطاعم والمراقص والملاهي غاصة بالخلق من مغيب الشمس حتى مطلع الفجر . ونساء بيروت على طول الساحل يستقبلن شمس البحر المتوسط وكان ذلك الزمان الرغد سوف يدوم الى الابد . كان اخونا نزار قباني يكتب شعرا يبكي العذاري في خدورهن ويجعل العجايز يتحسرن على شبابهن . وقال بيتين سار بهما الركبان

فعد لسي زنتك
اني هنا عندك

ايهلول للمضم
هل اخبروا امي

اهيا صفا . ما اقسى ما عبثت بي وبكم الحياة منذ ذلك العهد ! اجل كانوا احفيا بي حقا . ارسلوني لغترات طويلة الى مكتبهم في بيروت . وكانت تلك ميزة لا ينالها الا اصحاب الخطوة . وحاضرت في معهد التدريب عدة مرات . وكان مستر ووترفيلد رئيسنا الاعلى يقول لي ضاحكا :

«انهم دعوني مرة واحدة ثم لم يدعوني بعدها . لماذا انت دعوك مرة وثانية وثالثة ؟»

كان نصيبي من السفر في مهمات رسمية اكثر من غيري . وكان كلما يجد امر يضفي بريقا ويزيد من الحسنات التي تسجل في التقارير السنوية . يقولون «فلان» في اغلب الاحيان .

لا عجب اذا انني كنت مغتبطا بوضعي . راضيا عن نفسي . ارى الدنيا مثل حسناء مرغوبة تدعوها فتستجيب .

وبينا انا كذلك . اذا بمنسي . رحمه الله وغفر له . يعرض لي كما عرض ابليس لادم عليه السلام في الفردوس ■

للحديث بقية .

لولا «منسي» رحمه الله وغفر له . لعل الرياح كانت تمضي بي رخاء في عملي في هيئة الاذاعة البريطانية . كنت سعيدا . مرضيا عني . يضرب بي المثل . وقد رفعوني الى رتبة مساعد رئيس قسم ولما ابلغ الثلاثين . وكان ذلك امرا عزيزا تلك الايام . اصبحت احضر اجتماعات رؤساء الاقسام . وفي مكتب مستقل وسكرتيرة . شاهدت حفل تتويج الملكة من داخل بيعة «وستمنستر ابي» مع علية القوم الذين دعوا لتلك المناسبة من الشرق والغرب . وبعدها جالست رؤساء وزراء في الحفل الذي اقيم في «وستمنستر هول» . صحيح ان الزى الذي ارتديته لتلك المناسبة . كان «عاري» . مستاجرا من محلات «موس برذرز» في «كوفنت غاردن» . سترة سوداء ذات ذيل تجعلك تبدو مثل طائر البطريق . وقبعة طويلة وباقة منشاة . وصحيح انني بعد ان انتهت الحفل وانفض السامر . جاءت السيارات الفاخرة تحمل اولئك الرؤساء

والوزراء . اما انا فقد سرت على قدمي الى محطة القطار الذي يسير تحت الارض . وكان القطار مزدحما . فظلت واقفا والناس يعجبون مني وانا في زي الوجهاء ووضع الدهماء . ذلك وضع كان اليق بمنسي . اذن لاستغله احسن استغلال وحوله الى قصة اخرى تروي . لكنني على اي حال تمتعت بذلك العالم السحري في ذلك اليوم القصير . وما كنت اعلم ان الحياة كانت تعابثني مثل امرأة لعب . كما ظلت تفعل . لانها كانت تراودني لامر لم يكن يخطر لي على البال .

كذلك كنت اول عربي يرسلونه الى نيويورك لاستغطية . اجتماعات الجمعية العامة للأمم المتحدة . ذلك الحدث المشهود الذي امة معظم زعماء العالم . وكنت شاهدا حين خلع نيكيتا خروشوف حذاه . وضرب به المائدة احتقارا . ورئيس وزراء بريطانيا واقفا يخطب . رابت اعضاء نيجيريا يدخلون القاعة في ثيابهم الفضفاضة . والدنيا لا تسعهم من الفرح . يتقدمهم ذلك الرجل الوقور سير ابو بكر تافوا بلبوه . كانت نيجيريا قد استقلت توها وقبلوها عضوا في منظمة الامم المتحدة . ذبحوه ذبحا بعد ذلك . كما ذبحوا احمدو بللو السردوانا الجليل في هوجة من هوجات الجند التي يسمنونها ثورات . وكنت شاهدا حين اعلن داج همرشولد الامين العام للأمم المتحدة انه لن يستقبل كما طالب الاتحاد السوفييتي . مرت الاعوام ولعبت الولايات المتحدة الدور نفسه ازاء صاحبنا احمد مختار امبو مدير عام منظمة اليونسكو . يومذاك في نيويورك شن خروشوف حربا شرسة ضد همرشولد واتهمه بانه ذيل الغرب وانه مسؤول عن مقتل باتريس لومومبا وكل الناس التي حدثت في الكونغو . واذكر جملة قالها همرشولد في خطابه القصير الذي اعلن فيه انه باق في منصبه . قال موجها حديثه لزعماء دول العالم الثالث «هذه المنظمة لم تقم لخدمة الدول الكبرى . انها انشئت لخدمتكم انتم . فانتم الذين تحتاجون لها لا الدول الكبرى» .

نحو أفق بعيد

٢١



يكتبها: الطبيب صالح

ويعمل محرراً في قسم الاستماع في كفرشام ؟
هذا «الخواجه» أيضاً لم يكن بيني وبينه ود ،
أو على أحسن الفروض كانت علاقة متارحجة
تحسن أحياناً وتسوء في أغلب الأحيان . لم يكن
من «العروبيين» كما كانوا يستوفون ، أمثال مستر
ووترفيلد ومستر هوايتهد ، أولئك الرجال
والنساء الذين عاشوا سنوات شبابه في العالم
العربي ، وتعرفوا على العرب عن قرب وأحبوهم .
كان هذا متخصصاً في الشؤون الألمانية ، رجلاً
متوقد الذهن ورائع تاريخ أكاديمي مشرق . ولكن
يبدو أن أشياء قد حدثت له عكزت عليه صفو
حياته . وقد عمل معظم وقته في أقسام الإذاعات
الموجهة إلى شرق أوروبا ، وهي إذاعات كنا نعدّها
أقرب إلى وزارة الخارجية منها إلى هيئة الإذاعة
البريطانية . وقد كان كفاحنا نحن العرب تلك
الأيام ، يؤيدنا في ذلك مستر ووترفيلد ومستر
هوايتهد ، منصفاً على أبعاد القسم العربي من
نفوذ وزارة الخارجية ، وجعله خدمة إذاعية
حقيقية . كان انشغالنا متناقضاً مستفزاً يستدرك
إلى التناقض ، فلذا انسلت له وعبرت عن رأيك
بصراحة ، فجاء قلبك لك ظهر الخجل . ولكن يرمز

دخلت مكتب مستر ووترفيلد فإذا
هو ومساعداه ومعهما مراقب الإدارة
للإذاعات الخارجية . كان رجلاً مبهوب
الجنب ، لا يظهر عندها إلا إذا طرا أمر جليل . ولم
يكن بيني وبينه ود ، فقد كان يعتقد أنني مدلل
أكثر مما يجب وأنني لا أعيا كثيراً بالنظم
الإدارية . لم يهش مستر ووترفيلد في وجهي
كعادته ، وأشار إلي بالجلوس . نظر إلى مراقب
الإدارة نظرة صارمة من وراء نظارته السمكية ،
ولم يمهلي طويلاً ، ولكنه تاولني في صمت رزمة
من الأوراق . قلبتها وأنا لا أعلم حقيقة الأمر ، فإذا
هي جميعاً أوامر دفع باسم مستر «بسطوروس» ،
نظير اشتراكه في عدد من البرامج ، وكلها مهمورة
بتوقيعي . لم يلفت انتباهي فيها شيء فاعدتها
إليه ، أعطاني أنها مرة أخرى وقال لي
«تفحص الأوراق جيداً» .

درستها على مهل ، وأنا أعمل فكري محاولاً أن
أجد تفسيراً لهذه المحاكمة . كان من الواضح أنها
محكمة إدارية وأن أمراً خطيراً قد حدث ، فإلى
جانب وجود ذلك الموظف الكبير ، كانت في ركن
المكتب سكرتيرة تسجل ما يدور . أيضاً لم لاحظ

أي شيء غير عادي ، ولما فرغت رفعت رأسي ونظرت إليه نظرة لا بد أنها نمت
عن أحسن تجاهه ، فقد سارع مستر ووترفيلد ، وقد كنت كريماً معي دائماً ،
وابتسم لي ابتسامة خفيفة جداً كأنه يقول لي «طول بالك» . كان مستر
ووترفيلد كما حدثتكم في مكان آخر ، كاتباً ، وكان منصب رئيس الإذاعة
العربية أقل منه بكثير ، وكان في قرارة نفسه يحتقر البيروقراطيين وبضيق
بالترتم الإدارية . وقد خاض معارك عدة ضد هذا الرجل بالذات .
قال لي مراقب الإدارة بصوت بارد ، كما يكون صوت الإنجليزي بارداً حين
يخلو من الود :

«هذه التوقيعات هي توقيعاتك . ليس كذلك ؟» .

«نعم» .

«هل درست الأوراق جيداً ؟» .

«نعم» .

«الم تلاحظ أي شيء غير عادي ؟» .

«ماذا أقصد أي شيء غير عادي ؟» .

«الأجور المطلوب دفعها مثلاً» .

«مالها الأجور المطلوب دفعها ؟» .

«كم تدفعون لممثل من الدرجة (الف) على تمثيلية طولها نصف ساعة ؟» .

«تدفع كذا» .

«وإذا كان موظفاً في هيئة الإذاعة البريطانية ؟» .

«تدفع له ثلث الأجر» .

«انظر إلى الأجور التي دفعت لمستر بسطوروس على مدى ..» .

قال هذا ، وتاولني الأوراق . نظرت فيها فإذا هي أجور كاملة .

«هل كنت تعلم أن مستر بسطوروس أو مستر مابل كل منهما كان اسمه
موظف في هيئة الإذاعة البريطانية ويعمل محرراً في قسم الاستماع للإذاعات
الأجنبية في كفرشام ؟» .

صمت وقد بدأت أفهم جسامته الخطأ الذي وقعت فيه . ومع أنني لعنت
«منسي» في سري ، فأنني لم أفكر طويلاً . فقد كنت غزاً ، وقد أخذتني المرأة
بالإثم . ولعلني قلت لنفسني «أن كان هذا (الخواجه) متعجباً فيوسي أن
أجهل فوق جهل الجاهلينا» . وأسوأ ما يمكن أن يحدث هو أن استقبل وأعود
أدراجي من حيث أتيت وأرتاح من التناقضات ووجع القلب . قلت له ، وقد
استقر عزمي على الاستبسال ، كما يفعل «أولاد العرب» عندما حين يخرب
الأمر .

«نعم» .

التفت إلى مستر .. مساعد رئيس القسم فجأة . واعد على السؤال بلؤم
وبطء .

«هل كنت تعلم أن مستر بسطوروس موظف في هيئة الإذاعة البريطانية

أنه مفكر متحرر ، ويقول لكل من يقابله من الزوار العرب :

«أنا رجل راديكالي الفكر ، انتمي إلى اليسار المتطرف من حزب العمال» .

«كنت أعقب على قوله :

«مستر .. هذا يدعي أنه متحرر ولكنه في الواقع استعماري امبريالي» .

هذا كان يغيظه . كما قدرت ، وقد ناداني مرة إلى مكتبه وقال لي :

«أنت تخرجني بهذا الكلام» .

والقول له . مستنداً إلى «أصول اللغز» الإنجليزي :

«ولكن يا مستر .. هذه دُعابة . ألا تقبل المزاح ؟ الستم تقولون انكم
تعتزون على سائر الأمم بروح الدعابة ؟» .

أنني أدرك الآن أنني كنت «لا مبالياً» أكثر مما يجب . ربما لأنني كنت أعي
تناقض وضعي . خاصة في سنوات الغليان القومي تلك في العالم العربي ،
وكانما كل نجاح أحرزه في عمل مع الانجليز ، يزيد وضعي تعقيداً ، وكانني
كمن يهدم اليوم بيديه ما بناء بالأس . وذلك سلوك لم يكن يقدره أو يحتمله
الأرجل «كبار» حقيقية ، أمثال مستر ووترفيلد ومستر هوايتهد .
قلت له .

«نعم» .

نظر بعضهم إلى بعض بطريقة لم أفهم مغزاها إلا فيما بعد .

سألني مراقب الإدارة وهو يتصنع الرفق ، وقد حق له أن يتصنع الرفق ،
فقد وضعني . كما خجل له . في مازق لا مخرج منه :

«هل كان مستر كثناني يعلم ؟» .

كان جمال الكثناني ، رحمه الله ، العربي الأول في القسم تلك الأيام ،
مستوداً سندا كاملاً من مستر هوايتهد ومستر ووترفيلد . يفعل ما يشاء ولا
يبالي . وكانت كراهية مراقب الإدارة هذا له ربما تفوق كراهيته لي . لذلك ، من
الواضح أنه يريد أن يقتل عصفورين بحجر واحد . قلت له :

«لا أعلم» .

«كيف لا تعلم ؟ أنت مساعد وتقوم مقامه في غيابه ؟ ألم نتحدثاً أبداً في

هذا الموضوع ؟» .

«لا» .

نظر بعضهم إلى بعض كزة أخرى . وقال لي مساعد رئيس القسم بسماحته

المعهود :

«مستر بسطوروس صديقك ، ليس كذلك ؟» .

هنا سارع مستر ووترفيلد إلى تجديتي . نظر إلى مساعدته نظرة صارمة .

وقال له :

«على رشتك يا فلان» ■

(لحديث بقية)



نحو أفق بعيد

٢٢

كيف كان ينبغي كل هذه الاعمال في وقت واحد؟ يتحرك بين أماكن متباعدة مستعملا سيارته الـ «فكاعة» تلك، فبينما تراه في «كفرشام» على بعد ساعة من لندن، اذا هو في أقصى شمال المدينة، ثم اذا هو عندنا في «بش هالوس»، فهناك تراه ولا تراه، وكأنك تدري أين هو وكأنك لا تدري. لا عجب ان كل المسؤولين في القسم انكروا انهم يعلمون. لقد كانوا فعلا لا يعلمون، وكانوا يعلمون في الوقت نفسه. واننا لا نستطيع ان اوفن هل خالفهم حماية لمسي، ام خيل لي انني اعلم بالفعل.

امضيت وقتا وبذلت جهدا بعد ذلك في اصلاح خطئي، ولكن تلك المحبوبة التي غمرتني لم تعد الى سبقي عهدها ابدا، فقد ظلت تلك الحادثة تلاحفني في التقارير السنوية زمنا ليس بالقصير. اما «مسي» فقد خرج كعادته من القضية كلها كما تخرج الشجرة من العجين. وصل بطريقته الى مدير الاذاعات الخارجية، وكان يعتبر الرجل الثاني في ادارة الـ B.B.C. بلسرها، ياتي بعد

المدير العام مباشرة، اقتحم على مستر «تائجي لين» مكتبه دون موعد، ولما عرفه بنفسه، فهقه الرجل بالضحك. قال له، كما روى لنا «مسي»، وهو يفرق في الضحك «انت الرجل الذي ادخل القسم العربي في ورطة كبيرة».

كان «تائجي لين» هذا من الرجال «الكبار» من فصيلة مستر ووترفيلد، ولم يكن اداريا بالمعنى الضيق، ولكنه كان متسامحا حلما واسع الافق. كان رجلا مستنيرا قضى فترة من حياته في مصر. وكان كاتباً مرموقاً له كتاب مهم اسمه «النابوليون» عن الانجليز الذين سبجوا عكس التيار القومي في بريطانيا وايدوا «نابليون بونابرت» في صراعه ضد الانجليز. وقد كان على صلة وثيقة بأوساط الكتاب والفنانين، فاخوه «ديفد لين» المخرج السينمائي المعروف الذي اخرج فيلم «لورانس العرب» ولا بد ان شخصية «مسي» قد استهوت، فقد استماله فعلا الى جانبه ودعاه الى داره وعرفه بزوجه وعياله. وسرعان ما اعيد «مسي» الى عمله في «كفرشام»، وصدر امر للقسم العربي بان يرفعوا الحظر الذي كانوا يفرضونه عليه.

ظل «مسي» على صلة وثيقة به حتى مات. وقد رد له الجميل حين زار مستر «تائجي لين» مصر، وكان «مسي» يعمل وقتها استاذاً في الجامعة الامريكية في القاهرة. سخر كل نفوذه وصلاته الواسعة لخدمته، فاستقبل كانه رئيس وزراء، ورتب له طائرة خاصة حملته وزوجه الى الاقصر واسوان، ورافقه في كل تحركاته في مصر.

انني لم اكن اقبل مستر «تائجي لين» الا مرة واحدة في العام، حين كان يقرأ علي التقرير السنوي وكان حين يصل الى الجملة التي ظلت تتردد في التقارير على مدى سنوات، ولكن عليه ان يعتني اكثر بالمسائل الادارية، يبتسم بلطف كأنه يقول لي:

«لا عليك فانا اعلم مصدر هذه التهمة».

(للحديث بقية)



يكتبها: الطيب صالح

ليتني، غفر الله لي، اكون ولو ممسكا بخطام بعير سيدنا عبد الله بن عمر، رضي الله عنهما ذكروا ان رجلا سبه في الطريق، فلم يرد عليه وظل سائرا والرجل يتبعه ويسبه. فلما وصل سيدنا عبد الله بن عمر الى داره التفت الى الرجل وقال له: «يا هذا، انا وعاصم اخي لا نשב الناس». واكثر ما يهزني في هذه القصة انه قال «انا وعاصم اخي» ولك ان تتخيل انه لم يرد ان ينفرد بالفضل، او انه ذكر اخاه في ذلك السياق لغرط محبته له، وكأنه معه، يستحضره في جميع احواله. وعاصم هذا كما نعلم هو جد عمر بن عبد العزيز لأمه، من تلك الاعرابية التي ابت أن تغش اللبن وقالت لامها «ان كان عمر لا يرانا فان الله يرانا». فرأى عمر بن الخطاب رضي الله عنه بفراسته ما رآى، فزوجها من ابنه وجاء من ذريتهما اشج بن مروان، الذي اوسق الدنيا عدلا، زمنا قصيرا ليته طال، الى ان مات او قتل. تلك ذرية بعضها من بعض.

ذلك لان من حسناتي القليلة، عفا الله عني، انني لست شتاما ولا صخابا في الاسواق. بيد ان «مسي» يومئذ، اخرجني عن طوري. لقد قطع علي طريقتي. وظهر فجأة مثل الشيطان ليفسد علي ذلك الحلم الجميل. هانذا الان منهم بالتقصير الاداري وهو تقصير واضح لا مراء فيه. لكنه محتمل، الذي لا يحتمل هو انني منهم في امانتي وقد كنت اظنها فوق الشبهات.

«مستر بيسطاوروس صديقك، اليس كذلك؟».

هكذا قال مساعد المدير، ومع ان مستر ووترفيلد الكريم هب لنجديتي، فان الضرر قد وقع والكلام قد قيل ان حقا وان كذبا. بل ان الامر كان اكثر فداحة، فقد علمت فيما بعد انهم استجوبوا قبلي، جمال الكنانسي رئيس القسم، وكان رغم نضجه وتجربته الطويلة قد وقع في الخطأ نفسه. قال انه لم يكن يعلم ان «مسي» موظف في قسم آخر في هيئة الاذاعة البريطانية. كل المسؤولين في القسم انكروا انهم يعلمون، وهذا يعني انني خرجت على اجماع المسؤولين في القسم فاغضبهم ذلك، وقبلت تهمة التقصير، ووضعت نفسي في وضع مريب.

لذلك خرجت عن طوري، وشتمت «مسي»، انني ما اعانني عليه طبعي. لكنه لم يأخذ الامر مأخذ الجد، واعتبره نكتة وشطارة و «شغل خلبسه». لقد أربك كعادته، جهازا اداريا ضخما منظما تنظيما دقيقا. كانت اوامر الدفع تذهب من عندنا الى الوحدة الادارية في القسم للتدقيق والمراجعة، وهي بدورها ترسلها الى القسم الاداري للاذاعات الخارجية ومن ثم تذهب الى الجهاز الاداري المركزي. كان «مسي» رجحه الله، يعمل في قسم الاستماع باسم «مايكل»، ويعمل معنا باسم «بيسطاوروس». وفي الوقت نفسه يعمل مدرسا للغة الانجليزية في مدرسة ثانوية باسم «جوزف». وظل هكذا قرابة ثلاث سنوات، وكل اولئك الاداريين يدققون ويحسبون ويراجعون، ولا احد يدري، الى ان اكتشف بالصدفة المحضة بعد ذلك، حين كان يسترجع هذه القصة كان اكثر ما يطربه فيها انه كان يعلم الانجليز لغتهم.



نحو أفق بعيد

٢٢

هذه السيدة من الناس الاخيار الذين صادفتهم في رحلة الحياة. تعرفت بها عام ١٩٥٤ او نحوه بواسطة «منسي». كانت تعمل رئيسة لقسم النصوص في الاذاعات الداخلية في هيئة الاذاعة البريطانية. فكتشف «منسي» وجودها فوراً، وكانت قد درست اللغة الانجليزية في جامعة الاسكندرية. واذا كنت انا قد قمت بدور «الاب الروحي» له فان هذه السيدة كانت له بمثابة الام. كانت علاقة مؤثرة حقاً. يكون «منسي» على سجيته تماماً معها. يضحك كالطفل. ويقص عليها كل ترهات حياته. وهي تضحك. ولا تجد غرابة في كل ما يقوله او يفعله. وكان «منسي» على صلة دائمة بها. يكلمها بالتلفون حينما كان، ويمر عليها في باريس في كل سفراته ليقضي اليوم واليومين.

تخرجت باربرا من جامعة كامبردج واخر الاربعينات حيث درست الادب الانجليزي. وعملت فترة هي وزوجها، محاضرين في جامعة الاسكندرية. وقد مات زوجها. وكان

شاعراً موهوباً في حادث سيارة في اليونان. وترك لها طفلتين عكفت على تربيتهما، فنشأتا نابغتين، فدرست الكبرى اللغة الصينية وهي الآن من العلماء المعدودين في ميدان الدراسات الصينية. وتخصصت الصغرى في اللغة العربية ونبغت فيها. وربما يعود اغلب الفضل الى «باربرا براي» في اكتشاف الاسماء التي اصبح لها فيما بعد شأن كبير في المسرح الانجليزي. امثال هارولد بينترو وجون ازدن وجون اوزبورن فقد استغلت نفوذها كرئيسة لقسم النصوص في الترويج لاعمالهم واخرجت بعضها للاذاعة في البرنامج الثالث. واليها ايضا يعود الفضل في ذبوع شهرة «ساميول بكت» في انجلترا. كان «بكت» معروفاً في القارة الاوروبية وخاصة في فرنسا. فهو يكتب باللغة الفرنسية بالجودة نفسها التي يكتب بها بالانجليزية. لقد احبه اللان لانهم وجدوا في القتامة الموحشة التي تشيع في اعماله شيئاً صافاً مزوفاً في طبعهم. واحبه الفرنسيون لانهم اعجبوا بجراته اللغوية. واغوتهم موهبته. وهي موهبة يمتاز بها الكتاب الايرلنديون عموماً. في خلط الجد بالهزل ودفع الاشياء الى ما وراء حدود المعقول. اما الانجليز الانجلوسكسون فقد انتظروا الى اوائل الخمسينات الى ان قبض لـ «بكت». اناس امثال «باربرا براي» يفتحون عيونهم على ابعاد عبقرية هذا الكاتب الغد.



يكتبها: الطبيب صالح

الفتح «منسي» بصخبه وضوضائه عالم «ساميول بكت» الهاديء المنعزل وكانت وسيلته الى ذلك. مسر باربرا براي. هذا الكاتب صاحب المسرحيات والروايات التي اصبحت معالم في مسيرة الادب العالمي. يعيش في فرنسا منذ سنوات. لا يقابل الا نغراً قليلاً من الحواريين والاصدقاء. ولا يتحدث للصحف ولا يظهر على شاشات التلفزيون. وحين فاز بجائزة نوبل قال مذكوراً «الآن حلت اللعنة» واختفى زمناً الى ان هدأت الضجة. وقد خطر لي منذ اعوام ان اعمل معه مقابلة لمجلة حوار التي كان يحرقها المرحوم توفيق صليخ وطلبت من مسر باربرا براي ان ترتب لي لقاء معه. قالت لي:-

«سوف ارتب لك اللقاء. ولكن حين تقابل «سام» سوف تدرك انه يجب عليك الاتصر على اجراء حديث صحفي معه».

سالتها عن السبب فقالت:-

«سام رجل قديس. منطو على نفسه

والهكاره. لا يفهم امور الدنيا ولا يحفل بها. ويريد ان يترك وشائه.. قدرت رغبته ولم احاول بعد ذلك مقابلة «ساميول بكت».

قد يبدو هذا العزوف عن الناس غريباً من كاتب تقوم اعماله على صعوبة التواصل بين البشر والعزلة الحتمية التي تلازم الكاتب البشري مثل اللعنة في رحلته القصيرة في الحياة. هل لانه نشأ كاثوليكياً في ايرلندة ثم ابتعد عن الحظيرة؟ ام لانه صاحب عن قرب الكاتب الايرلندي العملاق «جيمس جويس» مؤلف «يوليسيس» الكاتب الذي ربما احدث الثورة الوحيدة في دنيا الادب في القرن العشرين؟ لقد اخذ «ساميول بكت» عن «جويس» عنايته باللغة والذهاب بها كل مذهب. وكذلك نظرتة العنيفة للحياة. لكنه خرج عن طوق استاذة وشق لنفسه طريقاً طريفاً نسيج وحده. وقدم رؤياً ادبية مريبة يبدو فيها الانسان كانه في صحراء يباب في ليل كوني حالك السواد. بلانصير ولا معين. هذا كاتب عنده فترات الصمت بين الجمل اهم من الجمل نفسها. لذلك فهو لا يعطي مسرحياته الا لخرجين ينق بهم. وكثيراً ما يصير على اخراجها بنفسه. وقد ظل في كتاباته يكتف ويحذف ويقلل من الكلمات وي زيد من الصمت حتى نشر مؤخرًا عملاً اسماه «رواية» من صفحة واحدة فقط.

هذا هو العالم الذي اقتحمه «منسي» بلغظه وجلبته ومرجه. عالم على النقيض تماماً من عالمه. ام تراه كان كذلك حقاً؟ وكانت وسيلته «مسر باربرا براي».

(للحديث بقية)



نحو أفق بعيد

٢٤



يكتبها: الطبيب صالح

بل ، انا اعرف ما هو الالم في نظر «باربرا براي» ، وفي نظري انا ايضا . ولكن من يطعم الزوجة والعيال ، ويدفع اقساط المدارس والجامعات ؟ كل هذه الاشياء الصغيرة ، ام الكبيرة ، التي تكبل الانسان بليود يشدد وثاقها يوما بعد يوم . وتجعله يصمت حين يجب عليه ان يصرخ ، ويدعن حين يتحتم عليه ان يرفض . «باربرا براي» ، لا تابه لذلك . لقد استقالت من هيئة الاذاعة البريطانية منذ ثلاثين عاما وهي في قمة النجاح . وليس عندها مصدر دخل . غامرت وحملت طفلتيها وجاءت الى باريس . استاجرت شقة صغيرة في الحي اللاتيني قريبا من «بوليفار سان ميشيل» ، وعلى مرمى حجر من نهر الـ «سين» . ماتزال تعيش فيها الى اليوم . رفضت بثاقا ان تشتري بيتا او شقة بالاقساط كما يفعل كل الناس . «منسي» ، وانا حاولنا اقناعها ولكنها

قالت انها لا تحب ان تمتلك اي شيء . وتحب ان تفارق الدنيا وليس وراءها شيء . اخذت تعيش من كتاباتها في النقد للمصحف الفرنسية والانجليزية . فهي ناقدة متمكنة لها نفوذ وصيت . وترجم من الفرنسية الى الانجليزية . وكثيرون يعتبرونها احسن مترجم في هذا المجال . وقد ترجمت جميع روايات الكاتبة الفرنسية الشهيرة «مارجريت دورا» لا حيا في المال ولكن لان الكاتبة صديقتها . وحين يضيق بها الحال ، تكتب «سيناريوهات» للسينما ، فهي تحترق السينما ، ولا تعتبرها شكلا فنيا محترما . وكان بوسعها ان تجمع مالا وفيرا من كل هذا الجهد . ولكنها لا تحسن تدبير المال ولا تابه له . وتلق دائما فريسة لطعم الناشئين وخداعهم .

دائما تجعلني احس بالخجل من نفسي ، هذه السيدة العجيبة . لا تنتمي لحزب . وليس عندها اي مطمح . وتعطي الحياة اكثر مما تأخذ منها . كأنها تحمل على عاتقها هموم الإنسانية بأسرها . اذا وقع زلزال في الجزائر او فيضاض في السودان او مجاعة في اثيوبيا . يعصر الالم قلبها . كأنها مسؤولة شخصيا عما حدث . ولا تكتفي بذلك بل تجمع التوقيعات وترسل الاحتجاجات . تؤيد كفاح الشعب الفلسطيني وتكره النظام العنصري في جنوب افريقيا . وتمقت التسلسل والظفر حينما يكون . وانا لا اشك انها تحس مأساة جنوب السودان اكثر مما يحسها جون قرنق وبقية هؤلاء الزعماء النجباء . الانكباء الاغبياء . «باربرا براي» تؤمن كما جاء في القرآن الكريم ان من قتل نفسا واحدة بغير حق ، فكأنما قتل الناس جميعا . وهؤلاء عندهم ان يموت مليون ، لا شيء . في سبيل ان يصبح الواد منهم زعيما .

في تلك الليلة شعرت بخجل عميق . قلت لها . وانا اعلم ان كلامي اعرج وحجتي جوفاء :

«انت تعلمين اننا حين ندخل اليونسكو ، كما في كل المنظمات الدولية ، نقسم يميننا ان نكون محايدين ولا نتدخل في شؤون الدول الاعضاء في المنظمة» . كلام فارغ .

اطارت النوم من عيني . وقضيت الليل مسهدا اضرب اخماسا في اسداس .. وذلك اضعف اليمين ■

(للحديث بقية)

حين اعدم الرئيس السابق جعفر محمد نميري ، الرجل الهرم محمود محمد طه رحمه الله ، كلمتني «باربرا براي» في الدوحة من باريس ، آخر الليل . كان صوتها على التلفون غاضبا حادا ، اقرب الى الصراخ . وذلك امر لم اعده منها . فهي عادة هادئة رقيقة مهذبة . قالت لي :

«الآنوي ان تفعل شيئا ؟»
«افعل شيئا بخصوص ماذا ؟»
«الم تسمع الاخبار ؟ الم تسمع بان رئيسكم الهمجي قد اعدم رجلا في الثمانين من عمره ؟ انه امر مخجل حقا . من يصدق ان هذا يحدث في هذا العصر ؟»
صمت وتركنتها تسترسل فماذا اقول لها . لم تهدأ ثائرتها بل ان غضبها ازداد قوة وهي تمضي في الكلام . وحين يطول صمتي تقول لي بعنف :

«هل انت هناك ؟ هل تسمعني ؟»

«نعم يا باربرا ، انا هنا واسمعك جيدا ،

اذن لماذا لا تفعل شيئا ؟»

قلت لها متضاحكا لعني اعيدها الى هدوئها :

«الآن ؟ في هذه الساعة المتأخرة من الليل ؟»

لم تستجب لمحاولتي . وقالت لي بصوت اكثر غضبا :

«انني كنت اتحدث منذ لحظات مع البيت الابيض في واشنطن .

طلبت محادثة الرئيس ريجان . طبعنا انكروا انه موجود . كلمني احد

مساعديه . قلت له كل ما خطر على بالي . قلت له ان دم هذا الرجل

المسكين مغلي في رقبتيكم .

سألته متغلبا :

«ولكن ما دخل الرئيس ريجان بمقتل محمود محمد طه ؟»

«لا تكن غبيا . هل تظن انهم ما كانوا يستطيعون انقاذ لو

ارادوا ؟ هل يستطيع نميري ان يرفض لهم طلبا ؟ اليسوا هم الذين

جاموا به وهم الذين يساعدونه على البقاء في الحكم ؟»

«وماذا قال لك مساعد الرئيس ؟»

«ماذا يمكن ان يقول لي ؟ احد هؤلاء الشبان التلفزيونيين الذين

يسمعونهم تجاوزا مساعدي رئيس . كل عملهم انهم يحملون حقائبه

ويترامسون حوله . لم يظهر عليه انه فهم ما اقول واظنه لا يعلم اين

السودان ومن هو نميري او محمود محمد طه . اخذ اسمي وعنواني

وتلفوني ووعد بان ينقل احتجاجي للرئيس . بعد ان انتهت المكالمة

طلبته فوراً .

قلت لها متضاحكا مرة اخرى :

«انه لشرف عظيم ان تضعيني في كلمة مع رئيس اكبر دولة في

العالم . انا الموظف الغلبان في منظمة اليونسكو» .

تحول سخطها من الرئيس الامريكي الى اليونسكو . فهي تكره

المؤسسات البيروقراطية من حيث هي . فقد استقالت من هيئة الاذاعة

البريطانية وتعاونت فترة قصيرة مع منظمة اليونسكو ثم رفضت

التعامل معها :

«متى تستقبل من هذه المنظمة الجوفاء وتتفرغ لما هو اهم ؟»

«وما هو الالم ؟»

«الاتعرف الى الآن ما هو الالم ؟»



نحو أفق بعيد

٢٥



يكتبها: الطبيب صالح

عبد العزيز علي كتفه. اسماء عبد العزيز على اسم الشيخ عبد العزيز التويجري. فقد احتضنه ورعاه طوال مدة اقامته في الرياض. وقد حكى لنا «منسي» في تلك الليلة كيف انه خرج رابحا ماليا من ذلك الزواج. فقد تكفل الشيخ عبد العزيز بجميع النفقات. وحجز للعروسين جناحا في الهوتيل على حسابه واعطاه مبلغا اضافيا نقدا. وحين جاء وقت الذهاب الى الهوتيل لم يجدوا «منسي» وبحثوا عنه فوجده نائما في غرفة من غرف الدار. وحكى لنا ايضا انه حين اراد ان يطلب العروس من اهلها ضربوا له موعدا. ووصفوا له كيف يصل اليهم. فذهب الى دار اخرى. وظل ينتظر زمنا طويلا الى ان جاء احد اهل البيت فوجده جالسا. ساله من هو وماذا يريد. قال «منسي»:

«أهل أين الجماعة؟»

«أي جماعة؟»

«الله دامش بيت...؟»

كل هذا واصهاره الجدد ينتظرونه في بيت آخر. واخيرا وصلهم وقد كادوا يياسون منه وينفضون. حين جاء وقت دفع الحساب تصدت له «باربرا». دائما اما تدفع هي او ادفع انا؟ «منسي» ينظر اليها وكل منايح. وكان الامر لا يعنيه ليس لانه بخيل. فقد كان كريما جدا بعض الاحيان. ولكن لانه مع انفس معينين كان يضع نفسه في وضع الذي ياخذ ولا يعطي. وكأنه يؤكد محبته بهذه الطريقة. لكنني هذه المرة صممت ان يدفع «منسي» الحساب. قلت لباربرا مستعيرا وصف عبد الرحيم الرفاعي له:

«هذا النخل رجل ثري. جاء الى باريس في سيارة امريكية طويلة عريضة ونزل في هوتيل ذي خمس نجوم. وثمن هذا المعطف من الغراء الذي يلبسه وحده يكفيك شهرا كاملا. لماذا تدفعين او ادفع انا؟ انت وانا فقيران».

قال لي «منسي»:

«يس بلاش غلبة. ادفع او سيب باربرا تدفع».

أخرجت زوجته التي يبدو انها لم تكن عرفت طباعه بعد. قالت له:

«يا احمد ادفع الحساب يا اخي».

قال لها ضاحكا:

«طيب ادفع وامري لله. لو كنت عارف اني «حاتكج» بالفاتورة كنا طلبنا حاجات ارحص».

حين ملت. لم اتنا ان اتصل بـ «باربرا» الا بعد زمن. فقد خلت الا تكون قد سمعت النبا وكنت اعلم وقع ذلك عليها. وجدتها تعلم. وكانت مبتشئة اكثر حتى مما توقعت. قالت لي في نهاية المكالمة:

«طبعا سوف تكتب عن (منسي)».

كنا قد اتفقنا ان نكتب قصة حياته معا. باللغة الانجليزية ثم باللغة العربية».

«كان سيكون كتابا مهما... ورائجا ايضا... «منسي» كان انسانا مهما ونادرا... على طريقته».

«الآن. بعد موته. لا ادري... توجد احداث لا اعرفها... واشياء كان احسن ان يرويها هو. بطريقته... سوف افكر... لعلني اكتب عنه. ولكن بعد حين».

(للحديث بقية)

ذلك الكاتب الكبير. ويا للغرابة. قد وجد في «منسي» انسانا يجذب اهتمامه ويستحق ان يقضى معه الساعة والساعتين. واصبح «منسي» بعد ذلك يشير اليه باسم «سام». كانه صديقه الحميم وكأنه يعرفه منذ سنوات.

ماذا وجد «ساميول بكت» في «منسي» انه يبدو كأنه على طرف نقيض منه. فهذا رجل مترهب قضي حياته يحدق في اغوار ذاته. ويعاني اوجاعا روحية وعقلية مفرطة. كل ذلك يظهر في وجهه الغريب. الحاد التقاطيع المليء الاخاديد. كان الزمن حفر عليه بمعول العينان اللامعتان. نظراتهما مركزة. فيهما خليط من التحدي والذعر. كأنه يحدق في شيء مهول لا يراه احد غيره. لقد حرق الكتاب والشعراء والرسامون والفلاسفة قبله في تلك الهوة واصيبوا بالذعر. بعضهم انتحر. وبعضهم اصيب بالجنون. واخرون لجأوا الى وسائل شتى ليسرّوا عن انفسهم. ولكن هذا رجل فعل ما فعله ابو العلاء الضريع.

فاخذ نفسه بالشدة. وعاش في عزلة متفرغا تماما لهوموه العقلية والروحية و«منسي» كما خيل لي. عاش على سطح الحياة يركض من تجربة ليدخل في تجربة. ولا يلبث طويلا حتى يرى ما تحت السطح. يثرثر ويضحك. وتحيط به اينما ذهب. جلبه وضوضاء. لكن من المؤكد ان «بكت» قضى ايضا من وقته يستمع الى «منسي». ولا بد انه كان مستمعا. فان «منسي» لم يكن يترك لاحد حتى «بكت» فرصة للكلام ومن المؤكد ايضا انه قرا كتلتب «منسي» على علاقتها. ولعله وجد فيها شيئا جذابا. كما يجد كبار الرسامين احيانا اشياء جذابة في رسوم الاطفال. ولعل ذلك الكاتب الذي يزن الكلمات بميزان. اعجب بجرأة انسان يقول. ولا يبالي ما يقول.

من حسن حظ «بكت» ان «منسي» كان يلم بباريس كما يهب الاعصار. فبمكث اليوم واليومين ثم يختفي. ويقضي معظم وقته في الريف فكان «منسي» يصادفه او لا يصادفه. ولكنه كان دائما يقابل «باربرا» بـ «راي». بل انه كان يجيء الى باريس خصيصا لمقابلتها. يكلمها بالتلفون اينما كان من واشنطن او لندن او القاهرة او الرياض. ثم يحل فجأة ودائما يجدها كأنها تنتظره. كما تنتظر الام اوبة طفلها. حين كنت اكون في باريس كنت احضر تلك المقابلات. يكون «منسي» على سجيته تماما يضحك ويثرثر. وهي وانا نستمتع. وانا اؤدي دوري المعتاد كممثل مساعد. اوقف ذاكرته واتم له جملة واعطيه بداية القصة ليستهل هو في روايتها. تستمع لباربرا وعلى وجهها حنو عظيم. تقول وهي تضحك ضحكتها الخجولة المهذبة:

«انت ومنسي يجب ان تشارك في تقديم كوميديا على المسرح».

واقول لها:

«مثل لوريل وهاردي».

ويقول «منسي»:

«او ابوت وكوستيللو».

كل مرة نكتشف معها مطعما جديدا في ذلك الحي من باريس الذي تعرفه كراحة يدها. مطاعم صغيرة. كل منها يتخصص في نوع معين من الطعام رخيصة الاسعار لا يؤمها السواح. آخر مرة اجتمعنا معا كان في مطعم يتخصص في الاسماك والاصداف. قريب من النهر. في الضفة اليسرى. كان «منسي» يصطحب زوجته العربية المسلمة. ويحمل طفله



نحو أفق بعيد

٢٦

والهتاف من الجانب العربي، زادت جراءة على جراته. تكلم بجلل ثقت ولغة انجليزية فصحة. لكنه لم يقل شيئا يجذب الاهتمام وقد حاول ان يغطي جهله بقوله، انه سوف يترك التفاصيل للفريق المساند له.

كل واحد من هؤلاء كان على بيته من امره فتحدثوا كلهم حديثا مبيدا مليئا بالحقائق الدامغة.

ثم اعطى الرئيس الكلمة لريتشارد كروسمان، فخطا نحو المنصة بقلته المديدة، وسطرزبعة من التأييد ضمت كثيرين لم يكونوا مع العرب او اليهود، ولكنهم كانوا يعرفون من هو ريتشارد كروسمان.

تحدث بصوت اجش تميز به، واسلوب جمع فيه بين وقار استاذ سابق في جامعة اوكلسفورد ودهاء سياسي متمرس تعلم الصناعة في مؤتمرات حزب العمال، ولغمار معارك مجلس العموم حيث واجه خصوما ضخما من وزن ونستون تشرشل وانتوني ايدن، ماذا يصنع حلمي حمى العروبة، فارسنا المسكين «منسي» في مواجهة هذا «العلج» الجبار؟ وما فرغ ريتشارد كروسمان، فاكد في ان قضية فلسطين قد خذلت تلك الليلة في تلك الساحة.

بعد ذلك حدث امر عجيب لا اذكر بوضوح كيف حدث، ولكنني اذكر «علج» للصهيونية الجبار، وقد تقلص وصغر، بفتح فمه وبغلظه كانه فقد القدرة على الكلام، وقد احمر وجهه وسال العرق على جبينه، وفارسنا «منسي» قد تحول الى سبع كاسر، يجري غلغيا رائحا من آخر القاعة الى المنصة يشير بيديه، ويسب في خلق الرجل ويكد يضع اصبعه في عينه ويلج في سؤاله: «هل انت بريطاني ام اسرائيلي؟»

يزداد وجه ريتشارد كروسمان احمرارا، وصلحينا «منسي» يرمح كالفزال الى آخر القاعة ثم يعرق كلهم الى المنصة، يعد كرسيه الى امام ومؤخرته الى وراء ويدير عينيه اللتين زائتا انشاعا في القاعة، وقد حلت عليه طلاقة لا ادري من اين جاء بها.

«نحن نعلم انك يهودي... لا اعتراض لنا على ذلك. من حق كل انسان ان يكون كما يشاء... نحن لسنا ضد اليهود... لكن نريد ان نفهم... ولاؤك لمن؟ مع بريطانيا ام مع اسرائيل؟»

لم يكن ريتشارد كروسمان يهوديا حسب علمي ولكنه كان من الواضح ان «منسي» اراد ان يزعزع الثقة في مصداقيته ويمزق ثوب الوقار والاحترام الذي يكسوه. وقد نجح في ذلك تماما، حول المناظرة الى مهزلة وحول خصمه الى شيء يثير الضحك.

ولما عنت الاصوات، انتصر، وبيا للعجب، الاقتراح الذي دافع عنه فارسنا «التعيل»، وهو لا يعرف عن قضية فلسطين اكثر مما يعرف راعي الابل في بلادية كردفان. وكان ذلك النصر دليلا آخر اضله «منسي» الى نخبرته، ان الصديق والمنطق واتباع الاصول، لا تجدي، انما الذي يجدي في الحياة وفي قضية فلسطين وفي كل شيء، هو «الاونطة» و«شغل الحليسة».

لغلت تلك الليلة الانتظار اليه، ومنها نظر الرئيس عبد الناصر الذي ارسلت له السفارة المصرية - حسب رواية منسي - تقريرا مدعما بالصور كيف ان شعبا مصريا «مسح الارض» بلحد جهلذة السباسة في بريطانيا. ولعل ذلك كان صحيحا فقد تلقى «منسي» دعوة لحضور مؤتمر للمفكرين المصريين وبذلك بدأت مرحلة جديدة في حياته. ولكنه قبل ذلك قام بعمل ربما يكون اجرا عمل اقدم عليه وكاد بسببه ان يطرد من بريطانيا ■

(للحديث بقية)



يكتبها: الطيب صالح

في طريقنا الى مقر اتحاد طلبة جامعة لندن، سألني «منسي» عن قضية فلسطين.

كانت جراءة كبيرة من اتحاد الطلبة ان يختار ذلك الموضوع، في تلك الايام العصيبة اوائل الستينات.

«هذا المجلس يوافق على ان تقوم دولة مستقلة للفلسطينيين في فلسطين».

ولا ادري من الذي اختار «منسي» ليكون المدافع الرئيسي عن قضية فلسطين تلك الليلة، في مواجهة خصم قوي شديد المراس. ولكن لانه كان يحب الجدل، ويحب الظهور والضوء فلا بد انه بذل جهدا ليحصل على الدور. كان المتحدث الرئيسي المعارض له، هو مستر ريتشارد كروسمان.

«ريتشارد كروسمان؟ طز. وايه يعني؟» لكن «ريتشارد كروسمان» لم يكن رجلا سهلا، في الواقع، ولو كان المعنى بالامر شخصا اخر غير «منسي» لحسب لمواجهته الف حساب. كان من مفكري اليسار المعنودين. ومن المنظرين الكبار في حزب العمال. عمل استادا في جامعة اوكلسفورد

قبل ان يصبح ثالثا في البرلمان. وقد صار فيما بعد وزيرا ومستشارا اثرا عند هارولد ولسم رئيس الوزراء. ولما ترك الوزارة اصبح رئيسا لتحرير مجلة «نيو ستيتسمان»، الواسعة النفوذ. وكان قد اشترك من قبل في لجنة كونتها الحكومة البريطانية لدراسة اوضاع العرب واليهود في فلسطين ورفع تقرير عن ذلك. وكان منحازا تماما لوجهة النظر الصهيونية.

قال لي «منسي» ونحن في سيارته تلك في طريقنا الى مقر الاتحاد، وقد بقي اقل من ساعة على بدء المناظرة:

«اسمع. قول لي بسرعة ايه حكيية فلسطين دي».

«الله بخيك. تقصد انك سوف تواجه ريتشارد كروسمان وانت لم تستعد؟ الا تعرف من هو ريتشارد كروسمان؟»

«بلاش غلبة. بس انت قول لي بسرعة ايه حكيية وعد بلغفور ومش عارف ايه وشغل الحليسة انا».

«يا ابني دأ مش لعب. هذه مناظرة مهمة جدا... فرصة نادرة لن تتكرر. الله يخرب بيتك. انت مين اختارك لتكون ناطقا باسم العرب؟»

«ما لكش دعوة. بس اديني شوية معلومات وما تخلفش علي. قال ريتشارد كروسمان، طز وايه يعني؟»

انتابني قلق حقيقي. امتلات القاعة بالخلق، والذين لم يجدوا امكان وقفا في الطرقات والردهات، سفراء عرب واجانب، واعضاء في البرلمان وصحفيون ومصوريون، ورايو وتلفزيون. كان واضحا ان كلا من الجانبين، عربا ويهودا قد بذل جهدا كبيرا لحشد الناس. لا غرامة فلن المناظرات التي تعقد في اتحادات الطلبة في الجامعات، خاصة في اوكلسفورد ولندن، لها تأثير ووزن معنوي كبير، ودائما تحظى باهتمام وسائل الاعلام.

لحسن الحظ كان مع «منسي» فريق قوي، كان احدهم، على ما اذكر، «ارسكن شلدريز» الكاتب الصحفي الذي دافع ببسالة عن العرب وقضية فلسطين بالذات، ثم لما ازداد عليه العنف والضعف القى السلاح واختفى من الساحة تماما.

حين خطا «منسي» الى المنصة بقلته القصيرة، وجسمه الذي كانت تتوابعه قد بدأت تتضح من وراء ومن امل هبت في وجهه عاصفة قوية من التشجيع



بقلم الطبيب صالح

عند باب «بوش هاوس» وأنا في طريقني إلى محطة «بادنجتن».. لأخذ القطار إلى أكسفورد. عرض لي «منسي».

«طبيب. رايح فين».

«أكسفورد».

«عندك إيه في أكسفورد».

«بروفيسور توينيني.. يلقي محاضرة.. عن قضية فلسطين».

«برضه فلسطين.. يا أخي خليك في لندن. الويك اند قريب».

«هذه محاضرة مهمة».

«خلاص أجي معاك».

«كنت تلك عادة «منسي».. ضحكت لأنه كان يجديني ذاهبا إلى أي مكان فيقول لي «أجي معاك» وقد رافقتني بالطريقة نفسها إلى الهند وإلى أستراليا».

«يا أخي أنت صايع ما عندك اهل» ما تروح لزوجتك وعيالك».

«بلا زوجة بلا عيال بلا غم.. يا لك بينا».

«كان محظوظا في «ماري» تلك السيدة الطيبة.. تزوج وأنجب.. وعاش كما يحلو له.. كأنه أعزب.. يسافر ويعود ويظهر ويختفي.. وهي في حالها.. كأنه ضيف».

«أحيانا كنت انتبه فجأة أنني لم أراه منذ أسبوعين أو ثلاثة.. فأتصل بداره.. فتد علي «ماري»..

«منسي ليس موجودا».

«أين هو».

«لا أعلم».

«منذ متى».

«منذ أسبوعين».

«ولا تسألينه أين يذهب».

«أنت تعرف «منسي».. هكذا هو.. لكنه يعود دائما».

«قل يذكرها كثيرا بعد أن توفيت في حادث حريق في دارهم في واشنطن.. وكئن يقول أنها قدبسة.. وأشهد أنها كانت شيئا من ذلك».

«قطار بتاع إيه يا شيخ.. تروح بسيارتني».

«لا يا عم.. لا يمكن أروح لحد أكسفورد.. بالعقلة.. بتاعتك دي.. تسمي دي سيارة».

«أنت لسه في زمن الـ «بيل».. يا ابني احنا دلوقت في مرحلة جديدة.. اشتريت سيارة محترمة.. حاجة إبهة».

«أتضح أنها سيارة «نصف عمر».. لا أذكر نوعها اشتراها بطريقته الملتوية.. صاحبه الجزار.. يعرف واحدا.. يعرف صاحب كراج.. يعرف واحدا يتاجر في السيارات المستعملة.. لكنني أحب السفر بالقطار».

«لو كل لي من الأمر شي.. لويمطت العالم العربي كله.. من طنجة إلى مسقط ومن اللاذقية إلى نيالا.. بشبكة من السكك الحديدية مثل قطارات الـ T.G.V. السريعة في فرنسا.. وقطارات الـ Bull في اليابان.. الإنسان الذي كان يسير الشهر والشهرين بالعبر.. من صنعاء إلى مكة.. لحذا كفر فجأة لهذه الوسيلة الجنونية» القطارات مهما بلغت.. تبدو شيئا موقفا محطات السكك الحديدية لها طعم آخر وسحر خاص المحطات الخلوية والمناظر المتنوعة.. تعرف أنك قد قمت من مكان ووصلت إلى مكان.. تنام وتقرأ وتصادف اصنافا من خلق الله.. ليس مثل الطائرة.. تغمض وتفتح فإذا أنت قد انتقلت من حال إلى حال».

«يا لالا بلاش كلام فارغ.. يا لالا يا أخي سيب البطء بتاعتك دا.. أحسن تضيق منّا المحاضرة».

«عكس الآية كعادته.. وتصدر المجلس.. وأصبح كأنه هو الذاهب إلى أكسفورد.. وأنتي مجرد تابع له».

في منتصف الطريق.. قل لي «في واحد صاحبي هنا.. نمر عليه خمس دقائق.. مين».

«واحد من المسؤولين الكبار في شركة آرثر رانك».

«يا أخي خليفنا مواصل.. المحاضرة في السابعة مساء».

«أصلهم ناويين ينتجوا فيلم عن «لورنس».. تعرف مين جيمتل دور «لورنس» الك جنس.. في دور لعربي شاب.. أهم دور بعد «لورنس».. ييفكروا في عمر الشريف.. أنا ناوي الطش الدور.. المخرج جيمكون «ديفيد لين» أخو «تاتجي»..

«تاتجي وعدي يكلم أخوه».

«ضحكت ولم أقل شيئا».

«بتضحك ليه» هو يعني عمر الشريف أحسن مني».

«أبدا.. مين قال عمر الشريف أحسن منك».

«إذا كانت الحكاية أنه بيتكلم انجليزي كويس.. أنا أجدع منه ألف مرة في الانجليزي».

«مؤكد».

«وإذا كانت حكاية تمثيل.. دا حتى سير لورانس اليفيه أعجب بتمثيل».

«عجيب».

«أنت مش مصدق» أنت عارف مين علم لورانس اليفيه أزاوي يمثل شخصية المهدي في فيلم «الخرطوم»».

«أنت».

«أيوه يا سيدي أنا.. الرجال كلن جيجن لما قرأت له من الذاكرة كل المونولوجات بتاع هاملت.. بنفس الطريقة لي هو إذا ما بينا في الفيلم».

«يا ابني سيب الهزار.. الحكاية مش لعب.. الاوضة تنفع في كل شي» إلا في الفن.. أنت تعرف انجليزي كويس وتحفظ مونولوجات هاملت ورثشارد الثالث.. لكك ممثل هائل».

«عمر الشريف ممثل عالي.. وأنت مين» مين سمع بمنسي بسطاووس.. حتى اسمك لا يصلح للسبعا.. وبعدين.. عمر الشريف رجل وسيم وأنت ما شاء الله».

«أنا مش وسيم» البنات بتقول لي أنني أشبه علي خان.. في الاحتفال في قصر بكنجهام الأميرة مارجريت أخذت بي».

«أنت قايملت الأميرة مارجريت».

«الأقايلت الأميرة مارجريت يا أخي ما أنت عارف القصة من طلق للسدم عليك».

«مجرد تذكر تلك الحادثة أسعده جدا فضحك بطريقته».

«أنا أيضا ضحكت.. فقد كنت أعلم أنهم كادوا يطردونه من إنجلترا».

«وجدنا دارا كبيرة تطل على واد جميل.. ورجلا انجليزيا كأنه جاء من عصر آخر.. ومع أننا حللنا عليه على غير موعد فقد فرح حقيقة للقاء «منسي»».

«مايك» يا لها من مفاجأة سارة.. عجيب أنك جئت فقد كنت أفكر فيك».

«قلت أمر عليك.. أنا في طريقني إلى أكسفورد للاستماع إلى محاضرة هامة بليها بروفيسور توينيني.. آه.. نسيت أن أقدم لك مستر صالح.. صديقي.. يعمل مع».

«الـ «بي.بي.سي» (B.B.C.) التفت الرجل لي».

«آه.. أنت إذا تعمل مع مايكل».

«نعم.. مستر.. مايكل من كبار المسؤولين في الـ B.B.C. كما تعلم.. وهو رئيسي المباشر».

«لم يخف «منسي» سروره أنني أؤدي الدور كما يجب.. وكأنه أراد أن يرد لي التحية.. فقل للرجل».

«مستر صالح من المعاونين الأكفاء الذين يعملون معي».

«انصرف الرجل كليا إلى «منسي» وأتضح لي من الحديث لماذا كان يفكر في «منسي».. ولماذا فرح لمقدمه».

للحديث بقية

٢٨ نحو أفق بعيد

تعد رجلك، وتفتح النافذة إذا شئت، وتستنشق هواء الريف الإنجليزي المنعش إذا شئت. تتفطت الحقول على الجانبين، حقول ناعمة يتلالها المنخفضة مثل طينات الثوب، والقرى الانجلوسكسونية بساكنيها الحجرية وسقوفها الأزوازية في قيعان الأودية وسفوح التلال. تركنا الرجل الإنجليزي من شركة «ارثر رانك» واقفا أمام باب داره، يلوح لنا بيده، وفي عيبيه حلم لن يتحقق، كما أن حلم «منسي» في الحصول على دور عمر الشريف في فلم «لورنس العرب» لن يتحقق. كنت قد الممت بطرف من القصة من الحديث بين «منسي» وصاحبه الإنجليزي، وقد أثرت الأسألة الآن ونحن في طريقنا إلى أكسفورد، وإن اتركها تتخضم وتتغير وتتبدل في خياله، كنت أشهد الواقعة معه، ثم يرويها فإذا هي مختلفة تماما عما رايت وسمعت. وجدنا كزار أحمد كزار وحسن بشير في استقبال قال لي كزار وهو ينظر إلى «منسي»:- «من الحلبي ذا آل جبنه معك؟» نسمي اشقاءنا المصريين «حلب»، و«أولاد ريف» بدافع المحبة، وهم يسفوننا أشياء بدافع المحبة. قال «منسي» وكأنه يعرف الرجل من زمن: «أيه يا خوي حلبي دي؟ أنت فاكركني من المصريين بنوع وجه بحري؟» «دا أنا صعيدى من قرايكم...» كان كزار، رحمه الله، سودانيا فحشا، فيه كل فضائل السودانيين الأفحاح، وبعض مساوئهم. كان رجلا «شيخ عرب» كما نقول، حتى في بذلته الأفرنجية، وير أكسفورد، كأنه يتلفع ثوبا ويمسك عصا، ويجلس في ظل شجرة كبيرة وسط قبيلة. عمل في الإدارة منذ عهد الانجليز، فكان مامورا ومفتش مركز، ووصل في العهد الوطني إلى رتبة محافظ وقد عمل مساعدا للمامين العام لمجلس الوزراء في حكومة الصادق المهدي الأولى، وصار وزيرا لشؤون مجلس الوزراء في عهد النعمري. وكان خبيرا بشؤون جنوب السودان. ذلك لأن «منسي» دخل معه بعد ذلك في جدل حاد عن الجنوب وهو لا يعرف عنه إلا كما يعرف في قضية فلسطين. أما حسن بشير، فهو زميلي وصديقي منذ عهد الدراسة، عمل في وزارة المالية، وأصبح مساعدا لمحافظ البنك المركزي. وكان بوسعه أن يذهب أبعد، ولكنه إنسان واضح، لا يحب ألف والدوران، فلم يرق ذلك لأصحاب الشأن ■

للحديث بقية

كان «منسي» يضحك كعادته في أغلب الأحيان، وقد وقف الرجل من شركة «ارثر رانك» عند باب داره، يلوح لنا بيده.

أخذت السيارة إلى الطريق، واعتدلت في سيرها. سيارة «نصف عمر»، أي نعم، وحصل عليها «منسي» الله أعلم كيف، أي نعم. ولكنها سيارة لها نوافذ وأبواب، تصل سرعتها إلى مائتي كيلومتر في الساعة.

حياة «منسي» يمكن أن تقاس، بوجه من الوجوه بأنواع السيارات التي اشتراها، أو هبطت عليه من السماء. في آخر حياته، حين أصبح «سيد ثاتشيري» أو «لورد ثاتشيري»، كما كان يقول، ويسكن في القصر الذي زعم أنه كان استراحة صيد للملك جون، كان يخرج كل صباح في زي الفرسان، ممتطيا صهوة حصانه «سنام»، يمر على قطعان البقر والضأن، ويتفقد اشجار البلوط والصنوبر والتفاح والتوت والغراولة. جاره من ناحية الشرق لورد «مفتباتر»، عم الدوق روج الملكة، أو خاله، وجارته من ناحية الغرب ليدى هذه أو تلك. ثم يصل إلى الاصطبل، يربت تلى رقاب الخيل ويحدثها ويستنشق تلك الرائحة الفريدة التي تنبعث من الخيل في مراحلها. يختم جولته بالكراجات. يفتح الأبواب فإذا السيارات مصطفة كما الخيل في الاصطبل، يتفحصها واحدة واحدة، يرفع الغطاء ويفتح الباب ويدخل، يجلس ويمسك بعجلة القيادة، وينطلق بها وهي ساكنة، في أفلق رحية ولا بد. سيارة الفورد وسيارة الروفر وسيارة البيوك وسيارة الجاكوار وسيارة المرسيدس، ثم أخيرا يصل إلى نهاية المطاف، إلى سيارة... الرولز. يرفع عنها الغطاء كما يرفع النقاب عن وجه العروس الجميلة المشتهاة. يدخل ويملا رنتيه بذلك العطر العجيب. يمسك بعجلة القيادة، ويدبر المحرك ثم يوقفه. يخرج ويقف على حافة حوض السباحة وينظر إلى خياله يتفرق ويتجمع ويطول ويقصر على صفحة الماء. قليلون جدًا هم الناس الذين يمشي الواحد منهم خافيا أو يركب حمرا أو بعيرا وتراد عند الأفق، شامخا كأنه أمير من أمراء الحياة. كان «منسي» قد وصل بالفعل إلى نهاية المطاف، وكأنه فيما يبدو، لم يجد بعد ذلك سببا للبقاء.

لكنني استبق الأحداث نحن الآن في بداية الرحلة. في طريقنا إلى أكسفورد، في سيارة لها نوافذ وأبواب.



بقلم الطبيب صالح

نحو أفق بعيد ٢٩



بقلم الطيب صالح

«فيم الوداع والى أين تذهبين يا شيرلي؟»
نظرت الينا متعجبة برهة، ثم أجابتنا كما أجابت
اليابانية صاحبها المصري:

«فأجابتنى بصوت راغى
وارتنى الظبي لينا أغلبها
نبأوني برحيل عاجل
لا أرى لي بعده منأيا،

قلنا لها:
«ولكن لماذا؟»
نظرت الينا كرة أخرى، بعينين غير ضاحكتين،
وخدين بلا غمازتين، قالت:
«ألا تعرفون أن الحرب قد قامت بين مصر
واسرائيل؟»

قلنا لها، كما قال المصري لصاحبه اليابانية في
القصيدة:

«قلت والالام تغري مهجتي
ويك ما تفعل في الحرب الظفر؟»

قلنا لها:
«وانت ما شأنك بالحرب؟»
قالت:
«أنا جندي في جيش الاحتياط الاسرائيلي، وقد دعيت
للخدمة العسكرية.»

نظر بعضنا الى بعض، ودار بين كل واحد منا وبين
نفسه، وبين كل واحد منا والاخرين حديث طويل في
صمت. هل يعقل أن هذه الفتاة الجميلة اللطيفة تذهب
الى الحرب، وتحمل السلاح، وتحارب مع الاعداء، وتقتل
العرب؟

ثم تحولت الحيرة الى غضب عظيم. على انفسنا، وعلى
شيرلي، وعلى اسرائيل.
كنا في مقتل العمر، عندنا، كما عند الشباب، قدرة
عظيمة على التسامح. وايضا، كما عند الشباب،
استعداد كبير للتضحية والفداء. الا ان احدا لم يطلب
منا فعل اي شيء.

نحن وغيرنا. كثيرون من الشباب العرب ذهبوا الى
السفارة المصرية يعرضون التطوع. قالوا بارك الله
فيكم. حين تدعو الحاجة اليكم سوف نتصل بكم. ولكن
الجيش المصري مسيطر تماما على الموقف.

ثم نظرنا الى شاشات التلفزيون، فإذا الجنود
الاسرائيليون يستحمون في قناة السويس.
صحیح ان الانجليز والفرنسيين اعانوا اسرائيل في
تلك الحرب، عام ٥٦. ولكن الامر نفسه حدث بعد ذلك في
حرب ٦٧.

أما «شيرلي» فانها لم تعد. ولعلها قتلت او قُتلت.
ولعلها اثرت البقاء نهائيا في اسرائيل.

ما اعجب ما كانت تلك الايام. ويا هل ترى، يا رعاك
الله، انتهت بعد الاعاجيب! ■

للحديث بقية

جلسنا في الصف الاول، وكانت القاعة ممتلئة. لا
عجب، فقد كان المحاضر بروفود ارنولد توينبي
اعظم مؤرخي عصره، ثم ان الحدث كان الاول
من نوعه. كانت مناسبة تاريخية اذا صح القول. ذلك لان
كلا من اتحاد الطلبة العرب في جامعة اوكسفورد واتحاد
الطلبة اليهود وجه الدعوة لبروفيسور توينبي لالقاء
محاضرة عن قضية فلسطين، فأجابهم بأنه رجل تقدمت
به السن ولا يقوى على اللقاء محاضرتين، ولكن يسره ان
يلقى محاضرة واحدة على العرب واليهود مجتمعين. قبل
الطلبة اليهود بلا تردد، فقد كانوا كمادة اليهود عموما،
لا يجدون فرصة للتحدث الى العرب الا انتهزوها. اما
العرب فمنهم من رفض ومنهم من تردد.

تغير الحال الان.
في تلك الايام كان الاتصال باليهود وحتى مجرد
التحدث اليهم أمرا يكاد يكون محرما على العربي. كان
أمرا عجيبا تلك الايام، ان ترى عربيا ويهوديا دعيا مع
اخرين في تلفزيون من تلفزيونات اوروبا. يرفض العربي
ان يجلس في غرفة واحدة مع اليهودي، فيجلسونه في
غرفة منفصلة. ويقضون الوقت كله يضيفون الخناق على
العربي، لماذا لا يريد ان يجلس في صعيد واحد مع
اليهودي. ويخرج اليهودي منتصرا دون ان يفعل شيئا.
قليلون جدا من كانت عندهم الشجاعة للتمرد على هذا
الخطر. اما نحن فقد كنا اغوارا ولم تكن نبالي.

نقول:
اليس لنا عقول مثل عقولهم، وحجج اقوى من
حججهم؟

كانت تزامنا في الدراسة في جامعة لندن فتاة انجليزية
من اصل يهودي، اذكر اسمها جيدا رغم طول العهد.
كان اسمها «شيرلي»، وكانت وسيمة الوجه، ضاحكة
العينين، لها غمازتان على خديها، تفعلان الاعاجيب اذا
ضحكت. وكنا خمسة. من مصر والعراق وفلسطين
والمغرب والسودان. دائما تجد شيرلي معنا. تؤثرنا على
غيرنا وتأوي الينا دون سوانا تقول لنا لماذا لا يعيش
العرب واليهود في سلام؟ ونقول لها نعم والله، لماذا لا
يعيشون في سلام! تقول لنا نحن ابنا عمومة واقرب
الناس بعضنا الى بعض. ونقول لها صدقت. العرب ابنا
اسماعيل بن ابراهيم، وانتم ابنا اسحق بن ابراهيم.
اللغة العربية واللغة العبرية متقاربتان الى حد بعيد.

صدقت يا شيرلي. هما متقاربتان الى حد بعيد..
اذا لماذا الحروب واراقة الدماء؟ لماذا اهدار الطاقات
وتبديد المال؟ لماذا لا يفرغ السلام باجنحته على تلك
الربوع؟ ونقول لها يا ليت السلام يفرغ على تلك
الربوع! واصدقكم القول، ان كل واحد منا، كان
مستعدا، لو ترك له الامر، ان يعقد صلحا منفردا مع
«شيرلي».

وذات صباح جأمتنا تسعى، كما سعت اليابانية الى
صاحبها المصري في قصيدة شاعر النيل الشهيرة، قالت
لنا، انه الوداع.

نحو أفق بعيد ٢٠



بقلم الطبيب صالح

وحسن بشير يحضران لدراسات عليا في كلية «سلنت أنتوني».

تحدث «توينبي، حديثا ملينا بالعلم والحكمة وأذكر من بعض ما قاله في تلك الليلة أن قصة العرب واليهود في فلسطين، تشبه الماسي الملحمة الأخرى، إذ شر يقود إلى شر يقود إلى شر في سلسلة لا نهائية لها تحدث طويلا عن الشر الذي حاق باليهود في أوروبا، في روسيا وإيطاليا وفرنسا والمانيا وانجلترا. ذكر مستمعيه أن اليهود كانوا يصلبون في الميادين العامة في إنجلترا حتى القرن الثامن عشر. تحدث عن معاناة اليهود على أيدي النازيين في ألمانيا، وقال أن تلك النشاعة التي لم يسبق لها مثيل في تاريخ الإنسانية، لا يمكن أن تفسر بأنها عمل شخص واحد مختل العقل، هو أدولف هتلر، ولكنها إنم تحمل وزره حضارة أوروبا الغربية بأسرها.

في مقابل ذلك الفاض «توينبي، في الحديث عن التسلمح الذي وجده اليهود من العرب والمسلمين، وخاصة في الأندلس، حيث أطلقت الحضارة العربية الإسلامية العنان لطاقت اليهود، فكان منهم وزراء وسفراء وعلماء وفلاسفة. وتعجب كيف أن شعبا عانى ما عاناه اليهود من عنت واضطهاد، على أيدي الأوروبيين، يلحق الاضطهاد نفسه بقوم لا ذنب لهم فيما حدث. واختتم محاضرته بقوله أن على الغربيين أن يعملوا على كسر هذه الحلقة الشريرة والخروج من ذلك المازق التاريخي، وإلا فلن الأمر سوف ينتهي حتما بكارثة تحيق بالشريعة بأسرها، كما يحدث في الماسي الأخرى. وشاهد اليهود خاصة أن يعملوا الدنر بشجاعة وجسارة لا يجد وسيلة أخرى غير العنف للخروج من ذلك المازق التاريخي.

صفق أكثر الناس مجاملة، لا تأييدا، فقد كان حديث «توينبي، أكثر حكمة ورسالة مما كان يطلبه العرب واليهود تلك الأيام. أما العرب فقد كانوا في تلك الأيام العصبية الحريية يريدون انحياروا واضحا إلى جانبهم، وأما اليهود، فقد كانوا ومازالوا مزهوين بباطلهم، ولكن هذا رجل فكر طويلا في مصائر الشعوب والأمم، ورأى أكثر من أي مؤرخ آخر في عصره، مسيرة الإنسان منذ فجر التاريخ، كشيء واحد متكامل مترابط الأجزاء. وكان قد بلغ الثمانين أو قاربها، فلم يكن يهسه أن يرضى العرب أو اليهود.

ثم حل على القاعة صمت عميق، كما يحدث للناس حين يلقي عليهم قول طريف، يعرفون بعضه ويجهلون البعض الآخر.

من قلب ذلك الصمت، انبثق «منسي، فجأة، تعلما كما ترمي حجرا في بحيرة ساكنة ■

لا عجب أن القاعة امتلات، فقد كان المحاضر هو بروفيسور ارنولد توينبي اعظم مؤرخي عصره، وأبعدهم نظرا، وأعظمهم ادراكا. ذلك مؤرخ نظر إلى تاريخ الإنسانية كبحر متلاطم الأمواج، موجة تصعد وتبلغ الذروة، ثم تهبط وتنحسر، لتعلو موجة أخرى. حضارات تولد وتنمو وتزدهر وتذبل فتولد بدلا منها حضارات جديدة.

جلسنا في الصف الامامي، وكان «منسي، لا يكاد يستقر في مقعده، يتلفت يمنة ويسرة ويتنسم لكل من تقع عليه عينه، لقد انعش به هواء اكسفورد، واستجلبت روحه لمفاهيم ذلك المكان السحري. هذه المدينة الصغيرة التي تكتسب سميتها وروحها من وجود الجامعة فيها، هي عبارة عن رمز لأفضل، وربما أيضا لأسوأ، ما في «الحضارة، البريطانية. يخرج البريطاني من هنا وهو يحمل صك الانتماء إلى صفوف مميزة. رؤساء اتحاد الطلبة في اكسفورد، غالبا ما يدخلون البرلمان، وغالبا ما يصيرون وزراء. وقد ذهب من هذا المكان الصغير، أيام سطوة الامبراطورية البريطانية شبان في العشرينات من أعمارهم، لا يميزهم شيء إلا أنهم ينتمون لتلك النخبة الحاكمة، سيطروا على مصائر شعوب في الهند والسودان ونيجيريا وكينيا وفلسطين. وكان الواحد منهم يحكم رقعة أكبر من الجزر البريطانية.

كانت جامعة اكسفورد حلما دفيننا عند «منسي»، حصنا من حصون الانجليز لم يستطع اقتحامه. لذلك اشرق وجهه وتواترت لغتانه أول ما ظهرت لنا أبراج الكليات، ثم لما اجتزنا المباني التي تجمع في معمارها بين هيئة الكنائس وقلاع القرون الوسطى.. الحيطان السميكة والابواب الضخمة والنوافذ المستطيلة والبلحات الداخلية التي اقتبسوها ولا بد من المعمار العربي الأندلسي.. وكان «منسي، يردد أسماء الكليات كأنه ينشد نشيدا اسطوريا قديما.. باليول.. ميرتن.. مودلن.. ومادهام.. وككيل.. ينقسم ذات اليمين وذات الشمال وخاصة للطالبات، وهن يهرولن من قاعات المحاضرات أو يمتطين الدراجات.. ومن حين لآخر نمر يستأذ يسرع الخطى وقد نفخ الهواء عباقته السوداء.

نظر بروفيسور توينبي إلى القاعة الممتلئة، وادار عينيه المشععتين في وجوه الحضور، عربا ويهودا، وابتسم ابتسامة تحمل معاني كثيرة.

اجتمع العرب واليهود لأول مرة في جامعة اكسفورد، ولعل المرحوم تراس كان احد الذين اقتنعوا الطلبة العرب بالقبول، فقد كان احد زعمانهم. كان هو

٣١ نحو أفق بعيد



بقلم الطبيب صالح

البروفيسور... الحلقة الجهنمية... التي صنعتموها انتم الأوروبيون... لا يا سيدي، ان فلسطين ارض عربية. وقد ظلت عربية منذ... منذ... ثلاثة آلاف عام... وسوف تظل عربية الى الابد... سوف نستردّها بالقوة ان عاجلا وان...

تحولت المهمة الى ضوضاء. وارتفعت اصوات من اطراف القاعة تطلب منه باللغتين العربية والانجليزية ان يجلس. ولما رجعت اخيرا الى جره جرا الى الجلوس، قال لي: «ايه الحكاية» هو انا قلت حاجة غلط؟

«الله يخيك. اسكت. افهمك بعدين». علت وجه العالم الحليل «بروفيسور توينبي، حيرة عظيمة. وظل بقية المساء وهو يرد على الاسئلة. ينظر الى «منسي» من وقت الى آخر، كأنه يحاول ان يحل معضلة. لا بد انه، ببساطة العلماء من طرازه، ظن انه لا بد ان يكون قد اساء التعبير عن افكاره، والا فكيف يساء فهمه الى ذلك الحد. اما «منسي»، فقد جلس هادئا مطمئنا وكأنه لم يفعل شيئا.

ولما خرجنا، قال له كرار، وكان، كما يحدث له «منسي» عادة، قد افه كأنه يعرفه من زمن -

«يا صعيدي يا مغفل. يظهر ان المصريين بتاع القاهرة على حق. يظهر ان الصعيدية فعلا اشتروا الترمواي... انت بليد ما بتفهم الكلام ولا كنت سرحل».

ضحك «منسي» ضحكته الطفولية الجذابة، وقال بلهجة صعيدية مزيفة كما في الافلام

«بصراحة كدى يا رجالة... اصلو الأستاذ بتاعكم دا طول حبتين... وانا كنت نعبان... لاني مع عدم المؤاخذه... كنت امبارح سهران سهرة حلوة في لندره... وبعدين سليف العربية لحد اكسفورد... رحت في سابع نومه...»

ثم اضاف «وبعدين يا اخي الواحد نعب من حكاية فلسطين دي، قال له حسن بشير

«ولما انت تعبان وناييم ومش فاهم الكلام... ما كنت تتلهي وتسكرت... رحت عامل خطبة وطنيه ولا كانتك جمال عبد الناصر. انا افكرتك حتى قول (ان ما اخذ بالقوة لن يسترد الا بالقوة)».

قال «منسي» ضاحكا «دا انت بتقول فيها؟ طب والنبي الجملة كانت على لساني لولا ان الاخ دا عامل يشدني، وانا مش فاهم هو بيعمل كده ليه... دا انا حتى استغربت الناس ما سقفتش ليه...»

قلت له معلنا، وكنت اعلم انه اختار الرقم اعطاطا... «مين قال لك ان فلسطين عربية من ثلاث الاف سنة بس؟»

«امال هي عربية من امتي؟» «من سبعة الاف سنة على الاقل».

«لا يا شيخ... انا افكرتهم ثلاث الاف. اصلو اليهود يقولو انها كانت بتاعهم من ثلاث الاف سنة، قلت يا واد خليمهم ثلاث الاف... اهو برضه كويسين... هي ثلاث الاف سنة شويه يا رجالة».

للحديث بقية

ادار «منسي» ظهره له «بروفيسور توينبي، وجل بعينيه الواسعتين في الحضور الذين اخرجهم وقوفه عن صمتهم فشحخت اليه ابصارهم وضع يده اليسرى في جيبه. ونفخ صدره، ورفع راسه الى اعلى. ثم دار نحو «بروفيسور توينبي» ببطء، ونصف وجهه الايسر ما يزال يميل نحو الجمهور. اتخذ وقفة دراماتيكية، ولعل صورة لورانس اوليفيه، وهو يحث جنوده على القتال في دور الملك هنري الخامس في معركة «اجنكورت» ضد الفرنسيين، كانت مثله في مخيلته. كان يحفظ عن ظهر قلب اغلب خطاب الملك هنري في مسرحية شيكسبير تلك، ويؤديها بصوت قريب من صوت لورانس اوليفيه. او لعله تطل نابلليون في معركة «اوسترلتز»! كانت احلام العنطة تخطر احيانا على بال «منسي»، ولكن كما تمر سحابة الصيف في السماء، سرعان ما تتبدد دون ان تترك اثرا. ان قلعتة على الاقل، تقرب من قامة نابلليون، وهو في وقفته هذه يذكر المرء من بعيد، من بعيد جدا، بوقفة نابلليون في تلك اللوحة الشهيرة التي رسمها الفنان «دافيد». هذا المكان العريق، اكسفورد، مفعم بالتاريخ والاهام، والاحلام التي تتبدد كسحائب الصيف، والاحلام التي بلغت غايتها. ولا بد ان شيئا ما قد حدث له «منسي» فاخرجه عن طوره.

قال بلهجة اكثر تلقرا من المعتاد، وهو يضغط على «بروفيسور» و «توينبي» التي كان ينطقها «تا انبي» بطريقة الانجليز الارستقراط -

«بروفيسور تانبي... انني استمعت الى محاضرتك القيمة باهتمام بالغ، ووجدت فيها... وجدت فيها اشياء كثيرة تدعو للتفكير. اود بادي ذي بدء... ان اشترك اجزل الشكر... بالاصالة عن نفسي، وبالانابة عن الحاضرين... واظن انني اعبر عنهم جميعا حين اقول... انها كانت محاضرة قيمة و... ومفيدة جدا... ولكن اسمح لي ان اقول... انني دهشت حقا... ان اسمع مؤرخا مثلك... مؤرخا عظيما مثلك، ليس معروفا عنه انه معاد للعرب... بل لعلنا نحن العرب نعتبرك واحدا من اصدقائنا... نعم، ادهشني حقا قولك... ان العرب، طوال تاريخهم، اساموا معاملة اليهود... واضطهدوهم... وعذبوهم...»

كنت اجلس الى يمينه، وحسن بشير وكرار الى يساره. نظرنا ثلاثنا اليه مذعورين في وقت واحد. وسرت مهمة بين الحاضرين وسمعت بعض الضحكات المكتومة. واخذت اجذبه من ذيل «حليته»، لأجلسه. ولكنه كان قد تقمص دورا وأبحر بعيدا واصبح من الصعب ايقاظه من حلمه...

«وتقول... ان على العرب الان... ان يساعدوا اليهود على الخروج من المازق التاريخي الذي وضعوهم فيه... يا سيدي البروفيسور... من الذي وضع اليهود في مازق تاريخي؟ انتم انتم الأوروبيين؟ انتم الذين اضطهدتم اليهود... وعلقتهم في المشلق في الميادين العامة... قلت ان العرب ما زالوا يشنقون من بقي عندهم من اليهود في الميادين العامة... مجرد افتراء ودعليات صهيونية كاذبة... انتم الذين فعلتم ذلك... وضعتهم في معسكرات الاعتقال... وفي افران الغاز... والان تريدون منا نحن العرب... نحن الابرياء الذين لا ذنب لنا فيما حدث لليهود... ان تكفروا عن خطيتكم... ان تكسروا كما قلت يا سيدي

نحو أفق بعيد

التي تصدر حديثا باللغة الانجليزية. وهو زعم لم نأخذه مأخذ الجد. أعدته متعمدا الى اكسفورد. قلت له..

- اكسفورد جنود مش كده؟

- يا سلام على اكسفورد. انت عارف اني سجلت للدكتوراه في اكسفورد؟

- لا يا شيخ؟

- الله، انت ما تعرف الحكاية دي؟ دا انا حتى كنت اتجوز واحدة من اكسفورد، بنت زي القمر. كانت تدرس تاريخ في كلية «سانت هيلدا».

- ومعين؟

- بعدين ايه؟ ما انت عارف الحكاية. اتلميت على حضراتكم، ولقيت الـ B.B.C. يقول لنا كلمتين فارغين نأخذ عليهم فلوس

- وتزوجت ماري

- اه يا سيدي

- ماري سيدة فاضلة، وانت لا تستحقها. اي واحدة غيرها كانت طلقك من زمان.

- ما قلناش حاجة. ماري بنت حلال وربة بيت والكلام الفارغ دا. بس البنت بتاعة اكسفورد كانت حلوة قوي. زي القشطة

تذكرت صلحيه من شركة «لتر رانك» فسألته عنه. استجاب فورا لهذا الموضوع الجديد وكانه كان ينتظر السؤال منذ زمن. قال

وهو يضحك..

- الراجل الاهيل الي انت شغته دا يشغل «منصب كبير» في الشركة ومن عائلة محترمة ومتجوز ست زي القمر.

- انا المفكرته اعرب، مش باين انه في ست في البيت.

«ما هي دي الحكاية. اصله يا سيدي الاستاذ دا راح مصر. وقابل واحدة هلووته. عنده بتاعة اثنين وعشرين او ثلاثة وعشرين سنة. راجل طفل. شاف بنت مصرية عيونها عسلية وشعرها اسود. ومنخللة. راح متدهول في حبيها. انت عارف الراجل دا سنة فوق الخمسين».

- وبعدين؟

- بعدين ايه؟ البنت مش جاده.. ضحك عليه ولوهمته انها بتجبه ومستعدة تتجوزه.

- انت شغتها؟

- الا شغتها. ما انا يا استاذ حاضر القصة من بدايتها لم قل وهو يضحك..

- اصله انت مش واخذ مالك... انا يا سيدي باشغفل معاه مستشار في الشؤون العربية. يعني لما بييجو بفتحو فيلم زي الخرطوم او لورانس والكلام الفارغ دا. يستشيرو مين؟

- انت؟

- ايوه يا سيدي. انا، انت فكر انا معتد على الكلام الفارغ بتاع الـ B.B.C.

- وبعدين؟

- وبعدين زي ما بيعملوا الانجليز الهل. الخواجه لما رجع لانجلترا حكى لمراته. وطلب منها الطلاق. قل ايه؟ ييجب. دا مراته زي القمر.

- اوعي البنت تكون مسلمة

- لا يا سيدي. اطمئن. قطبة من جماعتنا. انتو بس تعملو في مسلمين في حكاية الجواز. والفرض انها مسلمة. ما هو الاستاذ دا مستعد يعمل اي حاجة عشان يتجوز حبيبة قلبه.

- والبت؟

- يا شيخ! دي بتضحك عليه. لا حتجوزه ولا حاجة.

- وانت بورك ايه في الحكاية دي؟

- تصور الراجل الاهيل دا، مرات بتصل بي الساعة اثنين صيلحا عشان يحكي لي حكاية حبه وغرامه. دا منصور اني سائق البنت تتجوزه

- وبي نظير ذلك؟

- اهو كده. في نظير ذلك نطعن الدور من مين؟ من بسلامته عمر الشريف

- الله يلغتك. انت حترب بيت الراجل

- ابدا. لا حترب بيته ولا حاجة. بكرة يرجع لمراته وتنتهي الحكاية.

انتهت الحكاية بان الرجل من شركة «لتر رانك» لم يطلق زوجته ولم يتزوج «البنت» وان «منسي» لم يحصل على دور عمر الشريف ولا اي دور آخر في فيلم «لورانس». ولكن الحياة كانت تخبره له ادوارا اخرى في الواقع ■ للحديث بقية

كل «منسي» في اكسفورد مثل السمكة في الماء. كما يقل واصح من ذلك. انه كان مثل حمار الوحش في الخلاه تعرفنا على اناس كتيرين. قلنا في كلمة سلفت انتوني..

كلية كراي وحسن بشير. الاخوين «ليونهارت» عالمي الاجتماع. وتعرفنا على الرجل الذي ترجم من اللغة الروسية رواية «دكتور جيفكو» للكاتب الروسي الشهير «بسترنك» التي حولت الى فيلم سينمائي مثل فيه دور «دكتور جيفكو» عمر الشريف. «غريم منسي» في فيلم «لورانس». وقلنا الكاتب الانجليزي المعروف «جون وين» الذي كان في تلك الحقبة استاذا للشعر. هذا المصعب الذي ابتدعت جامعة اكسفورد خصيصا للكتاب والشعراء. كان «منسي» على سجيته تماما في ذلك العالم المفتوح المستنير. الذي يتحدث فيه الناس لجرد متعة الحديث. ويلمعون بالافكار كما تلعب بكرة الله «بنت بومج». كان يدي بدلوهم مهما كان الموضوع. لا يهمه ان كان فلانا في او لا. وسواء كان علم اجتماع او اقتصاد او فلسفة او سياسة او ادب. احيانا يصيب واحيانا يخطئ. ولكنه كان يعرض جهله بحسن استخدامه للغة. وطيبيته المرحه وبديهيته الحاضرة. لذلك ترك اثرا حسنا عند كل من قابلناه. وقد طلب له الفلم فاراد ان يبقي فترة اطول. وكان كراي قد احب مرجه وهزله فشمعه على اللقاء. لكنني عاندت وقلت لهم

- هذا انسان صانع ما عنده شغل. اما انا فلا بد ان اعود الى عمل.

قل «منسي»..

- شغل ايه يا خوي؟ هو الي انتو بتعملوه دا شغل؟

كان «منسي» يعتبر الاذاعة «شغل اونطة» وانها مهنة لا تحتاج الى معرفة او جهد. لكنه كان يحبها. ولما هاجر الى امريكا كان من ضمن ما فعله انه انشا محطة اذاعة للدعوة للاسلام. وكان يومئذ

قد اسلم وحسن اسلامه.

تلك المساعدة التي عمرته طوال وجودنا في اكسفورد. لازمته ونحن علفون في طريقنا الى لندن. كان يضحك ويثرثر وينط من موضوع الى آخر ومن فترة الى اخرى. مون ثولف ودون تسلسل او منطق. والهمته مع «بروفسور ثويني» بدأت تتحول في خياله تدريجيا الى اسطورة اخرى في «ملوجيا» حياته. قل وهو يضحك من اعلاق قلبه..

- تصور انا راحت كبس على الراجل وانا مش فاهم الحكاية ايه ولا هو قل ايه.

قلت له..

- انت بحماقتك في اكسفورد ضيعت اقتصادك في لندن على «ريتشارد كروسمن» مثل ثابليون... اشاع في موسكو ما كسبه في

اوسترلن.

اجعه انني شبيته بثنابليون. قلل..

- انا برضه زي ثابليون. مش كده؟

اضحكني هذا جدا. قلل..

- بتضحك ليه؟ هو ايه يعني ثابليون؟ حنة ثابلياني من كورسيكا.

قلت:

- بس انت تشبه مين ولا مين؟ مرة على خان. مرة ثابليون. ومين كلان؟

قل وكانه لم يقلق الى فكرة اخرى..

- انت عارف ان جمال عبد الناصر واد جده بصحيح. صميدي حمش. بس يا خسارة معاه شلة من الجهلة. انت عارف هو محتاج

لناس زي مين؟

- زيك انت؟

- اهو كده. واحد صميدي حمش. ومتعلم. وبتاع حليته.

يلعب بالبيضة والحجر زي حضرتي...

اضحكني ذلك. كما اضحكني من قبل قوله انه يشبه ثابليون..

- انت برضك بتضحك؟ هو يعني الاوباش الي معاه بول احسن مني.

- انت تعرفهم؟

- الا اعرفهم. انت عارف الجدة دا اسمه ايه. دلوقتي بقي وزير

قد الدنيا ومش عارف ايه. دا مراته كانت بتفصل هدموها عند

السمت اليونانية الي انا كنت ساكن عندها في الاسكندرية كان بيجي وبها. اتعرفت عليه وبقينا اصحاب. كنا بمسهر كل ليلة وبيا بعض

بعد ذلك. حين عاد الى مصر والقام فيها فترة. زعم انه تعرف على جمال عبد الناصر وصار لحد مستشاريه وكان يلخص له الكتب



بقلم الطبيب صالح

نحو أفق بعيد ٣٣



بقلم الطبيب صالح

جهر اسماء المدعويين وهم يدخلون قاعة الاستقبال، واحدا بعد الآخر. لم يعجبني ذلك، وقلت لنفسي لم الجلبة والضوضاء، فدخلت دون ان اعطيه اسمي. وما هو الا قليل، حتى سمعت الحاجب ينلدي بصوته الجهر.

الدكتور مايكل بسطاوروس، رئيس القسم العربي بهيئة الإذاعة البريطانية، كان رئيس القسم العربي الحقيقي موجودا في الحفل، فالتفت متعجبا.

نعم، انني استطيع ان اتخيل، كيف اقتحم «منسي» ذلك الحصن الحصين الذي لا يدخله كل من دب ودب، لا يدخله كل من شاء، هكذا، ضربة لازب، تجاوز السور الحديدي الخارجي الذي يقنص به السواح، ينتظرون من بعيد الى مراسم تغيير الحرس، يرادهم الأمل ان يروا وجهها يطل عليهم من نافذة او ردهة. دخل الى الفناء الداخلي، ولعله صعد درجا، ثم فتحت له الابواب، وسار به الحرس الملكي في دهاليز واسعة طويلة، كل خطوة محسوبة منذ عهد سحيق غابر. اخيرا وصل الى... نهاية المظالم الى شيء مبهم كأنه سيارة الـ «رولز» بين السيارات.

وصل دون استئذان، ودون وجه حق، في ثوب مستعار وصفة منتحلة.

فتح الباب الاخير، ونادى حليج الملكة الذي لا بد انه لم يكن كسائر الحجاب:

«الدكتور منسي يوسف بسطاوروس، رئيس الوفد المصري».

هل تذكره وهو يقارع سير انتوني ايدن في اجتماع شباب المحافظين؟

هل تذكره وهو يصرع ثنيينا ضخما من «تينيانت» الانجليز؟

هل تذكره في اكسفورد وهو يحارب في غير محترَب، ويعارك في غير معتَرَك؟

انه الآن في هذا المكان، يقوم بدور اعظم من اي دور قام به من قبل، او سيقوم به من بعد.

مثل «منسي» بثوبه المستعار وصفته المنتحلة، امام الرمز الأكبر للامبراطورية البريطانية.. ملكة انجلترا واسكتلندا وايرلنده وويلز وجزر الهيرديز وجزيرة مان وما وراء البحار، وريثة تاج الملوك جيمس وجورج وادوارد، سليلة آل وندسور وهانوفر، راعية الكنيسة، رئيسة الكومنولث!

وماذا فعل «منسي» هل حي وانصرف؟ هل اكتفى بذلك القدر؟ ابدأ. كانت تلك لحظة لا بد انه ظل يستعد لها على غير علم منه منذ ولد. وكأنما الأقدار قد هيأته لذلك اللقاء «التاريخي». ولعله ايقن انه هو ايضا يرمز لشيء ما، وانه لم يات متسولا، ولكنه يقف ذلك الموقف بمقتضى منطق، وان بدا عجيبا، فانه عادل على وجه من الوجوه ■

حين وقف «منسي» ذلك الموقف «التاريخي» في ذلك المكان الذي لا يدخله الناس ضربة لازب، لعله احس بأنه جاء بمقتضى منطق عادل، وانه هو ايضا يرمز لشيء ما. كان ما يزال في المرحلة الثانية من مراحل حياته، مرحلة الـ «بيل» التي اعقبت مرحلة الـ «عجلة».

حدث ذلك اواخر الخمسينات او اوائل الستينات، لا اذكر على وجه التحديد. لكنه كان حدثا كبيرا. استضاف مجلس العموم البريطاني في لندن المؤتمر الدوري لبرلمانات العالم. جاءت الوفود من كل الانحاء وصاف ان «منسي» رحمه الله كان على صلة حميمة برئيس الوفد المصري، منذ هو طالب في جامعة الاسكندرية. لذلك كان سهلا عليه ان يلتزم بالوفد المصري. كان يرافقهم في مجيئهم وذهابهم، يساعدهم على شراء لوازمهم من الاسواق، ويرتب لهم مقابلاتهم، ويصطحب من يرغب منهم الى عيادات الاطباء، ويسهل لهم امورهم. وقد وظف لذلك، كما يمكن ان يتخيل الانسان، طاقته الهائلة ومعرفته الواسعة بمدينة لندن. اصبح شخصا ضروريا لا غنى عنه بالنسبة لهم. وقليلًا قليلًا اصبح كأنه واحد منهم. كأنه عضو في الوفد وقد روى «منسي» انه تحليل على سكرتارية المؤتمر، فوضعوا اسمه في قائمة اعضاء الوفود، وصاروا يرسلون له كل اوراق المؤتمر بما في ذلك بطاقات الدعوات التي كانت تقام تكريما لهم. اصبح «منسي» يحضر اجتماعات المؤتمر في النهار، ويحضر حفلات الاستقبال في المساء. ولم يجد اعضاء الوفد المصري غرابية في ذلك، فقد كانوا يظنونه ايضا مندوبا عن هيئة الإذاعة البريطانية.

وجد «منسي» دورا محترما يليق به، فانهمك فيه بكل طاقته. وكعادته حين يتقمص دورا، فانه لم يكن يقف عند حد. لذلك كادت هذه الحادثة ان تنتهي بطرده من بريطانيا.

مر كل شيء بسلام، الى ان حل ذلك المساء، حين اقامت الملكة حفل الختام للوفود في قصر بكنجهام. ليس «منسي» بدلة السهرة التي لا بد انه استأجرها او استعارها. ثم مضى الى موعده المضروب في القصر. مكان اكثر سحرا والقا وهيبه من كل الامكنة التي دخلها من قبل. انني استطيع ان اتخيل كيف دخل «منسي» قصر بكنجهام ذلك المعقل الامبريالي، المحاط بالبروتوكولات والرموز والطقوس. لقد صحتني مرة الى حفل استقبال اقامته سفارة من السفارات. لم يكن مدعوا بالطبع، ولكنه جاء هكذا، وكأنه يظن انه مدعو اصلا وبالفعل لكل الاحتفالات التي تقام لاي سبب وفي اي مكان على وجه الارض. كأنه ضيف مستديم على مائدة الحياة! كان على الباب رجل في بدلة حمراء كأنه جنرال في الجيش، يعلن بصوت

٢٤ نحو أفق بعيد

جدا. كيف تحتملين القيام بهذا الدور الممل يوما بعد يوم؟

يقول «منسي» ان الملكة ضحكت. ولكن اغلب الظن انها ابتسمت ابتسامة خفيفة، لتخفي دهشتها من تلك الجراة، فهي مدربة لمثل هذه المواقف.

بعد ذلك دخل معها في حديث طويل عن مهامها كملكة، وعن حياتها العائلية. وبلغت به الجراة انه سألها عن تربية الأمير تشارلز ولي العهد وعن تعليمه. ليس ذلك فحسب ولكنه أخذ يعطيها نصائح عن افضل السبل لتربيته وتعليمه.

استغرقت المكالمة وقتا طويلا بحسب ذلك المكان. وقف الصف، وبدأ رؤساء الوفود يتعجبون من هذا الذي اعطته الملكة كل هذا الوقت، وكان محمد احمد محجوب وراء «منسي» ينتظر دوره، بقلته الجديدة، وخبرته الطويلة، وبذلتة الاناقة التي لم يستعرها، ولكن اشتراها من حد ماله.

تحرك دوق ادفيرة، زوج الملكة الذي كان يقف الى جانبها، وامسك «منسي» برفق من ذراعه وخرج به من الصف. قال له: «انت صغير السن جدا. كيف اصبحت رئيس وفد دولة كبيرة كمنصر؟»

قضى «منسي» ذلك المساء كما يمكن ان يتخيل المرء اكل وشرب وحلور وجدال وضحك، وتعرف بلورد هذا ولبيدي تلك، وتحدثت اللغة الانجليزية على اصولها في مكن اسرارها وامنع حصونها. وفي غمرة تلك السعادة اغفل امرا مهما، وهو ان ذلك القصر ليس مكانا هملًا، وان الانسان لا يدخل ذلك الحصن دون دعوة ودون وجه حق، مهما بدا له انه رمز لشيء ما، او انه صاحب حق ما. كانت ثمة عيون تراقب وتحرس، وترى وتسمع.

ثاني يوم، مع اول الصباح، وهو لم يكذ يستيقظ من نومه، حل عليه رجال اشداء من طراز لم يعرفه من قبل. رجال الامن كانوا يعرفون عنه كل شيء منذ ان وطئت قدماء ارض جزيرتهم. كل صغيرة وكبيرة احصوها في سجلاتهم. وعلى مدى شهر او نحوه ضيقوا عليه الخناق، واتهموه بأنه عميل للمخابرات المصرية - قالوا له انهم لا يجدون تفسيراً آخر لسلوكه المريب. العجيب ان المصريين ايضا اتهموه، بأنه عميل للمخابرات البريطانية فهم ايضا لا يجدوا سببا منطقيا لسلوكه.

دخل «منسي» في مازق حقيقي، فحصد كل طلقة واتصالاته ومعارفه. واخيرا انتهى الانجليز الى الراي بأنه شخص اما احمق او مجنون لا يدري ماذا يفعل.

انما «منسي» رحمه الله لم يكن احمق ولا مجنونا. كان كما وصفته استاذته باربرا بريي «انسانا نادرا على طريقته»

كان يعلم ان رئيس الوفد الحقيقي كان مريضا تلك الليلة، وانه ما من احد سوف ينوب عنه. ولعل ذلك كان حتما، فقد كان المنطق العجيب الذي اعطى «منسي» «شرعيته» وميراث سلوكة عن علم او عن غير علم، يقتضي ان يلعب هو ذلك الدور، ان يكون هو الرئيس. ولم لا؟

الم ينتزع نبلبيون وهو «حثة تلياني من كورسيكا، التاج ويضعه بيده على راسه ويفرض نفسه «امبراطورا» على فرنسا؟

الا تغدق الحياة على اناس لا يبدو انهم يمتازون على بقية خلق الله؟

الا يشغل بعض الناس مساحات من الافق اكبر مما يستحقون؟

بمقتضى هذا المنطلق العجيب، وقف «منسي» في الصف الذي يؤدي الى الملكة، بين رؤساء الوفود.. الرمز الامبريالي، الذي يعزف من اجله السلام الملكي، وتتحرك باسمه الجيوش، وتخفق الاعلام على سفن الحرب في عرض البحار.

وكان وراءه في الصف، محمد احمد محجوب، رئيس وفد السودان. ذلك ايضا كان عدلا على وجه من الوجوه، ان يقف محمد احمد محجوب بقلته الجديدة، وسمته المهيب، وبيانه الناصع، وعقله الراجح، وخبرته في معترك السياسة وراء «منسي» في ثوبه المستعار وصفته المنتحلة!

بعد ذلك بزمان، حكينا القصة لمحمد احمد محجوب رحمه الله. غضب اول الامر، بوصفه زعيما، ثم نظر اليها بوصفه شاعرا، فضحك. ولعله كان يومئذ اقدر على فهم «المغزى» واستيطان «الرمز» فقد كان مغنيا في لندن، بعد ان انتزعت منه «ثورة مايو المظفرة»، رئاسة الوزارة. لقد جاء واحدا، لا يختلف كثيرا عن «منسي» في نهلية الامر. (دون اذن ودون وجه حق في ثوب مستعار وصفة منتحلة) فازاحه عن مقعده وجلس هو مكانه.

كان الرؤساء يسلمون على الملكة فتقول لكل منهم بضع كلمات على سبيل المجاملة، ثم ينصرفون، ولا يأخذ اللقاء اكثر من دقيقة او دقيقتين.

لكن «منسي» كان مختلفا، لم يفوضه احد، جاء بمحض ارادته، لا كمتسول، ولكن بمقتضى منطق عادل في نظره. وباسم من؟

باسم كل الذين وقفوا وراء الاسوار ينتظرون من بعيد لعل وجها يطل عليهم من النافذة.

باسم اولئك الذين لم يجدوا مكانا على المائدة لان آخرين احتلوا مساحات اكبر مما يحق لهم.

يروى «منسي» رحمه الله، ان الملكة بعد ان حيته حسب ما تقتضي المراسم والاصول، فجأة قال لها، دون تفكير، ودون ان يناديها بلقب «صاحبة الجلالة»، كما تقتضي الاصول

«اسمعي. لا بد انك تجددين هذه المناسبات معلة



بقلم الطيب صالح

٢٥ نحو أفق بعيد



بقلم الطبيب صالح

كان يحب الغموض، يظهر فجأة ويختفي فجأة.
«يا واد أنت جايي من انهي داهية؟»
يقول «منسي».
«وعاوزين تعرفوا ليه؟»
يقول يوسف ادريس الذي كان مأخوذاً بشخصيته من زمن.
«الواد دا لازم بيشتغل في السي. اي. ايه. طب ازاى عرفت اننا سهرانين هنا؟»
يضحك «منسي» فقد كان يحب ان يضفي على نفسه مزيداً من السحر والغموض.
ويقول احدهم:
«هي السي اي ايه مغفلة تشغل واحد عبيطزي دا دا كل حياته هزار وضحك وما يعرفش يخبي اى اسرار».

ويقول الثاني:

«ما هو دا كله تمثيل للتمويه».

لكن الحقيقة كانت ابسط من ذلك. لقد وصل «منسي» من امريكا منذ اسبوعين، كما اخبرني فيما بعد، بعيداً عن التمثيل والتهريج، وزار اهله في القاهرة والصعيد، فقد كان طول حياته بلداً بامله، وتفقد احوال اخواته واخوته، ثم انقطع اياماً بصحبة صديقه الحميم صلاح جاهين قبل ان يظهر في تلك الليلة.

كان قد مضى على هجرته الى امريكا اكثر من خمسة عشر عاماً.

ايام كنا معا في لندن، كنت اقول له:

«سافر الى امريكا، انها بلاد ينفع فيها النصب، اما دخلت السجن او اصبحت مليونيراً».

لكنه لم ياخذ قولي مأخذ الجد، فقد كان سعيداً بحياته في انجلترا.

ثم ذات يوم، سافر على طريقته، دون خطة او تفكير مسبق، في رحلة من الرحلات التي كانت تنظمها هيئة الاذاعة البريطانية الى نيويورك، يدفع الانسان مبلغاً زهيداً يغطي ثمن تذكرة الطائرة ونفقة الإقامة في مدينة نيويورك مدة اسبوع.

سافر وليس في نيته الإقامة، فلم يكن يحمل مالا او متاعاً، ولم تكن تاشيرة الدخول تسمح له بالإقامة، ولكن الناس عادوا ولم يعد. وسألنا رفقاءه في السفر فقالوا انه اختفى منذ وصلوا نيويورك ولا يعلمون اين ذهب ■

(للحديث بقية)

تشعب الحديث في دار سعد الدين وهبة الكاتب المسرحي الشهير، الذي كان يومئذ وكيلاً لوزارة الثقافة، وزوجته المعلقة الكبيرة سميحة ايوب، الى ان جاء ذكر «منسي». بدا سعد الدين وهبة يحكي قصة رحلة رافقه فيها «منسي» الى الكويت، فلم اكن انا الوحيد الذي حظي برفقته في الاسفار، الا انني ربما كنت اكثرهم حظاً. كان «منسي» رحمه الله يحب السفر، لذلك اقتني شركة للسياحة تتيح له ركوب الطائرات والنزول في الفنادق بأسعار مخفضة. وكان يحب الصحبة ويجب الضحك، فلذا وجد رفيقاً تطيب له صحبته مسافراً الى اي مكان، سافر معه. كان يحب صلاح جاهين بطريقة مؤثرة، فلذا خطر على باله في واشنطن، يسافر فوراً الى القاهرة لرؤياه. وإذا تذكر عبد الرحيم الرفاعي، سافر الى «بين» وإذا عنت له بازبرا بريي في باريس، سافر الى باريس. كان يبدو انساناً حراً تماماً، ظليفاً مثل طائر في الفضاء.

لم يذهب سعد الدين وهبة بعيداً في رواية القصة حتى دق جرس الباب، ثم اذا صاحبنا حقيقة ماثلاً للعبان، كان احداً ناداه فاستجاب، صدقة، نعم، ولكنها صدقة تكررت كثيراً، يأتي ذكره، ولا احد يظنه في المدينة، فلذا الباب يدق او التلغراف يرن.

دخل ضاحكاً وكأنه كان معنا منذ اول المساء.

«منسي! الله يخرب بيتك، انت جايي منين؟»

هجموا عليه بالغناق والقبل والشتائم، وخاصة الشتائم، فقد كان فيه شيء يغري بالشتيم، ولكن عن محبة.

تهلل وجهه طرباً للحرارة الاستقبال وكثرة السباب، والاشهر المسرحي الهائل الذي احده بدخوله الى دار

اعلم باصول المسرح الحقيقي منه... تفاوضه الناس ذات اليمين وذات اليسار، وكانوا كلهم يعرفونه ويحبونه بدرجات متفاوتة، يوسف ادريس ومحمود سالم ورجاء النقاش وعبد المنعم سليم وآخرون.

اندرج حالا في الحديث وكأنه شارك فيه منذ البداية، وطابت له الامسية كما تطيب الامسي في القاهرة، ووجد جمهوراً ليس كسائر الجماهير، اناساً اصحاب مواهب واخوة سمر ولكاهة وطرائف. وليس زي المهرج فاصبح محور الانتباه ومركز الدائرة.

مضى سعد الدين وهبة يحكي القصة، وكان البطل، يتدخل باستمرار ويجاذبه حبل الرواية ليسير بها على هواه. وكنت استمتع لاهيا وأنا لا اعلم أنني سوف اكون وشيكاً معطلاً في فصل تعيس من فصولها في بيروت.

نحو أفق بعيد ٢٦



بقلم الطبيب صالح

الاجماع العربي. وهي عبارة اكتسبت اعماقا وادعانا فيما بعد، حين رددت في مجالس انقل وزنا وحر احتراماً. ومن محاسن الصدف ان اغلب اعساء اللجنة ظلوا ثابتين على مدى اربعة او خمسة اعوام، فنشأت بينهم ألفة شخصية وتقارب في الرأي. حتى اخونا جمعة الغداني اصبح يمرور الوقت ينظر الى الامور نظرة واقعية مهنية، كما كنا نقول.

هذا ورئيسنا الحليم، الدكتور عبد الاحد جمال الدين، يدفع بقلتي هي احسن، بخمد الثورات ويطفي النار، واذا تعقدت الامور يسعفه طبعه المصري فيقول شيئاً يضحك الناس، فيضحكون ويستريحون، وكان يجلس الى يمينه على المنصة، الاستاذ سليم، ياتي مساعد الامين العلم، يستمع في صمت، ويعاني في صبر، ويدخن بلا توقف.

كان الامين العلم مريضاً في المستشفى، فذهبنا نعوده، احسن استقبالننا وتلطف معنا في الحديث، ثم جاء ذكر الاعلام وقضاياها قل:

«اعلام ايه؟ انا علوز اعمل تنمية».

فقال له احداً:

«لكن سيادتكم... ما هو برضه الاعلام داخل في التنمية».

كان آخر اجتماع تعقده اللجنة الدائمة للاعلام في القاهرة بعد ذلك حدثت احداث، وتفرق الناس سدر مدر، وذهبوا ايدي سبا.

قال لي «منسي»:

«والله فكرة عظيمة نروح بيروت، انا اصلاً مسافر الى الرياض، نقضي اياماً في بيروت، بعدها انت تسافر الى الدوحة، وانا اواصل السير الى الرياض».

ساعة واحدة توصلك من القاهرة الى بيروت، مثل المسافة من القاهرة الى اسوان، ودمشق اقرب الى القاهرة من اسوان، تخيل.

حلقت الطائرة فوق سماء بيروت اول المساء، الجبال والسماء والبحر حقاً كما وصفها الشعراء وتغني بها وديع الصافي وفروز، السلام والمحبة والعطاء كل ذلك حقاً لبنان، كل شيء معد اعداداً جميلاً للخراب، لقد بذل مئات الالاف من الرجال والنساء جهداً مضنياً على مدى عشرات السنين ليصنعوا بلداً مثل عروس خضلة ترف للموت.

لكننا في ذلك المساء من عام ٧٥، لم نكن نعلم ■

كان يجب علي ان انتبه، ونحن في مطار القاهرة نستعد للسفر، وانا المبح «منسي»، يجري من مكان الى مكان، يهمس في اذن موظف شركة الطيران، ويوشوش لموظف الجمارك، ويلطف موظف الجوازات. قلت هذه طبيعة «منسي»، بحول اي امر، مهما كان عادياً وبسيطاً الى شيء يشبه المؤامرة، حتى وانا اصعد سلم الطائرة، رايت يهمس لموظف شركة الطيران، فلم اكترث، دخل مسروراً وكأنه احرز نصراً من نوع ما.

وصلنا مطار بيروت اوائل المساء في ذلك اليوم من عام ١٩٧٥ الذي اصبح يؤرخ به فيما بعد على انه البداية الحقيقية للحرب اللبنانية، الحرب التي لم تضع اوزارها الى اليوم، وكان وصولنا قريباً من المهزلة، في جو متوتر، على غير علم منا، في مساء كان بداية لليل طويل حالك، يخفي في جوفه كوارث يشيب لهولها الولدان.

في دار سعد الدين وهبة، وكان المساء مساء من نوع آخر كما وصفت لكم قبلاً، سألني «منسي»، عن وجهتي، قلت له انني عائد الى عملي في الدوحة، ولكنني سوف اعرج على بيروت لاقضي فيها اياماً، كنت قد حضرت اجتماع اللجنة الدائمة للاعلام، في مقر الجامعة العربية، ناقشنا مواضيع اصبحت بنوداً ثابتة في كل اجتماعات لجان الاعلام ومؤتمرات وزراء الاعلام الى يومنا هذا... التحرك الاعلامي العربي في الخارج، صورة العرب المشوهة في اجهزة الاعلام الغربية، انشاء وكالة انباء عربية موحدة، القرار مينشاق شرف اعلامي، ايقاف الحملات الاعلامية التي تشنها الدول العربية بعضها ضد بعض، الى غير ذلك. كانت لجنة محترمة من رجال المفاضل، سعدون الجاسم وعلي شمو وغالب ابو الفرج وابراهيم الصلحي وعبد العزيز الرواس، ومرسي سعد الدين، وعبد الله الحوراني وجمعة الغداني والشيخ عيسى بن سلمان، وطه يس، واديب نعمن وآخرون لا يفلون عن هؤلاء الذين ذكرت فضلاً وحكمة، كانوا جميعاً رجالاً عقاء، اخوة اشقاء، كانت تلك الايام تتطلب قدراً كبيراً من العقل والحكمة، الان، الله اعلم.

كنا نقول «لنضع نصب اعيننا الاهداف الثابتة للامة العربية ولا ننشغل بالتغيرات التي تأتي وتزول، وكنا نحاول ان نجد ارضاً صلبة نقف عليها وسط عالم من رمال متحركة، وكانت تلك اللجنة، حسب علمي، اول من استعمل عبارة «الحد الأدنى من

(لحديث بقية)

٢٧ نحو أفق بعيد



بقلم الطبيب صالح

فنيا طريفا يتكشف امامي. واريد ان اتابعه الى نهايته. وارى الى اين يصل. وهجاة تحول ذلك المكان في المطر الى مسرح. وتحولنا نحن جميعا. اعضاء السفارة القطرية وضابط الجمارك وعددا من الناس وقلوا يتابعون ما يجري وانا. الى ممثلين ثانويين في مهزلة بطلها «منسي».

اصر الموظف على فتح الصندوقين. لقد كنا منتظرهما يبعث على الشك. خاصة في تلك الاجواء المتوترة. كما اتضح لنا فيما بعد. لعل فيما سحا. لعل فيهما مخدرات. لعل فيهما مصائب أخرى. من يدري؟ ولما رفع عن كل صندوق غطاؤه. نظرنا فلذا هما مملوءان بثياب نسائية داخلية. من جميع الاشكال والالوان. اخذ الضابط يخرجها. ومع كل رزمة تخرج. احس بنفسي ازداد غضبا وحرجا ودهشة. وكان «منسي» اثناء ذلك كله يردد متضاحكا:-

«حاجات بسيطة. شوية هدايا». الان اذكر القصة التي حكاه لنا سعد الدين وهبة في بيته في القاهرة والفهم سر سلوك «منسي». ان سب في المطار وهو يجري من مكان الى مكان. يهمس في اذنه هذا ويوشوش لذلك.

اعيدت الاشياء ورد على كل صندوق غطاؤه. اطلق الضابط زمتا وكأنه فقد القدرة على التفكير وفقد القدرة على الكلام. ورغم انه لا بد ان يكون قد رأى اعاجيب كثيرة من موقعه ذاك. وكأنه لم ير شيئا مثل ذلك من قبل. واخيرا رفع راسه ونظر الى الاخوة القطريين وقال بصوت هادئ لا تدري ان كان وراءه غضب ام عجب: «الاستاذ هيدا من جماعتكم؟»

تمنيت وانا في حالتي تلك لو قالوا لا. ولكن اقدم سارع وقال «نعم».

ولما خرجنا من المطار. قلت لـ «منسي»:- «اسمع. من هنا كل واحد يروح في طريق. والله لا تصاحبني. لا تنزل معي في هوتيل. ولا تعرفني ولا اعرفك.»

الطبيب صالح

السماء فوق بيروت رحيمة قريبة الخيال. نجومها عقود من اللؤلؤ تختلط بقناديل الكهرباء التي تنوهج على سفوح الجبال. وعلى اليسار. والطائرة تقترب من ارض المطار. بحر ناعم شفاف اول الليل. امواجه. كما قال الشاعر. مثل عرائس في غلائل بيض. تتراكم نحو الشاطئ. وتذوب. بعد قليل سوف تمطر هذه السماء الرحيمة شواظ من لهب. وهذه الجبال المضيفة سوف تهتز بهدير المدافع. وهذا البحر الامن المطمئن. سوف يدفع الى الشاطئ بشياطين الدمار والهلاك.

لكننا لم تكن نعلم ان كل ذلك سوف يحدث وشيكا. ونحن ندخل صالة المسافرين القادمين. ونعصي لتسليم امتعتنا.

هجاة انتبهت وكأنني استيقظ من حلم. قلت لـ «منسي» مذكورا:- «الله يخرب بيتك. ايه دا؟» قال متضاحكا:- «شوية هدايا». «اي هدايا؟ دي لازم بضائع مهربة».

كان اخوة من السفارة القطرية قد جاؤوا لاستقبالنا. ودخلوا حظيرة الجمارك. فوقفوا ينتظرون متعجبين. حمل الشياطين صندوقين ضخمين. كل منهما يزن اطنانا. ولما اصر موظف الجمارك ان يرى ما بداخلهما. قال «منسي»:-

«حتتعب نفسك على ايه؟ دي حاجات بسيطة. شوية هدايا». ثم اضاف. غير ميل بوجود القطريين:

«وكان انا موظف في دولة قطر وعضو في وفد رسمي».

نظر الى الاخوة من السفارة القطرية وفي عيونهم دهشة وتساؤل. وكنت انا اكثر دهشة منهم. لقد عرفت ضروبا من جراءة «منسي». من قبل. ولكنني لم اتخيل ان تبلغ به الجراءة ان يزعم انه يعمل في دولة اعضاء سفارتها حاضرون. ينتظرون ويسمعون. وكما كان يحدث لي طوال صحبتي له. فقد اختلط الغضب والحرص لدي. باهتمام عظيم بحت. كأنني ارى عملا

أصغر وأجمل



بقلم الطيب صالح

نحو أفق بعيد

٣٨

انزلني الاخوة القطريون في فندق الـ «هوليدي إن» الذي احرقته الحرب فيما بعد. كما احرق كل الفنادق الكبيرة في تلك المنطقة - «الفينيسيا» و «الكازار» و «السان جورج». كان قد انشئ حديثا يومذاك. كانت حركة التعمير في بيروت لا تنقطع. تغيب عنها شهرا ثم تعود فاذا هوتيلات وعمارات... كان اطفالا شيذوا قصورا من الرمال على شاطئ البحر. ثم سئموا. ففوضوها في الحظوظ.

انني اعرف جيدا تلك المنطقة بين «الزيتونة» و «عين المريسة». حين كنت اعمل مع هيئة الاذاعة البريطانية. كنت انتدب للعمل في مكتبهم في بيروت. في نزلة الداعوق. في شارع فينيسيا الذي يتحدر الى البحر عند فندق الـ «سان جورج». كان حسن الملدجي. ملك عين المريسة. ومحمود نصير رحمه الله. ملك الزيتون. مصريان نزحا الى بيروت واستقرا فيها. وكنا ينتجان البرامج لهيئة الاذاعة البريطانية. وكنت لهما شقة ورثة تلك الايام. وحسن الملدجي خاصة حياته اسطورة اكثر عجبا من اسطورة «منسي». تعرفت على بيروت من خلالهما ومن خلال صلاح احمد الذي كان ملحقا صحفيا في سفارة السودان.

اقمت معه اول مرة قدمت الى بيروت. عام ٥٨. في الطليق الثاني عشر في عمارة متقاربة. على اطراف الحمراء. انكر ذلك الصباح جيدا. نظرت الى المدينة تتأرجح بين الجبل والبحر. تحت ضوء الصباح الحاد الواقع على العين. بعد ضوء لندن الشاحب وسيلتها الغائمة. زرقة البحر تمتزج بزرقة السماء تمتزج بأشعة الشمس المنعكسة من سطوح البيوت والعمارات. تمتزج بالخضرة على سفوح الجبل. فكانت تنظر الى مدينة وهمية ليست ثابتة تعاما في الزمان والمكان. خليج جونية كأنه على مرمى حجر. وتلك ولا بد. قمة «بستكنا». حيث اعتكف ميخائيل نعيمة. لقد شيدت اليه الرجل فيما بعد. ولعلك اذا دفقت النظر ترى قبرص. انت هنا في مفتق طريق وملتقى حضارات. هذه بلاد «ليديا» و «فريجيا» و بلاد الشام. الى الغرب «يوروبا» و الى الجنوب «افريكا» و «فرنسيا» و «افريقيا» وادي النيل. و الى الشرق «ارابيا» و «تريا» و «ارابيا» و «سبتر» و «ديار قحطان» و «عدنان» و وراء ذلك «مسيوبيا» و «ارض بلبل» و «اشور» ما بين النهرين. ثم جاءت النصرانية وجاء الاسلام الحنيف بلسان عربي مبين. وقلعت اشياء فوق اشياء.

جاءني «منسي». وفت الضحى. سعيدا مبتهما وكان شيئا لم يحدث. وكنت والحق يقل. قد هذات ثلثتي. وبدت لي حكاية «منسي» في المطار. هيئة باللباس الى نذر الشر المحتل. اول ما دخلت الهوتيل في الليلة الماضية. احسست بنذر الشر. ولاحظت وجود شبان كثيرين يحملون السلاح وينظرون نظرات شرسة للداخلين والخارجين. ثم جاءني احمد سعيد محمدي صاحب «دار العودة». فاكذ لي ان البلد مقبلة على انفجار خطير. اما «منسي». فلم يبد عليه انه احس بشيء من ذلك. قال:-

«تعرف لنا نزلت في هوتيل لوكس في شارع الحمراء. اصحابه شبان ارمن. ادوني جناح كامل بسعر ارخص من السعر الذي انت تدفعه في غرفة هنا... انت ايه الذي نزلت في الكلام الفارغ دا».

قلت له:-
«انت ليك اصحاب في بيروت».
«اوه كثير. دول اصحابي من زمان. دايمما انزل عندهم. شبان زي السكر».

ثم اضاف:-
«يا خوي ايه العبادة بشاعتك دي» عملت انتك زعلان والكلام الفارغ دا. تعرف انتك ضيعت على نفسك سهرة حلوة جدا».

كان «منسي». يعطش (الجيم) ولا ينحلقها على الطريقة المصرية. ولا يقول (اوي) ولكن يقول (قوي) بلهجة اهل الصعيد.

قال:-
«يلا بينا وبلاش الكلام الفارغ دا. انا حجزت لك جناح

زي الي عندي... جيعجيك الهوتيل... دول شبان زي الخلاوة... تقضي ايام جميلة جدا».

قلت له انني قررت السفر في ذلك اليوم لان الحالة متوترة وسوف تحصل مصائب كثيرة.
«يا شيخ بلاش كلام فارغ. البلد عال ومش حتحصل اى حاجة... خليك كمان ثلاث ايام».

ثم سالته عن الصناديق:-
«البلاوي الجبتها من القاهرة عملت فيها ايه».
قال ضاحكا:-
«بعتها».

«بعتها» مش قلت انها هدايا».
«انت صدقت انها هدايا» وحاوي هدم نسوان لمن بس».
«لعلك الله. الاخوان من السفارة القطرية حيفترو اني باشتغل معك في التهريب».

اسدده جدا انه ادخلني في ورطة. قلت له:-
«دي الصناديق الي حتى لنا عنها سعد الدين».

كده:-
«اه. حاولت ادخلها ما عرفتتش».

«ورجعت بيها للقاهرة».
«وسبتها في المطار سنة كاملة. ولما لقيتكم مسافرا لبيروت... وحضرتك قال ايه» موظف محترم في دولة قطر. وجليبي في مهمة رسمية. قلت والله دي فرصة».

«وعملت انتك موظف في حكومة قطر وانتك عضو في وفد رسمي».

قال «منسي». وهو يضحك بطريقته العجيبة. كما يفعل حين يظن انه نجح في عملية نصب بارعة:-
«يا محترم. انت مش واخذ بك. وانا شحنت «البض» من القاهرة الى بيروت على اسم حضرتك».

يعني ايه على اسم حضرتك».
يعني يا محترم اني لهمت كل المسؤولين في مطار القاهرة انها بتاعتك... امال انت شيليني اجري من هنا لينا فكري بعمل ايه».

رغم كل شيء. فلانني لم املك الا ان اضحك. قلت له:-
«واشمعني كلها هدم نسوان» و«كمان ملابس داخلية» الله يلعلك. لا بد انتك نصمت على واحد».

اصل الحكاية ان تاجر يهودي في واشنطن الفلاس. كان يصلي بضاعته. اشترتها منه تقريبا ببلاش. ما عرفتتش ادخلها لا في مصر ولا في الكويت ولا في بيروت. كانوا بيدخلوها جمارك اكثر من ثمنها. ولما عثرت عليك قلت والله فرجبت «كسبت فيها كثير».

«دول فرحوا بيها قوي» شبان زي الخلاوة... ادوني فيها سعر محترم... انت عارف انها اصلك غالية... حرير وحاجات حلوة جدا».

قلت له:-
«مش انت بتقول انتك رجل لري وعندك مدرسة لتعليم اللغات ومطعم وشركة سياحة وبيت في ارقى حي في واشنطن».

«انت بتقول حي محترم» انت عارف مين جارتنا» روبرت كندي. دا عياني بيلعبو مع عياله كل يوم».

«طيب. ما دمت من الاكابر وعايك اصحاب عيال روي» كندي. مش عيب عليك تتصرف كاتك شحات».

ضحك طويلا. وضحك بسعادة حقيقية. فقد كان ذلك هو القصد. لقد قام بعمل «وجودي» طريف وجريء. عمل ليس له اي مبرر او معنى. الا انه سوف يصبح اسطورة اخرى في «مولوجيا» حيلته.

تركته في بيروت وانا مطمئن انه سوف يدبر اموره بشكل من الاشكال. ولما ارتفعت طائرة خطوط طيران الشرق الاوسط الباسلة في الجو. كانت السماء صافية لا يشوبها غيم. وكان البحر مثل حلم بديع لن ينتهي. وكانت تلك الغنية الرائعة. بكل ما احتوته من اشياء ثمينة وحسنة وثييلة. تلمع اسفل بيوتها تحت شمس البحر الـ «المتوسط» تنتظر الزلزال (للحديث بسية)

أخبار



بقلم الطيب صالح

نحو أفق بعيد

٣٩

تركت «منسي» في بيروت يدبر امره بوجه من الوجوه. في ذلك اليوم من عام خمسة وسبعين. حين بدأت الحرب في ديار لبنان. ولعل وجوده هناك. في ذلك اليوم بالذات. لم يكن بعيدا عن واقع الحال. ألم تكن حياته سلسلة من اعمال «عيشية» تحدث ارتجالا. بلا معنى ولا مبرر؟ الا انها كانت تنتهي نهائيا سعيدة. ولا تدوم طويلا. وهذه الحرب ما معناها؟ لقد طال امدها وتنوعت مصائبها. وصدق فيها قول زهير:-

وما الحرب الا ما علمتم وذقتم
وما هو عنها بالحديث المرجم

متى تبعثوها تبعثوها ذميمة
وتضر اذا ضريرتموها فتضرم

فتعركم عرك الرجي بقلالها
وتلفح كشافها ثم تنتج فتنتم

فتنتج لكم غلمان اشام كلهم
كاحمد عاد ثم ترضع فتظلم

تمصر يا رعاك الله. ليست هذه الايات وبقية ايات القصيدة. وقد قيلت منذ نحو ثلاثة عشر قرنا. اصدق ما قيل بالعربية في وصف الحرب الى يومنا هذا؟ ورغم ان الانسان يعجب بعفوية الشاعر الذي اختصر كل هذه الازمنة. الا انه ايضا يحسن بالحزن. ان الامور لم تتعدل منذ ايام عيس وذيبيان. رغم كل ما حدث من احداث. وما جد من افكار. وما اريق من دماء. وما سكب من دموع.

لكن لا يتبادر الى الذهن ان اللبنانيين وحدهم مشغلو حروب. فنحن في السودان. على سبيل المثال لا الحصر. عندنا حرب تدور رحاها منذ اكثر من ثلاثين عاما. لا تلق حتى تبدأ من جديد. اتت على الأخضر واليابس. واهلكت الزرع والضرع. وافنت الشيخ والطفل الرضيع. ولا احد يدري لماذا بدأت وكيف تنتهي. وفيها من المشاعلات والحماقات والاكاذيب. ما في حرب لبنان. واذا كان في لبنان «غلمان شؤم» كما قال زهير. فغلمان الشؤم عندنا كثيرون. الا انني الآن. اتحدث عن بيروت. والشئ بالشئ يذكر. وبيروت عزيزة على مثل الخرطوم. وحزني على ماسي السودان. ليس اكثر من حزني على ماسي لبنان.

وماني لا الفعل؟ لقد عرفتهم ايام صفوهم فوجدتهم اصفياء كرماء اوفياء. وظلوا صامدين يتحملون في صبر طوال هذه السنوات التعيسة. مستشفياتهم تستقبل الضحايا تحت ابل القنابل. وطائراتهم تجوب الافاق. ما ان يكف الضرب حتى يفتح المطار وتضعد الطائرات وتهبط. وصحفهم تطلع في اوانها. ومكتباتهم ملأى بالكتب. ومطابعهم تعمل بكفاءة ومصانعهم تنتج. ما ان تصمت المدافع حتى تفتح المحلات التجارية. ويخرج الناس الى الشوارع. بين ركام العمارات المهدامة. يتحدثون بنوازع الخير والحياة الكامنة في طبيعتهم. قوى الشر والموت. هؤلاء

هم اهل لبنان «العاديون» وهم الاكثية. وقد حركت الحرب فيهم. عواطف التراحيم والتضحية والنبل. بقدر ما سالت من مشاعات. ولولاها لما بقي شيء يتقاتل عليه الزعماء. كذلك في السودان. لولا طيبة الناس «العاديين» وانسانيتهم وحكمتهم. لتمزق السودان مرقا مثل ثوب قديم مهمل. ولقضت حماقات الزعماء على البقية الباقية منه الى غير رجعة.

لذلك لم انقطع عن بيروت. ازورها كل عام او عامين او ثلاثة. طوال سنوات الحرب. مثل الشعراء الاوائل. كل واحد منهم مشدود الى طلل. وفي كل مرة اجد شيئا قد تحطم... مطعما الفتة. او مقهى جلست فيه الى ناس اعزاء. او فندقا نزلت فيه... كل ذلك الحي. بكل تلك الذكريات. قد احترق. مكتب الـ B.B.C. الذي كان ملتقى الادباء والشعراء والصحفيين والاكاديميين. ورجال الدين ورجال السياسة... ودار حسن الميحي التي كانت منتدى عامرا. وشرفة دار محمود نصير «ملك الزيتونة». حيث جلسنا ليالي نشرف من عل على المدينة. وننظر الى البحر. ونراقب الطائرات تمر امامنا رائحة غداية... دار «شعر» على الجانب الاخر لشارع فنيسيا قبالة مكتب الـ B.B.C. كنت حين امل العمل. اذهب الى يوسف الخال اقضي معه الساعة والساعتين. كان انسانا رائعا وسواء اتلفت معه او اختلفت. فانك لم تكن تعلم الا ان تحبه. ولم تكن الحارة التي اثارته بعض الناس ضده. من قبيل الشعوبية والتعصير. ولكنها كانت من نتاج قريحته المتوقدة. وطبيعته المغرمة بالابتكار والاثارة... كل ذلك. واكثر منه قد احترق.

اول ما نشر لي نشر في بيروت. واول ما عرفت عرفت في بيروت. وقد رايت جبلا وللوجا وبحارا ومدنا اكبر وعوالم ارحب. لكن هذه المدينة كان بيني وبينها وشائج من عهد غابر. ومثل كثيرون. هذه مدينة تعيش في قلوب ناس كثيرين. لقد بكت عليها عادة السمان. خساء هذا العصر. فاحسنت البكاء. ورثاها بلد الحيدري فاحسن الرثاء. ورثاها نزار قباني وسمر عطا الله ومحمد الفيتوري وادونيس ومحمد درويش وآخرون. وكتبت عنها خالدة سعيد مقالات مذهشة في هذه «المجلة». ولا بد ان ما هدمه الحقد سوف تبنيه «المحبة» من جديد. كل هذا الحب لا يمكن ان يذهب سدى.

وبعد... لعل ذلك البصيص من الضوء يبشر بمطلع الفجر. ما قد هيا الله سبحانه وتعالى. رجلا اوتي عزم ومروءة واريحية. مثل الحارث بن عوف وهم بن سنن. يحملون ديكت القتل. ويضمدون الجراح. ويجففون الدموع من عيون الثواكل والايتام. ولعل برركات تلك البقعة المباركة قد حلت على الرجال المجتمعين في «الطائف» فحنت القلوب وثابت العفان. وعسى ان يجيء شاعر عبقري مثل زهير. يوتي هذه الحرب حقها من الهجاء والرثاء. ويوتي اولئك النفر الكرام حقهم من الثناء. من قال ان المديح مبتذل في الشعر؟ ثمة اعمال اريحية. تقضي شعرا اريحية. وقبلنا قال المتنبي العظيم

شاعر المجد صنوه شاعر اللفظ
كلانا رب المعاني الدقائق

(للحديث بقية)



بقلم الطبيب صالح

حين قدمت على بغداد في شهر نوفمبر الماضي، كانوا قد عينوا عبد الحسين زويلف لتوهم مدير الجهاز تعليم الكبار ومكافحة الأمية. كنت فرحاً بتلك الرحلة، أن مكتب اليونسكو الاقليمي في عمان، الذي يرئسه الدكتور محمد ابراهيم كاظم، قد جندني في هذه المعركة. ان اكون امياً بين الاميين، يا له من شرف عظيم. وقد اتضح لي بالفعل خلال هذه الرحلة،

كم انا جاهل. زرت سبع دول عربية، من العراق إلى المغرب، وفي كل بلد كنت اكتشف اشياء جديدة. لقد طوفت هذا العام المتنوع الجميل عدة مرات من قبل، وظننت اني اعرفه، ولكنني اكتشفت هذه المرة، انني لم اعرفه حقاً لأنني لم أنظر اليه من قبل، من هذه الزاوية، زاوية الاميين. اكثر من مائة مليون اسي في العالم العربي معني ذلك انك لن تستطيع ان تصنع تنمية، ولا ان تقدم حضراً ولا مستقبل. لن تستطيع ان تحقق شيئاً من هذه الاحلام الجميلة التي تعن لهؤلاء الناس الاكابر. واذا صدقنا شعار منظمة اليونسكو، وهو حق، بما ان الحرب تنشا في عقول البشر، فلا بد من اقامة حصون السلام في عقول البشر. معنى ذلك انك لن تستطيع اقامة اي من هذه الحصون، إلا اذا فتحت كل هذه العيون المغمضة.

كانت بغداد جميلة كعهدنا، بل كانت اجمل. كان سوق المريد، عامراً وتبارى الخطباء والشعراء والقي محمد الفيتوري قصيدته العصماء، لم يتركوا لك ما تقول.

تنفس الناس الصعداء، ودفنوا موتاهم وجففوا دموعهم. الحزن دائماً قريب من السطح في طبع العراقيين الاريحي، ولكنهم تناسوه واخذوا ينظرون إلى المستقبل بثقة من قاوم وصمد، ودفع الثمن. ينظر حوله ويرى ماذا تهدم وماذا ظل واقفاً. ماذا ضاع وماذا بقي. وكان من بين ما تهدم جهاز مكافحة الأمية.

توقفت الحملة خلال سنوات الحرب، وبدأت الأمية تزحف من جديد، حتى وصلت الآن إلى ١٥٪ من عدد السكان حسب تقديرنا. إلا أن عبد الحسين زويلف كان وثاقاً انهم يستطيعون القضاء عليها بسهولة، وقد صدقته، فقد كانت وراءهم تجربة عظيمة، والحملة التي قاموا بها، أصبحت مضرب المثل في المجتمع الدولي.

استقبلني بابتسامته الودودة ووجهه الطيب، ورافقني طوال اقامتي، وكان سعيداً متفائلاً. لا غرو فقد خاض المعركة من قبل، مساعداً لطه يس اسماعيل، الذي كان رئيساً للجهاز التنفيذي. استمرت الحملة سبع سنوات منذ عام ٧٨. لاحقوا الاميين في كل مكان، في الاموار حيث يعيش الناس في جزر في الماء في مضارب البدو. في قرى السواد بين النهرين. قضوا على الأمية قضاء تاماً. وكما تتحول احوال

الحروب إلى اساطير، تحولت تفاصيل حملة مكافحة الأمية، إلى اسطورة مثيرة في خيال عبد الحسين زويلف.

تصدت الكويت بعد بغداد، وهناك لقبت عبد العزيز النجدي، مدير جهاز تعليم الكبار ومكافحة الأمية في وزارة التربية. رجل آخر من هؤلاء الرجال الصالحين. مثل أخيه في بغداد تماماً. كانه هو. وقد اكتشفت خلال تلك الرحلة أن كل الرجال والنساء العاملين في ميدان مكافحة الأمية في العالم العربي، هم من طينة واحدة. الطيبة ودمائة الخلق وحب الخير والايمان العميق بقيمة الانسان.

بعض المهين والحرف تفعل هذا الاثر في اصحابها. اطباء، على وجوههم شيء ما، كأنهم يعرفون سرأ لا يعرفه بقية الناس، ربما لكثرة ما راوا من تقلبات الحياة والموت. وهؤلاء يرون معجزات تحدث امام اعينهم يوماً بعد يوم، هذه الكتل البشرية البكماء، مثل الحجارة قبل ان تصنع منها التماثيل، فجأة تنطق وتري. الرجل في السبعين، والمرأة في الستين، بعد امد من الظلام، تنحل لهم الرموز، وتنشك الغار الحروف. ك... ت... ب... /كتب/ ع... و... ف... /ع/.

نظرت مع عبد العزيز النجدي في فصول محو الأمية إلى وجوه الاميين، رجالاً ونساء، فجأة تسع بالحياة حين يقرأون ويكتبون ترى على وجوههم فرحاً مشوباً بالدهشة، كمن يخرج دفعة واحدة من الظلام إلى النور. ما الذي جاء بهذا الرجل الطاعن في السن؟ وهذه المرأة ماذا يجديها ان تتعلم الآن؟ انها تلك الرغبة المتأصلة في الانسان ان يعرف ويدرك ويتواصل بطريقة افضل مع الآخرين، إلا ان معظم الذين يقبلون على فصول محو الأمية تحذوهم ايضاً رغبات ملحة لتحسين اوضاعهم المعيشية.

وجدت في الكويت جهازاً ضخماً لمكافحة الأمية، وهو احسن جهاز رأيته في البلاد التي زرتها. كان معداً اعداداً عالياً، وفيه كفاءات ممتازة في ميادين البحوث التربوية والبحوث المتعلقة بمكافحة الأمية، من الكويتيين وغيرهم.

تركزت الكويت قاصداً صنعاء، وقد حرمني ضيق الوقت ان اعرج على دار كريمة واسلم على ساكنها الكريم، الاستاذ عبد العزيز حسين. كان رئيسنا طوال اربع سنوات في لجنة التخطيط الشامل للثقافة العربية التي كونتها المنظمة العربية للتربية والثقافة والعلوم، بدعم مالي من دولة الكويت. اجتمعنا في الكويت وفي تونس وفي صنعاء. وكنا نزدان مع مرور الأيام تقديرنا واحداً لرئيسنا الفاضل. كانت زمرة طيبة من بلاد عربية شتى وحين انصرفت الاعوام وفرغنا من عملنا، شعرنا بحزن عظيم، فقد طابت لنا الصحبة، وطاب لنا العمل برئاسة ذلك الانسان الغد. ومهما يكن فان تقرير اللجنة، وهو من عدة مجلدات، وقد ترجم إلى الانجليزية والفرنسية، سوف يظل اثراً جليلاً في ميدان العمل الثقافي العربي، ومأثرة لا تنسى لدولة الكويت.

غدت بي الطائرة نحو صنعاء. هناك سوف ألقى محمد المضواحي، سوف يكون مثل صاحبيه العراقي والكويتي. وسوف اجد صديقي عبد العزيز المقالح. وسوف أزرع حبة، وارى العيون اليمانية تضيء بالكآبة من ثيابا البراقع. في العالم العربي، عالم الاميين على الاقل، عالم واحد ■

(للحديث بقية)

المرآة



بقلم الطيب صالح

نحو أفق بعيد

٤٠

وصلت «سيدني» ليلا، وكانت من الجو مثل اغلب المدن، مساحات من الضوء تتسع أو تضيق، هذه على هضبة، وهذه في واد، وهذه على ضفة نهر، وهذه على شاطئ بحر، مدن تبدو في حين تجيئها ليلا، كأنها معلقة بين السماء والأرض، بين الظلام والظلام، شيء يبعث على الأسى، الإنسان، هذا المخلوق القوي الضعيف، الغني الفقير، يبذل جهدا بالنسبة ليؤكد ذاته وسط وحشة الكون وذلكم أحساس ظل يلح على شيخنا الجليل، أبي العلاء عوى في ظلام الليل عاف لعله

بجانب واني والديار عواي
صوافن خيل عند باب مملك
جمعن وما ايامه بصواي

ها هنا مساحة شاسعة من الضوء على شاطئ بحر، كنت قد تركت «الدوحة» في عز الصيف، ونسيت أن الصيف في الدوحة شتاء في سيدني، وفي عز الصيف، من يذكر الشتاء؟ لذلك لم اخذ للبرد عدته، فوصلت في شتاء زمهرير وايضا شعرت بالوحشة، رغم انني اخو سفر، عاشق ترحال، كأنني شعرت انني ابتعدت جدا هذه المرة عن العالم الذي الغته والشرق غرب والجنوب شمال، ولا بد من احداث فقرة كبيرة في بيداء الخيال، اوه، واين وادي هور ووادي الخزاسي ووادي العقيق من هذه الاصفاة؟ ولم اكن اعرف احدا، ولم يستقبلني احد في المطار، ومع ذلك سمح لي مسؤول الجوازات بالدخول في اقل من دقيقة لا اذكر انه قلب صفحات الجواز، او تأكد من وجود «فيزا»، فقط نظر الى الجواز ونظر الى ثم تمنى لي اقامة سعيدة، وقد عجبت لذلك، نظرا لما حدث من سفارتهم في دلهي، ولولا سعة حيلة «منسي» لعلني لم اكن لاجيء هنا اصلا.

قلت اذهب الى «هلتون»، فلم اكن قد حجزت مسبقا، فهذه الفنادق التي اقامها مستر هلتون كصرح «حضاري» يخلد ذكراه، هي هي اينما حللت، السعر يزيد قليلا او ينقص قليلا، والغرفة تكبر قليلا او تصغر قليلا، وبوسعك ان تدخلها وانت مغمض العينين، لتعرف اين الحمام، واين خزائن الثياب، واين السرير، وقد جمع مستر هلتون، كما يفعل الامريكان، بين الدنيا والدين، فوضع في كل غرفة من غرف فنادقه المنتشرة في كل انحاء العالم، انجيلا، فضمن بذلك، كما ظن، ملايين الدنيا وثواب الآخرة، الحمد لله، بدأت تجد الان في بعض فنادق المسلمين، مصحفا شريفا، وسهما بذلك امين القنبلة

سألني موظف الاستقبال هل عندي حجز، فقلت له دون تفكير «نعم»، نظر فوجد اسمي، يا للعجب، وقال - «نعم، يوجد حجز باسمك، انت موظف في الشركة العالمية للسباحة، اليس كذلك؟»

لا حول ولا قوة الا بالله، اذا «منسي» في المدينة، كنت قد ضلقت به ذرعا في «دلهي»، كما كان يحدث احيانا، ونحن نضيق ذرعا حتى بمن نحب، وكان يريد ان نساغر الى «سيدني» عن طريق «يومباي»، وكنت انا قد عزمت ان اذهب عن طريق «بانجكوك»، وهو الطريق الاقصر، فافترقنا، سافر هو في طريق وانا في طريق، وقلت لعل الطريق تذهب به وجهة اخرى، وانقرغ انا للهمة التي كلفتني بها دولة قطر، دون ان اشغل نفسي بعبث «منسي» وابتكاراته، لكنني الان سعيد انه موجود في «سيدني»، ان لك صديقا في تلك المدينة الغربية في ذلك العالم البعيد، واتضح لي فيما بعد، ان وجوده كان خيرا وبركة، فقد كان في نعم الرفيق وايضا نعم المعين، ومع ذلك فقد استكثرت ان اكون عاملا في شركة «منسي» العالمية للسباحة، قلت لموظف الاستقبال -

انا في الواقع اعمل في حكومة قطر وليس في الشركة العالمية للسباحة.
قال الموظف «اه»، ولم افهم الا فيما بعد، لماذا قال «اه»، بتلك الطريقة، جاءني «منسي» بعد منتصف النهار، بعد ان تمت وصحوت على مهل، وكان رغم كل شيء، انسانا مهذبا، لا ينقل عليك، الا احبانا، واذا شعر انك تريد ان تخطو الى نفسك بترك وشانك، قال، اول ما فتحت له الباب، دون تحية، كأننا لم نفرق في «دلهي».

اياه ياخوي العباطة بتاعتك دي،
اياه.
اياه حكاية انك موظف في حكومة قطر دي؟ وانا قابل لهم انك موظف في الشركة بتاعتنا،
«طيب ما هي دي الحقيقة»

انت عارف بالتهاليل بتاعتك ضيلت على نفسك قد اياه
خمسين في المائة، احنا كشركة سياحية بناخذ خصم خمسين في المائة في الهوتيلات،

«يا اخي انا موفد من دولة في مهمة رسمية، يعني عاوزني احب آخر الدنيا وعشيل او فر شوية دولارات اكذب على الناس؟ وكمان اكون موظف مع مين؟ مع شركة سياحة فالصو ما حد سمع بيها،

«طيب يا سيدني، خليك زي ما انت، حتفضل طول عمرك مغفل، عامل انك ما تكذبش والكلام الفارغ دا، اه، ولا قول لي.. انت لازم معك فلوس كثير، انا نسيت انك بتشتغل مع الجماعة بتوع البترول»

لسوء حظي، كما اكتشفت بعد ذلك، ان «منسي» ظن بالفعل انني احمل مالا كثيرا، لانني اعمل في دولة بترولية، فكان يستضيف الناس في الهوتيل، ويوقع الفواتير على رقم غرفتي، هذه الالاعب الصغيرة كانت تسعده جدا، ايام كنا معا في لندن، كان يدخل كافتريا البني بي سي (B.B.C) ويأخذ ما يشاء من اطعمة، ثم يذهب ويجلس دون ان يدفع، يفعل ذلك ليس خلسة ولكن عيانا بياننا، كانه حق من حقوقه، ولما عاد من امريكا واستقر في «عزيبته» في جنوب انجلترا، قضينا معه «ويك اند» انا وعائلتي، فاحتفي بنا، كعادته، ولم يال جهدا في اكرامنا، ولما اوصلنا الى محطة السكة الحديد لنعود الى لندن، لاحظت انه اخذ يمازح الحارس على الباب، ثم غاطله وتسلسل دون ان يدفع ثمن تذكرة الرصيف، وهو ليس اكثر من بضعة «شيللنات»، قلت له -

«الله يلعنك، انت مهما تغتني تفضل برضك شحات»

اضحكه ذلك جدا، فقد كان يفعل تلك الاشياء بحكم دافع طفو لي للضحك، ليس اكثر.

سألته الآن، ونحن في فندق «هلتون» في «سيدني» - «كيف عرفت موعد وصولي؟»

قال ضاحكا، لسبب سوف تعرفونه فيما بعد -

«ما هو اصله صديقي «درفاء» اداني تفاصيل رحلاتك»

«طيب وكيف تاكدت اني حانزل في الهوتيل بالذات؟»

«تليباتني حاسة سادسة»، انا كنت متأكد انك حتنزل في الهوتيل دا، انت ما تعرفش الحكاية دي؟ اني باعرف الحاجات قبل ما تحصل وعلى اي حال لو كنت نزلت في هوتيل ثاني، كنت حادور عليك والايقب، يعني ختروح فين؟»

(للحديث بقية)

المرآة



بقلم الطبيب صالح

نحو أفق بعيد

٤١

وانا اتاهب للسفر الى «دلهي» كلمني «منسي» من لندن. كان عصر يوم جمعة. ولم اكن سمعت منه منذ اشهر.

- اسمع يا طبيب. انا حاصر عليك بكرة اخذ معاك كم يوم ومن هناك اسافر للرياض.

- بكرة انا مش حاكون موجود في الدوحة لاني مسافر.

- على هين؟
- على دلهي
- وعندك ايه في دلهي؟
- مسافر في مهمة

- لا يا شيخ؟ طب اسمع. والله دي فكرة كويسة، ايه رايت اجي معاك؟ اصلي انا ما زلتش الهند قبل كدة.

- يا ابني انا مش مسافر من لندن الى اكسفورد او ادنبرة.. بقول لك انا مسافر الى دلهي ومنها الى سيدني، ومنها الى طوكيو. ورايح في مهمة رسمية، يعني شغل، مش رايح اتفصح.

- طب وماله؟ دي حتكون رحلة ظريفة جدا، انت تعمل شغلك وبرضه تتفصح ونضحك وتفرج ع الدنيا، باللا بلاش غلبة، انا خلاص قررت اجي معاك، بس انت اديني تفاصيل الرحلة

- يا ابني انا مسافر بكرة صباحا الساعة سبعة ودلوقت الساعة اربعة، ايمتي حتحصل تعمل الحجز؟

- قلت الساعة سبعة؟ اه، دي طائرة الـ B.A. انا كنت حاجز على طيران الخليج، لا دي بسيطة. انت نسبت اني عندي شركة سياحة؟ خلاص بكرة حتلاقيني في المطار، دي حتكون رحلة عظيمة جدا.

كان يمر على الدوحة بين الحين والآخر في سفراته من الرياض والبيها. فقد كانت له فيها اعمال تجارية ثم تزوج هناك واصبح له في الرياض زوجة ودار. استقبلته ذات مرة في مطار الدوحة، فاذا هو قد تزى بزى عربي، ولم اكن قد رايت على تلك الهيئة من قبل عيافة و«دشداشة» و«غطرة» وعقال، وله لحية صغيرة على شكل مثلث و«عنفقة»، وليس له شارب، بدا في كاشه «خواجه» يمثل دور عربي في فيلم امريكي. حجزه موظف الجوازات، فذهبت اسأله قال:

- هادا الرجال يحمل جواز سفر امريكي واسمه مايكل ما ادري ايش، وهينته عربي ويتكلم عربي ويقول انه مسلم، ايش هادا؟ هذا لازم جاسوس.

كان «منسي» سعيدا جدا بذلك الوضع المحير، مستغرفا في الضحك قلت للشباب القطري:

- يا ابني هذا ليس جاسوسا، هذا بلوى اكبر، ارجوك دعه يدخل على مسؤوليتي.

لحسن الحظ اعدت ضحكة «منسي» العجيبة التي تقول ان صاحبها لا يمكن ان يخشى سراً او يضر سراً، اعدت الشاب القطري، فاخذ يضحك هو الآخر. اذن له بالدخول ولكنه احتفظ بالجواز من باب الاحتياط. انتهت المحاكمة التلفونية وانا بين مصدق ومكذب وفي

صباح اليوم التالي في الساعة السابعة دخلت الطائرة فاذا ثمة صاحبي بعيه. لا بد انه نام طول الطريق من لندن واستيقظ نشاطا كعادته. يقال ان نابليون كانت عنده هذه الموهبة. ينام في أي وقت وفي أي مكان، واحيانا ينام لمضعة دقائق ويصحو فكانه نام ساعات واذا كانت العبقرية تقاس بسهولة النوم، فانني اشهد ان «منسي» كان عبقرى. نام في صحن الحرم المكي الشريف بين صلاة المغرب والعشاء، والناس في زحاح وتلهيل وتكبير. كان ذلك في عمرتي الاولى. وقد زاملني فيها وكان معنا شاب من الحرس الوطني السعودي، فتكون في الشوط الخامس في السعي، و«منسي» ما يزال يتلكا في الشوط الثاني. نمر عليه فنجدته قد ضل الطريق فنوجه وجهه الصفاو المروة، ثم نعود اليه فاذا هو قد تاه مرة اخرى. ولما قضي سعيه بعد لاي، نام نوما عميقا وكان في داره وفي غرفة نومه، الى ان نهبناه لنعود الى جدة، قلت له:

- الله يخيبك، هل هذا مكان ينام فيه الانسان؟

قال:

- ما هو اصلي انا ماليش ذنوب، عشان كده نمت لاني مرتاح الضمير.

اسعدته الدهشة على وجهي، وكان قد حجز في المقعد المجاور له. لم يلق ليحييني ولكنه اخذ يمس كرشه بيديه وينظر حوله كأنه يريد ان يشهد جمهورا غير مرئي على المحجرة الجديدة التي انجزها.

- شاف يا ابني ازاى؟ انت ما تخيلتش اني حاقدر اعمل الحكاية دي، مش كده؟ دا انا قلبت الدنيا، عملت اللي ما يعمل عشان اغير الحجز

بعد ذلك «دوشني» بالثرثرة الى ان وصلنا دلهي فاضاع على تلك المنعة الخاصة التي اجدتها في لقاء مدينة جديدة على من الجو. ان اقدم على مدينة لا اعرفها، في وضع النهار، اراها من الطائرة على كامل هيئتها مثل نموذج مصغر. بجبالها اذا كان لها جبال، وصحرائها اذا كانت وسط صحراء، ونهرها اذا كانت على نهر. ولعل تلك هي الصورة التي تعلق في الذهن. بعد ان ينسى الانسان اسماء الشوارع واشكال المباني وزخمة الناس والسيارات.

انش له الدكتور حسن نعمة سفير قطر، وابراهيم طه ابوب سفير السودان، والفاء كانهما يعرفانه من زمن فاسداه المكان وطابت له الحياة. وكان «منسي» رحا الله، على ذكائه وسعة تجربته، فيه براءة الطفل. حين يحس انه محبوب ومقبول، يكون في احسن حالاته، فتصفو روحه ويشرق ذهنه وتتاجج طاقة المرح الساكنة اصلا غير بعيد في طبعه.

كذلك كلف به «درفا» الموظف الهندي الذي كلفه السفير القطري بتنظيم مقابلاتي وتقلاتي ولكنه اخذ بـ «منسي» وانصرف له كلية ■

(للحديث بقية)

أصغر وأجمل



بقلم الطبيب صالح

نحو أفق بعيد

٤٢

الدكتور حسن نفعة الذي ما يزال سفيرا لدولة قطر في دلهي، إنسان لا تجد مثله كثيرين نال درجة الدكتوراة في اللغة العربية من جامعة كيمبريدج، واختارته دولة قطر سفيرا لها في الهند منذ ما يربو عن عشر سنوات، فأحب الهند وعشق فنونها وأدائها وحضارتها فطاب له المقام فيها. وكانوا كلما أرادوا أن ينقلوه إلى دولة أخرى، يهرع إلى الدوحة راجيا أن يتركوه حيث هو، فيتركونه وهذه من حسنات دولة قطر. وأنا أشهد عن تجربة أنها دولة كثيرة الحسنات، إذا وجدت أن سفيرا ارتاح في بلد، لا تنعص عنه بالنقل. وقد تركت صديقا عبد الله الجديدة في الرباط عقدا من الزمان

هذا. وقد عاش حسن نفعة السودانيين في كيمبريدج، وفي الدوحة، فحفظ شعر الحرذلو الكبير والتجاني يوسف بشير. يقول لك حين تلقاه، ما زول. أنا راقد قفي وأمدح المصطفى. والسوداني حين يقول ذلك، فمعناه أن الحياة قد طابت له خصوصا، فيجيش خاطره بمدح الرسول صلى الله عليه وسلم

لم تكن هذه الصورة بعيدة عن حال الدكتور حسن نفعة حين لقيناه، «منسي» وأنا، في دلهي، وجدنا له دارا جميلة رحية مبنية على طراز إسلامي معوي مع مسحة من الطراز الإنجليزي في عهد الـ «راج» (Raj) ولدار بلحة واسعة مغشبة ترعى فيها أبقار تدر له اللبن غريضا. وكان يعيش حياة بسيطة متقشفة، طعامه اللبن الرائب في الغالب. وكان كثير السفر، طاف الهند شرقا وغربا، ودرس موسيقاها وفنونها وعمارتها وأدائها. وهو إلى ذلك شاعر مجيد وراوي للشعر العربي قديمه وحديثه، ومغرم بصفة خاصة بالشعراء المسلمين «الميتافيزيقيين» أمثال جلال الدين الرومي وابن الفارض والشيرازي وسعدي. لذلك لم يكن عسيرا عليه أن يجد له «منسي» مكانا في تلك الأفاق الرحبة التي يعيش فيها، فتالفا دون مشقة.

كذلك أنس له «منسي» سفير السودان، إبراهيم طه أيوب فهو من «الحلفاوتين» كما نقول، نسبة إلى «وادي حلفاء»، هؤلاء قوم يعتبرهم المؤرخون أعرق شعوب وادي النيل، وكانت ديارهم تمتد من جنوب مصر إلى شمال السودان، مكونة ميلقا من أجمة جيبية بين البلدين. إلى أن أغرق مياه السد العالي ديارهم، فنقل سكان الجانب المصري إلى أطراف الصعيد، وأجل الذين في الجانب السوداني إلى أرض البطانة في الشرق. الله أعلم أيهما الفضل، أن لو بقيت تلك الرحمة موصولة، أو أن تكسب مصر مزيدا من الماء ومزيدا من الكهرباء

وهم قوم اشتهر عنهم في شطري وادي النيل، أنهم أهل نزاهة واستقامة وجراة في الحق، ونوع من القول السليخ الذي يلقونه بشكل عفوي. ونحو ذلك فهم أهل دراية وضاع دول. فقد كان منهم سدنة المعابد الفرعونية من قديم، وفي دمهم الاخلاص للرمز والتفاني في خدمة «المؤسسة». وحين جاءهم العرب بالإسلام الحنيف، قبلوه سلما لا حربا. لأنهم راوا لأول وهلة أنه الحق ومنهم على الأرجح «بلال» مؤذن الرسول... ومنهم في تاريخ السودان الحديث جمال محمد أحمد، أحد المفكرين المعنودين بين عذوتي الوادي والذي لم ينل حظا كما يجب، رغم أنه صار سفيرا ووزيرا. ومنهم إبراهيم أحمد، أحد رواد الحركة الوطنية وأحد المؤسسين لجامعة الخرطوم. ومنهم داود عبد اللطيف الذي كان محافظا ثم وزيرا. وكان من الأكفاء ومن مشاهير الأذكاء الظرفاء في السودان. ومنهم محمد نور الدين، من الرواد الأولين، ومن مؤسسي الحزب الوطني الاتحادي، وكان يدعو صراحة إلى وحدة اندماجية بين مصر والسودان

يُحكى أن محمد نور الدين كانت تربطه صداقة قوية بعبد الله خليل، الذي كان على التقيض تسانا في فكره السيلسي، فقد كان من قادة حزب الأمة وصار رئيسا للوزارة في أول حكومة لحزب الأمة. وكانا فقيرين شأن كل الزعماء تلك الأيام. علم السيد عبد الرحمن المهدي أنها في ضائقة، فكلف أحد معاونيه أن يحمل مبلغا من المال لكل واحد

منهما. ذهب الرجل أولا إلى عبد الله خليل، ولما أعطاه المال، قال له -

«محمد نور الدين أكثر حاجة مني فإذهب بالمال إليه، قال له الرجل - أخذ المال فان السيد أرسل مثله لمحمد نور الدين - ثم ذهب الرجل إلى محمد نور الدين، ولما أعاد الهدية، قال له -

«عبد الله خليل أحوج مني فخذ له - فاهمه أن السيد قد أرسل مبلغا مثله لعبد الله خليل، ولما جاء إلى السيد عبد الرحمن المهدي، عليهم جميعا رحمة الله، وقص عليه القصة، بكى...

جمععتي الظروف صدف في عمان بالأردن منذ علمين، باحد المهدي، وهو ابن السيد عبد الرحمن المهدي وعم الصادق المهدي، وكنت قد عرفته في إنجلترا حين كان يدرس في جامعة «أكسفورد»، ثم عملت معه فترة قصيرة لما كان وزيرا للأعلام في حكومة الصادق المهدي الأولى عام ستة وستين، وهو من جبلي وبني وبينه مودة. سألته عن هذه القصة فأحكها لي، وقال -

«سوف أقص عليك ما هو أعجب منها. حل وفد من الحزب الشيوعي السوفييتي ضيفا على الحزب الشيوعي السوداني. ولما سمع السيد عبد الرحمن المهدي، نادى عبد الخالق محجوب أمين عام الحزب الشيوعي السوداني، وكان يجذب عليه ويعامله كابنه لأنه كان صديقا لوالده، وقال له -

«يا عبد الخالق، انا سمعت أن الشيوعيين الروس نزلوا ضيوفا عليكم، وأنا أعرف أن حزبكم ما عنده قدرة ضيافتهم وإكرامهم. نحن بهما أن يأخذوا فكرة طيبة عن السودان وأن الشيوعيين في السودان ناس كرماء يقومون بسواحب الضيف. كيف أنتم ماشيين تكرمهم؟»

أجاب عبد الخالق محجوب -
«والله يا سيد نحن ما فكرنا في الموضوع دا... نكرمهم على قدر قدرتنا. يمكن نعمل لهم حفلة شاي».

فقال له السيد عبد الرحمن -

«أبدا. حفلة الشاي مش كفاية. نكرمهم كلهم للعشاء هنا. نعمل لهم عشاء كبير عندي هنا».

وهكذا اجتمع الشيوعيون، سودانيون وبلشفيك، على مأدبة السيد عبد الرحمن المهدي رجل الدين وأمام طائفة الأنصار، وراعي حزب الأمة... أولئك رجال من أمة قد خلت، رحمتهم الله رحمة واسعة

ذلك، ومن قوم إبراهيم طه أيوب أيضا، محمد توفيق أحد أركان الحزب الاتحادي الديمقراطي، وكان وزيرا للخارجية في حكومة الصادق المهدي بعد انتفاضة رجب المباركة، وهو الآن في السجن. وذلك من عجائب السودان، أنه لا يمر عليه وقت الا وتجد فيه زعماء يحكمون، ولهم نظراء داخل السجون، كان هذا العراق الشاسع لا يتسع لهم جميعا في وقت واحد. ومن الأماني العريضة قبل أن يغادر الإنسان هذه الحياة الدنيا، والعمر مثل ظل الضحى أخذ يتقاصر، وذلك الألف الذي كان يبدو بعيدا أخذ يدنو، أن يرى زمانا يكون الناس فيه كلهم طلقاء، ولا يكون داخل السجون إلا القلة الحقيقيون واللصوص الحقيقيون.

كان إبراهيم طه أيوب، الذي تقلبت به الأحوال بعد ذلك، ذكيا، فأحب في «منسي» نكاهه، وكان ضحوقا فاحدا، في «منسي» ميله للضحك، وكان طريفا، فوجد إنسانا لم ير أحدا على شكلته من قبل.

هذا، ونحن في دار الدكتور حسن نفعة في دلهي، صيف عام ثمانين وتسعمائة ألف، والنيل ساكن إلا من عازف سطر على الد «سيتار» تلك الألحان الهندية الحزينة التي تمرق بياض القلب. وقد كان القلب خاليا لم يتنور بعد نارهم من وراء أزروعات، ولا أنبرى له الطيف الذي أقص مضجع البحترى.

الم تر للمبرق كيف أنبرى

خيال الم لها من سوي،

وطيف البخيلة كيف احتضر

ونحن صبور على بطن

أخبار



بقلم الطيب صالح

نحو أفق بعيد

٤٣

انفتحت في «دلهي» الى صفة اخرى في «منسي» لم الحظها من قبل كان مثل بعض الحيوانات التي وهبتها الطبيعة قدرة التكيف الجسدي، حسب البيئة التي تسكنها. فإذا عاشت في خضرة وزرع، يصبح لونها أخضر. وإذا عاشت في الرمل، يتلون جسمها بلون الرمل. طبعه لم يكن متقلبا أبدا. كان دائما على سجيته في كل الأحوال. لكنني نظرت اليه في الهند، فإذا هو «هندي» بالمعنى الجسماني. اكتسى جسمه لونا عميق شمرة، أو هكذا تخيل لي، وبدأ لي شععر رأسه، أو ما بقي منه، مثل شععر الهنود. شاعمت خلجات وجهه وحركات يديه مع تواثر حركات الهنود. وكان يعرف بضع حمل من اللغة الهندية مثل لغات كثيرة لم يكن يعرف إلا جملا منها. يستعملها بطريقة توحي أنه ضليع فيها. أضف إلى ذلك موهبته في رفع الكلفة وتخطي الحواجز، وتعاطفه المتواصل مع الضعفاء وصغار الناس. لا عجب إذا، إن «درفا» أقبل عليه كأنه يعرفه من زمن، وانصرف له كلياً. يكون عندي موعد مع مسؤول في الدولة، فأنا لم أجد سائحا، وإنما جئت في عمل، فلا أجد السيارة. ولا أجد «درفا»، وأذهب إلى مواعيدي في سيارة أجرة وأسال «درفا» فيما بعد... «أين كنت يا «درفا»؟» فيقول... «كنت مع الدكتور أحمد».

وصرت أحيانا اضطر إلى اصطحاب «منسي» إلى مقابلاتي، حتى أضمن السيارة. لو أن دولة قطر كانت تعلم أن «منسي» سوف يصبح طرفا في هذه القضية، فلعلها كانت تعمل على عزيمتها، أو تكلف شخصا غريزيا بتلك المهمة. لقد أخذت قطر قرارات مؤتمرات وزراء الإعلام مأخذ الجد، وكل الكلام عن صورة العرب المشوهة في العالم، وانبرت، نسيابة عن الدول العربية، لدراسة إمكان إنشاء مؤسسة إعلامية كبرى، على نمط المؤسسات العالمية الكبيرة، مثل مؤسسة فورب وروكفلر والمجلس البريطاني ومؤسسة جوتة الألمانية، والمؤسسات الثقافية والإعلامية في فرنسا والسويد واليابان. وكان الهدف، أن تقوم هذه المؤسسة العربية بتمويل ضخمة من الدول العربية البترولية خاصة، وتنطلق في العمل في الأفق الإعلام الرجحية والثقافة والفكر والفن، ناقلة حضارة العرب بكل ثرائها وتنوعها، في ماضيها وحاضرها، إلى شتى أرجاء المعمورة. بمعنى آخر، أن يصبح العرب مشاركين فاعلين في سوق الأفكار المطروحة في العالم، وساهمين بما عندهم في «مائدة» الحضارة الإنسانية، بدل أن يكونوا عالة على الآخرين، يأخذون ولا يعطون. تصور أي حلم رائع لو أنه تحقق. وكان القصد أيضا أن تكون هذه المؤسسة مستقلة تماما، تتحرك بلا قيود ولا حدود، في إطار الهدف السلمي المتفق عليه أصلا، ولا بد لي من القول، احتفاظا للحق، أن سمو أمير دولة قطر تحمس لهذه الفكرة حماسة بالغة، وأيدها تأييدا مطلقا.

وهكذا اختارت دولة قطر رجل الإعلام الكبير، الأستاذ محمود الشريف، وقد كان مديرا لوزارة الإعلام القطرية قبله، لميسافر إلى أمريكا، وانتدبني لأسافر للهند واستراليا واليابان وبعض دول أوروبا الغربية. وقد كلفنا بأن نتعرف على «الصورة» العربية، في تلك البلاد، ونلم بانماط المؤسسات التي على غرار المؤسسة العربية المرجوة. وقد رأينا عجباً. وند الحلم الجميل في مهده لسوء الحظ، ولم ترتفع الهمم إلى مستوى الطموح النبيل. إلا أنني شخصيا استفدت فائدة لا تقدر بثمن. وقد كانت تلك عارفة أسديتها إلى دولة قطر، فلولاها لما أتيت في أن أزور تلك البلاد البعيدة، وأتعرف على تلك العوالم الغريبة.

وصلنا «دلهي» في اليوم الذي مات فيه «سلنجي غاندي»، الابن الأكبر لرئيسة الوزراء، إذ سقطت به طائرته، وكانت تعده ليخلفها في الحكم. وكان شابا مغامرا جريئا، يثر حبا عميقا لدى بعض الناس، وكراهية مريرة لدى البعض الآخر، فوجدنا أغلب الهنود حزائي لمصرعه، وقلة من الشاعتمين. وقد حزن الدكتور حسن نعمة، سفير دولة قطر، حزنا عميقا، فقد كان صديقا لـ «سلنجي»، ومحبيبا به،

ويؤمل فيه خيرا كثيرا في مساندة قضايا العرب. لم تكن الهند غريبة علي، فقد قرأت شعرا رابندراناث طاغور وسيرة حياة غاندي وسيرة نهرو وشاهدت أفلام المخرج الهندي الموهوب «ساجيت زوي»، وشعفت حيا بموسيقى «راي شانكار» واستمعت إلى نهرو القذ عن «ب. ب. يتحدث في نيويورك عام ستين، وكنا في السودان ونحز سنية في المدارس الثانوية أو أواخر الأربعينات، نعجب بافكار المهاتما غاندي، ونتابع باهتمام مسيرة كفاح الهند ضد الاستعمار البريطاني. بل إن ظهور مؤتمر الخريجين في السودان كمنطلق للعمل الوطني، كان متأثرا إلى حد كبير بحركة المؤتمر الهندي. كنا نعرف أسماء زعماء الهند، ونعرف جغرافيتها وتاريخها وتسمياتها أسماء مدنها، ونحفظ قصيدة شوقي التي حيا فيها غاندي وهو في طريقه إلى مؤتمر المائدة المستديرة في لندن...»

سلام النيل يا غاندي وهماك الزهر من ذي
سلام حالب الشاة سلام ناسج سرد

وكنا نظرب بصفة خاصة لقول أمير الشعراء -
وقل هاتوا أصابعكم أنى الحاري من الهند

كنا نحس، أن هذا الرجل التحيل، العاري الجسم إلا من أزار من القطن، نسجه بيديه، ينطوي على معنى جسيم يؤجج خيالنا، كنا قد قرأنا عنه في الكتب في سير المسلمين الأوائل، ولم نره مجسما ملم عيوننا من قبل، اللهم إلا عند قلة من الشكك والزهد.

هذا، وكنت بين السودان والهند علاقة بحكم الاستعمار البريطاني للملدين، في أساليب الحكم والإدارة والذم. وتخطيط المدن. وكان بعد علينا أحيانا بريطانيون عمل في الهند، أذكر منهم ضابطا في الجيش، يدعى كولونيل أكستر، جاء يعلمنا اللغة الإنجليزية، فرض علينا كتابا كان بعيدا عن مداركنا في تلك السن المبكرة، وقد عرفت بعد ذلك بسنوات أنه من روائع الأدب الإنجليزي، وهو كتاب «مذكرات صائد ثعالب، للكتاب الكبير، «سيفريد ساسون»، استسحقنا الكتاب، وقلنا ما لنا ولصيد الثعالب وطلبنا من استاذنا الكولونيل أن يستبدله بكتاب آخر. لكنه استشاط غضبا، وقرعنا بلهجة قاسية متعالية لم نعود عليها. ولما عاد إلينا في اليوم التالي، وجد أننا قد صلفنا له نسخ الكتاب على منضدته، وجلسنا صامتين، علت الدهشة وجهه، ثم صرخ غاضبا -

«ما معنى هذا؟»
لم يرد عليه أحد منا، وظللنا ننظر إليه في صمت. لم يلصر في شتمنا، وقال لنا «هيج، لا تجدي فينا تربية ولا تعليم، ثم خرج. ولما علم ناظر المدرسة بما حدث، وكان اسكتلنديا فاضلا يدعى «مستر لانج»، وكان محبا للسودان، عليما بمبادئ أهله، كلفنا مشقة الكولونيل، فأعادوه إلى بلاده في غضون اسبوع.

كان ذلك أول عمل من أعمال «المقاومة السلمية»، نقوم به، ونحن بعد أبقاع لم نبلغ العشرين، ولم يكن ذلك بوحي من فلسفة المهاتما غاندي، فذلك في طبعنا ومزاج شعبنا، أن نقول الغطرسة والتسلط بالاحتقار والصمت. ثم إذا، نس الكيل وعيل الصير، نهب فجأة، كما يفيض نهر النيل، وبسبب الاغصير في صحراء العثوموز، فعلنا ذلك مع الأتراك ومع الانجليز ومع الحكام الوطنيين «أولاد البلد».

خليل هذا ربيع عزة فاعقلا... هذه «دلهي» إذا، عاصمة «عموم الهند»، «أنسان عين» الامبراطورية البريطانية أيام عزها. مثل الخرطوم كما بنامها المستعمرون، ولكن شتان بين هذه وتلك.

هذا، وصاحبني «منسي»، مثل صاحب الشهوروري «جاء بقتني الأتار»، هو على اثرى وصاحبه «درفا»، على اثره، وكلنا نغذ السير نحو ذلك الأفق البعيد القريب ■

(الحديد - ع)

أمر وأمر



بقلم الطبيب صالح

نحو أفق بعيد

٤٤

طوال اقامتي في «دلهي» او «دلهي الجديدة» بالاحرى، لازمني احساس كائن في دار من هذه الدور، التي بناها في ضاحية من ضواحي الخرطوم، ثري من اثرياء العهود الاخيرة. يكون اقرب من تجارة العملة او تهريب البضائع المخظورة، او بطريقة من الطرق الملتوية التي تشجع عليها قوانين مرتجلة لا تملك الدولة القدرة الكافية على تطبيقها غير بعيد بيوت الطين وزحام الفقراء، وصاحبنا هذا اقام داره على مساجة اقدنة، وجعل فيها حوضاً للسباحة وملعباً لك... تينش، وملعباً لك... سكواش، وما شئت من غرائب حوطين يسور من الحجر، فوقه اسلاك شائكة تحمي الدار من غائلة اللصوص والمخطفين. طوابق فوق طوابق، وغرف وراء غرف مثل الهوتيل، ولا هي بالقصر ولا بالهوتيل، تغلب فيها نوافذ الزجاج في عز الحرو الشمس الساطعة، والاثاث هذا من امريكا وهذا من ايطاليا وهذا من هنج كنج شيء مفقود لا يمت بصلة الى البيئة التي وجد فيها، مثل المستعمرات القديمة التي اقامها اليونان والرومان في الصحراء، ما لبثت ان طمرت بها الرمال وعفى عليها الزمن.

كذلك هذه المدينة، انشأها الانجليز حاضرة للمكهم في الهند، وسط عالم غريب كأنه بحر متلاطم الامواج ارادوها واحدة من الحضارة، والنظام والعقل، وسط عالم «همجي»، في زعمهم، وتيارات من العوضى، وكما ان «سير كرسطنز رن»، خطط مدينة لندن واعطاها سميتها وطابعها، فقد استقدموا الى الهند مهندسا معمارياً شهيراً هو «سير اذون ليونترز» فرسم «دلهي»، وفي ذهنه قصر بكنجهام وشارع الـ «مال» الذي يؤدي الى ميدان الطرف الاغر وحدائق سان جيمس ومقر رئاسة الوزارة في داوونج ستريت ومؤسسات الدولة في واينهور. واذا كان قصر بكنجهام هو «صخرة» لندن ومركز الجذب فيها، فمركز الجذب في «دلهي» هو مقر الـ «قايس روني» نائب الملك او الملكة، وظل العرش البريطاني على ارض الهند. الميدان هنا اوسع من الميدان امام قصر بكنجهام، ودور الحكم المبنية من حجر احمر اكثر فخامة وابهة من مثيلاتها في لندن. هنا بنوا ببذخ، لانهم ظنوا انهم سوف يبقون الى الابد، اما عندنا فلم تكن عندهم نية البقاء، فبنوا بلا اكتراث وعلى عجل.

اقاموا نمطاً هزيلاً مصغراً في الخرطوم المسكنة اتخذوا القصر الذي قُتل فيه غوردون، مقراً للحاكم العام، وجعلوا امامه باحة على نمط الباحة امام قصر بكنجهام، ومذوا شارعا على غرار شارع الـ «مال» في لندن، يؤدي الى محطة السكك الحديدية. وبما لبثهم تركوا لنا محطة معتبرة، مثل محطة واترلو او فكتوريا، او على الاقل مثل محطات الاقاليم في «نيوكاسل» او «برائتن». اذا لحصدنا لهم ذلك ابد الدهر، لان الحكام الوطنيين «اولاد البلد» لم يجدوا

الوقت حتى الان لينبوا محطة تليق بدولة مساحتها مليون ميل مربع. حتى الحكام العسكريون، وهؤلاء كما قرأنا في كتب التاريخ، يحبون الابهة والفخفة لم يفعلوا ذلك عندنا. لم يحد علينا الزمان الى الان، بحاكم مثل «نابليون» او حتى «فرانكو» يترك وراءه صرحاً فخماً تسمو اليه انظار الاجيال القادمة بخليط من الاعتزاز والمهابة وتقول «صحيح انه اغلق البرلمان وحظر الاحزاب وعطل الصحف، ولكن انظروا ماذا بنى» ياله من حاكم عظيم حقاً.

لم يكن عسيراً على عوادي الزمن ان تطمس معالم الخلم المتواضع الذي حققه الحكم البريطاني في بلاد السودان، الاشجار الضخمة المتشابكة الوارفة الظل على امتداد شارع النيل، شارع كتشنر سابقاً، وكانوا قد جاءوا بها من الهند، شاخت وبعضها سقط وبعضها قطع. قصر الحاكم العام، مقر رئاسة الجمهورية الان قالوا ان سقفه تداعى وحيطانه تشققت. الميدان الذي وزّنه اياه الانجليز، وكنا نراه جميلاً اول عهدنا بالخرطوم، ذبلت ازهاره وصبحت اشجاره، وهاجرت اطياره، وبس غشبه.

الحلم الانجليزي المتواضع لم يبق منه الا اسداء بعيدة، ابعد مما وجد امرؤ القيس من اطلال سلمى بذى خال.

ومع ذلك اجد في «دلهي» طعم الخرطوم، الحلم الاميرياني هنا اعظم واوسع مدى. لكنها هي الاخرى سوف تستسلم مثل الخرطوم، فهذه احلام مهما كانت جميلة فهي احلام الغرباء، والسودان مثل الهند، يحلم بمنطق آخر.

غير بعيد من وسط المدينة، وراء الشوارع الواسعة والباحات الفسيحة، وراء الاشجار الظليلة والسقف المهدبة، وراء القلل الراقية والهوتيلات الـ «لوس»، تترى امواج من البشر هم اهل الهند كما كانوا منذ قرون، تتدافع نحو مركز المدينة لتغرق الحلم الاميرياني الى الابد. وما هي ذي الطلائع ابقار مهمة ترعى في الاحياء الراقية من نافذة غرفتك ترى الحواة ينفخون مزاميرهم للافاعي، وترى مشعوذين يوهمونك بانهم يجعلون الناس يسبحون في الهواء، تسمع صراخ الباعة وزحمة البشر، وخليطاً من الانغام الهندية وموسيقى القرب الاسكتلندية ومارشات عسكرية من ابواق نحاسية، والخلق حول المسجد الكبير، كأنهم في يوم الحشر.

ماذا يفعل «النظام» الانجليزي في هذه العوضى الازلية؟ لا بد انهم كرموها هذا التراحيم وهذه الضوضاء. هؤلاء الناس المنطوون على انفسهم المؤثرون العزلة والابتعاد عن الآخرين، كل واحد منهم جزيرة قائمة بذاتها، ما الذي اتى بهم الى هذا العالم المسحور وجذبهم الى هذا الافق البعيد المحير؟

(للحديث بقية)



بقلم الطبيب صالح

نحو أفق بعيد

٤٥

أن ترى (جواهر لال نهرو) وتستمتع الى حديثه
عن قرب

كان ذلك عام ستين، في ذلك الاجتماع المشهود
للجمعية العمومية للامم المتحدة في نيويورك
كان يشرح للأمريكان في مؤتمر صحفي، ان عدم
الانحياز ليس (معسكرا) ولكنه تجمع لدول يوحد
بينها التقارب في وجهات النظر والمصائر المتماثلة
والخوف من أن تكون ذبلا لهذه القوة العظمى او تلك

كانت الولايات المتحدة قد استقرت الى ان عدم
الانحياز (معسكر) من دول تضمر العداء لها، وتدور في
ملك الاتحاد السوفييتي، فقال لهم (نهرو) ان تجمع
عدم الانحياز ليس موجها ضدهم او ضد اي احد

وقد شهد الأمريكان في تلك الدورة أكثر من دليل على
صدق قول (نهرو) فقد تصدى عدد من زعماء عدم
الانحياز لـ، نيكيتا خروتشوف) زعيم الاتحاد
السوفييتي تلك الأيام، وكان احمد سيكتوري رئيس
غينيا الذي كانت وسائل الاعلام الأمريكية تصوره
بأنه شيوعي، يخرج من الاجتماعات ويؤدي فريضة
الصلاة ثم يعود. كذلك شرح لهم (نهرو) لماذا يتحتم
عليهم ان يعترفوا بالصين الشيوعية ولا يحولوا دون
قبولها عضوا في الأمم المتحدة.

وقد ابهر بهم في افاق التاريخ والحضارة
والـ، جيوبوليتيكا) ليوضح وجهة نظره.

كان صوته هادئا سهل الوقع على الأذن ووجهه طلق
مبتسم، وسنفته جميعاً، برزته الهندي وغطاء رأسه
الابيض، والوردة الحمراء في عروة سترته، التي تميز
بها، كل ذلك كان يشع جاذبية لا مراء فيها.

اصغوا كالمسحورين، الى حديث رصين متنوع،
زاهر بالحكمة، ومفعم بمرح داخلي، كما تجد عند
كبار الفلاسفة والمفكرين، حديثاً بسيطاً بلغة انجليزية
عالية، ولكنها بعيدة عن التقعر، وكان في الوقت نفسه
شامخاً حثم الكبرياء.

ولم تكن تلك هي المرة الاولى في تاريخ الانسانية،
يقف فيها مثل ذلك الموقف، رجل هو في حقيقته اكبر
بمراحل من اناس يرجحونه في موازين القوة
واي زعيم امريكي في تلك الحقبة وما اعقبها من
حقب يمكن أن ترجح به كفة الميزان على (نهرو)؟

عجب البريطانيون حين انضوت الهند المستقلة
تحت لواء (رابطة شعوب الكومنولث، وعجبوا أكثر
حين قال (نهرو) الذي قضى زهرة شبابه في سجونهم، في
خطبة له في لندن أنه لا يحسن بأي مرارة تجاه
بريطانيا، وهتف تشيترتشل الاستعماري اللدود
وعيناه تكادان تدمعان من التأثر

(هل هذا ممكن؟ نهرو لا يكرهني!)

لقد حاول تشيترتشل جهده ليحول دون استئصال
الهند، واتهم رئيس الوزراء العمالي (كليمنت اتلي)
الذي استقلت الهند في عهده، بأنه يتخلل عن ائمن ما
تملكه بريطانيا

ياله من فارق بين الرجلين! الرجل العظيم، والرجل
الذي تمنحه الظروف مخائل العظمة
واذا كان غاندي هو روح الهند، فان (نهرو) هو
مؤسسها وواضع دعائياتها الاولى

كان محظوظا ان الاقدار قد جمعت بينه وبين ذلك
الانسان في ذلك الوقت بالذات، كانهما كانا على قدر
وذلك لا يحدث الا نادراً، ان يوافق رجل الروح، رجل
الفكر والعمل

نشأ في بحبوحة شان نبلاء الهند الـ (براهمين)
ودرج مع السادة المستعمرين في (ايتون) وفي
(أكسفورد) وقد استهوته حياتهم واستجاب لاغراءات
حضارتهم.

وكان في سجيته أميل للوردات الانجليز منه الى
فقراء الهند، ولو ترك نفسه على سجيته لعله كان
بعضي مثل مئات الهنود من طبقته، ويصبح آخر
ان لم يكن انساناً تافهاً، فانساناً لا يؤبه له.

ثم تلاقيا هو وغاندي، كأنما على ميعاد، تعهده
وحرك فيه طاقات التفرد الكامنة، وبث فيه من روحه،
فبدأ رحلة طويلة مضيئة في استبطان مجاهل وطنه،
الذي ينتمي اليه ولا يعرفه، واستبطان مجاهل نفسه،
عاش على الكفاف، ولبت في السجن سنين، ومشى حافياً،
وانخرط في زحام الدهماء وغمار الناس فتح قلبه
وعقله لتلك الاصوات البعيدة الخافتة، التي كانت
تطمسها حياته في (ايتون) و (أكسفورد).

كل ذلك تجده في كتابة (اكتشاف الهند)، ولما
المستعمرون ان زمانهم في الهند قد انقضى، كان (نهرو)
مستعداً، كذلك طوال التاريخ، تجيء لحظة يحس فيها
الدخلاء، مهما كانت نواياهم حسنة، ومهما كانت
احلامهم كبيرة، ان زمانهم قد انقضى ولا بد من الرحيل
ولم يكن في الهند كلها، رجل واحد يمكن ان ينافس
(نهرو) على الزعامة.

كنا نتابع كل ذلك، ونتأثر به ونحن احداث في
مدرسة (وادي سيدنا) الثانوية على بعد أكثر من الف
ميل، وشأننا في ذلك كما قال البحري
ذاك مني وليست الذارداري

باعتقادات منها ولا الجنس جنسي
ومن اجل ذلك ايضا، لم تكن الهند غريبة علي،
ولذلك وجدت في (دلهي) ما يذكرني بالخرطوم
هؤلاء القوم الفرنجة الجرمان الانكلو سكسون، كل
واحد منهم جزيرة قائمة بذاتها، أي حلم غريب طاف
بهم فساقهم الى هذا الأفق المسحور! ■

(للحديث بقية)

أحمر وراحه



بقلم الطبيب صالح

نحو أفق بعيد

٤٦

دخل الإنجليز بلاد السودان منذردين، يقدّمون رجلاً ويخبرون، فقد كان المد الاستعماري قد احسّر والقرن التاسع عشر يوشك أن يمتلئ وكان رئيس وزرائهم، مستر فلدستون، اسكتلندياً تقياً له ضمير بحاسه كل ليلة حين يأتى الى فراشه لم يذكر استعمارياً على نهج المستعمرين قال لهم ان الثورة المهدية حرجة وطلبه مشروعة لشعب يطلب الحرية ويريد ان يريح عن كاهله ير حكم اجنبى عنوم وله قولة تندو غريبة بمقاييس ذلك الزمان، بل حتى بمقاييس زماننا هذا قال، هذه الجزر، هذه الارض التي تقف عليها، ليست لنا، ولا هي لاوروبا، ولكنها ملك للانسانية بأسرها.

لذلك ظل يقاوم ارسال جيش لفتح السودان، وكان بين كل حين وآخر، ينبعث حملة صغيرة استجابة لضغط الرأي العام، لانقاذ ذلك الرجل العربي، جنرال غوردون

الاستعمار مثل مسرحية من مسرحيات شيكسبير، حيث الخير والشر يختلطان بصورة معقدة، تزخر شخصيات بين الماساة والخوميديا والعث، امتزجت احوالها وظفوحاتها وعرايات سلوكها بالملتبس الاستعماري وكان من اعرب هذه الشخصيات، جنرال غوردون، او غوردون الصيني كما كانوا يسمونه

ظل في الخرطوم في قصره المتواضع على صفة المبلل الأزرق، والخطوب تحيط به من كل جانب، مصراً على النقاء، يشرب الوسكى ويقرأ الانجيل، ويكتب مذكراته، ويبعث رسائل مطولة الى اهله، لا يعلم ان كانت سوف تصلهم، لبث ينتظر، كأنه مطلوب الإرادة، ينتظر مصيره المحتوم تقول كتب التاريخ ان الامام المهدي اراد ان يستبقه حياً، ليعادي به الزعيم المصري احمد عرابي لكن كان واضحاً، ان غوردون، وهو يقف على عتبة القصر، كأنه لا يسمع ولا يرى، كان يطلب الموت ولا بد ان جند الامام راوا ذلك في عينيه، فلم يخيبوا ظنه

الشعب البريطاني كان يبحث عن ابطال ويبحث عن شهداء فوجد في غوردون ضالقه حتى الملكة فكتوريا اشرت لمقتل غوردون

حاج الرأي العام وماج، وكان فلدستون الحكيم يظن غير ذلك، ولكنه لم يستطع مقاومة التيار، فارسل جيشاً بقيادة استعماري لدود، هو كتننر، لاختضاع السودان، والقضاء على الثورة المهدية، واخذ التار لمقتل غوردون، واهلاد اولئك، الجمع المنوخضين، انهم لا يستطيعون ان يعينوا بهيمة التاج البريطاني، ويظنوا انهم معجى من العقاب، هكذا اراد الرأي العام في بريطانيا

ولم يكن الامر سهلاً، فقد اظهر اولئك، الجمع، في معركة كبرى، اعلى ام دُرْمان، الواسا من البطولة الحقيقية والبسالة، لم تدر يخلد الجيش العازي الذي جاء من وراء البحر، دون وجه حق، في ثوب مستعار وصفة منتحلة الا ان الامر استتب لهم، واصبح كتننر يعرف، بلورد كتننر ان ام درمان، كما تقول، لورنس اف ارايبا، وكلايف اف انديا، واصبحنا نتعلم في كتب المطالعة العربية التي انفا «مستر سكوت، الانجليزي ان كتننر، منحه السودان ووضع فيه اساس العمران،

حكّموا بلاد السودان المترامية الاطراف، كثير من الحكمة وكثير من العدل، والحق يقال وهذه، اشكالية، كما يحلو لآخواننا ان يقولوا الاستعمار في اسسه، شر لا مراء فيه، ولكن هذا المستعمر يحكم بالعدل والقسطاس في اطار هذا الشر فكيف يكون هذا، ونسال العالم الخير منقلبات البلاد والعباد، ودواعي الخير والشر في احوال الناس ايها افضل، المستعمر العاصب العادل، ام الحاكم الوطني، ابن البلد وهو ظلود عنود

ويقول العالم الخير ان الاحابة واضحة، وقد صدق ولكن الذين يذخرون عن الانجليز من الشعب السوداني

الكريم الصبور، كل ما نزلت بهم الخطوب، واحتوشنهم السوب، خاصة في العهود الاخيرة، يقولون في حشرة زيس الانجليز يا حليله زمن الانجليز الله يفرأه سالفير وحسبك هذا من ياس

وحد كان عددهم، هؤلاء الانجليز، تقول مائة الف ث عشرة الاف، تقول الف، كلا كانوا اقل من خمسمائة من الارجح حسبما تروي كتب التاريخ، تنص يارعاك الله هذا السودان، مطوله وعرضه وسعانه وارضه، وحجره وشده وجهه واسسه، حكمه اقل من خمسمائة من هؤلاء القبيل، الحمر، الذين جاءوا من وراء النحر صحيح كانت تدعهم جيوش غير مربية، وصعواها في ضواحي العاصمة وفي النعور البعيدة، وتسددهم، هبية، الامبراطورية البريطانية ومع ذلك

ثم جاءت العهود، الوطنية، تنزى احيانا برلمات واحزاب، واحيانا حكم عسكري صرف، واحيانا حكم عسكري دكتاتوري، بلمس قناع الديموقراطية والاشتراكية، والعدالة الناجزة والزهاد المرتقب، ونزى معضنة كلهم منه لا ارضا فطعوا ولا ظهرا انقوا

واليوم يظننا عند جديد بقله، بعد انتفاضة رجب المباركة، وثورة مايو الحادثة، وثورة اكتوبر المظفرة والسبل الحكيمة الصور ينظر ويتعجب، آخواننا هؤلاء قاموا بعد ان فكروا وقدروا، نعمل لكم نظاما هدراليا، يعني، يا رعاك الله، الدولة الواحدة تنجزا الى دول، والحكومة الواحدة تنطير حكومات، وبدلا من برلمان ووزارة في الخرطوم، تكون عندنا برلمات ووزارات في دازفور وكردفان واعالي النيل وبحر الغزال والجزيرة وكسلا والخرطوم وقروي وثقلا انظر كم رئيسا ووزيرا سيد يتبخون بكلكليم على كاهل الشعب المسكين، فوق ما، محفل يا سبحان الله اما قلتم ان الشعب ليس مهيما للديموقراطية البرلمانية، اذا كيف يكون مهيما له، الديموقراطية الفدرالية، وهي اكثر تعقيدا واعظم خطرا، هذا ايضا يصلح موضوعا مسرحية يكتبها شيكسبير العميري، لو كان حيا لقد كتب من قبل مسرحية عن ملك دانت له المملكة، وكان رقه يانه رعدا من حيث لا يحسب وفي لحظة من لحظات الاستنهار والشفقة الزائدة بالفس قسم المملكة بين بناته فلما منه انه يقضي الصيف مع هذه والشتاء مع هذه والربيع مع تلك، ويخل هو كما كان، ملنا مهيما فوق الجميع ولكن الامور سارت على عكس ما، وانتهى به الامر طريدا شريدا، في العواصف والثلج والمهزير، وحيدا الا من المهرج الذي كان بضحكه ايام العز

قال المهرج للملك، يا احمق،

فقال الملك عاصبا

يا ولد تقول لي احمق وانا الملك،

فقال المهرج

لأنك اضعفت الاقارب التي ولدت بها جميعاً ولم يبق لك الا هذا اللقب،

يقول نقاد شيكسبير ان عقدة هذه المسرحية، هي الحق، وادانت قلت، الجهالة،

هذا ونحن في «دلهي، صيف ثمانين وتسعمائة والف والليل يجمع اطرافه ويتكثف، والغناء الحزين يزيد القلب كندا، وتلك الذكرى التي تلاحقني من وادي النيل تحمل عطران ينضب مادامت حيا صاحبي، منسى، على اثرى مثل صاحب الشهوروري، وصاحبه، ذرقا، على اثره، فدوننا من الطلول، والطلول ليست في بلاد البند ولكنها في بلاد الشام عربى غلفت

أحمر وراء



بقلم الطيب صالح

نحو أفق بعيد

٤٧

تمثال «لورد كلايف» صاحب الهند، لم يزل قائما في مكانه في «دلهي» تهب عليه الرياح من الجنوب والشمال، وتسفك أمطار «منسون» وتجلس الطير على رأسه، وهو يتحمل هذه المهانة في صبر، زائما شفتيه كما يفعل الانجليز مثله، فانظروا الى الأفق نظرة تجمع بين الاحتقار والرضى عن النفس، انه مصير مهين حقا لرجل كانت تنحني له جباة «راجا» الهند، وتوجف القلوب من خشيتيه، وتتعلق مصائر الملايين بكلمة منه. ولعل هذا ما اراده «نهر» ان يجعل الهند تشار لنفسها من الغزاة الغاتحين على طريقته. كذلك ظلت تماثيل كل الرجال الذين مكثوا لسلطان بريطانيا في هذه البلاد، لم يزحوها عن اماكنها.

جاءوا الى هذا الأفق البعيد، متشبثين بأذيال «شركة الهند الشرقية» يحدوهم الطمع واحلام المجد والفضول وحب المغامرة. وكان البرتغاليون والاسبان قد سبقوهم الى تلك الاصقاع من آسيا، ثم تجاوزهم الفرنسيون فانصبوا على القارة في هجمة شبيهة بهجمات القبائل البربرية التي انقضت مثل الوباء على العالم القديم، فزلزلت أركانه وفوضت بنيانه، وقلبت اعلاه اسفله.

دخلوا بخليط من التدبير والحدس، والاقدام والاحجام، وقليل قليل، وجدوا انفسهم سادة على شبه قارة، جزيرتهم بالنسبة لها، مثل الشامة البيضاء في جلد الثور الأسود. وجدوا عالما يموج بالوان من البشر، ويرطن بلغات عجيب، منهم من يعبد الشجر، ومنهم من يعبد الحجر، ومنهم من يعبد البقر، ومنهم من يعبد الاله الواحد الأحد، ماذا يصنع النظام البريطاني في هذه الفوضى الكونية؟ هالهم الامر، ولكن كعبيدهم حين يقعون في ورطة، فقد ربطوا جاشهم، واستجمعوا قواهم، وأذعنوا للنداء، نداء المجد والخلود، انه وهم فتاك اودى باقبال قلوبهم وبعدمهم عبر التاريخ. لقد جر وراءه «حنابيل» عبر جبال الالب، وساق الاسكندر المقدوني الى بلاد ما بين النهرين، واغوى قبصر الرومان فآذبه الى مصر، واخرج نابليون من مامته وقصم ظهره في فيا في روسيا، وحدا هتلر الى فرنسا، وقاد اللنبي الى القدس، وساق كتشنر الى ام درمان. الحلم نفسه والخيلاء نفسها، مهما بدا لهم ذلك مختلفا، حلم تافه بميزان العدل الكوني، ليس اجل خطرا من اغفائة العصفور على غصن الشجرة. جاءوا باللغة الغريبة ونظائهم الطبقي المعقد، والقانون والوسكي والانجيل. اقتطعوا البلاد اقطاعات، وحكموها بمزيج من القسوة والرحمة والشجاعة والجبن، والاهتمام والنفور. وكانت البلاد تفعل فيهم فعلها وتؤثر فيهم من حيث لا يعلمون يقضون الشتاء في «دلهي» والصيف في «سمبلا».

ويتبعون «كبيرهم» الـ «فايس روي» ظل العرش البريطاني على ارض الهند، يرحلون حيث يرحل، وينزلون حيث ينزل، مثل قبيلة من البدو، يقيسون اهميتهم بمدى قربهم او بعدهم عنه. وكان «كلايف» هو حامي بيضتهم وفارس عذرتهم، شان «لوجارد» نيجريا، و«رودس» في روديسيا، و«كرومر» في مصر، و«كتشنر» في السودان اعطوا الهند واخذوا منها، كما فعلوا حينما حلوا، وقد اخذوا اكثر مما اعطوا. ولم يكونوا يتصورون انها سوف تغيرهم وتفسد عليهم حياتهم. ذلك اندكوه بعد ان رحلوا عنها.

فرضوا شرائعهم وقوانينهم، واقاموا «دلهي» الجديدة، على هواهم رمزا لهذا النظام الامبريالي الجديد، الـ «باكس بريتانكا». وقد خيل لهم، كما خيل للذين من قبلهم، انهم يستطيعون ان يخلدوا تلك اللحظة العابرة الى الابد. فملأوا ارض الهند بتماثيل رجالهم الذين مكثوا لهم فيها، تماثيل من الصخر والرخام والبرونز، هذا يمتطي حصانا، وهذا يمتشق حساما، وهذا ينظر بصلف، وهذا ينظر بحكمة. ثم حان وقت الرحيل، كما يحدث حتما للغزاة الغاتحين عبر التاريخ، ودقت ساعة منتصف الليل، واعلن «نهر» بصوت متهدج ان الهند قد عادت الى نفسها.

كان يتوقع منهم، بل كان من حقهم، ان يزيلوا تلك الانصاب الاستعمارية من اماكنها. ولكن «نهر»، الخبير بتعرجات دروب التاريخ، المدرك لسخرى الاقدار التي لا تني تضحك من ثقافة مسمى الانسان، قرر ان يدع ذكريات ذلك العهد الغريب على حالها، وظلت واقفة تعتورها الرياح، وتموج حولها وتكاد تفرقها جماهير الهند في تدافعها الازلي. كان يعني ان الحقبة الاستعمارية ايضا، بخيرها وشرها، اصبحت ملكا للهند، تتصرف فيها كيف تشاء.

وهكذا بقي «كلايف» مثالا في «دلهي»، مثل الاسير، بعد ان كانت تعنو له الجباة. لقد اصبحت «رهينة» الحلم المجنون الذي طاف ببني قومه فآخرجهم من ديارهم، وجاء بهم الى ديار لا يفهمونها ولا يعرفون عنها الا القليل. سوف تمر به الحقبة، وهو في اس «الابدي» لا يستطيع منه فككا، تتماوج حوله جموع دهما الهند، الذين اراد ان يفرض عليهم نظاما غريبا بلا جدوى ولو استطاع لراهم احرارا طلقاء في عوزهم وفاقتهم وفوضاهم.

انها «نكتة» من اعجب النكات في تاريخ الانسانية، ابتدئها خيال زعيم عميق التجربة، مرهف الحس لسخرية الاقدار التي لا تني تضحك من ثقافة مسمى الانسان! ■

(للمحديث بقية)

أكثر وأجمل



بقلم الطيب صالح

نحو أفق بعيد

٤٨

ظل «كلايف» صاحب الهند، مانلاً حيث وضعته الإقذار، سجين الغرور الإنساني، تمر عليه الحقب وتقف على رأسه الطير أما صاحبانا «كتشنر» و«غوردون» فقد افلتا من ذلك المصير، لأن الزعماء الذين آل إليهم امر السودان بعد رحيل الإنجليز، لم يكن عندهم ذلك الحس التاريخي الساخر الذي كان عند «نهر».

تمتالان فقط اقامهما الإنجليز في بلاد السودان المتسعة الاكتاف، فقد فهموا أن أولئك القوم البدو البرعاة في أرض البطانة والبحر الأحمر وكردفان، الزراع العباد حاملو كتاب الله الكريم، ليس لهم حقاوة بالأصنام أنهم يعبدون الإله الواحد الأحد، الفرد الصمد، الذي ليس كمثله شيء. أدركوا أن السودان بخلاف الهند، هناك أبواب متعددة، وأصنام من ذهب وفضة، تغم الخيال، كما يحجب الضباب أفق السماء.

ومع ذلك كان لا بد من خلق «رمز أمبريالي» من نوع ما كانوا، رغم كل شيء قوما حكماء، يحاولون أن يسبروا غور الشعوب التي فرضوا سلطانهم عليها، وقد فهموا أنه لا بد للسلطة الجديدة أن تظهر بمظهر جديد، لذلك خططوا العاصمة على هيئة العلم البريطاني، وزرعوا على جنبات الشوارع أشجارا لم يعرفها أهل السودان من قبل، جاءوا بها من الهند، أشجار النيم واللبلاب والكافور، شيدوا دور الحكم بالحجر والطوب، وكان أهل البلد يبنون بالطين في الغالب، وجعلوا اسقف دور سكناهم بالقزميد الأحمر مما أثار عجب الناس. وكان «الحاكم العام» يخرج من حين إلى آخر في موكب فخم، أن لم يكن في عظمة موكب الـ «فايس روي» في «دلهي»، فقد كان كافياً لإدخال الهيبة في القلوب، وأقام أولئك الزراع الرعاة، أنهم يتفانيون ظل حكم قادر، يعني ما يقول ويامر فيطاع.

كذلك عملوا تمثالين من البرونز، أحدهما لـ «غوردون» المسكين على ظهر جمل، والثاني لـ «كتشنر» على صهوة حصان.

ظل «غوردون» في طربوشه وهيئته المنتحلة، يجلس على ظهر جملة، طيلة خمسين عاما ونيف، يحدق بعينين ساهمتين، كأنما إلى أعماق ذاته وظل «كتشنر» على حصانه، ينظر بعينين غاضبتين، مشيرا بأصبعه إلى أم درمان وراء النهر وكان حتماً أن يصبحا هدفاً لسخرية الناس، فكانوا يقولون عن «غوردون» أنه خيبة الأمل راكبة جمل، وسال سائل لا يدري ما يقول «أما أن لهذا الفارس أن يترجل» وهو يعني «كتشنر» هذه

العبارة كما نعلم، قالتها أسماء بنت أبي بكر، ذات النطاقين، حين رأت ابنها الذي صلبه الحجاج معلقاً أياها بمكة، شتان بين ذلك «العلج» وبين عبد الله بن الزبير، رضوان الله عليهم جميعاً

ثم، كما يحدث للدخلاء الفاتحين طوال التاريخ، جاءت ساعة الرحيل، فجلا الإنجليز عن بلاد السودان، وأزل اسماعيل الأزهري ومحمد أحمد محبوب رحمهما الله، العلم البريطاني ورفعاً مكانه العلم الجديد، على سارية قصر الحاكم العام الذي أصبح القصر الجمهوري ثم قصر الشعب فيما بعد وهو علم صنعوه على عجل، فكانهم أخذوا على حين غرة، فلم يأخذوا اهتمامهم للاستقلال، جعلوه من ثلاثة ألوان، وقالوا اللون الأزرق رمز الماء، والأخضر رمز الخصب والزرع، والأصفر لون الصحراء، وهي كما ترى رموز سطحية مفتعلة لا تصلح رموزاً حتى لسرواية قصصية، وجعلوا شعار الدولة «وحيد القرن»، وقالوا أنه رمز الصلابة، وقد كان حيواناً أخذاً في الانقراض ولعله انقرض بالفعل، واسموا الدولة «جمهورية السودان» وهو تحصيل حاصل.

وكان حتماً أن يجلس «كتشنر» و«غوردون» ويلحقا بقومهما، فسارع الحكام الجدد إلى أنزالهما من منصتيهما، ولم يكونوا يعلمون أنهم بذلك أنما يظفانها من سجنهما التاريخي، مضيعين فرصة نادرة للسخرية كما فعل «نهر».

ثم توالى العهود الوطنية، عهد يتلو عهداً، وثورة على إثر ثورة، وزعيم مخلص يعقب زعيماً مخلصاً، انطوى عهد الديمقراطية الأول بخيرد وشرد، وكان خيرد أكثر من شره، وانطوى العهد العسكري الأول بسلام في الأغلب الأعم، وانطوى عهد الديمقراطية الثانية بأحزابها وضوضائه بلا خير ولا شر، ثم ظهر على المسرح «فتى الغيتان» وأخو الإخوان، الزعيم القائد جعفر محمد النميري، فكان عهده مراحل، المرحلة الأولى غلب فيها الخير على الشر، والمرحلة الثانية استوى فيها الخير والشر، والمرحلة الأخيرة غلب فيها الشر على الخير ثم هبت رياح ثورة «نيسان» المباركة في رجب شهر الخير، وهنا يدخل مسرح التاريخ لوهلة قصيرة، أقصر مما يطرف جفن العين، صاحبنا إبراهيم طه أيوب، هل تذكره، الذي لقبناه في «دلهي» أنا و«مسي» صيف عام ثمانين وتسعمائة والف ■

(للحديث بقية)

أمر وأمر



بقلم الطيب صالح

نحو أفق بعيد

٤٩

لما فاض الكيل وعيل الصبر، شب شعب السودان الصبور، كما يفيض النيل، ونهب الأعاصير في صحراء العثمور، سقط النمرى بعد زهاء سبعة عشر عاما من حكم متقلب غريب الاطوار ليس لانه كان رجلا شريفاً، كان يظن انه يحسن صنعا كان سودانياً كسائر السودانيين الذين يعرفونه يقولون انه رجل وديع دمث خحول، وهو امر يدو غريبا في انسان ضرب جزيرة، أنا، بالقنابل وشق عبد الخالق محجوب والشعيع احمد الشيع، وقتل صديقه الحميم الذي مكن له في الحكم، هاروق حمد الله، وقتل الرجل الشيخ محمود محمد طه انه حتما لم يرد شيئا من هذا ان يحدث، ولكن هذه الامور تندا صغيرة ثم تكبر، وشيء يفوق اى شيء، هذا بالرجل الوديع الخحول، يتحول الى قاتل سفاح

الحجاج بن يوسف كان يعلم الصبية القران، وعبد الملك بن مروان الذي امر بضرب الخعصة الشريفة بالمنجنيق، كان رجلا فقيها عالما بالشعر، هذه الامور ليست جديدة انها موجودة في كتب التاريخ وكتب الادب، وموجودة في مسرحيات شيكسبير العبقري ويقولون انه كريم شهيم، اخو اخوان، وانا رغم اني لا اعرفه، استطيع ان اصدق هذا، فهو سوداني كسائر السودانيين وهذه هي المأساة كل هؤلاء الناس كرام فضلاء كلهم رجال شرفاء، كما قال انتوني في مسرحية يوليوس قيصر ولو ان اخانا جعفر محمد النمرى، فهو اخونا على اى حال، لم يدع لذلك الاعراء القتال، اغراء المجد والخلود، ولم يستيقظ متكرا في ذلك اليوم بالذات، ولم ينتزع الحكم من اهله، او الذين حيل لهم انهم اهله، لعله كان ينتهي به الامر بان يصبح قائدا للحيش، ثم يذهب الى التقاعد بالطرق العادية ويقضى بقية ايامه هائنا قرير العين

ييام ملء جهينه لا تنقل ضميره كل تلك الدماء التي اراقها وفي سبيل ماذا؟ في سبيل مطلب تافه، هو بميزان العدل الكونى، اقل خطرا من اغواء العصفور على عصن الشجرة

روا ان الخليفة العظيم عمر بن الخطاب رضى الله عنه، وقف فجأة في المسجد ذات يوم وقال، اللهم اشهدوا اننى كنت ارعى غنما لخالتي من مخزوم وكنت اجوع فلا اجد ما اطعمه، فكان يتصدق على بشيء من اللبن اتقوى به، ثم جلس ولما سالوه لم يفعل ذلك قال، اننى احسست في نفسى زهوا فاردت ان ادلهها،

وقد شمع يوما يحدث نفسه، يخ، يا بني الخطاب لقد اصبحت امير المؤمنين، النمرى الذي نصب نفسه اميرا للمؤمنين اخر العهد، وبايعه اناس سرعان ما تنكروا له فيما بعد، كان يزعم انه يقنقى اثر عمر من الخطاب، ولكن مبهات

سمى القصر الجمهورى، قصر الحاكم العام، قصر الشعب وسمى الجيش جيش الشعب، وسمى الدولة، جمهورية السودان الديموقراطية، غير العلم وغير شعار الدولة ووضع دستوراً على هواه، ووضع صورته على العملة اصبح عبد الملك بن مروان وانا جعفر المنصور وهرون الرشيد وروبسبير وبابلبيون وعمارة دنقس وعبد الله جماع السود الطاقية ذات القرنين واجلسوه على عرش ملوك سائر زغردت له النساء وعنى له المعنون، وقد بدا له ان الامر قد استتب له تماما، وانه مظل في الارض كان طيلة سبعة عشر عاما، مثل معقل وحيد على المسرح، في مسرحية من هذه المسرحيات الحديثة، التي يؤدي فيها الممثل ادواراً عدة، مستعينا بالاقنعة، يخلع قناعاً ويلبس قناعاً وكان الشعب مثل جمهور صامت، ينظر ويتعجب وكان يقول في مقالاته الصحفية انه حول السودان الى جنة، وهو ضرب عجيب من ضروب خداع النفس، فقد كان واضحا لكل ذي عينين، ان السودان كان مثل رجل مريض يشرف على الموت كانت الخرطوم الجميلة مثل طفل يتيم في ثوب مهلهل، وكنت اقول لمن اقبل من وزرائه

جيب يرضى صاحبكم بهذه الخرابية حاضرة ملكه،

ثم كانما سئم اللعب، وسرت فيه رغبة دهبنة لتعطيم الذات، حرب الجنوب بعد ان اخذها عاد فاشعلها من جديد، واختط سياسات رعناء، واركتب حماقات لا مبرر لها، وكان يعين الوزراء ويفصلهم دون علمهم ودون سبب واضح وقالوا انه تصوف وزهد، ولكن زهده لم يشمل الزهد في الحكم واخيرا اقدم على عمل من اعرب ما يقدم عليه حاكم فجأة اعلق عشرين سفارة من سفاراته، وهي نصف وزارة خارجيته وذلك بحجة التقشف وتحفيض المصفاة وقد اتضح ان الخسائر التي حاققت بالدولة من جراء هذا العمل العيى، اكثر كثيرا من نفقات ترك السفارات مفتوحة، ماهيك بالضرر الجسيم الذي لحق بسعة الدولة

شب الشعب العظيم هبة رجل واحد، في انتفاضة رائعة كانت الثانية في تاريخه الحديث ضد حكم عسكري ولعله كان اول شعب يفعل ذلك في العالم المعاصر وهنا يدخل المسرح صاحبنا ابراهيم طه ابوب الذى كان سفيراً للسودان في دلهي، حين زيارها، منسي، وانا، عام ثمانين وتسعمائة والى حين نار الشعب ثورته تلك، كان سفيراً للسودان في نايروبي، ولسبب ما اصبح المصدر الوحيد لاختبار الانتفاضة في ايامها الاولى، فاحاز اليها، وكان يزود وكالات الانباء بالاختبار ولما نجحت الثورة وسقط النمرى، وقامت حكومة انتقالية برئاسة المشير عبد الرحمن سوار الذهب، اختاروا صاحبنا ابراهيم طه ابوب وزيرا للخارجية ■

(للمحديث مقي)

أصوات



بقلم الطبيب صالح

نحو أفق بعيد

٥٠

ذلك العهد لم يبد ملوئلاً، وليته فعل. فقد أوفى سوار الذهب موعداً. فاجرى الانتخابات في موعدها. وسند الحزم لأخته. أو الدبر ضموا إليه أخته. وذهب في حال سبيله

هذا العمل المصنوع. أسر حبال ملايين الناس. في السودان وخارج السودان. وأصبح ذلك الرجل الزائد. عبد الرحمن سوار الذهب. رمزاً مضميناً من رموز هذا العصر للقيامة في الحج منذ أربع سنوات. فاجتمع خلق كثير في حبيته في «مسي». من بينهم أحمد مختار أمبو الذي كان مديراً عاماً لمصلحة اليونسكو حينئذ. أقبل الناس يحبون الرجل الذي لما قدموا له كأس الحزم قال «أصرفوها عني. كان أمبو يضارع في تلك الآونة ليجتهد بمصنعه. وأظنه قرر بيبسه وبين نفسه في تلك المصعة المشاركة. أن في الحياة أشياء أخرى غير المعاصف. وأن اليونسكو مهملتها وهملاتها. لا تساوي عند الله جناح بعوضة حجباً معه ذلك العام. العائج حمد والطاهر مختار أمبا. وكان معه زوجته وأمة أخته وصديقه الحميم من أباد الطفولة. فيصلي صيوف نقيب المحامين في السبعال كان رجلاً عجمياً كان يوماً في الصلاة ويرتل القرآن بصوت جميل بقراءة ورش طاف وسعى وادى الشاعر. واكتشفنا بعد أن فرغنا من الحج. أنه كان يعاسي طوال الوقت. فقد كان مصاباً مسرطاناً الخلد. وهو لا يدري

ذهب أحمد مختار أمبو إلى موعده في «دلهي». وعاد العائج حمد وزوجة أمبو وأمة أخته إلى ساريس وذهب الطاهر مختار إلى الرياض ونقبت مع الحاج فيصلي صيوف في حدة ظل أسبوعاً في مستشفى الخرس الوطني. وكان الأطباء يعلمون أن حالته ميؤوس منها

دخلته الطائرة وعانقته وعانقني. ودعا لي. ودمعت عيناه ذلك دموع لن أنساها ما حبيت لم يلبث أن توفاه الله بعد وصوله إلى دكار

قامت صديق صباد. أحمد مختار أمبو. بعد ذلك قليل. في مكتبه في الطابق الخامس في مقر اليونسكو في باريس كانت الأحداث تتدافع حوله وهو هادي ساكن. وكأنه قد استقر على رأي ولا بد أنني ذكرته صديق طفولته كنا قد أصبحنا صديقين في أيامه الأخيرة. حين عدا وأضحاً أنه سوف يخسر المعركة. هانا شعوف بالمعارك الخاسرة

كان أحمد مختار أمبو أيام مجده. حين يسير في أروقة اليونسكو. يحدث هزة واضحة. مثل التفصاح حين يطغى في البحر ولكن انظر إليه الآن حشر المعركة يوم السبت. وسافر يوم الأحد أو الاثنين كان في وداعه في المطار. عند الرزاق قدورة. وشير المتري. ومحمد إبراهيم كاتلم. وسعيد معرل. والعائج حمد وأما ورجل وسيدة من قدامى موظفي اليونسكو هذا كل ما في الأمر. بعد ثلاثة عشر عام من الحل والربط. والنهل والهيلمان

لعبت عبد الرحمن سوار الذهب منذ شهرين في صلاة الجمعة في عمان. لحضي في الصلاة فلبث ينتظري عند الباب كذلك هو انسان مهذب أبداً. راد الناس. فتدافعوا نحوه. يسلمون عليه. وكاسهم يشركون برجل صالح من عهد عابر

أما صاحبنا إبراهيم طه أيوب. الذي لم يجمعه برقة قصيرة أيام الانتفاضة فاصبح وزيراً للخارجية. فانه لما عاد رجال الأحزاب إلى الحكم بعد الانتخابات. رجع هو إبراهيم إلى وزارة الخارجية معينوه سفيراً للسودان في روما ولا بد أنه كان يحس بالرضى. فقد قام بواجبه. وكتب أسطراً أن لم يكن صفحات من تاريخ وطنه ولعله ظن أن أسوأ ما يمكن أن يحدث له. هو أن يفضي بقية سنواته سفيراً إلى أن يصل سن التقاعد ولكن هيئات

فرح الناس بالصادق المهدي. وكنت من حملة العرجين قلنا إذا كان الأمر أمر تعليم. فهذا رجل تعلم في جامعة أكسفورد. وما أدراك ما جامعة أكسفورد وأذا كان المطلوب هو التحرية والحرية. فهذا رجل أخته رئاسة الوزارة منقاداً إليه نجرجر أدبها وضو لما يتجاوز الثلاثين وأذا كان الموعول على «العصية». كما وصفها ابن خلدون. فهذا رجل سليل الله ووريت حقد أصف إلى ذلك مسطحة في العقل والجسم. وطلاقة في النسان ومضاعة في النبال وهو بعد مهدد خربة. وأحو أحوار. مثل سائر السودانيين

في تلك الأيام كنت أزور السودان. فاصبر رجل. مصعب. للصادق المهدي أن يجتمع به قلت له «يا أخي ما في ولولاء الحكام. إنه في وادي وأنا في وادي. اتفقنا أن نحمل معه صلاة المغرب في داره في أم درمان. فبأله دار الإذاعة ولما وصلنا. وجدنا أنه قد اتصل بالتلفون من مقر رئاسة

الوزارة واعتذر بأنه سوف يتأخر. لأن المجلس كان مجتمعاً ذلك المساء في أمر هام

وحدث داراً بسطه دور كثيرين من الميسورين في أم درمان لم يدر فيها أي مطهر للندج أو الترف كانت داراً واسعة. عابرة وما حوله وقد لاحظت وأما أوتوا أن «حفيبه. الماء مضورة» فقلت لزوجتي رئيس الوزراء

«حتى إنه حفيبه مانتد مضورة». فاصحكها ذلك صليماً صلاة المغرب. أما وصاحبي. وكانت تلك أول مرة أصلي فيها في دار رئيس وزراء

حانت لنا زوجته «سارو». وهي سيدة دكية لطيفة. بالنسائي و «الكبد». وحانت أخته وسلمت علينا ثم لم يلبث أن لحق بنا السيد رئيس الوزراء

بعد عرفت في لدر حين كان قتالاً في جامعة أكسفورد كان ذلك الإيام مثل «كاسوس». كما وصفه شيخسيري في مسرحية «بوليو». فيصير. ثم عملت معه فترة وجيزة عام ٦٦ حين كان رئيساً للوزراء. ووربوا للإعلام وهو لما يتجاوز الثلاثين ثم ها هو الآن بعد نحو عشرين عاماً هو هو. لم يتغير كثيراً نفس أده الجسم ودمائه المعهودة

رايت وجه صاحبي يصيء معبحة خالصة. وأنا كلما أرى وجود المحض أحس بالنصفه في حثنا تلك مع أحمد مختار أمبو. راينا رجلاً في «مسي». يتب على يدي شيخ يقبلها ويبكي قلت للطاهر مختار

«أرجو أن يكون هذا الشئح أهلاً لحبة هذا المريد. جلسنا نشرب الشاي وباتل «الكبد». وكان الصادق المهدي كعهده دائماً. بهذا لطيفاً جم التواضع

قال لي صاحبي. الذي كان يستمع إلى كل كلمة بقولها الصادق المهدي. كانه يشرب ماء فلسطيناً في يوم فائظ

«اصبح السيد رئيس الوزراء». صحتك. فقد تذكرت كيف أن الناس كانوا يقولون في مجالس خلطاء بني العباس «عظ أمير المؤمنين». ومن أنا حتى اصبح السيد رئيس الوزراء

قلت لصاحبي

«لا بد أن السيد رئيس الوزراء قد استمع إلى مصانح كثيرة من أناس كثيرين ولا أظنه في حاجة إلى مزيد من النصح». ثم. كما عدا. وجهت الحديث إلى الأشياء العملية الصغيرة. كما يفعل عامة الناس وقد استسحت أن السيد رئيس الوزراء. كان يؤثر أن يتحدث على مستوى أهل وأنا لا أنالي أن أحوض في عمار الفخر مع الخاضعين. ولكني كنت قد قضيت أياماً في السودان ورايت طواير الميرين والحبر. ولست انقطاع الماء والكهرباء وغابيت من صعوبة المواصلات واستحالة السفر من مكان إلى مكان

وخرجنا من عنده. وكان صاحبي بهوياً في سحبات من المحبة الخاصة وأنا أبضا كنت حسن الظن في الصادق المهدي. أوّل منه خبراً كثيراً لفتني لم أفع أسير جاديبته كما فعل صاحبي وقلت لمسي

«هذا رجل اجتمع له كل مفومات الرعيم الكبير ومع ذلك مع ذلك مضى رجال الأحزاب يجمعون خطب شعواء. وكان انتفاضة رجب الماركة لم تحدث. وكان ما كان طوال سبعة عشر عام لم يكن. وكان الزمن رصيد لا يبعد ببدونه كيف شاموا! ثم. كما كان حتماً أن يحدث. استفيضوا ذات صباح. فلدا الحبيش قد ربط حواضر الحسور وأغلق أهواء الطرق. وأدا الصحف معطلة. والبرلمان موصد. والأحزاب محظورة. وإذا هم داخل السجون

وهنا تنتهي قصة صاحبنا إبراهيم طه أيوب. التي بدأت معاً في «دلهي». عام ثمانين وتسعمائة ألف. فقد حاولوا إلى التقاعد. بين عشرات رأى العهد الجديد أن مصلحة الوطن تقتضي إخالتهم إلى التقاعد

أسي أنذكر الآن عند الرحمن سوار الذهب. والناس مجتمعون عليه في خيمته في «مسي». وأنذكر أحمد مختار أمبو وحين في الحرم النبوي الشريف في صلاة العصر. وأنذكر الصادق المهدي. يتحدث حديثه المهد في داره في أم درمان بعد صلاة المغرب وأنذكر فيصلي صيوف. وجهه الله. وعبيده بدمعان. وأما أودعه إلى غير لقاء في الطائرة في حدة

أما صاحبنا الجديد في الخرطوم. فلا بد أنه هو أيضاً كريمة مهدد أخو أخوان لدر كان حقاً تعب ورعى كما يقال. فاستدار البدار

(الحدث مئة)

أمر وراء



بقلم الطيب صالح

نحو أفق بعيد

٥١

لم يكن في الدوحة، تلك الأيام، وليس فيها حتى الآن حسب علمي، سفارة استرالية لذلك رثيت أمري على أن أحصل على الفيزا في «دلهي». وقد اتصلنا بالفصل الاسترالي في البحرين، فوجد أن يكتب إلى سفارتهم في «دلهي» ليمنحوني الفيزا

ذهينا أنا و«منسي»، وهو يحمل جواز الأمريكي. وأنا أحمل جوازي السوداني، وهو جواز ظللت أتشبه به كل هذه السنوات لا أرضى عنه بديلا، رغم كل ما يسببه لي من متاعب، حتى داخل السودان نفسه، حيث تدخل بصعوبة وتخرج بصعوبة، يعطونك إياه لعامين فقط، والدنيا كلها تعطي مواطنيها الجوازات لخمس أعوام، ومنهم من يعطيه لعشرة أعوام. ويطلبونك بشيء اسمه تأشيرة الخروج، كانت في ألمانيا الشرقية، وحتى في ألمانيا الشرقية، انهارت الحيطان، ورحلت القيود، وأصبح الناس يدخلون ويخرجون، أحرارا كما ولدتهم أمهاتهم دخلت للقبلة الفصل قبل «منسي»، وكنت قد ملأت «الفورمات»، واستوفيت الإجراءات، قلب صفحات الجواز طويلا، وتمغن فيه مليا، وكأنه شيء لم ير مثله من قبل. قال لي بعد لاي..

«أنا أسف يا مستر صالح، الموافقة لم تصل من «كنابرا». عليك أن تنتظر.. ربما تصل الموافقة في غضون أسبوع..»
«ليس عندي وقت.. سوف أسافر غدا أو بعد غد..»
«أنا أسف لذلك..»

«ولكن لماذا «كنابرا»؟ أنا أعلم أن من حلكم أن تمنحوا الفيزا دون الرجوع إلى «كنابرا»..»
«توجد حالات يجب أن نطلب فيها موافقة الوزارة في «كنابرا».. وهذا إجراء طبيعي.. كل الدول تفعل ذلك.. على أي حال الأمر بسيط.. سوف نتصل بـ «كنابرا».. يمكنك أن تحصل على الـ «فيزا» من سفارتنا في سنغافورة..»

«لكنني لست مسافرا إلى سنغافورة..»
«أما في طريقك.. لماذا لا تنزل فيها ليوم أو يومين؟»
«أسمع، إذا كان دخول بلدكم بهذه الصعوبة فسوف ألغى الرحلة كلية.. أنت تعلم أنني مسافر إلى استراليا، ليس للسياحة، ولكن في مهمة رسمية اشترك على أي حال...»

رائي «منسي» أخرج غاضبا، وحاول أن يكلمني، ولكنني سارعت بالعودة إلى الـ «هوتيل»
لم تمض ساعة، وإذا بالثلاثون يدق..
«مستر صالح؟»
«نعم..»

«هنا السفارة لاسترالية. أنا سكرتيرة السفير. أنه يريد أن يتحدث معك..»
ثم إذا صوت مرح يقول

«مستر صالح، أنا أسف جدا لسوء التفاهم الذي حدث لك مع الفصل. أنه لم يكن يعلم من أنت. دكتور مايكل موجود معي الآن وقد شرح لي كل شيء. يسعدني أن تزورني في مكتبي. الآن إذا كان ذلك يناسبك.. سوف تجد الفيزا حاضرة.. هل عندك وسيلة نقل..؟ يمكننا أن نرسل لك سيارة..»

لم تكن عندي وسيلة نقل في الواقع، فقد كانت السيارة ومعها «أزفا» و«فا» على «منسي» كالمعتاد. فصلت إلا استغل كرم السفير، فأخذت سيارة أجرة، وفي الطريق تخيلت ما حدث. في دقائق ألم «منسي» بجليئة الموقف من الفصل، فسارع واقتحم مكتب السفير، دون استئذان، كعادته وفي وقت قصير جعل السفير يالعه، كأنه يعرفه من زمن رسم

له صورة مبالغ فيها عن «أهميته»، هو أولا، وعن «أهميتي» ثانيا، وعن «أهمية» المهمة التي تقوم بها معالي استراليا ثالثا

استقبلوني عند الباب، وساقوني باحترام زائد إلى مكتب السفير. وجدت صاحبي «منسي»، أو «دكتور مايكل»، مسترخيا يشرب الشاي. هب السفير من مقعده وهرع يرحب بي. كان شابا في أوائل الأربعينات من عمره، ممشوق القامة، مملوء حيوية، كما يتخيل الإنسان الاستراليين. سمعته مزيج من جامعة «هارفرد» وجامعة «كامبريدج».

لاحظت أن «منسي» في تلك الفترة القصيرة، قد رفع الكلفة تماما مع السفير، والاستراليون أصلا، مثل الأمريكيان، في طبعهم ببساطة وبعد عن التكلف. وكنا نأراد «منسي» أن يفهمني مدى الانجاز الذي حققه، فقال «هل تعلم أن «ريتشارد» حصل على الدكتوراه في العلوم السياسية من جامعة «ييل»؟»

قلت متغابيا «ريتشارد؟»
«سعادة السفير..»

قال السفير «أنا أسف جدا لما حدث يا مستر صالح. أنت تعرف القناصل، يطبقون القانون بطريقة روتينية. طبعا هم معذورون. علمت من دكتور مايكل أنك كاتب كبير وشخصية مرموقة في دولة قطر..»

كان «منسي» يعلم أنني سوف أنفي عن نفسي هذه الصفات، فلم يترك لي فرصة للرد، ولكنه سارع فقال ضاحكا

«مستر صالح رجل متواضع. لا عجب أن الفصل لم يهتم به كما يجب..»

سألنا الحديث إلى المكتب الاسترالي «باترك هوابت» والرسم الاسترالي «سدي ثولان» ومغنية الأوبرا الاسترالية «جون سذرلاند». والاستراليون لأنهم بعيدون عن مراكز الحضارة ويعلمون أن الأوروبيين خاصة، يعتبرونهم أجلافا لا فكر لهم ولا ثقافة ولا فن، بهمهم جدا أن يقدموا أنفسهم إلى العالم على أنهم قوم متحضرون يحتقون بالفن والثقافة. لذلك فهم فخرون بالاستراليين الذين أحرزوا شهرة واسعة في العالم. ولذلك أيضا فإن السفير قد سعد باننا لم تكن جاهلين تماما بإستراليا

كان أسلنا لطيفا بحق. أسلنا له وأنس لنا، وكان واضحا أنه يريد أن يستبقينا أطول وقت.

اعطاني الجواز وفيه تأشيرة الدخول «مجالمة» ولا بد أنه مهد لي الطريق أيضا، لأنني، كما ذكرت لكم حين وصلت إلى سدي سمح لي موظف الجوازات بالدخول دون أن يعبا بتقليب صفحات الجواز.

قال السفير «يسعدني أن تتعشبا معي هذا المساء إذا لم تكون مرتبطين..»

كنت أعلم أن «منسي» سوف يقبل دون تردد، فهذا طريق جديد انفتح له. يسر فيه كعادته دون أن يلوي على شيء تجربة انسانية يلاحظها كما يفعل الشعراء والفنانون، وأنا أيضا لا أبالي أعمل ذلك في بعض الأحيان.

سارعت بالاعتذار للسفير، ولا بد أنني فعلت ذلك بلهجة حاسمة لأن «منسي» اكتفى بأن نظر إلى المستعرب ولم يقل شيئا

لعلني لم أفل دعوة السفير، لأنني أحسست أنه يبالغ في الحفاوة بنا على افتراض «أهمية» ليست لنا في الواقع (للحديث بقية)

أحمر وانك



بقلم الطيب صالح

نحو أفق بعيد

٥٢

انضحت لي في «منسي» خلال تلك الرحلة مواهب ديبلوماسية لم اعدها فيه من قبل، ولكنها كانت مثل كل مواهبه، شيئاً فوضوياً ليس له ضابط ولا رابط، تحتاج الى شخص، رثماً مثل، يكبح جماحها ويوجهها الوجهة الصحيحة. حينئذ تتحول الى طاقة مبدعة بحق. وربما انه قرر منذ البداية، هكذا ضربة لازب، انه طرف في المهمة التي كلفتني بها دولة قطر، فقد أثرت ان استفيد منه على اية حال، فصرت اصطحبه معي الى المقابلات التي ليس لها طابع رسمي. ولعله لم يكن لي في الامر حيلة، فقد كان «دُرُقا»، وسيارته، وقفا على «منسي».

قابلت المسؤولين في الدولة بمفردي ورافقتي «منسي» في مقابلاتي لرجال الصحافة والإذاعة والتلفزيون ومؤسسة الهند التي انشأها «نهر» عقب الاستقلال مباشرة وهي مؤسسة على نمط المؤسسة التي كانت دولة قطر تفكر في انشائها. وجدنا صحافة معادية لرئيسة الوزراء، مسز غاندي، على وجه العموم، وخاصة الصحافة الناطقة باللغة الانجليزية. وهي صحافة كما تدل اسماءها، «ستيتسمان» (Statesman) و«تايمز أوف انديا» (Times of India) وغير ذلك، قامت على طراز الصحافة البريطانية ومتاثرة بها. وقد قابلنا رئيس تحرير هاتين الصحيفتين، ولمسنا منهما عداً شديداً لمسز غاندي يصل حد الكراهية الشخصية. ويمكن القول ان ذلك العدا كان يمتد الى كل سياستها الخارجية. بما في ذلك تأييدها للقضايا العربية. وقد ابل «منسي» بلاء حسناً في هذه اللقاءات وكانت نزغته «الهجومية» تجدي في تلك الحالات.

كنت وأياه مثل لاعبي كرة، يفهم احدهما الآخر فهما تاماً. كنت ارمي الفكرة، فيتلقيها ويجري بها فإذا وجدت انه ابتعد بها عن القصد اعدتها الى مجراها. وكنا احياناً نتعمد ابداء وجهات نظر تبدو مختلفة، حتى لا يظن السامع، اننا مثل بعض الإذاعات، نردد كلاماً رسمياً ممجوجاً. وكنا نعلم ان صورة العالم العربي في مخيلات الناس الذين نقابلهم بصورة غائمة على احسن الغروض، فكانا نحاول ان نترك لديهم ذكرى عنا كائنات مستنيرين متحضرين. ولان الاشخاص الذين قابلناهم، كانوا اشخاصاً مثقفين في الغالب، فكانا نجهد ان نجعلهم يحسون اننا انداد لهم... على الاقل اقول على الاقل لان «منسي» كان يومهم انهم ادنى منه بكثير. وفي الواقع، فان الامر لم يكن صعباً، فالهند اهتمام قديم لدي وكان «منسي» كعادته يُحرز بالقليل الذي عنده، أكثر مما احرز أنا بالكثير الذي ربما يكون عندي.

كذلك ادهشني، انني رايت في «منسي» خلال تلك الرحلة حماسة للاسلام لم اعرفها فيه من قبل. تسألني لماذا اسلم اصلاً؟ لا ادري على وجه التحديد، ولكنه اعتنق الدين الحنيف ببساطة وكأنه ينتقل من دار الى دار مجاورة. ولم يكن ذلك يفرض

«تجارة بصيبيها او امرأة ينكحها». كان يقول انه قرأ القرآن الكريم وهو صبي في «ملاوي» في الصعيد، مع اطفال المسلمين. وكان بالفعل يحفظ آيات منه. وذلك امر ليس مستغرباً، فاقباط وادي النيل، وهم «ذوو قربي ورحم» اقتربوا جداً من المسلمين. واذكر ان ابناء القبط كانوا يقرأون القرآن معنا في مدارس السود.

ويحضرون دروس الدين، وكان معنا قبطني يقرأ القرآن بصوت جميل. وفي مدينة ام درمان حي يسمى «المسألة»، وهؤلاء اقباط هاجروا من مصر، وبعضهم دخل الاسلام، فتجد في العائلة الواحدة مسلمين ونصارى. كذلك الحال في بلاد الشام وربما في العراق ايضا. وفي لبنان، تكاد لا تجد فرقة من هذه الفرق المتقاتلة، الا وفيها المسلمون والنصارى. وانا استعمل كلمة «نصارى» عمداً، فهذه هي الكلمة التي استعملها المسلمون والعرب طوال تاريخهم، وهي كلمة ليست فيها اية احياءات عدوانية، بل على العكس هي كلمة خافلة بالمودة والرحمة. اما كلمة «مسيحيون»، جاءتنا في العهود المتأخرة.

ونحن نعلم ان العرب النصارى انحازوا للعرب المسلمين في موقعة «اليرموك»، وفي موقعة «القادسية». وقد قال القائد المسلم حين اصيب في موقعة القادسية، للعربي النصراني: «انت اخونا وان لم تكن من ملتنا فاحمل اللواء عني».

هذه هي الحال منذ قديم الزمان. التسامح الديني من سمات ارضنا ومزاج شعوبنا، فقيم اذا هذه الحروب التي تذكي نيرانها باسم الدين، وفي سبيل ماذا هذه العداوة والبغضاء والحزازات؟

الام الخلف بينكموا لإلام

وهذي الضجة الكبرى علام وفيم يكيذ بعضكم لبعض وتبدون العداوة والخصاما

وكانما كُتب على الشعراء ان يسالوا هذه الاسئلة طوال التاريخ دون جدوى.

اسلم «منسي» في واشنطن على يدي امام مسجدها وسرعان ما اصبح داعية للاسلام، كانه مسلم منذ ولد. وقد انشأ اذاعة تدعو للاسلام، وكان يحاضر هنا وهناك في امريكا عن الاسلام. وقد زعم ان امة من الناس اعتنقت الاسلام على يديه. وكان يسألني متحدياً

«انا دخلت ناس كثيرة الاسلام. انت دخلت كم واحداً».

لعلني، لبنت، قلوب بعض الناس، او انني ازلت بعض سوء الفهم عن الاسلام، هنا وهناك. اما انسي ادخلت احداً في الاسلام، فاللهم لا ■

السلامة



بقلم الطيب صالح

نحو أفق بعيد

٥٣

عاد «دُرُقا» صاحب «منسي» بالتذاكر والحجز تذكر «دُرُقا» الهندي؟ لقد كلفته السفارة القطرية بتسهيل مهمتي وتنظيم لقاءاتي. ولكن «منسي» استحوذ عليه فانصرف له تماماً. ولم يغد يفيديني في شيء. انشغل «منسي» بالأسواق ومحلات تفصيل الثياب، حيث يصنعون لك بذلة كاملة في يوم واحد. وقد وجد في «دلهي» أنواعاً فائقة من الأقمشة زهيدة الثمن. كذلك لقي أصدقاء عجيب كيف أنه كان يجد معارف وأصدقاء أينما ذهب. أما أنا فقد كان أمامي عمل لا بد من انجازه. وقد أدعيت لذلك الوضع الذي لم يخل من طرافة، فكنيت أرى «دُرُقا» طالعاً نازلاً. يجري من مكان إلى مكان وراء «دكتور أحمد». كنت أعبت به أحياناً فاستوقفته وأسأله:-

«يا درقا. أين أنت؟ ألم يكن مفروضاً أن توصلني إلى مبنى التلفزيون؟»

فيرد بذلك الهدوء الهندي الذي يغيظ:-
«أنا أسف يا مستر صالح. ولكن دكتور أحمد كان عنده موعد هام».

وكان واضحاً لدي، أن «منسي» قد أوهم «درقا» بأنه هو الموفد في مهمة من حكومة قطر. وأنتي مجرد مرافق له.

يقول «منسي» ضاحكاً:-
«اسمع. النهارده تقدر تأخذ «درقا» والعربية. أنا مش محتاج لهم. بس على شرط أجي معك». لم أكن أجد بداً من أن أدعه يرافقني إلى بعض مقابلاتي الرسمية. وكان هذا يؤكد لـ «درقا» أن «دكتور أحمد» هو الموفد الحقيقي، وهو الجدير بالرعاية. وأنتي مرافق له.

لكن «درقا» قد تجاوز الحد الآن. كنت قد طلبت منه أن يحجز لي على الطائرة إلى «بانجكوك» ثم «سدي» وكان «منسي» يريد أن يسافر إلى «بومبي» ثم إلى «سدي» قلت له:-

«يا أخي. يكفي أننا تعرفنا على مدينة في الهند. فلنتعرف على مدينة في بلد آخر. ثم إن «بانجكوك» في خط سيرنا و«بومبي» تبعد بنا نحو الغرب». أظهر لي أنه اقتنع بهذا الرأي. لذلك دهشت حين وجدت أن «درقا» قد عمل الحجز عن طريق «بومبي». «أما قلت لك أن تحجز لي إلى «بانجكوك»؟»
«نعم. ولكن دكتور أحمد أمرني أن أعمل الحجز إلى «بومبي»».

عاد «دكتور أحمد» إلى الهوتيل سعيداً لسبب أو لآخر. وعجيب أيضاً كيف أن «منسي» كان يجد سبباً للسعادة في كل خطوة يخطوها. هل الحياة مليئة بالمسرات إلى هذا الحد؟ أم أنه كان يملك «مصنعاً ذاتياً» لانتاج السعادة.

«اسمع. أنا سوف أسافر إلى «بانجكوك» كما قررت

منذ البداية. إذا كنت تحب تسافر معي إلى «بانجكوك» فاهلاً وسهلاً. والأفع السلامة».

«يا أخي بلاش حماقة. بانجكوك أيه بس؟ دي بلد كلام فارغ. أنا لازم أروح «بومبي» لأنه عندي موعد هام بتاع «بزنس»».

«سبحان الله. كنت افطن أنه قام بهذه الرحلة ارتجالاً. عفو الخاطر. فمتى رتب «موعداً هاماً» في «بومبي»؟»

«يا ابني أحياناً ما بتلعبش... والبزنس علوة كده... هُت تبت. أنت فاكّر الفلوس بتجني ببلاش؟ ولا أنت فاكّر أن الحكاية كلها أوتطة؟»

أضحكني ذلك. فقلت:-
«صحيح الأوتطة تنفع. بس لازم كمان شوية جهد».

قلت فليذهب إلى «بومبي». ولعل السبل تؤدي به إلى وجهة أخرى. وأخلو أنا إلى نفسي. وبعد أسبوعين من ضوضاء «منسي» والفوضى التي تلازمه. كنت قد خست إلى مصاحبة نفسي. الآن أمضي وحدي في طريقي. أنزل حيث أشاء. أتسكع في شوارع المدن الغربية. وأتعرف على الأشياء على مهل. وأتمعن في المشاهد. أنتقي منها كيف أشاء. أضعه في خزانة الذاكرة إلى حين. معي كتيبي وأوراقي. ومعني زادي المظمور. الذي ربما قد نسيتته. فأذكره فجأة حيث لا أتوقع... تذكرني به هبة ريح أو لمعة ضوء أو صوت إنسان أو الشمس شرق أو تغيب في أفق غريب. ومعني الخنثي العظيم رائد الأفاق. رهن مفترق الطرق:-
نحن أترى وقد سالنا بنجيد

أطويل طريقنا أم يطول وكثير من السؤال اشتياق

وكثير من رده تعليل
زودينا من حسن وجهك ما دام
فحسب الوجود حال تحول

وصليتنا نصلك في هذه الدنيا

فإن المقام فيها قليل.
هكذا الفضل إن تكون هذه الأبيات الجليلة. ليس «أقصر طريقنا أم طویل». وليس «نؤلفنا من حسن وجهك». فأنما أراد «الزاد»، طيب الله ثراه. والذي قد يبدو طويلاً وما هو في حقيقة الأمر بالطویل. ثم قال. رحمه الله رحمة واسعة. هذا البيت الذي يقوم مقام قصائد عند غيره من الشعراء:-

لا أقمنا على مكانٍ وإن طلب

ولا يُمكنُ المكانُ الرحيلُ

والمكان «بانجكوك». وما كانت. كما بدت لي يومذاك.

«بالبند الطيب» ■

(للحديث بقية)

أكرم وراثته



بقلم الطبيب صالح

نحو أفق بعيد

٥٤

كنت قد قرأت أن الكاتب الإنجليزي «سمرسٲ موم» كان حين يزور «بانجكوك» يقم بمنزل الـ «أورينتال». وإذا أنني لم أكن أعرف أحداً في تلك المدينة، ولم تكن ترمطني بها أية صلة فقد كانت تلك صلة من نوع ما، صلة وأهية، أي معي، فقد كان «سمرسٲ موم» كاتباً بالمعنى الحقيقي للكلمة، لا بفسره أن الانجليزية لا يعدونه بين عظماء كتابهم، ومعض قداهم يحتفرونه احتقاراً واضحاً، ولكنه كان من اصبح الكتاب في التاريخ، قصصه القصيرة ورواياته ومسرحياته، أن لم تحدث ثورة، في عالم الادب، ولم تقدم رؤى، طريقة للحياة، كما فعل الكتاب العملاقة مثل «تشارلز ديكنز» و«توماس هاردي» و«جوزف كندرا» و«جيمس جويس» و«جريهام جرين»، إلا أنها عمل مصفولة مكتوبة بفن ومهارة.

كان «سمرسٲ موم» يرد على هجوم النقاد بقوله أنه لا يكتب ليبشر بأية أفكار، وأنه ليس من هؤلاء الكتاب الذين يريدون «تغيير العالم»، ولكنه يكتب لمنعته الشخصية ولادخال المنعة على نفس القارئ، وربما يكون في هذا ظلم له، فقد ساعد قلمه السليخ بسيرة أحياناً، على حياة «صناع الامبراطورية» في اسيا خاصة، ولقد نعاذ عجيبة للمرور والطمع وحب التسلسل، وتقلب نوازع القلب البشري، كانت كتبه توزع بمئات الآلاف، وترجمت الى اكثر اللغات، وكان الانجليز من الطبقات التي اتخذها مادة لسخرية، تمقظه بهم مساحر لندن، ينظرون الى انفسهم في مرآة الفن، ويستعذبون هجاء الكاتب لهم، ربما لأنه كان من تلك الطبقات العليا وكان يعرف اصول مخاطبتها.

كذلك جاءه كل وغير من السنيما في بريطانيا وفي امريكا، التي حولت عدداً من قصصه القصيرة ورواياته، الى افلام ناجحة، منها فلم «الامطر» المقتبس من قصته «العاصفة»، ومثلت فيه الدور الرئيسي تلك الممثلة القممسة الحظ «ريتا هيوارث»، التي اخني الزمن على جمالها، فحسب الوجوه «حال تحول» كما قال «الاستاذ» كانت صاعقة الحسن في شبيبها، وتزوجها الممثل الامريكي الموهوب «أورسن ولز»، ومن بعده على خان، ثم اقل نجمها واصبحت بمرض عضال، وماتت العام الماضي في حالة مأساوية في مصحة في نيويورك، كان دورها في فلم «الامطر» من ادوارها التي لا تنسى، دور المرأة «الساقطة» التي نهت في القسيس، وهو يسعى الى اصلاحها، عواطف دميرة لم يكن يعلم أنها ستنك في اعلمه نعم، هذا كاتب مليونير يستحق ان يسمى «كثيراً»، والمال في نهاية الامر، واحد من الملبيس التي يقلس بها الناس، وهو مقياس سهل شيء واضح، يرى ويحس وله دوي، اما الذكاء، واما حسن الخلق، واما الفضل، واما العلم، فكيف تقليس هذه الامور؟ ولا عليك من قول الحسن بن هانئ..

وقد زادني ثيبها على النفس أنني

اراني الخناهم وإن كنت ذا فخر

قاله هل هذا كلام؟ هل الفخر يجوز له ان يتبعه على النفس بفقره؟ اجل! كان «سمرسٲ موم» كاتباً، حقيقياً، كتبه غلت له الملايين، قضى حياته الطويلة، في داره الشهيرة «فيللا مورسك» في خليج «انتيب» على الـ «كوت دازور»، كيف قلوا؟ نشاطه اللانزود، ما هو «اللانزود» يا ام عمرو؟

لغة لا حر ولا برد، وزرقة البحر الاسطوري مثل حلم قريب المثل، الصباح يوقظ الافكار النائمة، وسكون الليل، «يجيب» الاصوات من بعيد، كان يجلس في «بلقونة» داره، ينسج احلامه الغالية الثمن، يجعل له النسيم عطر الياسمين، وتغني له الطيور المتازحة في هجرتها الازلية من الشمال او الجنوب، وتهذي ثائرة نفسه امواج البحر المتوسط حين يكون الطقس دافئاً وليس الـ «روب دي شامبر» الحريري الشهير، وحين يبرد قليلاً يتلفع بمطانية من الكاشمير، يفرغ من العمل، فيرسله الى النشتر الذي ينتظره بفارغ صبر، ثم يتوافد عليه اصداقاه من كل حدب وصوب، ليسروا عنه، بعد الام التي علناها في الكتابة، واي اصحاب؟ نجوم الفن وبجماته، واثرياء الكتاب واثرياء الضمراء واثرياء الرسامين، واثرياء الاثرياء، ليس هذا جميلاً؟ ما هو الخطأ في هذا؟

شيء جلوه، تقولين يا ام عمرو، صدقت، وهل انا غيران؟ نعم.

سوى ان الرجل قد ترك كل هذا وراءه، وذهب الى حيث لا يمنع مل ولا شهرة، الله اعلم من ورثه فلم تكن له زوجة ولا عيال، ولم تكن له رغبة بالنساء اصلاً

نعم، هذا كاتب، فهل تسمي نفسك كاتباً مثله يا ابا زينب؟ انها لعمرى صلة وأهية، بل هي اوهى من خيط العنكبوت في ماطر شهم شهلول، حفله الله ورعاه، واغدى عليه من جميل عطاياء، دخل ميدان النشر اصلاً لأنه يمشق الكتب، يبرها ويحنو عليها، ويلم شملها كما يجمع اللقطاء من قارعات الطرق، يؤويها ويطمعها ويسقيها، وينفق عليها من خز ماله، وهو انسان ابلح يمش لك ويحسن استقائك، يفعل ذلك مع كل الكتاب والشعراء الذين ينشر لهم، والانصاف يقضي ان اقول انه كلما لقيت

كنت لا اراه الا كما كان كثير يرى عره، يدفع ابي بالالف واحساناً لمرات واحساناً ربايات واحساناً دولارات حسب المثل الذي يجود الزمن علينا فيه باللقاء، والف والفان، باي عملة كانت، ليس مبلغاً هيناً، اللهم الا بمعلقة لبنان والسودان، وكنت اعلم انه يقطع ذلك من قوت عياله، فنشر الكتب عندها، مثل كتابتها، لا يد مالاً، وابن نحن من هذه الدور الكبيرة في باريس ولندن وميونيخ، حيث القشرون اباطرة والكتاب فياضرة، هذا، وهو يعاني من تزوير المزورين وشح الموزعين يقوم المسكين بهذا العمل الجليل في خدمة الثقافة العربية، لا تدعه دولة ولا تشد ازره حكومة، فالدول والحكومات، ايدها الله، مشغولة في ديارها بما هو اجدى وانفع.

اذهب عن هذا النشتر البطل الذي يخدم الثقافة في اصعب الظروف تحت وابل القنابل، وأنا ارثي لحاله واعتب نفسي لك، ما اخي حرام عليك، تأخذ فلوس من هذا المسكين؟ من لا يجيب المثل لك ولا مثلك؟ الا يطبك انه اذاً اسمك في الالهة؟ اما يرضيك ان تكتب قرا من عين الى القبروان؟ اما أصبحت بفضل هذا النشتر تدعي للثقلات الفكرية والمثنديات الادبية؟ ألم يجعلك شيئاً مذكوراً، بعد ان كنت لا شيء لكتب عند الاطروحات الحليمية وتفتح لك الدكتوراهات الفخرية؟ ثراب لك من كتاب البيت، لو كانت عندك ذرة من ارضية، لدفعت انت من جييك لهذا النشتر بدل ان تسأله الدلم.

هكذا، ومع ذلك، فلا تحزن يا ابا زينب، ان عاجلاً وان اجلاً سوف يجيبك المثل، سوف يجيبك صرت «كاشلاء النجم» لا تستطيع ان تتعنه به، فهذا دين الحياة كما تعلم..

«تعطي حين يكون الوعي مشفقاً،

وحين تعطي، تعطي بطرق محيرة،

تجعل العطاء يغفل الشهوة».

هكذا قال الشاعر الانجليزي، واحسن منه قول «الاستاذ»..

«من راحا بعينها شافه القطن فيها كما تشوق الخمول،

لا تحزن، واحمد الله على ما اعطاك وهو كثير، تفكر انك اسعد

حالا من «فلان فوخ» الذي مات مخبولا، ونوحاته تباع الآن

بالملايين، و«يودلر» البئس، الذي يطلع اليوم عنه كل عام كتاب،

ولم يكن يجد لمن الطعام والشراب، و«فوقول» الذي خرج من

تحت عبائه كل الكتاب، ومن ايضاً «اوسكار وايلد» القمميس،

الذي خافه الحياة بزهة، فلن الامر لهما ولعبا، ولما هوى من

علائقه، نزح الى باريس، فلم يكن يجد كراء غرفته الفقيرة، وكان

يستجدي لمن عطفه، وما لك تذهب بعيداً؟ انظر الى الجاحظ

العبري الذي دأعت عليه كتبه، وابن القمع الذي مات قشاً..

حتى «الاستاذ» الذي لن يجود الزمن بمثله، اكل طعمهم

ياكل سمار زعافاً، والتجاني يوسف بشير، شاعر السودان المعصية

الذي لم يسسوا الى الآن شلرا باسمه ولا يعرف الا القليلون ابن

قبره، وهم جرا

لا تمتنن يا ابا زينب، وتمتع بهذه اللحظة العابرة، واذهب الى

نزل الـ «أورينتال»، حيث كان يحل «الكاتب سمرسٲ موم»، هذه

المرارة التي خمرتك سحابة صيف، وهي ليست من طبعك لعلك

تعبت من الترحل، وتريد ان تاوي الى جبل، تريد ان تخذل الى مكان

تجبه، لا تيرحه، تسمع فيه نداء الاذان في المجر، والنيل معبد

النيل معبد، لعلك ايضاً تذكرت، بل امت يقينا تذكرت ام عمرو

واين منك ام عمرو؟

(للحديث بقية)

أمر وأمر



بقلم الطيب صالح

نحو أفق بعيد

٥٥

قال الذليل، بصوت ليس حسناً، ولغة انجليزية ركيكة، ولكنة امريكية تجرح الاذن -
«انتم هنا في عالم الاحلام، في الشرق الساحر، في ارض «تايلاند» الخلابة، هذه البلاد يُطلق عليها «ارض الابتسام».. هل تعرفون لماذا؟»

واجابته سائحة امريكية مسنة، فاكتر السائحات الامريكيات في هذه المجموعة مُسنات -

«لأن الناس هنا سعداء، يبتسمون دائماً».

اسرف الذليل في الضحك، واستجاب السواح الامريكان لضحكه، وقد ظل يضحك طوال الرحلة، وفي اغلب الاحيان، دون سبب، قال -

«فري قود... هذا هو... انت لست جميلة فقط، ولكنك ذكية ايضاً، الناس هنا كلهم سعداء... هابي».

«هابي... دائماً يبتسمون، هل انتم سعداء؟».

واجابته اصوات امريكية، نساء ورجالاً -
«شور... بالتأكيد، نحن سعداء».

طبعاً انتم سعداء، واضح هذا على وجوهكم...
«اي لف امريكا... احب امريكا لانها ارض السعادة... مثل تايلاند... تايلاند وامريكا بلاد السعادة... سوف تتمتعون بهذه الرحلة النهرية الرائعة، هل تعلمون ما اسم هذا النهر الرائع؟ هذا نهر «شاو فرايا»... يعني نهر الملوك».

انا عادة انساق وراء هذه الاوهام، واستسلم لها تماماً في حينها، ثم اصحو منها، صحبت دليلاً اول مرة زرت فيها الاهرامات، كان يخلط التاريخ الفرعوني بالتاريخ اليوناني بالتاريخ الاسلامي، فكان الخليفة المأمون من الملوك الفراعة، وكان رمسيس من خلفاء بني العباس، كان مرحاً مزحاً غير مصطنع، ويتحدث بطريقة ساخرة توحي لك انه يعلم في قرارة نفسه ان الكلام الذي يقوله لك ليس صحيحاً، ولعله قدّر ان السواح، وخاصة الامريكان، لا تهتمهم هذه المعلومات على اي حال، كان دليلاً مملوءاً حيوية وجاذبية، يقدم لك تاريخاً من صنعه هو، ليس موجوداً في كتب التاريخ، ولم لا؟ فالتاريخ في الغالب، رجم بالغيب، اختفى هذا النوع الآن، لسوء الحظ، اصبح الاولاد في مصر، خريجي جامعات، ويحسنون اللغات الاجنبية، ويعطونك كمّاً هائلاً من المعلومات، التي سرعان ما تنساها.

لماذا اضيق اذا بهذا الذليل التايلندي؟

اعجبني نزل الـ «اورينتال» الذي يقوم على حافة النهر تماماً، وجدته فندقاً «كلاسيكياً» مريحاً، كل شيء فيه معمول بذوق، دون ترف ودون بذخ، لا ادري ماذا حدث له الآن، ولكنه كان تلك الايام، واحداً من اجمل الفنادق التي عرفتُها، لاحظت اول دخولي، انهم اسمعوا قسماً منه باسم «سمرست موم»، اعطوني غرفة واسعة، حسنة الاثاث دون مغالاة، تطل على النهر، ولم يكن ثمن الإقامة كبيراً، كان ارخص كثيراً من نظرائه في اي بلد آخر، وكما افعل عادة، فقد انضممت في اليوم الاول الى رحلة من الرحلات التي ينظمها الـ «هوتيل»، اتعرف فيها على المعالم الرئيسية للمدينة، بهذه الطريقة تكون صورة عامة تضيف اليها بعد ذلك اذا شئت، بالمشي والتسكع على مهل، وفي اليوم الثاني قمت

بهذه الرحلة النهرية التي تستغرق اليوم كله

كان الدليل التايلندي يوجه حديثه بصفة خاصة الى السواح الامريكان الذين غلبوا على هذه المجموعة لا عجب، فهم سادة الدنيا الآن، الرومان الجدد، جيوبهم عامرة بالدولارات وكمراتهم مشرعة كأنها مدافع رشاش، يصورون كل شيء، اذا راوا معبداً او بقرة ترعى، او طفلاً نصف عار، او امرأة تعمل في الحقل، او قارباً «سامبان» ينزلق على وجه الماء، ويصور بعضهم بعضاً، ماذا يطلبون؟ هل يريدون ان يوقفوا الفلك عن الدوران؟ ويضحكون انهم سعداء... «هابي... هابي... يبتسمون ويضجون بالضحك»

هل يرون ما حولهم حقاً؟ لقد جاموا يحملون في مخيلاتهم صوراً لن تترجح، عن عوالم ساحرة، صنعتها لهم الدعايات السياحية والروايات الرومنسية والفلام «هولييود»، ينظرون الى حياة الناس كما هي، فلا يرون الا هذه الصور الزاهية التي استقرت في اذهانهم، الناس والحياة بالنسبة لهم، مثل تلك الالوان الغاشمة في لوحات الرسام الفرنسي «مونيه»، و«تايلاند» خاصة، تستجيب لكل مطالبهم، وترضي كل تصوراتهم الموهومة، فقد فعلت «هولي» ذلك، فيها الاعاجيب.

اناس لطيفون، والحق يقال، ليس في طبعهم تكلف، يتعرفون على الناس بسهولة ويتحدثون بعفوية، ولكن ليس عندهم رغبة حقيقية للمعرفة، وسين عندهم ان كنت من مصر او الصومال او السنغال، وربما يكونون معذورين، فبلادهم واسعة وغنية، وقد عملوا فيها بجهد، واخرجوا ما فيها من كنوز، واصبحت التكنولوجيا في ايديهم مثل السحر عند قبائل بدائية، كل شيء ممكن، وكل حلم قريب المآل، وانت تستلذذهم وتضيق بهم في الوقت نفسه، كما يحدث لك مع الاطفال.

مرّت سفينتنا على القصر الملكي بقبابه المذهبة وقد رست اسفله، «الحراقات الملكية، المستطيلة»، وقال الدليل

«في عام ١٩٨٧ سوف يبلغ ملكنا المحبوب، صاحب الجلالة «بوميبول» الستين من العمر، سوف تقام في بلادنا احتفالات خرافية ابتهاجاً بهذه المناسبة السعيدة، هذه القوارب الاسطورية التي ترونها سوف تنطلق فوق النهر مثل اجنحة الملائكة، لا بد ان تعودوا الى «تايلاند» حينئذ لتشهدوا هذا الحدث التاريخي»

زرت القصر بعد هذه الرحلة، فوجدت معماراً «فكتورياً» كما في قصر «كنجهام» في لندن، الا ان السقف علته قباب مذهب، ذات قمم حادة تصعد في السماء كما في المعابد البوذية، ذلك ان «تايلاند» حكمها في القرن التاسع عشر ملك على شاكلة بطرس الاكبر في روسيا، ومحمد علي باشا في مصر، استهوته الحضارة الاوروبية واراد ان يجعل «تايلاند» قطعة من اوروبا فعمل هذا الخليط العجيب، وبني هذا القصر الذي لا هو بالشرقي ولا بالغربي

أمر ورثته



بقلم الطيب صالح

نحو أفق بعيد

٥٦

السفينة النهرية ذات الطابقين، تسير على مهل فوق نهر «شاوفرايا» متجهة بنا الى «ايوتاهايا» العاصمة القديمة، على بعد سبعين كيلومترا من «بانجكوك». يا له من اسم جميل، «ايوتاهايا» لماذا هجروها وانشأوا عاصمة أخرى بدلا منها؟

ظلت حضرة الملك أكثر من أربعة قرون، كما أخبرنا الدليل، من عام ١٣٥٠ حتى عام ١٧٦٧، ثم حدث لها ما حدث لآرام ذات العماد وشوالين البلقاء، سوف نرى اطلال القصور وشظايا المعابد، والحصون، وتمائيل بوذا، مقطعة الرؤوس، مكسرة الأذرع والأرجل، متناثرة الاشلاء على ساحات المدينة البائدة. سوف يلتقط السواح الأمريكيان صورا كثيرة لهذا الخراب وهم يضحكون. تركع المرأة عند قدمي الـ «بوذا» ويأخذ لها زوجها صورة. يقف الرجل على بقايا درج قصر تقوض، وتأخذ له زوجته صورة. ويبتسمون ويضحكون.

يضحكون لاوهي الأسباب، هؤلاء القوم، لانهم وانفون من انفسهم، ينتمون الى امة قاهرة وحضارة، غالبية. وفي اعينهم، هذا النهر المريد ذو المياه العكرة هو «نهر الملوك»، وهذه البلاد الفقيرة، هي «سيام» الاسطورية، التي لم ينشئها اهلها ولكن انشأتها السينما في «هوليوود». وقد وفدوا اليها في طائرات الـ «بان أم»، الجمبو التي صنعتها مصانعهم يحملون الدولار «الخرافي»، الذي تقاس به العملات شرقا وغربا. فما لهم لا يضحكون؟

اما انا فما الذي يسعدني؟ ليس معي آلة تصوير، وقومي رعاهم الله، واصطحب شاعرا لا يدعك تنها باللحظة التي انت فيها، لا يني يوسوس لك بما يعكر صفوك

صحب الناس قبلنا ذا الزمانا

وغناهم من شأنه ما عانا

وتولوا بغصة كلهم منه

وان سر بعضهم احبانا صدقت يا سيد الشعراء، وليتك لم تصدق، فهذا الخطام والركام خير شاهد على صدق قولك. وهو امر لا يبعث على الضحك، ولكنه يبعث على الاسى. فما انا قد استغبرت كما تريد. وهنك اشعر العالمين من عرب ووطان، فما فائدة هذا الان؟

هذا، ونحن لم نزل بعد في اول الطريق، لم نبليغ العاصمة الدارسة «ايوتاهايا»، يا له من اسم جميل له نغم سلس، بخلاف «بانجكوك» الذي كانه هولندي. و«سيام» اجمل من «تايلاند». ما الذي حدث فغفروا اسم البلد ونقلوا العاصمة؟ وعزمت ان اقرا في تاريخ هذه البلاد، حين اعود. ومزت السنوات منذ عام ثمانين وانا ما ازال اجهل لماذا انتقلوا من «سيام» الى «تايلاند» ومن «ايوتاهايا» الى «بانجكوك».

الا انني في تلك الرحلة، فهمت شيئا، ان لم اكن فهمت غيره لكان ذلك حسبي

اخبرنا الدليل، وهو يضحك كعادته ان «تايلاند» تقع في منتصف المسافة بين الهند والصين، وان مساحتها تقرب من مساحة فرنسا، وانها عرفت اقدم حضارة على وجه الارض. عجبت لذلك، فقد كنت اظن السومريين وقدماء المصريين، هم رؤاد الحضارة، وان السومريين سبقوا قدماء المصريين بقليل. لا باس فليكن التايلنديون اول من اقام حضارة على الارض ولعل ضيفي بالدليل خف حينئذ، فقد اخذ يصنع التاريخ على هواه، كما فعل الدليل المصري. وربما بدا يسخر من عقول السواح الامريكان الذين اوسعهم ملقا اول الامر.

اما انها بين الصين والهند، فقد تاكد لي خلال اقامتي ان «تايلاند» لا تشبه الصين ولا الهند، بمعنى لم يقصده الدليل. ذلك انني لم اجد فيهم حيوية الصينيين ولا سكينه الهنود. فيهم شيء اخر ذكرني بنس اعرفهم ظللت اجهد ذهني لاتذكر من هم طوال اقامتي في «بانجكوك».

زرت معابد كثيرة في هذه الرحلة النهرية وخلال تجوالي - في مدينة «بانجكوك» - في كل معبد، بوذا، البوذا الضخم الراقد على جنبه، وبوذا الزبرجد، وبوذا الذهبي. اختلطت المعابد في ذاكرتي فكانها معبد واحد لكنني اذكر بوضوح بوذا عملاقا يجلس القرفصاء في معبد ما. بوذا عظيم الثديين، عظيم الكتفين، عظيم الكرش، بين الانثى والذكر، وجهه مليح يحمل تعبيرا بين الرضى والغضب، بين الحزن والابتسام. كان الوثن مثل نافقة غيلة يزحم جنابات المعبد، ويسد نوافذ الخيال، في غم كئيف من دخان البخور واللذ، وحوله غبار يفرعون اجراسا صغيرة لها رنين ناعم، يختلط بعضه ببعض مثل ضحكات الأطفال، وهم يزعمرون بالدعاء، ويلقون للصنم بقصاصات اوراق، فيها ولا شك، رجاءاتهم وتوسلاتهم.

هنالك، ياسبحان الله، طاف بي خاطر حنيقي كريم. اتضح لي فجأة امر كان يجب علي ان افهمه من زمن. تخيلت الصنم العملاق وقد أقصي عن المعبد، وسكنت التزمزات وصممت الاجراس. اصبح المكان فضاء مفتوحا على الافق اللامتناهي، فهو جزء منه وهو امتداد له. اصبح مسجدا. زالت الخجب بين خيال العابد في مكان عبادته والافاق الممتدة داخل نفسه وخارجها لا يوجد وثن يحصر اقطار العقل لا ثمة الا المطلق، الاله الواحد الاحد الذي ليس كمثل شيء ولا يحده زمان ولا مكان.. الله جل جلاله انه المسلمين والعالمين

٥٦



بقلم الطبيب صالح

نحو أفق بعيد

٥٧

قفا بي يا صاحبي قليلا على مغاني «تابلاند» الساحرة، أرض «سيام» الأسطورية، بلاد السعادة والابتسام.

فلنحتف بهذا اليوم المشرق القصير على ظهر هذه السفينة، فإنه «رهين» بأيام الشهور الأطوال، لا بد أن هذه البلاد كانت في يوم من الأيام فردوساً من هذه الفرائيس الضائعة. ولا بأس أن مثل هذه الأوصاف لا يبتدعها أهل البلد أنفسهم. ولكن يسيغها عليهم عادة الغرباء، وليس أكثر غرابة من الأوروبيين.

خرجوا من ديارهم الجليدية كمن يخرج من كهف، وتدفعوا مثل سحائب من الجراد على اقوام بسطاء في الماق بعيدة. أخذوا يسمون الأسماء بلا هوادة، ويعلقون الألقاب جزافاً. حدثوا أن لاسبان حين وصلوا إلى حيث تقوم مدينة «مانيل» الآن، مانيل عاصمة الفلبين، وكانت أرضاً غراء مستنقعا، وجدوا رجالاً يذودون عنهم حشرة قارصة ويحكون أجسادهم ويصرخون «مانيا مانيا»، إشارة إلى الحشرة. فسألهم بالاسبانية، التي لم يكونوا قد تعلموها بعد، ما اسم ذلك المكان، فقالوا «مانيا مانيا». فظن الاسبان أن المكان يسمى «مانيل». والعجيب أن أهل البلد قبلوا التسمية، فأصبحت عاصمتهم تحمل اسماً لا يعني شيئاً.

مثل هذا حدث في السودان وجد الإنجليز عندنا بلدة عامرة على مفترق طرق، تسمى «أثرا»، لأنها قامت على نهر «أثرا» الذي يسميه الناس «الأثراوي». وهو نهر كبير يرفد النيل بعد أن يمارق الخرطوم، مشهور ومذكور في آثارنا وأشعارنا. وقد قال الخزندلو في معرض الفخر:

«شيخ الأثراوي ومشي فيه كلامي».

وقد ذكر أولو العلم أن الاسم مشتق من «أثرا» أي النهر الذي يأتي من أرض الظلام.

جلب الإنجليز معهم مترجمين، فظنوا أننا قوم أعاجم غلغ الأنسنة. فجعل العين الفأ والطاء تاء كما في «عطل»، فقالوا لا بد أنها «عطيرة».

فأخذنا نقول «عطيرة عطيرة» إلى يومنا هذا، كما قال الفلبينيون من قبلنا مانيل.. مانيل.

ماذا تسمى هذا يا ربك الله؟ أظنه يدخل في باب الغزو الحضاري وطمس الهوية ومحو الذاتية.

لكن لا بأس، لعل هذه البلاد كانت حقيقة في زمن غير فردوساً من هذه الفرائيس الضائعة. حتماً على كل أمة في ما يبدو، أن تصنع فردوساً لقبكي عليه، فكانها جبلت جبل الله الإنسان عليها.

أذاك انت يا صاحبي؟ أما تزال تؤسوس في تريد أن تُفسد على هذا اليوم القصير الأجل؟ صدقت، كما تصدق كل مرة، ولكن ماذا يجدي هذا الآن؟

هذه بلاد واسعة، مساحتها أكثر من نصف مليون كيلومتر مربع، فيها الجبال والشلالات والغابات والسهول الخصبة والشواطئ الرملية الممتدة وسواء قامت فيها أول حضارة على وجه الأرض، كما زعم الدليل أم لم تقم، فثمة أدلة كثيرة تؤكد أنها أنتجت حضارة لا يُستهان بها. ترى ذلك في المعابد المجلحة، بمعمارها العجيب، وأبراجها العالية، بعضها يعلو في شكل مُكَدَّس يضيق تدريجياً مثل بعض الأشجار الاستوائية. هذا بالتأكيد معمار أكثر طرافة وجاذبية من المعمار الأوروبي القوطي كما في كاتدرائية «نوتردام» في باريس. معبد «وات أرون» - معبد الفجر - في بانجكوك بناء مذهش حقاً. ومعبد «وان فرا» ذو القبة المذهبة حيث يسكن «بوذا الزمرد»، والحصون والقصور التي شيدها الملوك المتعاقبون من آل «شاكري». ومن سيفهم. كذلك تجد آثار هذه الحضارة في الفنون والصناعات القديمة وأزياء النساء.

هذا كله يحتويه ثوب بوذي واسع فضفاض، فالبودية أصلاً كذلك، وهي ديانة تسعين بالمائة من أهل «تابلاند» وقد وصلتهم في القرن الثالث قبل الميلاد، بواسطة مبشرين أرسلهم الإمبراطور «اسوك» الهندي وليس صدفة أن «تابلاند» التي تتجاذبها المؤثرات الصينية والمؤثرات الهندية، اختارت البوذية، مؤثرة أياًها على كنفوشية الصين وهندوكية الهند والمسلمون باتون في المرتبة الثانية بعد البوذيين، ويغلبون في الجزء الجنوبي من القطر. كذلك توجد أقليات من المسيحيين والسيخ والهندوس.

عنصر الـ «تاي»، الغالب، جاموا على الأرجح من الصين، وجلبوا معهم الأنماط الصينية في الإدارة والحكم. وقد مزجوا هذا بشرائع «مانو» الهندوكية، وغلفوه بغلاف رقيق من الأساليب الأوروبية، فحصل لهم النظام الذي هم عليه الآن. وكما يحدث دائماً، اختلطت السلالات والأعراق.

امتزج الـ «تاي»، بمئات الآلاف من الأسرى الذين جازوهم في حروبهم الطويلة مع جارتهم «بورما»، ووجد عليهم الناس من الهند وفارس والصين. وجاعتهم أعداد قليلة من العرب. وكما يحدث في كل الدنيا، تفرع الناس قبائل، فإذا كان عندنا كنانة وطيء وتميم وبنو أسد وبنو كلب وبنو مرة ومن لف لفهم، فعندهم الـ «من»، والـ «لاوا»، والـ «كابل»، والـ «تشاونام».

المرآة



بقلم الطيب صالح

نحو أفق بعيد

٥٨

بل، المدن مثل البشر، لها ظاهر وباطن، تُخفي عنك وجهها وتلغاك بوجه الأ أن هذه المدينة، كأنها بلا أسرار، وكأن ظاهرها هو باطنها.

السائق الذي استقبلني في المطار، إذ أن الهوتيلات في «بانجوك»، ترسل لك سيارة تستقبلك في المطار، لم يمهلني طويلاً. لم تكد السيارة تتحرك، حتى التفت ائي وعلى وجهه ابتسامة بريئة، نعم بريئة براءة حقيقية، وسالني

«ما هي رغبات سعادتك؟ ما هو الصنف الذي تفضله؟ قل لي بصراحة. كل شيء متوفر».

كانت اجراءات المطار قد تمت بسهولة، فالسباحة عندهم مصدر رئيسي من مصادر الدخل، والكتب السياحية تقول لك أن في مدينة «بانجوك»، ما يرضي كل «الاذواق». حتى الفيزا، تحصل عليها دون مشقة في المطار.

لم اضيق وقتاً في سؤاله عن قصده، فقد فهمت قصده. قلت له

«أنا متعب الآن. بعد أن استجم سوف اخبرك بـ «رغباتي». كان الفصل صيفاً، وهذا مناخ استوائي. والمكان كانه.. كأنه.. بماذا يذكّرني هذا المكان؟ والطائرة، هذه الركوبة المجنونة، تنفلك في ملح البصر من مناخ الى مناخ، ولا تترك فرصة لخياالك كي يلحق بك.

نشرت اشيائي في الغرفة فصارت أقل وحشة، غرفة غريبة في بلد غريب، في افق بعيد.

نظرت من النافذة الى النهر، الذي اصبح منذ الغد «نهر الملوك»، انه الآن قبيل الغروب، نهر عادي، وهذا يكفيني. تستطيع ان تتخيل لوهلة انك في القاهرة او الخرطوم. الناس على الجسور، والسيارات تسروح وتجيء، وهذا النهر كسائر الانهار، يعطي المدينة وزنها وطابعها، ويحدد ابعادها، فكانه مغناطيس يجذب اليه الحياة على الضفتين.

لأنني نشأت على ضفة نهر، لأنني اعتاد اسرع، على المدن التي تقوم على ضفاف انهار. اول ما قدمت مدينة الدوحة، قضيت زمناً وأنا أحس أن المدينة كأنها بلا مركز ثقل وكأنها معلقة في الهواء. ثم ادركت ان سبب هذا الاحساس ان المدينة لا تقوم على ضفة نهر وليس فيها سكك حديدية فلا تسمع ذلك الصوت المثير، صوت قفقهة القطارات او آخر الليل، طبعاً الغننا بعد ذلك واحببتها كما هي

كنت قد تمهلّت وأنا اتعرف على سكني الجديد الذي سوف يؤويني بضع ليل ثم ارحل عنه. وقد لا اعود اليه ابداً. ونسيت امر السائق الذي اوصلني من المطار، ولم يخطر لي انه سوف ياخذ مزاحي مأخذ الجد، لذلك دهشت حين وجدته ينتظر عند باب النزل اسرع نحوي

«ها! هل ارتحت الآن؟»

قلت له

«نسمع. ما ازال متعباً».

«غداً اذا؟»

«نعم. غداً».

تلمعت قليلاً غير بعيد من الـ «موتيل». اعلانات

«مقاصر التدليك، وصور النساء، شبه عارات، تحاصر من كل جانب. وسط المدينة، مثل كثير من مدن العالم، ليس فيه شيء يميزه، وهذه البضاعة المعروضة في السوق، تزيد المكان قبجاً على قبج. وقد اتضح لي فيما بعد، ان مصيبة هذه المدينة انها قطعت الوشائج بين ماضيها وحاضرها. وهي مدينة ليست وليدة اليوم، فقد انشئت منذ اكثر من مائتي عام. الماضي تجده في المتاحف والمعابد والابنية القديمة، وهنا هذه الحياة «الحديثة»، بكل اماتها منفصلة لا تمت الى ذلك الماضي بصلة. الامر ليس سهلاً، ونحن ايضا. انظر الى القاهرة المحروسة. في الوسط، تلك العمارات التي تعد تحفاً في فن المعمار، انظر الى منظرها الكئيب وهيئتها الرثة، والى الخراب الذي حاق بالمدينة على ايدي المفاولين والتجار، رحم الله حسن فتحي الذي كان يصرخ في البرية، والخرطوم اتعس حالاً. تلك المدينة التي تقوم في موقع من اجمل مواقع المدن في العالم، اي بشاعة حاقت بها، من سوء التخطيط وقلة الذوق! هل نحن حقاً لقراء الى هذا الحد؟

وقلت سيارة امريكية فارغة، فيها امرأتان، التي تجلس وراء عجلة القيادة كأنها خليط من دم صيني ودم امريكي. انني لا امراء في ذلك، ولكن شعرها قد سير جداً «الاجارسون»، كأنها غلام، قالت:

«هل تحب ان تمضي وقتاً طيباً؟»

يا له من سؤال! ومن الذي لا يحب ان يقضي وقتاً طيباً في هذه الحياة الدنيا؟ ولكن ما ابعد هذا الذي يدعوني اليه من الوقت الطيب! اليس كذلك يا اخا كئود؟ مالك اخلدت الى الصمت؟ ألم تقل شعراً يصلح لهذا المقام؟

لا عليك، فانا اعلم انك تسمو عن هذا، وترباً بنفسك عن مثل هذه القاذورات. ولا تثريب عليك انك جزأت وراء خياالك ابعد قليلاً مما يجوز، حين قلت

غداً واعدها فحبذا تلف

الصق صدري بـ (...) الناهد

قلت للمرأة مازحا

«هل انت بنت ام ولد؟»

لم اتوقع ما حدث، وانتلبنني ما هو اكثر من الدهشة، إذ ان المرأة كشفت فجأة بحركة غاضبة عن صدر عار، صدر انثى لا مراء في ذلك، واغلقت باب السيارة بُعَثَ، وانطلقت لا تلوي على شيء.

اضحكتني ذلك، ولا ادري ماذا كان يجب علي ان افعل، فانا بعد كاتب، وهذه التجارب على غرابتها حصان يُجمع ويخزن الى حين

وجدت السائق عند باب الهوتيل، ضحك كأنه كان شاهداً على ما حدث، ضحك ضحكة بريئة بحق البراءة ليست فضيلة في حد ذاتها، ولا بذ لها من عزيمة تحميها. قال

«غداً اذا؟»

قلت له

«نعم. غداً».

البراءة



بقلم الطبيب صالح

نحو أفق بعيد

٥٩

في اليوم الثالث قال لي السائق، ليس بغضب، ولكن كمن يعتب عليّ أنني أضيع على نفسي فرصة ثمينة.

«ما هي حكايتك؟ أنت دائماً تعبان.. تعبان؟ لك ثلاثة أيام، ألم تستجم بعد؟ قلت له ضاحكاً..

«تريد الصراحة؟ ليس لي رغبة فيما تعرضه علي ولكن تعال استضيفك على شراب».

جلسنا في مقهى النزل، وكنت قد اشفقت عليه، واحسست ببعض الذنب أنني ضلّته. مسكين.. لا بد أن له زوجة وأطفالاً، ويعول والديه المسنين. واضح من وجهه الوديع أنه بار بابويه، رؤوف بأبنائه. ليس من «بانجكوك»، على الأرجح، فأغلب سكان المدن في عالم الفقراء، العالم لماذا؟ الثالث؟ نزعوا إليها من الزيف. كأنه من «كوستي»، أو «الخلد»، أو.. «جوبا».. نعم، هذا هو. هذه المدينة الاستوائية تذكرني بـ «جوبا»، وهؤلاء الناس يذكرونني بأهل جنوب السودان، دغك عن اختلاف الألوان. هل كان عندهم في سالف العصر والأوان فردوس ثم أضاعوه؟ إذا لماذا لا يبكون عليه كما نبكي نحن على فراديسنا الضائعة؟

راوا الشوارع والزحام والعمارات الزجاجية والمحلات التجارية الموسقة بأصناف السلع المستوردة. خالوا السراب ماء. صدقوا الوعود وظنوا ذلك الحميم هو الفردوس الموعود. تركوا زراعاتهم وصناعاتهم وجاموا يسفون وراء الحلم المستحيل.

مسكين.. لا بد أنه أيضاً أمي، أو شبه أمي، يخوض غمار الحياة بلا سلاح. قال وهو يمتص شراب الكوكاكولا المستورد من مضاصة البلاستيك، وقد اشرق وجهه فجأة..

«علي أي حال أنا سعيد جداً اليوم. حالفني الحظ فظفرت بزمونين ثريين. دبّرت لهما شيئاً ممتازاً.. هائي كلاس.. ليس من النوع المبتذل الذي تجده في شوارع «بانجكوك»، ومحلات التدليك.. حاجة هائي كلاس بحق.. لذلك أجزّلتني العطاء».

«كم اعطيتك؟»

«خمس مئتي دولاراً».

«هذا مبلغ كبير؟»

«مبلغ كبير؟ هذا أكثر مما اكسبه من الشركة في أسبوع كامل».

«السيارة ليست ملكك؟»

«طبعا السيارة ليست ملكي؟ كل التاكسيات في «بانجكوك»، تملكها شركات».

لا عجب أنه مخبور لا يزعه أي احسلس بالاثم وجهه منبسط وضميره مرتاح.

كان معدل الدخل في «تايلاند» تلك الايام اقل من مائتي دولار في العام، لكل رجل وامرأة وطفل وشيخ يوفر هذا المسكين منها نفقة السكن والطعام والشراب والعلاج والتعليم، ويذخر شيئاً يصدّه به غوائل الزمان ومناكب الحداث.

لا عجب.. مخدر وسيط. كأنه يساعدك على تاجير بيت أو شراء تذكرة سفر بالطائرة ويأخذ «عمولة».

البراءة ليست فضيلة في حد ذاتها ولا بد لها من قوة تحميها

أه! والسودان؟ معدل الدخل في السودان إلى الآن، لا يزيد عن أربع مائة دولار على أحسن الفروض. من هذه الحصلة الضئيلة يبذل المبددون وينهب الثامبون، وتجنّش الجيوش وتشتن الحروب. الفقر فضيحة

نساء «سو ذري»، و«حفرة الشيخ»، و«حفرة الوز»، وأم باد، بعد قرون من حياة مصونة وجسي أمر.. ذكر مثل البيض المكنون في أوكار النصور، جبار عليهم الزمان، واجلاهن القحط وغباء الحكام عن ديارهن، فجئن يتسولن في شوارع الخرطوم. الله يستر عليهن مما هو أسوأ. في أثناء ذلك تشتعل الثورات وتخدم وتقوم العهود وتسقط.

المبله والليله
زولاً سرت سرتة
أدوني في شربة
الغفر مصيبة. والثراء أيضاً مصيبة. وإذا اجتمعت المصيبتان فتلكم الطائفة الكبرى.

هذه المدينة افسدها الامريكان، كما اد سوا «مانيلاً»، عاصمة الفلبين. كانت مرتعاً لجنودهم يستريحون فيه من عذابات المعارك، في المحيط الهادي وفي شرق آسيا. خلال الحرب العالمية الثانية ثم في حرب فيتنام. أناخوا عليها بكلكلهم، كما يفعل الجنود، وارقوا عليها دولاراتهم، وجدوا قوماً بسطاء ضعفاء لا يعصمهم عاصم، فعاثوا في المدينة كما شاموا، وتركوها كما ترى.

البراءة وحدها لا تكفي. مثل نبات الوشمي أو نر الغشيب اليابس.. أو كما قال الشاعر السوداني: -

الجر ناز عويش ان علقوها تعيش
بش ما انت جاهل وان جفيت معنيش.
قلت للسائق التايلندي، وهو يجلس قبالي في مقهى نزل الـ «أورينتال» الذي كان يلجأ به الكاتب المليونير «سمرست موم»:-
«وهذه الدولارات العشر مني أنا أيضاً، لأنني ضللتك».

فرح بها أيتها فرح. ولعلّه يسد بها ثغرة في حياته.. ثوب يشتريه لابنته أو لابنه. كان سعيداً مرتاح الضمير، لا يعذبه أدنى شعور بالاثم. وأنا أيضاً شعرت ببعض الرأفة. غفر الله لي، فأنني لا أعلم أن كانت تلك حسنة أثاب عليها ولكن الأعمال بالنيات، كما جاء في الاثر، ليس كذلك يا رعة الله.

الجر، تمنى العطف. ومنا تمنى الحب عريش، أي الغشيب الحاف وسيفان القصب وما شابه ونادى سرحان ما تنفسي.
علق النار، أي أشعلها. ■

(للحديث بقية)

الأمريكيون في السودان



بقلم الطبيب صالح

نحو أفق بعيد

٦٠

لغت نظري في تلك المجموعة من السياح الأمريكيين. رجل متوسط القامة. حسن الوجه. رأسه مكسو بشعر أبيض كثيف كان مختلفاً عن بقية الأمريكيين لا يجعله آلة تصوير ولا يصنع بالصحك لأنه سبب كالأخريين ولكن يستسم من حين لآخر ابتسامة رصينة وكان واضحاً أنه يسافر وحده. لا ينتمي إلى أي مجموعة منهم. هاهي. هاهو.

كنا نتجول في اطلال مدينة «نيوتاهايا» الدارسة. ثم وقفنا ننظر إلى تماثيل زعم الناعة التابليديون أنها تماثيل أثرية قال وهو يلفظ تماثلاً محاسياً صغيراً لغرس مجنح كل هذا لا قيمة له يدفون بها في الأرض حتى تصدا. ويبيعونها لهؤلاء السواح الأمريكيين الأعياء على أنها تحف أثرية. أهم مهرسون بكل ما هو قديم. وعندهم المال يشترون أي شيء. ولكن. الست أمريكية. بل. من موسطن. وانت. من السودان.

لم اتوقع أن يكون سمع بالسودان. مثل أغلب الأمريكيين الذين لا يميزون بين السودان وزائير وتنزانيا. أنه ذلك بلد يستحق أن يزار يبدو بلداً ذا تاريخ حافل أنه بلد واسع. ليس كذلك. مليون ميل مربع. مليون ميل تصور. أكبر بلد في إفريقيا. عاصمته الخرطوم. ليس كذلك. عند ملتقى النيلين الأبيض والأزرق لا بد أنه منظر ساحر. من أجمل ما يرى الإنسان.

لا بد أنها مدينة جميلة ما اسم المدينة الأخرى التي حدثت فيها المعركة الشهيرة التي هزم فيها الإنجليز جيش المهدي. أمدرمان. مع معركة أم درمان... كانت معركة غير متكافئة. كانت مع الإنجليز أسلحة حديثة. ومع ذلك لم يكن النصر سهلاً.

أعرف لقد أظهر جيش المهدي مسألة نادرة. عجبت من هذا الأمريكي الذي ليس كالأمريكيين كما تخيلت قلت له. الأمريكيان عادة ليس عندهم اهتمام ببقية العالم ما هو سر اهتمام بالسودان. قال صاحكاً.

صدقت. نحن في الغالب مشغولون بأنفسنا كماه لا يوجد أحد غيرنا على وجه الأرض الأقوياء دائماً هكذا ومع ذلك لا تقدم أمريكيين لا ينقصهم حب المعرفة. الواقع أنني قرأت بمحض الصدفة كتابين الثارا اهتمامي بالسودان. فأخذت أقرأ كل ما يصادفني عنه كتابين مدهشين حق لكاتب استرالي.

«الآن مؤرّده. النيل الأبيض والنيل الأزرق». سمع ذلك هو هل قرأتهما. نعم. بهال من كاتب يشد انتباهك كانت تقرأ رواية بوليسية. له كتاب آخر لا يقل روعة... عنوانه «اللقاء المدمر» هل قرأته. أبداً. ثم يتحدث.

كيف أن الأوروبيين والأمريكيين مصلحة خاصة ذهبوا إلى محتمعات بدائية كانت تعيش مطمئنة على العفورة في المحيط الهادي جلبوا إليها أفات الحضارة الغربية. وصمها الأمراض الجنسية مثل مرض الزهري... مزقوا شجيتها الاجتماعي ودمروها دميماً. قال بحزن. معهم هكذا نحن. ملاء. نحن برابرة هذا العصر حينما نحل نترك وراءنا آثار الدمار والخراب نحن نبتة طماعاً وهذا النوع.

زاد عجبني من هذا الأمريكي. الذي حبر كل تصوراتي عن الأمريكيين. نحن على ظهر السفينة الآن. عائدون إلى «بانجكوك» السياح الأمريكيون حولنا يضحكون ويلعبون ويأخذون الصور والدليل التابليدي الذي رفع الكلفة مع معصمه فيما يبدو

بمنازلهم ومنازلهم بأسماهم قلت له ومصر منتقل على حاجز السفينة ننظر إلى مياه النيل. «اتمنى أن تتمتع من زيارة السودان». «لا أظن. يا لاسف». «ولم». «ليس عدي وقت». «لماذا».

«أنا في السادسة والسبعين على أي حال لم يبق إلا القليل من العمر». قلت له. «أنت تبدو في صحة ممتازة من بدري» لعنك تعبير إلى التسعين أو المائة. قال صاحكاً.

«يا ليت ولكن الإطباء لا يظنون ذلك اعطوني عاماً واحدا فقط. فهل إن أحد الكلمات المناسبة. قال. «اكتشفوا أنني مصاب بنوع غريب من أنواع الله. مان. لا يعرفون له دواء قالوا أنني لن أعيش أكثر من عام واحد. على أقصى حد. قلت فليكن إذا كان الأمر كذلك. فلاديهب خلافاً الموت منتصف الطريق. مدلاً من أن أجلس وانتظر قررت أن أقوم برحلة تستغرق عاماً كاملاً أوز فيها كل البلاد التي حلمت بزيارتها وأقرأ الكتب التي لم أجد الوقت لقراءتها إن أمدا حياة جديدة. إذا صح القول».

ضحك دون مرارة. ثم صمت وأنا أيضاً. لماذا أقول. «الحسن الحظ عدي من المال ما يكفي في واقع الأمر عدي من المال أكثر بكثير مما يلزم أي إنسان في الحياة. طول حياتي وأنا مشغول بجمع المال. نشأت نشأة فقيرة.. فقيرة جداً أصبح هذا في الحياة أن أصير غنياً. المال لعنة تقول أصل نصد مليون والف ثم نقول لا بأس خله مليوناً وكفى... ثم مليون. مليون وهكذا... إلى أن يتدخل القدر ويضع حداً للسباق رغماً عنك.

نظرت إليه الآن نظرة جديدة. هذا في وهو يتكلم على الحاجز الخشبي يحدق في ماء النهر. انساناً مختلفاً انساناً غير عادي. يسير بخطى ثلثة نحو النهاية الختمية. ولكنها نهاية مأساوية على أي حال. فيه شيء. كيف القول بطولي قال. «لنوء الحظ نحن نصنع جزءاً كبيراً من الحياة في أشياء تافهة. مثل جمع المال تعرف أنني الآن أرى الدنيا بعيون جديدة. كأنني أرى الأشياء لأول مرة. كل شيء له وقع آخر. مذاق آخر. لعل هذا العالم الذي بقي في هو أهم عام في حياتي بل لعنة العالم الوحيد في حياتي أنا الآن. ولأول مرة في حياتي. حُر من كل القيود. رنعت أموري وصغيت شركائي. أحمل وصيتي معي أقول بها إن يدفوني حيث أموت إذا مت في عرض البحر إن يلقوا بجسدي في البحر...».

توابعنا في «بانجكوك». وكانت أظنه آخر لقاء ولكن كأنما الحياة أرادت أن تؤكد في شيئاً. أو تعزيس عن شيء أضعته ذهبت إلى «سبيني» حيث وجدت «ميسي» في انتظارني لم سافرت وحدي إلى «طوكيو». أقيمت في فندق الـ «ميو أوناني» الضخم كانت في سوق عامر. من كثرة الناس والرحام. الإنسان الذي تراه. لا تراه بعد ذلك أبداً. ورغم ذلك بينما أنا أسير في الممر الطويل الذي يؤدي إلى الاستقبال. إذا أنا فجأة مصاحبي الأمريكي. سمعت صوته ينادي وسط الرحام.

«هي... هي...». هلو. أهلاً أهلاً يا لها من صدفة عجيبة إن شدي مرة أخرى. صدفة عجيبة جداً لا أكاد أصدق. «كيف حالك». «عظيم». «والصحة». «ممتازة. أنني أبدأ لم أشعر بالصحة كما أشعر الآن. يبدو أن الموت قد تسببني».

«أما قلت لك أنك قد تعيش إلى التسعين أو المائة». «لا أظن سوف أقابل الموت حتماً في هذه الرحلة ولكنني مستعد له بالخير» أنا الآن في طريقني إلى المطار أدير. «أهلاً». «مع السلامة».

أكرم ورثتك



بقلم الطيب صالح

نحو أفق بعيد

٦١

قال المسؤول الكبير في وزارة الخارجية الأسترالية «اسمع خويبتا مبيع الفصح والرمذ والحدود للعرب هذا لا يحتم علينا أن نؤيد مواقفهم السياسية إلا نعلم بأن أستراليا تسمى «البلد المحفوظ» عندما كل شيء المتروك والزراعة والصناعة بلادنا شاسعة، قارة كاملة هذه بلاد مملوءة بالخيرات نحن لا نحتاج للعرب في أي شيء».

اعاضني الرجل ولكن صراخه أعجبني كنت قد قضيت معه نحو من ساعة أحواره وأدواره، ولا حظت أنه لم يقدم في فهو أو شيئا، علما بأنني جئت إلى موعدة في التاسعة صباحا قلت له «لا تقدمون شيئا لصيوغكم» هذا وقت شرب القهوة اليس كذلك؟ نحن في بلادنا نقدم القهوة والشاي لصيوغنا.

قال وهو يصعد على الجرس «أه أنا اسف أنا شخصيا لا أخذ هذه المكففات تضر القلب وهذه الحكومة قد فرصت علينا سياسة التفتيش يقولون أن أحوالنا الاقتصادية ليست كما يجب، أسعدني التفاضل الذي أوقعته فيه البلد المرء بالخيرات، يعني من ضائقة اقتصادية، ويفرض سياسة تفتيش وانسنت له كما قال الأستاذ.

ولما صاروا الناس خبا

جزيت على انضمام ماينسجام

كنت وحدي في «كامبرا»، تلك المدينة الجميلة ذات الساحات الواسعة والمباني المعنسة التي خططوها لتكون عاصمة إدارية هفتونا، «مسي»، وأنا في مطار «سدني»، هو صوب لندن، وأما صوب «كامبرا».

لم يستطع أن يجد وسيلة لیسافر معي إلى «طوكيو»، كانت تلك أول مرة أراه عاجزا أمام هدف يريد تحقيقه فأولاه أن الوسيلة الوحيدة هي أن يسافر أما عن طريق «موسكو» أو يعود إلى لندن ويسافر من هناك إلى «طوكيو»، وحاول أن يقنعني أن يسافر معا عن طريق «موسكو»، كدت أقبل، فذاك عالم لا أعرف عنه إلا ما قرأته في الكتب والصحف يا ليت، ولي عند الروس حقوق من ترجمة كتبتي، يمكن أن نعيش بها زمنا رعدا ونفعلها عندهم بالزويل، حتى الروس ياكلون من البثامي».

ان كان يجمعنا حب لغزته

فليت أنا بمقدار الحب نقسم

اجل، معشقة ونفرت منه أما الاتحاد السوفييتي والصين والهند واليابان وأمريكا اللاتينية، هي بلاد لا وزن لها في حسابنا حتى أخواننا الذين شاركوا في صنع حضارتنا، حتى الأفارقة، جيراننا ودو رحمانا يا ليتني ولكن ليس عهدي وقت، وأعاني عمل لا بد من إيجازه.

لو أنني بذلت أقل جهد، لغير «مسي»، مساره ليلحق بي في «طوكيو»، لكنني بعد نحو عشرة أيام، كنت قد ضللت مصيبي، وفتت إلى مصاحبة نفسي لذلك شُغلت عزمته بشئ الطريق تجعله أن يذهب إلى «باريس».

«والله فكرة أنا في زمن ما شفتش «باربرا بريسي» باريس حثكون حلوة جدا الأيام دي، بس يا حسارة أنت مت حثكون ويانا.

معليش، انضم اليكم بعد عودتي من «طوكيو»، دي أول مرة تحصل في الحكاية دي قال آيه، اسي تجاوزت الاميال المسموحة في كشركة سياحة والكلام الفارغ دا قلت لهم يا أولاد الآيه ما هي طوكيو أقرب من هامما أرجع للندن أما تعمل آيه؟ فواين معقدة وناس ما تعرفش تتصرف.

«خلاص يا أخي مش أنت زرت «طوكيو» قبل كده».

«وأنا زرتها يحي أكثر من عشر مرات أنا أعرف الياباني شير شير أنت تعرف أسي أثنى اللغة اليابانية».

«يا راجل حرام عليك أنت تعرف لغة يابانية».

«أنت شير مسبق» أنت ناسي أن عدي مدرسة لتعليم اللغات في واشنطن» ماحدث الطريق الـ «أوديوغريول»، وأنا حتى

ترجعت قصة لـ «مسي»، إلى اللغة الإنجليزية» اسر، سحاما سمعتش بـ «مسي».

«لا يا سيدي، سمعت بس أنك تترجعه قصة من اليابانية إلى الإنجليزية» دا افتراء صحيح، وشترتها من.

صحت صحتة، تعني أن هذا الكلام قد يكون صدقا وقد يكون كذبا، وعلم أن أقبلة على علاته ثم قل.

«حسنا، أنت لي بصحيح في اليابان كنت حستفد مني قوي في مهمتك».

«لا شك في ذلك ولكن معلش امري لله أحاول أقوم بالمهمة وحدي أعمل آل أهدر عليه طبعنا سوف أعتد فذراتك المتعددة وعطيرتك».

«أنت متصنك» ما هو أنا فعلا عفري، ليه أنتو مت عاورين تعترفوا بالحقبة دي».

«شوف يا أسي أنت فعلا مودج هريد من البشر اسفل مسبح وحده، لن يتكرر، أما أنت عفري فأنه أعلم.

«أولا يا استاذ أعلم أزي تتكلم عربي عامل أنك كاتب وشمل «الحلقة» دا، وأنت ما تعرفش قواعد اللغة العربية، هي مش وحده، والكسر ولكن وحده، فالتفت.

«ليه».

«لأنها مجموعة من الصرف».

«يا أسي دي مضاف ومضاف إليه».

«أنت مش فاهم حاجة» أنت سبتت أن عدي «بكالوريوس» في اللغة العربية من جامعة لندن».

صحتك فك كنت أعلم كيف حصل على تلك الشهادة كنت أساعده في اللغة العربية والتاريخ العربي، لم يكن يعرف الفرق بين عبد الملك بن مروان الذي كان يسميه «عبد الله» أبي مروان، وبين أبي جعفر المنصور الذي كان يسميه «جعفر بن المنصور».

«ولي ذات اليوم الذي قال فيه الدرجة حسنا في ملهى في شارع «كنجز رود» في «تشلسي» ودخل معي في جد حول مسألة لغوية قلت له

«اسمع قدغرتني استاذك، وبدوني ما كنت تأخذ الدرجة دي».

ضحك الآن، بطريقة لأصت قدسة حصوله على درجة «البكالوريوس» بكاملها، ثم قال

«سيك من الحكاية دي مذمتك مش أنا ساعدت مساعدة رابعة في مهمتك» مش نحن ويا بعض فمنا بعمل ديبلومي على أعلى مستوى».

«أشهد أنك أظهرت مواهب ديبلوماسية لا يستهان بها».

«آيه رايت في حوارنا مع مستر «كامبرون» مش .. حوار أدهل «الراجل» أنت من ناحية وأنا من ناحية».

«كان كويس».

«والشباب الفلسطيني في الـ A.B.S (هيئة الإذاعة الإسرائيلية) أنت ماني ولا أنت وأخذ بالك أنا فورا عرف أنه عربي، مش هو اللي فتمت للمخرج الإسرائيلي، وأجروا معك مقابلة ساعة كاملة في أهم برنامج اداعي عدهم».

«كده دا صحيح، فمضك لا ينكر».

«بس أنت زعت مني ورجعت عملت المقابلة لوحدك أصلك خفت أني أحطف الأصواء منك».

«أكيد هو أنا أعرف اتكلم إنجليزي زيك يا دكتور» مذمتك أنت صحيح عندك شهادة دكتوراه».

«الآ عدي شهادة دكتوراه» أنت تسع ما تعرفش الـ «آيه دي» ما تعرفش أني أنا عدي مش شهادة دكتوراه واحد، عدي ثلاثة شهادات دكتوراه».

«يعني أنت زي زكي مبارك، يا راجل خاف الله».

«سيك من الحكاية دي مذمتك مش أنا وأنت تسع سفراء متحولين تصور لو علونا سفراء نخذه القصبة العربية مش

كل أحسن من الكلام الفارغ الـ «بيعهلوه» دا».

بعد أكثر من عشرة أيام من مثل هذا التفتيش بدأت أرمي «مسي» وأتوق إلى أن أخلو نفسي لذلك لم أتحججه على السفر معي إلى «طوكيو» ومع ذلك حين جنسا في مطار «سدني» هو يتبعه إلى لندن وأنا إلى «كامبرا» أصبحت بمعشر الحذر، ولما

أفعلت طائرته قبل تميت لو استغفينة والآن، وأنا أواجه هذا الإنسان الصلف، فكرت في «مسي»، قلت يا ليتك كار معي، لأن

ولاحته تمنع في مثل هذا الموقف

(خاتمة - - - - -)

أسماء وراثته



بقلم الطيب صالح

نحو أفق بعيد

٦٢

تركت بلاد «سيام» الأسطورية ورائي، ليس كما ترك
«الاستاذ» حلب في ديار الشام، فلم يكن ثمة امرئ
أحبته وخيب ظني، وكان القلب خالياً لم يتنور
بعد، نارهم من وراء أنزعاجي لا، ولا كان أمامي ملك أقصده لا
أدري كيف يكون حالي معه، ولكن لعلي لم اعدم حذوة من
تلك النار المقدسة التي أحرقت ذلك القلب العظيم

أنا كان أحد ينتظرننا في «سدني» فهو «منسي» في «سدني»
سوف نرى

كيف قلت، غفر الله لك

على قلبي كأن الريح تخفي..

ثم ماذا؟ لقد اشتعل الرأس شيباً، وبدات الذاكرة تخون
الآن انني اذكر جيداً بيتك العجيبين

صحبتي على الغلاة فتاة

عادة اللون عندها التبديل

سرتك الجبال عنها ولكن

بك منها من اللحن تقبيل

كيف تأتي لك هذا المعنى الغريب، وأي فتاة كانت
نصحبك في تلك الغلاة، ومن قبل من الفتاة تقبل فتاة سامحك
الله!

حاشاك ان يرقى مثل الى همومك واشواقك، وأي ابن انثى
يسمو الى مثل اشواقك وهمومك، ولكنني مثلك على الأقل في
هذه الببغاء، ارى ولو قليلاً، واسمع، واتذكر، اتذكر
الشمس تارة عن يميني وتارة عن يساري، متى كان ذلك
واذكر ثلوجاً في قمم جبال في عز الصيف، أين رايت ذلك
واذكر اودية وغابات وبحاراً تلمع مياهها تحت ضوء
النجوم، واذكر مدناً تضوي مصابيحها، كأن السماء قد
انطلقت على الارض، اللهم ألا الخرطوم، هنالك الارض
تنتظر مزيداً من الضوء، والسماء مضيئة كأنك لم تر السماء
من قبل.

الآن في هذه الغلاة في الفضاء، بين «بانجكوك» و«سدني»
اتذكر قولك

ولله سيري ما أقل ثبته

عشبة شرقي الحدالي وغرب

عشبة أخفى الناس بي من قلوبته

وأهدى الطريقين التي اتجنب

ما أشد ما صغبت الامر على نفسك، وقد كنت تستطيع لو
أردت، ان تاوي الى مكان لا تبرحه، مع ألح نسكك اليه،
نصحوان معاً على نداء الاذان في الفجر

ويوم قليل العاشقين كمنته

أراقب فيه الشمس أين تغرب

وغيني على أني أغركائه

من الليل باقي بين عينيته كوكب

شقت به الظلما أدنى عنائه

ليطفي وارخيه مراراً فيطرب

ذلك عنان الشعر، هذا الظلام الذي تتحدث عنه ليس
ظلاماً، والضوء الذي انجس في جوفه مثل... ربة،
كاشفة، ليس ضوءاً، هذا ضوء الشعر في ظلام الكور، ليس
كذلك، كانك أخذت الظلام الذي اتاخ بكله على امرئ
القيس، وعنايه نابغة بني ذبيان، فاشتعلت في جوفه نيران
عقربتك، ولم تجدك ذلك نفعاً، لأنك لم تلثفت كما يجب، الى
النور الذي ولد مع الصبي العربي اليتيم في أم الغرى، كانت
القصيدة عندك هي الهدف، وقد قال شيكسبير بعدك

المسرحية هي المقصد، ثمة يكمن ضمير الملك،

وقد اعياك الملوك والامراء الامير الذي لو لم تـ...
بديك البيت لكان حسنه، يستطعك المدح، وفي دارا
فيطلب منك أن تصفها، ويعشق جارية فيأمر ان نمرل فيها
شعراً، وينظم شعراً ركيكاً فيطلب منك أن تجيزه، أنت الذي
قلت فيه

وقفت وما في الموت شك لواقف

كانك في جفن الردى وهو نائم

نمر بك الابطال كمنى هزيمة
ووجهك وضاح وثغرك بلسم

ثم ينقض عليك اللغويون والمناقون والحساد، اصاف
الشعراء، ويقولون لك

هلاً مدحت الامير بالفضل من هذا

هلاً قلت

وقفت وما في الموت شك لواقف

ووجهك وضاح وثغرك بلسم

هذا وانت من انت، فترد عليهم بقول امرئ القيس
كأنى لم اركب جواداً بلدة

ولم اتبطل كاعباد ذات خلخل

ولم اشبا الرئى الزوى ولم أقل

لخيل كزى كزة، اخلخل

رحمك الله وغفر لك، ما أشد ما قاسيت من نسك ومن
الناس، لنذهب معاً الى هذا الصقع الذي لم تركض فيه
خيلك، سوف نجد «منسي» في انتظارنا، ولا عليك انه لا يفهمك
ولا يفدرك، تعال الى «سدني» حيث الفتى العربي كما
وصفت

غربت الوجه واليد واللسان

هناك، سوف نرى

• الثبته النبط في السير، فكانه قال «ما أسرع ما كثر
سيري» ■

(... - - - - -)

أحمر ورق



بقلم الطيب صالح

نحو أفق بعيد

٦٣

لم يكن عندي حجز في واقع الامر، ولكنني
اجبت موظف الاستقبال دون تفكير، وربما كان
ذلك من اثر صحبتي لـ «منسي».

«نعم».

نظر هو جد اسمي

«نعم. يوجد حجز باسمك. انت موظف في الشركة
العالمية للسياحة. اليس كذلك؟».

اتقنت حينئذ ان «منسي» قد سبقني الى «سدني»
وفرحت لذلك، ان اجد انسانا اعرفه في هذه الاصقاع
النائية. لقد ابعدت جداً عن العوالم التي اعرفها.
وربما لأول مرة في اسفاري احس بالوحشة. وعمق هذا
الشعور انني حللت في شتاء زمهرير. لقد ولدت في
الصحيف. في شهر يوليو - تموز العتيق، لذلك فلانني
احتمل الحرّ مهما طغى، اما البرد فانه يصيب روحي
بالكابة، ويصيب عقلي بالشلل. وكانت الدوحة صيفا
حين تركتها، وصاحبت الصيف في «دلهي»، ثم في
«بانجكوك»، ولحاجة اذا بالعالم ينقلب رأساً على عقب.
الحمد لله اذا، ان لي صديقاً في هذا العالم الموحش

قال «منسي» وهو ما يزال عند الباب، دون ان
يخبرني وكأننا لم نفترق منذ اسبوع
«انت مش حتبطل التفتيل بتاعك دا؟»
«ليه».

انا قابل لهم انك موظف معنا في الشركة عشان
بذك تخفيض. تقوم تقول لهم انك موظف في حكومة
قطر ومش عارف ايه؟ انت ما تعرفش اننا كشركة
سياحية بتأخذ خمسين في الماية تخفيض؟».

كان قد سبقني الى «سدني» بيومين، تحرك خلالها
تحركات واسعة كما اتضح لي فيما بعد. كنت اغبطه
على سرعة تاقلمه مع البيئات التي يحل فيها، وانا
بطيء التاقلم، اخذ وقتاً لانتقل من حال الى حال، هاهو
الآن في هذه المدينة الغريبة على حافة الكون، مرتاحاً
مطمئناً كانه في لندن او القاهرة او الرياض. واغاضني
انه جاء مستعداً للشتاء. كان عليه معطف من فراء
الثعلب. لا بد انه غالي الثمن، وان كنت اشك انه دفع
فيه قيمته الحقيقية. ذلك جعله يبدو في نظري باعثاً
على الضحك. قلت له:

«ايه اللي انت عامله في نفسك دا؟».

«رائع مش كده».

«الله يخيبك. انت عامل زي الممثلين الفرنسيين
دي امور ذلوع».

«انت اصلك جاهل ما تعرفش في الحاجات دي
اسمع. سيبك من الكلام الفارغ دا... انا عملت موعد
بكره الصبح مع مدير عام هيئة الاستعلامات».

وبعدين حنتغذى مع مدير عام هيئة الاداعة
الاستراتيجية... و...
«الله.. الله.. ايه دا؟».

«ايه دا يعني ايه؟ زي ما بقول لك. امال احنا جايين
نلعب ولا نشغل؟».

«وانت مالك ومال الحكاية دي؟».

«ازاي انا مالي؟».

«مش نحن جايين في مهمة اعلامية هنا؟».

«انت جاي في مهمة اعلامية؟».

قال وهو يضحك بطريقة العجيبة.

«يا استاذ انت مش واخذ بالك. انا اصبحت رسمياً
شريكك في هذه المهمة. انت ناسي اني انا اللي جيت لك
الفيزا؟ انت ما تعرفش اني انا خليت السفير الاس... الي
في «دلهي»، يكتب لوزارة الخارجية هنا عشان يعملوا
الاجراءات اللازمة؟».

«لين؟».

«احنا الاثنين. احمد الله اني خلّيتك يحط اسمك في
الرسالة، والا ما كانش حيسالوا فيك. انا افتكرتك
حتوصل امس، وخليتهم يروحوا لك المطار».

«وانت بصفتك ايه؟».

«بصفتي مستشار اعلامي».

«مستشار اعلامي لمن؟».

ضحك دون ان يجيب. الله اعلم اي صفة جيدة

اضفاها على نفسه

تأكدت من صدق قوله حين دخلنا على مدير عام
هيئة الاستعلامات. هذا منصب يعادل وزير الاعلام
عندنا، فاستراليا مثل بريطانيا، ليس فيها وزارة
اعلام. كان «منسي» يبدو لي في زيّه الفاخر مضحكاً.

لانني كنت اعلم انه يدخل على الرجل في صفة منتحلة.

اما في عيني ذلك المدير العام، فلا بد انه بدا شخصاً

مهما حقاً. كان يلبس بدلة من الصوف الفاخر الذي لا

بد انه اشتراه من «دورمي» في لندن بثمان بخرس. و«ايه

ذلك المعطف من الفرو. اتجه الرجل اليه دون تردد،

وصافحه باحترام واضح. قدّمني «منسي» اليه بطريقة

لا تترك مجالاً للشك انني تابع او مساعد له. واذا انني

لم اكن قد افقت بعد من «قفزة الطائرة النفاثة» - الـ

Jet - فقد تركته يصول ويجول وحده، لا اندخل

الا حين احس انه قد اشتط شططاً بيننا. ابل في الدفاع

عن القضايا العربية بلاء حسناً والحق يقال تحدث

وكانه سفير مسؤول او ناطق رسمي باسم جامعة
الدول العربية. بل انه كان كذلك حقيقة. في نظر نفسه
وفي نظر المدير الاسترالي ■

أصغر وأقرب



بقلم الطبيب صالح

نحو أفق بعيد

٦٤

السادس والعشرون من شهر يناير عام ١٧٨٨، تاريخ له طعم مرير في حلق الاستراليين، ومع ذلك فهم يحتفلون به، ربما لأن للشعوب رغبة لا تُحد في الاحتفال، وربما كما يحتفل السجين باطلاق سراحه

تسير في شوارع «سدني» فكانك في «نيويورك» تارة، وفي لندن تارة أخرى، هنا في وسط المدينة حيث يقوم نزل الـ «هلتن» في شارع «بيت. Pitt» تحس كأنك في «نيويورك» لا بد أنهم اسموه باسم «وليم بت» رئيس وزراء بريطانيا الذي استعمرت استراليا في عهده. هذا المعمار البشع الذي ابتدعه الامريكان، كما في «مانهاتان» في «نيويورك» لا لحاجة الناس اليه، ولكن لمجرد التقاضي بما في ايديهم من تكنولوجيا، واحساس الكائن البشري، وهو احساس جهول كما نعلم، بأنه قادر على كل شيء. وتسير باتجاه البحر، وهو غير بعيد، فإذا اسماء الشوارع وهياة المباني، كانك في لندن.

وفي واقع الامر، فإن أوجه الشبه بين استراليا عموما وبين امريكا اكثر مما بينها وبين انجلترا. فاستراليا مثل امريكا، نشأت على اطراف الحضارة الأوروبية، وهي مثله قامت على اكتاف المهاجرين من العالم الأوروبي، وقد كانت مثل امريكا مستعمرة بريطانية ثم كسرت القيد وشبّت عن الطوق.

ولكن شتان بين الهجرتين، فالأوروبيون الذين نزحوا الى امريكا، كانوا في الغالب، رجالا ونساء ذوي عقيدة ومبادئ، فرأوا بدينتهم من الاضطهاد او سعيا وراء العيش الكريم. اما هؤلاء فكان لهم شأن آخر.

كان البحار المغامر، «وليم دامبير» اول بريطاني تطل قدماء ارض استراليا. وكان ذلك عام ١٦٨٨. الا ان ذلك لم يحدث اثرًا يذكر، فقد اعمل الأوروبيون قاطبة امر استراليا التي كانت تبدو لهم عالمًا اقرب الى الخرافة منه الى الواقع، مما جعل «جوناثان سوفت» مؤلف «رحلات قلقر» يطلق عليها اسم «بلاد البهاو». ثم في التاسع والعشرين من ابريل عام ١٧٧٠ رست سفينة «كابتن كوك» في خليج واسع في الطرف الجنوبي الشرقي لاستراليا، اطلق عليه اسم «بوتاني بي» - خليج الثبات. لكنه لم يمكث طويلا بل واصل سيره شمالا بحذاء الساحل. هبط في لسان ممتد في البحر وهناك غرز العلم البريطاني واسمى كل ذلك الجزء الجنوبي الشرقي «نيو ساوث ويلز» - ويلز الجنوبية الجديدة.

ايضاً لم يابه الانجليز باستراليا، ولم يلتفتوا اليها الا بعد ان ضاعت منهم مستعمراتهم الامريكية بعد حرب التحرير. ادركوا انهم بضيايع تلك المستعمرات، ما عادوا يجسّدون ارضا ينغفون اليها الفانض من المجرمين الذين ضاقت سجونهم عنهم وبدا لهم ان تلك الارض البعيدة التي اضافها «كابتن كوك» الى ممتلكات التاج البريطاني، تصلح لذلك الغرض واعلن رئيس الوزراء «وليم بت» في البرلمان ان النفي الى استراليا هو انجع وسيلة وارخصها، للتخلص من

المجرمين الذين لم تعد سجون بريطانيا تتسع لهم وهكذا، في ١٣ مايو عام ١٧٨٨، ابحر اسطول من احدى عشرة سفينة تحمل الفا وثلاثين سجيناً، تحت امرة «كابتن آرثر فيليب»، الذي اصبح اول حاكم للمستعمرة الجديدة. وفي ١٨ يناير ١٧٨٨، بعد رحلة دامت ثمانية اشهر، الفت السفن مراسيها في «بوتاني بي»، حيث حل «كابتن كوك» قبل ثمانية عشر عاماً.

لم يرق الموقع لـ «كابتن فيليب»، فاختر مكاناً ابعد شمالاً بقليل. هنالك التقى عصاه، وافرغ حمولة من المجرمين، ورفع في تلك السماء البكر، العلم الامبراطوري البريطاني، واسمى المكان «سدني» على اسم «لورد سدني» وزير المستعمرات. كان ذلك على وجه التحديد في السادس والعشرين من يناير عام ١٧٨٨، اي قبل ما يربو بقليل عن قرن، من دخول الجيش البريطاني لبلاد السودان. واذا كانت حرب التحرير قد صبغت علاقة الامريكيين بالانجليز، فإن هبوط اولئك النفر من «المجرمين» في ذلك المكان قد صبغ علاقة الاستراليين بالانجليز الى يومنا هذا.

على السطح لا ترى شيئاً، وانت تتجول الا في شوارع هذه المدينة المزدهرة ذات الثلاثة ملايين او اكثر، بدورها التجارية العامرة، وابنيها التي تشرش باعناقها في السماء، واسماء شوارعها التي تذكر بالعهد الاستعماري، ووجوه اهله التي يغلب عليها الشمت الانجلوسكسوني. ولكنك حين تمعن النظر، تدرك ان تاريخ هذا الشعب عبارة عن ملحمة من فظاظة الانسان الأوروبي، ضد نفسه وضد الآخرين. نحن نعلم من الكتب التي ظهرت مؤخراً، ان معظم اولئك «المجرمين» لم يكونوا مجرمين حقيقة، وانهم كانوا «ضحايا» نظام اجتماعي ظالم، وكما يحدث دائماً، فإن الظلم يولد الظلم، والعنف ينبث العنف. بعد ذلك حين ال الامر الى هؤلاء «المجرمين المضطهدين» اوقعوا هم بدورهم الظلم والاضطهاد على سكان البلد الاوائل، الـ «ابوروجينز» المساكين الذين عاشوا في تلك الاصقاع قروناً، على الفطرة في غفلة عما تخبئه لهم الاقدار.

ليس عجيبة اذا، ان يخرج من هذه البيئة، كاتب عظيم الموهبة هو «باترك هوايت» الذي نال جائزة نوبل عام ١٩٧١، صور في رواياته صراع انسان الشرس من اجل البقاء، والدرك الاسفل الذي يحذر اليه احبائه في سبيل البقاء. من هذه البيئة ايضاً، خرج الرسام الكبير «سدني نولان» الذي رسم الانسان والطبيعة بشكل ليس له مثيل، كانما في كوكب خرج عن المدار واهملته الاقدار. ولا عجب كذلك، ان تنبت بيئة كهذه، كاتبا مثل «الـ موزهد»، مؤلف «النيل الابيض» و«النيل الازرق» و«اللقاء المدمر». كاتبا مرهف الشعور، عميق الاحساس بوطاة الظلم الذي يلحقه الانسان باخيه الانسان ■

البحر والسماء



بقلم الطيب صالح

نحو أفق بعيد

٦٥

ربما يخيل لك من هذا الموقع في البحر، وانت تنظر الى المدينة تعلو وتهبط، وتتفرق وتتجمع في انصاف دوائر، انك قد حللت في فريدوس من فراديس الارض الزرقاء تحيط بك من كل النواحي، زرقاء صافية شفافة وتشمس الضحى، رغم لدغة البرد، تعمر الماء والسماء، وتنعكس من زجاج الى زجاج، ومن قمة الى قمة، فوق العمارات الشاهقة على الشاطئ.

الفصول الجميلة، والـ «فلل» الانيقة، والحدائق المزهرة والعشب الاخضر الغض، والبشر يسبحون او يستلقون على الرمال تحت شمس الشتاء، بعض النساء صدورهن عارية تترجرج وهن يتراكضن لاحتضان موجات المحيط الهادئ، ويضحكن ويحملن الموج ضحكتهن من شاطئ الى شاطئ، وتعلو فوق ذلك كله قمم الجبال «الزرق» عند الأفق.

لم يكن «منسي» يحب المشي، اعتاد على السيارة، فكنت مسيرة بضع خطوات تجعله يلهث من التعب، ولم تكن له رغبة في التعرف على معالم المدن التي يزورها، كان ينظر اليها نظرة مُجمل، وكأنه يجد فيما يرى صوراً قد رآها من قبل، وكنت اعجب من اين يحصل على معلوماته، فلم اكن اراه يقرأ شيئاً، ولم يكن يتمعن في شيء، ورغم ذلك يدعشك حين تسالنه بدقة ملاحظته، وغزارة معلوماته.

اقنعته بعد جهد ان يقوم بهذه الرحلة، وان نمشي سيراً على الاقدام الى المرفأ، بادئين سيرنا من مبنى البلدية، غير بعيد من نزل الـ «هلتن»، حيث نقيم. اتجهنا شرقاً صوب البحر في شارع «جورج ستريت»، تاركين حديقة «هليديارك» الى يميننا، ومرفأ «دارلينج» الى يسارنا. نحن الآن في الجزء القديم من المدينة، كما خطتها «لاخلان» ملكوري، الحكم الذي يُعزى اليه الفضل ايضا في اسباغ اسم «استراليا» على القارة بأكملها، بعد ان كانت تُعرف من قبل باسم Terra Australia - الأرض الجنوبية.

هذا رجل من طراز الرجال الذين برزوا خلال المد الاستعماري البريطاني، رجال التفت او هامهم وطمحولتهم الشخصية، مع المرامي الكبرى لملاهم، مثل كلايف وكيرن في الهند، وكرومر في مصر، ولوجازد في نيجيريا، وكنتشر في السودان، وروثس في روديسيا. «بناء» الامبراطورية، كما تسميهم كتب التاريخ. كانوا جميعاً ينتمون الى الطبقة العليا، لا يخافهم ادنى شك في تفوق طبقتهم خاصة، وتفوق العنصر البريطاني على وجه العموم، وانهم اصحاب «رسالة حضارية»، واجبهم ان يفرضوها على العالم حتى ينتشر السلم البريطاني (Pax Britanica) كما عم من قبل السلم الروماني (Pax Romana).

كذلك ذهب «لاخلان» ملكوري، الى استراليا عام ١٨٠٩، قلة اعل وحقكاً عاملاً على مستعمرة «نيوساوث ويلز» وملحقاتها. كان حينئذ ضابطاً عالي الرتبة في الجيش في الثامنة والاربعين من العمر، يحمل خبرة واسعة من خدمته في الشرق الأقصى والشرق الاوسط، ويؤمن ايما راسخاً بتميز النظم البريطانية والديانة المسيحية البروتستانتية ولا يد انه حين استلم مهام منصبه في يناير عام ١٨٠٩ نظر بانتمناز لا حد له، الى المجتمع الغريب الذي كلف بتصريف شؤونه، وجد مجتمعاً انقسم فيه البيض الى «سادة» و«عبيد»، فقد انضم الى المستعمرة في العقود التي تلت عهد «كبلين فيليب»، بعض المغامرين والطامعين من الطبقة الوسطى والطبقة العليا. ووجد مظاهر انحلال خلقي لا بد انها صدمت احساسه البروتستانتية. كان الرجال يعيشون النساء دون زواج، والعريضة شائعة والجرائم متفشية. وكلفت الاوبئة والامراض قد فتكت بالاهالي، سكن البلد الاوائل الذين اخذ عندهم يتناقص بشكل ملحوظ. كانوا محط سخريه البيض وامتهانهم حتى انه كانت من وسائل التسلية عندهم ان يفروهم بالسكر، ثم يتفرون عليه عندهم، تحت المهرج، تماماً كما كان يفعل الـ «ها».

اصدر الحكم الجديد نداءات تهيب بالطبقات العليا ان يتحلوا بضبط النفس والزخامة، وتهيب بالطبقات الدنيا ان يعزفوا عن شرب الخمر، وطالبهم بعدم ابداء «الاهالي»، وحثهم جميعاً، بيضاً واهالي ان يقيموا شعائر الدين ويواظبوا على حضور الصلوات بانتظام في الكنيسة - ايام الاحد.

ولم يكتف الحكم بالبيانات والنداءات، ولكنه فرض قوانين صارمة، واغلق الحانات، ولاحق شاربي الخمر، ومنع مظاهر الانحلال الجنسي، وفتح المدارس لتعليم المذهب البروتستانتى. وصاحب هذه الحملة «الخلقية» جهد كبير لتخطيط المدينة وتعميرها. وقد اوكل الحكم بهذه المهمة، مهندساً معمارياً نابغة كان سجيناً بتهمة التزوير، فاعتقه واناط به امر تخطيط المدينة. ويمكن القول، ان هذا «المجرم» الموهوب، «فرانستس فريديوي»، هو بالنسبة لمدينة «سدني» بمثابة «سير كوستنفرز»، بالنسبة لمدينة لندن، و«هوشمان» بالنسبة لمدينة باريس.

كذلك اقام «لاخلان» ملكوري، المؤسسات الملزمة ابداً للنظام الاستعماري الكنيسة، والمدرسة، والمستشفى، والسجن، وسعى الاسماء، ذلك ايضا امر ملازم للاستعمار. اسماء الملوك والامراء والنبلاء وقادة الجيش والزعماء السياسيين في الوطن الام، فكانه فرض احلاماً جديدة بدل الاحلام القديمة، لان «الاهالي» سكان استراليا الاوائل كانوا يقيمون العقوس لما يسمونه «زمن الحلم»، حيث تختلط ذكريات ماضيهم البعيد بحاضرهم في عناق سرمدى. في قلب ذلك الحلم غرس «لاخلان» ملكوري، رمزا اجنبياً جديداً بشكل خيل اليه انه سوف يدوم الى الابد. اقام بلعة سماوية «بلعة ملكوري» وبني في وسطها سلة عالية، كأنما اراد ذلك الموضع ان يكون مركز العالم، منه تؤخذ الابعاد، وبه تخلص المسافات. انه ما يزال موجوداً غير بعيد من حيث نقف الآن. ولما انتهى مهمته عام ١٨٢١، كان قد نجح بمقاييس النظام الاستعماري، نجحاً جعل «تشارلز دارون» صاحب نظرية «النشأة والتطور» يقول حين زار «سدني» عام ١٨٣٦: «... كوسيلة لجعل النفس فضلاء لاعادة خلقهم من شرمة من السفلة الذين لا يرجى منهم خير في جزء من العلم، الى مواطنين صالحين فاعلين في جزء آخر. وبهذا تخلق بلداً جديداً رافعاً، مركزاً مضيقاً للحضارة، فقد نجحت التجربة بدرجة لا مثيل لها في التاريخ».

لكن شاعراً من شعراء استراليا الاوائل، رأى، كما يفعل الشعراء دائماً، الظلام الذي يكمن وراء ذلك السطح المضيء، فقد قال «البرون فيلده» الذي كان شاعراً رئيساً للمحاكمة العليا، قال يصف استراليا:

«ولدت في ساعة الخطيئة الاولى، حين حلت اللعنة بالارض».

لذلك هذه الغلبة من الاشجار اليابسة، سرنا في شارع الملك «جورج» المخاذي لشوارع الامراء «يوزك» و«كلارنس» و«كنت»، ما زرين بـ «ماركت ستريت» و«كنج ستريت» و«مارجريت ستريت». المعمار انجليزي احياناً وامريكي احياناً، الى ان وصلنا المرفأ. اخذنا هـ السفينة السياحية من سفن «شركة توماس كوك» ضربت بنا في عرض البحر، الى يسارنا عجيبين من عجائب الانجاز الاسترالي، الجسر ومبنى الاوبرا، تجاورنا خليج «ولومولو» ودخلنا خليج «اليزابت». الشمس ساطعة وزرق البحر موازية تماماً لزرق السماء. «منسي» يضحك، لانه تذكر بفعل ترابط الافكار البينات الاستراليات اللاني كن يجاورنه في شارع «سدني» في لندن. واما انظر الى ناطحات السحاب ووراءها الجبال «الزرق» والفكر في قول «تشارلز دارون»... «نجحت التجربة بدرجة لا مثيل لها في التاريخ».

ثم افكر في قول القاضي الشاعر، الذي كأنما رأى كل ذلك من وراء الغيب، «لذلك هذه الغلبة من الاشجار اليابسة».

أحمر وراء



بقلم الطبيب صالح

نحو أفق بعيد

٦٦

من اعجب ما سجله التاريخ من اقوال المستوطنين البيض في استراليا، عبارة لرجل يدعى «سي. لوكهارت».. قالها عام ١٨٤٩:

«لا شيء سوف يحول دون انقراض عنصر الـ «ابوروجينز» الذين شاعت الإرادة الإلهية ان تسمح لهم بالاحتفاظ بالارض ريثما يجيء عنصر افضل يحل محلهم».

هذا الرجل المغمور الذي لم ينسب له التاريخ عملاً يؤثر. استحق «الخلود» وان كان خلوداً خيراً منه النسيان. بانه افصح بهذه العبارة التي ظلت ترحف مع حركة التاريخ، كما يتحرك الحجر في قاع النهر. انه عبر دون موارد، ودون حياة، عن ميراث اساسي من مبررات الاستعمار الاوروبي، وهو ان الاحتباس غير الاوروبية، الـ «همج» في زعمهم، ليسوا بشراً بمفهومهم للكلمة، ويمكن اعتبارهم غير موجودين. وان الحيز الذي يشغلونه على سطح الارض، هو في الحقيقة خال من السكان. ولم يكتفوا بهذا الصلف العرقي، ولكنهم جعلوه قانوناً إلهياً، واضفوا عليه مبرراً أخلاقياً. قد يكون الاله الذي تذرعوا به «برستنتيأ» كما في استراليا، او «كالنثأ» كما في جنوب افريقيا، او «كانوليكثأ» كما في امريكا اللاتينية، وقد يكون «يهوه» اله اليهود كما في فلسطين. ويمكن ان يسمع الانسان صدى عبارة مستر لوكهارت في عبارة جولدا مائير بعد اكثر من قرن من الزمان، «الفلسطينيون؟ اين هم هؤلاء الفلسطينيين؟».

في ذلك الصباح من شهر يناير عام ١٧٨٨، حين رست سفن «كابتن فيليب» على شاطئ استراليا، نظر البيض فلم تر عيونهم بشراً. راوا شخصاً مثل الاشباح هي في اعتقادهم «لا شيء» كانوا عراة تلمع اجسامهم في الشمس، من الدهن الذي يتمسحون به اتقاء الحشرات. على وجوههم ورقابهم علامات من طلاء. يابدهم الريح. وفي انوفهم اشياء مثل الزملم. منهم من يحمل درعاً، ومنهم من يحمل آلة محدودة.

وقف السود على صخور الشاطئ. وكانوا من قبيلة الـ «ايورا» كما نعلم الان، ينتظرون كالمسحورين، الى المنظر الذي لا بد انه بدا لهم مثل كابوس من قوى شريرة اقتحمت حلمهم الطويل.

تلك المخلوقات الغريبة التي كانوا تسلمت جلودها عنها لشدة احمرارها، اخذت تفرغ حمولة القوارب التي كانت اضخم بكثير من القوارب التي اعتادوا عليها. خرج رجال ونساء واطفال. بعضهم كانوا يرسفون في اغلال الحديد. وبعضهم يلبسون خرقاً ممزقة. وبعضهم يحملون السلاح. ويعطون الاوامر باصوات شرسة. ثم نظروا بدهشة اكبر الى عدد منهم يتجمعون تحت شجرة. وقف رجل بينهم وتحدث فيهم بصوت عريض، كما يتحدث الرجل الكبير الى الاطفال ثم اخذ كأنما يتلو ترانيم سحرية، كان الجمع يردد ما وراءه. ذلك الرجل، كما تحدثنا كتب التاريخ، كان قسيساً بروتستانتياً يدعى «ريتشارد جونسون».

تخرج من جامعة كيمبريدج، وتشرب مبادئ المذهب التبشيري المتطرف الذي كان سائداً تلك الايام. وقد انضم الى هذه الرحلة ليعلم «الزب» في تلك الاصقاع البعيدة. سارع اول ما القت السفن مراسيها فقام الصلاة شكراً لله لانه بلغهم مقصدهم سالمين، وانه خولهم تلك الارض. يتبوأون منها كيف شاءوا. كانت مهمته عسيرة، كما اتضح فيما بعد، خاصة بين قومه البيض، الذين كانوا ابعد ما يكون، عن «الاباء المهاجرين» الذين ذهبوا من قبل الى امريكا. واصبح «جونسون» هذا مشكلة بالنسبة للحكام العسكريين الذين لم يكونوا يشاطرونه حماسه الديني.

نظر الغريقان بعضهم الى بعض في لحظة نادرة من لحظات التاريخ. ولم يبع احدهم عن الاخر اي شيء. كان «السود» غارقين في حلمهم الذي خيل لهم انه سوف يدوم الى الابد. سوف تمضي حقبة قبل ان يلهموا مغزى الكارثة التي حالت بهم.

اما البيض فانهم لم يدركوا - وما كان يهمهم ان يدركوا - ان تلك الاشباح كانت جزءاً من «شعب» توطن تلك الارض منذ اكثر من ثلاثين الف عام. جاءوا في مجرات متعددة من اسيا، عبر «تاسمانيا» و«غينيا الجديدة». انتشروا في جزيرة استراليا باكسها، وغطوا وجه الارض مثل ثوب رقيق شفاف. وتقسّموا قبائل كان عددها نحو خمسمائة في تلك اللحظة. وكان عددهم نحو ثلاثمائة الف. كانوا مثل مستنقع انقطع عن نهر التاريخ، فعاشوا كل تلك القرون في عزلة تامة عن الاحداث التي ألمت ببقية سكان الارض. ولما وصل الاوروبيون، وجدوهم ما يزالون في مرحلة البداية الاولى. كانوا يعيشون على الصيد من البر والبحر، ويعتمدون على الات بدائية. ورغم ذلك فقد ابتكروا نظاماً مكملاً للحيش يلائمهم تماماً. وابتدعوا «ثقة» ليست تافهة اذا نظرت فيها بامعان، يمتزج فيها البصر بالسماع بالطبيعة بالماضي بالحاضر بالمستقبل في عناق سرمدى اسموه «زمن الحلم». وكانت الارض هي مركز الحلم، اذا حرمتهم منها فقد حرمتهم كل شيء. كانوا انتزع «هويّتهم» كما يقال هذه الايام.

تقول الارض، بلسان شاعر استرالي معاصر - من البيض - فالشعراء لا جنس لهم، وهم دائماً اكثر انصافاً واعمق احساساً:

«... اين راح ابائنا الابكار،

الذين اخرجتهم من رحمتي،

من زمان، من زمان؟

لماذا، لماذا يكون؟

ماذا حدث للاساطير،

الاساطير التي نسجت والقوانين؟

قل لي ماذا حدث؟

انت الذي ولدت بعدهم

بزمان، بزمان

لماذا، لماذا لا اسمع،

الأصرخات ارواحهم تدوي في الكهوف؟»

(للحديث...)

٦٧ نحو أفق بعيد

العجين، متجمعة عند تلك الحفر. مادة ليست حية ولا ميتة لكنها «عصارة الحياة».

تحت الغشاء الخارجي للأرض. كانت الأشياء غافية تنتظر ساعة الميلاد... الشمس والقمر والأشجار والحشرات والطير والحيوان. نائمة مثل بذور في صحراء تنتظر المطر.

في صباح اليوم الأول تملعت الشمس في رحم الأرض، فقد أحست برغبة ملحة لأن تولد. شقت غشاء الأرض وخرجت. فغمرت الأرض بالضياء والدفع، وغمر الدفع الحفر التي تحتها كان ينام «القديم».

كانوا مُنهكين متعبين، بخلاف سكان السماء، مبيضة لحاهم. ضامرة أجسادهم ظلوا نائمين طوال العصور.

وهكذا، أحس كل واحد منهم في هذا اليوم الأول، دفع الشمس، فإذا بجسده يتشقق عن أطفال. خرج شعبان من صرة الرجل - الشعبان. الرجل - الببغاء، أحس بشيء له ريش يخرج من جسده، فإذا هو بببغاء. الرجل - الكانغرو تمخض عن كانغرو. والرجل - النملة ولد نملة. والرجل الزهرة، خرجت من جسده زهرة. وكل مخلوق من هذه المخلوقات الوليدة، أول ما من الأرض، رفع وجهه نحو الشمس.

في قيعان الحفر، التي امتلات بالماء، حرك «القديم» أقدامهم، القدم اليسرى، ثم القدم اليمنى. ثم هزوا اكتافهم وحركوا أذرعهم. انشقت أجفانهم ففتحو أعينهم، نظروا فراوا أطفالهم يمشون في ضوء الشمس.

تساقط الطين عن أفخاذهم كما تسقط المشيمة غشاء الجنين، عن جسد الجنين. وكما يصرخ الطفل أول ما يولد، فتح كل واحد من «القديم» فمه وصرخ «انا.. انا شعبان، انا.. انا ببغاء، انا.. انا زهرة».

هذا النداء الأول، نداء تسمية الاسماء، ظل بعد ذلك واز الأبد، اقدس طلسم في «غناء القديم».

ثم، كل واحد منهم، خطا خطوة بقدمه اليسرى. ودفع الشمس بعمره، ونادى باسم ثان وخطا بقدمه اليمنى وهتف باسم ثالث.. نادى بركة الماء، ونبات البوص، وشجر الصمغ، ينادي ذات اليمين وذات الشمال ينادي المخلوقات ان تولد، يغني لها ويزلج اسماءها. ثم طاف «القديم» العالم طولا وعرضا وهم يغنون. غنوا للأنهار وجبال الملح وكثبان الرمل وكانوا أثناء تجوالهم يتركون دروبا مثل خيوط غير مرئية. ويتركون علامات مثل بصمات الأصابع.

غطوا العالم بأسره بلحاف من الغناء، ولما فرغوا، أحسوا بالتعب. أحسوا بأعضائهم تبرد ببرد الحقب الطويلة، وتيبس بعضهم اندس حيث هو في باطن الأرض. وبعضهم حبا إلى أعماق المغارات والكهوف، وبعضهم غاب في الحفر الأبدية، من حيث خرج. عادوا كلهم إلى رحم الأرض. ■

(للحديث بقية)

في استراليا أكثر من أي أرض أخرى استوطنها الأوروبيون. وقفت فلسفتان متناقضتان كلية، أحدهما آراء الأخرى.

الفلسفة الأوروبية المادية في ناحية، كما تبلورت في القرن التاسع عشر، فلسفة تعتبر «الأرض» مجرد «شيء» من حق الإنسان أن يملكه ويستأثر به، ويقسمه كيف شاء، ويستغله كيف بدا له. والإنسان، بمقتضى هذه الفلسفة، ليس الكائن البشري عموماً، ولكنه الإنسان القوي القادر، الذي اختارته العناية الإلهية وقوانين التمييز

الطبيعية، أي الأوروبي، ليكون خليفة على الأرض. وكان المؤمنون بهذه الفلسفة، يستندون إلى التفوق التكنولوجي وإلى المدافع والبارود في الجانب المقابل، وقفت فلسفة «أسطورية» - شاعرية، ترى «الأرض» على امتدادها، كائناً حياً، يحس ويتألم، مخلوقاً له قداسة مثل «كاثدرائية مفتوحة»، كما وصفها أحد الكتاب.

احترار المستوطنون الأوائل في أمر الـ «أوروبيين» راوا أناساً لا يشبهون أي أناس عرفوهم من قبل، أو سمعوا بهم. لم يجدوا لهم زعماء ولا معابد ولا أوثاناً يعبدونها ولا «ديانة» يؤمنون بها ولم يكونوا يملكون شيئاً، لا بيوتاً ولا مزارع ولا مقتنيات ولا أرضاً. وكانوا في ترحال مستمر، دون سبب واضح، كأنهم يبحثون عن شيء مبهم ضاع منهم.

اتضح بعد زمن طويل أن الـ «أوروبيين» يعتبرون الأرض باجمعتها، معبداً لهم، وأن فيها علامات والغازات وأسراراً، لا بد من مواصلة باستمرار، والالتفات للحياة، وأن «الأرض» تنادبهم وتتحدث إليهم، وأن لهم طرقاً على وجه الأرض لا يخطئون فيها، كما يعرف الطائر المهاجر طريقه في السماء.

يصف الكاتب الإنجليزي «بروس شاتون» قصة ظهور المخلوقات على الأرض، كما يتصورها الـ «أوروبيين» في كتابه البديع «دروب الغناء»:

«في البدء كانت الأرض طيناً لازباً منبسطة، منفصلة عن السماء والبحر المالح الرصاصي. وكان يغمرها ظل رهيف مثل الشفق. لم تكن بعد شمس ولا قمر ولا نجوم. وكان يسكن في المدى القضي «سكان السماء». كانت لهم هيئة البشر وسيقانهم مثل سيقان النعام، وعلى رؤوسهم شعر عسجدي كأنه نسيج العنكبوت. كانوا في نضارة دائمة، يعيشون في فردوس مخضر وراء العيوم في الأفق الغربي.

لم يكن على وجه الأرض، سوى حفر، سوف تمتلئ بالماء يوماً ما. لم تكن ثمة حيوانات ولا نباتات، لا شيء سوى مادة لينة مثل



بقلم الطبيب صالح

٦٨ نحو أفق بعيد

ثلاثها في أوقات معينة، والآ اختلطت الأمور وضاعت المسالك كانت هذه النخبة من الحكماء تقف سداً في وجه الغزو الثقافي الأوربي، فركز الأوربيون هجومهم عليها. ولما انهارت، انهيار شعب الأيوروجينيز برزته يقول الكاتب الأسترالي (جيمس كاوان) في كتابه «أسرار زمن الحلم»..

«كي نفهم المحنة العظيمة التي يتعرض لها أي مجتمع قديم في صراعة للحفاظ بتماسكه للاستمرار في الحياة، لا بد لنا أن نفهم خطورة المواجهة المدمرة، بين المادية الأوربية والكاراجي.. بد... قدوة ومرشداً ثقافياً وروحياً للمجتمع. فإن الكارثة التي... بالأيوروجينيز من تدمير لتراثهم الروحي والمثولوجي، ما تزال تحدث لمجتمعات أخرى إلى يومنا هذا،

لذلك نستطيع أن نتخيل احساس شاعرهم، وهو يغني بهذه الكلمات..

«أتلفت خلفي نحو الجبال العالية،

صوب «بنقارنجي».

صوب «ووريني» و«الغلاقي».

نمضي نحو اسهل ووضب الوادي،

اشعر بالحزن،

اذ تغارق المخل.

تلك الجبال الصخرية عند «دارنقوا»

وجبهة الجبل التي اسمها «بلاويرو».

نقتلي اثر الكانغرو

عبر السهل الواسع،

ابكي لانني اضعت «مكاني».

يتغطر قلبي وانا اقف في السهل المنبسط،

انتظر هطول المطر،

هذه الكلمات على بساطتها الا تثير في نفسك شجناً ليس غريباً علب، تعرفه في الشعر العربي القديم؟ الا تذكر هذه الكلمات بقول زهير بن ابي سلمى..

لمن طلل كالوخي عاف منازلة

عفا الرّس منه، فالرّسيس، فعائلة

فرقة، فصارات، فاكناف منعج،

فشرقي سلمى، حوضه فاجاوله

فوادي البدي فالحطوي فتادق،

فوادي القناني، جزعه فافاكنه،

وغيب من الوسمى، خو تلاغه

اجابت روايبه الشجاء، هو..

انظر الى ذكر الاماكن هنا وهناك، وان الشاعر يغمغم بها كنبأ طلاس. تخيل شاعر الـ (ايوروجينيز) وهو ينتظر المطر، والشاعر العربي وقد تذكر المطر يهطل في زمان مضى. ثم تأمل ان الطفل العربي ليس مكاناً واحداً، ولكنه واسع شمل عدة امكنة، وانه مثل سطور كتاب امحت واختلط بعضها ببعض تقول كانها.. لعلها.. دروب الغناء ■

ذلك كان منذ عهد بعيد الذي حدث، وكيف حدث، ظل ثابتاً في الزمان. هذا هو «زمان الحلم» كما يسمونه. كل شيء قد تم وانتهى، لكنه سوف يتكرر ويتجدد في صيرورة مستمرة والانسان هو الذي يعيد تلك اللحظة، يعيد نشأتها، بالهجرة في «دروب الغناء» في مواسم معينة، مهتدياً بعلامات تركها «القدماء» على الأرض، كما يهتدي الملاحون بالنجوم، حتى يصل الى الاماكن «الحارة»، حيث تكمن الـ «كزُمبا»-روح الأرض



بقلم الطبيب صالح

تعتد «دروب الغناء» على وجه

الأرض من اقاصها الى اقاصها،

تلتقي وتتفرق، مثل شجج العنكبوت. وطوال الرحلة، يغني الانسان

يغني حين يحل، ويغني حين يرحل، ينادي بالاسماء القديمة،

ويسترجع اللحظة الاولى. تستيقظ الأرض وتتحول الى جسم مضيء،

الى افق مبتاهيزيقي يحفظ كل تاريخ «الشعب»، وسيرته في الحياة،

وكيف غمرته الهبات والنعم، مثل القدرة على الرقص والغناء، وصنع

الات الصيد، وكل المهارات التي اتاحت له العيش

في رحلة الحلم، يعيد الانسان صلته بالطبيعة، ليس بالمعنى

الببشي المعاصر، ولكن بالمعنى الشعاري-الاسطوري القديم.

تقول الأرض للشعر، كما غنى شاعرهم..

«لقد ذبلتم وغاضت نضارتكم، سوف اصوركم، سوف اضع طلاء

جديداً عليكم، فتعود اليكم نضارتكم من جديد،

ويقول احد حكمائهم عن علاقتهم بالأرض..

«نحن نؤمن ان الأرض هي التي تملكنا ولا نقول اننا نملك الأرض

الأرض ليست لنا، ولكننا نحن للأرض».

لذلك حين جاء المستوطنون الأوربيون، وقسموا الأرض ملكيات

تظل في حوزتهم الى ما لا نهاية، بحكم القوانين المعقدة التي فرضوها،

كانوا في نظر الـ «ايوروجينيز» كأنهم قطعوا جسم كائن حي. قطعوا

ايضا خيوط الغناء القديمة، وعفوا على الاماكن «الحارة»، وطمسوا

معالم الحلم. انتهكوا قداسة الأرض، في نظر الـ «ايوروجينيز» انتهاكاً

افظع فمالو انهم القوا عليها قبلة ذرية.

حينئذ، ضاع الانسان في غمار المجتمع الأوربي الجديد بمفهومه

المادي. تزعمت صلته بالأرض، وتزعزع احساسه بالامن، واصابته

البلبله والحيرة، وانصرف الى السكر والجريمة

لم تكن عندهم مؤسسات للحكم، ولا زعماء، فقط اعراف تنظم

شؤون حياتهم، بطريقة عفوية كان لهم نخبة من رجالهم، كانوا

بمناوبة الامناء على تراثهم اولئك هم الـ «كاراجي، أي، الحكماء،

كانوا يُنتخبون منذ صغرهم حسب مواصفات معينة، ويُعدون اعداداً

طويلاً شاقاً، يصيرون بعده مرشدين روحيين للشعب، يقودونه في

رحلة الحلم، يعرفون الدروب والاعاني القديمة والاماكن «الحارة»،

والكهوف حيث التصاوير التي خلفها القدماء، التي لا بد من اعادة

الزحف



بقلم الطبيب صالح

انتقلنا قليلاً، فإذا بيد سوداء تمتد من فرجة في المشمع المشدود على باب سيارة الـ «فولكس واغن» التي استقرت على الأرض بلا عجلات. ثم بعد برهة، خرج رجل مشدود عضلات الجسم، على رأسه قبعة حال لونها، ويلبس بنطلوناً متسخاً، وقميصاً عليه رسوم قيثارات ونوت موسيقية وكان حافياً وقف في ضوء الشمس. ونظر نظرة فاحصة إلى «اركادي»، ثم خفض رأسه بوقار. ضرب الكلب لكف عن النباح خاطبه «اركادي» بلغة «والبري»، اصغى الرجل صامتاً، ثم اختفى وراء المشمع.

● قلت لـ «اركادي»: انه يذكرني بهيلا سلاسي

.. أكثر هيبه.

● أكثر هيبه، صدقت. بكثير. هل يعود؟

● قال «اركادي»: .. أظن..

● هل يعرف الانجليزية؟

● نعم. ولكنه يابى أن يتحدث بها. الانجليزية ليست لغته المفضلة.

علمت من «اركادي» أن سوء الحظ شاء لقبيلة الـ «كابتيجي» أن تقعن عند ممر خط التلفراف، لذلك اضطروا للاتصال بالبيض مبكراً. تعلموا صنع السكاكين ورموس الزجاج من زجاج الموصلات السلكية. أراد البيض أن يرعبوهم ليكفوا عن ذلك، فقتلوا عدداً منهم. أخذ الـ «كابتيجي» ثأرهم فقتلوا عدداً من البيض. كنا قد مررنا من قبل، بغير عامل التلفراف، الذي استطاع وهو في الرمق الأخير، أن يبق على التلفراف رسالة إلى زوجته في «إدليد». كان ذلك عام ١٨٧٤. وقد أصيب بطعنة رمح. ظل البوليس يقاتل الـ «كابتيجي» انتقاماً حتى عام ١٩٢٠

راى «الآن» وهو صبي، أباه وأخوته يقتلون رمياً بالرصاص

● تقول انه آخر من بقي منهم؟

● آخر من بقي من عشيرته، نعم في هذه الناحية

استندنا إلى جذع شجرة صمغ، وأخذنا نتابع الحياة السري في المخيم «ميس» و«روبي» ذهبتا لزيارة صديقاتهما «بيج توم» استسلم للنوم، «بتي» يجلس القرفصاء، ويبتسم.

الأرض عنتى، يابسة، مشقة صف طويل من النمل، يدب نشاطاً على مقربة منى.

● قال «اركادي» فجأة: «أين «مادبون»؟ كان يجب أن تصل منذ ساعات. على أي حال، لنصنع الشاي».

جمعت الحطب، وأوقدت النار، وأخرج «اركادي» عدة الشاي من المتاع أعطى «بتي» شطيرة لحم فالتهمها في الحال، وطلب شطيرة أخرى بطريقة رجل تعود أن يأمر فيطاع

كاد الماء يغور، حين طرقت اذاناً فجأة ضوءاء كبيرة في المخيم. وتولت النساء، وركضت الكلاب، وأسرع الأطفال والكلاب يبحثون عن مكان يحتمون به. راينا صرحاً عالياً من غبار أحمر يدهمنا.. أعصار الـ «دولي-دولي».

تقدم الأعصار وهو يدوي ويزمجر امتص في جوفه أوراق الشجر والحطب وصفائح الحديد، ودفعها إلى أعلى والتف حولها مثل حلزون، وكس أرض المخيم وعبر الطريق

لحظت، ثم سكنت الضجة، وعاد كل شيء كما كان

بعد قليل، قدم علينا رجل في أواسط العمر، ويلبس قميصاً أزرق، سعاوتي الزرقاء، رأسه عار، بلا قبعة. على رأسه شميرات قليلة، بيضاء، جعدة. وكذلك

نحو أفق بعيد ٦٩

على ذقنه، ذكرني وجهه الواضح المنبسج بوجه أبي، هبط على مؤخرته، وأخذ كوباً كبيراً، صب فيه كمية كبيرة، من السكر. كلمه «اركادي» فاستمع له الرجل دون أن يتدخل، ولما سكت «اركادي» رُد عليه الرجل بصوت خفيض وهو يخطب أصبعه رسوماً في الرمل ثم اتجه نحو سيارة «الفولكس واغن» التي اتخذها الرجل العجوز «الآن» داراً

● سألت «اركادي»: .. من هذا؟

● ابن أخت الرجل العجوز وهو أيضاً مدير أعماله الروحي

● وجاء يطلب ماذا؟

● بمحضنا

● هل نجحنا في الامتحان؟

● توقع أن يشرعنا الشيخ.. الـ (Boss)

● متى؟

● قريباً

● يا ليتني أستطيع أن افهم حكاية مدير الأعمال الروحي هذه

● صعب

هَبَّ الدُخَانُ من نار الشاي في وجوهنا، طرد الذباب على الأقل، أخرجت دهنري ووضعت على ركبتى

قال «اركادي» أن الخطوة الأولى هي أن افهم مغزى عبارتين من كلام الـ «أبوروجينز».. عبارة «كزدا» وعبارة «كتنقورلو»، الرجل الكبير «الآن» هو «كزدا».. أي «الرئيس».. أو «صاحب» الأرض التي سوف نزرعها. هي المسؤول عنها.. يعنى بها.. يتأكد أن تظل الأرض في عافية.. إلخ.. الخ. وشعارها تؤدي في أولتها. الرجل في القميص الأزرق هو الـ «كتنقورلو» بالنسبة لـ «الآن».. أنه مساعده ومدير أعماله، وهو ينمى إلى «كزدا» طوطمي مغاير رغم أنه ابن أخت «الآن» سواء حقيقة أو تخيلاً. كلمة «كتنقورلو» تعنى «ما زجم».

● قلت هذا يعنى أن مدير الأعمال، له دائماً «حلم» مختلف عن الرئيس

● نعم. هو كذلك

قال «اركادي» أن كلًا من الرجلين، يتمتع بحقوق طفوسية متبادلة في أرض الآخر، وهما يعملان معاً ك فريق واحد لرعاية أرض الطرفين، وكون «الرئيس» دائماً أسس من «مدير الأعمال» معناه أن الحكمة الطفوسية حكمة قبلية، تنتقل من جيل إلى جيل

● قال «اركادي» أن الأوروبيين ظفوا أول عهدهم بالـ «أبوروجينز» أن «الرئيس» هو شخص مثل مدير مصنع أو شركة، وأن «مدير الأعمال» شخص لا وزن له... كانوا جاهلين.. قال أن الـ «أبوروجينز» أحياناً يفسرون وظيفة الـ «كتنقورلو» بأنه بمثابة الشرطي. الرئيس لا يخطو أي خطوة دون موافقة الشرطي. خذ حالة «الآن».. يقول ابن أخته أنها تعيشان لأن خط سكة الحديد سوف يُخرب مكاناً مهماً من أماكن «الحلم».. حيث يرقد «الضب» أبو العشيرة... ولكن هو الذي سوف يتخذ القرار، وليس الرئيس، (Boss) هل يخرجان معنا أم لا

● الأمر المدهش في هذا النظام هو أن «مسؤولية» الأرض، ليست في يد «المالك» ولكن في يد فرد من أفراد العشيرة المجاورة

● والعكس بالعكس

● نعماً

● أي أن الحرب بين الجارين تصبح صعبة

● بل مستحيلة

كان أمريكا وروسيا.. كأى كل واحدة منهما تملك حق رسم السياسة الداخلية في البلد الآخر،

«فيس».. هما قدامى..

من كتاب «دروب الغناء» للكاتب الانجليزي «بروش شاتون»

٧٠ نحو أفق بعيد

بالحقيقة. سوف يتضح لنا حينئذ ان قصة يحكيها شمس ما عن جبل او نهر او شجرة، ليست لغواً تافهاً، وانما هي تعبير عن احداث حقيقية، في نظرهم، بطريقة رمزية مجازية.

وهكذا حين تواجهنا تلك الصخور الضخام في وسط استراليا، المسماة بصخور «أورو»، سوف يواجهنا في ان واحد، جسم مادي في هيئة صخور، وايضا وجود ميتافيزيقي هو عبارة عن الاساطير والرموز التي تدل بتلك الصخور، ولا يبعد عن فهم الـ «ابوروجينيز» الصخور تكونت بفعل عوامل الطبيعة من شمس ومطر ورياح، ولكنهم يعتقدون ان ذلك لم يحدث ضربة لازب، وان قوى الطبيعة تخضع لقوى خفية تنفخ روحها في الاشياء وتحدد مسارها..

هكذا صار الفراغ الممتد في الطبيعة ينطق بلسان المجاز الاسطوري. لم يعد عراء لا حياة له، ولكنه اصبح «ببلوغرافيا»، سجلاً غنياً بالمعاني، لشعب يملك ذا قوة لا يقلت منها شيء، وحاسة مرهفة قادرة على توصيل المعلومات طازجة غضة كما جاءت اول مرة.

لا يجوز ابدا الاستخفاف بملاحم الشعب وطقوسه. ان القاص الذي يروي تاريخ الحلم لموقع من المواقع التي تحيط بتلك الصخور، يقوم بدور خطير قدر له منذ ولد. وكل موقع له قاص. فاذا كان القاص من قبيلة «الارنب»، مثلاً، فان مهمته ان يتذكر الاساطير الخاصة بموقع قبيلته، ويوصلها الى بقية افراد القبيلة اثناء الاحتفالات الطقوسية التي تاتي في ذلك الموقع. وكذلك القاص من قبيلة «النعبان»، وقبيلة «الكانغرو»، وغيرها.

على كل واحد منهم ان يوصل ادق تفاصيل الحلم الى افراد قبيلته، كي يشاركوا جميعاً في استرجاع اللحظة البكر في الزمن الاول، وحتى تستطيع القبيلة ان تضيف حلمها الى احلام القبائل الاخرى.

تلتقي قبائل القطر جميعاً في مواسم معينة تجيء من الانحاء. تعسكر في موقع خاص له دلالة عندهم. تصام احتفالات من الطقوس والرقص والغناء. كل قبيلة تحكي تفاصيل حلمها وتستمع الى احلام الاخرين. كل قبيلة تضيف جزءاً الى ذلك النسيج الواسع الذي يسمونه «زمن الحلم»... نسيج متنوع الاجزاء يسع القبائل جميعاً ■

(للحديث بقية)

يقول الكاتب الاسترالي «جيفس كوان» في كتابه «اسرار زمن الحلم»:
«علينا ان نفهم كيف يتحول الحيز الطبيعي الى تعبير ميتافيزيقي عامر بالمعاني، معبراً بذلك اصدق تعبير عن الروح المميزة لشعب الـ «ابوروجينيز». وحتى يتسنى لنا ذلك، فلا بد لنا من ان نك الالغاز والاسرار التي تحيط بتاريخ الارض والشعب. وعلينا بادىء ذي بدء ان نطلق عنان خيالنا، ونتعوذ على التفكير بالرمز والمجاز.



بقلم الطيب صالح

لا نجدنا ان نستمع الى صوت الطبيعة، من وراء حجاب الحكمة الاوروبية، تلك المادة التي استسلمنا لها منذ انهيار الروحانية الدينية النخبوية في القرن الرابع عشر وحتى القرن الخامس عشر. كل ما نلناه هو اننا قطعنا الصلة مع منابعنا الروحية العميقة، وفقدنا القدرة على ان نرشف السمع لتلك الاصوات الخفية الغامضة التي تحيط بنا على الدوام.

تلك القدرة على النظر الى المحسوسات المادية في الطبيعة، كانما من موقع خارج الزمن، هي قدرة يتميز بها الـ «ابوروجينيز» بدرجة خارقة. انها بحق رهبة اتاحت لهؤلاء القوم العيش والاستمرار منذ اقدم العصور. ويمكن القول ان ثقافة الـ «ابوروجينيز» هي اقدم ثقافة ابتدعتها الانسان، وانها اكثر الثقافات صلابة، وانها عاشت دون ان ينال منها التشويه الذي يرتبط بما يطلق عليه «انحلال الثقافة». تلك فكرة اوروبية طارئة، فحتى وصول الاوروبيين في القرن الثامن عشر، ظلت ثقافة الـ «ابوروجينيز» التي عاشت على الأرجح منذ اربعين الف عام، تعطي الدعم الروحي اللازم لمجتمع في اوج ازدهاره الاجتماعي والوجداني.

علينا ان نعي كيف نظر الـ «ابوروجينيز» الى الارض وماذا وجدوا فيها. علينا ان نغير نظرتنا الى المثلوجيا على انها نوع من التعبير البدائي المتخلف، ونقبل بانها لغة ميتافيزيقية بالغة التعقيد للتعبير عما يمكن ان يُسمى

الاستعمار



بقلم الطبيب صالح

ربما يعرف المرء بعض العفران لأوروبا. ما الحق استعمارها بالبشرية من أضرار جسيمة، أنها أجمعت على مر العصور خلا شرفاء ونساء، دافعوا بشجاعة عن حقوق الشعوب المغلوبة على أمرها، وكنوا في أحيان كثيرة يلقون في وجه تيار قوي ماض لهم

من هذه الزمرة الكريمة، برؤس في جي كيرنان، استاذ التاريخ الحديث في جامعة «ادمبر»، سابقا لقد صدر كتابه المهم «سادة الجنس البشري»، أول مرة عام ١٩٦٩. كان الاستعمار الأوروبي قد أخذ يحس حبيته، ولكنه لم ينته تماما وكانت المبررات الخلقية والفكرية للاستعمار الاستعماري - ما تزال سائدة لذلك كان برؤس، كيرنان، من العلماء الأوائل في أوروبا، الذين دفعوا، بأسلوب عميق مؤثر،

الوحشية التي أظهرها الأوروبيون، في فرض نفوذهم على شعوب آسيا وأفريقيا والأمريكتين. وكان أيضا من الأوائل الذين نوهوا بأن ثقافات الشعوب التي اعتبرها الأوروبيون بدائية، تنطوي على حكمة إنسانية عميقة، لا تقل أهمية عن الحكمة الأوروبية. بل فضلها في كثير من الأحيان

يقول برؤس، كيرنان، في الفصل من كتابه عن شعب الـ «أبورو جينيز» في استراليا، الاعتقاد بأن ما يسمى بالشعوب المختلفة، لن تستطيع أن تستجيب لمطالب الحضارة، ولا سبيل إلهائها إلا الانقراض، كان اعتقادا شائعا لدى كثيرين من ملانح الاستعمار الأوروبي. ولم يكن بين هؤلاء هذا الافتراض، والتعميل مذهب تلك الشعوب إلى العالم الآخر، إلا خطوة قصيرة. هذا ما حدث في جزيرة «تسمانيا»، بشكل لم يسبق له مثيل، منذ أن فتكت جحافل الإسبان بجزر البحر الكاريبي...

وفي الأرض الأم (استراليا) أخذت بشاعات مماثلة تتكشف يوما بعد يوم لعناتها. نصل إلى حد القضاء قضاء مبرما على الأهلين، في شكل «حل نهائي»، كما حدث في «تسمانيا». لم يستطيعوا ذلك، لأن الأرض كبيرة، انتشرت فيها قبائل الـ «أبورو جينيز» على مساحات واسعة، ولأن البيض أرادوا أن يطغوا على أعداد من الأهلين، كطاقة من الأرقاء، ولا ريب أن نظام «المهجرين المجرمين»، كان له أثر عميق على نظرة الأوروبيين إلى الـ «أبورو جينيز»

في عام ١٨٣٤ وحده، قُتل في استراليا من هؤلاء السجناء، أكثر من خمسة آلاف ولما انحلت سلطات «نيوساوث ويلز»، أنها لن تستطيع استقبال المزيد منهم بعد عام ١٨٤٠، صاروا يدفعونهم إلى غرب استراليا حتى عام ١٨٦٧. ولما توفى الملاك مجموع السجناء الذين أبعدها إلى استراليا، قد بلغ ١٣٧، ٦١ أي ما يقارب نصف تعداد السكان السود. ولا شك أن كثيرين من أولئك السجناء كانوا أفضل أخلاقا من القضاة الذين أدانهم ولكنهم فسدوا بعد ذلك بالعيش في مناخ إجرامي. وفي ظل النظام الاستعماري، كان هؤلاء البيض يجدون عزاء في احتقار الملونين، وكان السجناء المعتقون يحاولون أن ينفذوا الثقة بأنفسهم ويكسبوا الاحترام، بالامعان في تعذيب السود واضطهادهم وكانت جماعات من السجناء، تعمل تحت الحراسة المسلحة عند كبار الملاك من المزارعين، فلا عرو أنهم وقد استبعدوا أبناء جلدتهم من البيض، لم يكونوا يجدون في قلوبهم فطرة من الشفقة على شراذم من السود.

احس «شارلز داروين» بالمرضى أول مرة زار فيها استراليا، من مظاهر التقدم الذي تميز به نظام السخرة، مثل إضفاء الطرق بكلفة زهيدة. ولكن أحسنه تغير في زيارته للأحقة. لقد أحس حين قام في مزرعة يعمل فيها أربعون من السجناء، أن نظام السخرة، سوف يفسد المناخ الاجتماعي، وأن السلوك الإجرامي الشائع سوف يُعدي الوالدين الجدد، وأن الفساد الاجتماعي سوف يتسع ويستمر

كان سهلا على البيض أن يفتنوا أولئك القوم الوديعين المساكين، أسهل كثيرا مما تأتي لهم مع قبائل الملوري الشجعان الأشواش، وهو أمر أن دل على شيء فلنما يدل على ضعف الأثر المسيحي على سلوك المستعمرين. كانت استراليا مثل نيوزيلند، أرضا لا تكفل رغد العيش إلا لأولئك الذين يملكون مواصي التكنولوجيا المتقدمة، وأنه لا يدعو إلى الاعتقاد حقا، أن الـ «أبورو جينيز» نجحوا رغم مهاراتهم المحدودة، أن يستمروا في العيش أصلا. ولا جدال، أنهم استخدموا ما تيسر لهم من مهارات، أحسن استخدام

كنوا صيادين على درجة عالية من المهارة، وقد ابتدعوا سلاح الـ «مورنج».

نحو أفق بعيد

٧١

المدهش، الذي لم يستطع البيض رغم تفوقهم التقني، أن يستدعوا مثله. سيج ان الحرب كانت تنشب أحيانا بين القبائل ولكنها كانت حروبا صغيرة قليلة الضرر. ولم تكن تحدث إلا قليلا، بسبب اتساع الأرض، وبعد القبائل بعضها عن بعض لم يحس الـ «أبورو جينيز» بالخوف من الرجل الأبيض أول ما التقوا به، لقد كانوا قوماً ودودين، لا يعرفون الخوف، بعضهم يثق ببعض. وقد وثقوا بالرجل الأبيض وظنوه «أخا» في الإنسانية، بل أن قبيلة منهم ظنت الرجل الأبيض روحاً من أرواح أسلافهم بعثت إلى الحياة على تلك الصورة أما الرجل الأبيض فقد كان أبعد ما يكون عن اعتبار أسلاف الـ «أبورو جينيز» أخا في الإنسانية

لم يحس الرجل الأبيض بحاجة إلى إخفاء احتقاره أو السيطرة على غطرسته، إزاء «الاهلي»، العزل من السلاح الذين لا يملكون وسائل الدفاع عن أنفسهم وقد أسدر قائد حملة استكشافية عام ١٨٦٠، وهو رجل يدعى «ميرك»، الأوامر إلى رجاله: «إذا أحسستم منهم بأي استفزاز، لا تترددوا في إطلاق النار عليهم في الحال أنه لا امر يدعو للعجب أن الرجل الأبيض كان يشتط غضبا، إذا أبدى «الاهلي»، أي استعداد للمقاومة، وإذا تفرقوا خوفا من طلقات الرصاص، يحتقرهم منهم أياما مالمجس، ورغم ذلك فقد كان هؤلاء القوم يؤساء يصدقون على الأوروبيين الوثاق من الرافة والشفقة حين يجدون أحدا منهم في سدة كانوا يرافون بهم كما يرافون بأطفالهم. وقد اعتنت مجموعة منهم برجل يدعى «مك»، ضل الطريق فاقام في صيافهم وعنايتهم زهاء شهرين وقد قال كاتب معاصر (الآن موزم) أن المذكرات التي تركها «مك»، عن تجربته تعد «أروع سجل للمعرفات الجميل، وهي كلمات تهمز المشاعر وتقدم خير دليل على إنسانية الأبورو جينيز». ولعلها أيضا بمثابة مرآة للسود في «خليج كوبر»، بعد أن انقضوا الآن كلية،

اقتلع المستوطنون البيض، الذين وصلوا حديثا على أثر الرواد المكشوفين، مساحات واسعة من الأرض جعلوها مراعي لتربية الأغنام والخيول. كانوا... شرسا من الرجال الذين جابوا الأفق بحثا عن الثروة وكانوا يمتلئون عن أي سلطة من غطرستهم. وقد وجدوا في استراليا قوما يختلون عن الملوري الأشداء، فساح لهم استعمارهم، ولم يجدوا ما يحملهم على الاعتراف بحقوقهم في ملكية الأرض. كانوا يسخرون أعدادا قليلة من الاهلي في أعمال بيضنة. هؤلاء كانوا ينفصلون عن قبائلهم بمرور الزمن ويصحبون «مدجنين» في نخل البيض، أما بقية الـ «أبيو»، كما كانوا يسمونهم احتقارا فكانوا يتركونهم هلالا مثل الوحوش الضالة.

أما النساء فقد كان أمرهن مختلفا هؤلاء عدهن دائما شيء يُطلب، ومهما أمعن البيض هنا وفي جنوب أفريقيا، في احتقار، الاحتس المنحطة، فإن هذا الاحتقار لم يمنعهم من معاشرة نساءهم. لذلك فإن غالبية الملونين في تلك البلاد اليوم، هي من دماء مختلطة

ماذا يفعل الناس حين تقتصب منهم أراضهم غير اللجوء إلى النهب، حينئذ البيض المقتصبون ميرزا أخلاقيا في أبادتهم، أما رميا بالرصاص، أو بالمسموم أو بوسيلة فعالة في عرقهم. وكانوا يقولون أن السود ليست لهم أرواح، لذلك فإن التخلص منهم لا يعتبر قتلا

ثارت احتجاجات في إنجلترا من قبل الناس الذين يجتجون عادة على مثل هذه الأمور. ولم يدموا من يستمع إليهم. ففي عام ١٨٣٧، أعلنت لجنة برلمانية كان مسنر «جلاستون»، أحد أعضائها عن استنكارها للأعمال البشعة التي كان البيض يمارسونها ضد السود في استراليا، ووصفتها بأنها «من البشاعة بدرجة لا يقبلها العقل». وقد وجهت الحكومة البريطانية من لندن نداءات استنكار إلى استراليا، لم يكثر لها المستوطنون. وحين مُنحت استراليا الحكم الذاتي عام ١٨٥٥ - ١٨٥٦ انفتحت أي سيطرة لبريطانيا على مجريات الأمور هناك. لم تحتفظ الحكومة البريطانية بأي حق في حماية الاهلي وضمن حقوقهم، في حين أنه ضمنت لنفسها جني الأرباح من الاستثمارات واستيراد لحوم الضأن، دون أن تكلف عناء السؤال عن الوسائل

تجني بها تلك الهلاك سادت في أوروبا كلها في ذلك الوقت فلسفة روج لها مثلو الاستعمار في تلك البلاد المقهورة، أن الشعوب «المنحطة»، لا مفر لها من أن تستبدل، بل أن تخفرض في النهاية، وأن ذلك امر طبيعي مثل ضحايا المناجم ومصانع العزل في أوروبا. لا بد أن يصير التقدم ولا بد من دفع الثمن لهذا التقدم والأفضل أن يدفع آخرون هذا الثمن وهكذا نجد «لودو روزميري»، الذي استدرج حزب الإحرار إلى قبني الإمبريالية يستلهم هذه الفلسفة في خطابه الذي القاه في «أديلبد» بأستراليا عام ١٨٨٣ «أن الأقدار قد اختارت العصر البريطاني ليحمل الرسالة ويكون معبرا عن أمال البشرية في الزماني والتقدم،

هكذا طغت في استراليا، ليس فكرة «أخوة الإنسان»، ولكن فكرة «أخوة الإنسان الأبيض»

الملك

نحو أفق بعيد ٧٢

تسايـزها النـيران في كل مسلك
به القوم صرعى والذيار تـلـول
وكرت فـمـرت في دماء ملطية

منظية أم للنـين تـكـول
كل هذا راه الشاعر قبل ان يحدث حين رأى الليل قتيلاً به «درب القلة» او
بالأحرى رأى قتيلاً في الليل . في تلك اللحظة كان الشاعر منتصراً ومهزوماً .
قاتلاً ومقتولاً مشاركاً في الأحداث . ومبتعداً عنها مراقباً لها .
يقول المؤرخون ان سيف الدولة عبر الغرات الى دلوك الى قنطرة صنبجة الى
درب القلة . فشن الغارة . فحطت عليه العدو . فقتل كثيراً من الأرمن ورجع
الى ملطية . وعبر قنابك حتى ورد المخاض على الغرات . ورحل الى سميساط .
فورد الخبر بان العدو في بلد المسلمين . فأسرع الى دلوك وعبرها . فادرك
جيش العدو راجعاً الى جبجان فهزمه وأسر قسطنطين بن الذمستق وخرج
الذمستق على وجهه .

كل هذا راه الشاعر رأي العيان في الواقع . وكان قد راه بعين الشاعر قبل
ان يحدث . فكان القتيل الذي لغيه بدرب القلة لم يكن قتيلاً واحداً . بل
جموعاً من القتلى لما يزالون في ضمير الغيب .

كان النصر غالباً سالت فيه دماء كثيرة . من الروم ومن العرب ايضاً .
والشاعر يزعم بنصر العرب . وفي الوقت نفسه لا يعدم الرثاء على العدو
المهزوم . كيف لا وهو يسمع ولولات النساء وأثبات الجرحى . وأثلاً لا اجد
شملتة في هذين البيتين . اللذين يخاطب بهما الذمستق . وقد نجا بنفسه
وترك ابنه للأسر . بل اجد عاطفة لا تتعد عن الحزن .

نجوت باحدى مهجتيك جريحة
وخلفت احدى مهجتيك تسيل .
أتسلم للخطية ابنك هارباً
ويسكن في الدنيا اليك خليل .

الحزن . حتى في مثل هذا الموقف . لا يستغرب من هذا الشاعر العظيم .
فهو خير باحوال الناس . عليم بتقلبات النصر والهزيمة . وقد عانى ما
عانى . مهزوم حتى في اوقات انتصاره عليه . كما قال الزافعي . سيما الملك
المخلوع

لذلك تجده ينصرف فجأة عن مدح سيف الدولة . ويلوذ بنفسه . في أبيات
مؤنية كأنها لا تمت الى القصيدة بصلة . وكأنها قصيدة منفصلة . يبدوها
متحدثاً

إذا كان بعض الناس سيفاً لدولة
ففي الناس بوقات لها وطبول
يقول الشارح في معنى هذا البيت يقول اذا كنت سيف الدولة . فان غيرك
من الملوك بمنزلة البوق والطبل . أي لا يفنون غناك ولا يقومون مقامك
هذا كلام لا نفع منه . الا ان الشارح يضيف دون اكرثات

«وقال العروضي . اراد بالبوق والطبل الشعراء الذين يشيعون ذكره
ويذكرون في اشعارهم غزواته ...»

صدق العروضي . فهذا ما قصده اليه الشاعر . وقد عنى نفسه على وجه
الخصوص . انظر كيف قلل من شأن سيف الدولة «بعض الناس .. سيفاً»
لدولة . ثم انظر كيف رفع من شأن نفسه . فصور انه طويل تدوي وبوقات
تصك الاسماع . وكان حزيناً وكان مهزوماً . لانه كان يدرك في قرارة نفسه . ان
الامير في واد وهو في واد

•••••

رحمك الله . لقد وقعت وقفة . وجودية . كما يقال هذه الايام . في لحظة
كانها خارج حدود الزمان والمكان . في ليل ليس كالليل . وراه فجر ليس
كالفجر . تحمل ثاراً غامضاً . وطموحاً لا يحد . وحباً مثل البغضاء . وعزوراً
بنفسك لا يفرك عليه احد . العجز لم يشف كمدك كما زعمت . بل زادك كمداً
سمعت ابن الجرحى ورايت دماء القتلى . واذا انتك مت قتيلاً بعد ذلك . فلعلك
رايت دمك ينتشر في الافق . ويتشكل على هيئة مجر يخرج من جوف الظلام

هل ظننت انني انصرفت عنك بكل
ذلك الحديث عن شعب الهاموروجيني
الودييع ؟ معاذ الله . لعلني اطنبت
فيه . لان الاسى يبعث الاسى معاذ الله
يا سيدي . فقد كنت معي ابداً . وأنا
اجوس هذه الديار التي اقامها قوم على
انقاض قوم . ارى واسمع واحزن كما
قال البحثري

ذاك مني وليست الدار داري
بالقرب منها ولا الجنس جنسي
وكثيراً ما جال في خاطري بيتك
العجيب . الذي لا يبدو ان له صلة
بهذا المقام . لا ادري لماذا . كيف قلت .
غفر الله لك ؟



بقلم الطبيب صالح

لقيت بدرب القلة الفجر لقيت
شفت كسدي والليل فيه قتيل
انني لقيت الفجر بعد ذلك . بين «سذني» و«طوكيو» . لماذا اردت من
تذكيري بقولك هذا الآن ؟

يقول الشيخ ناصيف البازجي في شرحه
«درب القلة موضع وراء الغرات . والدرب كل مدخل الى بلاد الروم .
والقلة اعل الجبل . وقوله والليل فيه قتيل حال . ويروى «شفت كسدي» .
أي انه بدا له الفجر عند هذا المكان فشفت كسده بانصرام الليل كما يشتهي
العدو بنكبة عدوه . وجعل الليل قتيلاً لظهور حمرة الشفق عند انقضائه
فتسببها بالدم» . انتهى .

وربما يكون «درب القلة» هذا . هو الموضوع الذي عبر منه امرؤ القيس الى
بلاد الروم . وقال في ذلك بيته المشهور
بكي صاحبي لما رأى السدر دونه

وايقن أنا لاحقان بقيصرا
وقد حدثني العالم الموريتاني الجليل . الشيخ سالم وذ عذود . ان
«الدرب» في قول امرؤ القيس . تعني الحدود الفاصلة بين بلاد العرب وبلاد
الروم . ويرى استاذنا العلامة الدكتور ناصر الدين الاسد . ان «الدرب» مكان
بعينه . ومهما يكن فإن «قتيل الليل» الذي راه المحتني في ذلك الموضوع . امره
عجيب

أما الشيخ عبد الرحمن البرقوقي . فإنه يشرح البيت كما قال البازجي .
حذوك النعل بالنعل . ولكنه يزيد .

«يقول ابن جني : سألته . يعني المحتني . عن معنى هذا البيت فقال . -
«أفينا القلة في وقت السحر . فكانني لقيت بها الفجر . ثم سرنا صبيحة ذلك
اليوم الى العصر اربعين ميلاً وشنتنا الغرات وغنمنا وشفت كسدي لانصرام
الليل عني . والليل قتيل في ذلك الموضوع . فكان النهار لما أشرق بضوئه على
الليل قتله وظفريه» .

ان كان المحتني حقاً قال هذا الكلام . وان ابن جني فهم عنه قوله تعام
الفهم . فلا بد ان الشاعر اعطى شريذه ابن جني . بمقدار . فكل من اطل
صحبته هذا الشاعر العبقري . يدرك ان الامر أجل من محض ليل ينحسر .
ونهار يطلع . وضوء يفتك بالظلام . ولا يغيب عن البال . ان القصيدة
تتحدث عن صراع دموي بين قوى الخير والشر والحب والبغضاء والنار
والأخذ بالثأر . هذا قتل عظيم . حتى الحب دونه الموت
يحزومه مع الاسنة فوقه

فليس لمشتاق اليه وصول
ما اعز الدماء في هذه القصيدة . دماء تعيض حتى تصبح طوفاناً تخوض
فيه الخيل . -

فخاضت فجيع الجمع خوفاً كأنه
بكل نجيع لم تخضه كغليل

٧٣ نحو أفق بعيد

قد أصابه الخراب الذي حلق به فيما بعد . كان ما يزال يتشبث بالرمق البالي من دورة «الحضاري» الذي اختاره لنفسه . يحكم العقل . ويعمل على جمع الشمل . ويدعو بالتى هي احسن . هذا . والجالية اللبنانية اكبر جالية عربية في استراليا . بعض افرادها نرح منذ اكثر من قرن . منهم «مليونيرات» ورجال اعمال بارزون

اما السفير المصري فقد كان في وضع صعب . كانت مصر قد ابرمت صلح . كاسب ديفد . الذي عارضه اغلب العرب . وذهبوا في معارضة حذا بعيدا . ونقلوا خلاهم حتى الى استراليا . فكانوا يتحدثون بالسنة شتى . بعضهم يناقض البعض الآخر . ولا شك ان المسؤول في وزارة الخارجية الاسترالية . كان على علم بكل ذلك . فكان سببا اضافيا في عدم اكرانه بالعرب .

بعد ذلك في «ملوكيو» عبري في مسؤول في وزارة الخارجية اليابانية عن فكرة معاملة . كان رجلا مهذبا . يتحدث اللغة الانجليزية بطلاقة ملفنة للفظر . قال في وهو يضحك

«هؤلاء العرب ماذا يريدون منا؟ كل كم شهر يجيئنا وفد يطلب منا ان نؤيد القضايا العربية . موقفنا واضح وقد اصدربنا به بياناً نحن لم نعطوعد بلهور ولسنا مسؤولين عن قيام دولة اسرائيل . ولا نبيعها السلاح . ولا نعطيها الدعم الديبلوماسي . علاقتنا بالعرب علاقة بسيطة تقوم على التبادل التجاري . نشترى منهم البترول ونبيعهم السيارات والمعدات الالكترونية وغيرها . هذا كل ما في الامر» .

اعجبتني مدينة «كانبرا» وهي كلمة من لغة الابوروجينز تعني «مكان التجمع» . وجدتها كما احب ان تكون المدن ليست ضخمة بحيث يحس فيها الانسان بالضالة والغربة . وليست قبيلة بحيث تقتحمها العين . فيها كل المعلومات التي تجعل المدن مدناً

بدأوا في بنائها عام ١٩٠٨ . في موقع بين المدينتين الكبيرتين المتنافستين «سندني» و«ملبورن» على مساحة ٢٠٣٤٩ كيلومتر مربع القنطعوها من ولاية «نيو ساوث ويلز» . وهي تعتمد على نهرين . نهر «مورومبجي» ونهر «مولوفولو» . كلمتا لها مدلولات في لغة الـ «ابوروجينز» . وحيث تقوم المدينة اليوم كان ولا شك مكاناً تتجمع فيه القبائل . تستعيد نكرى تلك اللحظة البكر في «زمن الحلم» . ولكن هذا حلم جديد . شيده قدم اخرون . جاءوا من وراء البحر .

ظلوا يبنونها . ويحسنونها ويجعلونها حتى عام ١٩٨٨ حين افتتحوا مبنى البرلمان الفدرالي الجديد . بمناسبة مرور مائتي عام على قيام استراليا

قلت للمسؤول في وزارة الخارجية . وكان قد اثار فضولي . كانه شخصية في رواية قصصية

«ولكن... الا تهتمك الجالية العربية في استراليا على الاقل» .

قال

«انها جالية صغيرة لا وزن لها» .

قلت له ..

«تعدادهم حسب علمي اكثر من ثلاثمائة الف» .

قال . وهو يتصنع الدهشة

«حقاً هل هم بهذه الكثرة» لم اكن اعلم .

ثم زادني ايضاحاً . بعد ان فكر قليلاً . وكأنه يصف لي العرب اطلاقاً . اذا كان عددهم كما تقول . فانهم من ناحية التأثير كاهم . كانهم لا شيء .

(للحديث بقية)

قال لي المسؤول الكبير في وزارة الخارجية ..

«اسمع . كوننا نبيع القمح والرُّبْد والحبوب للعرب . هذا لا يُحتم علينا ان نؤيد مواقفهم السياسية» .

سافر «منسي» الى لندن . وكان قد عجز في ان يجد وسيلة يصحبني بها الى «ملوكيو» . فحثت الى «كانبرا» وحدي وقلت يا ليتني كان معي فان وقاحته تنفع في مثل هذا الموقف

العرب . لاسباب بعضها واضح وبعضها غامض . يشيرون احاسيس متناقضة عند الناس . الاعجاب والكراهية والخوف والطمع والحسد



بقلم الطبيب صالح

والاحتقار . على العربي ان يتوقع هذا ويصبر . صحيح ان الناس مخطئون في الغالب في حق العرب . ولكن العرب مخطئون اكثر في حق انفسهم . وكما بين الافراد . كذلك بين الامم . الناس حينما كانوا مشغولون . بمشاكلهم . ولا وقت لديهم للتمس العذر للآخرين . واذا كان الامر كما قال «الاستاذ» ..

ولم ار في عيوب الناس عيباً

كنقص القادرين على التَّعَام

فان الاحتقار يكون بمقدار «التَّعَام» . المختل . والنقصان» المائل للعيان فليكن ذلك شأني مع هذا الرجل

اعجبتني المدينة بقدر ما اغتالني المسؤول في وزارة الخارجية . وحاولت ان اجد له عذراً فيما بعد وانا اتمشى في «شارع الكمولث» . الواسع في اتجاه بحيرة «ميرلي قرفن» . انها بحيرة اصطناعية ضخمة اعطاها اسم المهندس المعماري الامريكي الذي خطط مدينة كانبرا . وتقول الكتب ان طول شطانها يبلغ ٣٦ كيلومتراً . وقد زرعوا على حافتها الاشجار زرعوا اثني عشر مليون شجرة في مدينة «كانبرا» .

مدينة انيقة مجلوة مثل عروس . تمشي في شوارعها كما كان يمشي فلاسفة اليونان في شوارع «اثينا» على عهد «بركليز»

حدثت نفسي . ان الرجل كان ولا بد . يطوي صدره على احساس بالاهمال والاهانة . لان احداً من كبار المسؤولين العرب لم يات لزيارته منذ زمن واستراليا . مهما كان الامر . قازة باكملها . قطر محفوظ . فيها كل شيء . كل امة تظن انها مركز العالم . انسان عين . الكون . وما فائدة ان تنشئ المدن وتنشئ الطرق وتعمل بحيرات اصطناعية اذا لم يترك احد يُعبرك عن اعجابه بما صنعت . الامم مثل الافراد . فيما يبدو . لا تحيا الا في عيون الآخرين . والعرب خاصة . يفهمون هذا الاحساس جيداً . فهم دائماً مشغولون بما يقول الناس عنهم .

قلت لنفسي . لعل الرجل حسبي مسؤولاً كبيراً . وما كنت كذلك . فعبرني عن احساسه بالاهمال . بتلك الطريقة المتقوية

والحق ان العرب لم يكونوا يكثرثون باستراليا تلك الايام . لعل الحال قد تغير الان . اغلب الدول العربية لم تكن لها سفارات في «كانبرا» . والسفراء القليلون الموجودون كانهم في منفى . حين تزورهم يستقبلونك بترحاب عظيم . كما يفرح القريب الثاني الذي لا يزوره احد من اقربائه الاغماً . سفارات كاتبا مهجورة . لا احد يقف على ابوابها . والداخلون اليها والخارجون منها قليلون . كان السفير اللبناني في وضع مريح نسبياً . فلم يكن لبنان في تلك الايام .

٧٤ نحو أفق بعيد

وكان الرجل أراد أن يلوذ بي فارتاح من «منسي» برهة. فوجه كلامه إليّ
هل هذا هو رأيك أنت أيضاً يا مستر صالح؟

لقد احدثت عبارة «منسي» انشراحاً، هذا لا ريب فيه. خاصة «تشويه السمعة»
الاستراتيجيون أيضاً يخشون أحياناً أن العالم لا يأنه بهم. ولا بقدرهم حق
قدرهم. ويتعامل عليهم في كثير من الأحيان. لا تكاد توجد أمة. ليس في
تاريخها شيء يسبب لها الحرج أو الخزي. اليابانيون، ومعاملتهم للأسرى في
الحرب العالمية الثانية. الألمان وما فعلوه باليهود وغير اليهود. الأمريكان
وضرب هروشيما وناجازاكي بالقنابل الذرية الفرنسيون وما فعلوه في
الجزائر الانجليز الذين ابتكروا معسكرات الاعتقال، وما فعلوه في فلسطين
والفريقيا. والروس والصين والاسبان والبرتغال وهلم جزءاً قليلة هي الأمم
التي ليس في تاريخها عمل يتمنى لو لم يكن. لماذا إذا تلقى الأوزار على العرب،
وكيف اصبحوا وكأنهم «الجنّة» في التاريخ؟ لعل العرب يسألون أنفسهم
أولاً. قبل أن يلوموا الآخرين

قلت له

«لا اعرف على وجه اليقين ماذا تقدمون في برامجكم في الاذاعة والتلفزيون.
فانني لم افق وقتاً كاملاً هنا. ولكن بعض ما شاهدته. خاصة في نشرات
الاخبار. يجعلني اعتقد ان دكتور مايكل ليس مخطئاً. اما صحفكم، فمن
الواضح انها تتحدث عن العالم العربي. اما عن جهل. او عن سوء قصد...»

وكان «منسي» كان يقرأ فكري، فقد اخذ الفكرة التي كنت اتوي ان اطرحها،
وانطلق بها.

«نعم. صحفكم على وجه الخصوص. لا يفتح الانسان اي صحيفة الا
ويجد تذكراً لتلك الفلم الخلفه الذي كله اكاذيب، ولا هدف منه سوى الاساءه
للعرب...»

كانت تلك هي القضية تلك الايام. الشغل الشاغل لوسائل الاعلام، في
اوربا وفي امريكا وحتى في استراليا. مثل قضية «سلمان رشدي». هذه الايام.
كل حين يخرجون بشيء جديد. يشغل الناس ويشير الجدل والبلبله

قال احد المسؤولين:

«على اي حال. الخطا خطوكم انتم. والتقصير منكم انتم. لا توجد مؤامرة.
للاساءه للعرب كما تتوهمون. الامر ليس اكثر من عدم توفر المعلومات
المطلوبة في الوقت المناسب. انتم لا تساعدونا، ولا تساعدون اي احد، في
الحصول على المعلومات. بل كثيراً ما تخلفون العرائيل. وسائل اتصالكم لم
تفهم بعد، ان العالم مترابط. والعصر عصر معلومات...»

واضاف المدير العام ضاحكاً، وكان اميلهم الى الضحك

«ثم ان العرب يفعلون اشياء غير لطيفة أحياناً. فعلاً تريدوننا ان نفعل؟
نتسخر عليها؟ نفرض عليها رقابة كما تفعلون انتم؟»

لم يدع «منسي» هذا القول يمر دون رد. فلم يكن ذلك في طبعه. ولكنه سارع
الى القول. وهو يضحك بخبث. كما تخيلت
«وهل ما تفعلونه انتم. لطيف دائماً»

رفع الرجل يديه كمن يستسلم في معركة. وقمنا من المائدة. وكل منا يتنسم
او يضحك. وكان «منسي» اكثرنا سعادة. فقد حمل لواء العروبة خلفاً في ذلك
الركن القصي من اركان المعمورة. احسن اداء دور لم يكلفه به احد. ولم ينل
عليه اجرا ولم يجن من ورائه شكراً. فقط استمتاع مجرد باداء الدور. لا
اكثر.

كانوا رجالاً لطيفين بحق. قلنا لعلنا تركنا عندهم الفكاراً قد تشمر ولو بعد
حين. كان «منسي» يحب هذا القول ويردده كثيراً

«أزم الخير على وجه المياد. يتمر ولو بعد حين. ثم ونحن نسير في الممر
الطويل. اذا بذلك الشاب

استوقفه «منسي» وسأله

«اسمع يا اخ. انت عربي. مش كده؟»

نعم. كان عربياً. وكان فلسطينياً مهاجراً. يعمل في هيئة الاذاعة
الاسترالية. اسمه «ابراهيم الخوري». اذا لم نخفي الذاكرة ■

(للحديث بقية)

قال «منسي» فجأة. ونحن نشفي في رداهات
«هيئة الاذاعة الاسترالية». «بصراً طبيب
او كذا لك الشاب دا عربي. قبل ان امعن فيه
النظر. كان «منسي» قد جرى نحوه

«اسمع يا اخ. انت عربي. مش كده؟»

كنّا خارجين لتوننا من اجتماع على
الغداء. مع المدير العام لهيئة الاذاعة
الاسترالية. وعدد من المسؤولين - دخل
«منسي» مبتسماً. وخرج ضاحكاً يقهقه
ولعله تذكر ايامه في هيئة الاذاعة
البريطانية في لندن. حين كان يلهث في
سيارته الـ «نيل». من «كفرشام» الى «بوش
هاوس». يترجم ويمثل. لقاء جنهيات
معدودات. ورغم سعة حيلته فانه لم يصل
الى المدير العام. الذي كان يجلس في افق
بعيد المنال. ما اطول الطريق الذي قطعه. هذه ايضا «هيئة». وهذا ايضا
«مدير عام». يدخل مبتسماً. عليه معطف من الفراء. وبذلة. من الصوف
الفاخر. وحذاء ايطالي من الجلد الغالي. لعلها «قوي». هذا «منسي» اخبرني لا
يعرفه. ولكنني اعلم انه في اعماله لم يتغير. وان هذا المظهر البراق. مثل الرزي
المستعار الذي يرتديه الممثل ليؤدي دوراً على المسرح.



بقلم الطبيب صالح

رحمه الله. انه الآن يمثل دور السفير. المدافع عن كرامة العرب وسمعتهم.
وهو دور لم يكلفه به احد. ولم يتقاض عليه اجرا. وقد اداء احسن اداء.
ونهض به على خير وجه. ولعله كان محقاً. فلو ان احداً كلفه بدور مهم. ربما
كان يؤديه على خير وجه. ولكن احداً لم يطلب منه اي شيء. كل الادوار التي
اداءها. انتزعها انتزاعاً.

تحدث اثناء الغداء كانه مسؤول عربي كبير. قد يكون مستشاراً لحاكم او
رئيس دولة. تعدد ان يترك الامر غامضاً وكان كعادته. يخلط الجدل بالهزل.
والصدق بالمر. تسعفه فصاحته في اللغة. وبديهة الحاضرة. ومواهبه
الكامنة... وكان حين يحس انه في ورطة. ينظر الى ممتلك الطريقة التي توحى
بائنني معاون له. وذلك. كما قلت. دور راق في. فقبلته عن طيب خاطر. لانه
اتاح في فرصة نادرة اشارك في الحديث. وراقب «منسي». فكانتني ممثل
ومتفرج في الوقت نفسه

شرق بنا الحديث وغرب. وكنّا بين اناس مهذبين مستنيرين. يقرعون
الحجة بالحجة. ويدافعون بلطف. ويجادلون بذكاء. لذلك حين قال «منسي»
هذا. لم يكن وقحا ولكنه تحقّق وكأنه يعزج. «من الواضح لنا ان وسائل
اعلامكم ليست اكثر من صدى للاعلام الغربي. نفس التحامل علينا.
والازدراء بنا وتشويه سمعتنا. انها اشياء اصبحت مملة... تعودنا عليها.

ضحك وهو يقول «تشويه سمعتنا». وقد استعمل التعبير عمداً. بدهاء
شديد. كما تخيل لي. بدلاً من التعبير المألوف «تشويه صورتنا». لم يكن قد قضى
في استراليا اكثر من اربعة ايام. ولم يكن قد زار البلد من قبل. وليست له
معرفة عميقة بما يجري فيه. انما تلك كانت صفة في طبعه. يقول دون مبالاة.
ويرمي الزميمة قد تصيب وقد تخطف

كان واضحاً في انهم بوغتوا بقوله. ولكنهم كانوا رجالاً انكباء ذوي ذرّة.
فسارعوا الى تغطية احساسهم بوسائل شتى. بعضهم ابتسم. وبعضهم
ضحك. وقال المدير العام

«انتظر يا دكتور مايكل! هذا ليس عدلاً! انت تعلم ان هيئة الاذاعة
الاسترالية مؤسسة مستقلة. لا تخضع لأي نفوذ. حتى الحكومة ليس لها
سلطة عليها. انها مؤسسة محايدة تماماً. نحن نغطي الشؤون الدولية
بموضوعية كاملة. لا يوجد اي سبب يجعلنا نتحامل على العرب. او... تشويه
سمعتهم كما تقول»

الخبير

نحو أفق بعيد ٧٥



بقلم الطبيب صالح

زارنا الشاب الفلسطيني في الشَّل، مساء ذلك اليوم. كانت حقارمة موفقة من «مسي». فقد أصبح ذلك الشاب دليلاً فيما بعد. فتح لنا كثيراً من الأبواب، ودلل لنا كثيراً من الصعاب. وأخذ يأيدنا في طرقات البلد الغريب. وعزفنا على الجالية العربية في «سدني». وقد أضاف «مسي» تلك الحسنة، إلى القائمة الطويلة من أفضاله عليّ، وظل بعد ذلك كلما طاب له المجلس وراق له الجو، يذكرني بأنه بذكائه وقوة ملاحظته أدرك فوراً، ونحن نسير في طرقات هيئة الإذاعة الاسترالية، معد أن خرجنا من العدا مع المدير العام، أن الشاب عربي.

«قول لهم يا طبيب. مش دا اللي حصل؟ أنت ماشي مش واخذ بالك. أنا عرفت في الحال... طبيب بدمك مش أنا اللي نجحت لك المهمة» من غيري ماكنتش حتعرف تعمل حاجة... احكي لهم زاي أنا بدعت في الغداء بتاع المدير العام الراجل ذهل.....

كل ذلك في الرياض. كلما أزور الرياض الآن، أول ما أصل المطار، اذكر «مسي». أذكر أراه رأي العين. أول مرة زرت الرياض، بدعوة من الشيخ عبد العزيز وجده في سيارة كبيرة ينتظر عند سلم الطائرة. ضحك. وكنت أعلم أنه يريد أن يفهمني أن تلك الحفاوة ليست أكراما لخطاري بقدر ما هي برهان على نفوذه الواسع ويده الطولى. كلفه الشيخ بترتيب أمر أقالمتي وتقللاتي. وهو ينتشط لمل تلك المهام، فقام بذلك على أحسن وجه. كان رفيقي في أول عمرة اعتمرتها، والعمرة الأولى لها رغبة خاصة وذوق لا يجده الإنسان بعد ذلك أجده كلما عدت إلى تلك الامكنة الكريمة. أراه يسعى بين الصفا والمروة، بجسمه المقلل، وهو يكاد ينوء من الأعباء. أراه مكيا على استار الكعبة. ثم وهو نائم في صحن الحرم، بين صلاة المغرب والعشاء، والناس يمشون حوله.

خرج رايحاً من زيارتي تلك، من نواح كثيرة، فقد حجز جناحا في الهوتيل بجواري، له ولزوجته، وأضاف التكلفة إلى حساب زيارتي. كان يفعل ذلك كل مرة. وفي المرات التي لم يبق فيها في الهوتيل، كان ينتهز فرصة وجودي فيحضر ثيابه للعسيل ويبدله للتنظيف.

في الرياض أيضاً، صلينا معاً، لم أكن قد اقتنعت بعد أنه أسلم حقاً. وقلت أصل صلاة المغرب، جاء بمساحة ووقف معي. يا سبحان الله، كان قبل ذلك أخى، ثم ما هوذا الآن يصبح أيضاً أخى في الله.

لكن هذه هي المرة الأخيرة التي ألقاه فيها في الرياض. كان قد وجد عملاً في شركة. لم يكن في حاجة إلى العمل، ولكنه يجب أن يشغل نفسه بشيء. يجب أن يكون له مكتب وحاجب وسكرتير وتلفون. ويا حيداً لو كان ذلك على نفقة شخص آخر. كان يستطيع لو أراد أن يحصل على هذه الأشياء من ماله الخاص.

أقول له: «يا ابني ما تروح تقعد في «عزبتك» في إنجلترا، هل انت محتاج تشتغل بمزيت؟ روح اتعنق بفلوسك قبل ما تموت وبأخذوها الورثة».

«أموت؟ أموت دا إيه يا خوي؟ يا ابني أحنا لسع ماعملتش حاجة. لسع فاضله حاجات كتير نتعمل...»

لم يكن الموت يخطر بباله. كان مشغولاً بالحياة. يقول ضاحكاً: «أنت فكرتني بشتغل» دي عملية بسيطة متأخذش مني ساعة بالكتر الوقت الباقي أعمل فيه اشغالي الخاصة... فبن حلاقي كل التسهيلات دي»

تلكس وفاكس وتلفونات ولباعين. وكله ببلاش، «وايه هو شغلك بالضبط».

«أحضرت تقارير لمدير الشركة».

«تقارير مالية».

«دا شغل بيعملوه ناس تانيين أنا مستشار خاص للمدير العام في حاجات كثيرة. صحافة علاقات عامة اتصالات دولية... حاجات زي دي أنا الرجل الثاني في الشركة. بعد المدير العام مباشرة. أمال أنت فكرت إيه... يا عامل للمدير العام كل يوم ملخصات من الصحف الأجنبية وتحليلات سياسية والكلام الفارغ دا. أوكد لك أن حتى في وزارة الخارجية ما يعرفوش يعملوا تحليلات

زي اللي اتابعملها، «وايه فائدة الحكاية دي لمدير عام شركة تجارية».

«زاي يا أستاذ» أنت فكرت التجارة بيع وشراء وصادرات وواردات؟ أنت فكرتها إيه؟ فكان بقالة في أم درمان؟ يا ابني دا شغل على مستويات كبيرة، وعلاقات وشغل حنسه والذي منه... ثم أن المدير العام شاب متعلم وبيفهم دا واخذ ماجستير في إدارة الأعمال من أمريكا... خسارة دا مسافر. كنت عرفتك بيه. شباب زي السكر. كلن جميعك أوي أنت عارف أن أبوه يبقى ابن عم... ووالدته... وهو متجوز بنت...»

«سبيك من الحكاية دي. بدمك الشركة دي فعلا متستفيد منك».

«ألا تستفيد مني؟ دا المدير العام متمسك بي مش عاوز يسبيني. بيني وبينك أنا ناوي أروح. على رايك. جاعل إيه بالفلوس».

تقلب في أعمال عدة في الرياض. سرعان ما يمل العمل فيتركه إلى عمل آخر. وكان الشيخ عبد العزيز التويجري، وابنه عبد المحسن، يرعيانه ويخرجانه من المازق، ويديران له وظيفة كلما ترك وظيفة.

كان لا بد أن أزور مكنته. أصر على ذلك حتى أرى بعيني كم هو مهم وكم هو ذو حول وطول. وما كنت في حاجة إلى برهان استقبله السعاة والحجاب والعمل بحفاوة عظيمة فيما يشبه المظاهرة. يمازحهم ويناديهم باسمائهم. وكان واضحاً أنهم يحبونه حباً حقيقياً. هكذا هو دائماً مع صغار الناس ظلوا يتوافدون عليه في مكتبه. هذا عنده مشكلة إقامة. وهذا يريد منه أن يتوسط له ليبيدوا رأيه، وهذا زوجته مريضة، وهو ينتفش ويكبر بخليط من الزهو باهميته ويفعل رغبة مخلصه لسعادة ضعفاء الناس.

أخذ بلغت نظري إلى اثاث المكتب، كانهم بشر أحياء يريد أن يعرفني بهم. السجاد والستائر والطولة والكراسي والتلفونات والخزانات ونباتات الظل والأزهار.

«بص يا طبيب. أنت خدت بالك من السجاد» أوعى تفكر أنه سجاد عادي. دا سجاد عجمي... تحفة نادرة».

«لا يا شيخ» ويكون بكم».

«اوه. مبلغ كبير. أوكد لك أن ثمنه أكثر من مرتبك في سنة كاملة».

«عجيب. وأنت اشتريته بفلوسك».

«ليه؟ أنت فكرتني عبيط زي ما الجماعة بتتوع مصر ببقولوا على الصعيادة. يا أستاذ دا من فلوس الشركة. أنت عارف أني أنا الوحيد اللي عنده مكتب زي دا. أصل المدير العام بقدرني جداً... مش عاوز يسبيني...»

لاحظت التلفونات، كل تلفون بلون. ماذا يصنع الإنسان بمجموعة من التلفونات وهو لا يسمع إلا بآذان واحدة؟ وماذا يصنع بمجموعة من السيارات؟ لكن «مسي» لم يكن شخصاً واحداً. كان مجموعة أشخاص في جلد واحد.

رايت السيارات مصطفة مثل خيل في اصطبلاتها أول ما دخلت داره في المساء. أصر على أن يأخذني في جولة. أتعرف على معالم البيت، كما يتجول الإنسان في متحف. حمام السباحة... مهم جداً عنده أن يكون في الدار حمام سباحة. كان يحب السباحة، ويسبح مثل عجل البحر. «الفرنسي، كما نقول في السودان، وسيد قشقة، كما يقولون في مصر». في القراجات وموديلات السيارات. نقل عدداً منها بعد ذلك إلى «عزبته» في «سلوث هامتون» الحديقة... الأشجار... النباتات النادرة... المطبخ... جناح السواقين والعمال والشغيلة... الوصائف القلبيبات...

«إيه دا كله يا دكتور؟ دي حكاية كبيرة بلخيل...»

«عجبك» إيه رايك أن دا كله ببلاش... علاوة على المرتب، حتماً كانت الحياة تمزح معه، فالحياة فيما يبدو تعمل كل واحد على طريقته.

كان ذلك آخر عهدي به في المملكة. لم أراه سعيدياً كما رأيت تلك الليلة مضحكاً ويضحك ويضحك. يحمل ابنه عبد العزيز، الذي يشبهه كانه نسخة منه، خاصة حين يضحك.

احتفلي بنا حفاوة عظيمة. ونها له جمهور كبير في تلك الليلة. فأنطلق لا يلوي على شيء، وأنا أساعده وأنشئ ذكريته، وأعطيه أطراف المواضيع. احكي لهم يا طبيب احنا عملنا إيه في أستراليا دا احنا عملنا عمال... قول الحق. مش أنا اللي قلت لك على الشباب أنه عربي... قلت لي خيلنا نروح في حلقنا...»

جاءنا الشاب الفلسطيني في المساء. وأصبح دليلاً بعد ذلك طوال إقامتنا في «سدني». ومن أياديها علينا أنه عرفنا برجل لبناني، من هؤلاء المس الذين حين تصادهم، تحسن أن الحياة قد أسدت اليك جبلاً لا يسي.

(لحديث بقية)

٧٦ نحو أفق بعيد

أغلبهم في المدينتين الكبيرتين «سدني» و «ملبورن». وكان اللبنانيون أكثرهم عدداً، فقد بدأت هجرتهم إلى أستراليا منذ القرن الماضي، تحت وطأة الحروب والمجاعات، كما يحدث اليوم. بعضهم امتزج بالجاليات الأخرى الوافدة، وآخرون ظلوا يتشبهون بهويتهم اللبنانية، وكلهم يحمل حيننا دينا لذلك الوطن الجريح. ياكلون الكبة والتبولة والشاورما، ويغنون لأغاني وديع الصافي وصباح وفروز.

يليه من ناحية العدد المصريون، وهؤلاء هاجروا حديثاً نسبياً، لم يقطعوا بعد روابطهم بمصر، يعودون إليها كلما استطاعوا، وتحس أنهم يفضلون العودة إذا وجدوا إلى ذلك سبيلاً، وبعضهم يعود بالفعل.

ثم الفلسطينيون. وهؤلاء كما هو معروف، تفرقوا في البلاد أيدي سباً. خرجوا موجات موجات، كلما ألت بهم قارة في الوطن الأم، هاجروا طلباً للمأوى والأمن ولقمة العيش. تجددهم حينما ذهب، في كندا وأمريكا وفي كل بلاد أوروبا. على وجوههم شيء يميزهم عن بقية المهاجرين العرب، أكثر عزماً وأكثر حزناً وأكثر مرارة. يطوون اجنحتهم على حلم، يبدو لهم قريب المثل أحياناً، وعسيراً أحياناً.

وجدنا أيضاً أعداداً أقل من اليمنيين والسوريين والصوماليين والمغاربة وبعض الأقباط السودانيين. ولا بد أن عدد السودانيين قد زاد الآن. وكلهم أصحاب خبرات ومهارات، وكثيرون منهم يحملون شهادات عالية في الطب والهندسة والزراعة وغيرها. وبعضهم أساتذة في الجامعات. ذلك لأن هذه البلاد لا تدخل إليها إلا من تستطيع أن تستفيد منه.

وكانما العالم العربي لم يكتف بما فعله بنفسه في عقر الديار، فلاحق هؤلاء المهاجرين بانقساماته وحزائاته وأباطيله. ولعلمهم لو تركوا وشأنهم على الأقل، لعل الأحوال كانت تستقر بهم في هذا البلد البعيد. انهم جميعاً غرباء هنا، مشغولون بهموم الحياة، وهم في نظر المجتمع الأسترالي شيء واحد. وربما كان ينتج منهم خير ينفع العالم العربي كله.

لكننا وجدنا صورة طبق الأصل للعالم العربي. الخلافات نفسها، والصراعات نفسها، والتفاهات نفسها. عالم يعوج بعضه في بعض، يتلقى أصداء الحزازات والأحز والحقاقت في الوطن الأم، أن صبح القول، فكانهم حيوانات فقدت حكمة البقاء الغريزي على الأقل. أو كمسافرين في سفينة تصارع الموج، وبعضهم أخذ بخناق بعض.

الأ أن أمام المسلمين ومطران المارونيين كانا على وفاق. كانا صديقين، يتزاوران ويتعاونان على البر والتقوى. لذلك كنا نجتمع بالناس في دار الإمام مرة، وفي دار المطران مرة.

يقال أن الحال قد تغير الآن، في العالم العربي، وفي أستراليا بطبيعة الحال. يا ليت. لكننا سوف نصدق حقاً، حين تضع الحرب أوزارها في لبنان وفي السودان، وفي سائر بلاد العرب والمسلمين. حينئذ سوف تطيب الليالي لسفارها، وتعود الطيور لأوكارها، وحتى ذلك الحلم العسير، حلم العودة إلى فلسطين لن يكون بعيد المثل.

(للحديث بقية)

تسماع الناس بوجودنا في «سدني»، ولم يال «منسي»، وسعاً، فأسبغ على رحلتنا أهمية أكبر بكثير مما تستحق. وكانت الجالية العربية من الخلاف والشقاق والتمزق بدرجة يرثى لها، ولعلمهم ظنوا أننا جئناهم مصلحين ووسطاء خير. وما كنا في الحقيقة كذلك، فما من أحد طلب منا القيام بتلك المهمة. ولكن «منسي» كدابه أبداً، وجد وضعاً يتيح له القيام بدور ما، دور رسول الوفاق وإصلاح ذات البين، فهد من توه للنهوض به.

والعرب في طبعهم الحنين إلى أهلهم وذويهم على البعد، ولكنهم فيما يبدو، لا يطبقونهم عن قرب. كنا غرباء، وقد كانوا لو يعلمون أكثر غربة منا، فرحبوا بمقدمنا، كما يرحب المقيم بالوافد.

أصبح الناس يتوافدون علينا، وكان «منسي» يزداد سعادة مع كل زيارة، فكان في أحسن حالاته. أنه هنا، مرة أخرى، الممثل الرئيسي على مسرح واسع. والدور الذي يقوم به ليس شيئاً بل هو دور خطير، دور سفير الإصلاح، ورسول الوفاق. وكان صديقنا الفلسطيني يقف إلى جانبنا في أغلب الأحيان، يشد أزرنا ويعزفنا على البلد والناس. والفلسطينيون بحكم وضعهم، وما فعلته الأقدار بهم أكثر من غيرهم حماسة لأن يكون العرب يداً واحدة، وأن كانوا هم أنفسهم ليسوا بمعنى عن الخلاف والشقاق.

جاءنا جورج سمعان وأخوه ميشيل، وهما لبنانيان، وقد كانا ولعلمهما ما زالا يصدران صحيفة باللغة العربية، علمنا منهما أنها توزع ما بين عشرين إلى ثلاثين ألف نسخة. كانت، كما أذكر، صحيفة رصينة إلى حد كبير، تتوجه إلى الجالية العربية ككل، وتتعد بقدر الإمكان عن مزالق الخلاف والفرقة. وقد شكنا لنا من ضعف الموارد وقلة الدعم، علما بأنهما يقومان بجهد لا ينكر، في ربط الجالية العربية في أستراليا ببعضها ببعض، وربطها بالوطن العربي. وقد بذلت ما في وسعي بعد عودتي في مساعدتهما، ولعلمهما حصلاً على بعض العون من دول الخليج. زارنا أناس يعملون في مؤسسات الدولة، وآخرون يعملون أعمالاً حرة، وبعضهم يعمل في وسائل الإعلام والاتصال. ونحن سعيماً للتعرف على أمام المسجد، ومطران الجالية المارونية في أستراليا.

أنتي أذكر جيداً ذلك الإنسان الكريم. رجل بسيط وقور مطمئن النفس، قلبه عامر بالخير، عليه سمت أخبار النصاري الأقدمين، كما يصنفهم القرآن الكريم. كان عالماً بالفقه والحديث وتاريخ الإسلام وكلام العرب، فقد نال درجة الدكتوراه في الفقه الإسلامي من جامعة السوربون. وقد ظل بعيداً عن الصراعات العربية وقاوم كل وسائل الضغط والاغراء، كي ينحاز إلى فريق من الفرق المتحاربة في لبنان.

كان تعداد الجالية العربية تلك الأيام، زهاء ثلاثمئة ألف،



بقلم الطبيب صالح

نحو أفق بعيد ٧٧

وعندهم الوقت والمال للسفر والإطلاع والتمتع بالموسيقى والأوبرا والباليه وما شابه، ولا بد أن كل هذا يكسبهم ثراء روحيا واتساعا عقليا كما لا يتاح لغمار الناس. وفي طبع الاختيار منهم بساطة وبعد عن التكلف، لأن التصنع والتكبر وما شابههما، أمور مبعثها فقدان الثقة بالنفس، وهؤلاء لديهم ثقة بأنفسهم لا حدود لها.

حزني دائما ماورد في الإنجيل، الذي ليس عنده يؤخذ منه، والذي عنده يعطى ويزاد. كان «منسي» يتمثل كثيرا بهذا القول أيضا، حسب ما تقتضي الظروف. ألا أنه قول ينطبق على هذه الطبقة، يكونون أكثر وسامة من بقية خلق الله، فيتزوجون نساء جميلات، ويكونون أثرياء، فيتزوجون بنات الأثرياء. وقد تزوج عدد منهم أمريكيات من عائلات ثرية، طلبا للمال في الغالب، فالأمريكان تغريهم الانقلاب ويشترون العراقة بالمال. منهم أم ونستون تشيرتشل وأم هارولد ماكلان وأم لورد «هينشام».

انجبت هذه الطبقة، إلى جانب رجال الحكم والسياسة، أشخاصا مشهورين في عالم الأدب والفن والفكر. منهم الفيلسوف الكبير «برتراند رسل» والروائية المعروفة «فرجينيا وولف»، والناقد الأدبي البارز «لورد سيسيل»، والشاعر الرومانسي الذائع الصيت «لورد بايرون».

وفي هذه الطبقة تقليد قديم بعدم المبالاة بلخصه شعار «آل سيسيل، المنحدرين من صلب أحد وزراء الملكة إليزابيث الأولى «آل سيسيل لا يعاون بأحد». يظهر هذا في عدم تقديمهم بالاصول المتبعة في الماكل والمجلس والسلوك، فتراهم أحيانا في ثياب رثة، ويلبسون الجاكيتات المرقعة، فأصبحت موضحة، وصار الناس يضعون رقع الجلد تقليدا لهم. وعندهم أن الثائق في الملابس والاسراف في التظاهر من علامات «الوضاعة».

ربما يفسر عدم المبالاة هذا، أن كثيرين من افراد هذه الطبقة، دافعوا بشجاعة عن قضايا الشعوب المستضعفة، وثاروا في وجه طبقتهم نفسها. من هؤلاء «لورد بايرون» الذي انحاز إلى جانب اليونانيين في حربهم ضد الاثراك العثمانيين، ولورد ولغرد بلنت، الذي أيد الثورة العربية في مصر ضد الاستعمار الإنجليزي، وظل يدعو للقضية المصرية طول حياته. ولورد كيرزن، العتيق، الذي قال قولته الشهيرة في مجلس الوزراء، قبل صدور وعد بلغور «أنتم تتحدثون عن اقامة دولة، يهودية في فلسطين، والارض ليست خالية من السكان».

هذه الطبقة، ما تزال تمسك بمقاييد الامور في بريطانيا في واقع الامر، رغم ما يبدو على السطح من تحولات اجتماعية وسياسية. وقد احتفظوا بنفوذهم بسبب قدرتهم على التأقلم ومجاراة التغييرات الاجتماعية. لذلك فهم، حين تقتضي الظروف، يتبنون زعماء من الطبقات الوسطى والسفلى. وقد جعلوا دزرائيل الفقيه اليهودي الاصل، رئيسا للوزارة، وكذلك «لويد جورج» الذي نشأ نشأة فقيرة في ويلز، ومرجريت ثاتشر التي تنتمي إلى طبقة العمال وصغار التجار.

كان «منسي» منجذبا إلى هذه الطبقة، وكانت له صلات مع بعض افرادها. ولعل تلك الصلات هي التي حالت بينه وبين الطرد من إنجلترا، حين اقتحم قصر بكنجهام دون وجه حق. لا عجب أنه سعيد الآن بهذا اللقاء مع «مستر كامرون» فقد رأى فيه سمات لورد من لوردات الانجليز.

قبل أن يبنوا دار الاوبرا في «سدني»، كان الاستراليون يتباهون بالجسر الذي يصل الشاطئ الشمالي للمرفأ بالشاطئ الجنوبي، أنه هيكمل ضخيم، كان يعتبر في زمانه، آية من آيات الانجاز الهندسي. وما تزال له مهابة إلى اليوم، خاصة إذا نظرت إليه عند الفجر وقبل الغروب.

اتقوه عام ١٩٣٢، بعد تسع سنوات من عمل متصل. وكانت فكرة اقامته قد خطرت لذلك «المجرم» النابغة الذي خطط مدينة «سدني». ولكن حلم «فرانسيس فريثوي» لم يتحقق إلا بعد أكثر



بقلم الطبيب صالح

من مائة عام. طوله ٥٠٣ أمتار، ويرتفع قوسه عن سطح الماء في اعلى نقطة منه بمقدار ١٣٤ مترا. وقد انجز في مناخ من التوتر السياسي والركود الاقتصادي. وكما حدث في أنحاء أخرى من العالم، فقد قامت في استراليا حركة يمينية متطرفة، متأثرة بالحركة النازية في ألمانيا. وكانت في مقاطعة «نيو ساوث ويلز» حينئذ حكومة ليبرالية. ويحكمي الاستراليون بشيء من الفخر، أنه في يوم الافتتاح، وقبل أن يقص رئيس الوزراء الشريط، وكض احد زعماء حزب «الحرس الجديد» على حصانه وقطع الشريط بسيفه «باسم شعب نيو ساوث ويلز»، لم تمكث الحكومة طويلا، بعد هذه الحادثة، فقد سقطت، وحلت محلها حكومة يمينية متطرفة.

كنا قد سمعنا القصة من قبل، ولكن «مستر كامرون» رئيس المجلس الاسترالي لرعاية الفنون، اعادها علينا، ونحن نجلس في مكتبه في مبنى الاوبرا، امامنا البحر وإلى الشمال الجسر وقد ازدحم بحركة السيارات وقت الضحى. لم يكن فخورا وهو يروي لنا القصة، فقد كان رجلا مستترا متحضرًا واسع الثقافة، من الناس الذين تركوا لدينا ذكرى طيبة. وقد وصفه «منسي» فيما بعد بأنه يشبه لوردات الانجليز.

كان منسي يحس بجاذبية تلقائية نحو افراد الطبقة الأرستقراطية من الانجليز، فتزوج منهم، وجاورهم في حي «تشلسي»، وكان يصول ويجول في الاحياء الراقية، «بلقرافيا» و«سلون سكوير» و«شايفسبريدج». وتعمد أن يشتري مزرعة ودارا بجوار «لورد مونتباتن» قريب الملكة. وانتهت حياته هناك، بين خيله وسياراته وخدمه وحشمه، كما تخيل كيف تنتهي حياة اللوردات.

ليس كل لوردات الانجليز اخبارا، فقد خرج من بينهم قتلة ولصوص ومزورون ونصابون. ولكن الاخبار منهم، يتمتعون بجاذبية لا تنكر. وخيارهم أكثر. يكونون أثرياء في الغالب، أو ميسوري الحال على أقل تقدير، فينشأون بمناخ عن الخلال التي تتأني للناس بسبب الصراع من أجل لقمة العيش. ويعيشون في دور رعية، تحيط بها أكثر

الاحيان مزارع واسعة، فيعلق بأشخاصهم احساس السعة والرحابة. وفي تقاليد اسرهم طلب العلم، اما عن رغبة او وجاهة، فيلحقون بالمدراس العربية، مثل «هارو» و«ايتن» و«رقي» ومن ثم يعضون إلى إحدى جامعتين، لا غير، اما «أكسفورد» واما «كمبريدج». وعادة يلحق الابن بالمدرسة نفسها، مثل ابيه وجده، والكلية نفسها، والجامعة نفسها.

٧٨ نحو أفق بعيد

شيئا بعيداً لا تكاد تحس وخزه. في صباح مثل هذا. في مكان مثل هذا. وانت تنظر من نافذة مستر «كامرون» الى البحر يروق ويخضر في ضوء الشمس. ولعلك لا ترفض الراي الذي عبّر عنه «تشارلز دارون» عام ١٨٣٦

... وبهذا تخلق بلداً جديداً رائعاً. مركزاً مضيئاً من مراكز الحضارة.. فقد نجحت التجربة بدرجة لا مثيل لها في التاريخ.. اخبرنا مستر «كامرون» انهم شرعوا في البناء عام ١٩٥٩. وكانوا قد اختاروا تصميماً لمهندس معماري شاب من الدنمارك يدعى «يوزن اثن» لم يكن معروفاً حينئذ. ولكن المحكمين في المسابقة العالمية التي اعلنوا عنها. استهواهم التصميم لطرافته وجراته. وقد قدروا ان البناء لن يكلف اكثر من سبعة ملايين دولار. ولن يستغرق انجازه اكثر من اربع سنوات. ولكنه لم يتم حتى عام ١٩٧٣. وكلف ١٠٢ مليون دولار.

الفتحت ملكة بريطانيا في احتفال ضخم دُعي له اناس من مختلف انحاء العالم. اشتهروا في مجالات السياسة والثقافة والفنون. وقد تألفت الاضواء في سماء مدينة «سدني» التي امضت اسابيع في الاعياد والاحتفالات. ولا بد ان الاستراليين قد احسوا يومئذ انهم قد محوا الى الابد وصمة العار التي لاحقتهم قرابة مائتي عام. وانهم قد «اعتقوا الزمان من اساره» كما يقول شيكسبير.

قال مستر «كامرون» بشيء من الفخر: «لم تدفع الدولة دولاراً واحداً من نفقات هذا المشروع». سألناه كيف حدث ذلك فاجاب: «لأننا جمعنا المال من الشعب بواسطة «الطوري» - «اليانصيب» هذا انجاز شعبي بحق».

ذلك احساس تجده عند الاستراليين اينما اتجهت. ان «الشعب» هو السيد. وانهم اقاموا مجتمعاً حراً حقيقيه. لا تكبله اي من القيود التي تكبل المجتمعات القديمة في اوروبا. ليست فيه فوارق ولا طبقات. مثل مبنى دار الاوبرا في «سدني». شيء جديد طريف. مثل طائر يطير بعدة اجنحة. الله اعلم. صحيح ان الانسان هنا يحس ان كل شيء ممكن. وانه يستطيع. مهما كانت ظروفه. ان يصل الى اقصى ما تمكنه قدراته. ربما. ولكنك تعلم من قراءة تاريخهم ان ذلك يحدث ضمن حدود معينة. وانهم ليسوا معصومين كلية من النقائص التي هي في طبع الانسان في كل مكان.

هذا البناء ليس كما يوحي اسمه. وفقاً على الاوبرا. فهو يضم مسارح وقاعات لعرض الافلام. وصلات لعرض الرسوم. وقاعات للموسيقى والباليه. تجولنا في انحنائه. وزاد عجبنا مما راينا داخله. وقد حذوونا. ان الفرق المسرحية والموسيقية وفرق الاوبرا والباليه. تجيء للعرض هنا من لندن وباريس وموسكو ونيويورك وستكهولم وغيرها. وان الدار تقدم نحو اثني عشر عرضاً متنوعاً كل يوم. وان اكثر من مليون ونصف متفرج يدخلون الدار في العام الواحد.

انه امر مدهش حقاً. ولكنني حدثت نفسي بعد ذلك. انني لو كنت احد افراد قبيلة الـ «ايورا» التي كانت تقطن «سدني» قبل مجيء الاوروبيين. وابدوها او كادوا. فانني لن اجد عزاء في كل هذا العالم الجميل. لن اجد عزاء عن «دروب الغناء» التي تقطعت. والديار التي عفت. وعن «زمن الحلم» الذي مضى الى غير رجعة ■

(الحديث بقية)

وجدنا في مستر «كامرون» انساناً متحضراً مستنيراً متواضعاً. ولو كان بخلاف ذلك لالتصمنا له العذر النجاس يغري بعض الناس بالخطورة والخيلاء. وهذا رجل مهم. في موقع مهم. في قطر ناجح. بل ان البناء الذي يجلس فيه. هو رمز من رموز الانجاز البشري في هذا الركن من الارض. ما اطول الطريق الذي سارته استراليا منذ ان افرغت سفن كسابتن «فيليب» حملتها من «المجرمين» في ذلك الصباح من عام ١٧٨٨. وكاننا تاريخ استراليا حتى هذه اللحظة هو بمثابة محاولة مستمرة للهروب من تلك البداية. لقد وصموا بانهم ينحدرون من اصلااب مجرمين. فظفروا يحاولون ان يفتنوا العالم بانهم لا يقلون تحضراً عن مراكز الحضارة العريقة في اوروبا.

مبنى دار الاوبرا الوطنية حيث نجلس الآن في مكتب مستر «كامرون» تحفة معمارية وعجيبة من عجائب الدنيا. يسعونها «عجيبة الدنيا الثامنة». وانها كذلك. مثل سفينة ذات اشعة عدة توشك ان تتطلق في البحر. واحياناً يبدو المبنى مثل طائر خرافي كثير الاجنحة على اهبة ان يثب في الهواء.

كان مستر «كامرون» فخوراً بذلك الانجاز. ولكنه لم يكن مزهواً به. ربما لانه كان يدرك الثمن الفادح الذي دفعه شعب الـ «ايوروبوجينيز» المسكين. كان فيما يبدو مهتماً اهتماماً عميقاً بذلك الجانب من تاريخ استراليا. ولعله تعتمد ان يفهمنا ان الموقع الذي اقيمت عليه دار الاوبرا «بنلونق بوييت». قد سُمي باسم رجل من الايوروبوجينيز. كان من اوائل من اتصلوا منهم بالاوربيين الوافدين. وسرعان ما اُلم باللغة الانجليزية المأما كافيًا مكنه من ان يقوم بمهمة المترجم بين البيض والايوروبوجينيز. سعدوا به فارسلوه الى انجلترا. كما ترسل الحيوانات النادرة. لينسل به الناس. وهناك قضى وقتاً جميلاً. اليسوه الثياب الاوربية. وكانوا يخضرونه في الحفلات يتفرجون عليه يرقص ويغني. لكنه لم يلبث ان مل كل ذلك. وثاب الى نفسه. واحس برغبة عظيمة للحاق بقومه. فعاد الى استراليا. وجد انه قد تغير ولم يعد يالف العيش مع قومه. فعاث في كوخ منزله بنوه له في ذلك الموضع. ولجا الى السكر والعريضة. ولم يلبث ان مات وحيداً تعيساً. كان «بنلونق» المسكين من اوائل الضحايا لما يُعرف الآن بـ «الصدمة الحضارية» وشهيداً من شهداء الغزو الثقافي الاوربي.

اكتبرت في مستر «كامرون» انه حكى لنا تلك القصة. حكاهها ببساطة. وكأنه اراد ان يكسر حدة دهشتنا بذلك الانجاز الكبير. كأنه اراد ان يقول. ان التقدم له ثمن. واحياناً يكون الثمن أعلى بكثير من التقدم الذي ينتج عنه.

اهل الحكمة والعلم والفكر في استراليا. بداوا يقولون الآن. ان التقدم المادي الذي تحقق. لا يبيّر الثمن الباهظ الذي دفع. بالقضاء على شعب الايوروبوجينيز وثقافته الفريدة. الا ان كل ذلك قد يبدو لك



بقلم الطبيب صالح

٧٩ نحو أفق بعيد

«يومين قالانا .. يومين قالانا .. وانت ما اسمك؟
قُبَا قُمبَالَن».

حمل الصدى نداء الفتاة والغنى من شاطئ الى شاطئ .. واخذ الشاطئان يناديان
«يومين قالانا .. قُبَا قُمبَالَن».

في اليوم الثالث دخل الغنى الماء وكأل قوة غامضة تشده . وسبح صوب الضفة الشمالية . والفتاة تجذبه اليها بوجهها العسلي واسنانها البيضاء وضحكاتها العذبة . وصل منتصف النهر . فسبحا مع التيار جنباً الى جنب حتى وصلا جزيرة صغيرة وسط النهر . بعيداً عن عين الرقيب .

اخذا يلتقيان كل يوم . واعطاهما الحب جراً . فكان الغنى يسبح احياناً الى الضفة الشمالية . والفتاة تسبح الى الضفة الجنوبية .

وازدادا جراً . فلم يعودا يكثران ان الفتاة مبهورة لغنى من قبيلتها . والغنى ملتزم لفتاة من قبيلته . وفرز عزمهما على الفرار سراً الى التلال البعيدة .

ثم . كما كان مقدراً ان يحدث . كشف الرقيب سرهما . فاسرعوا يخبرون حكماء القبيلتين .

ادرك هؤلاء لاول وهلة . انهم اذا لم يتداركوا الامر . فان كارثة سوف تحدث . سينهار السلم الذي اظلمهم زمناً طويلاً . وسوف تشتب الحرب . ويعودون الى ما كانوا عليه من خصام وشقاق .

اجتمع حكماء الشمال وحكماء الجنوب وتفاكروا في الامر . قل احداهم علو الخاطر . دون ان يمعن النظر :

«ارى ان ندعهما ينجوا بنفسيهما . ماذا يضيرنا من ذلك ؟ ونعود الى ما كنا عليه .

لكن رايه لم يجد قبولا .

واشار حكيم منهم . لعله كان ابعد نظراً مما ينبغي . ان يقبلوا بالامر الحاصل . ويزوجوهما . فربما يكون ذلك بداية عهد جديد من التعايش السلمي بين القبيلتين .

ايضا هذا الرأي لم يجد استحساناً . ونظر الحكماء الى قائله كأنه مجنون .

واخيراً وصلوا الى حل راوا انه الحل الحاسم . اجمعوا رايهم على قتل الغنى والفتاة العاشقين . وبذلك يقضون على الفتنة في مهدها . وتكون دماء العاشقين ثمناً زهيداً لدوام السلم بين القبيلتين .

في ليلة كثيفة الظلام . تسلل قُبَا قُمبَالَن . من الضفة الجنوبية . ودخلت «يومين قالانا» من الضفة الشمالية . سبح كل منهما تجاه الآخر . والتقيا في منتصف النهر . كانا يتويان السباحة اسفل النهر . ثم ينطلقان نحو التلال البعيدة . لم يكدا يلتقيان حتى انهالت عليهما الرياح من الضفتين . اخذا يسبحان والدماء تفرز من جسديهما حتى وصلا الجزيرة . هناك اسلم كل منهما روحه .

تقول الاسطورة ان غابة اليوم الكثيفة التي نمت في تلك البقعة من النهر . هي الرياح التي أُرِدَّت الحبيبين . وان دماءهما صبغت مياه النهر حتى وصلت الى الصخور في ذلك الموضع . فهي حمراء الى اليوم . وان الضفادع على الضفتين ظلت تبتكي عليهما الى يومنا هذا . تنادي ضفادع الضفة الجنوبية بكية «قُبَا قُمبَالَن» فتجيبها ضفادع الضفة الشمالية «يومين قالانا» ■

(للمحديث بقية)

يروي الـ «ابوروجينيز» في اساطيرهم . ان نهر «مورفينجي» . وهو احد نهريين تقوم عليهما مدينة «كانبر» اليوم . كان في زمن مضى . هذا فاصلاً بين قبيلتين . طال بينهما الخصام والنزاع . ثم اجتمع الحكماء من الجانبين . حكماء القبيلة التي تسكن الضفة الجنوبية من النهر . وحكماء القبيلة التي تسكن الضفة الشمالية من النهر . تفاكروا في امورهم وما صارت اليه احوالهم . وقدروا ان السلم خير من الحرب . والوثام خير من الخصام . وان في الارض على غدوتي النهر . متسعاً لهم جميعاً .

بدا لهم ان الخصام والنزاع . انما يشجبران بسبب الاختلاط والمعاملات . يشتم سفيه من سفهاء القبيلة الشمالية سفيهاً من سفهاء القبيلة الجنوبية . وهذا يضر به . فتشتعل النار . وربما يلاحق صياد جشيع . سمكة اعجبته الى الضفة الاخرى . فيرميه واحد من هناك بسهم . وقد يعبر فتية نزفون النهر ليلاً الى الضفة الشمالية . لانهم راوا كواراً عسل معلقة في شجرة «يوكالبنتس» فاغراهم المنظر . فيعرض سبيلهم فتيان من الضفة الشمالية . وكل قبيلة ملتزمة بحماية ابنائها . ولو كانوا سفهاء . فاذا هي الحرب . واذا هو القتل والجرح والضرب . وقد تدوم الحرب اشهرًا وقد تدوم اعواماً .

راى حكماء القبيلتين . ان ذلك حق لا يجوز . وضلال ما بعده ضلال . وقدر رايهم على ان يضعوا حداً لاسباب الخصام . بان تلتزم كل قبيلة حدها وراء النهر . كل قبيلة تعيش في ارضها مستقلة عن القبيلة الاخرى . لا تلتقيان الا في المواسم الكبرى مع بقية القبائل .

اخذوا العهود والمواثيق . والتزمت كل قبيلة بما عاهدت عليه . فانقطع دابر الشقاق . وحل السلم . وطاب العيش . كل في ارضه . وسعد الحكماء على غدوتي النهر .

مضى ربح من الزمن . ثم ذات صباح جميل . من هذه الاصباح التي تغري بالغامرة وتجرواها الشقاء . راى فتى محارب مزهو بنفسه . من القبيلة الجنوبية . فتاة من القبيلة الشمالية تسبح وحدها في النهر . كانت هي الاخرى مزهوة بشبابها سعيدة بالشمس والمياه الصافية . وخضرة الغابات . ونداءات الطيور من غصن الى غصن . فكانت تضحك وحدها كأنها للا شيء . تغطس ثم تطفو . وتسبح مسافة ثم تسلق على ظهرها تنظر الى السماء . وصدرها العاري يلعب في الضوء ويختفي ويبين كأنما من فرجات غيم خفيف .

وقف الفتى ينظر اليها كالماخوذ . ثم ضحك هو ايضا . اخذ يضحك ويلوح برمحه . فلوحت له بيدها .

في اليوم الثاني نداها :
«ما اسمك؟»

نادته وهي تقترب من منتصف النهر . واسنانها مثل حبات اللؤلؤ تلمع في ضوء الشمس . في وجه مثل العسل المجنى من شجر الكافور .



بقلم الطيب صالح

٨٠ نحو أفق بعيد

واخيراً حتى الحكماء يشوس من سماع الصوت. فكروا طويلاً في مغزى ما حدث، ثم اهتموا الى ان قوى شريرة لم يحسبوا حسابها، تسببت الى افئدة الناس، وبانت توسوس لهم. استجاب لها الشباب اول الامر، ثم تبعهم غالبية القبيلة. كان شعور قد نما لدى الناس، بالضيق من نفوذ الصوت القديم. ونمت لديهم، والحكماء لا يعلمون، الرغبة في الانطلاق، والحياة بعيداً عن اوامر الصوت ونواهيها. وبالفعل، بدت لهم حياتهم الجديدة اول الامر، افضل مما كانت. اصبح كل انسان على هواه يفعل ما يحلو له، لا يزعجه ذلك الصوت بحدوده وقيوده. وكان الحكماء يراقبون ما يجري، وينتظرون وفوق الكارثة.

مضى زمن على تلك الحال والناس سادرون في لهوهم. لاحظ الحكماء ان اصوات الناس اصبحت تحدث في الكلام، وان الصغار لم يعودوا يكثرثون لنصح الكبار، وان الطفوس القبلية فقدت بهجتها، وان القوي لم يعد يساعد الضعيف، وان القبيلة بدأت تتفكك واصبح كل شخص قائماً بذاته. واخيراً حدث ما خشيه الحكماء، تشاجر شبان، فقتل احدهما الآخر.

لم يحدث طوال تاريخهم ان اعتدى فرد من افراد القبيلة على آخر. احسوا بكابة لم يعرفوها من قبل. وساورهم الخوف، كان مياه النهر قد فاضت، وان الجبال قد ارتجت وتفتتت، وكان حريقاً هائلاً قد اشتعل في الغابات. وانتهبوا فجأة ان صفراً رهيباً قد نزل على العالم. سكنت الريح، واستقر الماء على حالة واحدة، وصممت الطيور والضفادع والحشرات، ولم يعودوا يسمعون حساً لوحوش الغاب، وبنت لهم الاشجار مغبرة كدرة، كأن قد ران عليها عابر قرون. احسوا بالحيرة والضياغ.

قام الحكماء، ومشوا حزاني مثقلي الخطى، وجلسوا عند جذع الشجرة. لم يجدوا شيئاً آخر يفعلونه. ورويدا رويداً اخذ الناس يلحقون بهم. واحداً واحداً. واثنين اثنين. وجماعات جماعات. الى ان جاءت القبيلة عن بكرة ابيها، وتحلقوا حول جذع الشجرة.

تكثف صمتهم ورفقت مشاعرهم وتجمعت هواجسهم فكانهم سمك في شبكة محكمة الشج. ولما مالت الشمس للغروب وكانت تختفي وراء الافق، وبلغت اشجاشهم اقصى مداها، فجأة سمعوا الصوت.

تحدث اليهم كما كان يفعل من قديم. حدثهم عن اشياء يعرفونها واشياء جهلونها، اشياء عن حياتهم الآن، واشياء مبهمة عن امس الامس وغد الغد. وجدوا لكلماته حلاوة اكثر مما عرفوه من قبل، فاستمعوا اليه وهم يبتكون.

ولما فرغ الصوت، تربث حتى هذا العويل وكفت الدموع. ثم قال لهم انهم لن يسمعوه بعد يومهم ذاك، ولكنهم سوف يجدونه ان احتاجوا اليه، وسوف يعطيهم إشارة فليفهموا جيداً مغزاها، واذا التبس عليهم الامر فليسالوا الحكماء.

انشق جذع الشجرة في دوي مثل قصف الرعد، وخرج من الجذع عمود من الضوء الساطع، صعد ونطابير اشعة كثيرة. بعضها سقط في مياه النهر، وبعضها غاب في التلال، وبعضها تنانير في الغابات، وبعضها توارى في الكهوف وبعض الاشعة انست في اجساد الحكماء.

(للحديث بقية)

في اساطير اله انوروجينز: من جنوب استراليا، ان جد القبيلة الاول، كان يخاطبهم كل صباح من جذع شجرة صمغ. يجيء افراد القبيلة عن بكرة ابيهم كل صباح، ويجلسون في حلقة حول جذع الشجرة. ينتظر الصوت حتى يكتمل العدد، وإذا غاب احد منهم، يحتجب، فلم يكن يتخلف احد منهم. حتى الرجال المسنون، حتى النساء اللاتي اقبلن الكبر، حتى الاطفال الرضع يجيئون على صدور امهاتهم.

يجلسون صامتين ينتظرون ان يخرج اليهم الصوت من جذع الشجرة. احياناً يطول انتظارهم و احياناً يقصر. تعمق صمتهم

وترهف احاسيسهم، فاذا بالهواجس والمخاوف والاحلام والامال لكل واحد منهم، كأنها هاجس واحد وخوف واحد وحلم واحد لهم جميعاً. حينئذ يخرج الصوت من جذع الشجرة. يحدثهم عن اشياء يعرفونها واشياء لا يعرفونها، اشياء تتصل بسير حياتهم اليومي، واخرى ترتبط بامور مبهمة من ماضيهم ومستقبلهم.

ويحسبون وقعه بطرائق شتى. يجد الرجل البهجة، كأنه غطس في ماء النهر اول الصباح. ويحس بالخوف، كأن فهداً باغته في الغاب. ويجد اللذة، مثلما يجد حين يتنفس رائحة الشواء من لحم ارنب بري. ويجد الطمانينة، كأنه في كوخه آخر المساء، وقد سكنت الحياة، وعنده زوجته واطفاله. وتستمع المرأة الى الصوت وطفلها يرضع من ثديها، فتشعلها متعة غامضة لا تدري من اين تأتي، هل من فم الطفل ام من جذع الشجرة. وقد يحس الواحد منهم، انه بشر عميقة العور وان الصوت يخرج من تلك البئر.

وحين ينفضون، يجدون ان الاشياء قد اعتدلت واعتدلت اوضاعها الصحيحة. الكدر الذي علق بالحياة، كما يعلق الغبار باوراق الشجر، فجأة يختفي كما تغتسل الاشجار بماء المطر، فاذا العالم كأنه ولد لتوه. الخلاقات التي قد تكون شجرت بينهم تبدو خفيفة مثل اجنحة الفراش، والحد يدوب وينبت محله شعور حلو المذاق بالود والانتماء الكلي. يضحكون لأوهى سبب ودون سبب، ويجدون رغبة للغناء والرقص، ويتذكرون اشياء تجلب السعادة، كانوا قد نسوها. وكذلك يمضي بهم اليوم.

مضت حياتهم هكذا ربحاً، لا تتعكر حتى تصفو ولا تضيق حتى تتسع. وذات صباح جاعوا كعادتهم الى جذع الشجرة، ولبنوا ينتظرون ان يخرج اليهم الصوت. لا شيء. ادركوا بعد مدة ان عدهم لم يكتمل، وتفقروا انفسهم فوجدوا ان شاباً منهم لم يحضر. بحثوا عنه فلم يعثروا عليه. طال انتظارهم ولا صوت، ولما يشوسا تفرقوا وهم يحسبون حزن عظيم. وكان اكثرهم حزناً الحكماء، فقد ادركوا ان كارثة سوف تحل بالقبيلة.

في اليوم الثاني تخلف آخرون، وفي اليوم الثالث زاد عدد المتخلفين. وكان الحكماء يجيئون كل صباح ومن بقي معهم من الناس، ويجلسون اليود بطوله على أمل ان يخرج لهم صوت ابيهم من جذع الشجرة، ولا صوت، فيبصرفون اكثر خوفاً وكابة.



بقلم الطبيب صالح

الأساطير

٨١ نحو أفق بعيد

«فرائقاتش» الأسطوري ، الذي نصفه من السمك ونصفه من الكواسر

قال الحكماء ان شراً مستطيراً قد وقع ، حملته اليهم ارواح خبيثة كانت قبل سجنينة في الجبال البعيدة . قالوا لا بد ان شخصاً ما قد تعدى على حرمة من حرمت «القدماء» فخرجت تلك القوى الشريرة من محابسها ، وجاءت تنشر الرعب والخراب على الارض .

حضر الحكماء من القبيلتين الى الكهوف ، واعادوا طلاء التصاوير ، لعل ارواح اسلافهم ترضى . سارعوا الى مزارات القدماء ، وانشدوا لهم الاناشيد المقدسة . ذبحوا القرابين واقاموا شعائر الطقوس . ولا فائدة

جف الماء في الوادي ، وكان من قبل يوصلهم من العام الى العام بيس العشب وتعتري فروع الشجر ، وهاجرت الوحوش . كفت الطيور عن الغناء ، واختلت الضفادع الى الصمت . ثم اخذت الحرائق تشتعل في العشب اليابس والغابات كأنما بفعل قوى شيطانية

ولحاجة اندلعت نار الحرب بين القبيلتين ، الامر الذي لم يحدث ابدًا طوال تاريخهم .

اجتمع حكماء القبيلتين عليهم يردون الناس الى صوابهم . ولا فائدة ، ففي اوقات الجنون لا تجدي الحكمة . ولما يشعروا ان ينزحوا عن تلك الارض الملعونة ، ويذهبوا الى الجبال البعيدة ، يتوسلون الى ارواح اسلافهم عليها تعيد المياه الى مجاريها

تحاربت القبيلتان الشقيقتان بشراسة من فقد حكماءه ، ولم يعد يستطيع ان يميز راسه عن قدميه .

تحاربوا طويلاً حتى استنفدوا كل اسلحتهم ، ولم يجدوا غير الصخور والحجارة ، رمى احدهم حجراً فاحد يصعد في السماء ويكبر

توقفت الحرب ورفع الناس وجوههم الى السماء . كانت تلك اول مرة منذ زمن طويل ، فقد كانوا مشغولين بقتل بعضهم بعضاً ، وكانت عيونهم معلقة بالارض

نظروا الى الصخرة تعلو وتتضخم حتى صارت شبيهاً مهولاً ملا اقطار السماء ، وحجب ضوء الشمس . ثم نظروا لفاذا بالصخرة تنشق في جلجلة عظيمة عن شيء مثل العقيق الاحمر .

تقول الاسطورة ، ان حجر العقيق حين نظر من ذلك الغلو الى ساحة الحرب ، ورأى جثث القتلى ، ورأى الخراب والدمار ، بكى . سبغ دموعاً غزيراً مثل وابل المطر ، ملأت الوادي وبللت الارض . ولما كفت دموع السماء ، ظهر قوس قزح

صار الابوروجينز بعد ذلك كلما راوا قوس قزح يظهر في السماء يقولون ان جرماً عظيماً قد وقع على الارض ، وان احداً ما قد تعدى على عرف من الاعراف القديمة ، فالسماء تبكي لاجل ذلك

عاشت قبيلتان من قبائل الـ «ابوروجينز» في الماضي البعيد جيباً الى جيب في سلام وصفاء . كانتا تنتميان الى اصل «طوطمي» واحد . يرتفع بهما الى جد واحد جسمهما اعراف مشتركة وسعاير وطقوس الت اليهم من «زمن الحلم» . كانت تشب بين القبيلتين نزاعات صغيرة ، كما يحدث لكل الاقوام . ولكن حكماءهم ، كانوا سرعان ما يجتمعون ، ويتدارسون الامر بروية . ويتذكرون الاعراف القديمة والمواثيق التي توارثوها عن اسلافهم الاولين ، حبلاً بعد جيل . كانوا كلما حدث فتق في ثوب



بقلم الطبيب صالح

حياتهم يقولون ان تصاوير اسلافهم في الكهوف تناديهم ان يعيدوا طلاءها . يذهب حكماء القبيلتين جماعة ، ويتعاونون على طلاء لتصاوير ، حسب الاساليب القديمة التي توارثت اليهم ، فتستقر ارواح اسلافهم في مراقدها ، وتجلو الارواح الشريرة عن سماتهم وارضهم . وتعود حياتهم الى ما كانت عليه .

واحياناً يُخيل لهم ، ان امزجة الناس قد تعكرت ، وارواحهم قد تكثرت . لان جذاً من اجدادهم الاولين قد احس بالوحشة ، فبنهض حكماء القبيلتين ، وهم أبناء عمومة ، ويجلسون عند مرقد جدهم ، يغنون له الاغاني العتيقة ويتوسلون بالطقوس المقدسة لديهم ، فلا يبرحون حتى تكون روح ابيهم قد اطمأنت في مثابها ، فتسكن حياتهم هم ايضاً

كانت الحرب حراماً عليهم ، وكان قتل ذوي الارحام عندهم ، كان السماء قد وقعت على الارض

هكذا سارت بهم الحياة حقياً ، على اطراف واد واسع ، في ارض بين الجذب والخصب . تمطر السماء فيها ولكن بمقدار

حين تمطر السماء ، يمتلئ الوادي بالماء ، ويصير كأنه بحيرة ممتدة . حينئذ تطيب الحياة للناس من القبيلتين ، يشربون وتشرب الحيوانات والوحوش ، يكثر الصيد . وتخضر اشجار الصمغ وتخضر غابات البوص . ينتشر الفراش في السماء مثل غيم رقيق مختلف الالوان ، ويهدل الحمام ، وتضخض الضفادع ، وتخرج السلاحف والسحالي من مكانها .

يبدو لهم حينئذ ان ارواح اسلافهم قد هنتت ، وان ارواح الشر قد ابتعدت عن افقهم . وان السماء قد تصالحت مع الارض . هذا هو الوقت الذي يتجمهر فيه الناس في موسم حافل ، يتناشدون الانشعار ، ويصفون الى روايتهم يحركون اشجانهم بالاساطير القديمة

حتى كان ذات عام ، نظروا الى السحاب يتراكم في الافاق في مواعيد المعلوم . احسوا بالفرح يتحرك في صدورهم وايقنوا انه الغيث . لكن السماء لم تف بالوعد ، وكان ايدي خفية بعثرت ذلك السحاب . وكذلك في الايام التالية . يتجمع السحاب وينقل حتى يكاد يسقط على الارض ، ثم فجأة يتبدد كما يتفزع الطيف . ثم صفت السماء تماماً ، واصبحت الشمس تصب نيرانها على الارض يوماً بعد يوم ، مثل عين

٨٢ نحو أفق بعيد

وكانت، كلما اقترب منها تركله أو تنشب اظافرها في وجهه. عاد «بوبيادي» من سفره، وعلم بما حدث. تالم الما عظيما لفعله اخيه، ومن فورده، انطلق يبحث عنه. وقف الاخوان وجها لوجه، على صخرة عالية، وتحتها الشاطئ وهدير أمواج البحر.

نظر «بوبيادي» طويلا في وجه اخيه وأحس بالحزن حتى امتلات عيناه بالدموع، لم يكن الشخص الذي يقف امامه هو اخاه الذي عرفه واحبه. عبرت برأس «بوبيادي» ذكريات حياتهما معا في ايام الطفولة والشباب، حين كانا مثل شخص واحد، لا يفترقان، يسبحان في البحر، ويتنافسان في رمي الرمح واليومرانيح، ويصيدان السمك والفراخ، والأرانب البرية. رأى «بوبيادي» شخصا مختلفا مكفهر الوجه، جاحظ العينين كأنه مجنون، أو كأنه روح من تلك الأرواح الشريرة التي تحكي عنها أساطير القبيلة. وفجأة سمع «بوبيادي» صوت زوجته ياتيه كأنما من كهف، تستغيث وتنادي باسمه، فتوتر جسمه وفار الغيظ في صدره.

اندفع الاخوان احدهما نحو الآخر، وكل واحد منهما مصمم على قتل الآخر. تعاركا بشراسة على الربوة العالية، وكانا في شغل عن البحر فلم يسمعا هدير الموج تحت اقدامهما. وسمعت المرأة عراك الاخوين بسببها، فسكنت وارهفت السمع.

كان «غردانق» قويا، فقاوم مقاومة عنيفة، وكاد احبانا ان ينتصر على اخيه. ولكن «بوبيادي» كان اقوى منه، وضاعف من قوته انه كان مظلوما، وان اعراف القبيلة وارواح الاسلاف كانت تقف الى جانبه وتقاتل معه. تمكن من اخيه وطرحه ارضا واراد ان يهشم رأسه بصخرة كبيرة. ولكن جسمه لم يطاوعه. قوة ما شلت ذراعه واسقطت الحجر من يده.

ادار ظهره لآخيه، وقد عزم على ان يأخذ زوجته ويذهب. احس بغثة بسلاح اليومرانيح، ينغرز بين كتفيه. ترنح وسقط اسفل الربوة على شاطئ البحر والرمح في يده. قفز «غردانق» اثره فاذا بالرمح المشرع ينغرس في بطنه وينفذ من ظهره. حينئذ جاء البحر وحمل جثتي الاخوين الى جوفه.

تحول اليومرانيح، المغروس في كتف «بوبيادي» زعنفة في ظهر سمك القرش، وصار «بوبيادي» سمك قرش، كلما رأى انسانا، يظنه «غردانق» فينقض عليه. وتحول نصل الرمح في ظهر «غردانق» الى ذنب عقرب البحر، واصبح «غردانق» عقرب بحر يظن كل انسان هو «بوبيادي» فيلدغه.

(الحدث بقية)

يروى الـ «أبوروجنيز» في أساطيرهم قصة مأساوية عن نشأة سمك القرش، وعقرب البحر التي لا نجاة من لدغتها، وكان سبب المأساة امرأة.

تقول الأسطورة ان اخوين كانا يحب احدهما الآخر حبا جما، تجدهما دائما متلازمين، لا يفترقان ابدا. كانا وسيمين قوين، تراهما القبيلة زينة شبابها. كان «بوبيادي» اكبر الاخوين، اسرع شبان القبيلة في العدو، وارضاهم بالرمح. وكان الاصغر «غردانق» اكثرهم

مهاراة في السباحة واحسنهم في رمي اليومرانيح. كانا يقضيان سحابة يومهما معا، يصطادان السمك او ينصبان الشراك للطير والوحش. ويتنافسان في العدو ورمي الرمح واليومرانيح.

وفجأة وقع الاخ الأكبر «بوبيادي» في غرام فتاة من فتيات القبيلة. كان اخوه على غير علم منه، يحبها ايضا. الا ان الفتاة استجابت لحب «بوبيادي» وبادلته حبا بحب. شعر «غردانق» بخيبة الامل، وزاد من احساسه بالمراة ان اخاه لم يعد يقضي معه كل وقته، كما كان، بل اصبح يؤثر صحبة حبيبته.

كان «بوبيادي» دمث الخلق، ضحوكا بطبعه، الا ان حبه لتلك الفتاة اعطاه سعادة غامرة، جعلته يبدو في نظر اخيه شخصا مختلفا. وبقدر ما كان «بوبيادي» يزداد سعادة كان «غردانق» يزداد تعاسة. ولما تزوج «بوبيادي» حبيبته، تحولت مراة «غردانق» الى حقد امتلا به قلبه، وملك كل احساسه. اصبح اخوه الذي كان يحبه حبا جما حتى الامس القريب، عدوا بغیضا لن يتردد في قتله اذا عثت له فرصة.

اصبح يتودد، وراء ظهر اخيه، الى الزوجة، وهي تصد، فقد كانت تحب «بوبيادي» بحق. وكان «غردانق» يزداد حبا لها رغم ذلك، حتى صارت عاطفته هوسا لا يفارقه.

وذات يوم انتهز الاخ الاصغر فرصة غياب اخيه في سفر، فانتظر حتى جاء الليل، فأخذ الزوجة قسرا وهرب بها الى مكان بعيد على شاطئ البحر.

ظن «غردانق» انه قد حقق حلمه، وانه سوف يعيش سعيدا مع حبيبته، يصيدان السمك، ويسبحان في البحر، وينصبان الشراك للطير، ويبنيان عشا هائلا بعيدا عن القبيلة. ولكن سرعان ما خاب ظنه، فقد كانت المرأة تحب زوجها بحق، فكانت تقضي كل وقتها في البكاء والعيول.



بقلم الطبيب صالح

٨٢ نحو أفق بعيد

سارا جنباً الى جنب، وكان «كاركان» عابسا ينهش قلبه الحقد، وأحياناً يحس بالخوف، فقد كان الأمر الذي عزم عليه مخالفاً لكل أعراف القبيلة.

لحظ «ونجو» تعاسة أخيه، فلم يفهم سببها، ولكنه حاول أن يسري عنه، فأخذ يمارحه ويضحك له. ثم راح يغني بصوته الجميل، فارتفعت له الطيور على أغصان الشجر، وهبطت الفراشات على الصخور وتلال النمل تستمع إليه.

فجأة كف «كاركان» عن المشي، وقال لأخيه بصوت غريب لشدة غلاظته:

«لنعد الى الحي. لا يبدو أننا سنجد صيدا حسنا اليوم». الا ان «ونجو» بدأ يستطيب الرحلة، وأسعده وقع غناؤه على الطيور والأشجار والصخور، وتفتحت روحه لفوح عطر الزهور، ونداء الحيوانات في الغاب، فأخذ يخط ويجري ويصرخ ويغني. لذلك لم يسمع صوت أخيه وهو يناديه من بعد:

«لنعد الى الحي. سوف نجيء في يوم آخر». وصلا الى المكان حيث اعد «كاركان» الشوك. احس فجأة ان الوسائس التي خامرت في الطريق لتمنعه من قتل أخيه قد ذهبت. امتلا قلبه بالحقد من جديد، واستقر عزمه على القتل.

قال لـ «ونجو»:

«إذا رايت العشب يرتعش، فإنه صيد. عليك ان تجري بكل قوتك وتقفز عليه وتمسك به. الى ان الحق بك». ثم حرك حبلاً طويلاً كان قد ربطه، فاهتز العشب. صرخ «ونجو» صرخة القبيلة حين تهجم على صيد، ونط في الهواء بكل قوته، ووقع في الحفرة، فانغrust الاوتار الحادة في جسمه.

تحولت صرخة النشوة الى صرخة مدوية بالآلم، اقشعر لها جسد «كاركان» فجري دون وعي نحو الحفرة. تعثرت قدمه بصخور فتطاير منها الشرر، ووقع فارتطم راسه بصخرة حادة فتشتم ومات في الحال.

اما «ونجو» فإنه لم يمت من فوره، ولكنه ظل اباما ينهش الارض ويحبو والدم ينزف من جسده، فكان من ذلك واد عميق، امتلا بالدم.

سرت النار من الشرر المتطاير من الحجارة، في مساحة واسعة، اتت على كل ما فيها، وحولته الى رماد. من ذلك الرماد خرج طائر أشهب مثل الصقر، ظل يحوم فوق تلك البقعة.

تقول الاسطورة ان الوادي الذي حفره «ونجو» بجسده هو «وادي الدم» المرعب، وان الطين الاحمر المقدس الذي يصبغون به اجسادهم لتأدية الطقوس، اصطبغ بالدماء التي نزلت من جسد «ونجو». وتضيف الاسطورة ان الصقر الأشهب الذي يلازم ذلك الموضع، ويظل يحوم فوقه، وبين كل حين وآخر يصرخ صرخة ترتجف لها القلوب، انما هو روح «كاركان» الذي يبكي على أخيه «ونجو» ابد الدهر.

(للحديث بقية)

في الزمان البعيد، حين كانت اساطير الهابوروجينز، ماتزال في طور التكوين، عاش أخوان، احدهما يدعى «كاركان» والثاني يدعى «ونجو».

كان «كاركان» عظيم الجسم، تعطيه قوته الجسدية جسارة وهيبة. كانوا يشبهونه بالسبع في قوته وبالنمر في رشاقة حركته، وبالثعلب في دهائه، وبالنعام في سرعة عدوه، لم يكن له ند

من بين فتيان القبيلة في الشراسة في القتال، والمهارة في استعمال الدبومراتج، ورمي الرمح. كان بلا منازع، فارسهم المعلم، وحامي حماهم.

الا ان القبيلة رغم اعجابها به، فأنها لم تكن تحبه. فقد كان متغطرساً متهوراً سريع الغضب خشن الطبع. ولم يكن يكثرث لنصح حكماء القبيلة، وقد جرهم بنزقه وحمقه الى صراعات مع جيرانهم لم يكن لهم يد فيها. لذلك لم يكونوا يحبونه، وكانوا يؤثرون عليه اخاه الاصغر «ونجو».

كان هذا على النقيض من «كاركان» دمث الطبع، سمح النفس، دائم المرح. وكان صغير الحجم بالقياس الى أخيه، لا يميل الى النزاع والشجار، ولكنه يفضل السباحة في النهر، والسياسة في الغاب ينظر الى أجنحة الفراش باللوانها العجيبة. ويقلد اصوات الطيور والوحوش، ويجني العسل والتفاح البري، كان له صوت عذب، حين يغني به في العشيات، تجتمع حوله القبيلة رجالاً ونساء يصغون إليه.

هذا الحب كان يغيب «كاركان» ويوغر صدره على أخيه. ليس هذا فحسب، ولكن «ميرومورا» زينة فتيات القبيلة، فضلت هي الأخرى «ونجو» على «كاركان». كان «كاركان» يظن انه امر طبيعي ان تختاره هو، ولكن «ميرومورا» الجميلة احب «ونجو» لرقه طبعه وجمال صوته، ولطف معشره. كان «كاركان» الشرس يبت في نفسها الانقباض، والخوف، الا انها كانت تجد الراحة والطمأنينة في صحبة «ونجو».

باركت القبيلة هذا الاختيار، وفرحت به، واخذت تستعد للعرس.

شعر «كاركان» بالآهانة والغيب حتى امتلا قلبه بالحقد على أخيه وعزم على ان يتحاييل على قتله.

في مكان بعيد عن الحي، وسط غابة كثيفة من نبات البوص والعشب، حفر «كاركان» حفرة كبيرة، وغرس فيها اوتارا كان قد برى اطرافها فصارت حادة مثل أسنة الرماح. وغطاها بالعشب. ثم تحاييل على أخيه وأوهمه ان الصيد يكثر في تلك البقعة، فخرج معه.



بقلم الطبيب صالح

٨٤ نحو أفق بعيد

فعلى الاثينيين ان يتوقعوا ضياع نفوذهم بالانسيباق وراء عواطف الرجحة نحو اناس لن يرحموا الاثينيين اذا انتصروا عليهم.

تغلب رأى المعتدلين في هذه الحالة، ولكن حتى هذا لم يمنع الاثينيين من قتل ألف رجل بدلا من الستة آلاف الذين قتلهم بادية الامر.

بعد ان فتكت «اثينا» بمدينة «متلين» وجعلتها مثالا، رأى الاثينيون باغراء من «كليون» أنهم يستطيعون ضربة لازمة ان يرفعوا عن كاهلهم ضريبة الحرب التي ارهقتهم، بمضاعفة «الجزية» التي فرضوها على المدن الخاضعة لسلطانهم، بمقتضى المعاهدات المبرمة بينهم وبين تلك المدن.

اعلست الزيادة عام ٤٢٥ ق.م، وارسلت طلبات الدفع الى كل المدن، ولم يستتبوا مدينة «ميلوس» المستقلة التي لم تدخل في ظل نفوذ «اثينا» ولم تربطها بها اية معاهدة. وقد رفضت «ميلوس» ان تدفع، فانتظر الاثينيون حتى عام ٤١٦ ق.م، حين احسوا بانهم يملكون القوة العسكرية الكفيلة لاجبارها على الانصياع. حينئذ جردوا حملة الى «ميلوس» وارسلوا معها طلب الدفع باثر رجعي. ويقول المؤرخ اليوناني «ثيوسايبديس» ان سفراء «اثينا» كانوا صريحين كل الصراحة مع اهل «ميلوس» فقالوا لهم:

«لن نضيع وقتكم في الاستماع الى حجج مزيفة نبر بها مطالبنا. لن نقول لكم اننا نستحق الزعامة والنفوذ لاننا حاربنا الفرس نصابة عنكم وطردناهم عن ارض «هيلاس». ولن نتظاهر باننا ننتقم منكم بسبب اي نهب ارتكبتموه ضدا. انتم تعلمون كما نعلم نحن ان طبيعة الأشياء تقضي بان تكون «الحقوق» امرا لا ينطبق الا بين اطراف متعابلة في ميزان القوة. القوي حر في ان يفعل ما يمكنه قوته من فعله، والضعيف يدعون ويعاني كما تحتم عليه طبيعة ضعفه».

لم يفتنع اهل «ميلوس» بهذا المنطق، وقرروا الا يرضخوا لحظائهم، وقالوا للاثينيين ان الالهة التي تؤيد الحق سوف تؤيدهم وتصرهم، فاجابهم الاثينيون بصراحة تامة ايضا:

«حين نتحدثون عن تأييد الالهة، فلعلها تنظر اليها نحن ايضا بعين الرضى، ان انا اهدأنا وسلوكنا لا تتعارض بوجه من الوجوه مع ما نعتقد ان الالهة ترضى عنه ومع ما يفعله الناس بعضهم ازاء بعض. فحسب ما وصل اليه علمنا عن الالهة التي نؤمن بها، والرجال الذين تعاملنا معهم وخبرناهم، فان الدول بمقتضى القوامين التي تحكم سلوكها، يحق لها ان تسيطر نفوذها الى اقصى ما تسمح به قدرتها. وما نحن اول من ابتكر هذا القانون، ولا نحن اول من عمل بمقتضاه. لقد وجدناه في الدنيا حين جننا، وسوف نتركه لمن يجيء بعدنا. كل ما فعلناه اننا استغفنا منه، ولا يخامرنا ادنى شك انكم او غيركم لو كنتم تملكون مثل ما نملك من قوة لفعلتم مثل ما نفعل. واما فيما يتعلق بالالهة فنحن مطمئنون تماما من ناحيتها».

قاومت مدينة «ميلوس» بضعة اشهر، ثم استسلمت، فذبح الاثينيون كل الرجال الذين بلغوا سن الرشد، واخذوا النساء والاطفال سبايا، وباعوهم في اسواق الرقيق. ولكن السماء لم تغض الطرف عن الظلم الذي حاق بمدينة «ميلوس» ولم تغفر لاثينا غرورها وجبروتها، فبعد ستة اشهر من هذا التاريخ ارسلت «اثينا» حملة ضخمة لغزو جزيرة صقلية، فميت بهزيمة نكراء. ولم يحل عام ٤١٢ ق.م حتى كانت كل الشعوب الخاضعة لاثينا قد تارت عليها ورفعت السلاح في وجهها ■

حين تدلهم الخطوب، اتعزى بعد كتاب الله الكريم، وسيرة الرسول الامين، اعظم من اظلمته السماء، واقلته الغبراء، اتعزى بشعر العرب، ولو شئت لسقت شعرا كثيرا يصلح لهذه الايام، ولكن حسبي ذلك البيت من شعر «الاستاذ» الذي لا امل من ترديده: من راحا بعينها شافه القطان فيها كما تبوق الحمول

قال العكبري، قال ابو الفتح: «اي من عرف الدنيا حق معرفتها تبين ان اهلها راحلون لا محالة، فلم يجد بين القاطن والراجل فرقا، فهذا يشوقه وهذا يشوقه، لان الرحيل قد شملهما. والمعنى: من رأى الدنيا بعينها وتوسمها بحقيقتها، شافه القاطن فيها لقله مقامه، كما يشوقه الظاعن عنها لسرعة زوالها....»



بقلم الطبيب صالح

واضيف، غفر الله لي، ان ايا الطبيب، اراد ايضا ان يضع حياة الانسان القصيرة في سياق الابد، لعل الانسان يدرك لو يستطيع، كم هي عابرة حياته، وكم هي تافهة مساعيه وطموحاته. والانسان، لانه ظنوم جهول، قد يزين له غروره ان عمره القصير هو الابد، وانه مخلد في الارض، وان لا احد قبله ولا احد بعده. ينسى ان اناسا اثر اناس جاءوا قبلنا واحسنوا واساموا، ثم رحلوا. وسوف يجيء بعيننا اناس قد يرون ما نحسبه نحن صوابا، انه عين الخطل وغاية الحمق.

كذلك اجد العزاء في كتب التاريخ، وقد اعارني منذ ايام صديقي الدكتور محمد ابراهيم كاظم، احد حكماء العرب في هذا العصر، كتابا مملوا بالحكمة للكاتب الانجليزي «بروشر سي. نورثكوت باركنسن» عنوانه «تطور الفكر السياسي»، كنت قد قرأت لباركنسن كتابه الشهير «قانون باركنسن» الذي يستخر فيه من البيروقراطية والبيروقراطيين لكنني ما كنت اعلم انه مؤرخ ايضا.

هذا الكتاب ليس مرجعا تاريخيا، ولكنه عرض لحقب متباعدة من تاريخ الانسانية بطريقة فيها روح الطرافة والعبث، تذكرك بأسلوب المؤرخ الخبير «اي. جي. بي. تيلور». وقد لغت نظري فقرات يتحدث فيها الكاتب عن علاقات «اثينا» بجيرانها في القرن الخامس قبل الميلاد، اسوقها لكم فيما يلي:

«تجدر الإشارة الى مثلين من امثلة السلوك الامبريالي لمدينة «اثينا» يرجع تاريخهما الى الفترة التي اعقبت موت «بركليس» مباشرة. ففي عام ٤٢٨ ق.م، وصلت الاخبار الى «اثينا» بان مدينة «متلين» الخاضعة لنفوذها تعد للانقلاب عليها والاستقلال بذاتها، فارسل الاثينيون جيشا حاصر المدينة بالبر والبحر حتى اضطرت الى الاستسلام. اعقب ذلك جدل في «اثينا» ماذا يفعلون بالمدينة المهزومة. ونجح «كليون» بائع الجلود في انكاء حماس العامة، فصدر قرار بذبح كل رجال «متلين» الذين بلغوا سن التجنيد، وارسلت الاوامر بالفعل لتطبيق القرار. ولكن الجدل نار من جديد في اليوم التالي فقد طالب «ديودوتس» بالرحمة لاهل «متلين» وعارضه «كليون» الذي طالب بما اسماه «العدل»، وقال في مراجعته ان مقتضيات النظام الامبريالي لـ «اثينا» تحتم على الدوام بث الرعب في قلوب الرعايا الراغبين لسلطان «اثينا» والا

نحو أفق بعيد ٨٥

ولعمري انه أسلوب في الترجمة سوف يحدث جدلاً كبيراً بين مؤيدين ومعارضين، ولكن المهم في الأمر أنها ترجمة سليمة واضحة، سوف تزيد المؤمنين من غير العرب إيماناً، ولعل الله يفتح بها على قلوب أغلقت أقفالها حتى الآن.

اليوم اعطاني تفسيراً طريفاً لمعنى «باجوج وماجوج»، فانا كلما لقيته أذهب منه بفائدة. ولعله استغاد مني بشيء، فقد تحدثنا في معنى «ضحكت»، في الآية، حين ضحكت زوجة سيدنا ابراهيم وقالت عجوز عقيم. وذكرت له بيت تابط شراً في قصيدته الشهيرة التي يتهدد فيها قبيلة هذيل:

نضحك الضبع لقتلي هذيل

وترى الذئب نحوها يستهل

وهو معنى عجيب ينهني اليه أخي عبدالله ولد أرييه، من بيار شنيقبط رحمه الله رحمة واسعة، كان انساناً عالماً وربما، هو أيضاً من عباد الله الذين يمشون على الأرض هونا، وقد سعدت بصحبته زمناً في الدوحة الميمونة، ثم نكبتني فيه طوارق الدهر، التي لا تترك حبيباً لحبيب.

حدثني ابراهيم ان رجلاً صالحاً من اصفهائه في عمان، يتردد عليه وينهل من بركاته، قال له ذات يوم، في معرض الحديث عن القرآن الكريم، ان القرآن يثير عنده الشعور بالحنن. خطر لي بكاء الرسول الكريم حين سمع ترتيل عبد الله بن مسعود، رضي الله عنه، وقلت لابراهيم:

«لعل صديقك قصد الحزن بالمعنى اليوناني القديم pathos فنلك كما تعلم احساس اشمل من الحزن. انه احساس ماساوي بحالة الانسان في نظام الكون، فيه معنى الشجي والاسى وربما أيضاً الفرح. واذا كان اخواننا النصارى يجدون كل هذه المعاني حين ينظرون الى تمثال الـ pieta الشهير لمايكل أنجلو في الفاتيكان، فنحن عندنا اكثر منه بكثير في سورة مريم.»

أقول لمن احاور من اخواننا النصارى:

«اقرأوا قصة ميلاد السيد المسيح عليه السلام في أناجيلكم، ثم قاربوا ذلك بسورة مريم. انظروا أي جلال وأي روعة بل وأي اعجاز في سورة مريم. سورة تبدأ بالرحمة، وتنتشر الرحمة في ثناياها وصفة الله سبحانه فيها «الرحمن»، يصفها الانسان من قبيل تشبيه الاسمى بالانسي، كأنها سمفونية موسيقية كبرى وخين تصل الى الآية الكريمة:

«قال كذلك قال ربك هو علي هين ولنجعله آية للناس ورحمة منا وكان أمراً مقضياً».

حينئذ تدرك كيف تجتمع معاني الاسى والشجي والحنن وفرح البشري واكثر من ذلك في معنى واحد.

انني أجد كل هذه المعاني مجسمة، حين استمع الى سورة مريم بصوت الشيخ محمد رفعت والشيخ عبد الرحمن الدروني رحمهما الله. الأول هو أمير المقرئين بلا شك، ولكنني أجد في صوت الشيخ عبد الرحمن الدروني حلاوة لا أجدها في اصوات مقرئين اكثر منه شهرة. وانت لا تصادفه كثيراً، ومن الإذاعات القليلة التي تذيع قراءاته، إذاعة القرآن الكريم من مكة المكرمة، وقد كنت أداوم على سماعها أيام إقامتي بالدوحة.

مالي ولاشي تمام؟ انني اعرف ذلك البيت من شعره منذ آمد ولكنه يبدو لي هذه الأيام كأنني أراه لأول مرة. كذلك الشعر. ياخذ من نوايب الزمان وطوارق الحدثن الوانا شتى وطرائف عجا:

أعنى على تفريق دمعي فأنني

أرى الشمل منهم ليس بالتقارب ■

لسي صديق أردني فلسطيني، أراه من الصالحين، وأرجو أن يكون كذلك ان شاء الله، تطيب لي صحبته، وأجد فيها متعة وفائدة، داره صغيرة بسيطة في ضاحية من ضواحي عمان. عامرة بالكتب العربية والانجليزية، والرفوف ملأى بكتب الحديث والفقه وتفسير القرآن الكريم. أسعدني كل ذلك. الضاحية لأنها على ربوة مخضرة تطل على أودية من هنا ومن هنا. الهواء المنعش العليل الذي تمتع به خلفاء بني مروان. بساطة الدار. ليس فيها شيء زائد عن الحاجة. ذكرني بدار

صديقنا صاحب «تفسير التفاسير» في الرياض أبي عبد الرحمن الطغام صنف واحد، كما استلنا رسولنا الكريم.

شيء من أبرز وشيء من بجاج بالمرق وشيء من بقل وخضرة وطماطم. أعينته زوجته التي تحمل شهادة الدكتوراه، وكانت صائمة في ذلك اليوم، وجاءتنا به ابنته الوحيدة. له ستة أبناء وبنت واحدة، بارك الله له فيهم. كلهم ناجحون، وهو كنيته «أبو ناجح».

يكتب الفقه والحديث والتفاسير، لأنه يترجم القرآن الكريم الى اللغة الانجليزية منذ عشر سنوات، وقد أصدر مؤخراً ترجمته لسورة البقرة. وأشهد أنها خير ما رأيت من ترجمات. ذلك لأن الترجمة عنده ليست محض عمل، ولكنها تقرب الى الله وزلفى. وشتان بين أن يترجم القرآن رجل مسلم فتح الله بصيرته على معاني كتابه المنزل، وأن يترجمه مستشرق، سيان عنده كلام الله جل جلاله وكلام الجاحظ وابن خلدون.

هذا، الى جانب حساسية مرهقة لوقع كلام العرب، فهو شاعر مجيد، يندوق جرس الكلمات ويفهم ابعادها ومراميتها ويميز بين فلوهر المعاني ومستطناتها. يعلم أن كلام الله بعيد العور، يجل عن الأحاطة والحصص، فيستخير الله، ويعمل الفكر، ويرجو أن يفتح الله عليه. أين من هذا جهد مستشرق يكون على أحسن الغروض، أعنى عن النور الذي يسطع بين يديه ولو كان لي من الأمر شيء، لمنعت تداول تراجم المستشرقين بين المسلمين. انني لا أعلم أن مسلماً قد ترجم الإنجيل الى اللغة العربية، فما لهم يستحلون ما نحرّم نحن على أنفسنا؟

نلكم ابراهيم أبو ناب. من الناس الذين يمشون على الأرض هونا، القليل الذين يحبهم قلبي، وتطيب لي صحبتهم، وأرجو أن أحشر في زمرتهم.

حدثني أن ترجمته تعتمد منهاج الاستدلال بالسباق. لذلك فهو حين يترجم الآية الكريمة من سورة البقرة:

«أم حسبكم أن تدخلوا الجنة ولما ياتكم مثل الذين خلوا من قبلكم مستهم الباساء والضراء وزلزلوا حتى يقول الرسول والذين آمنوا معه متى نصر الله الا أن نصر الله قريب». فهو لا يترجم «تدخلوا الجنة» enter paradise كما فعل غيره، ولكنه يترجمها attain to heaven وأنا معه في ذلك، فكلمة attain فيها معنى الحصول على الشيء بعد جهد، وليس مثلها enter التي هي مطلق الدخول.



بقلم الطبيب صالح

٨٦ نحو أفق بعيد



بقلم الطبيب صالح

والمعنى واضح، رغم الكلمات العربية، وهو أنهم نبتوا لأعدائهم، وكانوا من بني اسد، وأعداؤهم نبتوا لهم، ولك أن تتخيل كم قتل بعضهم من بعض في هذه المعركة الطاحنة.

ولعبد الشارق بن عبد العزى أبيات جميلة مشهورة في هذا المعنى نفسه، يصف معركة لهم مع بني مُهَنَّة، تحاربوا فيها حتى نعت أفاوسهم وسهامهم

فلما لم يدع قوساً وسهماً مشبهاً نحوهم ومشوا إلينا نالوا مُزَنَةً برقت لأخرى إذا حجلوا بأسياف ردينا

الى ان يقول

ماسوا بالسيفوف مكسرات وأبنا بالسيفوف قد انحنينا صباتوا بالصغيد لهم أحاح ولو خفت لنا الكلمى سرينا

وهي كما ترى أبيات محزنة،

تلخص نهايات الحروب في كل زمان ومكان.

أما قصيدة الجرمي الطائي، فله أبيات بليغة تحدث عني حزناً عميقاً بسبب ما قطعته الحرب من أواصر وأرحام، يقول:

ولم أر خبيلاً مثليها يوم أدركت

بني شمجي خلف اللهم على ظهر

أبر يايمان وأجرأ مقدماً

وأنفق مني للذي كان من وثر

عشية قطعنا قرائن بيننا

بأسيافنا والشامدون بنو بدر.

ما أعجب ذلك: وما أعجب موقف بني بدر وهم يتفرجون على العراك بين بني شمجي وبني ثعل:

ويترك معد بن علقمة باب الصلح مفتوحاً في هذه الأبيات الرصينة، التي تنم عن رغبة في السلم من موقف القوة، ويترك الأمر للخصم

فقل لزهير إن شتمت سرائنا

فليسنا بشئامن لستشتم

ولكننا نأبى الظلام ونفتضي

كل رقيق الشفرتين مصم

وتجهل أيدينا وبجلم رأينا

ونشتم بالأفعال لا بالستكلم

وان الثعادي في الذي كان بيننا

بكفك، فاستأخر له أو تقدم

ثم هذه الأبيات العجيبة التي قالها شبيل الغزاري في رثاء ابنه أخيه بعد أن حاربهم وقتلهم:

أيها الهني على من كنت أدعو

فيكفيضي وساعده شديد

وما من ذلة غلبوا ولكن

كذلك الأسد تغرسها الأسود

فلولا أنهم سبقت إليهم

سوابق نلينا وهمو معيد

لحاسوسا حياض الموت حني

تطايير من جواسيسا شديد

(للحديث بقية)

بعض الشعر مثل النار المدفونة تحت الرماد، تذكره الحوادث وطوارق الأيام. وهذا الشعر الذي أسوقه اليك، لا بد أنك تعرفه، وإن لم تكن رأيته من قبل، فليكن لا تالفه لأول وهلة. ألا أنك ستستعذبه إذا صبرت عليه، ولعلك تجد فيه مثلي فائدة وعزاء.

لله در محمد بن عبد الله الأزدي حين قال:

ولا أدفع ابن العم يمشي على شفا

وان يلفثني من آذاه الجنادع

ولكن أواسيه وأسى ثنويه

لترجعه يوماً إلى الرواجع

هذا شعر شريف كما كان يقول أشياخنا، فابن العم لا هناك لك منه، فاصبر على آذاه وجنابيه، أي بواضيه، فلا بد أنه راجع اليك في يوم من الأيام

وهذان بيتان حكيمان لا يعرف قائلهما، الذي اطلقهما منذ أكثر من ألف عام على الأرجح ومضى في سبيله:

الشعر يسبدؤه في الأصل أصفره

وليس يصلى بنار الحرب جانيتها

الحرب يلحق فيها الكارحون كما

تندو الصبحاح إلى الجزبي فتعديها

وفي هذه الأبيات يرثي قيس بن زهير العنسي، وقد كان من فرسان حرب داخس والغبراء وشعرائها، حمل بن بدر الغزاري.

والأبيات تشير إلى واقعة محزنة من وقائع تلك الحرب المشؤومة:

تعلم أن خير الناس ميت على جفر الهسامة لا يريم

ولو لا ظلمه ما زلت أسكى عليه الحجر ما طلع النجوم

ولكن الفتى حمل بن بدر بنى والبغى مرتعه وخيم

وقال العباس بن مرداس السلمي، وكان من الفرسان المحدثين، وأمه الخنساء الشاعرة، وقد لقي الرسول صلى الله عليه وسلم

وأسلم وأبلى بلاء حسناً - وهذه الأبيات الشهيرة من المنصفات التي لا تبخس الخصم قدره، قال:

فلم أر مثل الحي حياً مقبلاً ولا مثلنا يوم التقينا هوارسا

أكر وأحمي للحقيقة منهمو وأضرب منا بالسيفوف القواسا

إذا ما شدينا شدة نصبوا لنا إذا صدور المذاكي والرماح المذاسا

الخيال حالت عن صريع نكرها عليهم فما يرجعن إلا عوايسا

٨٧ نحو افق بعيد

سخرية تقترب من روح شيكسبير التي نرثي لتفاهة مسعى الانسان، وهو يشن الحروب ويبدل الدول ويرتكب الحماقات. في سمت هذا المؤرخ العتيد تيرم كانما بنفسه وبالناس، وضيق صدر، ربما لكثرة ما يعلم من قصور طموحات البشر عبر التاريخ.. تقرا كتابه، فإذا فرغت منه فكانما قرأت رواية عظيمة لروائي عظيم. حياته قلقة، فقد تزوج وطلق، وتزوج وطلق، وتغير موقفه في السياسة من أقصى اليسار الى لا قرار. كان متحمساً لحزب العمال، ثم فتر حماسه، أنه الآن في نحو الثمانين، عليل يقف على حافة القبر. اسأل الله ان يشفيه فهو من هؤلاء الانجليز الذين يجعلونك تغفر لقومهم كثيراً من سيئاتهم...

قامت زويعة اول ما صدر الكتاب - جذور نشوب الحرب العالمية الثانية - اخريات الخمسينات، لأن الن تيلور قال ان ادولف هتلر لم يكن «عبقرياً شيطاناً» كما يزعم، ولكنه كان رجلاً عادياً لا يملك اية مؤهلات خارقة، وأنه لم يكن يعمل وفق «خطة جهنمية»، ولكنه كان «يتخبط، كبقية الزعماء والسياسيين، وأنه نجح لان الانجليز والفرنسيين كانوا اكثر تخبطاً منه. هذا الرأي اغضب اليهود وكثيراً من الاوربيين، اما الاوربيون فلأنهم لم يجدوا سبباً منطقياً لما حدث، فخلقوا اسطورة «ادولف هتلر العبقري الشيطان». كانت المانيا اكثر الدول الاوروبية تحضراً وكان اليهود في المانيا من اكثر الجاليات اليهودية في اوروبا رخاء واستقراراً. لماذا اذا حدث ما حدث؟. واذا كانت المانيا قد فعلت هذا، فهل كان محتتماً ان تفعله فرنسا او بريطانيا؟ هل السبب الحقيقي نزعة همجية قابضة في اعماق اللا وعي الاوربي عموماً؟...

واما اليهود، فانهم بطريقتهم «الملوجية» في النظر الى تاريخهم، اعطوا ماساتهم، وهي ماساة لا شك فيها ابعاد ملحمة كما في الاساطير القديمة، فجاء الن تيلور، ونظر اليها كما ينظر الى مصائر البشر كافة عبر التاريخ. هذا، ولأن اليهود لم يكونوا بمعزل تماماً عما حدث لهم...

انكر ندوة تليفزيونية تلك الايام. كان الن تيلور يرد فيها عن اسئلة حول كتابه قال له احد المشاركين، وكان واضحاً انه يهودي «انك بافتراضك هذا تغض من عظمة الكفاح البطولي للشعب اليهودي في اقامة دولة اسرائيل، فرد عليه تيلور بتبرم واضح «اسمع. لا تحدثني عن اسرائيل والكفاح البطولي وهذا الكلام الفارغ. اسرائيل لا شيء. بريطانيا لا شيء. امريكا لا شيء. روسيا لا شيء».

●●●

انني لا اعرف ان مؤرخاً غيره جرؤ على مثل هذا القول، وقد كان ذلك امراً جليلاً بحق في تلك الايام. لقد اوصلته دراساته فيما يبدو الى ان الكائن البشري عموماً «لا شيء» وهو رأي يشبه رأي المرجوم مصطفى صادق الرافعي حين قال: «ما الانسان، وما خيره وشره» انه مثل حفرة برجل نملة لتدفن فيها نملة.

نعم، هذا مؤرخ من طراز نادر، لا يجود الزمان بمثله الا على فترات متباعدة ■

(للحديث بقية)

حين علمت بنبا موت المؤرخ الانجليزي الحبر «اي جي بي تيلور» الذي توفي منذ اسبوعين، شعرت كأنني افقد صديقاً عزيزاً، رغم انني لم اقابل الرجل ولم اعرفه الا من خلال كتبه ومقالاته ومحاضراته. ذلك لانني كنت اعتبره واحداً من هذه الزمرة الكريمة من الرجال والنساء الذين تجمعك بهم اواصر الروح والعقل والضمير، على بعد السيار واختلاف الاعراق والانتماءات، فكانهم اهلك بحق.

كان بحر علوم في ميدانه، يملك الى ذلك عقلاً نافذاً جذاباً وبيانياً ناصعاً ساخراً، وجرأة على السباحة عكس التيار، والتصريح بالفكار يعلم انها سوف تغضب الكثيرين وتجرح عليه العداوات والاحقاد، لكنه كان باحثاً عن الحقيقة انى وجدها، وعنده تلك النزاهة والشجاعة اللتان يمتاز بهما بعض علماء الانجليز الخالص. وكان يؤمن ان التاريخ يجب الا يكون حكراً على المتخصصين، ولكن على المؤرخ ان يجعله جذاباً ومفهوماً على اوسع نطاق. فكان من اوائل المؤرخين الذين استغلوا وسائل الاتصال الجماهيرية، فكتب في الصحف، وحاضر في التلفزيون. واكثر ما اثار عليه سخط زملائه الاكاديميين، انه لم يحجم، رغم انه كان اميل الى اليسار، ان يكتب في صحف «بيفربروك»، اليمينية المتطرفة، بل انه كان صديقاً لصاحبها «لورد بيفربروك»، وألف كتاباً عن حياته.

ربما لأجل ذلك لم يعطوه كرسي استاذ التاريخ المعاصر في جامعة اوكسفورد الذي كان يحلم به، وفضلوا عليه منافسه «تيرفر روبر»، وهو مؤرخ اقل منه قدراً في نظر الكثيرين، ولكن حسبته انه كان طوال حياته مثار اهتمام واسع، من الاكاديميين وغيرهم، وان محاضراته في التلفزيون كانت تعتبر مناسبات مهمة تظل اصداؤها تتردد زمناً طويلاً بعد عرضها، وان فصوله في جامعة اوكسفورد التي كانت تبدأ في التاسعة صباحاً، كانت تمتلئ بمستمعين من تلاميذه، ومن تلاميذ يتقاطرون عليه من الكليات الأخرى، وجمهور يفد من اقاصي القطر خصيصاً للاستماع اليه.

لقد كانت اول مقالة كتبها في هذه الصفحة بتاريخ ١٩٨٩/١/٢٥، عن هذا المؤرخ الجليل. واستميج القاري عنراً في ان اعيد بعض فقراتها. قلت:

«يعجبني من المؤرخين الانجليز المعاصرين، اي جي بي تيلور، او الن تيلور كما يسميه انصاره، فهو رجل له معجبون كثيرون وخصوم كثيرون. ذلك لأنه ينظر الى التاريخ بجرأة وطرافة وغير قليل من السخرية. وهي



بقلم الطيب صالح



بقلم الطبيب صالح

حين قدمت على بغداد في شهر نوفمبر الماضي، كانوا قد عينوا عبيد الحسين زويلف لتوهم مدير جهاز تعليم الكبار ومكافحة الامية. كنت فرحاً بتلك الرحلة، أن مكتب اليونيسكو الاقليمي في عمان، الذي يرئسه الدكتور محمد ابراهيم كاظم، قد جندني في هذه المعركة. ان اكون امياً بين الاميين، يا له من شرف عظيم. وقد اتضح لي بالفعل خلال هذه الرحلة،

كم انا جاهل. زرت سبع دول عربية، من العراق إلى المغرب، وفي كل بلد كنت اكتشف اشياء جديدة. لقد طوقت هذا العام المتنوع الجميل عدة مرات من قبل، وظننت أنني اعرفه، ولكنني اكتشفت هذه المرة، أنني لم اعرفه حقاً لأنني لم أنظر اليه من قبل، من هذه الزاوية، زاوية الاميين. أكثر من مائة مليون امي في العالم العربي! معنى ذلك انك لن تستطيع ان تصنع تنمية، ولا ان تقيم حضارة ولا مستقبلاً. لن تستطيع ان تحقق شيئاً من هذه الاحلام الجميلة التي تمنح ليهؤلاء الناس الاكابر. واذا صدقنا شعار منظمة اليونيسكو، وهو حق، بما ان الحرب تنشا في عقول البشر، فلا بد من اقامة حصون السلام في عقول البشر. معنى ذلك انك لن تستطيع اقامة اي من هذه الحصون، إلا اذا فتحت كل هذه العيون المغفضة.

كانت بغداد جميلة كعهدنا، بل كانت اجمل. كان سوق المربد، عامراً وتبارى الخطباء والشعراء والقي محمد الفيتوري قصيدته العصماء ولم يتركوا لك ما تقول.

نفس الناس الصعداء، ودفنوا موتاهم وجففوا دموعهم. الحزن دائماً قريب من السطح في طبع العراقيين الاربعي، ولكنهم تناسوه واخذوا ينظرون إلى المستقبل بثقة من قاوم وصمد، ودفع الثمن. ينظر حوله ويرى ماذا تهدم وماذا ظل واقفاً. ماذا ضاع وماذا بقي. وكان من بين ما تهدم جهاز مكافحة الامية.

توقفت الحملة خلال سنوات الحرب، وبدأت الامية تزحف من جديد، حتى وصلت الآن إلى ١٥٪ من عدد السكان حسب تقديراتنا. إلا ان عبد الحسين زويلف كان واثقاً انهم يستطيعون القضاء عليها بسهولة، وقد صدقته، فقد كانت وراعتهم تجربة عظيمة. والحملة التي قاموا بها، أصبحت مضرب المثل في المجتمع الدولي.

استقبلني بابتسامته الودودة ووجهه الطيب، ورافقني طوال اقامتي، وكان سعيداً متفائلاً. لا غرو فقد خاض المعركة من قبل، مساعداً لطف يس اسماعيل، الذي كان رئيساً للجهاز التنفيذي. استمرت الحملة سبع سنوات منذ عام ٧٨. لاحقوا الاميين في كل مكان، في الاهوار حيث يعيش الناس في جزر في الماء في مضارب البدو. في قرى السواد بين النهرين. قضوا على الامية قضاء تاماً. وكما تتحول احداث

الحروب إلى اساطير، تحولت تفاصيل حملة مكافحة الامية، إلى اسطورة مثيرة في خيال عبد الحسين زويلف. قصدت الكويت بعد بغداد، وهناك لقيت عبد العزيز النجدي، مدير جهاز تعليم الكبار ومكافحة الامية في وزارة التربية. رجل آخر من هؤلاء الرجال الصالحين. مثل اخيه في بغداد تماماً. كأنه هو. وقد اكتشفت خلال تلك الرحلة أن كل الرجال والنساء العاملين في ميدان مكافحة الامية في العالم العربي، هم من طبقة واحدة. الطيبة ودماثة الخلق وحب الخير والايمان العميق بقيمة الانسان.

بعض المهين والحرف تفعل هذا الاثر في اصحابها. الاطباء، على وجوههم شيء ما، كأنهم يعرفون سرّاً لا يعرفه بقية الناس، ربما لكثرة ما راوا من تقلبات الحياة والموت. وهؤلاء يرون معجزات تحدث امام اعينهم يوماً بعد يوم. هذه القتل البشرية البكماء، مثل الحجارة قبل ان تصنع منها التماثيل، فجأة تنطق وترى. الرجل في السبعين، والمرأة في الستين، بعد امد من الظلام، تنحل لهم الرموز. وتنشك الفغار الحروف. ك... ت... ب... /كتب/ع... ر... ف... /عرف/.

نظرت مع عبد العزيز النجدي في فصول محو الامية إلى وجوه الاميين، رجالاً ونساء، فجأة تشع بالحياة حين يقرأون ويكتبون ترى على وجوههم فرحاً مشوباً بالدهشة، كمن يخرج دفعة واحدة من الظلام إلى النور. ما الذي جاء بهذا الرجل الطاعن في السن؟ وهذه المرأة ماذا يجديها ان تتعلم الآن؟ انها تلك الرغبة المتأصلة في الانسان أن يعرف ويدرك ويتواصل بطريقة افضل مع الآخرين، إلا ان معظم الذين يقبلون على فصول محو الامية تحدوهم أيضاً رغبات ملحة لتحسين اوضاعهم المعيشية.

وجدت في الكويت جهازاً ضخماً لمكافحة الامية، وهو احسن جهاز رأيته في البلاد التي زرتها. كان معدداً اعداداً عالياً، وفيه كفاءات ممتازة في ميادين البحوث التربوية والبحوث المتعلقة بمكافحة الامية، من الكويتيين وغيرهم. تركت الكويت قاصداً صنعاء، وقد حرمني ضيق الوقت ان اعرج على دار كريمة واسلم على ساكنها الكريم، الاستاذ عبد العزيز حسين. كان رئيسنا طوال اربع سنوات في لجنة التخطيط الشامل للثقافة العربية التي كونتها المنظمة العربية للتربية والثقافة والعلوم، بدعم مالي من دولة الكويت. اجتمعنا في الكويت وفي تونس وفي صنعاء. وكنا نزداد مع مرور الايام تقديراً وحباً لرئيسنا الفاضل. كانت زمرة طيبة من بلاد عربية شتى وحين انصرفت الاعوام وفرغنا من عملنا، شعرنا بحزن عظيم، فقد طابت لنا الصحة، وطاب لنا العمل برئاسة ذلك الانسان الفذ. ومهما يكن فإن تقرير اللجنة، وهو من عدة مجلدات، وقد ترجم إلى الانجليزية والفرنسية، سوف يظل اثراً جليلاً في ميدان العمل الثقافي العربي، ومأثرة لا تنسى لدولة الكويت.

غذت بي الطائرة نحو صنعاء. هنالك سوف ألقى محمد المضواحي، سوف يكون مثل صاحبيه العراقي والكويتي. وسوف اجد صديقي عبد العزيز المقالح. وسوف أزور «حجة» واري العيون اليمانية تضيء بالذكاء من ثنايا البراقع. في العالم العربي، عالم الاميين على الأقل، عالم واحد ■

(للحديث بقية)

والتربية



بقلم الطبيب صالح

في صبيعا، وجدت محمد المضواحي رئيس جهاز تعليم الكبار ومحو الأمية، كما توفعت. التواضع الجرم، ودمائية الخلق، والروح الخيرة التي تضيء الوجه وتطل من العينين. مثل كل العاملين في هذا الميدان. أصغر سنا من عبد العزيز المجدي في الكويت، وعبد الحسين زويل في العراق. لذلك فهو أكثر منهما اندفاعاً.

المشكلة في نظره واضحة، والحل واضح. الأمية هي الوباء الذي يجب أن تحشد لمحاربه كل الطاقات وتسخر كل امکانات. لقد بذلت اليمن جهداً لا يستهان به، ولكن الحكومات تنظر الى الأمور من زاوية مختلفة. لا بد من توفير الغذاء للحياء، والعلاج للمرضى، والعتاد للجيش. وثمة التعليم النظامي، المدارس والمعاهد والجامعات. وإذا كانت الموارد محدودة، فكيف تصنع؟

قابلت في رحلتي بعد ذلك مسؤولين يرون الأمر بخلاف ما يراه محمد المضواحي. يقولون لك أن المشكلة سوف تختفي من تلقاء نفسها حين يعم التعليم النظامي، التعليم عندهم هو الذي يكون بين جدران المدارس، أما فصول محو الأمية، وناس يتعلمون في العراء تحت الشجر، والقوافل المتنقلة، والدروس المسجلة على الفيديو والكاسيت، ونجى عبر الراديو والتليفزيون الى غير ذلك من الأفكار الجديدة، فهذا في رأيهم ليس تعليمًا وتسالهم:

وماذا يحدث حتى يعم التعليم النظامي؟ ماذا تصنعون بأعداد الأميين التي تزايد يوماً بعد يوم؟ ما هو مصير أولئك الذين يقطعون تعليمهم في سن مبكرة لسبب أو لآخر، ثم يرتدون الى الأمية؟

ويجيبونك بأنه لا مناص للدولة من أن تضحي بهؤلاء في سبيل أعداد أجيال متعلمة تعليمًا صحيحًا في المدارس النظامية.

منظمة اليونسكو كانت المنظمة الدولية الوحيدة التي رفضت هذه الفلسفة الممعة في القسوة. المنظمات التي يبددها المال مثل البنك الدولي وبرنامج الأمم المتحدة للتنمية، كانت تؤكد على التنمية الاقتصادية. وتؤمن بأنك إذا وجدت الحل لمشكلة الفقر، فسوف تحل المشاكل الأخرى من تلقاء نفسها.

بدا الحال يتغير. أخذت هذه المنظمات تميل الى وجهة نظر اليونسكو، وتقبل بأن الإنسان الأمي الذي يعيش الآن، لا يعزبه أن الأجيال القادمة سوف تكون متعلمة، وأن له الحق هو أيضاً في أن يبنى الطاقات العقلية والروحية التي منحه الله أياها الى أقصى مدى، وأن التنمية الاقتصادية التي تبني على الأمية والجهل، أنها تقوم على رمال. لذلك فقد أعلن المجتمع الدولي هذا العام، عام ١٩٩٠، بداية عقد

مكافحة الأمية في العالم. بأمل القضاء عليها كلمة بهاية القرن. وهو مطلب عسير، ولكنه ليس مستحيلاً. إذا صدقت النبوة وصح العزم، لو تحقق الحلم، فسوف تكون البشرية ككل، قد اجتزت أول مورة حقيقية في تاريخها. يوجد مليار، ألف مليون أمي في العالم الآن. يوجد مائة مليون طفل لا أمل لهم في الحصول على التعليم النظامي. تصور أي فلام بلغ هذا الكوكب! أي طاقات بشرية معطلة!

وربما لأول مرة يعترف المجتمع الدولي ككل، أن التنمية الاقتصادية ليست هي كل شيء، وأن تنمية قدرات الإنسان العقلية والروحية، وإعطاء المهارات الضرورية لمواجهة الحياة، لا تقل أهمية عن التنمية الاقتصادية، أن لم تزد عنها في الأهمية. وقد جاء في ورقة العمل الرئيسية التي قدمت في المؤتمر العالمي حول «التربية للجميع»، الذي عقد في تايلاند في آذار (مارس) من هذا العام، ما يلي:

«أن التنمية البشرية هي في صميم أي تحرك انمائي، وأن التربية لكونها عبارة عن تسليح الأفراد من خلال توفير المستويات الأساسية من التعلم، هي حق من حقوق الإنسان، ومسؤولية اجتماعية».

وتقول الوثيقة في مكان آخر:

«أن حلقة الوصل بين التربية الأساسية وتنمية الأفراد والمجتمعات تعتمد على تحصيل مستويات التعلم المطلوبة، لا على مجرد الالتحاق أو الاشتراك في البرامج التعليمية أو الحصول على الشهادات... يجب أن تتاح لكل الأطفال واليافعين والشباب فرصة بلوغ مستوى مقبول من التعلم من خلال الفرص المتاحة في التربية الأساسية.. عدم توافر فرص الالتحاق في المدارس النظامية يجب ألا يمنع أي طفل من الحصول على أساس تربوي مشترك يؤهله للحياة أو للتعلم في المستقبل...»

هذا يعني الاعتراف صريحاً أولاً أن التنمية البشرية هي الأساس في التنمية الاقتصادية ولا تنمية بشرية مع الأمية. وثانياً أن التعليم النظامي، يشكله التقليدي، لا يستطيع وحده حل المشكلة. لا بد من استعمال وسائل جديدة متنوعة، وخاصة وسائل الاتصال الجماهيرية مثل التليفزيون في التصدي لهذه المشكلة الكبيرة.

هذا أيضاً يعني أن محمد المضواحي ورفقاء العاملين في ميدان محو الأمية في العالم العربي، ومن على شاكلتهم في أنحاء العالم الأخرى، كانوا أبعد نظراً من البنك الدولي وغيره من المنظمات الدولية. لقد مارسوا المشاكل عن قرب، ورأوا الحلول تتكشف لهم على هيئة معجزات تحدث بين أيديهم كل يوم. المشاكل والحلول ليست إحصائيات ونظريات وتصورات يصنعها ناس الذكاء في أماكن بعيدة، أنهم يرونها ماثلة أمامهم في هيئة رجال ونساء يعرفونهم باسمائهم. كل واحد منهم مثل حبة القمح في كومة القمح، قائمة بذاتها وتنطوي على سر عظيم. غداً سوف تبدأ هذه العوالم المغلقة تبوح ببعض أسرارها. تتحسن طريقها في الظلام. تأخذ في فك طلاسم الحروف. حينئذ ينشأ ضوء يعبر وجود الأميين، وينعكس على وجوه الذين ساعدوا على حدوث المعجزة مثل محمد المضواحي ومن على شاكلته من عباد الله الأبرار ■

وراءك



بقلم الطيب صالح

تسافر من صنعاء الى الرياض، فكانت تعبر الجسر من ام درمان الى الخرطوم بحري، او من الاعظمية الى الكاظمية او من الرباط الى سلا. تركت صنعاء البلقاء قاصدا الرياض العصماء، وحين تسافر بالطائرة هكذا، تبدو لك هذه العواصم العربية كأنها احياء في مدينة واحدة. تلم بها ليلا او نهارا، الاضواء اوضح هنا، والمطار اكبر هنا، البيوت اسوا حسالا في مكان،

والمآذن اكثر ارتفاعا في مكان. هنا يبنون بالحجر الابيض، وهنا يبنون بالطوب الاحمر، وهنا يبنون بالطين الاخضر، وهنا يبنون بالاسمنت والزجاج والحديد. هنا رواب مخضرة، وهنا صحارى مصفرة، وهنا نهر جار، وهنا بحر أجاج. وحين تسمع نداءات المؤذنين في الفجر، لا تكاد تميز اين انت. الله اكبر في القاهرة كما الله اكبر في بغداد.

جموع تتزاحم في الشوارع والاسواق، امواج من محيط واحد وحقيقة واحدة. ثوب من نسيج واحد ولكنه متعدد الالوان. وبألوانها من الوان مدهشة اذا نظرت اليها بعين الرضى. انما لا تتعجل شروق الشمس، ولا تمرق الثوب لانك تضيق بتعدد الالوان.

في صنعاء ذات القوام الرشيق والسعت المميز، لقيت فنيمن لقيت، صديقي سيد احمد الحريلو، الشاعر الموهوب، الذي كان سفيرا ناجحا للسودان في اليمن. وجدت انهم خلعه من عمله. كل عهد تجود به علينا الايام، لا تفر عينه، حتى يعزل افواجا من السفراء والضباط والوكلاء والمدراء ومن هم انبي من ذلك. كأنهم يقلعون اشجارا بدأت تثمر ليزرعوا مكانها اشجارا آخر. وينتظرون الحصاد، ويقولون ان ذلك لاجل مصلحة الوطن. الله للوطن. ولو سألوا راعي ابل في ارض البطانة اميا لا يقرأ ولا يكتب، لافهمهم كيف تكون مصلحة الوطن. انه يعلم انك لا تنبج الناقة الحلوب، ولا تعقر الجمل الطروب.

• رفاعة الرينة قافاها البليث طربان،

ذاك جمل الشاعر الشكري، الذي لو عقره لما قضى وطرا.

وقد قال ابو العلاء رحمه الله:

أرجو لها شرا ولم أر مثلا

سفائر ليل او سفائن ال

ومن منيات اذا جرن وادبا

تحيلنا من مرق جبال

ذاك وقد قضيت اياما عامرة مع الاميين بصحبة محمد المضواحي. في اليمن ايضا قاموا بحملة وطنية لمحو الامية بذات عام ١٩٨٢، شاركت فيها الهيئات الحكومية والشعبية والشرطة والجيش، وكادوا يبلعون الهدف. وقد طبقوا النظرية التي بلورها الدكتور محيي الدين صابر، المدير العام السابق للمنظمة العربية للتربية والثقافة والعلوم. واحسنوا الاستفادة من الجهاز العربي لمكافحة الامية وتعليم الكبار، الا انهم لسوء الحظ ضعف حماسهم بعد ذلك كما فعلت دول

عربية اخرى، فاخذت الامية تزحف من جديد.

اشاء ذلك جدت العهد بصديقي الدكتور عبد العزيز المقالح، الشاعر العالم الاديب، مدير جامعة صنعاء، وهو احد الرجال الذين يعتد بهم في العالم العربي. وقد زاد من سعادتني انه هيا لي لقاءات مع الطلبة والاساتذة في الجامعة، استفدت منها أكثر مما استفادوا مني. كذلك سعدت بقاء الاخ حسن اللوزي، الوزير الشاعر. وقد وجدت عندهم اخي سليمان العيسى، الشاعر الكبير ذا الخيال الجموح والقلب الخفاق. وقد اهداني ابياتا من شعره، جادت بها قريحته عفو الخاطر، ما وددت ان لي بها حمر النعم، يقول فيها:

دعا اذا في قاع قاع الليل

نخرج من «مطسنا» الويل

نخرج من دمارنا الطويل

نخرج يوما يا آخا «المقيل»

ليس على الله مستحيل.

ثم سافرنا الى «حجة» على بعد قرابة اربع ساعات بالسيارة، في طريق متعرجة تصعد في جبال جرد تحتها اوبية خضر. ولما بلغنا «حجة» اذا بلدة عامرة تشرف على مناظر تخلب القلب، اصبنا الغداء في نزل على ربوة جميلة ثمة، كانت تنوهد عليه قوافل من السواح الاثان والطلبيان والامريكان وغيرهم. يا سبحان الله، جمال بلاد العرب يتفتح به الناس من الشرق والغرب، واهله عنه في شغل.

طفنا بعد ذلك بصفوف مكافحة الامية، رجالا ونساء، اذكر منها على وجه الخصوص، صفوا للنساء، تراوحت اعمار النساء فيه بين العشرين واثلاثين، وما فوق الخمسين. ووجدنا صبية في الحادية عشرة، فضلت صف محو الامية على المدرسة النظامية، لانها انست اكثر الى مدرسة محو الامية، ولان اختها التي تكبرها سنا كانت في فصل محو الامية. وقد وجدت في ذلك دليلا على ان التعليم يمكن ان يتم حيثما اختار الطالب، وليس حتما ان يقدم بين جدران المدارس النظامية.

وان انس لا انس تلك العيون النجل المشعة بالذكاء، تطل من ثياب البراقع كأنما الى افق قريب المثال.

سوف نصل ان شاء الله، انما لا تتعجل مولد الفجر. لا تتعجل مولد الفجر يا عمرك الله، فالامر ليس بيدك، وكل شيء له اوان، النخلة لا تثمر قبل الموسم، والله غالب على امره.

هذا وقد ابتعدت الطائرة من صنعاء واقتربت من الرياض. انما هما في خيالي اجزاء من مدينة واحدة. سلام على تلك المدينة. وانت ابها «الشاعر» لذت بعالم الاطفال فرارا من عالم الكبار، كما لوذ بعالم الاميين. انت في معقلك في «تعر» البيت الأتكتب الألاطفال. تكتب وتنتظر. أرجو الأبطال انتظارك، والسلام عليك اب تقول:

اني ممن يحثون عن رنة

حديدة «الدودة» المهترئة

اعني بها دماحا الكريمة

في الأمة المكتوبة العظيمة

• رفاعة مدينة على المبل الأزرق جنوب شرقي الخرطوم على اطراف النطانة.

ديار قبيلة الشكرية العتيدة

الرنة، اي ان سكانها خلط

قافاها، اي تركها وراهم

الطيب، اسم جمل الشاعر، وذ عوض الكريم، رُما لجمال لومه الابيض،

مثل الفضة.

(للحديث بقية)



بقلم الطبيب صالح

انت هنا في نجد، باريح هوائها الذي دوخ السعراء منذ قال قائلهم..
وتحسب سلمى ما تزال كعهدنا

بوادي الخزامى أم على رس

الجهود التي تبذلها الوزارات والمؤسسات الخاصة ويعود التفاعلات الدولية الى قضية مكافحة الامية في المملكة الى عام ١٩٤٩، حين وجدت ان الضرورة تقتضي فتح صفوف مسانية للاميين في المدارس. وفي عام ١٩٥٤ انشئت ادارة خاصة لمحو الامية وتعليم الكبار سبقت ادارة الثقافة الشعبية. كانت تتبع التعليم الابتدائي، ثم استقلت بذاتها، واصبحت في عام ١٩٧٧ تعرف بـ «ادارة تعليم الكبار ومحو الامية». وفي عام ١٩٨٥ ارتفعت الى مستوى الاسانة العامة، وسميت «الاسانة العامة لتعليم الكبار».

هذا ان دل على شيء، فانما يدل على مدى الاهمية التي توليها المملكة العربية السعودية لقضية الامية، فقد وجدت في بعض الدول التي زرتها، ان الجهاز المشرف على مكافحة الامية، لا تتاح له الامكانيات البشرية والمالية اللازمة، وهذا يعني ان الدولة لا تضع قضية الامية في درجة عالية في سلم اولوياتها. ولعل لهذه الدول بعض العذر اذ ان مواردها المحدودة لا تفي بكل الحاجات، ولا تتسع لكل المطالب الملحة. ورغم ذلك، فان جميع المؤتمرات الدولية التي انعقدت لدراسة قضية الامية، قد اوصت بان تضع الدول قضية مكافحة الامية في موضع بارز بين اولوياتها، وان يكون الجهاز الاداري المشرف على جهود مكافحة الامية، على درجة عالية. هذا بالطبع يقتضي التزاماً من الدولة، كما يقتضي اصدار تشريعات وسياسات على اعلى مستوى.

المملكة العربية السعودية واحدة من الدول العربية التي فعلت ذلك، فاصدرت التشريعات المطلوبة، وخصصت الموارد اللازمة. وبظهر عمق هذا الالتزام بوضوح، في كلمة قدم بها وزير المعارف، الدكتور عبد العزيز الخويطر، لكتاب اصدرة الوزارة عام ١٩٨٦، عن جهودها في مكافحة الامية، جاء فيها:

«والامم تقاس من جهة ما تقاس به، باهتمامها بالانقذات لهذا الجانب، مجتمعاً وافراداً، لان التكاتف يأتي بالنتيجة السحرية المتوخاة، والتراخي امدار لجهود اي من الطرفين، جهد المجتمع، او جهود الافراد المتناثرة.. لهذا مجهود الدولة، وما ترصده من اموال، وما توفره من طاقات لا يستغرب، فهي الدولة المسلمة التي اشد قرائنها، وهو منبع تعاليمها، ومصدر ارشادها ورشادها، بالعلم، واكد اجر حامله وثوابه في الدنيا والاخرة، وحث على طلبه وتكريم حامله...»

كل هذا حق، وثمة جهات اخرى غير وزارة المعارف، تقوم بجهد عظيم في مكافحة الامية، اذكر منها على سبيل المثال لا الحصر، وزارة الدفاع ووزارة الداخلية ووزارة الشؤون الاجتماعية والحرس الوطني السعودي على وجه الخصوص، يقوم بجهد ضخم ملتفت للنظر، ربما يكون فريداً من نوعه، في مكافحة الامية واتاحة فرص التعليم الى ارفع المستويات بين افراده، ورغم ذلك فان مشكلة الامية لم تحل تماماً، وسعداً لها ما تزال مرتفعة بالنسبة لمجموع السكان، ذلك بلا شك، ليس بسبب اي تقصير من جانب الدولة، ولكنه يعزى الى ظروف بيئية واجتماعية.

نجد التي ناجاها غيلان، واطناب فيها الشيخ عبد العزيز، هواء رقيق الحواشي حتى في شهور الصيف، نعم، تروق لي هذه المدينة الحسنة، تجد مطارها اول ما تحصل، مفتوحاً على الأفق، كأنه امتداد له، لذلك فانت لا تحس فيه بالاختناق الذي تحسه في بعض المطارات، وقد وفق

مصممو معماره في الجمع بين القديم والجديد، فاصبح دون شك تحفة من تحف المعمار المعاصر. ليس مثله مطار جدة، ذو الاجزاء المبعثرة، والاسقف كأنها خيام مقوضة. وعلى الجدران لوحات جميلة، بينها جدارية للفنان المغربي الشهير فريد بلكاهية، اذا مررت بها في صالة المغادرين للرحلات الدولية، فتربث عندها قليلاً، ففيها من كثير. تصل، فتتهبط في طريقك الى حيث ختم الجوازات وتسلم المتاع، الى باحة فيها شلالات ماء تنهمر على صخور ملساء، واضواء رهيفة تصب على اشجار وزرع. يزداد عندك الاحساس بالرفاه والسعة.

كذلك الشوارع، وسبعة، وقد بذلوا جهداً كبيراً في زراعة النخل والشجر على جانبيها، توجد بقايا نخل قديم هنا وهناك، لم تفتك بها بعد الابنية الحديثة. لعلهم اذكروا من الاسميت والزجاج، ورغم انني من اتباع الدكتور حسن فتحي رحمه الله، ولا يعجبني المعمار الحديث عموماً، الا انني لا انكر ان بعض هذه الابنية الحديثة ذات معمار طريف اخاذ. واذا كانت دور الحكومة تميل الى الضخامة، فلا بأس، لان مساحة القطر شاسعة، والمقياس، الـ Scale الذي تقاس به، كبير ايضاً.

لكنك تدهش حين تدخل مبنى وزارة المعارف، فهو بناء قديم متواضع بمقاييس مدينة الرياض. وتدهش اكثر حين تدخل مكتب الوزير، الدكتور عبد العزيز الخويطر، فهو مكتب بسيط بكل المقاييس، كان واضحاً لي انه عمل ذلك عن قصد وليس بسبب ضيق ذات اليد وقد سألته آخر مرة زرتة، فاجابني ضاحكاً، انه يؤثر ان يضع كل موارد الوزارة في المدارس. رجل كريم الخلق، جم التواضع، موطاً الاكتاف، على دراية وعلم غزير. اعره منذ ايام دراسته في لندن في الخمسينات، تعرفت به عن طريق الدكتور محمد ابراهيم الشوش، الذي كان يراسله في مدرسة الدراسات الشرقية بجامعة لندن

قضية مكافحة الامية من اختصاص وزارته، فهو ايضا رئيس اللجنة العليا لتعليم الكبار، التي تضم عدة جهات تعنى بذلك مثل وزارة الداخلية ووزارة الدفاع ووزارة العمل والشؤون الاجتماعية والحرس الوطني والرئاسة العامة لتعليم البنات ووزارة الاعلام وغيرها. وهذه اللجنة تضع الخطة الشاملة لمحو الامية، وتنسق



بقلم الطبيب صالح

بالكتب والوسائل التعليمية، ويتابعون سيرها بالرعاية والصح.

وقد اسعدني ايضا، انني وجدت ان وزارة المعارف، تنظم حملات شاملة تساهم فيها وزارات اخرى مثل وزارة الصحة والزراعة، في اماكن التجمع السكاني في الريف والبادية، تقدم فيها الى جانب دروس القراءة والكتابة، دروس ومواد فلمية بغرض التوعية الصحية والدينية والاجتماعية. هذا ما يسميه الدكتور محيي الدين صابر المدير العام السابق للمنظمة العربية للتربية والثقافة والعلوم بـ «محو الامية الحضارية». فهو يرى ان الامية لا تقتصر على الجهل بالقراءة والكتابة، ولكنها تنعدها الى جوانب اخرى لا تقل خطورة، تنضوي جميعا تحت شعار «الامية الحضارية». لذلك فهو يدعو الى ان يصحب الجهد لتعليم الاميين القراءة والكتابة، جهود مترامنة لتعليمهم مهارات تمكنهم من رفع مستواهم المعيشي، وتفجير قدراتهم الكامنة بحيث يستطيعون ان يعيشوا حياة اكثر ثراء، ويكونوا مواطنين فاعلين يساهمون في تنمية البيئات التي يعيشون فيها، وبالتالي في نهضة الوطن عموما. وهكذا تكون الحملة «شاملة» لانها تتجه الى كل اعراض الامية والتخلف في وقت واحد. هذا «المفهوم» اصبح سائدا في الوطن العربي عامة، ومعمولا به بدرجات متفاوتة من الجدية.

ومن السنن الحسنة التي استحدثتها وزارة المعارف السعودية انها ابتكرت ما اسمته «الاسرة الوطنية لتعليم الكبار»، فقد اصدر وزير المعارف قرارا عام ١٤٠٤هـ بتكوين لجان استشارية باسم «الاسر الوطنية» تكون ضمن جهاز التطوير التربوي، الهدف منها اسداء النصيح للوزارة فيما يتعلق بتطوير المناهج واساليب التعليم وغير ذلك، وهي تضم الى جانب المختصين من وزارة المعارف، اعضاء يتراوح عددهم في كل لجنة، ما بين ثمانية الى خمسة عشر عضوا، يراعي في اختيارهم ان يكونوا من مناطق وخبرات مختلفة، ويحبذ ان يكونوا من اساتذة الحاسعات والعاملين في مجال التربية والتعليم. وتعمل هذه اللجان مدة ثلاث سنوات. وتجدد عضوية بعض الافراد اذا دعت الحاجة اليهم مدة اطول.

واضح من هذا، ان وزارة المعارف تعمل على توسيع الدائرة التي تتلقى منها المشورة في امور التعليم. والفكرة معمول بها لدى اغلب الدول العربية بأشكال عدة، ولكنها هنا اخذت شكلا له مقومات الثبات والاستمرار. وقد اصبح من الامور المقبولة الان في العالم، ان تطرح قضايا التربية على جمهور اوسع من دائرة المختصين وبعض الدول، مثل دول اسكندنافيا، تذهب حدا بعيدا في ذلك. ويصدق هذا بصفة خاصة على قضايا تعليم الاميين. والدراسات التي اجرتها منظمة اليونسكو والمنظمة العربية للتربية والثقافة والعلوم، والمؤتمرات التي انعقدت لهذا الغرض كلها تؤكد على جدوى المشاركة الواسعة في صياغة الاهداف والخطط والوسائل للجهد القومي في التعليم. ويحمد لوزارة المعارف في المملكة العربية السعودية انها بدأت تسير في هذا الطريق، ربما بشيء من الحذر وقد ياتي يوم تجد بين اعضاء هذه «الاسر القومية» اشخاصا من غير الاكاديميين والمختصين. ربما يكون بعضهم من الدين تعلموا في فصول محو الامية، ولم لا! لقد تخرج الان بالفعل من هذه الفصول، اناس واصلوا سيرهم حتى نالوا شهادات الدكتوراه واصبحوا اساتذة في الجامعات ■

(للحديث بقية)

لم تتوقف جهود المملكة العربية السعودية منذ عام ١٩٤٩ للقضاء على الامية. وهي جهود متنوعة شملت القتر كله وفق خطة عشرينية هي الان في نهاية مرحلتها الرابعة.

تعرفت على تنوع هذه الجهود وكثافتها، من مقابلاتي مع المسؤولين في وزارة المعارف والرئاسة العامة لتعليم البنات والحرس الوطني، وغير ذلك من الوزارات والمؤسسات وقد استفدت فائدة كبيرة من صحبتي للاستاذ محمد بن ابراهيم الفوزان الامين العام

لتعليم الكبار، والاستاذ محمد الحسين مدير محو الامية في منطقة الرياض. كما زرت مؤسسات عدة، ليست معنية بقضية مكافحة الامية بطريقة مباشرة، ولكنها تدخل في نطاق اهتماماتها التربوية والاجتماعية. من هذه المؤسسات برنامج الخليج العربي لمساعدة منظمات الامم المتحدة، الذي يرأسه الامير طلال بن عبد العزيز. هذا البرنامج الذي تدعمه دول الخليج، والمملكة العربية السعودية بصفة خاصة، ادنى وما يزال، خدمات جليلة للمجتمع الدولي في مبادئ الطفولة والتنمية والاتصال وغيرها. ويرجع اغلب الفضل في نجاحه واتساع نشاطاته الى الجهود الشخصية لهذا الانسان الكريم، الامير طلال، الذي ينفق من وقته وماله لتخفيف الام البشرية في كل مكان. وقد نذر نفسه لهذا العمل النبيل بحيث اصبح الان واحدا من هؤلاء الناس الاخبار الذين ينشأ اليهم بالبنان في الاسرة الدولية. كذلك زرت الدكتور صالح بن ناصر في المجلس الاعلى لرعاية الشباب الذي يرأسه الاسير فيصل بن فهد، والدكتور علي التويجري المدير العام لمكتب التربية العربي لدول الخليج، كما قابلت في الامانة العامة لمجلس التعاون الخليجي، الدكتور عبد الله الجاسر، والدكتور عبد العزيز جلال. ولم اغفل وسائل الاعلام والاتصال، وخاصة التلفزيون اذ ان كل الدراسات والمؤتمرات تجمع، على ان يوسع هذه الوسائل ان تقوم بدور فعال في مساندة الجهود المبذولة لمكافحة الامية، اعظم كثيرا مما تفعل الان.

اتضح لي من هذه اللقاءات ثم من زياراتي لفصول محو الامية برفقة الاستاذ الفوزان والاستاذ محمد الحسين، ان الجهد متصل في مكافحة الامية، التي اجمع الناس على انها داء وبيل لا بد من القضاء عليه. وقد سرني انني وجدت انهم دائبون على مراجعة مخططاتهم في ضوء التجربة، وتقويمها واستخلاص العبر منها. وهكذا، فانهم قد طوروا مناهج الدراسة وعملوا، حيثما اقتضت الظروف، الاساليب المتبعة فهم مثلا يغلغلون فصولا او مدارس في اماكن يجدون ان الحاجة لا تدعو اليها، ويفتحون عوضا عنها فصولا في اماكن اخرى كذلك فهم ينظمون حملات موسمية في اماكن مختارة لمكافحة الامية بين البدو الرحل، ويدعمون المؤسسات الحكومية والاهلية التي تفتح فصولا لمحو الامية للعاملين فيها، فيمدونها

نحو أفق بعيد

«نحو أفق بعيد»



بقلم الطبيب صالح

يقول الدكتور عبد الرحمن بن سعد الحميدي، الأستاذ في كلية التربية بجامعة الملك سعود بالرياض، في دراسة حسنة عن تعليم الكبار ومحو الأمية في المملكة العربية السعودية:

«أن التغلب على مشكلة الأمية يعني بناء أمة قادرة على الإنتاج، تتكيف بالتغيرات الحضارية، ذات قدرة ومهارة فنية، وذات آفاق واسعة قابلة للتفاعل مع برامج التنمية، مبالغة للعمل الجماعي، مؤمنة بأهمية العلم والتعليم

والتكنولوجيا، وناظرة للمستقبل أكثر من الماضي والحاضر». ها هنا بالطبع تأكيد على الجانب التنموي في قضية مكافحة الأمية، وهو عين الصواب، وأنه الجانب الذي أخذت بلفت انتباه المنظمات الدولية التي تهتم بالتنمية أولاً وأخيراً، مثل البنك الدولي وبرنامج الأمم المتحدة للتنمية. وقد كانت هذه المنظمات كما قلنا، لا تكتفي بالأمية، وتعتبرها عرضاً سوف يزول بزوال الفقر. ثم أدركت بعد أمة أن الفقر لن يزول ما دامت ثمة أمية.

أما أن الأمية تكون «ناظرة للمستقبل أكثر من الماضي والحاضر»، فهذا قول يختلف بصده الآراء. ومن جميل ما قيل عنه، ما كتبه الدكتور محمد إبراهيم كاظم أستاذ التربية بجامعة الأزهر، ومدير مكتب اليونسكو الإقليمي للتربية، في ورقة له عن «بناء القدرات لمواجهة تحديات العصر»، قال:

«ومحاولتنا لرؤية المستقبل إذن، إنما هي في صميمها تحليل منظومي أو نسقي للماضي والحاضر في محاولة لصياغة وتشكيل المستقبل. هذه الصياغة لا يمكن أن تفصل عن تفصيلاتنا ورؤانا في الحاضر واستهدافنا لصياغة مقصودة ومفضلة لمكونات الأحداث والأشياء والأشخاص والأفكار حتى تقع وفق هذه الرؤية. والفرق بين الرجم بالغيب المسهي عنه، والدراسات المستقبلية التي نهتم بها من قبيل الاهتمام بأمور الجماعة والمجتمع، هو أن الدراسات المستقبلية تبدأ في ضوء الحاضر أيًا كان، وأما كان رأينا فيه، بتصور النسخة التي تمثل تفصيلاتنا لمسارنا نحو المستقبل، وتبين أن هذا المستقبل، لكي يترجح وقوعه، يحتاج لتوفير مقومات ومكونات، كما يحتاج. إذا كان موقفنا إيجابياً - إلى الإيمان والعلم والحساب والخيال والامل والطموح».

وأهم من محض التنمية عندي، أن الإنسان الأمي حين ينفذ عنه أغلال أميته، فإنه يصبح هو نفسه، في حد ذاته، إنساناً أفضل، إنساناً أكثر انفتاحاً على آفاق الكون الرحبة وأسراره التي تغري بالاكشاف. ولا تعود حياته تقاس بعدد الأعوام التي قضاه على وجه الأرض، ولكن بدرجة عمق تجربته الفكرية والروحية، ومدى قدرته على التواصل مع نفسه ومع الآخرين ومع أصوات الحياة في الكون. وقد عبر عن هذا المعنى أجمل تعبير المفكر البرازيلي الذائع الصيت، باولو فرييري، في عبارة أوردتها الدكتور محمد نبيل نوفل، في الفصل الجميل عن هذا المفكر في كتابه القيمة «دراسات في الفكر التربوي المعاصر»، يقول باولو فرييري، وهو واحد من الأقطاب الذين جاءوا بمفاهيم عميقة طريفة، عن قضية الأمية في العالم:

«لا يمكن أن يكون الوجود الإنساني صامتاً، ولا يمكن أن يعيش على الألفاظ الجوفاء، بل يعيش على الكلمات الصادقة وحدها. الكلمات التي يعبر الإنسان بها العالم. إن تعيش إنسانياً، معناه أن «تسمي العالم»، أو بمعنى آخر أن تدرك العالم. وأن تتخذ منه موقفاً إيجابياً، وأن تعمل على تغييره. وعندما «تسمي العالم»، فإنه يبدو لنا كمسألة تتطلب تسمية جديدة، أي أننا عندما ندرك العالم المحيط بنا، ونعترف عليه وعلى التناقضات الموجودة فيه، حينئذ نبرز أمامنا مشكلات تفرض علينا أن نجد لها حلولاً. ونحن نشعر العالم فإنه يناشدنا أن نتعرف عليه ويدركه من جديد، وأن نتعامل مع الواقع الجديد ونحاول تطويره وحل مشكلاته باستمرار....»

... الحوار لقاء بين الناس من أجل «تسمية» العالم، لذلك لا يمكن أن يقوم حوار بين من يريدون تسمية العالم ومن لا يريدون ذلك، بين من ينكرون على غيرهم الحق في معرفة العالم وتعبيده، وبين من يريدون لأنفسهم ولغيرهم ذلك الحق. ومن ثم يجب على من حرموا هذا الحق في تسمية العالم، أن يستعيدوا أولاً هذا الحق الطبيعي، وأن يمنحوا استمرار هذا العدوان الإنساني».

وأول خطوة في سبيل استعادة هذا الحق، هي اكتساب القدرة على التعامل مع الرموز التي تتشكل منها «الاسماء». وقد بسطت لك قبلاً، كيف أن أول ما فعله الهابوروجينز - سكان أستراليا الأولين، منذ أكثر من خمسين ألف عام، أنهم «سموا» الاسماء. ثم جاء الأوروبيون، ومحووا تلك الاسماء القديمة وفرضوا بدلاً عنها أسماء جديدة، وحالوا بين الهابوروجينز، وبين أن يستعيدوا في ذاكرتهم، الاسماء التي ضاعت منهم. وبهذا المعنى يمكن القول أيضاً، أن كل ما يشكو منه العرب اليوم، من تشويه لتصوراتهم عن أنفسهم، وازدراء بحضارتهم، وتزييف لمساهماتهم الإنسانية في الماضي والحاضر، إنما يدخل في باب الحرمان من الحق المشروع لكل الناس في المساهمة في «صناعة الاسماء».

وعندي أيضاً، أنه ليس محض صدفة، أن العرب في جاهليتهم، كانوا يحتفرون القراءة والكتابة ويعدونها ضرباً من السحر والكهانة. وقد توارثت أمثلة كثيرة على ذلك، منها ما روي عن الشاعر الجدي النابغة، ذي الرمة، أنه كان يملئ قصيدة على كاتب يكتئبها له. ووجد أن الكاتب قد أخطأ في كلمة، فقال له: «اكتبها هكذا». فقال الكاتب متعجباً «أو تكتب».

فقال ذو الرمة «نعم. ولكن اكتب عني». هكذا كانوا يرون الجهل حسنة، ويرون العلم مسبة، فلا غرو أنهم عبدوا أصناماً لا تنفعهم ولا تضرهم. إلى أن بعث الله سبحانه وتعالى إليهم، رسولاً منهم، يزكّيهم ويعلمهم الكتاب والحكمة.

وتقول «ولكنه هو نفسه كان أمياً لا يقرأ ولا يكتب». بلى، ولكنك تعلم، أنه صلى الله عليه وسلم، كان له شأن آخر. كان قلبه العظيم مفتوحاً على أسرار الكون، يتلقاها من لدن حكيم عليم. كان فوق الكلمات والحروف، لأنه مفتاح خزائن الأسرار، ومميع تجليات الأنوار. ومع ذلك فقد كان يحض المسلمين على تعلم القراءة والكتابة، وكان يعشق الأسرى لقاء تعليم عدد من المسلمين. وقد كانت تلك أول حملة لمكافحة الأمية في جزيرة العرب، بل وفي العالم ■

● كان ذو الرمة، واسمه غيلان، شاعراً إسلامياً الأثر بعض عادات الجاهلية، ظلت في الإسلام، حتى انقرضت

(للحديث بقية)



بقلم الطبيب صالح

عليه فذلك حق. وأما أن الأمي مُصاب يُعزل كما يُعزل الحمل الجرب ويحرم حق العمل، فذلك مذهب بعيد لم يذهب إليه أحد. وإذا كان صاحب العمل لا يأنف من تشغيل الأمي رغم أميته، فلماذا تتدخل الدولة لتحول دون ذلك، مع العلم بأن حق العمل حق أساسي أقرته وثيقة حقوق الإنسان في المجتمع الدولي؟ لا، أفضل من ذلك ما هو متبع الآن ومعمول به في المملكة العربية السعودية وفي دول عربية أخرى، ذلك أن يكافأ الأمي على محو أميته، فتحسن وظيفته ويرفع راتبه.

ثم يضيف الدكتور الحميدي سبباً آخر لا يقل أهمية عن السبب الأول فيقول:

«أن المكانة الاجتماعية للتعليم، وإن كانت قد بدأت تحتل موقعها الطبيعي في تيار التطور الحضاري المتوثب الذي يسود المملكة، إلا أنها لا تزال الأضعف تأثيراً في نظر العامة والأميين خاصة، بالقياس إلى نظرتهم الأخرى كالانتماء القبلي...»

نعم، هذا عائق كبير، يحول دون إزالة الأمية في كثير من البلاد العربية، ذلك لأن العنجهية القبلية العربية، وهي خصلة قل نظيرها في العالم، تعطي الفرد خاصة إذا كان ينتمي إلى قبيلة يظن أنها ذات محند وشرف، احساساً بالتميز لا يجد أنه يحتاج معه إلى أي شرف آخر. وعندنا في السودان، يرى «الجعليون»، أنهم أشرف القبائل، وقد يكون «الجعلي»، أمياً يخدم عند وزير من قبيلة أدني في موازين الشرف القبلي في نظر «الجعليين»، فيختال عليه فيها وفخراً. وهذا جرير يفخر على الفرزدق في بيته الشهير:

مُضِرُّ أَبِي وَأَبُو الْمَلُوكِ فَهَلْ لَكَ
يَا خَزَرَ تَغْلِبُ مِنْ أَبِي كَنْيِنَا

كان جرير غفر الله له، ابن راعي غنم، وكان أبو الفرزدق رئيساً يشار إليه بالبنان، ومع ذلك أنظر أي جراءة وعنجهية: ثمة عائق آخر يشير إليه الدكتور الحميدي عرضاً فيقول:

«أما ما يتبقى من الأميين، وخاصة من النساء، وسكان الهجر والبدو الرحل، فهؤلاء تجد الدولة مشقة كبيرة في جذبهم إلى برامج محو الأمية.»

قضية الأمية بين النساء في العالم العربي قضية كبيرة، وأحصائيات منظمة اليونسكو تؤكد أن نسبة الأمية بين النساء في العالم العربي، أعلى منها بين الرجال. والمملكة العربية السعودية من الدول العربية التي ترتفع فيها نسبة الأمية بين النساء بشكل ملفت للنظر، رغم الجهود التي تبذل لمحاربتها.

سوف نواصل الحديث في ذلك إن شاء الله. إنما هي جميعاً عوامل متشابكة تؤدي في نهاية الأمر إلى ما اتفق على تسميته بـ «التخلف»، والتخلف يساعد على استمرارها وفتكها بجسم المجتمع. إنها قيد متين ذو حلقات مترابطة، ولا بد من كسر القيد بوسيلة أو بأخرى، كي يستطيع المجتمع أن يسارع الخطى وينتج ويبعد، وقد يخلق في أفق لا تخطر على البال. وإذا كانت توجد وسيلة واحدة أنجح من غيرها، فتلكم التعليم ■

(للحديث بقية)

تكثر الأمية في بعض أقطار الوطن العربي، أما لعدم اكتراث الدولة، وأما لعدم توفر امکانات، وأما للسببين معاً. ولكن في المملكة العربية السعودية، تجد الدولة ملتزمة التزاماً كاملاً بمكافحة الأمية ومحاولة القضاء عليها، وقد عملت كل ما يتوقع منها عمله، فاصدرت التشريعات، وانشأت الأجهزة، ووضعت الخطط، ووفرت المال اللازم. ومع ذلك فإن احصائيات منظمة اليونسكو تشير إلى أن معدلات الأمية في المملكة مرتفعة بحيث يصبح من غير المحتمل أن يقضى على الأمية قضاء تاماً بنهاية هذا القرن. اللهم إلا إذا بذلت جهود اعظم من الجهود التي تبذل الآن. رغم عظمها. والأإذا اقحمت اسلحة اضافية في المعركة، مثل وسائل الاتصال الجماهيري وخاصة التلفزيون.

يذكر الدكتور عبد الرحمن بن سعد الحميدي، في دراسته الحسنة عن مكافحة الأمية في المملكة، سببين اساسيين اعاقا الجهد السعودي، اولهما هو:

«تأثير المناخ الاقتصادي المزدهر بالمملكة كعامل سلبي في جهود محو الأمية، إذ أنه يقلل من أهمية الحوافز المادية المقررة، كما يقلل في نظر الأميين، من أهمية التعليم كضرورة لتحقيق الرخاء الاقتصادي لعدم احساسهم بالحاجة اليه ولانصرافهم إلى اغتنام الأثراء المتاح بوفرة ويسر.»

حقاً، هذا عائق اساسي لأن من اهم الحوافز التي تدفع الأمي إلى التعلم، الرغبة في تحسين حالته المعيشية. وإذا كانت حالته حسنة بطبيعة الحال، فما الذي يجعله يغامر بالدخول في عالم جديد عليه كل الجدة، يتطلب منه بذل الجهد، واعمال الفكر، خاصة إذا كان قد تقنمت به السن، واستقرت حياته على وتيرة معينة؟

ويمضي الدكتور الحميدي في سبر هذه العلة فيقول: «ولا نستغرب هذه النتيجة في مجتمع كان وما يزال يطمح لتحقيق برامج طموحة، أتاحت فرصاً للعمل أمام جميع أبنائه، بما فيهم الأميين، دون أن تضع قيوداً أو شروطاً تمنع الأميين من الحصول السهل على العمل، بل والعمل المجزي مادياً، الأمر الذي جعل من العمل المجزي دافعاً لهم للعزوف عن الالتحاق بمدارس محو الأمية.»

هذا قول فيه نظر، وينطوي على تطرف إلى النقيض ربما دفعت اليه حسن النية. أما أن الأمية داء يجب القضاء

والعلم



بقلم الطبيب صالح

اربعة الاف دارس. وليس نادرا ان يقابل الانسان ضباطا كانوا اميين حين التحقوا بالحرس الوطني، ثم درجوا في مدارج التعليم انطلاقا من فصول محو الامية الى ان ارسلوا في بعثات تدريبية خارج المملكة، وقد تجددهم يتحدثون الانجليزية والفرنسية.

يصاحب هذا بطبيعة الحال، تحول في اسلوب العيش بالنسبة لهؤلاء الشباب. بعد البادية والخيام والابل، يجدون انفسهم وذويهم يعيشون في مجتمعات سكنية تتوفر فيها كل اسباب الحياة الحديثة. ولا بد انه تحول لا يخلو من بعض المعاناة، ولكن يخفف من اي ألم قد يحسونه من هذه النقلة الكبيرة في اسلوب العيش، انهم يظلون على صلة بجذورهم في البادية، يتنقلون بينها وبين نمط حياتهم الجديدة. وذلك، على أي حال فمن لا بد للمجتمع ان يدفعه لقاء التقدم، والمجتمع المحظوظ هو الذي تكون ارباحه اكثر من خسائره في غمار هذه التحولات.

وليس احد اكثر ادراكا لكل هذا، من الشيخ عبد العزيز بن عبد المحسن التويجري، نائب مساعد رئيس الحرس الوطني، الذي يهتم بهذه الأمور بحكم طبيعة عمله. لا غرو، فهو من بادية نجد، وقد جرب هذه التحولات بنفسه، وذاق حلوها ومرها. والذي يقرأ كتبه المليئة بالشاعرية والحكمة، ويتابع حرقته وهو يقف كالشعراء الاولين على الاطلال بين النمامة والذهناء، يحس مدى عناء الانسان الذي يفقد عالما النفا، على علاقته، ويكسب عالما اكثر رفاهة ولكنه اقل الفة. ومن هذا، يدرك المرء بوضوح عمق التجربة الانسانية التي خاضتها المملكة في تاريخها الحديث.

اما فيما يتعلق بمكافحة الامية بين النساء، فان احدي العقبات الكبيرة هي انعدام الحافز القوي للتعلم. ففي حالة الرجال، يوجد حافز واضح، وهو تحسين الوضع الوظيفي، وزيادة الراتب، وتحسين الوضع الاجتماعي عموما. اما النساء الاميات فليس لديهن حافز كهذا. هذا بالإضافة الى ان المرأة تجد صعوبة اكثر من الرجل في الخروج من بيتها والذهاب الى فصول محو الامية، رغم ان المسؤولين يحاولون تذليل هذه الصعاب، بتوفير وسائل النقل، وجعل دروس محو الامية للنساء تنتهي قبل مغيب الشمس ■

(للحديث بقية)

ترتفع نسبة الامية بين البدو وبين النساء، كما تقول الاحصائيات، والمشكلة ذات طابع خاص بين البدو، فالبدو كما نعلم نهج حياة، ولها اصول قديمة، بعضها يعوق جهود محو الامية مثل القيم القبلية التي اشار اليها الدكتور الحميدي في دراسته. وبعض الناس يتحمس لحالة البدوة الى حد المناداة بالمحافظة عليها، اذ ان فيها، على علاقتها فضائل كثيرة.

لا ينكر ان ثمة سحرا خاصا في هؤلاء القوم، الذين ظلوا مرتبطين بتلك الغياfi الواسعة، وتلك الافاق الممتدة كأنهم بقية من عهد غابر، وهو سحر جذب اليه رجالا ونساء من وراء البحر، امثال «داوتي» صاحب «ارابيا سيبرتا»، و«سجّر» الذي طاف بالربع الخالي، و«ليدي هستر ستانهورب» التي فضلت البادية على حياتها المرفهة في لندن. ويا ليت، تقول يا ليت، لو توقف الفلك عن الدوران، لو بقيت الاشياء على حالها كما كانت على عهد ذي الرمة واضرابه، لكنها سنة الحياة، وهي خيارات صعبة، ولا بد من ضياع شيء مقابل شيء.

ومهما يكن، فان من اكبر الجهود التي تبذل لمحو الامية بين البدو، تقوم بها هذه المؤسسة الفريدة الحرس الوطني السعودي. وبما ان معظم ضباط وجنود الحرس الوطني من اصول بدوية، فقد اكتسبت هذه المؤسسة بطبيعة ظروفها، مسؤوليات تربوية وثقافية واجتماعية بالإضافة الى وظيفتها العسكرية.

وهكذا، فالى جانب المعاهد العسكرية، انشأ الحرس الوطني مدارس لتحفيظ القرآن الكريم، ومدارس لتعليم المهارات مثل اعمال الصيانة وسواقة السيارات وغيرها. كذلك توجد مدارس عادية في المستوى الابتدائي والثانوي بعضها نهاري وبعضها مسائي. بالإضافة الى ذلك توجد مدارس خاصة بمحو الامية، تستوعب الاميين اول ما يدخلون الحرس الوطني وتعلمهم القراءة والكتابة ثم يواصلون دراستهم في اقسام المتابعة حيث ينالون الشهادة الابتدائية للكمبار. بعد ذلك يجد الجندي الطريق مفتوحا امامه، يكاد لا يعوقه عائق عن الوصول الى اقصى ما تسمح به قدراته.

ينم هذا النشاط بالتعاون الوثيق مع وزارة المعارف. وهو نشاط واسع، فعلى سبيل المثال بلغ عدد فصول محو الامية في عام ١٤٠٢ - ١٤٠٣ هـ ١٦٧ فصلا ضمت اكثر من

العلم



بقلم الطبيب صالح

حاجات التعلم الأساسية لجميع الأطفال والبالغين والراشدين. وإذا استمرت الاتجاهات الحالية والطرق التقليدية المستعملة في التربية والتدريب، فمن المؤكد أن وضع التعلم في العالم سيتردى، وسيزيد هذا من حدة المشاكل العالمية عوض أن يساعد على معالجتها...

«العالم» الذي نتحدث عنه هذه الفقرة هو «العالم الثالث». والوطن العربي عموماً ينضوي تحت هذا «العالم». ولعل المرء يعجب، أنه رغم الجهود التي بذلت في مجال التعليم في قرابة نصف القرن الماضي، وبعضها جهود باسلة، فإن معدلات الأمية في الوطن العربي ما تزال أعلى منها في أغلب أقطار العالم الثالث.

ارتفاع نسب الأمية أو انخفاضها، يمكن أن يعتبر «مرا» لدى نجاح أي دولة أو اخفاقها في الوفاء بالتزاماتها لشعبها في الحاضر والمستقبل. كل إنسان أني أو إنسانة أمية، هو بمثابة «نصب تذكاري» متحرك، تكرر مجسمة عن واجب أهمل إنجازَه ودين أغفل سداده، وإذا تراكت هذه الديون على أمة، يصبح وضعها عسيراً أن لم يكن مستحيلاً.

وقد أجمعت الدراسات عن الأمية في العالم العربي، على أن الأمية أكثر ما تكون بين النساء خاصة إذا كن من البادية أو الريف. وهي كذلك في البلاد العربية قاطبة، دون استثناء، بدرجات متفاوتة. وأحياناً تفعل الدولة كل ما يجب عليها فعلة، فتفتح المدارس، وتعد الفصول، وتهيب المدرسين، ومع ذلك لا يقلل النساء على التعلم. توجد أسباب كثيرة، منها المفاهيم الخاطئة والنظرة البنيوية المعوجة. وقد سرني أنني وجدت في سوريا مثلاً، أن المراكز التي يشرف عليها الاتحاد النسائي، تنظم ندوات لتوعية الرجال أيضاً، ففي أحيان كثيرة يكون الرجل هو العائق للمرأة من التعلم، فيمنع زوجته أو ابنته من الالتحاق بفصول محو الأمية.

لقد وجدت في رحلاتي في العالم العربي، في المهمة التي كلفتنني بها منظمة اليونسكو، أن وسائل الاتصال الجماهيري، وخاصة التلفزيون، تستطيع أن تساهم مساهمة أكبر بكثير مما تفعله الآن، في حل مشكلة الأمية. هذه الوسائل بما لها من قدرة على التأثير، تستطيع على الأقل، أن تخلق مناخاً عاماً، تكون فيه الرغبة في الحصول على المعرفة، أمراً مستحباً ومألوفاً. الجهد الذي يبذل الآن، هو في أحسن الحالات، جهداً مبعثراً، ينقصه الالتزام الثابت، والادراك العميق لخطورة المشكلة التي يتحتم على العالم العربي أن يحلها.

مسكلة الأمية في الوطن العربي مسكلة ليست عادية، وتحتاج إلى جهود غير عادية لحلها، أو كما تقول الوثيقة الدولية:

«هناك حاجة ملحة لرؤية جديدة في التربية الأساسية تجعلها تركز على التعلم، وتوسع هذه الرؤية مجال التربية الأساسية لتشمل نطاقاً واسعاً من الفئات والمجموعات ومن طرق تقديم التعلم لها، وتحشد موارد حكومية خاصة واجتماعية إضافية وتنشئ تحالفات جديدة بين المؤسسات والوكالات المختلفة المعنية بالتربية الأساسية، وتقوي مناخ التعلم».

(الحدث فنية)

بدأ المجتمع الدولي يرى بوضوح أكثر أن التعليم هو أحد المنطلقات الرئيسية، أو هو المنطلق الرئيسي لصياغة المستقبل، وبناء عالم منتج مستقر يتيح لقطابه الفرص لتحقيق ذواتهم إلى أقصى ما تسمح به مواهبهم. كذلك أدرك أن عليه أن يكسر أغلال الأمية التي تثقله، كي يواجه القرن الحادي والعشرين بحرية وثقة. وهكذا وجدت أربع منظمات دولية جهودها، فعقدت مؤتمراً في تايلاند في شهر مارس الماضي تحت شعار «التربية للجميع». هذه المنظمات هي اليونسكو واليونسيف وبرنامج الأمم المتحدة للتنمية والبنك الدولي. وتقول الوثيقة المشتركة التي قدمتها هذه المنظمات للمؤتمر:

«تحديد أولويات الانفاق العام ضروري، إذ يواجه كل بلد في المدى القصير درجة من طلب فرص التعلم أكبر مما يمكن توفيره. وعلى هذه الأولويات أن تشجع البرامج التي تصل بعض الفئات الخاصة، مثل تلك التي تمثل نقصاً في تكافؤ الفرص، دون عزل متعمد لأي مشترك محتمل. وتنبؤ الاعتبار المعنوية بالمساواة والفعالية، أن الأفضلية الأولى في الموارد العامة، يجب أن تكون للتربية الابتدائية. ولكن يجب أن توضع الأولويات داخل مفهوم شامل طويل المدى، ينفذ على مراحل حتى يحصل الجميع على فرصة الاستفادة من التربية الأساسية، وذلك من أجل المساواة ولتأمين حاجات التعلم الأساسية للجميع».

هذا يعني أن على كل جيل أن يبذل قصارى جهده لحل المشاكل في وقتها، ولا يترك حلها للأجيال القادمة، حتى لا تتراكم المسائل إلى درجة يستعصي على الحل كلية. في الوطن العربي اليوم أكثر من مائة مليون أني. هذا يعني أن الأجيال الماضية قد قصرت بشكل ما. صحيح أنه توجد بعض المسيرات لهذا التقصير، ولكن واقع الأمر هو أن ما هنا ديناً ثقيلًا بقي على كاهل الجيل الحاضر. على هذا الجيل أن يطرح عن كاهله هذا العبء، بالإضافة إلى الوفاء بمسؤولياته التي تفرضها الحياة الحاضرة.

ونمضي الوثيقة فتقول:

«أن الوضع الراهن للتربية الأساسية غير كاف لتأمين



بقلم الطبيب صالح

الى بغداد الى الكويت الى صنعاء. والآن في حلوان. مشكلة الانسية في الوطن العربي مشكلة غير عادية، ولن نحل بالطرق العادية، ولكن بواسطة رجال ونساء منقطعين لخدمة المجتمع ولديهم رغبة جامحة لفعل الخير.

وها هم اولاء. اجدهم ثمانين اماسي حينما حللت. عبد الحسين زويل في بغداد، وعبد العزيز النجدي في الكويت ومحمد المضواحي في صنعاء وابراهيم الفوزان في الرياض، واخرون سوف انابلهم في الرباط وفي تونس وفي دمشق وفي حلب، واخرون لم اسعد بمقابلتهم ولكنهم موجودون ولا شك في كل انحاء العالم العربي. جنود مجهولون او كالمجهولين، يضيئون مثل النجوم في ظلمات الليل، يبددون البس والخذلان، ويوظفون من سماتهم، تلك المعاني السبيلة التي تكمن في وجدان هذه الامة العظيمة. يساهمون بحق في صياغة المستقبل، بلا جلبة ولا ضوضاء، ولا عطرسة ولا كبرياء.

وهنا في حلوان، في هذه الانسية المؤقتة، في هذه الارض المعارة، هذا الرجل الكريم حسن قاسم، وهذه السيدة الوسيعة الصبوة الوجه عنايات الفقي.

ينظم المركز للدارسين والدارسات فصولا لتعلم القراءة والكتابة، كما يهيئ لهم الفرصة لتعلم حرف مثل النسيج والتدبير المنزلي والتفصيل والخياطة والنجارة والحدادة والسباكة وغيرها. بالاضافة الى ذلك يقوم المركز بدور المرشد والموجه، فيتعرف على الظروف الخاصة للدارسين والدارسات ويسعى جهده لتذليلها، كما يوفر لهم دخلا من تسويق مصنوعاتهم التي تصل احيانا درجة عالية من الجودة.

وجدت بين الدارسات فتاة لم تتجاوز الخامسة عشرة من العمر، توفي والدها، وترك لها اخوة واخوات فاضطرت ان تساعد امها على اعاليتهم. ووجدت واحدة صغيرة السن ذهبت حين عرفت انها زوجت وطلقت من رجل اساء معاملتها ثم هجرها. ونساء بين العشرين والخمسين، مطلقات او ارامل، يقمن باعالة اطفالهن بلا سند ولا عون، كل هؤلاء فتح لهم هذا المركز الفريد باب الامل وجدد ثقتهم في الناس والحياة. ذلك تراه واضحا في الوجوه التي اخذت الحيوية تدب في قسمايتها، والعيون التي بدأت تشع بالذكاء. وهذه السيدة العجيبة، عنايات الفقي، تسبغ عليهن من عطفيها، فهي لهن بمثابة الام والاخت والصديقة، تأخذ بيديهن الى ان يكملن تدريبيهن، ثم تجد لهن عملا في مصنع او محل تجاري. واحيانا تستقل الواحدة منهن في عمل حر.

كانت التان من الات النسيج متعطلتين. وقالت لي السيدة عنايات الفقي، ان نحن الواحدة منهما الف دولار، لا اكتر، وانها لا تجد المال لشراء مكنات جديدة.

تأمل عشرة الاف دولار وجود بها انسان سباق الى الخير، في هذه الامة الطويلة العريضة، الغنية الفقيرة، تحدث اترا كبيرا في هذا المركز. ومائة الف او مئتا الف دولار لعلها تبني مركزا جديدا. دائما. يستغل اضعاف العدد الحالي من الدارسين والدارسات. وما مائة الف ومائتا الف واكبر. اميا محض ارقام ميتة سجيبة على الورق، في مصرفنا، في مكان ما. مثل الحروف والكلمات، اذا نفخت فيها الحياة، تحولت الى ابتسامات على الشفاه واضواء في العيون. ■

(تدبر سة)

كانت حلوان. فيما مضى. بلدة فائضة بذاتها، يفصدها الناس من مصر ومن خارج مصر، للاستشفاء في مياها المعدنية. كذلك اشتهرت بصناعة النسيج. ثم ضافت مدينة القاهرة بسكانها، فبنى الناس على طول الطريق الممتدة حتى حلوان، فاصبحت كانهما جزء من المدينة الكبيرة. لذلك حين تصلها، تكاد لا تميز انك قد انتقلت من مكان الى مكان، ولكنك حين تدقق النظر، تجد المباني والاسواق والمزارع والبساتين، كانه في حاضرة من حواضر الريف. ذكرتني قليلا بمدينة «وذ مدني» السودانية في الجزيرة. لم تبق مزارع ولا بساتين في القاهرة. التهمت مباني الاسمنت والزجاج الخضرة والزرع وخاصة في منطقة الهرم، كما حدث لعوطة الشام الفخياء.

يقول العلماء ان تلك الارض هي اكثر ارض الله خصوبة، وبها للعجب كيف يردم الناس طمي النيل بالاستسخت، ثم ينفعون المال الطائل لاستصلاح ارض الصحراء. وبها ليته كان بناء بصر العين، فياكل دميعة مكسبة بعضها الى بعض، وبعضها فوق بعض. وقد ظل الاستاذ الجليل الدكتور حسن فتحي يصرح ولا يجيب، يحاول ان يوقف ذلك الطوفان. رحمه الله. مات وفي قلبه حسرة، فقد رأى مدينة القاهرة الجميلة تكاد تفرق تماما، كما حدث لأعاب المدن العربية.

تركنا الطريق الكبير، وبخلفنا معسكرا كشافيا، ثم عرجنا يسارا في طريق ليست معبدة، حتى وصلنا الى مجموعة من المباني التي بدت لي كانهما بنيت على عجل لغرض مؤقت. هذا هو «مركز تعليم الكبار متعدد الأغراض». وسرعان ما تاكد لي صدق احساسي بانه بناء مؤقت. فقد علمت من المدير، الاستاذ حسن قاسم، ان الارض التي اقيم عليها المركز هي جزء من المعسكر الكشفي الذي اعادهم، ابائا، ويطلب الآن اعادتها. ورغم ذلك فهو مركز فريد من نوعه، افتتحته وزارة التربية عام ١٩٧٨ بمساعدة من منظمة اليونسكو.

وسط هذا التفتت، يمضي السيد حسن قاسم، والسيدة عنايات الفقي المشرفة على التدبير المنزلي في عملهم النبيل، بحماسة واثمان واخلاص يدعو الى الاعجاب. ابهنا من هذه الفصيلة النادرة، مثل كل الناس الذين يعملون في هذا الميدان. وقد تاكد لدي في تلك الزيارة احساس ظل يخامرني منذ بدات رحلتي. انطلاقا من عمان

نحو افق بعيد

الطبيب



بقلم الطبيب صالح

سوف اريحك اليوم يا
اصلحك الله، من حديث
الامية والاميين، فقد استقلت
الى صحبة «الاستاذ». كان
آخر عهدي به في «سدني»
في استراليا مع «منسي».
ذاك ايضا حديث لم افرغ منه
بعد. لقد كنت في بلهنية.
كما يقول البحري. مع
شعب الـ «ابوروجنيز»
الرضى وثقافته الفريدة،
و«منسي» و«الاستاذ». ثم
نجاة قلب الزمان ظهر
المجن، كما يفعل دائما.

بداء لي انه لا يليق ان تخضع بلاد، وتشهد بلاد
بالضياع، وتخلق حدود وتفتح حدود، وتشرع رماح
وتستل سيوف، وتقطع اواصر وارحام، وتخرب بيوت
وترمل نساء، وتسير الفتنة شعناء غرباء في الطرقات.
قلت لا يليق ان يحدث كل هذا، وانا سادل مع قبائل الـ
«ابوروجنيز» في استراليا.
ولان الامر كما قال البحري:
وهل ارتجي ان يطلب الدم واتر

يد الدهر والموتور بالدم واتر
فقد اخترت عمدا ان اتحدث عن الامية والاميين. قلت
لعلمي اذكر بني قومنا بالثوابت، فربما يتوبون الى انهم
في نهاية الاسر امة واحدة، مهما خيل لهم عكس ذلك،
وانهم ان تفرقت بهم السبل في القمة، فطريقهم مشترك
في القاع.

اجل، استقلت الى صحبة «الاستاذ» ابتغي عنده
العزاء، ان كان ثمة عزاء وفتحت ديوانه بشرح ابي البقاء
العكبري كيفما اتفق، فوجدت قصيدته في مدح ابي
الفضل بن العميد. واوقفتني تكاليف الشراخ على بيت من
ابيات القصيدة ليس فيه معنى طريف ولا تصوير
مدهش، الا انه اثار هؤلاء الشيوخ الاجلاء فكانهم كلاب
تتناوش عظاما.

اهدى ابن العميد ابا الطبيب هدايا كثيرة، بينها سيف
محلّى بالذهب والفضة، فاطن المتنبّي في وصف السيف
بأبيات ليس فيها شيء لا يقدّر عليه شعراء اقل منه
مكانة، منها:

قلدني يمينه بحسام اعقبت منه واحدا اجداده
كلما استل ضاحكته اناه ترغم الشمس انبها اراده
قبل الشيوخ الاجلاء عن طيب خاطر، بعضهم شروح
بعض، حتى جاءوا الى هذا البيت:
وتقلدت شامة في نداء جلدنا منفساته وعناده.

قال الواحدي، حكى ابو علي بن فورجه عن ابي العلاء
المعري قال «يعني ان الغمد بما عليه من الحلي والذهب،
انفس من السيف، لانه كان محلّى بكتير من الذهب،
فجعل الغمد جلدا اذ جعل السيف شامة».
قال ابو علي، والذي عندي انه اراد بجلده ظاهره،

الذي عليه الفرند، لان انفس ما في السيف فرنده وبه
يستدل عليه في الجودة.
وقال ابو الفتح: يعني انه يلوح فيما اعطاه كما تلوح
الشامة في الجلد لحسنه ونفاسته...

ولم يعجب ابا الفضل العروضي هذا الرأي من ابي
الفتح فقال «الم يجد المتنبّي مما يحسن في الجسد فوق
الشامة كالعين الحسناء» لكنه اراد ان هذا السيف على
حسنه وكثرة قيمته، كالنقطة فيما اعطاه. الا تراد يقول
«جلدها منفساته» اي ان قدر هذا السيف، وهو عظيم
القيمة، كقدر الشامة في الجلد.

قال الواحدي «وهؤلاء الذين حكينا كلامهم كانوا ائمة
عصرهم، ولم يكشفوا معنى هذا البيت ولا بنوّه» بما
يقف المتأمل عليه ويقضي بالصواب. ومعنى البيت انه
جعل ذلك السيف شامة، والشامة تكون في الجلد. ولما
سماه شامة، سمي ما كان معه من الهدايا التي كان
السيف في جملتها جلدا... قال، وقول ابن فورجه هوس لا
شيء!!

صدقت يا مولانا، ولكن اليس هذا ما قال به شيخنا
ابو الفتح

واما ابن القطاع فقد ابحر بعيدا حين قال:
«يريد ان السيف على جلالة قدره، وما عليه من
الذهب، كالشامة في جنب ما اخذت منه. وقوله «جلدها»
يريد ما عليه من الفرند الذي من اجله يستعد ويغالي في
ثمنه....

يا زول! اتق الله.
المعنى، يا جماعة، اقرب منالاً من كل هذه المباحكة،
وقد اصابه شيخنا ابو الفتح اول مرة، الاتق العين اول
ما تقع على الشامة في الجلد» كذلك هذا السيف، يجذب
النظر اليه دون سائر الهدايا رغم نفاستها. لذلك ركز عليه
المتنبّي وتغنّى في وصفه، وجعل الشمس تضاحك بريقه،
وانه يقسم الفارس المديح نصفين، وانه واحد زمانه
انجبت اباء صدق من السيوف: ولو شاء المتنبّي ان
يطنّب في وصف بقية الهدايا، لفعل.

ومهما يكن، فهذه القصيدة برمتها قصيدة فاترة، غفل
من روح عبقرية المتنبّي. لقد تكلفها تكلفا، ربما ليدهش
ببلاغتها ومحسناتها ابن العميد، وهو من هو. وقد
نظمها وهو ثمة، في هناية عيش وراحة بال وطيب
خاطر. والمتنبّي كما نعلم لا يقول الشعر العظيم هكذا. لا
بد له من اشياء تحرك سواكن عبقريته، حينئذ يحلق في
سموات لا يصلها شاعر غيره.

اللهم الا بيت واحد في هذه القصيدة، يذكر اذا كنت
قد نسيت، بانك في حضرة «الاستاذ». وهو بيت لم يكثر
له هؤلاء الشيوخ الاجلاء ومروا عليه مرور الكرام. انه
يخرج من جسد القصيدة كما يخرج البازي من العش،
ويسط جناحيه، ويحلق في افق بعيدة، ويغدو قصيدة
قائمة بذاتها:

ان في الموج للغريق لعذرا واضحا ان يفوته تعداده



بقلم الطبيب صالح

دخلت مجلسهم، وأنا
مشغول البال، مشئت الأفكار،
بي ما يسائر الناس وزيادة،
فقد عاودني ايضا ذلك الطيف
من وراء أزروعات، فجدد لي
حزناً الى احزاني. لكنني ما
لبثت ان وجدتني - وأنا انظر
اليهم يتبارون في مضمار
«الاستاذ» - وجدنتني اروق بعد
كسر، واتهلل بعد ضجير،
واتحرك بعد ركود. لله درهم.
هل قلت أنهم مثل كلاب
تتناوش عظماً؟ حاشا لله.
هؤلاء قناصون لشوارد

المعاني، غواصون على اللؤلؤ في الاعماق، جافوا المضاجع،
وفارقوا الدنيا بزخرفها، وانقطعوا للعلم، تركوا لنا هذا الارث
العظيم من فقه وحديث ولغة وسير، ونحن مهتما فعلنا، فلا
اكثر من طائر يحسو بمنقاره في البحر، او كحصاة تكون في
سفح الجبل.

اقول، ما ان ازمع المتنبي مفارقة ابن العميد، حتى تحركت
سواكن عبقريته، فهذا شاعر داؤه الرحيل، وشفاؤه في
الرحيل. او كما قال:
ذرائي والفلاة بلا لبيل

ووجهي والهجير بلا لثام

فاني استريح بذي وهذا

وانمب بالانساخ والمقام
تاقت نفسه الى ما بكرهه وبهواه، وتحلل من قيود المكان،
وسجن الدعة ورغد العيش، فجاشت قريحته الجبارة، وجاعته
ابيات القصيدة تترى كأنها تملأ عليه املاء، بلا تكلف ولا
تصنع.

فأما ترضي لا اقيم ببلدة

فأفأ عمدي في دلوقي من حدي

فأخرمه عروضي وأطعمه جلدي

نجانب لا يفكرن في النخب والسعد

يحل القنا يوم الطمان يعقوتي

تبدل أيامي وعيشي ومنزلي

وأوجه فتان حياء تلثموا

عليهن لا خوفاً من الحر والبرد
نعم، هذا هو صاحبنا الذي نعرفه من قديم: هذا ابو الطبيب
المتنبي الذي عهدناه، لا احد قبله، ولا احد بعده، وكان تلك
القصيدة الاولى في مدح ابن العميد، كانت عيباً يعيب به
ريثما يجيئه الشعر الحق في هذه القصيدة الثانية. وابن من
هذا السيف الذي ياكل حنقه وينبثق من حده، ذاك السيف
المرقة، المحلى بالذهب، الذي جلده «منفساته» وعتاده.

واعجب لشاعر يصف مقدمته على الممدوح وهو مفارقة،
فهو كعهده ابدأ، قادم ذاهب، حاضر غائب، مقيم مفارق. وما
اروع هذه الابيات التي يصف فيها حال الابل التي حملته الى
ابن العميد:

كنا الربيع العيس من بركاته

فحاضه لم نسمع حذاء سوى الرعد

اذا ما استجبن الماء يعرض نفسه

كرعن بسنت في اناء من الورد

كنا ارادت شكرنا الارض عنده

فلم يخلنا جو مبطناه من رعد

لنا مذهب العباد في ترك غيره

واثباته ينفي الرغائب بالزهد

نعم، نعم، نعم.

يقول ابن جني العتيق:

«يقول، اذا مرت هذه الابل بالمياه التي غادرتها السيول
لكثرتها، صارت كأنها تعرض نفسها عليها، وان كان لا عرض
ولا استحباب ولكنه ضربه مثلاً، فكانها تشرب مستحبة من
كثرة العرض عليها. وكرعن، شربن، واصله من انخال الكارع
الشارب في الماء ليشرب. وجعل الموضع المضمّن الماء، لكثرة
الزهر فيه، كأنه اناء من الورد. والسبت مشافرها...»

قال العروضي «ما اصنع برجل ادعى انه قرا على المتنبي
ثم يروي هذه الرواية ويفسر هذا التفسير؟ وقد صحت روايتنا
عن جماعة منهم محمد بن العباس الخوارزمي، وابو محمد بن
القاسم الجرمي وابو الحسن الرضجي، وابو بكر الشعراني،
وعدة من الرواة يطول ذكرهم:

اذا ما استجبن الماء يعرض نفسه

كرعن بشيب في اناء من الورد

اذا ما استجبن بالجيم من الاجابة، والاستجابة اشبه
بالعرض ووافق. والمعنى انه (اي الماء) يعرض نفسه وهي
تجيب. والكرع بالشيب ان ترشف الابل الماء، وحكاية صوت
مشافرها عند شرب الماء، شيب...»

قال الواحدي «قول ابن جني ليس ببعيد عن الصواب، وقد
شبه المشفر بالسبت، وهو حسن، ومنه قول طرفة:

وخذ كبرطاس الشامى ومشر

كسبت اليماني قد لم يجرد..»

واقول، غفر الله لي، ان شيبخنا العروضي قد اصاب،
وشيبخنا ابن جني والواحدي ذهبا مذهبا عجيبا، اذ كيف
«تستحي» هذه الابل من الماء يعرض نفسه عليها؟ وابن موضع
«الحياء» في هذه القصيدة المتينة، وقد فسر ابن جني البيت
الذي قبل هذا بان الابل جاءت الممدوح مسرعة لم يلزم لها
حادي يحذوها فقد كان الرعد لها بمثابة الحادي؟ وكيف
يستقيم «الحياء» مع كون الابل قد «كرعت» الماء، والكرع شرب
فيه نهم وعجلة حال الظمان. وعندي ان المتنبي لو اراد هذا
المعنى الذي ذهب اليه ابن جني والواحدي على طرافته، لنحا
نحو آخر.

اظن البيت كما قال العروضي:

اذا ما استجبن الماء يعرض نفسه

كرعن بشيب في اناء من الورد

هكذا تسمع وترى. تسمع اصوات الابل الظماى تعب الماء
عباً «شيب. شيب. شيب»، وترى النبات والزهر من مختلف
الالوان حول الماء وعلى وجهه. ولعلك ترى ظلال الابل منعكسة
على صفحة الماء. هكذا تصبح الصورة بديعة لا حدود لجمالها
في الخيال، مثل مزهرية صينية نادرة، او كرسم من هذه
الرسوم المرهفة التي صنعها الفنانون اليابانيون القداسي على

(اللمت ملة)

الحرير ■



بقلم الطبيب صالح

قال أبو البقاء العكبري رحمه الله، في مقدمة شرحه لديوان أبي الطيب المتنبي، أنزل الله شأبيب الغيث على مثواه أينما كان: «أما بعد، فإني لما اتقنت الديوان، الذي انتشر ذكره في سائر البلدان، وقرأته قراءة فهم وضبط على الشيخ الإمام أبي الحرم مكى بن ريان الماكسيني بالموصل سنة تسع وتسعين وخمسائة، وقرأته بالنداء المصرية على الشيخ أبي محمد عبد المنعم بن صالح التميمي النحوي، ورأيت الناس قد أكثروا من شرح الديوان واهتموا بمعانيه، فأعربوا فيه بكل فن وأغربوا، فمنهم من قصد المعاني دون الغريب، ومنهم من قصد الإعراب باللفظ القريب، ومنهم من أطال فيه وأسهب غاية التسهيب، ومنهم من قصد التعصب عليه، ونسبه إلى غير ما كان قصد إليه. وما فيهم من أتى فيه بشيء شاف، ولا بغوض هو للطلاب كاف.

فاستخرت الله تعالى، وجمعت في كتابي هذا من أقاويل شراحه الأعلام، معتمدا على قول أمام القول المقدم فيه، الموضح لمعانيه، المقدم في علم البيان أبي الفتح بن عثمان، وقول أمام الأدباء، وقدة الشعراء، أحمد بن سليمان، أبي العلاء. وقول الفاضل اللبيب، أمام كل أديب، أبي زكريا يحيى بن الخطيب، وقول الإمام الراشد ذي الرأي المسدد أبي الحسن علي بن أحمد. وقول جماعة كابني علي بن فورجة، وأبي الفضل العروضي، وأبي بكر الخوارزمي، وأبي محمد الحسن ابن وكيع، وابن الأفيلي وجماعة...

وأقول، غفر الله لي، جزاك المولى أحسن الجزاء يا أبا البقاء. لقد قمت بعمل نبيل، ونهضت بعبء عظيم ثقیل. ولولاك وإسمالك، لتمزقت اللغة أشلاء، وتاهت توهان الناقة الخطباء. إذا لبركت بأجرانها الغثة، واكتنف الظلام الأمة، ورثت حباثها، وعم ضلالها، وامعنت فيها عوامل الخراب والتمزيق، فوق ما هي عليه. لو حدث ذلك، لكننا جميعا نتحدث اليوم لغة كلغة شركات الطيران العربية، ينصبون الفاعل، ويرفعون المفعول، ويجمعون المثني، ويننون المفرد، يذكرون المؤنث ويختنون المذكر.

يعربون ما لا يعرب ويضربون ما لا يضرب. يفعلون باللغة العربية الشريفة فعل البذاءة، حسب تعبير أخواننا في تونس. وهؤلاء الأعاجم من أنجليس وفرنسيس، وألمان وتليان، في مطراتهم وطائراتهم، لغتهم فصيحة وأصواتهم صريجه. وهلم جرا. لا عجب أن الأمر برمته كما نشاهد ونرى، فركاكة اللغة دليل أكيد على سماجة الفكر، وقصور الهمة وبنائة المطلب. لا عجب أيضا أن القوم يصطخبون في غير مصطخب، ويحتربون في غير محترَب.

ونحن في هذا الزمان الأعوج كما قال الشاعر الشكري، على كثرة ما عندنا من دكتوراهات وجامعات، أكثر علينا من الهموم على القلوب، والفلس على الجيوب، والهزائم في الحروب، والخطل في المطلوب، لا نرى شيئا يسر الصديق ويغيب العدو، اللهم إلا أضواء تلمع هنا وهناك بين الفينة والفينة. ولو جاءهم أبو البقاء ببحره الزاخر وعلمه النادر، لما رضوا أن يجعلوه محاضرا في جامعة من جامعاتهم، ناهيك باستاذ. يقولون له: ولكن أين شهادة الدكتوراه يا أبا البقاء؟

وهم، من أين يجيئون بشهادات الدكتوراه في اللغة العربية وعلومها وفنونها؟ من لئس ومضربض، وباريض ولوص أنجليص، من أدبرغ وهابلدبرغ وبطرسبرغ وماشت من أباطيل.

هذا، ونسخة ديوان أبي الطيب التي بين يدي الآن، طبعها مصطفى البابي الحلبي بمصر المعمورة عام ١٩٣٦ ميلادية، وقد ضبطها وصححها ووضع فهرسا لها الأستاذ الأجلء مصطفى السقا وإبراهيم الأبياري وعبد الحفيظ شلبي. أجزل الله عطاءهم وأحسن ثوابهم. ولم تعد طباعتها بعد ذلك حسب علمي، لا أدري لماذا. وهي طبعة نادرة أعانني في الحصول عليها أخي حازم هاشم الصحفي الأديب، بثمن ليس زهيدا، ولكنه لا شيء بالقياس إلى ما في جوفها من كنوز لا تقدر بثمن. وحازم هذا أخو صدق، محب للغة العرب، يتحدث بها في حياته اليومية مؤثرا إياها على اللغة الدارجة، وهو عليم بشعاب القاهرة المحروسة، يعرف أسواقها وكنائنها، يخرج لك الكحل من العين والإبرة من كسوم الثمن. انه واحد من عصبة كريمة نادمهم كما نادم حسان بن ثابت أصحابه بجلق في الزمان الأول، يطلون في عيني مدينة القاهرة وحيدة الدهر، فوق ما هي عليه من حلاوة. يجمعني وأياهم صفاء المودة وحب لغة العرب، وتنسم روائح النيل والشرف في القول والعمل، في أي تلاح حلا، وفي أي واد نزلا. نتصيد المعاني المعاني ونقتفي آثار البهائيل من القدماء والمعاصرين. نفرح لأفراح هذه الأمة الضمء والرغناء، ونأسى لمآسيها. نقول، بخ بخ وواحسرتاه وواحسرتاه!



بقلم الطبيب صالح

يجلبنى الأديب العبقري، وعلى
يتحزب للاديب العبقري، وعلى
هذا البعد في الزمان، ما أجمل ما
بدو لنا تحزب أبي العلاء المعري
لأبي الطبيب المتنبي، وما أسخف
ما نبذوا لنا غير الشريف الرضي
ذهب أبو العلاء رحمه الله
مذهباً بعيداً في تحزبه، واسمى
شرحه لديوان أبي الطبيب معجز
أحمد، قيل لنا أن الهيئة المصرية
العاملة للكتاب قد أعادت طبعه،
فاخذنا نبحث عنه، واكثرنا همه
في البحث، صديقنا حازم هاشم
ولا فائدة، فقد كان البرق خلياً،
اولئك اخوان صدق كما قلت،
يجملون في عيني مدينة القاهرة
الجميلة، منهم أبو سميع، رجاء النقاش، الناقد الصادق والصفي
السابق، ومنهم أبو اشرف، محمود سالم، أخو الأريحيات وحاوي
علوم الموسوعات، ومنهم أبو عائشة، عبد المنعم سليم، الذي خدم
اللغة العربية بتراجمه من اللغات الأجنبية، ومنهم أبو أحمد،
صلاح أحمد محمد صالح، السفير اللبيب والأديب، رفيق صباوات
الشباب في لندن ذات الثلج والضباب، وأحياناً بضادنا من محبيه
في سويسرا، عبد الرحيم الرفاعي، صديق السراء والضراء،
وجماعة آخرون، وكلهم محب للادب، عاشق للغة العرب، يصدق
فيهم قول الحسن بن هانئ:

وخدين لذات مليل صاحب
تفتتات مه مكافئة ومزاحا

رحم الله أبا العلاء، لقد وقفت على قبره بمعرة النعمان منذ
بحر شهر، في طريقي إلى حلب الشهية مدينة المتنبي، تذكرت قول
أبي الطبيب في رثاء محمد بن اسحق الفخوضي:

ما كت أحسب قبيل دفنك في الثرى
أن الكواكب في التراب تنور

وأي كوكب غار في ذلك الثرى، كانه عنى أبا العلاء الذي كان
أيضاً من تنوخ، وتلك من عجائب الصدق، إن يرثي السابق من لا
يزال في طيات الغيب، حين سمع أبو العلاء قول المتنبي:

أنسا الذي نظرت الأعمى إلى أدبي
وأسمعت كلماتي من به صم

قال «ما أظن إلا أنه تمناني بقوله هذا»
لكن الشريف الرضي رحمه الله، على فضله وسنوّ عقله، سمع
وكانه لم يسمع، وفهم وكأنه لم يفهم
كان الأثر جميلاً، بقدر ما تكون الآثار جميلة، حوله زرع وأزهار
في باحة مبلطة بالرخام المنقوش، كان الضريح مسجداً فيما علمت،
ثم جعلوه ملتقى للشباب ومكتبة، ما لأبي العلاء والشباب، وأي
عزاء له في ذلك؟ لقد فر من الناس وأخذ إلى داره وأفكاره، يهجو
الحياة، ويغازل الموت:

فلنسا معنى العسر إلا الأقل
وقاربت السروح تترك الحسد
لو عاش أبو العلاء اليوم، لأعجبه حاكم المعرة الصالي، رجل
حسن الخلق عالي الهممة، عميق الثقافة، محب للادب والأنباء

والعلم والعلماء، مسرور بأنه يصرف شؤون ذلك الاقليم العريق،
وفي عهده رفات ذلك الإنسان الجليل، سألته إن كانوا قد اختاروه
عن قصد لذلك المنصب فابتسم ولم يقل شيئاً.
وقد طمانني أنهم سوف يحولون ضريح أبي العلاء إلى مزار
لعارفي فضله، يضم مكتبة تحوي آثار الشاعر وكل ما كتب عنه.
على بعد مضع كيلومترات من المعرة، وجدنا مشوي الخليفة
العدل عمر بن عبد العزيز، كانت تلك صدفة أخرى، فقد كنت أظن
عمر بن عبد العزيز يرقد في دمشق.
ما الذي أتى به إلى دير سمعان؟ في رواية إنه كان عائداً من
غزوة في بلاد الروم، فعرج على صديقه القس في دير سمعان،
وكانت بينه وبين القسيس مودة، فمات ثمة مقتولاً بالسم على
الأرجح. وفي رواية أنه مل العيش بدمشق، فجاء وأقام في هذه
الناحية إلى أن مات. ثم جاء أبو العلاء، كانما عن قصد، فاقام
بجواره وفي كنفه.

عند قدميه ترقد زوجته الوفية، التي عانت معه شظف العيش،
بعد نعمة ولين، ابنة الخليفة وأخت الخلفاء، فاطمة ابنة عبد الملك
بن مروان، لقد أوصت إن تدفن معه عند قدميه، فكان لها ما أرادت،
ولا أدري أي الأمرين أدعى للاستعبار والأسى، مرقد ذلك الإنسان
العظيم في تلك المكان النائي، أم مرأى زوجته الصالحة وهي
تتشبث به في مماته كما تشبثت به في حياته، لقد خيرها حين
ولّى الخلافة، وخلع عنه حياة الترف، بين حياة الزهد والتقصف
أو الفراق، فاختارت العيش معه.

كانوا يرممون الأثر ويعيدون بناءه حين زلزاله أواخر المساء،
وراء كل هذا الجهد، وزيارة الثقافة الفاضلة الدكتور نجاح
القطار، التي تعمل هي ووزارتها بهمة وعزم في ترميم مشاوي
الخالدين، وصيانة آثار الماضين.

ويا للعجب! على قبر عمر بن عبد العزيز أيسات للشريف
الرضي في رثائه، هاشمي فاطمي يرثي عبيدسياً أسوياً من آل
مروان، ما أجمل ذلك.

هو أبو الحسن محمد بن أبي أحمد الحسين الطاهر الملقب
بذي الخناقب.

يرتقي بنسبه إلى موسى الكاظم، فإلى الحسين بن علي،
ولهذا لقب بالشريف الرضي الموسوي، ويقول عنه الثعالبي:

بعد اليوم أبدع أهل الزمان، وأحب سادة العراق، يتخلّى مع
محدثه الشريف، ومفخره المنيف، باب ظاهري، وفضل باهر، وحظ
من جميع المحاسن وأفر، وهو أشعر الطالبيين من بقي منهم ومن
غير، على كثرة شعرائهم المفلّحين....

هو كذلك، والأبائات التي خاطب بها الخليفة العباسي المقتدر
ناله، ما تزال أصدأوها تتردد عبر العصور، ليلاً على الشموخ
وعزة النفس:

مهلاً أمير المؤمنين فأننا
في دوحية العلياء، لا تشفرق
ما بيننا يوم الفخار تفاوت
أبداً كبلانا في الممالي مفرق
إلا الخلافة ميزتكم فأنبي
أنا عسائل منها وانت مطوق

ما أشبه هذه الكبرياء بكبرياء المتنبي!
نعم، ولكن لا بد لكل عظيم من كيو وكبوة الشريف الرضي
التي تكاد لا تغتفر، هي أنه لم يعترف بعبقريته بكر الزمان
وقلبة الدهور، أحمد بن الحسين بن الحسين بن عبد الصمد
الجعفي، وقيل أحمد بن الحسين ابن مرة بن عبد الجبار
الجعفي، وقيل أحمد بن محمد بن الحسين بن عبد الصمد
الجعفي، الملقب بابي الطبيب المتنبي، من العلويين الأشراف كما
زعم أستاذنا محمود محمد شاكر وآخرون، وذلك عندنا
هو الأرجح ■ (للبحث صلة)

نحوافق بعيد

كلنا عباد من بعثت اليها
عذر في وخان فيسمي يقول
حملثني القصيدة على جناحيها الى المدينة لا تنفس
الهواء الذي تنفسه الشاعر العبقري. يا له من لحن فرح
حزين يتأرجح بين الوجود والعدم!
انظر الى القصيدة على ضوء ما حدث له بعد عامين من
نظمها، الا تجد احساسا قويا بقرب الغناء، بدنو الرحيل؟
وهذان البيتان، الا ترى انهما اعجب بيبي غزل في ديوان
الشاعر العربي؟

رودينا من حسن وحبك ما دام
فحسن الوجوه حال تحول
وسلينا نملك في هذه الدنيا
فان انتقام فيهما قليل.
الطريق قصير وطويل. والشمس والجمال والحياة الى
زوال. والزمان صحيح وعليل، والنعمة تحيي وتميت. لا
يوجد شيء ثابت، كل شيء متأرجح. الجاء والسعادة
والحب.

ثم هذا البيت العجيب:
لا اقسما على مكان وان طاب
ولا يمكن المكان الرحيل.
قال ابن القطاع، المعنى لا نقيم على مكان وان طاب ولا
يمكنه الرحيل معنا، اي لا نقيم البتة، لان المكان لا يرحل
معنا...
وقال ابو الفتح، المكان لا يمكنه الرحيل معنا الى سيف
الدولة شوقا اليه...
وقال الواحدي، ويجوز ان يكون على الدعاء كما تقول لا
فرض الله فاك. يقول لم نقيم في الطريق اليه مكان وان طاب
ذلك المكان، ولا يمكن المكان ان يرحل، اي لو امكنه لارتحل
معنا.. كلما طاب لنا مكان كأنه يرحب بنا بطيب المقام به،
قلنا لذلك المكان، لا نقيم عندك لان قصدا حلب وأنت الممر.
واقول، عفا الله عني، ان هذا البيت من الابيات التي
تقوم وحدها كأنها قصائد كاملة. ماذا أراد به الرحيل؟
نمعن في البيت الذي تقدم:

من راف بعينها شاقه
القطان فيها كما تشوق الحمول
اليس هؤلاء راحلين كالمقيمين؟
وانظر الى قوله:
وسلينا نملك في هذه الدنيا
فان انتقام فيهما قليل

اليس «الراحل» عكس «المقيم»؟
وقد قال الشاعر صراحة:
«وفي الموت من بعد الرحيل رحيل»
انني لا ارى الا ان هذا الشاعر الفذ يستعمل كلمة
«الرحيل» بمعنى اوسع مما ذهب اليه هؤلاء العلماء الاجلاء.
معنى ميتا فيزيها اذا شئت. كأنه يقول «ان داء الرحيل لا
يمكننا ان نتمتع بالاقامة في المكان وان طاب ذلك المكان،
و«الرحيل» في نهاية المطاف هو الموت» ■

اليس «الراحل» عكس «المقيم»؟
وقد قال الشاعر صراحة:
«وفي الموت من بعد الرحيل رحيل»
انني لا ارى الا ان هذا الشاعر الفذ يستعمل كلمة
«الرحيل» بمعنى اوسع مما ذهب اليه هؤلاء العلماء الاجلاء.
معنى ميتا فيزيها اذا شئت. كأنه يقول «ان داء الرحيل لا
يمكننا ان نتمتع بالاقامة في المكان وان طاب ذلك المكان،
و«الرحيل» في نهاية المطاف هو الموت» ■

خرجنا من معرة النعمان
ليلاً قاصدين حلب الشهباء
مدينة المتنبى. رأيت سهل حلب
الواسع في طريق العودة، إذ
فارقنا حلب اول الصباح. والمعرفة
منها على بعد اقل من ساعتين.
في طريق رحبة معبدة.

كان سيف الدولة ما يزال
بحلب في لآلته وكبرائه. وكان
ابا العلاء حطني اليه رسالة
تقول:



بقلم الطبيب صالح

عوى في ظلام الليل: عفاف لعله
يحبك وأنى والديار عوافي
صوافن خليل عند باب مملك
جسمين وما ايامه بمسوافي
كان ابو العلاء احسن حظا اذا صح القول، فقد لبث في
مكان واحد لا يفارقه، يغازل الموت ويناجي الابد، فمات حنفا
انفه، على فراشه. ودفن حيث هو، لذلك فنحن نعرف محله.
ليس كذلك ابو الطبيب، الذي لا يعرف يقينا اين مرقد.
يقول الرواة ان المتنبى سار من اسط قاصدا بغداد في
طريقه الى الكوفة في اليوم السابع عشر من رمضان، وكان قد
اتى عليا ابن حمزة البصري. كما روى البصري. آخر
قصيدتين من شعره.

وبلغ جبل بعد ان سار زهاء سبعة عشر فرسخا، فنزل عند
ابي نصر الجبلي، ثم واصل سيره حتى قارب النعمانية، ثم
سار فمر بجرجرايا على بعد اربعة فراسخ من الجنوب
الشرقي من دير العاقول، وتقدم حتى قارب الصافية وبينه
وبين بغداد ستة عشر فرسخا، وهناك اعترضه فاتك بن ابي
جهل الاسدي، خال ضبة بن يزيد الذي هجاه المتنبى، وكان
فاتك في نحو ثلاثين فارسا مسلحين. وكان يتربص لابي
الطبيب، لينتقم لابن اخته، وليستولي على ما يحمله من ثروة
فقد كان قاطع طريق.

كان مع ابي الطبيب ابنه محسن وعلمانه وكانوا اقل عددا
من عددهم. ولكنهم استسلموا حتى قتلوا جميعا. ويروى ان
ابا نصر قال «ولما صح خبر مقتله وجهت من دفته ودفن ابنه
وعلمانه وذهبت دماؤهم هدرا...»
انني اتخيل انه مات عند طلوع الفجر، فقد لاقى مصرعه
من قبل بـ «درب القلة».

لتيت بدرب القلة النجر نقية
تفت كسدي والنيل فيه قتييل
كان مقتله على الأرجح يوم الاربعاء الثامن والعشرين من
رمضان سنة اربع وخمسين وثلاثمائة.
قبل هذا بعامين ارسل الى سيف الدولة من الكوفة
قصيدته الفريدة التي يمدح فيها:
منا كحسوى يـ
انا اهوى ونفك المتـ

نحوافق بعيد

فيها حنينه الى الشام وهو بالعراق، وهي قصيدة أرى انها لا تقل روعة عن أي شيء قاله المتنبي نفسه. وفيها يلجأ الشاعر الى طريقة فنية لم يسبقه اليها شاعر عربي آخر، فيصف في جل القصيدة حنين الأبل وهو يقصد نفسه، ولا يذكر حنينه هو صراحة الا في الجزء الاخير من القصيدة:

اذا لاج إباض شئت وحبوهها
كأنس عمرو والمغنم نعال
ولقد هممت أن يطرع مع النسا
النس الشام لولا حنينه نعال

ذاك عمرو بن بديع الذي جاء بالمرأة من أرض السعلاء فقالت له، اذا شئت البرق فأنني طاعنة الى أهلي، فكان يغطي وجهها اذا لمع البرق. وللعرب وابلهم علاقة عجيبة بالبرق. هل تذكر قول البحري؟

انتم تترنبن سرق كيف أنسرى؟
وطيف العجيلة كيف احسنر؟

اه! هذي ابل أبي العلاء تقف على ملتقى دجلة والغرات، وتنتظر الى ماء عباب كانه البحر، وترى جنات مخضرة مد البصر، فلا يرضيها ذلك، وتشتاق الى ماء قليل ومرعى جذب، فتلك حال الفتها على علائها:

تشت فوئقا والعراة حبانها
تراب لها من أنثر وحممال
وأعجبها حرق العنسة أنولها
ممثل أسار جذت ونسبال
فأنت، هذا أخضر الحبال مغرنا
وأزرق فأسررب وأزع ناعمال

هيئات يا عمرك الله، فالابل ابرى بما يصلحها، وكذلك الناس، ورحم الله ابا العلاء. ليس مثله أحد في وصف حنين الابل، ولا حتى غيلان. ورحم الله ابا الطيب. انني اسمع صوته يدوي في اقطار هذا المكان:

ومما الدهر الأ من رواة قاصاندي
اذا قلت شعرا أصبح الدهر منشدا
فصار به من لا يسير منشرا
وعنى به من لا يغنى مسفردا
أجزئي اذا أنشدت شعرا فأنسا
شعري أتاك المادحون مرردا
ودع كل صوت غير صوتي فأنس
أنا المصاح المعكب والاحمر الصدى

رحمك الله يا سيدي، فانت كما قلت، ملقى من أولئك الملوك، يعطونك عرضا زائلا وتعطيهم ما يبقى أبد الدهر.

(البحث صلة)

زعم أناس أن سيف الدولة الحمدي صاحب «حلب» هو الذي خلد أبا الطيب المتنبي، وأن المتنبي لولاه لم يكن شيئا مذكورا. انني أرى أن المتنبي كان متواضعا حين جعل سيف الدولة عدلا له: شاعر المجد خدته شاعر اللفظ كلانا رب المعاني الدقاق. وفي رواية «صوه» وهو عندي أفضل، والبيت من قصيدة مدح بها أبا العنسانر الحسين بن علي بن الحسين بن حمدان، ولكنه كأنما أراد بها سيف



بقلم الطيب صالح

الدولة، كما اتضح بعد ذلك. ماذا بقي اليوم من سيف الدولة؟ وماذا بقي من مدينة حلب على أيام سيف الدولة؟ يقول العالم الجليل الأستاذ محمود محمد شاكر في كتابه «الهام المتنبي» الذي صدر أول مرة عام ١٩٣٦ ولم يصدر بعد أفضل منه في موضوعه:

«... أن أبا الطيب... كان يرمي ببصره الى «الرجل»، الرجل الذي تجتمع في رجولته صفات الخير كلها، وصفات الكمال بأسرها، كما كان يراها قلبه ويحلم بها فؤاده وأوهامه. و«الرجل» في احلام أبي الطيب هو صورة مثله له ضميره، من احقاده والامه وثورته...»

«وكذلك لاقى العربي الشاعر الفد، العربي الفاتح الغازي المجاهد الفد، على شوق وحنين، وحن الدم الى الدم، وعلقت النفس بالنفس، وتعانقت القلوب في ساعة من غفلات الدهر، أخرجت كلا الرجلين عن طوره، وكان هذا اللقاء... فاتحة مجد أبي الطيب، وخلود ذكر سيف الدولة.»

يا ليت ذلك كان قد حدث حقا. لقاء رجل الفكر مع رجل الفعل، رب القلم مع رب السيف، مثل لقاء «جوته» الألماني مع نابليون بونابارت، حين قال «جوته» قولته الشهيرة Das ist der Mann «ذلك هو الرجل»، وقال نابليون مثل ذلك عن «جوته».

لم يلبث «جوته» أن خاب ظنه في نابليون، كما خاب ظن بيتهوفن، كما خاب ظن المتنبي وشيكا في سيف الدولة.

هذا، وثمة وجوه شبه عدة بين علاقة المتنبي بسيف الدولة، وعلاقة «جوته» ليس بنابليون ولكن بـ «كارل أوغست» أمير دوقية «وايمار» الألمانية في القرن الثامن عشر. ولعل الأمور لو سارت بالمتنبي في حلب كما انتهى الى حال قريب من حال «جوته» في «وايمار». ولكن هذه قصة أخرى.

يا لها من مدينة! تقطع اليها سهلا واسعا خصيبا، مروراً بمدينة حماه مدينة باقوت، مروراً بحمص التي يرقد فيها سيف الله خالد بن الوليد، عبر نهر العاصي الذي وصفوا بأنه سني العاصي لانه عصى قواين الطبيعة ولم يتجه نحو البحر كبقية الأنهار، مروراً بمعرة النعمان، مدينة أبي العلاء. وكان أول همي أن أرى نهر «قويق»، الذي يشق مدينة حلب، لأن أبا العلاء ذكره في قصيدته العظيمة التي يصف



بقلم الطيب صالح

وجدت ان نهر
«فويق» الذي اشار اليه
ابو العلاء في قصيدته،
قد انقطع ماؤد ولم يعد
يجري. فقد اقاموا عليه
سدا في تركيا، ومدينة
«حلب» لم يبق فيها
شيء من اثار
الحسدانيين، لا
قصورهم، ولا تسليهم،
ولا اسمائهم. عفى
عليها الزمن وكانها لم
تكن.. وكان كل
«لزميات» ابي العلاء
خرجت من قول المتنبي:

ومسا الدهر اهل ان تؤمل عبده
حياة وان يشتاق فيه الى النسل.
ثم قوله:
يدفن بمقنا بمقنا ونشئ
أواخا نرنا على هام الأوالي

وقد اقتبس ابو العلاء هذا المعنى في قوله:
خفف الوطا ما اظن اديم الأرض الا من هذه الاجساد.
بقيت القلعة بعد الحمدانيين، وقد اقيمت اقواما قبلهم
واقواما بعدهم، ثرو متحدية نحو الشمال والغرب، وتطل
على السهل الفسيح ناحية الجنوب. مدينة كاملة في شكل
حصن. فيها مسجد ودور واسواق وحمامات، وابراج تطل
على الجهات الاربع. محاطة بخندق ممتلئ بالماء، فاذا
هوجمت ترفع عنه الجسور، فيصعب النفاذ اليها. وفي كل
خطوة بخطوها الغازي شرك منصوب. قطران يغلي يصب من
فتحات اعلى القلعة، وسهام ومجنيق. اقتحامها يكاد يكون
مستحيلا بمقاييس ذلك الزمان. وتعجب كيف ان الفاتحين
المسلمين استطاعوا اقتحامها. ولكن اولئك كانوا قوما من
طينة اخرى.

ابو سليمان، خالد بن الوليد رضي الله عنه يرقد في
حصن. قال للروم حين تحصنوا بقلعة قيسرين «لو كنتم في
السحاب لحملنا الله اليكم او لانزلكم الياء». ثم مات على
فراشه وليس في جسده موضع الا وفيه اثر من ضربة سيف
او طعنة رمح.

عزله عمر العظيم وهو في اوج انتصاره، لا لاية اسباب
شخصية. كما يقال بلغة هذه الايام. ولكنه خشي ان يفتن به
الجند، ولانه اراد ان يؤكد ان النصر بيد الله يؤتية من يشاء،
وليس بيد خالد مهما كانت عبقرية العسكرية. ولما عزله ارسل
الكتاب مع بلال الحبشي. كان بلال عظيما في الاسلام وعظيما
عند عمر، فكتب ابو عبيدة الخير، حتى انتهت المعركة، معركة
البرموك، وقال انه لم يزد ان يحرم خالدا من فرجة النصر. ولما
مات قال عمر «دعوا نساء مخزوم تبكي على خالد».

ولو ان عمر بن الخطاب، رضي الله عنه، لم يقتل في عامه
ذاك، لاتخذ التاريخ مسارا آخر. ولو ان حفيده عمر بن عبد
العزيز، حكم فترة اطول مما حكم، ولكنها حكمة الله الذي بيده
الملك، حكم اقل من ثلاث سنويات، وقتله بالسهم على الأرجح
اهله بنو مروان، لانه ضيق عليهم الخناق. ودفن في دير
سمعان عند صديقه القس. وقد منع سب آل البيت على المنابر،

واستبدله بالاية الكريمة التي ما فتى الاثمة يرددونها في
صلاة الجمعة الى يومنا هذا:
«ان الله يامر بالعدل والاحسان وإيتاء ذي القربى وينهى
عن الفحشاء والمنكر والبغى يعظكم لعلكم تذكرون».
وكان كما حدث الامام جعفر الصادق، رضي الله عنه،
يرسل المال سرا الى بني هاشم في جفان العسل، حذرا من بني
مروان. لا عجب ان الشريف الرضي رحمه الله قد قال في رثائه:

دير سمعان لا أعيتك غياد
خير ميت من آل مروان ميتك
است بالذكر بين عبيبي وقليبي
ان تداسيت بك او قسدت نأيتك
وعجبا أني قلت بي مروان طرا وأني ما قلتك
قرب العدل لك لما نأى الجور بهم فاحتوتهم واجتبتك
فلو أني ملكت دعما لما نأى لك من طارق الردى لعديتك

ذاك، وقد نوى ابو العلاء في المعرّة - معرّة النعمان بن
بشير الانصاري - غير بعيد من دير سمعان، فثبت في الزمان
والمكان. ولكن اين نوى ذلك الانسان العجيب، الذي كانه في لا
زمان ولا مكان؟

حدث ابو الحسن السوسي قال:
«كنت اتولى الاموار من قبل المهلبى، وورد علينا المتنبي
ونزل عن فرسه ويقوده بيده، وفتح عيابه وصناديقه ليل
سبينا في الطريق، وصارت الارض كأنها مطارف منشورة،
فحضرتة انا وقلت «قد اقمنا للشيخ نزلا»، فقال المتنبي «ان كان
تم فاتيته». ثم جاءه فأتاك الاسدي يجمع وقال «قدم الشيخ في
هذه الديار وشرفها بشعره، والطريق بينه وبين دير فقه خشن
قد احتوشته الصعائكة، وبنو اسد يسرون في خدمته الى ان
يقطع هذه المسافة، ويبر كل واحد منهم بنوب بياض». فقال
المتنبي «ما أتقى الله بيدي هذه الاديهم وذب الجران الذي انا
مستقلده، فاني لا افكر في مخلوق». فقام فأتاك ونقض ثوبه
وجمع رتوت الاعراب الذين يشربون دماء الحبيح حسوا،
سبعين رجلا، ورصد له. فلما توسط المتنبي الطريق، خرجوا
عليه. وحمل فأتاك على المتنبي وطعنه في يساره ونكسه عن
فرسه. وكان ابنه اقلت، الا انه رجع يطلب لفاثر ابنه فلقع
خلفه الفرس احدهم وحرّ رأسه، وصبوا امواله يتقاسمونها
بضرورة».

يا لها من نهاية، ان صحت هذه الرواية.
هذا، وقد رثاه صاحبه ابو الفتح عثمان بن جني، الذي كان
وفيا له في حياته وفي مماته، بقصيدة جاء فيها:

عمرت خدن المساعي غير منطهد
كالمثل لم يدنس يوما ولم يصب
فأذهب عليك سلام المحدث ما قلت
خوص الركائب بالأكوار والشعب.

«المجد»، تلك الكلمة المدفوعة، كلمة كان يحبها المتنبي، لقد
اخذوا مطارقه ونفاثسه والسيوف المحلاة بالذهب التي اهديت
له، وبعثوا اوراقه وتقاسموا امواله، وقتلوا ابنه او ابنا،
وقطعوا دابر نسله. لم يبق منه الا الشعر. ان كان هذا هو
«المجد» الذي كان يطلبه، فانه لعمرى قد حاز المجد ■



بقلم الطبيب صالح

ما دُعيت في «حلب» فعليك
بابي الطيب سوف تجد لشعره
مذاقاً خاصاً هنا. انها مدينته
اكثر من اي مدينة اخرى عاش
فيها. هنا قال اروع قصائده
وعاش اخصب سنوات عمره ان
لم يكن اجملها. كانه ود الإقامة
في «حلب» الى آخر ايامه، لولا
ذلك الداء القديم الملازمه، داء
الرجل:

لا اقمنا على مكان وان طاب

ولا يمكن المكان الرحيل.
كانت اقامته بالفسطاط كمن هو ابدأ على وشك الرحيل.
اما في الكوفة وبغداد، فقد سبقته اصوات عبقرية اعطت
المدينتين سمتهما وطابعهما قبله. ولكن «حلب» هي مدينته،
فهو الذي اعطاها صوتها الذي ما يزال يتردد في الاذان. كانت
قبله صماء بكاء، فانطقها واسمعها. وفي الى الان، لولاه
ليست بشيء. وما المدن؟ وما مساعي الناس في نهاية الامر؟ ما
ذلك كله لولا الفن؟ وقد جق له ان يقول في سيف الدولة:
غضبت له لما رايت صفاته

بلا ملاح والشعر تهذي طباطه
أي ان صفاته، كانت «خرساء» فانطقها كما ينطق
المثال كتلة الحجر الصماء.

مدينة فيها شيء منه. مدينة على مفترق طرق، مليئة
بالاحتمالات. احتمالات المغامرة والخطر.. والمجد.. والموت.
القلعة التي تحكمها تثبتها في الارض، وفي الوقت نفسه كانت
توشك ان تحلق بجناحين. الاسواق القديمة ملائ بالذهب
والفضة والتوابل والعطور. والخانات والحمامات. او كما قال
ابو العلاء للأبل:

فأبك هذا اخضر الجبال مريضاً

وازيق فاشرب وأرع ناعم بال
لماذا لم يعمل المتنبي بالنصيحة؟ لا في حلب ولا في
الفسطاط ولا عند ابن العميد؟

هذه مدينة «بين» «بين» كانت من قديم، نصفها الاعلى في
حواضر البحر الابيض المتوسط فنسيا وجلوا وفلورنسا
وابعد، ونصفها الاسفل في سهول الشام ودير الزور وضفاف
الفرات. وقد اختار المتنبي، المجد، فقارها وفي قلبه غصة:

ولله سيري ما اقل تنسية

عشية شرقى الحدالي وغرب

عشية احصى الناس بي من قلوته

واهدى الطريقين التي اتجنب
وغير بعيد يرقد ابو العلاء المغربي، خذن المتنبي وتقيضه
وال (anti-thesis) له، يجيء صوته ازاء المتنبي كمن يصب

الماء على النار. خذ عندك المتنبي، كعهده دائماً:

ولا بد من يوم اغر محجل

يطول استماعي بعده للنوادر

يهون على مثلي اذا رام حياجة

وقوع العوالي دويها والقواضي

كثير حياة المرء مثل قليلها

يزول وباقي عمره مثل ذاهب

اليك فاني لست ممن اذا اتقى

عضاض الاناعي نام فوق العقارب

لك الله يا سيدي، فانت ما تزال في اول الطريق. سوف

تنتهي حياتك عند دير العاقول. سوف ينهبون اموالك

ويبعثرون اوراقك ويقطعون دابر نسلك. لن يبقى منك الا

الشعر.

علاني الان يا صاحبي بصوت ابي العلاء الرصين

الحزين:

(٤) اذا جمحت خيل الكلام فانما

لديك يعاني من اعتتها الضبط

ولا اذهلتني عن ودايك روعه

وكيف وفي امثالها يجب الغبط

ولا فتنه طائفة عامرة

يحرق في نيرانها الجعد والسبط

وقد طرحت حول الفرات جرائها (٦)

الى نيل محصر فالوساع بها تقطر

فوارس طعانون ما زال لبقنا

مع الشيب يوماً في عوارضهم وخط

وكل جواد شفة الركض فيهم

وج يتمنى ان فارسه (٧) سقط

ذاك المتنبي، مشغول بنفسه وطموحاته وثارته واحقاد.

وهذا ابو العلاء، مشغول بتقلبات الايام ومصائر البشر. وقد

صدق، فصوته صاف رائق مثل «هيل الحمام» بينما صوت

المتنبي في الغالب، كانه غابة من السباع.

هذا، وقد قال تلك الابيات بالرملة عام ٢٣٦هـ في قصيدة

مدح بها ابا القاسم طاهر بن الحسن العلوي. كان في طريقه

الى ابي العشائر في انطاكية ومن ثم الى سيف الدولة في

حلب.

كل طرق المتنبي كانت تؤدي الى «حلب» المدينة الفاضلة

التي صنعها في خياله مثل مدينة «سانت اوغسطين» وثمة

«الامير» المثل الذي يحلم كل رجل فكر ان ينيخ رحاله عنده.

ولكن هيهات! ■

(للحيت بقية)

(١) امك اي تم لك والبيت يشير الى العشب الاخضر والماء الوفير

(٢) التنية المطع في السير والحدالي وغرب جبلان بالشام.

(٣) قلوته - اي هجرته

(٤) يقصد انك حصيد تمسك باعنة الكلام فلا ينهب كل منهب

(٥) الجعد والسبط جعد الشعر وسبطه يقصد كافة الناس

(٦) جران النعير باطن عنقه. ويقال الى انشيء جرائه اي ثقله

(٧) يقصد ان كل فارس نعب من الركض ينسى لو ان الفارس الذي فوقه

كان قد سقط من بطن امه قبل ان يتم نموه. وذلك هو «السقط»

نحوافق بعيد

الدكتور عبد الله الطيب عالم ثبت، وصحبه مدنف بابي الطيب. وقد بلغ من إعجابه به انه قال: «زعم ابن الاثير ان في مثل شعر ابي الطيب وحيا، وقد كذب ورب الكعبة، يقول في كتابه الجميل: «مع ابي الطيب»، ان الجلوس كان للمغنين، وان الوقوف كان للشعراء. ولا احسب انه قصد ان المتنبي وضع نفسه موضع المغنين، فالمغني لم يكن يقعد للغناء في مجلس الأمير، بل في مكان خاص يعد له ولجوقته، واحيانا يكون بين المغني وجوقته وبين مجلس الأمير ستار يزاح حين يبدأ الغناء والعزف. ثم هذا شاعر لا يجلس حيثما اتفق، بل يجلس بجوار المدوح وعلى مرتبته.

يندر الأستاذ محمود محمد شاكر ان هذه القصيدة قيلت عام ٣٣٦هـ. قبل، ان يتصل المتنبي بسيف الدولة. وذلك امر مهم عنده في محاولته اثبات ان المتنبي «شريف علوي»، وبزيد:

«لا بد لنا هنا من التنويه الى خطا بليغ وقع فيه احد كبار ادبائنا في كتابه عن المتنبي، اذ زعم ان المتنبي قال هاتين القصيدتين (في ابن طغج والعلوي) بعد فراق سيف الدولة وقبل اتصاله بكافور. والصحيح انهما قيلتا سنة ٣٣٦هـ وهو بالرملة، ومن ثم في تلك السنة رحل الى انطاكية قاصداً ابا العشائر الحمداني الذي وصل اسبابه بسيف الدولة سنة ٣٣٧هـ. هذا على ان اسلوب الرجل في هاتين القصيدتين، ونفسه في الشعر، غيره فيما قاله بعد فراقه لسيف الدولة، وذلك بين لمن تدبر ادنى تدبر».

ولعمري ان «نفس» المتنبي في الشعر الذي قاله «قبل» ان يتصل بسيف الدولة وبعد، ان فارقه، لا ينقسم الى قسمين واضحين، وهذه القصيدة في بعض مراراتها وغلواتها تشبه بعض القصائد التي قالها الشاعر بعد ان ترك سيف الدولة. يوجد شيء «ثابت» في شاعرية المتنبي، سواء كان عند سيف الدولة او عند كافور او عند ابن العميد. سواء كان في الرملة او الفسطاط او هنا في حلب. ذلك «هو نفسه»، في لا مكان وليس عند اي احد.

استاذنا العلامة محمود محمد شاكر، اطال الله عمره، يشير الى العميد، الدكتور طه حسين، رحمه الله، وقد كانت بينهما ملاحاة لم تضر الادب، بل افادته. والحق ان العميد، رغم عله وريادته ونظراته الشاقبة، لم يغن كثير غنى في كتابه «مع المتنبي»، ذلك لانه صاحب الشاعر على نفور وقلة ود، كما اعترف هو نفسه. فلا عجب انه لم يظفر منه بطائل، فالمتنبي شاعر اما ان تحبه وتتحمس له، واما ان تتركه وشأنه. احسن النقد ما يكتب عن محبة لان المحبة تفتح البصيرة وتزيل الحجب التي تقوم بين ما يرمي اليه الشاعر وبين قواد المطلق. هذا صنعه العميد مع ابي العلاء، وعجيب انه احب ابا العلاء ولم يأنس لابي الطيب، وقد كان ابو العلاء متبعا بابي الطيب

هكذا صنع عبد الله الطيب ومحمود محمد شاكر والشيخ عبد العزيز مع المتنبي. احبوا الشاعر واصغوا اليه بمحبة، فباح لهم بمعضر اسراره، وفتح لهم عن بعض مكتوبات قلبه. وهو بعد في طريقه الى «حلب»، وكان قد فارقها قبل ان يصل اليها ■

(للحديث بقية)



بقلم الطيب صالح

كانت تلك القصيدة في مدح ابي القاسم طاهر بن الحسين العلوي، قالها بالرملة عام ٣٣٦هـ وهو في طريقه الى ابي العشائر الحمداني في انطاكية، ومطلعها:

اعيدوا صباحي فهو عند الكواع
وبربرا رقادي فهو لحظ الحسائب
وهي قصيدة محشوة بالغيف والمرارة والكبرياء، وفيها يقول:

الي لعمري قصد كل عجيبة
كاني عجيبة في عيون العجائب
ما كان سيف الدولة ليتخيل اي «بلاء» هو في طريقه اليه، ولا عجب ان العميد طه حسين رحمه الله، ظن ان المتنبي قال القصيدة «بعد» فراقه لسيف الدولة. ولكن كما ذكرنا، هذا شاعر عجيب، ابدا قادم ذاهب، حاضر غائب، مقبم مفارق.

قال العكبري قال الواحدي:
ان الامير ابا محمد بن طغج لم يزل يسال المتنبي ان يخص ابا القاسم طاهراً العلوي بقصيدة من شعره وأنه قد اشتهى ذلك، وابو الطيب يقول: «ما قصدت الا الامير ولا امدح سواه»، فقال ابو محمد: «عزمت ان اسالك قصيدة تنظمها في فاجعلها فيه، فاجاب. قال محمد بن القاسم الصوفي: «فسرت انا والمطربي برسالة طاهر الى ابي الطيب، فركب معنا حتى دخلنا عليه وعنده جماعة من الاشراف، فلما اقبل ابو الطيب نزل طاهر عن سريره والتقاء مسلماً عليه. ثم اخذه بيده فاجلسه في المرتبة التي كان فيها، وجلس هو بين يديه وتحدث معه طويلاً. ثم انشده ابو الطيب فخلع عليه خلعة نفيسة. قال علي بن القاسم الكاتب: «كنت حاضرا ذلك المجلس، فما رايت ولا سمعت ان شاعراً جلس المدح بين يديه مستمعاً لمحله غير ابي الطيب، فاني رايت هذا الشريف قد اجلسه في مجلسه وجلس بين يديه فانشده القصيدة».

هذا رجل شريف حقاً عرف قدر الشاعر العكبري وانزله المنزلة التي يستحقها، وجلس منه مجلس التلميذ من «الاستاذ». وما كان ضر المتنبي لو انقطع اليه والى امثاله. لكنه كان يفكر في اشياء ابعد. سوف يقبل منه سيف الدولة ذلك الكبرياء على مضض، فالامير في تنجيه امير، والشاعر شاعر، وسوف يضيق به في نهاية الامر، ولن يغني عن المتنبي قوله:

«وفؤادي من الملوك وان كان لساني يرى من الشعراء»
لم يكن المتنبي ينشد الشعر الا جالسا.

نحو أفق بعيد



بقلم الطبيب صالح

العجب لأبي الطيب المتنبي، انه تسمع وتعرّز عن مدح الشريف العلوي طاهر بن الحسين، ولم يقتل إلا بعد لأي، ثم لما مدحه أدلى في مدحه، وبالع في أطرائه حتى كاد يخرج عن حدود الأدب، وفي القصيدة بيت وصل من المسالفة حداً أزاح حتى ابن جني العتييد، رغم تعصبه الشديد لأبي الطيب، فقال: قد أكثر الناس في هذا البيت، وهو في الجملة شيع الطاهر، فاضربت عن ذكره، وقد كان (يقصد المتنبي) يتعسف في الاحتجاج له والاعتذار بما لست

أراه مقنعاً...

ثم يضيف كالمعتذر: ومع هذا فليست الاعتقادات والآراء في الدين مما يقدح في جودة الشعر وردأته، والبيت المشار إليه هو:-
وأبهر آيات التهامي أنه

أبوك وأحدى ما لكم من مناقب
وظاهر المعنى أن أبهر معجزات الرسول صلى الله عليه وسلم، أنه أبو هذا الممدوح، والعبارة بالله.

قال الواحدي: قال أبو الفضل العروضي فيما أملاه علي هذا بيت حسن المعنى، مستقيم اللفظ حتى لو قلت أنه أمدح بيت في الشعر لم أبعد عن الصواب، ولا ذنب له إذا جهل الناس غرضه واشتبه عليهم. وأما معناه، فإن قرئنا أمدح النبي صلى الله عليه وسلم يقولون: أن محمداً صنوبر أبتز لا عقب له (الصنوبر المنفرد) فإذا مات استرحنا منه، فأنزل الله تعالى: إنا أعطيناك الكوثر، أي العدد الكثير، ولست بالابتر الذي قالوه... فقال المتنبي: أنتم من معجزات النبي صلى الله عليه وسلم، وأية لتصديقه، وتحقيق لقول الله تعالى، وذلك أجدي (بالجيم) ما لكم من مناقب... وأما قوله (التهامي) فإن الله أنزل في التوراة على موسى: أني باعث نبياً من تهامة من ولد اسماعيل في آخر الزمان، وأمر موسى عليه السلام أمته أن يؤمنوا به إذا بعث، ونزل عليه بعلاوات آخر، فأنكر اليهود نبوته فقال صلى الله عليه وسلم: أنا النبي التهامي الأسى الأبطحي، فلا أدري كيف نعموا على المتنبي لفظاً افتخر النبي صلى الله عليه وسلم بها، ولما روي: أحدي ما لكم، بالحاء، اضطرب عليهم المعنى، وأقرنا أبو الحسن الرخجي أولاً والشعراني ثانياً والخوارزمي ثالثاً «وأجدي، بالجيم، فاستقام المعنى واللفظ وتشيع أبي الفتح عليه وغيره باطل».

قال الواحدي: وليس هذا المعنى فاسداً وإن روي بالحاء، لأنه يقول: كون النبي التهامي أباً لكم، إحدى مناقبكم، أي لكم مناقب كثيرة، وإحداها أنكم تنسبون إليه.

كل هذا البلاء الحسن من هؤلاء الشيوخ الأجلاء، لا يغفر للمتنبي في ظني، أنه شطط شطحة خرجت به عن مقتضيات الذوق، أن لم نقل الأدب، وعنده مثل هذا كثير، وكثير أيضاً عنده أن يمدح الكل بالانتماء إلى الجزء، كقوله في رثاء جدته:-
ولو لم تكوني ست أكرم والد

لكأن أنك النصم كوك لي أمأ
أنها صورة بديعة بحق، قلب فيها الأشياء رأساً على عقب، فجعل الأم ابنة الولد، وجعل الولد أبا الأم، وذلك كما قال الشاعر

الإنجليزي، ويردزويرث، بعد المتنبي بقرون: الطول أبو الرجل، هكذا المتنبي، إذا مدح لم يلق على شيء، لا يكاد يهجم إلى من يتوجه بالمدح، وقد زعم الأستاذ محمود محمد شاكر، وسار كثيرون على دربه، أن المتنبي لم يمدح كافوراً الأخشيدي، وإنما اضمر له الهجاء والسخرية فيما يظن أنه مدح، وضرب مثلاً على ذلك قول المتنبي لكافور:

تمسح الشمس كلما نزلت

الشمس بشمس مغيرة سوداء،
إن في ثوبك الذي المجد فيه

لحبيباً، يري كل صبياء،
ويقول: تدبر التهمك العجيب في هذه الأبيات وذكر المستحبات التي لا تقع ولا تكون ولا تنوهم، إذ جعله (شمساً منيرة) ولكنها سوداء.

هذا يا عمرك الله، من قبيل الحكم على الأمور بأثر رجعي، وحسب معايير غير معايير العصر الذي حدثت فيه، كون المتنبي مدح كافوراً لأخشيدي، أمر لا مرأى فيه، وعلى أي حال، فنحن اليوم بعد كل ما أقدناه من علوم الفيزياء، وخصائص اللون، وما فعله الرسامون التعبيريون، أقدر على تخيل الشمس كيف تكون «منيرة سوداء»، وقد وضع أهل دولة غانا نجمة سوداء على علمهم الوطني، لأنهم رأوها أكثر ضوءاً من نجمة بيضاء، ومن أراد أن يعرف أكثر كيف يكون السواد مضيئاً، فليقرأ شعر «سيدار سنفور»، و«أيمي سينير».

وهب أن ذلك لم يكن مدحاً، فما قولك في هذه الأبيات:

ترواصد كاسر توارك عير

من قصد السحر استقل السواقيا
فماحت منا أنان عير رميابه

وخلت بيأساً خلفها وماقيا
فشر ما سرينا في طهر حدونا

إلى عيسره الأرجي التلاقيا
أما المسك ذا الوجه الذي كبت تائقا

إليه ذا العمل الذي كبت راحيا

إذا لم يكن هذا مدحاً فليست أدري كيف يكون المدح!

قال شيخنا أبو البقاء رحمه الله:-

«يقال أن سيف الدولة لما سمع البيت «قواصد كافور» قال: له الويل، جعلني ساقية وجعل الأسود بخرأ».

ثم يمتضي أبو البقاء فيقول:-

«أن كان المتنبي قد قصد هذا، فقد أبان عن نقض عهد، وقلة مروءة، لأنه مدح خلقاً، فلم يعطه أحد ما أعطاه علي بن حمدان، ولا كان فيهم من له شرفه وفضله، لأنه عربي من سادات تغلب، عالم بالشعر، ولم يمدح مثله في الشرف والحسب إلا محمد بن عبد الله الكوفي الحسيني...».

وعندي، أن أعجب من أن المتنبي جعل كافوراً بخرأ مثل «بحر النيل»، وجعل سيف الدولة «ساقية» مثل نواعير خمص، كونه جعله «إنسان عين زمانه»، فهذه آية أخرى من آيات الشمس «المنيرة السوداء»!

بلى، مدح المتنبي كافوراً الأخشيدي، لا مرأى في ذلك، ثم هجاه فيما بعد، فما كان صادقا في مدحه ولا كان صادقا في هجائه. ولكنه كان صادقا في شعره في الحاليتين، فهذا «شاعر فنان»، وخذ مائة مصنع منها «فناً»، أحيانا يزيد وأحيانا ينقص، وقد ذهب المتنبي، وذهب سيف الدولة، وذهب كافور، لم يبق إلا الشعر ■

(الحديث بقية)

نحو أفق بعيد

ويمضي الدكتور عبد الله الطيب في اشارته النافذة فيقول:-

«ولأننا نعيش الآن في زمان نهضة أوروبا، والتاريخ الكبير لازال من صنع دولتها، فإننا بحكم ذلك نقبل قضية روايات موليير ورأسين وبين جونسون وشيكسبير، وصور فان دايك وجويا ورمبرانت وروفايل على أنها من صميم الفن، وننسى وجه الشبه بينها وبين المدح والهجاء (عند العرب). وقد فطن الى نحو من ذلك ابن رشد في الدرر القديم حين شبه المأساة بقصيدة المدح والمهابة بقصيدة الهجاء فما बाद كثيرا...»

نعم. لم يكن أبطال «هومير» في الواقع أكثر من رعاة وفلاحين وبحارة وقطاع طرق في بلاد «هيلاس». ولم يكن الملك لير الذي ابتدعه خيال شيكسبير الا مثل زعيم من زعماء العشائر عندنا. ونابليون بونابارت الذي خلده في لوحاته الفنان «جاك لوي دافيد» أضخم مرآت من نابليون الحقيقي. كذلك «الفن» يرفع ويخفض، وقد رفع المتنبي كافورا الى عنان السماء حين شاء. نعم، وما العجب؟ في مثل قوله:-

هذه دولة المكارم والرافعة
والجند والندى والأبادي
يرحم الدهر ركنها عن أذاها
بنفسي من أراد من المراد
مختلف مختلف وفي أسرى
عالم حكام شجاع جواد
اجتهد الناس عن طريق أبي
المسك وذلت له زقبات العباد
كفيف لا يشرك الطريق لبيد

ضيق عن (٤) أتبه كل واد
ذاك مدح وهذا مدح، لا فرق، اللهم الا ان «المادة الخام» التي صنع منها الفنان فنه فيما يتعلق بكافور، لم تكن بشيء، فقد كان سيف الدولة «من سادات تغلب» كما قال شيخنا أبو البقاء، اذ كان كافور «عمدا لحفيد مغامر» كما قال أستاذنا عبد الله الطيب، ولكن لأجل هذا يمكن القول، ان «الثوب» الذي غزله المتنبي لكافور، كان وما يزال ادعى للعجب.

أما الشعر الذي يقصر فيه «الفن» عن «الحقيقة» ولا يرقى فيه الوصف الى قريب من شمائل الموصوف، فمثل ما قال أبو ذؤيب الجهمي في مدح الرسول، صلى الله عليه وسلم:-
(٥) ان البيوت ميسان فنجاره
ذهب وكل بيتوته ضخم
عظم النساء فما يلدن شبيهه
ان النساء بمثل عظم
صدق الشاعر، وصلى الله على سيدنا محمد وعلى آله وأصحابه، ما هلت الديم، وما جرت على المنين
أذبال الكرم ■

للحد صلة

(١) كريمة بنت أبي طيب الذر، وقالوا «النساء» مثل «النساء» ولكنها تقال للخير والشر يسما «النساء» يقال للخير محسن
(٢) خريق زجاج أي شديدة الهبوب
(٣) العجاجة والعجاج، العجار
(٤) الأثر هو السيل وهو ما يقصد قوة اندفاعه
(٥) البيوت، يعني القمائل التي يمتلي إليها الرسول صلى الله عليه وسلم. والنجار، الأصل والأرومة

لم يكن المتنبي، ولا كان أي من الشعراء، صادقا في مدحه أو هجائه، اللهم الا في حالات نادرة انطبق فيها الوصف على الموصوف، سلبا أو ايجابا. انما كانوا يصنعون «فنا» وكما يفعل الفن عموميا، يأخذون من الواقع، يحسنونه أحيانا، ويقتحونه أحيانا. وقد أحسن الشاعر الذي قال حين عبروه أنه لا يحسن الهجاء «أنا لا يعيبنا أن نقول (تبحك الله) بدل (أصلحك الله)». وفي هذا



بقلم الطيب صالح

المعنى يقول الدكتور عبد الله الطيب، في إشارة بارعة في كتابه «مع أبي الطيب»:-

«وكان تنافس الأمراء اذ ذاك على الشعراء، كتنافس ملوك أوروبا واسرائيلها على استقدام المصورين البارعين واستخدامهم. وينبغي ان ننظر الى قصيدة المدح لا على أنها تسول، ولكن على أنها واجب او عمل يطلب من الشاعر فينجزه، كما كان المصورون في أوروبا يؤدي أحدهم واجبا او ينجز عملا حين يطلب منه ان يرسم هذا الأمير او تلك الاسيرة. وكان من أعظم ما ينبغي في الرسم ابراز الأنبهة والجمال، وما كان كل أمير بذى أنبهة ولا كل اميرة بحسنة فتأمل.»

صدق، لم يكن كل أمير بذى أنبهة، او على أي حال لم يكن بمثل الأنبهة التي أسبغها عليه «الفنان» في فنه. ويمكن القول دون حرج، ان سيف الدولة الحقيقي، ليس هو تماما سيف الدولة الذي خلده المتنبي في شعره، وأضفى عليه بهاء لم يكن له في الواقع، مثل قوله:-

وما الفرق ما بين الانام وبينه
إذا حذر المحذور وأستصحب الصغبا
لامر أعدته الخلافة للعدى
وسمته بين العالم الصارم القضا
ولم تغترق عنه الأسنة رجما
ولم يتسرك الشام الأعادي له حبا
ولكن نفاها عنه غيبير كريمة
كريم الثنا (١) من سب قط ولا سبنا
وجيش يشئ كل طود كمانه
خريق (٢) رياح واجهت غصنا رطبا
كان نجوم الليل خافت مغارة
فمدت عليها من عجائنه (٣) حوبا
فمن كان يرضي الكفر واللوم ملكه
فهذا الذي يرضي المكارم والربا

ما أجمل هذا - تقول - بصرف النظر عن «المادة الخام» التي صنع منها «الفنان» فنه. وتستطيع ان تتخيل ان سيف الدولة كان حين يستمع الى مثل هذا الشعر، يستخفه الطرب، كأنه يستمع الى وصف انسان آخر، يعرفه ولكنه ليس «شوا» - انسان يحلم ان يكونه.

نحو أفق بعيد

١٠٩

إذا لم تنطُ بي مسيعة أو ولاية
فجودك يكسوني وشغلك يسلب

وكم اعطاه في تلك اللحظة بالذات؟ ستمائة دينار،
وهو مبلغ لعله لا يقاس بما وصله من سيف الدولة
وعضد الدولة وابن العميد، ولكنه مبلغ لا يستهان به
بحساب هذه الأيام. ولو جمعت كل ما نال الشاعر من
كافور طول اقامته بمصر لحسبت مالا كثيرا. ضاع كله
ويا للأسف، الذي جمعه من كافور ومن الآخرين، ذهب
هدراً عند دير العاقول، انتهبه فاتك الاسدي وعصبته
«بتقاسمونه بطرطوره».

لا يا رعاك الله. ما كان كافور يقدر ان يفعل غير ما
فعل، فهو بعد «امير» حتى ولو كان عبدا مخصيا. وكان
ملكه اوسع من ملك سيف الدولة، فقد حاز مصر واكثر
الشام. وكان احد «محاور» السلطة في ذلك الزمان.
والمتنبي، مهما كان، ليس غير «شاعر». ومنطق السلطة
غير منطق الشعر. الا ان ابا الطيب تجرأ واراد ان يعبر
الحاجز الذي يفصل بينه وبين صاحب السلطان،
ويجلس معه على سرير واحد، وهذا لا يجوز، اللهم الا
ان يكون الشاعر نفسه هو صاحب السلطان، الامر الذي
لم يحدث الا نادرا. وحسنا فعل كافور فماذا كان يجدي
المتنبي ان يصبح «محافظا» على الفيوم، كما روي انه
اراد؟

هل قالوا انه لم يمدحه؟ بلى وانم الحق، لقد مدحه
واطنب في مدحه. قال ابو البقاء:

«سالت شيخا ابا الحرم مكي بن ريان المائسي عند
قراعتي عليه الديوان سنة تسع وتسعين وخمسمائة، ما
بال شعر المتنبي في (مدح) كافور اجود من شعره في
عضد الدولة وابي الفضل بن العميد؟ فقال: كان المتنبي
يعمل الشعر للناس لا للممدوح، وكان ابو الفضل بن
العميد وعضد الدولة في بلاد خالية من الفضلاء، وكان
بمصر جماعة من الفضلاء والشعراء فكان يعمل الشعر
لاجلهم، وكذلك كان عند سيف الدولة بن حمدان جماعة
من الفضلاء والادباء، فكان يعمل الشعر لاجلهم ولا
بيالي بالممدوح».

رحم الله شيخنا ابا الحرم. لقد لمس حقيقة هامة في
فهم الشعر، بل وفي فهم الادب والفن على وجه العموم.
بعد ذلك، حين قلب المتنبي لكافور ظهر المجن، وفارقه
على اقبح وجه كما كان حتما ان يحدث، قال متنعلا من
مدحه اياه:

وشعر مدحت به الكركدن
بين القريظ وبين الرقي
فما كان ذلك منجيا له
ولكنه كان حجرا في السرى

نعم، ولكن ليس على المعنى الذي ذهب اليه اولئك
الشيخوخ الاجلاء.

للحدث صلة

4823

تحامل القدماء وكثير
من المعاصرين على كافور
المسكين، واستكثروا عليه
ان يمدحه بكر الزمان وفلانة
الدهور، ابو الطيب المتنبي.
وكافور لم يذنب في حق
الشاعر بشيء، لقد احسن
استقباله وقطع له دارا
على ضفة النيل. فلا كما
تقول. وخصص له خديما
وحاشية، وأجرى عليه مالا،
ان لم يكن مثل ما كان
يصله من سيف الدولة، فقد
كفاه مؤونة العيش وزيادة.

واين هو الامير في زماننا هذا الذي يصنع مع «شاعر»
مثل ذلك الصنيع؟ اقصى ما يفعل ان يعينه ملحقا في
سفارة او موظفا في وزارة. وقد قضى نحبه محمد
المهدي المجذوب، شاعر السودان الفحل، واحد فطاحل
شعراء العربية في هذا العصر، وهو مراقب للحسابات!
انكر المتنبي الجميل فيما بعد فقال في هجاء كافور:

جوعان ياكل من زادي ويُسكني
لكي يقال عظيم القدر مقصود

ولعله اراد «جوعان» ياكل من زادي ويطعمني، فليس
الأم من مضيف يقري ضيفه من طعامه، اي من طعام
الضيف. او كما قال خنزر بن ارقم يهجو قوم الراعي
الشاعر:

بني قطن ما بال ناقة ضيفكم
تعشون منها وهي ملقى فتودها
عدا ضيفكم يمشي وناقة رحله
على طنب الفقهاء ملقى قديدها
وبات الكلابي الذي يبتغي القرى
بليلة نخس غاب عنها سعودها

لا عجب، فقد ذبحوا ناقتهم وأطعموه واكلوا منها،
وقدودوا بقية اللحم، وشروه ليحف على طنب الفقهاء،
امراة الراعي.

لم يفعل كافور مثل ذلك مع المتنبي في الحقيقة، فقد
كان الشاعر ياكل من طعام ابي المسك ويرفل في ثيابه.
الذي لم يفعله كافور هو ان يقطع الشاعر «ضيعة» او
ولاية، كما طلب صراحة:

ابا المسك هل في الكأس فضل اناله
فباني اغني منذ حين وتشرب
وهبت على مقدار كسفي زماننا
ونفسي على مقدار كفيك تطلب



بقلم الطبيب صالح

اختلف الرواة في صاحب هذه القصيدة العظيمة. قالوا إنها للعبد بن الفرخ العجلي. وقال آخرون إنها لأبي الأخيل العجلي. وذكروا أن أبا الأخيل وفد على عمر بن حبيشة الفزاري في أواخر أيام بني أمية، فقبل له. أن أبا الأخيل بالباب يستأذن، فقال: «أذا والله لا يأتني له غيري». وقام من مجلسه حتى أتاه بالباب، فأخذ بيده وأقعده معه على بساطه، ثم قال له: «أنشدني منصفتك»، فأنشدته أياها فكساه وأعطاه ثلاثين ألفاً.

كانوا يسمون مثل هذه القصائد «المنصفات»، أي أنها تُصِفُ الخصم فلا تحقره ولا تبخسه حقاً. من ذلك شعر شبيب الفزاري وعبد الشارق ابن عبد العزى الجهني والعباس بن مرداس السلمي. وكل ذلك شعر شريف ظل يضىء في دياجير العصور حتى تنأى إلينا في هذا العصر الحالكة الظلام. ومن شريف ما قيل في وصف الخصم أبيات عتيقة:

ومنجج كمره الكُفَاة نزاله

لما راني قسداً نزلت أريدُه
لأمدح من مريباً ولا مستنهب

أبدي نواحيده لغير تسم
الا أن هذه القصيدة. ونقل أنها لأبي الأخيل العجلي. أكثر من ذلك بكثير. إنها قصيدة ملحمة، لا تقل في مأساويتها وأثارها للحزن والأسى، عن «تراجيديا» اليونان. وقد كانت قصيدة طويلة، فيما رواها ضاع معظمها لسوء الحفظ وبقيت منها أبيات. إلا أن القليل الذي وصل إلينا يعطينا فكرة واضحة عن شاعر بلغ حداً من «التجرد الفني» نادر المثال في الشعر العربي. وأنت إذا استثنينا معلقة زهير في حرب عبس وذبيان، وسينة البحتر في الإيوان، وبعض شعر المتنبي وأبي العلاء، لعلك لا تجد إلا أبياتاً قليلة متفرقة من هذا الضرب من الشعر.

الشعر العربي في الأغلب، شعر «منحاز». «التزام» الشاعر واضح. إن بالحق أو بالباطل، ولا أقول «انتماؤه». فذاك امر أوسع وأعمق، يجعل الشاعر «الكبير» شاعراً عظيماً.

هذا ما فعله زهير في معلقته، وهذا هو الذي جعلها في رأيي، شعراً عظيماً، وليس شعراً جميلاً فقط. أنها عند أعظم المعلقات لهذا السبب. لقد كان زهير الوحيد بين شعراء الجاهلية، بل وقل من القلائل إلى يومنا هذا، الذي سما بفنّه فوق أغراءات الظروف التي اكتنفته، فلم ينحز إلى أي جانب في الصراع الدائر في قومه ولكنه نظر إلى المأساة بكلّيتها، وبذلك صنع فناً إنسانياً، ينطبق على كل زمان ومكان. كذلك فعل أبو الأخيل العجلي، وزاد على زهير أنه كان «مشاركاً» في الحرب وشاهداً عليها في الوقت نفسه. قال رحمه الله وغفر له:

ألا يا أسلمى ذات الدماليح والعقد

وذات الثنايا الغرّ والفساحم الحسد
وذات الثنات الحمّ والعاراض الذي
به ابرقت عسداً مبيض كالشهد

كان شايها اعتسفن مداًمة
ثوبت جحجحا في رأس ذي أفتة (١) فرد
جرى بفراق العامرية عذوة
شواحه (٢) سود ما تعيد وما تبدي
لعمري لقد مرت بي الطير أنفاً
بما لم يكن إذ مرت الطير من بد
ظللت أساقى الموت أخوتي الأبي
أبهم أبي عند المزاينة والحد
كسلانا بنادي يا زرار وبيننا
قنا من قنا الخطي أو من قنا الهد
(٣) قروم تسامى من زرار عليهم
محاسنة من سح داود والسعد
إذا ما حملنا حملة مثلاً لنا
مهممة نذري السواعد مر صعد
وإن نحن نأرسلهم مسوارم
ردوا في سراويل الحديد كما نردى (٤)
كسفى حزناً أن لا أزال أرى القنا
نبح نجيعاً (٥) من ذراعي ومن عضدي
لعمري لئن رمت الخروج عليهم
بقيس على قيس وسعد على سعد
وضيقت عمرواً والرباب ودارماً
وعسرو بن أذ كيف أصبر عن أذ
لكنت كمنهريق الذي في سقائه
لرقرق إلى فسوق رابضة صلب
كموضعة أولاد أخرى وضيعت
بني نطنبا هذا الضلال عن القصد
فأوصيكما يا أبنّي نزار فتابعيا
وصية مفضي النصح والصدق واللؤ
ملا تعلمن الحرب في الهام هامتي
ولا تزميا بالتبل وتحميا بعدي
أما ترمسان الله في أبنّي أبيكما
ولا ترحسوان الله في حنة الخلد
مما نرب أثري (٦) لو جمعت ترايبها
ماكشرو من أبنّي نزار على العبد
مما كنفا الأرض اللذا لو ترعزعا
ترعيز ما بين الجنوب إلى السد
وأنى وإن عاديتهم وحسوتهم
لتسالم معاً عض أكبادهم كئدي
نسان أبي عند الجفاط أبهم
وخالهم خالي وجسدهم جدي
رماحهم في الطول مثل رماحنا
وهم مثنا قد السيور من الجلد (٧)

(١) ثوبت جحجا الخ: خمر غفقت زمناً طويلاً في مكان على قمة جبل. يسه به ريق الفتاة

(٢) شواحه سود: العروة سود

(٣) قروم: سادة أشراف. وأصل القرم الفحل من الإبل

(٤) سراويل الحديد: الدروع. ويأتي من الزمان أي سرعة المنى، وهو هنا يقصد أنهم لا يفلتون (عنا) أقداماً وجراة على الحرب

(٥) المجمع الدد الأسود

(٦) أثري وأثرى اسمان للأرض، يقصد أن ربيعة ومصر لا يحصيها العبد من الكثرة

(٧) قد السيور من الجلد: يقصد أنهم متساوون في كل شيء. كما تتساوى السيور المقطوعة من جلد واحد.



بقلم الطبيب صالح

رحم الله شيخنا أبا الحرم مكّي بن ريان بن شيبه بن صالح الماكسيني المولد الموصلّي الدار، المقرئ النحوي الضرير الملقّب بـ «صائن الدين»، ولد في مأكسين، وهي بلدة من أعمال الجزيرة على نهر الخابور. ونشأ يتيماً فقيراً، ثم قصد الموصل فحفظ القرآن وتبحر في فروع اللغة والأدب. ثم سافر إلى بغداد فصحب علماءها واتمتها ومن ثم عاد إلى الموصل وبرز للناس فغرف وانتشر ذكره وبعد صيته. وكان يتعصب لأبي العلاء فتأثر به ونسج على منواله. وكانت وفاته عام ثلاثة وستمئة بالموصل وبفن بصحراء باب الميدان.

رحمه الله. لقد أدرك حقيقة هامة في فهم الشعر، بل وفي فهم الأدب والفن على وجه العموم. قال إن المتنبي كان يتوجه بشعره إلى العلماء والأدباء والشعراء ولا يبالى بالممدوح. وما نحن نرى في زماننا هذا مذاهب في النقد تزعم أن «النص الفني» كيان قائم بذاته، مستقل عن صاحبه، لا صلة له بحياة المؤلف، ولا ببيئته وزمانه. وذلك أبعد مراحل مما ذهب إليه شيخنا أبو الحرم، وإن كان لا يخلو من بعض ما قصد إليه. إنما يمكن القول على أي حال، أن الشعر ليس وثيقة تاريخية لحياة الشاعر، وأنه في جانب كبير منه حوار متصل بين الشاعر وفنه، وبينه وبين الشعراء في زمانه، وبينه وبين تراث قومه إطلاقاً. ويزيد بعض اخواننا في زماننا هذا، أنه أيضاً تواصل مع التراث «الإنساني» عامة. ويقولون إن «الفن» لا يصور الواقع، ولكنه «يعيد صياغة الواقع».

أياً أرادوا، فلا مراء أن الشعراء العرب، وخاصة الأفياذ منهم، كانوا يعلمون أنهم يصنعون «فنّاً» ليس مقبداً بزمان أو مكان. وكان المتنبي من أكثرهم احساساً بذلك. فما هو ذا يقول مخاطباً سيف الدولة.

وعندي لك الشرذ السائرات لا
يخضعن من الأرض داراً

تدبر يا أصلحك الله قوله «لا يختصصن من الأرض داراً» ليس هذا ما يرمي إليه بعض أصحابنا حين يصفون بعض ضروب الأدب بأنها «عالمية»؟ وإي «عالم» يقصدون يا أم عمرو؟

كان القدماء يدركون هذا المعنى تمام الإدراك، لذلك كان الشاعر عندهم لكي يستحق صفة شاعر لا بد له أن

يتقن أدوات صناعة الشعر، ويتدرب على فنون القول من مديح وهجاء وغزل ونسيب وفخر ورتاء. هكذا يفعل كل صاحب حرفة وصناعة. وفي زماننا هذا يتعلم الرسامون مزج الألوان ورسم الأجساد والطبيعة والزوايا والأبعاد وخصائص الضوء وانعكاساته إلى غير ذلك. وكان يلزم للشاعر أن يحيط بتراث قومه ويلم بما فعل الشعراء قبله. وفي الإسلام، أصبح الشعراء يدرسون علوم القرآن والحديث والفقه والتاريخ وكل ما أتيج لعصرهم من معارف. وبوسعك أن تقول إن وراء شعر أبي نواس الماجن علماً كثيراً! فالامر إذاً ليس محض كلام يجيش في صدر الشاعر عفو الخاطر، ولكنه أيضاً صناعة ودربة ومهارة. وهذا في ظني هو المعنى الذي أشار إليه شيخنا أبو الحرم. ولو رحت تطلب شاعراً عربياً واحداً، منذ امرئ القيس إلى زماننا هذا توفرت له كل أدوات صناعة الشعر، بالإضافة إلى موهبة خارقة لم يحظ بمثلها أحد قبله أو بعده، لما عدت أبا الطبيب المتنبي. ونحن حين نقول أنه «الأستاذ» فإنما نقصد بذلك المعنى الأصلي للكلمة.

قال صاحب «البيتية»، في معنى البيت:

أزورهم وسواد الليل يشفع لي
وانتني وبياض الصبح يغري بي

«هذا البيت أمير شعره، وفيه تطبيق بديع ولفظ حسن، ومعنى بديع جيد. وهذا البيت قد جمع بين الزيارة والانشاء والانصراف، وبين السواد والبياض، والليل والصبح، والشفاعة والأغراء وبين «لي» و «بي». ومعنى المطابقة أن تجمع متضادين كهذا. وقد اجمع الحذاق بمعرفة الشعر والنقاد، أن لأبي الطبيب نواذر لم تات في شعر غيره وهي مما تخرق العقول...»

تخرق العقول، أي نعم، ولا عليك من هؤلاء البنيويين والتفكيكيين والسيماثيين وما شابه. لقد جاءوا من أودية شتى إلى وادي العقيق ووادي الرّس ووادي الخزامي، فلن يطول مكثهم بها إن شاء الله. وفي البيت افضل بعد، فحكاية أبي الطبيب مع الضوء والظلام حكاية طويلة. وقد قال في موضع آخر:

وكم لظلام الليل عنك من يد
تخبر أن المانوية تكذب

وقاك ردى الاعداء تسري اليهمو
وزارك فسيه ذو الدال المحسب

كان المتنبي شاعراً من رأسه حتى قدميه. شاعراً في حله وفي ترحاله. شاعراً في النعيم وفي البؤس. شاعراً في السلم وفي الحرب. شاعراً في حلب وفي القسطنطينية. في الكوفة وفي شيراز. كانت حياته كلها منذورة للشعر. كانت لديه «القصيدة هي الهدف» ■

نحو أفق بعيد



بقلم الطبيب صالح

فلن العميد رحمه الله، ان هذا البيت متصل بالابيات التي سبقته في مدح سيف الدولة، فقال:
«ومعز الدولة وحده هو المعنى بهذين البيتين، ما اشك في ذلك. فهو لقب يضاف الى الدولة، ولكنه ليس ماضياً ولا عضباً، وانما هو لفظ ضخم لا يعني شيئاً. والبيت الثاني صريح في ذلك، فقد جعل امير حلب سيفاً للدولة بحميتها ويدود عنها، على حين ان منافسه في بغداد لا يزيد على ان يعلن عن الدولة او عن نفسه بالبوقات والبطول... والغريب ان النقاد الادباء مضوا مع اصحاب السياسة في انكار هذا البيت فعابوه، مع اني لا اعرف ضياء اقذع ولا اوجع، ولا سهما انفذ من هذا البيت...»

غفر الله لك، لو أنك تمهلت قليلاً، ونظرت بعين المحب، ولم تحمل «بوقات» و«بطول» على معناهما المعاصر والحقت البيت لا بالابيات التي سبقته بل بالابيات التي جاءت بعده، اذا لوجدت معنى طريفاً حقاً. اذا لرايت ان الشاعر اُفُلت فجأة من مدح الامير، ولاذ بنفسه في ثمانية ابيات، كأنها قصيدة قائمة بذاتها فيما يسمى هذه الايام بـ «المنولوج الداخلي»، يقول:

اذا كان معزُ الناس سيفاً لدولة
ففي الناس بوقات لها وطلول
انا السابق الهادي الى ما أقول
اذ القبول قبيل القائلين مقول
وما لكلام الناس فيمما يربى
اصول ولا للفاتليين اصول
أعادي على ما يوجب الحب للفني
وأعدا والافكار في تجسول
سوري وجع الحساد داو فنان

اذا حل في قلب فليس بحسول
وأقول عفا الله عني، ان المتنبي لو اراد المعنى الذي ذهب اليه العميد، لعبّر عنه صراحة بأسلوب مباشر، كما فعل في قصيدته التي بعث بها الى سيف الدولة من الكوفة بعد ان فارقه:

ليس الآن يا علي مـسـبـام
سيفه من عرضه مسلول
انما الشاعر هنا يؤكد دوره كشاعر. كأنه يقلل من شأن سيف الدولة. فهو «بعض الناس» وهو مجرد «سيف» مجرد «دولة». اما الشاعر، فهو طبول تصطبج وابواق تضج. وكأنه اراد ان يقول للامير «لا تظن ان الملك يبني بالسيف وحده، انما ايضا بالفكر والادب والفن، واذا تخيلت ان ما انجزته بسيفك عظيم، فان دوري انا الشاعر، لا يقل اهمية عن دورك، ولعله يفوقه...»

هذا المعنى ادركه شيخنا ابو الفضل العروضي رحمه الله، فقال:
«اراد بالبوق والطليل الشعراء الذين يشيعون ذكره ويذكرون في اشعارهم غزواته، فينتشر بهم ذكره في الناس كالنوق والطليل اللذين هما لاعلام الناس بما يحدث...»

رحم الله الدكتور طه حسين، فلنا مع كتابه عن المتنبي حديث آخر لعله بطول. وانت يا سيدي سقى الله قبرك ابناً كان. لقد صنعت من عذابات حياتك فنا خالداً، وولدت ضوءاً، تدور حبيوك، واعشى عيون منعصيك فلم يروا الا الظلام.

لنحت صلة

بلى، كانت «القصيدة» هي الهدف، بل كانت هي «القدر». وهو قدر لم يتقبله الشاعر طائفاً، وقد حق له ذلك، فمعدا الذي يرضى ان يحمل عن طيب خاطر ذلك العبء الغارج، عبء عبقرية مثل عبقرية المتنبي؟
ماذا لقيت من الدنيا وأعجب

اني بما انا باكم منه محسود
وهل أبكاك يا سيدي الا الشعر
كان المتنبي «شاعراً» اولا واخيراً، وهي حقيقة ادركها ذلك العبقرى الآخر، ابو العلاء المعري. هو ايضا عبر ذلك الجسر، وقاسى ذلك الليل، وأوغل في رحلة «وجودية» جريئة تختلف عن رحلة المتنبي، ولكنها تتلقى معها في نهاية الامر، لذلك كان اذا ذكر الشعراء يقول، قال فلان، وقال فلان، حتى اذا ذكر المتنبي قال «قال الشاعر».

بيد ان عميد الادب العربي الدكتور طه حسين، على علمه وسبقه وجلال قدره، لم يعطن الى هذا، ولعله فطن ولكنه غرض الطرف، بسبب شعور محير تجاه ابي الطبيب. اسمعه يقول:
«قد يقال هذا كله ولكنه لا يعني عن المتنبي شيئاً، ولا يزيد على ان يكون ما نذهب اليه من ان المتنبي انما كان شاعراً كغيره من الشعراء، ورجلاً كغيره من الناس، قد رفع نفسه فوق قدرها، وزعم لها ما ليس من اخلاقها، وطمع فيما لا ينبغي لمثلها ان يطمع فيه. فتن نفسه حراً ولم يكن الا عبداً للسلطان، وطمع نفسه ابياً، ولم يكن الا ذليلاً للسلطان، وطمع نفسه صاحب رأي ومذهب، ولم يكن الا صاحب تهالك على المنافع العاجلة التي كان يتهالك عليها أيسر الناس امرا واهونهم شأنًا...»

رحم الله العميد وغفر له. لقد اخرجته البغضاء للمتنبي عن طوره تماماً، وجعلت بينه وبين الشاعر حجاباً مستورا. ولكنها بغضاء مثل الحب، فالعميد رحمه الله، شأنه في ذلك شأن الشريف الرضي والصاحب بن عباد وكثيرين الى يومنا هذا، حالهم «حال المجمعين على الحمد».

لا غرابة اذا، ان هذا العالم الحير، عملاق الادب في زمانه والى اليوم، لم يفتنه الى المضمون الخطير في بيت من شعر المتنبي. لا عن قلة فطنة، فقد كان العميد آية في الذكاء. ولا عن جهل حاشا لله فقد كان العميد بحر علوم. لا، انما هي السفهاء التي تجعل الانسان ينظر الى الشيء الواضح امامه، فلا يراه. قال المتنبي:

اذا كان معزُ الناس سيفاً لدولة
ففي الناس بوقات لها وطلول



بقلم الطبيب صالح

اعتمد الدكتور طه حسين اعتماداً كبيراً في كتابه «مع المتنبي» على كتاب المستشرق الفرنسي «بلاشير» وتبنى أحكامه على أبي الطيب وشعره إلى حد بعيد. وكان «بلاشير» قد قدم دراسته التي أسماها «أبو الطيب المتنبي - دراسة في التاريخ الأدبي» كاطروحة نال بها شهادة الدكتوراه من جامعة السوربون عام ١٩٣٥. وقد ترجم الكتاب إلى اللغة العربية الدكتور ابراهيم الكسلاني الأستاذ بجامعة دمشق. ونشرته وزارة الثقافة السورية عام ١٩٧٥. وتلك حسنة محمد لوزارة

الثقافة السورية، فهذا كتاب مهم بذل فيه المؤلف جهداً كبيراً في البحث لولا أنه لسوء الحظ انتهى إلى نتائج خاطئة في الغالب. والكتاب مهم، ليس لأنه يغيدنا بأي جديد عن حياة المتنبي أو شعره، ولكن لأنه يكشف لنا بصراحة كيف نظر بعض هؤلاء المستشرقين إلى الثقافة العربية بل والحضارة العربية برمّتها. ولولا استثناءات ليست قليلة، لرجال ونساء منصفين لا تنقصهم الشجاعة، بذلوا جهداً عظيماً، ونظروا بعطف إلى الحضارة العربية «من الداخل». لولا ذلك لقلت أن تلك النظرة، لم تكن تتغير إلى يومنا هذا.

سوف أتطرق إلى كتاب «بلاشير» خلال حديثي عن كتاب الدكتور طه حسين أن شاء الله. ولكنني اكتفي الآن بإقتطاف فقرات من الكتاب، يتحدث فيها المستشرق الفرنسي عن سيف الدولة، تحتوي في ظني، على كثير من الخطأ والتناقض اللذين وسما النظرة العربية إلى الإنسان العربي والحضارة العربية. يقول «بلاشير»:

«وكان سيف الدولة مؤسوماً، خلّقا وخلقا، بطابع عرقه العربي، يفرض نفسه من خلال صفات هي عماد السؤدد في نظير البدوي، كالشجاعة والكرم وشيء من سمو النفس. وكان بحكم التأسل (١) (الردة الوراثية)، مسعر حرب، ولكن تنعنا للمفهوم العربي، إذ لم يكن فيه ما يشعر برجل الحرب الحقيقي، وكان نصيبه كلما اصطدم بخصم عنيد، الهزيمة. وكانت طريقته في الحرب (تكتيك)، كما سئري، ترتكز على مهاجمة العدو بعنف واستغلال عنصر المفاجأة وإغارة جنوده الفرسان. ولم يكن قبل غزواته يستعد للمعارك، أو لا يستعد إلا قليلاً، كما أنه لم يكن بعد الانتصار بالاحتفاظ بثمرات فتحه أو تأمين انسحابه. وكان بالإضافة إلى ذلك كثير من القواد الأرياء» (٢). شديد العناد، يصم أذنيه عن سماع أبسط نصائح الحبيطة، وكان يجب أن يستبد برايه ولا يشاور أحداً لئلا يقال أنه أصاب برأي غيره. بيد أنه كان يعوز عن هذه العيوب الخطيرة التي سببت له في أواخر حياته كوارث متتابعة، باحتمال هائل للمشاقي، وجرأة واستبسال بلغا أقصى الحدود، فإن ما كان عند الغالبية من العرب (٣) نفجاً، أصبح عنده وقائع حقيقية ويومية. وأخيراً فإن ما كان يميزه عن أخوانه بني جنسه، فهو عناد تادر مقرون بتجاهل تام لغتور العزيمة. وكان ينفذ كل ما عقد العزم عليه مهما كلف الأمر، ولم تنل في أواخر حياته، الإحزان ولا الهزائم ولا الخيانات من شجاعته الجموح.

وكان لسيف الدولة أيضاً من صفات العربي، تلك الثقيل الذي ضل (حيز) توقعاتنا كافة، فهل كان جاثراً أم حليماً؟ لسنا

بندي، فإن السيد الذي أعاد لنصارى حلب جثة أحد أبناء برّس ففاس (٤) Bardas Phocas، الذي توفي في الأسر، هو ذاته الذي أمر بقتل أسرى الروم، الذين وقعوا عقب إحدى المعارك، في قبضته.

ولسيف الدولة أيضاً من صفات العربي، تلك العصبية التي تحولت عنده إلى (٥) تقوى حقيقية. فقد كان يكن لأمه أجلاً عسيقاً، ويضمّر لآخيه ناصر الدولة ولاء، وتلك لعبري صفة استثنائية (نادرة) في الشرق... وكان لحبائه الجنسية مفارقات عجيبة لم تكن على كل حال وفقاً على العرب بل هي مشاع بين الشرقيين في القرون الوسطى. ولا يلبث هذا المحارب الذي قاسى دون تذمر، متاعب الحرب في الجبل والصحراء، أن ينقلب بعد عودته إلى بذّاح ضحّث، قادر مع ذلك عند الحاجة، على استرداد عزمته دفعة واحدة. ويبدو أن قصره في ضاحية المدينة، وهو في آن واحد، دار إمارة وحصن، على غاية الرفق، تقام فيه المأدب طويلاً، ويطلق العنان، دون ريب، لجميع أنواع الأمراط الذي اقتضته حياة حرة جداً. والظاهر أنه كان للنساء، بالإضافة إلى ما تقدّم، سلطان كبير عليه. وكانت أحدهن، وهي مسيحية من أسرة رومانية شريفة، أسرت في إحدى الغزوات، أجنحت في قلبه هوى جامحاً... وتشعر أحياناً أن ثمة شيئاً كان من الممكن أن يفوت هذا الأمير لو لم يظهر كرماً صاخباً بلغت شهرته بغداد وخراسان... وقد كان هذا الكرم والحق يقال، أسلوباً سياسياً، الغرض منه إيقاع الدهش في قلوب أعدائه وجيرانه. ويقال أنه في سنة ٣٥٤هـ - ٩٦٥م، صرف على سبيل المثال، وفي بحران الهزائم، سبعمائة ألف دينار ذهباً، على زواج اثنين من ولده، وكان سخاوته ناشئاً، في أغلب الأحيان، عن أريحية تعثره فيعطي دون أن يحسب لمقتضى الحال والضرورة حساباً.

أما وإن الانغماس الذي كان يعمره سيف الدولة للأموه العقلية، صادر عن عاطفة الفتح فهذا مؤكد جداً، فقد كان من مقتضيات الترف في زمنه، أن يحيط الأمير نفسه بجمهور من المتملكين، وكذلك بخدور النساء العبدية، والأصطبلات الواسعة. أما وإن هذا الأمير استجاب، بجعله حلب حاضرة منافسة لبغداد، لدواعي الدعاوة الشخصية ومصصلحة الملك، فهذا ما لا نستطيع دحضه. ولم يكن هذا إلا استمراراً للتقاليد العربية، تقاليد اللخميين في الحيرة والغساسنة في الشام قبل الإسلام، والأمويين في دمشق بعد الإسلام... فهل كان سيف الدولة ذاته شاعراً؟ هذا ممكن جداً لأن نظم الشعر كان شائعاً في أسرته بيد أن الأبيات المنسوبة إليه مشكوك بصحتها، وفي الواقع فليس الأمر ذا بال، فإن الواقعة التي ينبغي الاحتفاظ بها هي أن سيف الدولة كان على شاكله الفنية الممتازة في زمنه، وأوسع المعرفة بالشعر العربي. وليس عجباً أن نجد عند أمير مثله ورث الكثير من الخصال الأصلية، ما يميز العربي كحُب الفصاحة، والخضوع الأعى لسحر الكلمة...

(١) لغة يفقد شيئاً متصلاً في الطبع العربي بحكم الوراثة. تجعل العربي يسلك دائماً سلوكاً معيناً، وهي كما ترى نظرة عصرية ومتناقضة أيضاً، فهو يكره في كتابه وجود عنصر غربي فيه، وفي الوقت نفسه يعري إلى العنصر العربي أعماطاً معينة من السلوك

(٢) الأرياء جمع ردي، يقصد القواد الذين لا علم عندهم بمنون الحرب (٣) يستعمل المترحم كلمة «مفع» بمعنى جيشان الحماس بشكل مؤقت، والتطاهر

(٤) Bardas Phocas هذا، هو الذي سمّاه العرب «الدستوق» وأشار إليه المتنبي في شعره

(٥) تقوى حقيقية، لغة يفقد أن العصبية تحولت لديه إلى «بر» و«رحمة» نحاء أفراد عائلته

نحو أفق بعيد

الكتاب أمثال العقاد والمازني. وكان المستشرق الفرنسي «ملاشير» قد أصدر بحثه عن المتنبي باللغة الفرنسية عام ١٩٣٥. ولا شك أن الدكتور طه حسين - لم يكن لواء عمادة الأدب العربي قد عقد له بعد - لا شك أنه أحسن رغبة عظيمة أن يدلي بدلوه. ويخوض في لجج أبي الطيب مع الخاضعين. ثم يقول: «واكبر الظن أيضاً أنني إنما فعلت ذلك لاني أحب أن أعاند نفسي وأخذها من حين إلى حين ببعض ما تكره من الأمر. وقد قلت في غير هذا الموضع أنني لست من المحبين للمتنبي ولا المشغوفين بشخصه وفنه فلم أجد بأساً في أن أشق على نفسي أثناء الراحة، وأثقل عليها حين تمغض الانقال عليها».

بخ بخ. كونك يا سيدي لا تحب شخص أبي الطيب، فهذا من حقدك. أما أنك لا تحب فنه فهذا أمر محير من شخص في مثل علمك وفضلك. ثم ماذا غفر الله لك؟

«مع. لم أجد بأساً في أن أقطع عليها لذة الحياة في فرنسا بين هذه الربي الجميلة وفي هذا الجو الحلو، وبين هذه الكتب الطريفة والآراء الشاذة التي تتكشف عنها جهود الأدباء والفلاسفة والنقاد، والتي أعرق فيها إلى أدنى كلما عبرت البحر. لم أجد بأساً بأن أثقل على نفسي أثناء هذا كله بالتحدث إلى المتنبي والتحدث عنه والاستماع له والنظر فيه. والناس يعرفون أنني شديد العناد للناس، فليعرفوا أيضاً أنني شديد العناد لنفسي كذلك».

اللهم لقد عرفنا، ولقد كان أبو الطيب أكثر منك عناداً، جواب الأفاق، الواقف أبداً على مفترق الطرق. ولولا أننا نجحنا ونجلك، لما قبلنا منك كل هذا «الدال». وواضح أن الدكتور يستغل ظل الشاعر ويجده شديد الوطء على نفسه، فهو يقول في موضع آخر من كتابه، معلقاً على أبيات المتنبي في رجل من طرابلس يدعى عبيد الله بن خلكان، أهده هدية فيها سمك من سكر ولوز وعسل، والابيات ليست أكثر من تهو تلهي به الشاعر، وهو بعد في باكورة شبابه:

«فالشاعر كما ترى مطابق مبالغ حتى في وصف السكر واللوز والعسل، وفي الشكر على علية حلوى. ومن حق المتنبي أن يستريح وأن يلهو بالصفاغر، ويرفه بها على نفسه من هذه التهموم الثقيل التي يطوف بها في الأفاق، ويفكر فيها أثناء الليل وأطراف النهار. ولكن راحة المتنبي وقرائه، ودعابة المتنبي ومجونه، كل ذلك لا يخلو من السخف ونقل الروح كما ستري في غير هذا الموضع من الحديث. فلم يكن المتنبي حلو الروح، ولا خفيف الخل، ولا جذاباً. وإنما كان مرا غليظ الذوق في أوقات الدعة والفراغ».

رحمك الله. أما قال لك الشاعر: «أما أنك صوته الجريح المزعج بكل تلك الأشجان النبيلة».

سبحان خالق نفسي كيف لذتها
فيما النفوس تراه غاية الالم
الدهر يعجب من حملي نواتيه
وصبر جسمي على أحداثه الحطم
وقت يضيق وعمر ليت مدته
في غير أمته من سالف الأمم
أنى الزمان سوه في شمسيتها
فستزهم وأتيناها على الهرم

(استدعت مقية)



بقلم الطبيب صالح

تخيل مسافراً يختار لرحلته، عمداً ومحض إرادته، رفيقاً لا يحببه ولا يأنس إليه. ألا يكون هذا عجيباً؟ هكذا فعل استاذنا العميد الدكتور طه حسين مع أبي الطيب المتنبي. أننا بذلك صراحة في مطلع كتابه مع المتنبي بأسلوبه الفريد الذي أثر عنه، وهو أسلوب يخفيك ويجذبك في الوقت نفسه، فقال:

«وليس المتنبي مع هذا من أحب الشعراء إلي وأثرهم عندي. ولعله بعيد كل البعد عن أن يبلغ من نفسي منزلة الحب أو الأيثار. ولقد أتني علي حين من الدهر لم يكن يخترني ساعني بالمتنبي أو أطبل صحبته، أو أديم التفكير فيه. ولو أنني أطعت نفسي وجاريت هواي لاستصحبته شاعراً اسلامياً قديماً عسيراً كالفرزدق أو ذي الرمة أو الطرماح، أو شاعراً عباسياً من هؤلاء الذين أحبهم وأوثرهم، لاني أجد عندهم لذة العقل والقلب، أو لذة الآن، أو اللذتين جميعاً، كمسلم وأبي نواس وأبي تمام وأبي العلاء. ولكني لم أطع نفسي، وإنما عصيتها، ولم أجار هواي، وإنما خالفته أشد الخلاف، وطلبت إلى صاحبي على كره مني أن يستصحب المتنبي».

كان ذلك في صيف عام ١٩٣٦. وكان العميد رحمه الله، في طريقه إلى جبال الألب، فراراً بنفسه كما قال «من أحداث الحياة الخاصة والعامة في القاهرة، وطلباً للهدوء والراحة وقراءة مجموعة من الكتب الفرنسية. وهكذا بخبرنا العميد منذ البداية، أنه لم يكن يجد في صحبة المتنبي، لا متعة العقل ولا متعة القلب ولا متعة الآن. لماذا إذاً يا دكتور ألزمت نفسك أمراً ليس يلزمها وأرهقتها كل ذلك الأرهاق؟

بجيبنا العميد بطريقته الجذابة التي نجحنا فيه مع أنها تغيظنا:

«واكبر الظن أنني إنما فعلت ذلك لأن المتنبي كان وما زال حديث الناس المتصل منذ أكثر من عامين، ولاني حاولت وما زلت أحاول أن استكشف السر في حب المحدثين له وأقبالهم عليه، وإسرافهم في هذا الحب والأقبال. كما أسرف القدماء في العناية به حباً وبغضاً وإقبالاً وأعراضاً».

لا جرم، فقد كان الحديث مستعراً في تلك الآونة عن أبي الطيب المتنبي في العالم العربي، بل وفي العالم الإسلامي أيضاً لمناسبة الاحتفال بذكر الألفية. كان الاستاذ محمود محمد شاكر، أطال الله عمره، قد أصدر بحثه القيم عن المتنبي، الذي نشرته مجلة «المقتطف» في يناير عام ١٩٣٦ في عدد خاص. وكان المرحوم الدكتور عبد الوهاب عزام قد نشر كتابه «ذكرى أبي الطيب بعد ألف عام». كذلك صدرت مقالات لكبار



بقلم الطبيب صالح

نحن اليوم، من هذه المدة في الزمان، وقد بعثت الشقة، ومضى الدكتور العميد لحال سبيله، رحمه الله وأحسن اليه، لعلنا لا نجد غضاضة في عتب العميد بنا وتعمده اغاظتنا. ولعل ذلك لا يزيد على أن يجعلنا نضحك أو نبترسم. لقد عاد العميد من فرنسا وفي نيته أن يفعل في الأدب العربي ما وجد الفرنسيين يفعلونه في أدبهم وفي فكرهم، وقد

أشار إلى ذلك بقوله... هذه الكتب الطريفة والآراء الشاذة التي تتكشف عنها جهود الأدباء والفلاسفة والنقاد، واغرق فيها إلى أنني كلما عبرت البحر، طرح الأفكار الغربية وتاجيج نيران الجدل، والقاء الشك على الأمور التي يعتبرها الناس مقدسات أو مستلزمات، كل ذلك شائع في أوروبا، وخاصة في فرنسا، بسمونه Icoelasma، أي «تحطيم الإيقونات»، ولا بد أن العميد، أول عهده بفرنسا، بعد وقار الأزهر ومحاذاير شيوخه، وجد نشوة روحية ومنتعة ذهنية، لم يالفهما من قبل، في ذلك المناخ المنفتح، الذي لا يبالي أن يقول الإنسان ما يشاء ويكتب ما يشاء، ولما عاد إلى مصر أراد أن يقوم بذلك الدور في الأدب العربي، فأخرج للناس كتابه الشهير الذي زعم فيه أن الشعر الجاهلي كله منتحل، وضعه الرواة بعد الإسلام، وأن الشعراء الجاهليين، لا وجود لهم في الحقيقة، وأنهم من صنع خيال الرواة.

بهذه الروح أيضاً أقدم العميد على دراسة المتنبي. اقتحم حضرة الشاعر العبقرى، بنفور يقترب من الغضا، ونية مبيتة على الغض من شأنه والنيل منه، أدعاء للجدل، وأغاظة للناس، وأي نيل أبلغ من التشكيك في عروبة شاعر ترى الغالبية أنه شاعر العربية الأولى؟ يقول العميد، وهو جاد كالهازل، ومعرض كالحابل ومقرر كالمائل:

«فما الذي يمنعنا أن نصدق المتنبي، ونرى معه أنه كان عربياً قحطانياً؟ لا شيء إلا أنه لم يحفظ نسبه، ولم يحفظ له المؤرخون، فأمره في ذلك أمر الكثرة التي لا تحصى بين العرب القدماء والمحدثين الذين أضاعوا أنسابهم. أفنجد عربيتهم لأنهم أضاعوا هذه الأنساب؟ وما يمنعنا إذاً أن نجحد أنسابه الناس لأنهم لم يحفظوا أنسابهم إلى الإنسان الأول؟ أو إلى الناس الأولين؟ وإذا فلنقبل من المتنبي ومن أصدقائه أنتسابه إلى العرب...»

إلا أن هذا العبث من الدكتور العميد، لم ينزل برداً وسلاماً على قلب أستاذنا محمود محمد شاكر، أطل الله عمره، فهو محب لأبي الطبيب لا يحتفل فيه المزاج، فقال وهو يعني العميد:

... زهو بغيبض، وخيلاء ناپيسه، وعجب لا يرحم باشاً رماه حب القراءة في تنور، وقوده من زمهرير ثرثرة قياسية.. فهو دائماً يحب أن «يغيط» القراء، وأن يثير «سخطهم»، وأن يعاند نفسه ويعاند الناس. سلسلة طويلة مكررة من الاستعلاء والاستخفاف...

ربما يكون للأستاذ محمود بعض العذر، وما أحب إلا أنه هو المعنى يقول العميد «وإذا فلنقبل من المتنبي ومن أصدقائه» أنتسابه إلى العرب. لقد أصدر الأستاذ محمود كتابه عن المتنبي في يناير عام ١٩٣٦، أي قبل أكثر من عام من صدور كتاب الدكتور طه حسين، وبذل فيه جهداً عظيماً، وطرح فيه نظرية طريفة دعمها بكثير من الحجج القوية، أن المتنبي «شريف علوي». والكتاب من أقيم ما كتب عن المتنبي إلى اليوم. ثم إذا بالعميد، لا يكتفي بإنكار «علوية»، ألا لأنه هو زعم ذلك لنفسه، وأكراما لخاطر أصدقائه!

كذلك تجاهل العميد كتاب، الأستاذ محمود، فلم يشر إليه إلا تلميحاً في كتابه، بينما أشار إلى كتاب الدكتور عزام عدة مرات، وأشار كثيراً إلى كتاب المستشرق الفرنسي «بلاشير» يتفق معه في أغلب الأحيان. وكأنه استصغره واستقل شأنه، فقد كان الأستاذ محمود يومئذ، حدثاً في العشرينات من عمره.

يصف الأستاذ محمود لقاءه للعميد، بعد محاضرة له بمناسبة الذكرى الالفية للمتنبي، وكان ذلك عام ١٩٣٦، فيقول:

«... وخرجنا من القاعة.. وإذا نحن فجأة خلف الدكتور طه، حين أنصرافه. فعزم علي استاذي العبادي أن أسلم على الدكتور. فاستعلن غضبي وأبيت. ولكن لم أكد حتى سمعته يقول للعبادي «هذا محمود شاكر يا دكتور». فوقف والتفت التفاتة يسيره، ومددت يدي فسلمت وغلبني الحياء والخجل مما لقيني من فرط البشاشة والحفاوة، ثم أخبرني أنه قرأ كتابي كله، وجاء بشيء لم أكن أتوقعه، وأطال وأفاض وغمرني ثناؤه حتى ساخت بي الأرض».

أغلب الظن إذاً، أن الدكتور العميد، كان يتوجه بحديثه إلى الأستاذ محمود محمد شاكر خاصة، وكأنه يتعمد اغاظته، وهو يعلم أنه سوف يغتاظ حين يقول:

«ليكن المتنبي عربياً من قحطان أو عدنان، أو ليكن فارسياً، أو ليكن نبطياً، أو ليكن ما شئت، فالأمر الذي لا شك فيه هو أن هذا الصبي الذي نراه متى ما أخذنا في قراءة ديوانه، نبات شعبي خالص، نشأ في هذا الشعب الكوفي، الذي كان في أوائل القرن الرابع مضطرباً أشد الاضطراب. فدرس هذه البيئة الشعبية الكوفية التي أنبتت هذا النبات الشاذ، أقوم وأجدى من البحث عن أبيه إكان من جعفى، وعن أمه أكانت من همدان».

مرحى مرحى! ولا حظ أن العميد يصف الشاعر بأنه «نبات شعبي خالص» بلهجة من يقول بالبلدي المصري «فلان صعلوك من أرقه حي السيدة زينب وجواربها». ويقول أنه «نبات شاذ». ولو أنصف، رحمه الله لسمى هذا الشذوذ عبقرية ■



بقلم الطبيب صالح

لأن الدكتور العميد رحمه الله، أحب أبي العلاء المعري، فأنه أقبل على دراسته بحسبة، فأنحاز إلى صفة تمام، والتمس له الأعذار في مواطن الشك، وأقبل على شعره حال من يفترض النبوغ والعبقرية. لأجل ذلك، والحق يقال، جاء كتابه عن أبي العلاء، كتاباً بديعاً، مترعاً حكمة وفطنة، يقول في مقدمة الكتاب ميمناً مذهبه في البحث:

ومن هنا لا نستطيع لأنفسنا أن نحمد الأشخاص أو نذمهم بحسن ما ينسب إليهم من الآثار أو قبحه، فإن الذم والحمد مع قلة غنائهما في التاريخ، ليسا من عمل المؤرخ، بل من عمل الرجل الذي قصر حياته في صناعة المدح والهجاء، بل إن مذهبا في التاريخ يمنعا من ذلك، ويحرمة علينا، فأنا لا نؤمن بانفراد الأشخاص ولا استقلالهم بالأعمال. وإذا لم ينفردوا بها ولم يستبدوا بالتأثير فيها، كان من الواضح أنهم ليسوا أحرى بما يسدي إليهم من حمد أو هجاء...

كتب الدكتور هذا الكلام عام ١٩١٤، إلا أنه حين جلس يكتب عن المتنبي عام ١٩٣٦، كأنه نسي ما قال بالأمس، أو كأنه أغفله متعمداً، فقال في كتابه عن المتنبي، مقارناً بينه وبين أبي العلاء، في فقرة عجيبة، لعلها تكشف لنا عن طوية نفس العميد في تلك الأيام، أكثر مما تخبرنا عن المتنبي: «وقد جاء بعد المتنبي رجل آخر، رفع نفسه عن الدنيا وعن شهواتها ولذاتها ومنافعها العاجلة، واحتقر الناس وأزدارهم، وانكر الملوك والأسراء، وزهد في التقرب منهم، وأراد لنفسه أن تكون نفس الرجل الحر الكريم، ولعقله أن يكون عقل الرجل الحكيم الفيلسوف، فوفي لنفسه وعقله بكل ما أراد. ولم يكن أقل شاعرية من المتنبي، ولم تسعده الأيام كما أسعدت المتنبي، فقد حرّمته بصره، ولم تفتح له من الغنى والثروة ما يكفل له لين الحياة وخفض العيش. ومع ذلك فقد عاش كريماً ومات كريماً، ولم يتملق أحد عليه بذلة، ولم يغتر فيه أحد هفوه. سخر من الزمان ولم يسخر منه الزمان، واستطال على السلطان وعجز السلطان أن يستطيل عليه، وعاد من بغداد يشترط على أهل قريته أن يخلوا بينه وبين حرّيته، وألا يشركوه فيما يعرض لهم من خير أو شر، والأ... يخرجوه معهم أن خرجوا من المدينة فارين أمام الروم، وأن يقسموا في المدينة أن آمنوا ويظعنوا عنها أن خافوا، وبشركوه فيها على كل حال، لأنه رفع نفسه فوق الأمن والخوف جميعاً. وما أرى إلا أنك قد عرفت هذا الرجل الذي أحدث عنه، وهو أبو العلاء المعري».

يلي ما سيدي، لقد عرفناه. وقد أبدعت وانصفت، فهذه تحفة فنية من التحف التي تعودناها منك، وأكبرناك لأجلها. ونحن نشارك الرأي في كل ما أثبتت به على أبي العلاء. ولكن العميد، غفر الله له، لا يشاركنا إعجابنا بأبي الطبيب، فهو سرعان ما يخلص إلى القول: «والذي أريد أن أصل إليه من هذا الحديث الطويل، هو أن المتنبي قد ظل بنفسه غير ما كانت عليه. وما أكثر ما يخدع الناس عن أنفسهم، ولكن الغريب أن المتنبي لم يخدع نفسه وحدها، وإنما خدع معها كثيراً جداً من الناس، فظنوا به

الفلسفة وليس هو من الفلسفة في شيء، وظنوا به الحرية والكرامة وأباء الضيم، وليس هو من هذا كله في شيء وإنما هو رجل من أهل زمانه لم يمتز منهم بأخلاقه، وإنما امتاز منهم بلسانه، كما كان يمتاز غيره من الكتاب والشعراء».

اللهم إن مراكب البعضاء قد أبحرت بك بعيداً عن سواحل الانصاف. هل أبو الطيب المتنبي، بكر الزمان وفلقة الدهور، لا يمتاز عن أهل زمانه من الكتاب والشعراء؟ وهل أبو العلاء المعري - وهو على الرأس والعين - لا يقل شاعرية عن أبي الطيب؟ إن أول من يبتكر عليك هذا القول، هو أبو العلاء نفسه. كذلك يوسع الإنسان أن يسأل: أي الأمرين أجدر بالمعكر والأديب والشاعر؟ أن يلقي بنفسه في غمار الحياة بخيرها وشرها، وعسلها وصايبها، وهديها وأباطيلها، وينلها وخسرتها، كما فعل أبو الطيب، وكما فعل الدكتور العميد نفسه، ثم يخرج من كل هذا بمعان سامية تضيء في دياجير العصور؟ هل هذا أم أن يجنح إلى السلامة ويلوذ بصخرة تعصمه من الفرق كما فعل أبو العلاء؟ والمتنبي مات آخر الأمر، كما يجب بعض الناس أن يموت الشاعر، فتخلأ على مذبح القوافي، إذ مات أبو العلاء على فراشه في المعرة، لذلك نحن نعرف أين ثوى أبو العلاء، لكننا لا نعرف مثوى أبي الطيب غير هذا الشعر الفريد. وبإله من شاعر تثار أشلاء في خنايا القصاصد، وحملته القوافي في حواصلها، كحواصل الطير، من زمان إلى زمان، ومن مكان إلى مكان.

ولو شاء العميد غفر الله له، لسأل نفسه، كم من المفكرين والفنانين والشعراء، في تراث العرب وفي تراث غيرهم من الأمم، ارتفعت حياة الواحد منهم، إلى مستوى المثل العليا، التي عبر عنها في فكره أو في فنه؟ وهذا أبو تمام، الذي قال العميد أنه بحسبه ويؤثره، تقلبت به الأحوال ليس أقل مما تقلبت بأبي الطيب، وهذا أبو نواس، حين نسمع حديث الرواة عن حياته نقول: «نعمنا وترحاً وحين ننظر إلى فنه نقول لله دره». وفي الأدب الفرنسي، والعميد به عليم، أمة من هؤلاء، نذكر منهم الشاعر «بوليفر» الذي ثبت شعره الرائع من أوجال الحياة وأوضارها. والرسام النابغة «جاك لوي دافيد» الذي يصلح أن يضرب به المثل على محنة الفنان بين نوازع الفن وبين تبايرح الحياة.

لا يا رحمك الله، أنك لمعري لم تُنصف، وقد كان يجدر بك الانصاف، فما الذي دفعك إلى ذلك، وماذا أردت من وراء ذلك، وانت ولا شك تعرف منزلة أبي الطيب عند صفيك أبي العلاء. قال أبو العلاء مدافعاً عن المتنبي، في رسالة الفقراء: «وما زال (١) (الناس) يقولون، ويقصرون عن المكرمة فلا يطولون، وإنهم عما آثل (٢) متثاقلون، وطلاب الأدب في جباله وأقلون (٣)، من أنفرد بفضيلة اثيرة، فإنه يتقدم بمنأقب كثيرة. وإن حساد البار، لكما قال الفرزدق:-

فإن تهج ال زبرقان فسأتم

هجوت الطوال (٤) الشم من ال يذبل

(١) الكلمة في الأصل كلمة قاسية، استلثها اجلالاً لتكريم العميد، الذي معه رغم أي شيء، من عظماء الرجال في هذا العصر

(٢) آثل، أي يبس وشيد

(٣) وأقلون، أي صاعون

(٤) الطوال اتسم، أي اجمال العالية، ويثقل اسم جمل



بقلم الطبيب صالح

لماذا أنغض الدكتور طه حسين أبا الطبيب المتنبي؟
كتب العميد عن أبي العلاء بنحو ثلاثة عشر عاماً قبل أن يكتب عن أبي الطبيب، وكانت بينه وبين أبي العلاء وجوه شبيهة ووشائج لا تخفى، فاحبه لأجل ذلك كله، وأمن في محبته. يقول، وهو يعني أبا العلاء:

«ليس هذا الرجل خليقاً بالاشفاق عليه والإعجاب به»
بلى. وهو خليق بأن نحبته ونؤثره بالود، وبأن نزوره في هذا السجن الذي اتخذ لنفسه، ونقيم معه يوماً أو أياماً لنرى كيف كان يعيش فيه، لا عيشته المادية، بل عيشته العقلية الشاعرة المفكرة...
(الاشفاق) كان عنصراً مهماً في محبة الدكتور العميد لأبي العلاء، فقد كانا كلاهما كما قال أبو العلاء في آخر رسالة الغفران، وكما قال العميد في نهاية كتابه عن أبي الطبيب مردداً قول أبي العلاء «مستطيعاً بغيره». لكنه لم يجد عند أبي الطبيب شيئاً يدعو إلى الاشفاق. ولو تمنع أكثر، لراى أن أبا الطبيب أيضاً كان جديراً بالشفقة والعطف والثناء، ولكن بمعنى مختلف تماماً عن أبي العلاء.

كان أبو الطبيب يحبك في صدر الدكتور العميد منذ ذلك العهد، وهو يكتب عن أبي العلاء، ولا حرم، فسانت لا تستطيع أن تكتب عن المعري دون أن تذكر المتنبي، قال العميد في كتابه عن أبي العلاء:

«مع أن أبا العلاء كان مقلداً لأبي الطبيب مفتوناً به حتى لنستطيع أن نعدّه تلميذاً من تلاميذه، مع هذا كله فما أعظم الفرق بين الرجلين لا في حياتهما العملية وحدها، بل في حياتهما العقلية أيضاً. كان أبو الطبيب عبداً لشهواته بشرط الأنفهم من هذه الشهوات شهوات اللذة والفسوق ونعيم الحياة، وإنما نفهم منها شهوات أخرى ممتازة بعض الشيء (!) شهوات الثروة والغنى والاستعلاء على الناس. اتفق حياته كلها في إرضاء هذه الشهوات، واحتمل في سبيل ذلك ما يطاق وما لا يطاق. ذاق مرارة اليأس واحتمل ذل السؤال، وباع شعره في سوق الكساد، ومدح من كان يحتقرهم أشد الاحتقار، وتعلق من كان يزدريهم اقبح الإزدراء، ونفع إلى المخاطرة والمغامرة، وانتهى إلى السجن وتعرض للموت، وباع نفسه وحرية وكرامته للملوك والأمراء. وتبدل رأياً برأي، ومذهباً بمذهب. وذل للفرس بعد أن كان لهم عدواً وبهم مغرباً وعليهم محرصاً. وما زال يتقلب في هذا الفساد السياسي والخلفي حتى تلقاه الموت في بعض الصحراء فاراحه وأراح منه (!!).

إلى هذا الحد بلغت كراهية الدكتور العميد لأبي الطبيب. كرهه لأنه رأى فيه جوانب من نفسه، وكرهه لأنه افتقد فيه جوانب ظن أنها عنده. وكرهه لكل الأسباب التي أحب من أجلها أبا العلاء المعري.

كان أبو العلاء ضريراً، أذاً كان أبو الطبيب حديد البصر. وكان أبو العلاء قعيد داره أذاً كان أبو الطبيب جواب افاق مفتوحاً لجح الحياة بخيرها وشرها. وكان أبو العلاء

نحوافق بعيد

١١٢

يعيش على العدى والتين، أذاً كان أبو الطبيب في بحبوحة، يملك ما يملك. وكان أبو العلاء حيناً متواضعاً أذاً كان أبو الطبيب شرساً أذاً عضيات ونفرات. وكان صوت أبي العلاء في شعره هادئاً رقيقاً مثل «سجع الحمام» أذاً كان صوت أبي الطبيب صاخباً مجلجلاً مثل كتيبة مغيرة.

غفر الله للعميد لأن كان المتنبي، كما زعم «قد ظن بنفسه غير ما كانت عليه، فإن الأيام سوف تكشف له، أنه هو أيضاً تاه عن حقيقة نفسه، كما طوحت به أمواجها بعد ذلك التاريخ، عام ١٩١٤، حين كتب ما كتب. سوف يغرق وشيكا في بحر الدنيا بخيرها وشرها. سوف يتراجع عن آرائه التي أهاجت عليه الناس. سوف يمالئ الجمهور بكتابه «على هامش السيرة»، وكتابه «الوعد الحق». سوف يدخل معترك السياسة فيمدح ويذم، ويجادل ويخاصم. سوف يصبح عميداً ورئيساً في الجامعة، وسوف يصير وزيراً في الحكومة. سوف يقبل رتبة الباشوية من الملك، ثم حين تقوم الثورة على الملك، سوف ينحاز إليها، ويكون هو الذي يسميها «ثورة».

وأبو العلاء يا رحمتك الله. هل عوفي أبو العلاء حقاً من اشواق الحياة وأغراءات المجد؟ ألم تلحظ حتى في «اللزومات»، وزاء غشاء هجاء الحياة وذمها جرائم المرض لم تزل تنفث من حين إلى حين؟ أما رأيت حزين المعري إلى عالم اللذة والحس حين قال:

أين امرؤ القيس والعمداری

أذ مبال من تحتته الغبيط
له كئيبتان، ذات كئيب

تردد والسحاب الربيط
ان المعري يومئذ هنا، كما لم يغب عن فطنتك، إلى أبيات لامرؤ القيس، هي من أكثر الشعر العربي اقبالاً على المنعة واحتفاءً باللذة:

تقول وقد مال الغبيط بنا معاً

عقرت بعيري يا امرؤ القيس فأنزّل
ثم قوله:

كسائي لم أركب حواداً بلذة

ولم اتبط كعاباً ذات خلخال
ولم أسبب الزق الروي ولم أقبل

لحيلي كزي كسرة بعد أفعال
ولك أن تتخيل أبا العلاء الضري، رحمه الله، ملازماً داره في المعرة، ينكر الدنيا ويهجوها، والدنيا له بمرصد.

وكيف هو والمجد؟ هل حقاً أنه عاقه وداوى نفسه من اغراءاته؟ لماذا لم يصمت أذاً؟ لماذا ألف الكتب ونظم الشعر؟ ليس ذلك من أجل أن ينبع صيته ويشتهر؟ وفصارى الزهد، كما قال العابدون، أن يذفن الممء نفسه في أرض الخمول والنسيان، حتى إذا غاب لم يفتقد، وإذا حضر لم يحس بوجوده، وإذا تكلم لم يلتفت إلى قوله.

ما هكذا فعل أبو العلاء. لقد مكث يغالب الدنيا وتغالبه. وكذلك حال أبي الطبيب، ألا أنه كان يكتفي بالبيت والبيتين، أذاً كان يلزم أبا العلاء، العشرة والمائة. وكذلك كان العميد. ونحن نحمد الله أن الامر صار كما أراد الله له أن يصير. أذاً لا تستقننا هذا الأرث الجليل. وهو الأهم، وهو الذي يعطينا آخر الليالي ■



بقلم الطبيب صالح

فلنستحامل الدكتور طه حسين على (شخص) أبي الطبيب المتنبي ما شاء، وليبغضه كيف أراد. الناس أحرار آخر الأمر في أن يحبوا ويكرهوا. سوف نقبل منه كل ذلك، وإن كنا نعجب، كيف يكره الإنسان بهذه الحدة، رجلاً توفاه الله منذ أكثر من ألف عام، ولم يتفق الرواة على أحداث حياته، وكثير منها غامض يحتاج إلى مزيد من البحث والتدقيق؟ كيف تكره، وتغلو في كراهية رجل كهذا، وكأنه يعيش اليوم بين ظهرانيها، ويؤدينا بسلوكه وأفعاله؟

أنا الذي يدعو إلى العجب حقاً، هو تحامل الدكتور العميد على (شعر) أبي الطيب. هل نبوغ أبي الطيب وتفرد، وإذا شئت قلت عبقريته، هل هذا في حاجة إلى برهان؟ هذا شاعر كما قال القدماء «قد ملا الدنيا وشغل الناس». لقد فعل الأعاجيب في لغة العرب، ودفع المعاني إلى أقصى حدود تحملها، وجاء منذ أكثر من ألف عام بأقوال لم تزل جديدة طريفة إلى يومنا هذا، حتى لكانه شاعر من زماننا وعصرنا شاعر له، كما قال الثعالبي «نادر لم تات في شعر غيره، وهي مما تخرق العقول».

وقال فيه ابن الأثير، الذي لم يكن مشغولاً بحبه: «وعلى الحقيقة فإنه خاتم الشعراء، ومهما وصف به فهو فوق الوصف وفوق الإطراء».

وما أجمل ما قال الشيخ عبد الرحمن البرقوقي رحمه الله، في مقدمة شرحه لديوان المتنبي:

«وشأن المتنبي كالمشأن في نواحي الدنيا. فالشاعر النابغة لا يعمر بارادته، ولا ينبع بأن يخلق في نفسه مادة ليست فيها، وإنما هو يولد مهيأ بقوى لا تكون إلا فيه وفي أمثاله، وهو زائد بها على غيره ممن لم يرزق النبوغ، كما يزيد الجواهر على الحجر أو الفولاذ على الحديد أو الذهب على النحاس».

... فكثيراً ما يقرأ النابغة كلاماً لغيره أو يتأمل خاطراً أو يشهد أمراً. فإذا كل ذلك قد أوحى إليه وانعكس على امرأة لكنه بمعان مبتكرة طريفة لا تشبه ما كان بسبيله وجهاً من الشبه. لا قريباً ولا بعيداً، وليس فيها إلا أنها جاءت من ذلك الطريق، وهو بعد لم يعمل لها ولم يتكلف ولم يصنع شيئاً، وإنما هي تلقى من ذهنه وتلقى ذهنه من قوة لا يدري ما هي ولا أين هي...

... ومن هنا ترى المتنبي يأتي أحياناً بالتعقيد المستنكر واللفظ المتكلف وتراه يتعسف ويتخبط ويسف، ومع ذلك لا ينفى مثل هذا من شعره ولا يحذفه، وهو قادر على أن يغنى عنه وليس في حاجة إليه، ولكنه بعض طريفته التي انطبع عليها، فلا يستطيع حين يجيشه الرديء أن يجعله جيداً، وليس إلا أن يأخذه كما هو، لأنه هو الذي انبثق له عن الجيد، كما تضرع النار من مادة،

فإذا هي تسعل ودخان، ثم تضرعها من مادة أخرى فإذا هي لهب صاف يتألق. ولو أنك أردتها من المادة الأولى كما تجيء من الثانية لأطفأتها وذهب نارها ودخانها معاً...

... وهذا سر لم ينتبه إليه أحد ممن كتبوا عن المتنبي، فاشدد عليه، وادرس المتنبي على هذه الطريقة، فستجده نابغة في جوده ورديته، وستجده لا يستطيع غير المستطاع، وستجد طريفته كأنها فرضت عليه فرضاً، لأنه كذلك ألهم، وعلى ذلك ركب طبعه، وكان ظلامه ظلاماً لتسطع فيه النجوم.

حقاً ما أجمل وأعمق هذا المعنى الذي وصل إليه شيخنا عبد الرحمن البرقوقي، وهو معنى ما كان لبتائي له، لولا أنه نظر إلى حياة الشاعر وفنه بعين المحب، ففتحت له المحبة، أبواب البصيرة، كما تفعل دائماً، أما أستاذنا الدكتور طه حسين، غفر الله له، قد نظر نظرة أخرى. وذلك كما قلت أمر يدعو إلى الدهشة. فالعميد لم يكن كاحد من الناس، يرسل الكلام على عواهنه، ويجعل عاطفته مطنية لعقله، بل كان عالماً جليلاً يعتبر براهه ويحسن حسابه. فلماذا كتب هكذا، بقلة أكتراث تقرب من الاستهتار عن شاعر يحتل في تراث العرب مكانة مثل ما لشيكسبير عند الإنجليز، وفكتور هوغو عند الفرنسيين؟ والكتاب قد بعده بعض الناس، هفوة من هفواته، إن لم نقل سقطة من سقطاته. ولا يشفع له، أنه جاء في نهاية الكتاب، فقال معذراً، وكأنه يتنصل من كل ما كتب، وكأنه يعفي نفسه من مسؤولية ما كتب، اصعاباً في البلبلة والسخرية:

«وإذا فما أقل ما نظفر به حين نخصص لحظات من حياتنا للحظات من حياة شاعر أو أديب. وإذا فما عرضه عليك في هذا الكتاب ليس حياة المتنبي كما كانت، ولا هو حياة المتنبي كما اعتقد أنها كانت، وإنما هو حياة المتنبي. استغفر الله. بل لحظات من حياة المتنبي كما صورتها في أثناء شهر ونصف شهر من الصيف الماضي. ومن المحقق أنني كنت أرى في المتنبي قبل أملاء هذا الكتاب، آراء عدلت عنها أثناء الأملاء. ومن يدري لعلي أرى في المتنبي غداً أو بعد غد أو اليوم آراء غير ما أثبتته في هذا الكتاب. إنما نحن عبيد للحظات لا نملكها ولا نستطيع نصريفها ولا دعائها ولا زدها حين نقبل عليها. وهي تقبل علينا بشيء كثير لا نحصى، ولما تقبل علينا به أثار لا نحصى في تهينة مزاجنا للفهم والحكم وللتأثر والتأثير».

هكذا أراد العميد، رحمه الله، أن يخلق المشارع كلها من حيث قد يجيشه الهجوم. ولك أن تبتسم أو تضحك أو تغتاض. فذلكم العميد. وكل ذلك من قبيل «الدلال»، الذي القناه منه. لكننا سوف نفترض أن الكتاب يعبر عن رأيه في حياة أبي الطيب وفي شعره. وسوف نحاوره ونناظره بناء على هذا الافتراض، فإنه لم يكن ليقتضي شهراً ونصف شهر من حياته، مشغولاً بدراسة أبي الطيب كما قال «عن لذة الحياة في فرنسا بين هذه الربي الجميلة وفي هذا الجو الحلو». لم يكن ليفعل ذلك عبثاً ولهواً. ونحن نجل العميد عن العبث، ونجل أبا الطيب أن يكون هدفاً لعبث العميد! ■

للبحث صلة



بقلم الطيب صالح

يخزن أهل السودان أن
عربيتهم الدارجة، هي من
أفصح اللهجات العربية.
وبعضي أبعد من ذلك العالم
الحجة الدكتور عبد الله
الطيب، صاحب كتاب «المُرشد»
إلى قسم أشعار العرب
وصانعتها، فيقول أن العربية
الدارجة في السودان، هي
أفصح اللهجات العربية
إطلاقاً. الله أعلم. والحق أن
من قلّة بحث عرب السودان،
أولا اسم دولتهم، وثانياً أن
عروبتهم كما تجري على
لسنتهم، أفصح أحياناً مما
ينبئ به سنتهم وسجعهم.

وقد وجدت في الشعر الجاهلي، ثم في عامة الشعر العربي،
خاصة عند المتنبي وأبي العلاء، كلمات كثيرة تستعمل في
لغتنا الدارجة، وبعضها لا يوجد إلا في السودان، وكنت أظنها
محرّكة أو بخيلة على اللغة العربية، فإذا بها كلمات فصيحة.
المتنبي مثلاً يستعمل كلمة (غلت) بمعنى (غلط)، وأكثر أهل
السودان يقولون (غلت) بالناء. وفي لسان العرب أن (غلت)
(وغلط) بمعنى واحد. ويستعمل (ثوراب)، وأهل السودان
يقولون (ثيراب) للذئب التي تدفن في الأرض، كالقمح والذرة
وغيرها. وفي المعجم أن (ثوراب) أو (ثيراب) هي الأرض أو ما
يدفن فيها.

هذا، وقد ذكر الدكتور احسان عباس في كتابه «تاريخ
النقد الأدبي عند العرب»، في الفصل عن آراء النقاد القدماء في
شعر المتنبي، وهو كتاب جم الفائدة، أن صاحب بن عباد عاب
على المتنبي استخدامه الكلمات الجوشية الغريبة مثل (ثوراب)
غفر الله له. أنه لم يزل يتتبع المأخذ على المتنبي، ولو أنه عاش
في السودان، لوجد أن الكلمة شائعة تجري على السنة عامة
الناس. كذلك عاب عليه استعمال (جبرين) بالنون، يدل (جبريل)
باللام، وقال «ولقد هذه اللام إلى النون أبغض من وجه
المنون». وعامة أهل السودان، يقولون (جبرين) و(اسماعيلين).
ذاك، وقد قال المتنبي يصف الخيل:

العارفين بها كما عرفتهم
والراكبين حسودهم أماتنا
ونحن نقول (أمات) ولا نقول (أمهات). وقد قال الشاعر
السوداني:

يا طير أن مشيت سلم على الأمات
وقول ليهن وليذكر في الحياء وما مات
حتى التصغير الذي كان المتنبي مولعاً به، وعابوه عليه،
مأنور عندي، نقول (وليد) و(زويل) و(بنية) و(مريه). ولقد كاد
ابن القارح يصبه الخيل من قول المتنبي:

أدم إلى هذا الزمان أهيل،
حتى صب أبو العلاء، رحمه الله، الماء على نيران غضبه،
فقال له:

«كان الرجل مولعاً بالتصغير لا يقنع من ذلك بخلسة المغير،
ولا ملامة عليه، إنما هي عادة صارت كالطبع، فما حسن بها،
مألوف الرعب...»

وكان شاعر السودان الفحل، محمد أحمد عوض الكريم أبو
سن الملقب بالحدردلو (١٨٣٠ - ١٩١٦) أيضاً مغرمًا بالتصغير،
في مثل قوله يصف أن فعل الغلباء تركها في مكان وذهب
بستكشف، ثم عاد إليها.

جاهل منقلباً وقتاً عصير وشعاع

وكاسب ليله بيهر من صيد ما تخاف
دبل الضمير دأيم الأند عياف
ومي (باط السروج) لقين مقين حاف

كل هذا، كلام عربي فصيح إذا تأملته، وأنت ترى أنه صغر
(عصير) إلى عصير، و(بغل) إلى بقل. و(باط السروج) اسم
موضع، والصدف، يفتح الصاد والذال. هو ما يصادك مما
تكره، وخاصة ما لليل. وأنظر كيف صور الشاعر ذكر الغلباء
(النس) كأنه قائد عسكري مقدم لا يهاب المخاطر، سرى
بالفطيع ليلاً، حتى أوصله إلى حيث يريد، فذلك قوله «كاسب
ليله بيهر». ونحن نستخدم «الكسب» بمعنى النصر الحربي
أيضاً، كما قال الأخر يصف فتية مجاربين:

دبل جابو الكسب بين (كاجا) و(أم سريه)

ربا سائر من اليوم المعرشة مسيح

أي أبهم عادوا منتصرين من تلك البلاد في الجنوب والعرب
حيث شنت حروب بين أهلها وبين القبائل العربية في الزمان
القديم.

والحدردلو يصف الغلباء بأنهم (عياف) والكلمة تحذف في
جوفها معنى الحذر والكبرياء والعفة، فما أجمل ذلك. كأنه ذو
الزفة، وهو حقاً أشبه الشعراء به.

وعندنا «الزول»، بمثابة «الزفة» عند أهل الشام و«الريال» عند
أهل جزيرة العرب، يجعلون الجيم ياءً، وهو فصيح، ونحن
جيمنا قريبة من ذلك. وكلمة «زول»، في المعجم، من معانيها
الشخص اللطيف المهدب. وقد وجدت بهذا المعنى عند أبي
العلاء. وذكر لي الدكتور عبد الله عبد الدايم، وهو عالم ثبت، أن
«زول» في أحسن مرادف للكلمة الانجليزية Gentleman. فهل
كل أهل السودان «زوال»؟

والكلمة تستخدم للمرأة أيضاً، وقد قال الحدردلو يذكر
انسانة جميلة الهفه عن حضور العيد مع أخيه عبد الله، وكان
شاعر أيضاً:

الزول السمح فأت الكبار والفيرة

كان شاموه ناس عبد الله كابر يعزرو

السبب الحماضي العيد هناك ما أحصره

درديق الشبيكة الزلوه فوق صدره

و«الشبيكة» حلي متشابكة تعلق على صدر الفتاة، وقد
وجدتها بصفتها واسمها هذا في متحف قطر الوطني الذي
يديره العالم الشاعر الدكتور درويش الفار في الدوحة الميمونة
الطالع.

و«حمي» بمعنى «مع»، أكثر جرياً على اللسنة عندنا من
«مع»، وقد قال أبو العلاء:

نرى السمود منها ماكبها فكان

فمسيل حماء الشرب رب عيبال
هذا في وصف مبلغ حنين الأبل إلى أوطانها، وبما سيحان
الله، كيف أن اشقاعنا المصريين، وهم منا على بعد ما تطير
النعامة، لا يصفون الفتاة بأنها «سمحه»، كما نفعل، بل يقولون
«جيمله»، كأن الله قسم لهم الجمال وقسم لنا السماحة.

وفي ديار غرب السودان، يقولون (ينطلي) بمعنى (يعطي)
وهي كذلك في المعجم، ولم أجدها عند غيرهم. وقد قال أبو
العلاء رحمه الله:

لبن جيرة سيموا النوال فلم ينطوا

ينطلهم مــــا ظل ينثته الخط

رحوت لهم أن يقرّبوا فتساعدا

والأيشطوا بالزار مــــتبد شطوا
أي والله، لقد شطوا يا أم عمرو، وهل يغدّم طيب
العيش؟

الكتاب



بقلم الطبيب صالح

أغلب الخطين أن نار
الطلح التي رأيتهما بين
خيالي من وراء أربعين
عاماً وأكثر، وأنا حيث أنا
في لندن، هي النار عينيها
التي أوقدتها صاحبة
الحارث بن حلزة البشيري:
«هيهات منك الصلاء»
الفصل صيف، والمساء
بارد ماطر، كسائه من
أماسي الشتاء. حينئذ
ينزل الهم على القلب،
وتمطو قوافل الذكرى بلا
حساب ولا دليل. ما الذي

تذكرني بهذا البيت؟

الدنيا تبسيتك والربان يورك (١)

وقل المال يفرقك من بنات واديك
وبدا لي، وأنا على تلك الحال، أن البيت يصف
أحسن وصف، ما وصل إليه السودان المسكين. لقد ذاق
الهم، وكشّر له وجه الزمان، وتشبّت أهله في البلاد.
والعهود تقوم وتسقط، والثورات تستعرج وتخمد. أم، ما
أجمل ما قال أخو بني حنيفة:
ألم إلى شم الخزامي ونظرة

إلى قرقرى قبل الممات سبيل؟
ثم سافقتني كلمة «وادي» في بيت الشاعر السوداني
إلى تلك الأرض عند منحني النيل، وذلك لأن بلدنا من
بعض اسمائه «الوادي»، إذ أن وادي «الملك» وفي رواية
«الملح» يصب عندها. وهو وادي عظيم يقصد النيل عبر
سكّات الأميال من سهول غرب السودان. وقد قال
شاعرنا:

(٢) كرمكول، صيدك ماله فار؟

يجري في «الوادي» بلا خبار

الصغار غالباً الكبار

يقصد به الصيد، الفتيات الحسان والنساء. وتلك
عادة قديمة عند العرب، أن تشبه المرأة بالظبي والبقر
الوحشي. وهذه الأبيات تُغنى على إيقاع آلة وترية
عندنا تسمى «الطنبور»، وترقص لها رقصة «الدلي»،
التي فيها بعض سمات «الدبكة» اللبنانية. وتكون في
وسط حلقة الرقص فتاة تغطس مع اللحن وتطفو،
وتروح وتجيء، وبين كل حين وحين، تلتطم بشعرها
المعطر، وجوه المصفيق.

وبعينيّ أوقدت منذ النار أصيلاً تلوي بها العلياء
فتنورت نارها من بعيد بخزاري هيهات منك الصلاء
هكذا جاءتني كلمات أغنية قديمة عن «نار الطلح»،
تذكرت بعضها ونسيت. وقلت أسأل عثمان عبد الله
وقيع الله، الذي يقيم مني غير بعيد، فهو بذلك عليم
وعثمان هذا بعض الثروات المهملة في السودان

نحو أفق بعيد

١٢٠

الغنى الفقير. انني لا أعرف كثيرين في مثل تعدد
مواعبه. فهو شاعر مجيد بالعامة والفصحى، وقد نقل
رباعيات الخيام إلى اللغة السودانية الدارجة، في
ترجمة من أجمل ما رأيت. وكان من أوائل المبعوثين
لدراسة الفنون الجميلة في لندن، جاءها عام ١٩٤٥،
وعاد وعمل في كلية الفنون الجميلة في الخرطوم. ومن
بين من درسوا على يديه الفنان الكبير العالمي الشهرة
إبراهيم الصلحي. إلى جانب ذلك فهو بحق «استاذ» في
فن الخط العربي، وقد كتب بخط يده القرآن الكريم عدة
مرات، في مخطوطات تعتبر تحفا فنية. وكان من أوائل
الفنانين العرب، إن لم يكن أولهم، الذي حول الحرف
العربي إلى مادة للرسم، ففجر ما فيه من طاقات جمالية
كامنة، وصنع من ذلك فناً مذهشاً. ومن بعض فنه،
اللوحات التي رسمها لديوان الشاعر السوداني الموهوب
صلاح أحمد إبراهيم، ديوانه «غاية الأبنوس» في طبعته
الجديدة. تجد الرسوم والقصاصد كأنها أنغام في
سمفونية مكتملة، كل منهما يعطي الآخر ويأخذ منه.

ثم له صوت جميل في قراءة الشعر. وكان المرحوم
محمد أحمد محبوب رئيس وزراء السودان الأسبق،
وهو أيضاً من الشعراء الأفاضل، كان أيام إقامته في لندن،
بعد أن أسقطت حكومته «ثورة» مايو، يؤثره ولا يطيب
له سماع شعره إلا بصوت عثمان وقيع الله. كذلك له
صوت عجيب في الغناء والدوبيت، يحفظ كما هائلاً منه.
وكان قبل أن يوغل في طريق العبادة والزهد، ويقطع كل
صلة له بحياته الماضية، يسخو علينا أحياناً بغناء
بعض الأغاني القديمة التي لا يعرفها كثيرون غيره.

إنه معتكف في لندن منذ سنوات، يعيش حياة
التقشف والكفاف، يصوم ويصلي ويتعبد ويرسم
ويكتب. وأنا أعجب أنه اختار لكفاحه الروحي، هذا البلد
دون سائر بلاد الله، حيث القابض على دينه كالقابض
على الجمر. أنما هو كذلك. ورغم أن له شهرة أكيدة بين
متذوقي الفن ونقاده في لندن وفي أوروبا، فإن عمله لم
يجد بعد ما يستحقه من ذبوع وانتشار في العالم
العربي.

سألته عن نار الطلح، وكيف قال المغني عن المرأة
التي قامت منها وعرقها يتصبب، فكانني أثرت كوا من
أشجانه، وذكرته بأشياء يريد أن ينساها، فأجابني بعد
لأني:

الطبيب البوخ

قام نداه يهتف

نام من الدوخة ■

لتحديث بقية

(١) في المعجم «ورثته وأورثته إذا أعلمته

(٢) «كرمكول» اسم حي من أحياء بلدا، وفار من يعور أي يغلي

وهي نصيحة

نحو أفق بعيد

وبعضه ذهب إلى أنه ضرب عنقه لأنه سب الزمان .
وقيل : لا تسبوا الزمان . الزمان هو السلطان . وهذا
وجه لم ينتبه له حماد الدول في أيامنا هذه ، فلم يعملوا
قوانين لمحاسنة الناس على سب الزمان .

وكان عمر بن الخطاب رضى الله عنه معجبا بذكاء
زياد ، وكان يقول : لو كان هذا الفتى من قريش لساق
العرب بعصاه .

جاء زياد . وكان شابا في العشرين أو دون ذلك . إلى
عمر الأمين بأبناء النصر في معركة القادسية ، فقد
عليه أخبار المعركة بحذائيرها بفصاحة وقوة عارض .
أذهلت عمر ، وكان فلما يذهل ، فقال له : .

« يا فتى . هل تصعد المنبر وتحدث الناس كما
حدثتني . فإن للمنابر رهبة » .

فقال زياد : « والله يا أمير المؤمنين ما على وجه الأرض
من هو أكثر رهبة علي منك » .

وصعد زياد المنبر في مسجد الرسول صلى الله عليه
وسلم ، ووصف المعركة وصفا بليغا ثم مشاعر الناس
وكان أبو سفيان يجلس بجوار الإمام علي بن أبي طالب
كرم الله وجهه ، فقال له :

« هل أعجبك هذا الفتى » .

فقال علي : « نعم » .

فقال أبو سفيان : « انه ابن عمك » .

فقال علي : « وكيف ذلك » .

فقال أبو سفيان : « أنا أبوه . قذفت به في رحم سمية » .

فقال علي : « ولم لا تلحقه بنسبك » .

فقال أبو سفيان : « أخاف درة هذا الأعسر » . يعني
الخليفة عمر .

فيما بعد هو والحجاج حملا أوزارا كثيرة في تاييد
دولة بني أمية . ولا أعلم أن التاريخ سجل كلمات زياد
عند موته . إلا أنهم رووا أن الحجاج كان يردد وهو يلفظ
أنفاسه الأخيرة : .

« اللهم اغفر لي وقد زعم أناس أنك لن تفعل » .

أما رحمة الله واسعة ، ولعلها تشمل حتى زيادا
والحجاج . وما أجمل هذا الدعاء الذي جاء في الأثر : .

« اللهم مغفرتك أوسع من ذنوبي ، ورحمتك أرجى
عندي من عملي » .

ذلك وقد قال الشاعر الحكيم ، أجاره الله من الموقف
الصعب في ذلك المقام ، أن صحت أقوال الرواة عنه : .

لا تخظر العوا أن كنت امرأة حرجا

فكأن خطرته في الدين إرزا

غفر الله له ، وصلى الله على سيدنا محمد وآله
وأصحابه ، ما هطل السحاب ، وما غنت للنازحين منازل
الأحاب . ■

« الحديث مقية »

أوقدت شبد نار الطلح
بالحنند واللبان . عند
منجسي النيل بين
« كرمكول » و« شيباني »
فتنورشا الغريب البازح
وراء تخوم بحر الروم .
أوقدتها أيام « عبد الوقت »
كما يقول الحردلو . كانت
السواقي تدور ، والضروع
ملاى ، والحقول مخضرة ،
والديار عامرة ، والزمان
يبتسم بوجه طفل .

الزمان عند الحردلو
« أعوج » أو « عدل » .

كم شويتم لهن وقتا عدال أناني

شيخ « الأثراوي » ، وماشى فيهو كلامي .

ذلك لأنه كان يسافر على جعله مسافات في طلب
الحبوبة ، وكان « شيخ عرب » على القبائل على طول نهر
أثرا . الأثراوي ، نافذ الكلمة . وكان في مقتبل العمر .
وفي ظني أن كلمة « شويتم » التي تعني الترحال في أثر
الحبوبة مشتقة من « الشام » . كان الواحد منهم إذا سافر
إلى الشام ، كما كانوا يفعلون ، يقولون انه « شويتم » . فكان
السفر إلى ديار الحببية عندهم ، كالسفر إلى بلاد الشام ،
غايته المن والسلوى . وقد قال أبو العلاء : .

يمانين أحيانا شاميين تارة

يعالون عن غر العراق لينحطوا
هذا ، والزمان عند شكسبير أما « عليل » أو « معافي » .
وقد قال The time is out of joint ، يعني أن الزمان
عليل ، أو مختل . ولعل أدق ترجمة لعبارة out of joint
في كلمة « مفلوخ » التي ستجيء في تلك الأغنية
السودانية القديمة عن المرأة التي قامت من عند نار
الطلح وعرقها يتصبب . وهي كلمة فصيحة كما ستري
أن شاء الله .

ويقولون في أيامنا هذه أن الزمان « رديء » ، وهي
عبارة أظن أول من نطق بها الشاعر محمود درويش ، ثم
سار بها أبو عمار ، وتلقفها الكتاب والشعراء
والصحفيون ، فاصبحوا يقولون كلهم أن الزمان « رديء » .
وهؤلاء ما يزالون يهيبون بالزمان أن يكون رديئا حتى
يصير رديئا بالفعل . والكلمة من بعض معانيها « الرديء » .
وذلك الأم مراحل مما أراد الحردلو أو شكسبير ، إذ أنك
تقدر أن تغدل المعوج وتطلق الأسير وتشفى العليل
ولكن ماذا بوسعك أن تصنع مع « الرديء » أو كما قال أبو
الطيب رحمه الله : .

هبيي أحدث النار بك من العدي

فكيف تأخذ النار فيك من الحبي

وقد رووا أن زياد بن أبي سفيان جلد رجلا .



بقلم الطيب صالح

ما أحمل ما تغني فيروز، فهي من بقايا خيرات
الزمان المبارك، وصوتها كم بدد الظلمات لساري ليل.

يوم جيت أنا لعندكم
قبل العشا بنته
ولقيتكم نايمين
وسير اجكم مطفي
مدبت ايدي ع الهدى
لاقطف أنا قطف
صاحبت بنت اللكم
بمئة مئة حرامية.

هذه الطلاوة تجدوها ايضا في كلمات الاغنية من
ديارنا في شمال السودان، وما أبعد السودان، وما
أقربه من لبنان.

ود الأريل الضارب مقنة
جني الغزلان بكى وأمانه جنة
الناس الكبار أصل أبيجني
شرب العين علينا محجونه
تقول لا كان صغار، لا ألقي عارفة

ود الأريل، كما يتضح في البيت الثاني في الاغنية
السودانية، هو طفل الطليبة، الطلي، يكنى به عن
المحبوبة. والقرن والمقن، فصيحة، تعني الخدر الذي
يستر الطليبة كما يستر الفتاة فلا يوصل اليها.
ذلك، وقد وجد زهير حين وقف على اطلال أم أوفى،
أنها قد درست تماما، وأن الطليبة قد استحوت
عليها.

بها العين والأرام يعيشين خلفه

وأطلأوها ينهضين من كل مجثم
ومثل ذلك وجد «الحردلو» في «قوز ود دياب»، مع
الفارق:

«قوز ود دياب، لبسج تراي بشيايه
بها يطرد فرحان وعاجيه خلاه

وجد زهير الطليبة بين «حومانة الدراج»، والمتنم،
ساجعة مطمئنة يطول ما تقادم بها العهد بالمكان،

فأصبح ملئاً لها، فحركها مجيئه، فقم من مراقبين
متشاقلات، كأنهن لا يعان به ولا باحرانه. اما «قوز ود
دياب»، فقد كان دائماً مرتعاً للطليبة، فذلك قول الشاعر
أنه ما يزال كما عهده عامراً بطليبه «بشياهه». ورماله
قد تذكر برمال الدهناء عند ذي الرمة:

ولا مي! إلا أن — زود بمشرف
أو الزيف من اطلالها دمناً قفر
تعلت لتهتال الشتاء وهوشت

بها نائحات الصيف شرقية كذرا
مسكين. وما أروع قوله «لا مي». واخبروا أن «يهطل»
وه «يهطل» بمعنى واحد، وذلك كما ترى مصدر قولنا
«غلت، عوض، غلط».

وجد «الحردلو»، الطليبة في نشاط ومزح، تنط
وتتسابق ويطرد بعضها بعضاً. فرحة دون سبب، أو
بسبب الفضاء الواسع حولها، واحساسها بالحرارة
الكاملة. وقوله «فرحان وعاجيه خلاه»، من شريد
القول، فالطليبة ايضا تعشق الحرية.

أما الطليبة الجيبس في خبره في تلك الاغنية،
بكي، فأسرعت امهاته اليه يسألنه، أو يسألنها، عن
سبب بكائها. والسبب لا يخفى، وهو نفسه السبب
الذي جعل الفتى في الاغنية اللبنانية، يذهب متلصصاً
آخر الليل. لذلك تقول الاغنية السودانية، ان «الناس
الكبار» - الأباء والامهات - لا توجد رحمة في قلوبهم،
كانهم لم يكونوا صغاراً في يوم من الايام، ولم يدقوا
عذاب الحب. والحب عندنا هو «الغي» من الغواية
ولعله كذلك، ولكنها غواية قل ان يسلم منها أحد.

وعند أبي الطيب الخبير اليقين:

وما شرقتي بالماء إلا تذكرأ
لماء به أهل الحببيير نزل
يحجرمه لمع الأسنة قبوفاً

فليس لظن اليه وصول
واين كل هذا من نار الطلح التي أوقدتها هيد عند
محنى النيل؟

«للحديث بقية»



بقلم الطبيب صالح

حسبيني عن نار الطلح
التي أوقدتها عند
منحني النيل، امتدّت له
مشاعر أخي العزيز الدكتور
حسن أبشر الطبيب وهو في
مهاجرة في ديار عمان، فكتب
الي من مسقط، حيث يعمل
مستشاراً لوزير الخدمة
المدنية، معالي الأخ أحمد
مكي، وعسان بلاد احفظ
لأهلها مودة أكيدة، فقد كنت
أزورها أيام عملي في
الدوحة، والدوحة كانت لي
وطناً كالوطن، وأهلها أهلاً
كالأهل، والحديث عنها لم
يكن مبعاده بعد. كنت كلما جئت عمان أجدها قد تغيرت
إلى الأحسن، وأخذت زينتها أكثر، وخطت إلى الأمام
خطوات، وآخر عهدي بها كان منذ نحو ثلاث سنوات، حين
زرتها بصحبة مدير عام منظمة اليونسكو. وأذكر تلك
الأسببة التي قضيناها في ضيافة معالي الوزير أحمد مكي،
في داره الجميلة المطلّة على خليج رائق في البحر.

أما حسن أبشر الطبيب فكيف أصفه؟ إنسان نسيج وحده
بحق وحقيق، يجمع إلى الخلق الرفيع والتواضع الجم
والطبع السمج، والعقل الراجح، علماً غزيراً وأدباً كبيراً.
ورغم أنه ما يزال في مقتبل العمر - مد الله له في الأيام - فقد
درج في عدد من المناصب الرفيعة في السودان، منها على
سبيل المثال، أنه كان وكيلاً لوزارة الخدمة المدنية والإصلاح
الإداري، ومستشاراً ثقافياً في واشنطن، ومديراً لأكاديمية
العلوم الإدارية في الخرطوم، ثم وزيراً. إلى ذلك فهو أدب
عميق الحس واسع الثقافة، صاحب أسلوب عذب ورشيق.
وقد نهض من تلقاء ذاته بأعباء يفترض أن تقوم بها الدولة
في رعاية الأدباء والمبدعين، لا يدفعه إلى ذلك شيء غير نبل
طبعه وعمق إحساسه بقيمة الثقافة في نهضة الأمم.

أسي حسن أبشر الطبيب بصفة خاصة شاعر السودان
الفد، محمد المهدي المجذوب رحمه الله، وهون عليه
صعوبات الحياة وأغدق عليه من رعايته ومودته، واليه
يرجع الفضل أن الشاعر أوى إلى بيت بملكته. بعد أن قضى
زهرة عمره في خدمة الدولة، يعيش عيشة الكفاف، يعالج
الأرقام محاسباً ومراجعاً ومفتشاً ومراقباً للحسابات، وهو
من هو. ولولا حسن أبشر الطبيب لضاع أكثر شعر المجذوب،
أو ظل مجهولاً لا يرى النور. هذا والشواهد تهب وتهدأ،
ثورة وراء ثورة، والعهد تعلق وتهبط عهد في أثر عهد.

جاء في رسالة الدكتور حسن:
«جيدتك عن نار الطلح أثار كوامن أشجاني، وشدني إلى
أيام مترعات بالحسن، سابحات في بحار المحبة، معطرات
بغمام الطلح، وذكرت رائعة شيخنا الشاعر محمد المهدي
مجزوب «غمام الطلح»، التي تتجسد فيها قدرته الفذة في
توظيف الكلمات، وتفجير الدلالات الحسية والمعنوية فيها.
فأنت تراه يرسل نفسه على سجيبتها، فيعكس ما في نفسه
وما في نفسك، في نفس طويل، فيكسر بذلك كل الحواجز
التي تجعلك تقف موقف المتلقي أو القارئ. تحد نفسك في
مركز الدائرة، تستنشق عطر غمام الطلح التي لفت

نحو أفق بعيد

١٢٣

الجسنة.. حتى بدت كبد الدجى.. المجذوب شاعر مدبر
باروع ما تحمل الكلمة من معان. فهو يصور لك ما راد
وأحسد وما أجاله في خاطره حتى أصبح جزءاً من نفسه.
بغمرنا بهذه المشاعر والرؤى، فيزيد حقلنا من الإحساس
بجمال ويضفي علينا بهجة وفرحاً. وأنت من قبل ومن
بعد، تقرأ هذه القصيدة فتزداد خبرة بغوائد بخان الطلح..
فتأمل!..

نعم، ذلكم هو المجذوب. والدكتور حسن أعلم الناس به،
فقد خبره طويلاً واستمع إليه ملياً، وعنده رسائله. وكان
المجزوب محدثاً بارع الحديث، ورسائله لا تقل حملاً
شعراً. وما لبث الدكتور حسن يجد الوقت ليؤلف عنه كتاب
فيكون بذلك قد أسدى إلينا من الجميل مثل ما أسدى إلى
الشاعر في حياته.

هذا، وقصيدة «غمام الطلح» من ديوان «نار المجاذيب»،
وقد نظمها الشاعر بتاريخ ١٩٤٤/٩/١، وهو حينئذ في
أوائل العشرينات من عمره، لم تكن شاعريته قد اكتملت
نضجها بعد، ورغم ذلك يجد القارئ في القصيدة، كل
السمات التي تميز بها شعر المجذوب فيما بعد، كما يلمس
ملامح مغامراته الجريئة مع اللغة والمعاني. وهي قصيدة
طويلة سوف اجتزأ منها هذه الأبيات، التي يصف فيها
الشاعر «الشعلة» التي تتغصن بها المرأة وهي تعيق جسده.
بخان الطلح:..

وشعلة غمرت ساقين وأثرت
كالروح تلمس جيداً رفاً مشهوراً
يرق تحت دخان الطلح ساوياً
كالدمع في الخد تلمحاً وتغويراً
ما شعله لسواد الليل خلكتها
وللهواحش تمشي الفكر مخموراً
كالوحش حائمة بغلا سهل حصنت
الأجمال رقيق العطف منضجوراً
تكتم العطر حتى يرتوي عرقاً
منها الحمال كروص بات مغصراً
تري النحان على أثنائها زناً
كالريش في سمات الصبح منهوراً

إلى أن يقول:

ترين الكون شهواناً وتوسعة
في الروض والعيم أغراء وتغويراً
يهتز الأرض في أشجان دبرتها
لذا نذ خلقت في الكون مسجوراً
ورب نرة رمل حين حشمتها
ريح إهارج لينها الشوق مسجوراً
وتسد ذملت زهر الشرب ترميهم
في الكائن جمرات مسجوراً
وبت أحمرها جعاً والرمل
فما تسمع مثل الماء مسجوراً

رحم الله المجذوب. كان كأن أبا العلاء قد ليس عمامة
الحسن بن هانيء، أو كأن أبا الطيب قد غنى بصوت مشاعر
لحديثه.



بقلم الطيب صالح

في هذه المدينة التيهية الجميلة (عمان) التي تسر العين ليلاً ونهاراً، أذ بعض المدن يعجلك بالليل، وبالنهار كأنها القذى في العين، فيها حي يسكن (عبدون)، تراه عبدون الذي ذكره ابن المعتز في شعره: هل تعجب لبعده الشقة بين ضفاف دخلة وضفاف الأردن؟ لا عجب، فقد كانوا يذهبون بعيداً وراء قضاء الأوطار، وهذه الأماكن بين البحر والصحراء، وريح الشمال وريح الجنوب، كانت منتجات محبة لخلقاء بني أمية، ثم ورثها الملوك من بني العباس، وابن المعتز كان ابن خليفة، بل صار خليفة ولو لفترة لا تكاد تعد في حساب الخلافة، فلعله ارتاد هذه المغاني، يلهو ويلعب.

سقى المطيرة ذات الظل والشجر
ودير عبدون مطال من المطر
يا طامنا نبهتنا للصباح به
في فداة الليل والعصفور لم يطر
أصوات رهبان دير في صلاتهم
سود المذارع تغارون بالبحر

غفر الله له، ما كان آخراد ان يقوم ويتوضأ ويستعد لصلاة الفجر، وقبله قال الشاعر الحكيم، وقد كان أطول باعاً في حلبة الشعر، وأبعد منهوى دلو في بحر المذات:

ذكر الصبح سحرة يازباحيا
وأمله ديك الصباح صباحا
أوفى على شرف الحدار سدوة
عبردا يصيغ بالحناح حناحا
يأبر صباحك بالصباح ولا تكن
كمسوفين غدوا عليك شحاحا

ما أحسن الشعر، وما أفتح المعنى. ذاك هجع حتى نبهته أصوات الرهبان، أما هذا فقد ظل يقظان يترقب طلوع الفجر ليواصل الشرب. أفضل منهما الشاعر التشكري البكري، فقد استعان على همه بالسفر:

غير اني قد استعيت على الهمة إذا خف بالثرى النجا
بزوف كانتها هفلة أم ربال دوة سقفا
الي ان يقول:
أتلهى بها الهواجر أذ كل ابن هم بلية عميا
هذا في قصيدته المعلقة ذات المطلع البارع، إذ يبكي على اسماء التي يصف أنها أذنت بالفراق، وكانت قد فارقت بالفعل:

بعد عهد لها بركة شماء فأننى ديارها الحلاء
فأحيا فالصغار فاعناق يتراب معارب فالوفاء
مرياض القطا فأودية الشرب فالتعبات فالأملاء

لا أرى من عهدت فيها فانكى اليوم دلهما وما برد الكاء صدق. وهل تعرف نظيراً لهذه الدستالجا، التي تجدها في الشعر العربي؟ وما أجمل ترداد اسماء الأماكن هكذا كأنها ترانيم في طقوس قديمة. كذلك فعل الحرذلو، الشاعر الشكري، وهو يصف مسيرة الظباء في رحلتها الموسمية من حضاب الحشبة واليهما، وقد كان كلفاً بالظباء يشبهن بالنساء، وكلفاً بالنساء يمتلئن بالظباء:

مرفق من مطيقات الخوي أب دنان
ومكبر موق معلق الوادي أبو ربحان
شام في السير زولة وحيات أسبان
وطحن ما القليبة المسمى بالنسوان

انه كعادته - مثل المتنبي - مولع بالتصغير، صغر (مطابق) الى (مطيقات)، والمطابق واحدتها (مطيق) وهو الشعب في الجبل. وصغر (السير) الى (السير)، وهو نوع من الشجر مثل السبال والطلع. وصغر (قلع) الى (قليع) وهي هنا جبال تسمى جبال المرأة، فذلك قوله (المسمى بالنسوان). وتكون الظباء (نطحنها) يعني أنهن أتجهن صوبها عدل، كما أتجهت نساء زهير الى وادي الرس. وقد وصف الموضع الذي سرن عنه بانه (الخوي أب دنان). وهذا يعني انه غزير المياه كثير الشجر والنبات، انه أنه مليء بالذباب والحشرات التي تزن وتطن، وذلك لا يتفق إلا في موضع خصيب. ومثله الوادي ذو الریحان، الى حيث سرن منحدرات.

وكلمة (هجع) تعني هبط أو أهدر، وقد يستخدمونها ايضاً في وصف مثبة المرأة الجميلة التي تتعجب في مشيها. وهكذا تجد أن المرأة ليست بعيدة عن فكره وهو يتحدث عن الظباء.

هذا، وقد ذكرت لاستاذي الدكتور ناصر الدين الاسد، انني اظن ان وقوف الشعراء الأولين على الاطلال وبكاهم عندها والتلذذ بتريده اسماء الأماكن في شعرهم، كأنه بقايا طقوس قديمة، وقد نبهني الى هذا المعنى ما قرأته عن اد (ابروجنيز) سكان استراليا الأوائل - فما انكر مني ذلك والدكتور ناصر الدين من علماء العربية المعدودين، محب للشعر العربي، حافظ له، عميق الادراك لأبعاده ومراميه، هذا الى جانب جاذبية تميز بها. وكتابه (مصادر الشعر الجاهلي) كتاب فريد بحق. وهو انسان حين تجلس اليه، فكانك في بستان وارف الظلال، كثير الثمار، عاطر الأزهار ذاك، وطبيعة المعلقيات التي تيسرت لي ما هنا، لها جمهرة سراج، الرزوني والتشقيطي وابن النحاس والتبريزي، وهم جميعاً على الرأس والعين. وقد اخبروا في شرح تلك الأبيات العجيبة للحارث بن حلزة:

«يقول وأنا أوقدت هند هذه النار بمرآك ومنظر منك فكان البقعة العالية التي أوقدتها عليها كانت تشير الي بها. أوقدت هند تلك النار بين هذين الموضعين يعود فلاحنا كما يلوح الضياء».

ربما، انما الأمر يبدو لي بخلاف ما ذهبوا اليه، وحجتي على ذلك نار الطلح، التي شئت غربي النيل في ديار البديرية والشايقية والركابيين.

أوقدتها بين العقيق فشخصن يعود كما يلوح الضياء فتنورت نارها من بعيد بخرازي هيهات منك الصلاء ■

نحو أفق



بقلم الطبيب صالح

لا أرى إلا أن النار التي
أوقدتها صاحبة الحارث بن
حلز بن العقيق فشخصين،
هي نار الطلح التي تنورتها
من وراء تخوم بحر الروم. الفصل صيف، والمساء بارد
مطر، كئنه من أماسي الشتاء. وهي عينها النار التي
وصفها المرحوم محمد المهدي المجدوب في قصيدته. وقد قال
عثمان عبد الله وقبح الله:

النَّيَّانَ دِي، الرِّيَّانَ دِي الثَّرِيَّانَ
صَغْرَةَ وَنِ دِي؟ لَا مِنْ رِيفَةٍ لَا لَيْتَانَا
تَقُولُ بِي بَتِ فَلَانِ الْقَائِمَةَ مِنْ لَيْتَانَا
زِي لَعَبَهُ بَنِي شَقُولُ جَفَّتْ نِيرَانَا

هذا هو غاية المرام، أن تطرى جسد المرأة ويلمّع مثل
الذهب. وجبال شقوق، عندنا على حدود الحبشة كانوا
يخرجون منها الذهب أيام دولة سبار. والريف عندنا هو
مصر، نسمي المصريين «أولاد الريف»، وهو من أعجب
العجب أن تكون مصر المحروسة ريفاً للسودان! وعند أحمد
شوقي أن «مصر الرياض وسودانها عيون الرياض
وخلجانها».

وهل ترتفع العين على الحاجب؟ والفتاة المغنية ليست
من مصر ولا لبنان، ولكنها أقرب مزاراً، ربما من «رقاعة»
الربة، وطن عثمان، حيث خفق القلب أوائل الشباب، عنيت
قلبي.

كان ذلك أيام «عدل الوقت، قبل أن يختل الزمان وتميل
كفة الميزان، يوم كنا حسفاً نأكل مما نزرع ونلبس مما
نصنع». الحال اليوم كما وصفه أبو العلاء رحمه الله، وكأنه
رأى من وراء الغيب، ورأى السودان على وجه الخصوص،
السودان الغني الفقير، القوي الضعيف، الخصيب المجذب،
ذا الشعب العظيم والحظ السقيم.

يرتجى الناس أن يقوم إمام
ناطق في الكتيبة الخرساء
كذب الظن لا أمام سوى العقل
مشيراً في صتجه والمساء
فاذا ما شغقت جلب الرحمة
عند المسير والأرساء

أنما هذه المذاهب أسبان لحذب الدنيا إلى الرؤساء
كالذي قام يجمع الرثج بالبصرة والقرمطي بالأحساء

شيمة القوم متعة لا يرقون لدمع السماء والخساء

ما أعجب ما نظر أبو العلاء، فيها نحن قد اظلمت في
الجنوب ثورة للزنج وفي الشمال ثورة للقرامطة. الله يستر
مما هو أت. في أثناء ذلك صمت المجدوب، الشاعر العنديلبي،
وحبست السواقي غناها للنيل، وضوح الزرع ويبس
الضرع، وهاجرت تلك المرأة الشبيخة الجميلة الوجه بين
السبعين والثمانين، ربما من نواحي «رقاعة» أو «الكاملين»،
وكان قد حق لها أن تستريح. لهم الويل.

«ولا هي».

بمن تجرم بعد عهد أنيسها
جج خلون خللها وحرامها
فوقفت أسألها وكيف سألنا
صمًا خوالد ما بين كلامها
عريت وكان بها الجميع فابكروا
منها وغودر نؤيتها وتسامها
شامتك طعن الحي يوم تحببوا
فتكسروا قطنًا نصير خيامها
بل ما تذكر من نوار وقيد نأت
وتقطعت أسبابها ورمامها
مرية حلت بعيد وحسامورث
أهل الحجاز فأتين منك مرامها

أه! كن يوقدن في حفرة في الأرض تسمى حفرة نخان
الطلح، ويوضع عندها حصير تجلس عليه المرأة. وحطب
الطلح زكي الرائحة حين يحترق. ويضفن إليه الصندل
والسخور. وحين تموخ النار وتهدأ حديثها، تجلس المرأة
عليها بقدر ما تحتمل، وتغطي بشمطه فتعرق، ويتشرب
جسدها شذى الطلح والبخور. كل ما يطلينه هذه الأيام من
العطور المستوردة والدهون والاصباغ، كن يجندن في «نار
الطلح، التي لمعت في خيال الشاعر البشكري، ووصفها
محمد المهدي المجدوب رحمه الله:

حتى إذا ما اكتفت قامت وزايلها
نجد تساقط مثل الدر منثورا
ونفضت حلمها غنى بوحيتهيا
لحن الصباية غص الصوت مسحورا
اضحى لها الأمر لم تخرج هوى إلى
جهد وألمها الأحسان تدبيرا
للحديث نفة.



بقلم الطبيب صالح

بلى، ذلكم هو الذي أبكى
الشاعر البشكري، فقد كان
له من العمل كما أخبر
الرواة، خمسة وثلاثون
ومائة، حين انشد القصيدة
بين يدي الملك عمرو بن هند،
وكان بخرازي* وهند بين
العقيق فشخصين، فأشأ له
أن يرى النار رؤية العيان؟
انما رآها بعين خياله من
وراء أكثر من مائة عام، ولا
هند، أغلب الظن أنها كانت
قد رحلت الرحيل الأبدى.
ولو كانت النار كما توقد في
حطب الغضى، لجاز له أن
يبكى، أما أنها كانت كما وصفها المجذوب، فقد حق له أن
يبكى، فلها.

لا عجب، لقد دخل العرب بلاد السودان، إلى غاية أرض
شنقيط، قبل الإسلام بمئة، وأخذوا معهم من جزيرة العرب
عادات بقيت عندهم وبعضها درس عند عرب الجزيرة. من
ذلك أن النساء كن يتطين بنار، دخان الطلح، ومن ذلك
أيضا أن الفتيات قبل الزواج كن يلبسن سراويل من سبور
الجلد تسمى «الرطط»، وقد ظلت هذه العادة موجودة في
السودان إلى عهد قريب. وعرب السودان إلى يومنا هذا
يسمون «الدخلة» في العرس، قطع الرطط، وكان العريس
إلى عهد غير بعيد يقطع رططا، حقيقيا، ثم تحول ذلك إلى
عمل رمزي، ثم استعجم العرب في البراري، واختلط
الغناء بالرغاء.

كن يتطين لبعولتهن بنار «دخان الطلح»، يظفن إليها
الصندل والبخور، يفعلن ذلك في جماعة، يتناوبن
الجلوس على النار، تجلس الواحدة وتغطي جسدها
العاري بشملة، فتعرق ويتشرب جسدها سدى الطلح
والبخور، وهي رائحة تظل عالقة بها ما شاء الله، وكل
جلسة تسمى «بوخة». وقد تجلس الواحدة منهن مرتين
«تطبق البوخة»، لذلك قول الأغنية:

الطبق البوخة
قام نداء ينف
نام من الدوخة
أيده عاقباه
جدلة مطوخة
لي معالق الجوف
موسم مجلوخة

في «لسان العرب» في معنى «ماخت» النار، إذا فترت
وهذات حديثها، وهي تسبح بوخا وبوخانا. ويقال «ابخ
عك من الظهيرة» أي أقم حتى يسكن حر النهار ويبرد.
وهذا هو ما عنته الأغنية السودانية بالتحديد، فالمرأة لا
تقف على الجلوس إلى نار الطلح وهي في شبهة
اشتعالها، بل تصبر عليها حتى «تبوح» ويصبح حرها
محتملا.

وفي معنى «جدله» يقول المعجم:

الجدل شدة الفتل، وجارية مجدولة الخلق أي حسنة
الخلق. وساق مجدولة وجدلاء، أي حسنة الطي. وساعد
أجل كذلك. هكذا قالت الأغنية. وحين وصف الشاعر «يد»
المرأة، فأنما عني ساعدها، وهو أمر جاز في اللغة أن
يشار إلى الكل، بالجزء.

ويقول «لسان العرب» في معنى «مخلوخه»: المخلخ
على عظمة عضا وجديا. ومخلخ الشيء يملخه مملخا
وامتلخه، أي اجتذبه في استلال، وفي حديث أبي رافع
«ناولني الذراع فامتلتخت الذراع» أي استخرجتها. وهذا
في ظني هو معنى قول شيكسبير Time is out of joint،
يقصد أن الزمان «مخلوخ»، خرجت ذراعه عن مفصلها، فمن
يدأوي ذراع الزمان.

ويزيد المعجم، أن من معاني «المخلخ» «التثني والتكسر».
وهذا ما هدفت إليه الأغنية السودانية، فقد قامت المرأة من
على نار الطلح، ورأسها يدور، وعرقها يتصبب، وعضلات
جسدها مسترخية، فتثنت في مشيتها، ورمت ذراعها بلا
جهد، فصار ذراعها وراء باقي جسدها، «أيده عاقباه جدله
مخلوخه».

وما «معالق الجوف» يقول المعجم «المغلاق ما يعلق به
الأناء، وكل شيء علق به شيء فهو مغلاقة» ومعاليق
العقود والشنوف ما يجعل فيها.

وما «الموسم المخلوخه» يقول المعجم «جلىخ وأجلىخ إذا
فتح المرء عضديه في السجود» ومن معاني الجلىخ الأخراج
من مثل القراب وما أشبهه.

هذا هو. كان المرأة كما رآها الشاعر، استلت سكبنا من
قربائها وقطعت بها «معالق الجوف»، فتهاوى الجسد كله.
لذلك قال محمد المهدي المجذوب رحمه الله:

وما ارتويت وما كفت إخيال بها
مسا يعبث منها الروح مسورا
لأجل ذلك أيضا بكى الحارث البشكري، لم تكن النار
التي تنورها علي بعد مائة عام وأكثر، محض حطب يوقد،
بل كان فيها الطلح والصندل والبخور، فذلك «العود» الذي
أشار إليه. وكانت هند عند النار كما وصف المجذوب بعد
نحو ألف عام، فكانه قال صراحة ما أشار إليه الحارث
تلميحاً، بكى، وظلت دموعه تنهمر من ماقى القصيدة إلى
يومنا هذا.

لا أرى من عهدت فيها فأكى
اليوم نلها وأومأ يرد البكاء؟
أجل لعمرى، ما يرد البكاء؟
لا في، ولا هند ولا أسماء.
ما يرد البكاء، أن نيران «دخان الطلح» في جزيرة العرب
وعلى عدوتي النيل قد خمدت، وأن الزمان كما وصفوا،
معوج ومختل ومخلوخ.

* حراري ترد في شذات القصيدة على عدة وجه
حراري، بالحاء ثم الراء والرأي بعد الألف، وحراري، بالحاء والرأي، ثم
الراء وحراري بالحاء والرأي، ثم الزاي، وذلك عندي أحسن حرسا فعلن استنادا
العلامة حمد الحاسر بلفا على الوجه الصحيح



بقلم الطيب صالح

نحو أفق بعيد

يروى الجاحظ في كتابه «التاج» في أخلاق الملوك: أن الحجاج أوفد جريراً إلى الخليفة عبد الملك بن مروان، فلما دخل عليه قال محمد بن الحجاج: «يا أمير المؤمنين، هذا جرير بن الخطفي مدحك وشاعرك». فأعرض عبد الملك وقال: «بل مداح الحجاج وشاعره». قال جرير، فقلت: «إن رأى أمير المؤمنين أن ياذن لي في إنشاء مديحه». قال عبد الملك: «هات في الحجاج». فقلت: «بل في مدحك يا أمير المؤمنين». قال: «هات في الحجاج». قال جرير، فأنشدته قولي: صيرت النفس يا ابن أبي عقرب

مُخَافَةً فَكَيفَ تَسْرَى السُّوَابَا
إذا سافر الخليفة نار حارب

رأى الحجاج أنفـهـا شـهـبـا
فقال: «صدقت، هو كذلك». ثم قال للأخطل وهو خلفي وأنا لا أراه: «فم فها مديحنا». فقام فأنشده فاجاد وأبلغ، فقال عبد الملك: «أنت شاعرنا وأنت مداحنا، فم فاركنه». قال جرير: «فألقى النصراني ثوبه وقال (جنب يا ابن المراغة) فإغضب ذلك من حضر من المضرية وقالوا: يا أمير المؤمنين، لا يركب الحنيف المسلم ولا يظهر عليه، فاستحيا عبد الملك وقال للأخطل: «دعه».

قال جرير: «فانصرف أسوأ خلق الله حالاً لما رأيت من أعراض أمير المؤمنين عني وأقبله على عدوي، حتى إذا كان يوم الرواح للوداع، دخلت لأودعه، فكنت آخر من دخل عليه، فقال له محمد بن الحجاج: يا أمير المؤمنين، هذا جرير، وله مديح في أمير المؤمنين». قال: «لا، هذا شاعر الحجاج». قلت: «وشاعرك يا أمير المؤمنين». قال: «لا، أنت شاعر الحجاج». قال جرير: «فلما رأيت سوء رأيه أنشأت أقول: اتصحو أم فؤادك غير صاحي فقال عبد الملك: «بل فؤادك». حتى إذا بلغت إلى قولي: ألسنتم خير من ركب المطايا وأنشدني العبد المين بطون راح، استوى جالساً، وكان متكئاً، وقال: «بل، نحن كذلك. أعد». فاعدت البيت، فأشرق وجهه، وذهب ما كان في قلبه، ثم التفت إلى محمد بن الحجاج وقال: «نرى أم حنزة (زوجة جرير) ترويه مائة من الأبل». قال جرير، فقلت: «نعم يا أمير المؤمنين، إن كانت من فرائض كلب فلم تروها فلا أروها الله». قال: «فامر لي بمائة فريضة. وكانت بين يديه أربعة صحاف من فضة أهديت إليه، فمددت يدي وأخذت واحدة منها وقلت: «المحلب يا أمير المؤمنين». يقصد لمحلب اللين. قال عبد الملك: «خذها لا بارك الله لك فيها». ويخلص الجاحظ إلى القول: وهذه أخلاق لمن فهمها. وليس بعجب أن تتلون أخلاقهم، إذ كنا نرى أخلاق القرين المساوي، والشريك والالف تتلون ولا تسنوي، ولعله يجد عن ألفه وقربنه وشكله مدوحة، فكيف بمن ملك الشرق والعرب، والاسود والابيض، والحر والعبد، والشريف والوضيع، والغريز والدليل. ■

1994/0/17-1-1993 التاريخ 78 21 N Mares 17



بقلم الطبيب صالح

يذكر الجاحظ في كتابه
البيدع «النجاح في أخلاق
الملوك» أن السخاء والحياء
لازمان للملك السعيد. ويقول:
«ومن أخلاق الملك الكرم
والحياء، فهما قريبان كل ملك
كان على وجه الأرض. ولو
قال قائل أنهما زكيا في الملوك
كتركيب الأعضاء والجوارح،
كان له أن يقول، إذ كنا لم
نشاهد، ولم يبلغنا عن
مضى من الملوك، ملوك العجم
ومن كان قبلهم، وملوك
الطوائف وغيرهم، القحة
والخُل.

فأما السخاء، فلو لم يكن أحد طبائع الملوك، كان يجب أن
يكون باكتساب أن كان الملك من أهل التمييز، وذلك أن الملك
يغيد أكثر مما يُنفق. فإذا كانت هذه صفة كل ملك، فما عليه
من اتخاذ الصنائع، وعزم المن، والاحسان إلى من نأى عنه أو
دنا منه من أوليائه، والرحمة للفقير والمسكين، والعائدة إلى
أهل الحاجة.

وأما الحياء فهو من اجتناس الرحمة، وتحقيق للملك إذا
كان الراعي، أن يرحم رعيته، وأد كان الاسام أن يرق على
المؤمن به، وأد كان المولى أن يرحم عبده.
وأقول، غفر الله لي، أن أكرم من أفلته السماء، وأرحم من
أقلته الغبراء، هو سيدنا محمد صلى الله عليه وسلم. كان
أرحم بالناس من الأم على وليدها، ومن الثاقبة على فضيلها،
وكان في سخائه كالريح المرسلة. وقد مدحه بحق، أحمد
شوقي، أمير شعراء هذا الزمان فقال:

يا من له الأخلاق ما تهوى العلا
مها وما يتعمش الكبراء
لو لم تُم ديناً لقامت وحدها
ديباً تحمي بسوره الآلاء
ماذا رحمت فانت أم أو أب
هذان في الدنيا هما الرحماء

هذا، وقد خلق الرسول الكريم بُرْدته على كعب بن زهير
حين جاءه لأذا ومدحه بقصيدته «بانت سعاد». وقد أخبروا
أن معاوية بن أبي سفيان اشتراها منه بثلاثين ألفاً، وفي
رواية بثلاثمائة ألف، فكانت شعار دولتهم، التي إن ورثها
الخلفاء من بني العباس. وفي ذلك يقول أحمد شوقي أيضاً:
رحمه الله وأجرل ثوابه، فما أجمل ما قال في مدح الرسول
الأمين:

ليست بُرد النسيب الميراث
من بني العباس نوراً فسوق نور

ثم الت إلى ملوك آل عثمان، ثم لا تدري.
ذلك، وقد أنبرى الجاحظ للدفاع عن أبي جعفر المنصور،
وقد عرف عنه الخُل. لا عرو، فقد ألف كتابه أصلاً للفتح ابن
خاقان وزير المعتصم بن مروان الرشيد، وقال في ذلك:
... شخص بوضع كتابنا هذا، الأمير الفتح بن خاقان

مولى أمير المؤمنين، إذ كان بالحكمة مشغولاً، وعلى طلبها
مثاراً، وفيها وفي أهلها راغباً، ليبقى له ذكره، ويحيا به
اسمه، ما بقي الضياء والظلام.
صدق ظن الجاحظ فقد انطوى ظل الفتح بن خاقان،
وعفى الزمن على آثاره، عدا أن أبا عثمان العبقري وضع له
كتاباً اسمه «النجاح في أخلاق الملوك». وفي ذلك عبرة لمن
اعتبر.

يقول أبو عثمان مدافعاً عن أبي جعفر المنصور:
«وقد ذكر بعض من لا يعلم في كتاب الفقه في الخلاء من
الملوك، أن هشام بن عبد الملك بن مروان، ومروان بن محمد،
وأبا جعفر المنصور، منهم... وكيف يكون المنصور ممن دخل
في جحلة هذا القول، ولا يعلم أن أحداً من خلفاء الإسلام ولا
ملوك الاسم، وصل بالف ألف لرجل واحد غيره».
ثم يعضى الجاحظ فيورد قصة مؤثرة، يدل بها على كرم
المنصور، فيقول:

«وحدثني بعض اصحابنا عن أبيه عن زيد مولى عيسى
ابن نهبك، قال:

دعاني المنصور بعد موت مولاي، فقال:
«كم خلف أبو يزيد من المال».
قلت «ألف دينار أو نحوها».
قال «فأين هي».

قلت «انفتحت الحرة في مأمته... يعني زوجته».
فاستعظم ذلك، وقال «انفتحت في مأمته ألف دينار؟ ما
أعجب هذا».

ثم قال «كم خلف من البنات».
قلت «ستاً».

فاطرق ملياً، ثم رفع رأسه وقال «أعد لي المهدي».
فعدوت فقيل لي «معك بغال».

فقلت «لم أؤمر بأحضار بغل ولا غيره، ولا أدري لم
دُعيت».

فأعطيت ثمانين ومائة ألف، وأمرت أن ادفع لكل واحدة
من بنات عيسى ثلاثين ألف دينار. ففعلت. ثم دعاني المنصور
فقال:

«قبضت ما أمرنا به لبنات أبي يزيد».
قلت «نعم يا أمير المؤمنين».

قال «أعد علي باكفائهن حتى أزوجهن منهم».
فعدوت عليه بثلاثة من ولد العكي وثلاثة من آل نهبك من
بني عمهم. فزوج كل واحدة منهم على ثلاثين ألف درهم،
وأمر أن يجعل صداقهن من ماله. وأمرني أن اشتري بما أمر
لهن ضياعاً يكون معاشهن منها».

ويختم الجاحظ قصته البليغة بقوله:
«وقلنا استعملت العامة وكثير من الخاصة التمييز،
إشارة للتقليد، إذ كان أقل في الشغل، وأدل على الجهل،
وأخف في المؤونة. وحسبك من جهل العامة أنها تفضل
السمين على النحيف، وإن كان السمين مافونا، والنحيف ذا
فضائل. وتفضل الطويل على القصير، لا للطول ولكن لشيء
آخر لا تدري ما هو. وتفضل راكب الحصان على راكب البغل،
وراكب البغل على راكب الحمار، اقتصاراً على التقليد إذ كان
أسهل في المأني وأهون في الاختيار».

رحمه الله، فما أجمل ما كان يكتب، وما كان أحفاد باهل
المروءة والفضل، ورحم الله أبا جعفر المنصور فإن حديث
الجاحظ عنه يرفعه من الكرم المحض، إلى سماء الشهامة
والنبيل.

نحوأفق بعيد

وهكذا فعل معاوية بن أبي سفيان، إذ جلس للناس في يوم عيد، ووضعت الموائد وبدر الدراهم والدينارير للجوائز والصلوات. وجاء رجل فقعد على كيس فيه دينارير. فصاح به الخدم: «تنح فليس هذا موضعك». ولما سمع معاوية قال: «دعوا الرجل يقعد حيث انتهى به المجلس». فأخذ الرجل الكيس ودسه في ثيابه وقام، فلم يجسر أحد أن يتعرض له. فقال الخادم: «أصلح الله أمير المؤمنين. إنه قد نقص من المال كيس دينارير». فقال معاوية: «أنا صاحبه وهو محسوب لك».

ويروى، أن سليمان بن عبد الملك خرج في نزهة، فبسط له في صحراء فتغدى مع أصحابه. فلما حان انصرافه واشتغل غلمان به بجمع المتاع، جاء أعرابي واختطف عبادة سليمان وطرحها على عاتقه، وسليمان ينظر إليه. فبصر به بعض الخدم فصاح به: «اللق ما عليك». فقال الأعرابي: «لا القىها والله. إنها كسوة أمير المؤمنين وخلعته».

فضحك سليمان وقال: «صدق، أنا كسوته». فانطلق بها الأعرابي كأنه اعصار. وجيء لجعفر بن سليمان بن علي برجل سرق منه درة نادرة، وأراد أن يبيعه ببغداد. وكانت الدرة قد وصفت لتجار الجواهر، فأخذ الرجل وسبق إلى جعفر. فلما راه استجيا وأخذته الشفقة عليه. فقال له: «الم تكن طلبت هذه الدرة مني فوهبتها لك؟» فباع الرجل الدرة بمائتي ألف درهم.

وبزید الجاحظ قوله: «وأنت لا تجد أبداً أحداً يتغافل عن ماله إذا خرج، وعن مبايعته إذا غبن، وعن التقصي إذا بخس، إلا وجدت له في قلبك فضيلة وجلالة ما تقدر على دفعها. وكذا أنبأ نبينا صلى الله عليه وسلم إذ قال: «يرحم الله سهل الشراء سهل البيع سهل القضاء، سهل التقاضي». هذا، وكان عمر بن الخطاب رضي الله عنه يقول: «من خدعنا في الله أخذنا له».

وأثر عن معاوية رحمه الله قوله: «أني لأجر نيلي على الخداع».

وقال أبو تمام:

ليس الغني بسيد في قومه
لكن سيد قومه المتغابي.

ويعجبني قول الشاعر الذي يخفي وراءه كلاماً كثيراً:

بني عمنا لا تذكروا الشعر بعيمنا

فدنتهم بصحراء الغمير القوافيا

فإن قلتموا أنا ظلمنا فلم نكن

ظلمنا ولكننا أسأنا التقاضيا

ويوسعك إن تتخيل ما حدث، فمثل ذلك ليس منك

بعيد. وحسبك قوله (بني عمنا). وأقول، عفا الله عني،

أن من سوء التقاضي، ما هو الظلم بحدافيره! ■

يلزم الملك السعيد في رأي الجاحظ، ألا يشغل نفسه بصغائر الأمور، ويقول:

«ومن أخلاق الملك التغافل عما لا يقدح في الملك، ولا يجرح المال، ولا يضع من العز، ويزيد في الأبهة».

وفيما يحكى عن بهرام جور، أنه خرج يوماً لطلب الصيد، فعار به فرسه حتى وقع إلى راع تحت شجرة، وهو حاقن. فقال للراعي:

«احفظ علي عنان دابتي ريثما أقضي حاجتي». فامسك الراعي عنان الفرس، وكان لجامه ملتبساً ذهباً، فوجد الراعي غفلةً من بهرام، فأخرج من خفه سكيناً، فقطع بعض أطراف اللجام. فرقع بهرام رأسه فنظر إليه، فاستحيا، ورمى بظرفه إلى الأرض، وأطال حتى يأخذ الراعي حاجته من اللجام. حتى إذا ظن أنه أخذ حاجته قام، وقال للراعي: «قدّم لي فرسي فإنه قد دخل في عيني شيء من هذه الرياح، فما أقدر على فتحهما».

وغعض عينيه لثلا يومه أنه يتفقد حلبة اللجام. فقرب الراعي فرسه فركبه. فلما ولّى، قال له الراعي: «أيها العظيم، كيف أخذ إلى موضع كذا وكذا؟».

قال بهرام: «وما سؤالك عن الموضع؟».

قال الراعي: «هناك منزلي، وما وطئت هذه الناحية قط غير يومي هذا، ولا أراني أعود إليه ثانية».

فضحك بهرام، وفطن لما أراد، فقال: «أنا رجل مسافر، وأنا أحق بالأعود إلى ههنا أبداً».

ثم مضى. ولما نزل عن فرسه، قال لصاحب دوابه ومراكبه: «أني وهبت معاليق اللجام لسائل مر بي، فلا تنهمن بها أحداً».

ويحكى عن أنو شروان، أنه قعد ذات يوم في نيروز، ووضعت الموائد ودخل وجسوه الناس الإيوان على طبقاتهم ومراتبهم. وقام المؤكلون بالموائد على رؤوس الناس، وكسرى بحيث يراهم.

فلما فرغ الناس من الطعام، جاعوا بالشراب في أنية الفضة وجامات الذهب. فشرب الأساورة وأهل الطبقة العالية في أنية الذهب. فلما أنصرف الناس، ورفعت الموائد، أخذ بعض القوم جام ذهب فاخفاه في ثوبه، وأنو شروان يلحظه، فصرف وجهه عنه. واقتد صاحب الشراب الجام فصاح: «لا يخرجن أحد من الدار حتى يغتسل».

فقال كسرى: «لا تتعرض لأحد، وأذن للناس فانصرفوا». فقال صاحب الشراب: «أيها الملك، أنا فقينا بعض أنية الذهب». فقال الملك: «صدقت. فقد أخذها من لا يردّها عليك، وقد راه من لا يزم عليه».



بقلم الطبيب صالح

نحوافق بعيد



بقلم الطيب صالح

على الملك السعيد، كما يقول الجاحظ، ان يقسم يومه اقساماً: اوله لذكر الله تعالى، وصنوه لرعاياه وتبوير امورها وتصريف شؤون دولته، ووسطه لأكلة ومنامه، وطرفه للهو وشغله. وعليه الا يتأخر على ادمان الشغل في كل يوم، وان طالت هذه الاقسام بمواضعها، فانه لن يجد للهو لذة، ولا للتعميم رونقاً ويقول:

ومن ادمن شيئاً من ملاذ الدنيا، فانه لن يجد له من اللذة وجود القرم النهم المشتاق. وذلك ان اللذ الطعمام واطيبه ما كان علي جوع شديد، والذ المخالطة اذا اشتد الشبق وطالت العزبة والذ النوم واهناه ما كان يعقب التعب والسهر.

ويصف الجاحظ ان الخلفاء من بني امية وبني العباس كانت لهم اوقات يسرون فيها عن انفسهم بالسماع الى الغناء والطرب، ويقول:

اما معاوية ومروان وعبد الملك والوليد وسليمان وهشام ومروان بن محمد، فكان بينهم وبين الندماء ستارة. وكان لا يظهر احد من الندماء على ما يفعله الخليفة اذا طرب للمغني حتى يتقلب ويمشي ويحرك كتفيه. فاما بعض خلفاء بني امية فكان لا يتخرج ان يرقص ويتجرد بحضرة الندماء.

واما عمر بن عبد العزيز فانه ما طن في اذنه حرف غناء منذ ان افضت اليه الخلافة الى ان فارق الدنيا. وكان قبل ذلك وهو امير للمدينة، يسمع الغناء ولا يظهر منه الا الامر الجميل.

واما ابو العباس السفاح، فانه كان يظهر للندماء في اول ايامه، ثم احتجب عنهم بعد سنة، اشار عليه بذلك اسيد بن عبد الله الخزاعي. وكان يطرب ويمسج ويصيح من وراء الستارة، احسنت والله. اعد هذا الصوت، فيعاد له مراراً.

ولم يكن ابو جعفر المنصور يظهر لنديم قط، ولا راه احد يشرب غير الماء. وكان بينه وبين الستارة عشرون ذراعاً، وبين الستارة والندماء مثلها، فاذا غناه المغني فاطربه، حركت الستارة بعض الجواني، فاطلع اليه الخادم صاحب الستارة، فيقول له المنصور: قل له احسنت بارك الله فيه. وربما استخفه الطرب واراد ان يصفق بيديه، فيقوم من مجلسه، ويدخل بعض حجر نسائه فيكون ذاك هناك. وكان لا يتيب احداً من ندمائه وغيرهم درهماً، فيكون له رسماً في ديوانه. ولم يقطع احداً ممن كان يضاف الى ملهية او ضحك او هزل، موضع قدم من الارض. وكان يحفظ ما اعطى كل واحد منهم عشر سنين، ويحسبه ويذكره له.

وكان المهدي في اول امره يحتجب عن الندماء، متشبهاً بالمنصور، ثم ظهر لهم. فكلفه في ذلك احد وزرائه، فقال له: «ليك عني يا جاهل. انما اللذة في مشاهدة السرور، وفي الدنو من سررتي، فاما من وراء وراء، فما خيرها

ولذتها» ولو لم يكن في الظهور للندماء والاخوان الا اني اعطيهم من السرور بمشاهدتي مثل الذي يعطونني من فوائدهم، لجعلت لهم في ذلك حظاً موفراً.

وكان كثير العطايا وافرها، قل من حضر الا غناه. وكان لبني العريكة، سهل التريفة، لذيد المنادمة، قصير المناومة، ما يعمل سديماً ولا يتركه الا عن ضرورة، قطيع الخنا، صبوراً على الجلوس، ضاحك السن، قليل الاذى والبذاء.

ويصف الجاحظ ان الهادي كان شكس الاخلاق، صعب المرام، قليل الاغضاء، لا يبذل الا لمن تواقه وعرف اخلاقه. ويحكى ان ابراهيم الموصلي غناه يوماً صوتاً اخرجه عز طوره من الطرب، فقال له:

«انت صاحبني، فاحتكم».

فقال ابراهيم:

«يا امير المؤمنين، تقطعني حائط عبد الملك بن مروان بالمدينة».

قال، فدارت عيناه في راسه حتى صارتا كأنهما جمرتان، ثم قال:

«يا ابن اللخناء اريدت ان تسمع العامة انك اطرقتني، وانني حكمتك فاقطعتك. اما والله لولا بادرة جهلك التي غلبت على صحيح عقلك وفكرك، لضربت الذي فيه عيناك».

قال ابراهيم: ثم سكت فرايت ملك الموت قائماً بيني وبينه، ثم نادى ابراهيم الحرائي فقال:

«خذ بيد هذا الجاهل، فادخله بيت المال، فليأخذ منه ما شاء».

هذا، وبمضي الجاحظ في رسم صورة لهارون الرشيد، تلفت الانقباء، لانها بخلاف ما شاع عنه، فيقول:

«وكان الرشيد في اخلاق ابي جعفر المنصور، بمثلها كلها الا في العطايا والصلوات والخلع، فانه كان يقفو فعل ابي العباس والمهدي. ومن خبرك انه راه قط يشرب غير الماء فكذب. وربما طرب للغناء، فتتحرك حركة بين القلة والكثرة».

ويخبر الجاحظ عن الامين نقلاً عن اسحق فيقول:

«ما كان اعجب امره كله فاما قبله، فما كان يبالي ابن قعد، ومع من قعد. وكان، لو كان بينه وبين ندمائه مائة حجاب، خرقتها كلها، والقاما عن وجهه حتى يقعد حيث قعدوا. وكان من اعطى الخلق لذهب وفضة، وانهبهم للاموال اذا طرب اولها».

ويختم الجاحظ حديثه عن الامين بلفتة من لغتاته العجيبة فيقول:

«ولقد حدثني علوبة عنه قال: لما اُجِيط به، وبُغِت حجارة المنجنيق بساطه، كنا عنده، فغنته جارية غناء لم نحسنه، فصاح:

«يا كذا، تغنيني الخطأ خذوها».

فحملت وكان آخر العهد بها».

كان الجاحظ اراد ان يقول: «وكان ذلك اخر العهد بالامين». فقد أخذ بعد ذلك واصلب. وكان اخر صوت سمعه صوتاً شازراً. ومع ذلك فقد مدحه الحسن ابن هاشم، غفر الله له وللأمين، ببیت من أجمل شعر المديح:

واذا المني بنا بلغن محمداً

فظهر من على الرجال حرام

النسب شنة



بقلم الطبيب صالح

يقرر الجاحظ مبدأ في الحرب، أصبح من ركائز سياسة الدول في هذا العصر، وكان فيلسوف الحرب الألماني «كلوزماتز» أخذه عنه بالحرف يقول الجاحظ: «ومن أخلاق الملوك المكابدة في حروبها، ولذلك كان يقال أنه ينبغي للملك السعيد أن يجعل المحاربة آخر حيله، فإن النعقة في كل شيء أنفاسا في من الأموال، والنعقة في الحروب أنفاسا في من الأنفس، فإن كان للحيل محمود عاقبة، فذلك بسعادة الملك، إذا خسر ماله وحلف دماء جيوشه، وإن أغبت الحيل والمكائد، كانت المحاربة

من وراء ذلك».

ويقولون في هذه الأيام أن الحرب هي سياسة الملاذ الأخير، أو سياسة الحد الأقصى. War is the policy of last resort. ليس هذا ما عناه الجاحظ نصا حين قال «ينبغي للملك السعيد أن يجعل المحاربة آخر حيله».

كان الجاحظ كان يتوجه بحديثه إلى الخليفة، غير وزيره الفتح ابن خاقان، ويظهره بوصفه أبا ب. الملك السعيد، وعندي أن كتابه ليس أقل أهمية من كتاب «الأسير» لما كيا فتلي، ويزيد عليه أن الجاحظ سبق نظيره الإيطالي بقرون، وأن كتابه أفكه روحاً وأخف وطأة.

يقول أبو عثمان رحمه الله، في عبارة لا تخلو من جرأة: «وأيضا فإن لنا آخرين، أما أحدهما، فلما نبهنا عليه العامة من معرفة حق ملوكها، وأما الآخر، فلما يجب من حق الملوك علينا من تقويم كل مائل عنها، ورد كل نافر إليها».

هذا كما ترى، مذهب طريف، فهو ليس ضد الملوك من حيث أنهم ملوك، ولكنه يقول أنه صوتهم المدافع عنهم لدى العامة، كما أنه صوت العامة وصوت الحق لدى الملوك، أو كما نقول بلغة هذه الأيام، أن دوره دور «رجل (الفكر)» الذي يكون جسراً بين «الشعب» وبين «السلطة».

وذاك لعمري أمر عسير. ألا أن الجاحظ كان محظوظاً أنه وجد تابيداً وسنداً من وزير واسع الإطلاع، عميق الفكر مثل الفتح ابن خاقان، وقد أخبروا أن الفتح بن خاقان، لم يكن يفوقه إلا الجاحظ في اقتضائه على الكتب وتبعه إلى المعرفة، وأنه يكون في مجلس الخليفة، فإذا قام الخليفة عن المجلس ولو لفترة وجيزة، فإن الفتح يخرج من ثيابه كتاباً يقرأ فيه إلى أن يعود الخليفة.

ولا بد أن الجاحظ قصد أيضاً أن يمكن لصديقه الوزير لدى مولاه، وحق له أن يفعل، فقد كان الرجل جديراً، يقول الجاحظ: «وبعد فإن أكثر كلامنا في هذا الكتاب، إنما هو على من تولى الملك الأعظم، إذ لم يكن في استطاعتنا أن نصف أخلاقه بل نعجز عن نهاية ما يجب له، لو رمنا شرحها... وليس لأخلاق الملك الأعظم نهاية تقوم في وهم، ولا يحيط بها فكر. وأنت تراها تتزايد منذ أول ملك ملك الدنيا إلى هذه الغاية...».

هذا، كأنه المتنبي يثالي سيف الدولة. وكان أبا عثمان خجل من كثرة ما بالغ في أطراء الخليفة، مما لبث أن أضاف كالمعتذر: «ولعل قائل يقول أن رأنا قد حكينا في كتابنا هذا بعض أخلاق الملوك الماضين من آل ساسان وملوك العرب، قد ناقض وأضع هذا الكتاب، إذ زعم أنه ليس لأخلاق الملك الأعظم نهاية». فنظلم في اللفظ وبعتدي في المقال. وأولئك الملوك هم عند ملوكنا، كالأطعمة الوسطى عند النمط الأعلى. أنت تجد تلك عيانياً وتشهدهم بيانياً... هذا، ويؤكد أبو تمام مبدأ مناقضاً لما ذهب إليه الجاحظ في قضية السياسة والحرب، وذلك في بيته الذائع في قصيدته المدوية

في مدح المعتصم..

السيف أسود أشلاء من الكبد
في حصد الحصد بين الحصد والغص

وقد ذهب بعضهم إلى أن المقصود بـ (الكبد) هو (الفكر) كما تقول رجل الفعل ورجل الفكر ورب السيف ورب القلم. وأغلب الظن أن أبا تمام لم يرد إلا الكتب التي يرسلها الملوك بعضهم إلى بعض في أمور السلم والحرب.

كان المعتصم حقاً ملكاً محاربا، يعزو أولاً ثم يفكر فيما بعد والجاحظ رغم أنه يؤثر النفع بالحسبي أن أمكن، فإنه لا يخفى إعجابه بالمعتصم وبصفه وصفاً يكاد ينط من بين السطور: «وكان المعتصم قلماً يعس الطيب، وكان يذهب في ذلك

تقوية يده وأعامته على شدة العطش والأيد، وأما في أيام حروبه، فكان من دنا منه، وجد رائحة صدا السلاح والحد من حسمه، كان خشناً جلفاً إلى حد أن أهل بغداد.. وقد كانت في ذلك الزمان مثل باريس اليوم.. ضافوا به وبغظاظه جنده، فهجروهم وبني عاصمة جديدة هي (سز من رأي). لم تلبث طويلاً حتى اندثرت، وقد رثاها ابن المعتز بابيات بليغة..

تد اقـفـرت سـر من را
مـالـتـنـض يـجـمل مـيـها
كـمـلـة الأـحـ
مـاتت كـمـا مـات مـجـل
تـسـل مـمـه المـنـظـام

وقد أصبحت قصة فتح المعتصم لعمورية اسطورة يضرب بها المثل في الأقدام والتجسدة في تراث العرب، إلا أنهم أخبروا أن المرأة التي صرخت «وأعتصمناه» لم تكن في عمورية، بل كانت في «زبطرة» على الحدود بين ملك الروم وملك العرب. وكان أميراً طور الروم «تيوفيل» قد غزاها عام ٨٣٨م فحرق وهدم وقتل وسبي. سمع المعتصم استغاثة المرأة العربية فهتف «ليكن لي بك، ويذكر بعض الرواة أنه كان ممسكاً بكاس موضعها وهب وإلقا من فوره، وسأل قواده، أي بلاد الروم أمتع وأحصن، فقالوا «عمورية»، وأن المسلمين لم يجزؤوا على اقتحامها من قبل، فصحبها بجحافلها وبكها دك واقتحم «أنقرة» في الطريق.

وكما قال الشاعر «ولو أن قومي انطلقني رماحهم نطقت، فار هذه الواقعة قد هزت وجدان الشاعر العملاق حبيب ابن أوس الطائي، فأتى بالعجب العجائب:

رمى بك الله برجليها مهتمها
ولو رمى بك غيـير الله لم يـجب
احسنته مقلناً بالسيف متصلها
ولو احسنت بفسير السيف لم تجب

إلى أن يقول:

خليفة الله حازي الله سبعيك عن
خروسة النين والاسلام والحد
نصرت بالراحلة الكرسي فلم ترها
نزال إلا على حـسـر من النـمـ

ثم جاء العمقري أبو الطيب، فنصب الميزان القسط بين مذهب الجاحظ ومذهب أبي تمام:

ووصع الندى في موصع السيف بالملأ
مصر كوصع السيف في موصع الندى

(للصبيت بن)



بقلم الطبيب صالح

كانت مبادرة حميدة من الاخ محمد بن عيسى وزير الثقافة في المغرب، وهو صاحب أريحيات كثيرة، انه خصص امسية في موسم اصيلية هذا العام، لتذكر - ولا اقول تابين - الكاتب العملاق يوسف ادريس. وكان يوسف قد شارك في موسم من مواسم اصيلية منذ بضعة اعوام، وترك أثراً لا ينسى، كما كان يفعل دائماً!

ارتجل محمد بن عيسى كلمة بليغة، تحدث فيها عن صداقته بيوسف ادريس، وعن المكانة السامية لادبه، الذي وصفه بأنه اعظم بكثير حتى مما اعترف به الناس. وقال ان موسم اصيلية الثقافي سوف يصدر عنه كتاباً. ولعل هذه هي اول مرة في العالم العربي، تكرم فيها ذكرى كاتب بهذه الطريقة، خارج وطنه الام. وتحدث لطفي الخولي، الكاتب المرموق، زميل يوسف في دار الاهرام العتيقة، وصديقه الحميم طيلة سنوات، فاعاد الى الذاكرة صورة يوسف، انساناً حياً نابضاً بالحياة.

كذلك تحدث الدكتور احمد ابراهيم الفقيه، الكاتب الروائي الليبي الموهوب، فنوه بمكانة يوسف ادريس في الادب العربي المعاصر، واعترف بعمق تأثيره عليه. ويمكن القول ان احمد الفقيه، كان أحد حواريين يوسف ادريس، وكان أحد اصدقائه المقربين. وفي كلمة حزينة عبر الدكتور مبارك ربيع من المغرب، عن عمق احساسه واحساس جيله كله بالعجيبية لفقد يوسف ادريس. وقال الكاتب الروائي المبدع، جمال الغيطاني، ان الفراغ الذي احده موت يوسف ادريس، فراغ لن يمتلئ بعده، وان الخسارة بفقد خسارة لن تعوض. وكنت انا ايضا من المتحدثين.

كان يوسف ادريس، صاحب موهبة ضخمة، لا يبلغ الانسان اذا وصفها بالعبقريّة. والموهبة عبء ثقيل فيه بعض معاني اللعنة. واذ حمل نجيب محفوظ هذا العبء بجلد ومصابرة، كما يفعل الزهاد العاكفون، كان يوسف ادريس يبدو احياناً وكأنه ينوء بهذا العبء، وكأنه يود لو استطاع ان يلقيه عن كاهله. كان يتأرجح بين احوال من الاكتئاب والتهمة. وربما حاول امراً عسيراً، ان يحيا الحياة الى اقصى مداها كما يتشاء وان يصنع فناً عظيماً. ولعله نجح بعض النجاح. ولكنه دفع الثمن الذي لا

مناص منه آخر الامر. قلت له في بغداد اثناء الضجة التي افتعلها حين نال نجيب محفوظ جائزة نوبل «يا اخي انت عاوز تتمتع بالحياة، وتتفسيح وتعمل ما تعمل، وكمان تاخذ جائزة نوبل».

ضحك من اعماق قلبه، كما كان يفعل، فلم يكن يضمّر حقداً لاحد، وقال لي «وليه لا».

كان يوسف في الحقيقة انساناً كريماً طيباً طيبة باللغة، اذا وجد منك وداً ومحبة، اعطاك وداً بلا حدود. وعلى مدى ربع قرن من الزمان، لم اجد منه، ولم يجد مني، غير الاخاء والود. ولين انسى ما حييت عبارة قالها لي ذات يوم «تعرف يا طبيب، انا لما اقرأ لك بخس بالونش، كانت عبارة عميقة مؤثرة، ظلت اذكرها وانوء بها، فالكاتب على وجه الخصوص، يدرك مدى الوحشة التي تجلبها ممارسة هذا الفن الملعون. ان تعلم ان لك «اخوة» في البلاء، يعزّيهم انك موجود، وانك تكتب، وانك تفرح بوجودهم وابداعهم، ذلكم الذي يبدد الوحشة، ويصبر على البلوى، ويجلب «الونش»، اصوات تنشد في حلقة الوجود، ياخذ بعضها من بعض ويعطي، تتجاوب اصداؤها من بلد الى بلد، ومن قطر الى قطر، ومن قارة الى قارة، بل ومن زمان الى زمان، تصنع من تفاهات الواقع، وعذابات العمر القصير العابر، شيئاً لعله يستمر. لعله يبقى. ذلك هو. ولا يمكن تحقيقه الا بالمحبة. وكان صوت يوسف ادريس صوتاً نادراً من هذه الاصوات. سوف يقوى وقعه وتأثيره على مدى الايام.

كان عامراً بالمحبة، رغم ما كان يبدو احياناً عكس ذلك، بسبب تناقضات سلوكه في الحياة والمعارك التي كان يفتعلها ويلقي بنفسه في غمارها دون مبرر في الغالب وبلا اسلحة، ثم يخرج منها، وينسأها تماماً. لم يكن يعرف الحق. لم يكن ذلك الا مظهرًا من مظاهر احساسه بفداحة العيب. عبء الموهبة الكبيرة التي أثقلت بها.

وايضاً كان شجاعاً شجاعة قل نظيرها. قام في فنه بمغامرة طريفة، خدق فيها بعيني طفل عمقري بنهم وجودي، في عوالم لم يجرف أحد من الكتاب المعاصرين على التحديق فيها. وكان يعود من التجربة مملوءاً بالمشوة. فقد كان يعرف ضخامة موهبته. ولكنه يعود ايضا مزعزعا متأثر الاجزاء. لا يلبث ان يلقي بنفسه في غمرات الحياة، ياندفاع وطيش احياناً، فيخاصم ويعارك ويشير العواصف بما يقوله، وما يكتبه في الصحف، وبعض ما يفعله. ولعل هذا صرف انظار بعض الناس عن ادراك مدى روعة فنه.

ها هو الانسان، الكائن البشري المحدود الاجل، الذي يقطع رحلة العمر كما ينسبط الظل ثم ينطوي، ها هو ذا قد مضى. يوسف ادريس لم يعد. سوف يبقى فنه العظيم. انما حتى هذا عندي، وعند الكثيرين امثالي الذين احبوه واحسبوا «بالونش» لمجرد انه موجود يرشف السمع لصوتك، وترشف السمع لصوته دي الجاذبية القريدة. اقول حتى هذا لا يعزّي عن فقدته ■



بقلم الطبيب صالح

تركت حاسد الخواص رحمه الله، حيا محتلا حياة، ضاحكا أندأ كعادته. كنت أمر عليه في مكتبه في الصباح، وأشرب معه قهوة «الكاسجر»، وهي قهوة تركية يضاف إليها اللبن المغلي. أول مرة قدمها لي، قلت له أنها تذكرني بالقهوة التي كنا نشربها في محطة «الكاسجر»، ونحن في طريقنا بالقطار من الخرطوم إلى كريمة. فاطلق حامد الاسم عليها، وأصبح كل الموظفين في المكتب يطلبون من «عم شمس» صاحب البوذية قهوة «الكاسجر».

«أبو طارق» كان يزورني كثيرا في مكتبي. يقبل مني سجارة، وأحيانا يشرب معي الشاي بالنعناع. وكان يذهب من عندي ضاحكا في أغلب الأحيان. أت لثني عشر طفلا، ويسكن في مخيم من مخيمات اللاجئين. أستطيع أن اتصور العذاب الذي ذاقه. سائق ماهر حين يكون رائفا، ويعمل بهمة ونشاط حين يسخو. يثور أحيانا ثورات عنيفة. يوصلني إلى المطار، والسفارات للحصول على «الفيزات». كنت أعلم مما يقص علي أنه يعاني من اضطرابات نفسية، وكأية تشابه دون سبب واضح. إلا أنني أبدا لم اتصور أنه سوف يكون قاتلا، وسوف يقتل، دون سائر الناس، حامد الخواص، الذي أكرمه وعامله بلطف لعله لم يجده في أي أحد صانعه طفلة حياته.

وعجيب أن يحدث هذا أيضا في مكتب اليونسكو في عمان، هذا مكتب أقليمي يخدم الدول العربية جميعا. وكان أول مدير له في عمان، الدكتور محمد إبراهيم كاظم، وهو رجل من الأخيار الأفاضل. بعد تقاعده بقليل، أصيب فجأة بمرض خطير شفاه الله، وقد أخبرني «أبو طارق» أن ذلك حدث لأن كاظم «ظلمه»، وأنه لن يشفى إلا إذا زاره هو في القاهرة وعفا عنه.

لم أأخذ مثل هذا الكلام مأخذ الجد، فقد كنت أعلم أن «أبو طارق» يحسن أن الحياة ظلمته، ومثل كثير من المظلومين، كان يواجه حقدَه ضد أناس لا صلة لهم بما حدث له. كان كاظم في الواقع كريما معه، وكذلك كان حامد الخواص مكتب عمان من أفضل مكاتب اليونسكو، يضم نخبة من جنسيات مختلفة، رجالا ونساء، كلهم أكفاء ذوو خلق ربيع، يعملون كأنهم أسرة واحدة. ويغلب على المكتب جو من التألف والود والبعد عن المراسم والشكليات، يرجع الفضل فيه إلى الدكتور محمد إبراهيم كاظم، ثم تعمق في عهد الدكتور حامد الخواص.

وفي الفترة القصيرة التي قضيتها معهم، حضرت اعراسا لمسلمين ونصارى، وحفلات استقبال ووداع، عزيت معهم، وسمرت معهم. أبدا لم يخطر لي أن هذا المجتمع الودود المسالم سوف يشهد حادثا مروعا، لم تشهده مثله منظمة اليونسكو طوال تاريخها من قبل. كانوا كل حين يجمعون التبرعات المناسبة ما، وأكثر ما جمعوا له «أبو طارق».

لا تقل أنه الموت، يضفي على بعض الناس شألة لم تكن لهم في الحقيقة. أبدا. كان حامد الخواص إنسانا نبلا مآدر الخصال بحق. كان عذبا مثل الماء السلسيل، فيه تواضع أهل السودان، ودمائة طبعهم وسماحتهم وزهدهم. حين يكونون في أحسن حالاتهم، من آل الخواص الكرام، من كبوشيه في

ديار الحمليين. كان محبا للناس ليس في قلبه درة من الحقد كان مهندساً معماريا، وكان مشغولا ببناء مدارس قليلة التكلفة من مواد محلية بسيطة، فأشرف على تنفيذ مشاريع في اليمن وفي الصومال وفي السودان وفي أماكن أخرى. مسافر أبدا، لا يقر له قرار. أقول له «يا زول، السفر الكثير دا بيكتلك». فيجيبني ضاحكا «الراعي وأعي». يقصد الله عز وجل. وفي الفترات القصيرة التي يفصلها بين الأسفار في عمان، يعمل صباح مساء، يظل إلى الخامسة والسادسة مساء دون طعام، ويعمل أيام العطل. يعمل في صمت وفي زهد، لا يهتم بالدرجات والترقيات.

وكان حينما د «أبو طارق»، إعطاء كثيرا من وقته وأسبغ عليه كثيرا من رعايته. كان «أبو طارق» يعمل سائقا مؤقتا وكان يمرض ويتعب كثيرا عن العمل. في كل مناسبة يجمعون له التبرعات. إذا ولد له طفل، إذا مات له قريب، إذا احتاج للعلاج. وقد رفضت إدارة المنظمة في باريس أن تضعه إلى الخدمة المستديمة، فبدل حامد، رحمه الله، جهدا عظيما، بل ذهب إلى باريس، وأقنع الإدارة أن يشبتوه ويمنحوه عدة علاوات استثنائية دفعة واحدة.

هذا حدث منذ أقل من ثلاثة أشهر. كان «أبو طارق» لا تكاد الدنيا تسعه من الفرح. طاف بالمكاتب يضحك ويوزع الحلوى. وأكثر ما أسعده أن كتاب ترقينته جاء من باريس، وباللغة الإنجليزية، وتحت اسمه خط باللون الأحمر.

«شايك يا سيد طبيب. شايك أسني، صقر سكر». سعدت لسعادته، وقلت هذا إنسان لعله قضى حياته يبحث عن الاعتراف، فما هو ذا قد وجد. قلت له: «مش قلت لك أصبر؟ شايك نتيجة الصبر».

«أي والله. دكتور حامد طلع راجل. أوفى بوعده. قال لي يا بو طارق اعتمد على الله وعلى...» قال لي يومذاك إن حامد الخواص «أبوه» وملاذه بعد الله. لم أنتبه حينئذ، ولكنني أدرك الآن أنه حين جعله بمثابة أبيه، فقد اختاره لأمر جليل.

ثم قبيل سفري إلى أصيلة بالمغرب جاء بدعوني للغداء أخبرني أنه سيعمل وليمة في داره على شرف حامد الخواص. «لأرم تحضروا كلتم. الدكتور عبد الواحد يوسف والدكتور هاشم وأنت والباقيين. تشوفوا بيت أخوكم الصغير».

قلت له أن ذلك سوف يكون شرفا عظيما لنا، واتفقنا أن تكون الوليمة بعد عودتي، قبل عشرة أيام فقط. وكان حامد الخواص حيا مملوءا حياة. كيف أدا تحول الحب إلى حقد، والسرور إلى حزن، وحفل الغداء إلى صائم.

هل أقول إن حامد الخواص شهيد آخر في هذه المأساة الرهيبة التي يقتل فيها الأبرياء، دائما يقتل الأبرياء، وتختلط الأمور، فلا يميز الناس بين العدو والصديق.

ومن أعزني في حامد الخواص، هل أعزني أسرته وعشيرته الأقربين، هل أعزني السودان الذي أحبه حامد وأسرف في حبه، هل أعزني منظمة اليونسكو التي لن تجد أحدا مثله، هل أعزني عبد الواحد يوسف الوفي وهاشم أبو زيد اللذين عادا بجثمانه إلى مسقط رأسه، هل أعزني زملاءه وزميلاته في مكتب اليونسكو الذين بادلوهم ودا بود، هل أعزني أصدقاءه ومحبيه الكثيرين في عمان وفي غير عمان، في السودان وغير السودان، هل أعزني «أبو طارق» المسكين، القاتل المقتول الظالم المظلوم، لعله إذا اتفق من الكابوس المرعب الذي يعيش فيه، لعله يدرك، أنه قتل «أباه». وخسر سنده بعد الله ■



بقلم الطبيب صالح

فكرة تلبية، حولت بلدة معمورة، على بعد نحو أربعين كيلومتراً جنوب طنججة، على ساحل الأطللسي، إلى اسم دائم يتردد صدها في العالم، وملتقى سبواً بعد اليه الكتاب والشعراء والرسامون والموسيقيون من الشرق والغرب

ما كنت لأعرفها أو أزورها، لولا أنني قابلت محمد بن عيسى في الدوحة أواخر السبعين، عام ثمانية وسبعين أو تسعة وسبعين، رايت شاباً واضح الديكاء، ينفذ العيين، حسن السمات متدفق الحماس، تالفاً بلا مشقة، فالأرواح جود مجتدة، وقد اكتشفت فيما بعد،

أننا على بُعد الدار والمزار، نشأنا في بيتين متشابهين، وأخرنا في رحلتين في الحياة، متماثلتين رغم اختلاف النتائج.

عرفت منه أنه عمل لسنوات في منظمة الأمم المتحدة، وفجأة قرّر أن يستقيل ويعود إلى بلدته أصيلة، ويبدأ حياة جديدة تماماً. انتخب عضواً في المجلس البلدي، ثم ما لبث أن صار رئيساً له، وعُيّن لأصيلة، ثم أصبح نائباً في البرلمان. بهرني كل ذلك، وأحسست كما لو أن رواية موسم الهجرة إلى الشمال، قد انتهت نهاية سعيدة.

أول مرة زرت أصيلة، منذ أكثر من عشر سنوات، وجدت بلدة أقرب إلى القرى منها إلى المدن، سوقها مثل أسواق القرى في شمال السودان، وطرقها متربة، وماؤها شحيح، والتيار الكهربائي ضعيف متقطع، فيها فندق واحد صغير لا يكاد يفي بالحاجة الأدنى من متطلبات النزول. ومع ذلك، فقد كانت لها جانبية واضحة، بموقعها على البحر، وقعتها التي تقوم شاهداً على تاريخها العريق في مقاومة الأسبان والبرتغاليين.

غير بعيد من هنا في «وادي المخازن»، هزم المعاربة ثلاثة ملوك من ملوك الفرنجة، وأوقفوا المد الاستعماري الأوروبي في غفوانه البيوت في الحي القديم، لها طابع الحصن، ككل المدن الإسلامية المرابطة بكفى، بعضها على بعض، أزقتها ضيقة بحيث أنك تستطيع أن تمد يدك عبر الطريق متصافح يد جارك. رايت بلدة تطوي ضلوعها على ماضٍ تليد وأشجان بعيدة، مثل امرأة جميلة جار عليها الزمان.

لم يكن أي من ذلك غريباً علي، وقد صادف أول زيارة لي، يوم آخر رمضان، فصلبت معهم صلاة العبد، كأنني بين أهلي في شمال السودان.

الآن أصبح الماء دافقاً، والتيار الكهربائي متصلاً، الطرقات المربة تعطت بالأسفلت، وماحات الحي القديم وأزقتها، رُصفت بملاط جميل على هيئة الموج، من تصميم الفنان الكبير محمد المنجي، ابن أصيلة، ورفيق محمد بن عيسى منذ طفولته، وعونه في الضمان لنهضة المدينة، كذلك الكاتب الشاعر أحمد القفالي.

في نحو عشر سنوات، خطت البلدة خطوات واسعة، أصبحت مدينة جميلة، تتميز على كثير من المدن بالدوق والحس الجمالي الذي تشاهده في اللوحات الجدارية التي يتركها فنانون عالميون، تعبيراً عن حبهم لأصيلة، وتقديراً للوقت الجميل الذي قضوه بين أهلها. كذلك تلمس هذا الدوق في الكورنيش الواسع الذي يزينهم بعد العروب داخل البلد وزوارها. تمتلئ المطاعم والمقاهي وتعزف الفرق الموسيقية المغربية والوفاة في الناحية عند سفح القلعة بتقاطير الشباب المغربي، وبعضهم بعد من مراكش وماس والدار البيضاء وتطوان والرباط لحضور الندوات والمحاضرات في المركز الثقافي.

هذا مركز به قاعة كبيرة للمحاضرات والعروض السينمائية،

وقالري، لعرض اللوحات الفنية وغير ذلك. وقد بنى بدعده مالي من السلطان قابوس، سلطان عمان، وبشاً يوجد قصر للضيافة، كان بناء قديماً متداعياً، فزعم وأعيدت عمارته بتحويل من الحرس الشامي، ملك المغرب، وقد أخبرني محمد بن عيسى أن هذا الملك المستنير، يواصل دعم النشاط الثقافي من ماله الخاص، كلما أحس أنهم في ضائقة، أمدهم بالعمود دون إعلان، ودون أن يطلبوا منه في أصيلة اليوم عدة فنادق مريحة، يجد فيها الزائر كل ما يحتاج إليه، وفندق الضيعة، حيث تنزل وفود موسم أصيلة، فندق رجب، به حمام للسباحة، وغرفة نظيفة مؤثثة ببساطة، يمتلئ أغلب العاد بالسواح.

ليس من المبالغة القول، أن محمد بن عيسى، حقق في أصيلة شيئاً يشبه المعجزة، لقد حول الأحلام التي يكنسها الروائيون، والأفكار التي تلوكها الأسن في الندوات والمؤتمرات، عاماً بعد عام، إلى واقع محسوس، مزج بين الثقافة والتنمية، وضرب مثلاً بعيد الدلالة، كيف يستطيع مجتمع أن يهضج بجهد أبنائه وبناته، معتمداً على طاماته الإبداعية الكامنة، وهو مثل جدير أن يتامل المعكرون والدارسون، ففي الوقت الذي يبدو منه، أن الخطوط الشمولية والأساسية الثقافية في أحداث ثورات اجتماعية كبرى في العالم العربي، لم تات بكثير طائل، شاعنا تجربة أكثر تواضعاً وأعظم جدوى، لذلك يقول محمد بن عيسى، كل واحد يهتم بما حوله، يصلح ما يستطيع إصلاحه في حدود قدرته، كل واحد ينظف أمام داره.

هذا هو السلوك الذي حضنا عليه ديننا الحنيف، فنبشناه فانساناً الله أنفسنا، ونخلنا فحالت بنا الذلة والمسكنة، لا يغير الله ما يقوم حتى يغيروا ما بانفسهم، كلكم راع وكلكم مسؤول عن رعيته.

واضح من الآية الكريمة ومن الحديث الشريف، أن الهدف لا يتحقق بالأكراه والقيهر، ولكن بأن يتحرك الناس بعلم حريتهم ومحض إرادتهم، كذلك كان الأمر في البدء، ولا مناص أن يكون كذلك اليوم.

في أثناء ذلك، قام محمد بن عيسى برحلة جريئة في إعادة اكتشاف ذاته والعودة إلى جذوره، طالما حلم بقطنا الشعراء والروائيين وأما واحد منهم، وعجيب أن عودته كانت إلى بلدة نسمى «أصيلة»، شاجر إلى مصر أوائل الخمسينات طلباً للعلم، وكان المغرب في قمضة الاستعمار الفرنسي والأسباني، تعبت وعاسي، كان يعود إلى المغرب فيجمع بعض المال من العمل في إذاعة طنججة، ثم يرجع ليواصل دراسته، وبعد ذلك سافر إلى الولايات المتحدة لمزيد من العلم، أيضاً كان يدرس ويعمل، وتزوج من أمريكية، وحال تخرجه التحق بالعمل في منظمة الأمم المتحدة، حيث صعد السلم الوظيفي قفزاً، وأصبح مديراً في منظمة الغذاء والزراعة وهو في أوائل الثلاثينات من عمره، وقد عمل مدة في أفريقيا وكور صلات واسعة مع زعمائها ومفكرها، وتعمقت اهتماماته بأحوال الشعوب السوداء، الأمر الذي ترك أثراً عظيماً في نفسه، وظهت نتائجه في عمله الثقافي في أصيلة.

ثم فجأة، كما أخبرني، استقال من عمله، وكان في أوج نجاحه قرر أن يعود أدراجه إلى نقطة البدء، اشترى ثمانية آلاف دولار داراً خربة في الحي القديم، حيث ولد ونشأ، أعاد بناءها حسب تصميم صديقه الفنان محمد المنجي.

حدثني محمد بن عيسى، أنه استيقظ ذات ليلة على طرق حاد وصوت ينادي باسم أمه، قال

«أدركت فجأة أنني بنيت داراً بجوار قبر أبي، طلق زوجته الأمريكية، وتزوج من سيدة من أسرة عربية في ماس، أنشأ أسرة جديدة وبدأ حياة جديدة وهو في الأربعينات من عمره، وقد ارتطمت راحته الذاتية ارتباطاً وثيقاً بعمله الدؤوب لنهضة مسقط رأسه، ثم يعطانه للعرب بأسره، بوصفه وزيراً للثقافة»

رواية



بقلم الطبيب صالح

في كل موسم من مواسم أصيلة، يحدث شيء طريف بلغت الانتباه. في هذا الموسم الثقافي الرابع عشر، حدثت عدة أشياء مهمة. عقدت ندوة عن جذور الفكر العربي المعاصر وأي دور له في المستقبل. واستضيف الكاتب البرازيلي (جورج أمادو)، وهو في نظر الكثيرين واحد من عظماء كتاب الرواية في هذا العصر، ويعتبره البعض. وأنا منهم. أعظم الكتاب الأحياء في أمريكا اللاتينية. وقد ترأس ندوة عميقة الإشارات والدلالات، عن التمازج الثقافي في البرازيل.

وأيضا تم في احتفال كبير تقديم جائزة (تشيكايكا أوتامسي) في الشعر الأفريقي، للشاعر (ريني دبستر). هذا بالإضافة إلى ندوة عن المرحوم يوسف دريس. فلأبدا بالحدث عن تشيكايكا أوتامسي.

كنا زملاء في منظمة اليونسكو في باريس طيلة خمس سنوات. تعرفت عليه في أول شهر، فلم يكن التعرف على تشيكايكا صعبا. كان نوعا من الناس، يجعلك تحس أنه يعرفك، وأنت تعرفه، منذ وقت طويل. لعلني تعرفت عليه عن طريق المهدي المنجرة أو محمد عزيزة أو محمد بن عيسى. كان محمد بن عيسى أول ما يصل إلى باريس، يتفقد أصدقاءه وجميعهم حوله، ويكون بينهم دائما هذا الشاعر الذي يحمل قلبه على راحتيه، يضحك كثيرا ويطوي ضلوعه ولا شك، على حزن بعيد الغور.

أتذكره ضيق الصدر بالنظم البيروقراطية في اليونسكو، نحن إلى التفرغ لكتابة الشعر. ولعله كان يحلم أن يبني دارا في أصيلة، في الحي القديم، بجوار صديقه محمد بن عيسى. وكان قد أخذ في تعلم اللغة العربية، يتحدثها بلكنة حلوة، ويضحك أثر كل عبارة ينطقها. لم أكن قد قرأت شيئا من شعره تلك الأيام، فقد كان يكتب باللغة الفرنسية، التي كنت قد بدأت اتعلمها لتوي، لكنني كنت أعلم أنه شاعر كبير، يحظى بتقدير واسع حتى في فرنسا.

يقول محمد بن عيسى في كلمة مؤثرة القاها في رثائه في أصيلة عام ١٩٨٨:

«كالطفل في مواسم أصيلة، كان من الرواد الأوائل، قدم إليها في الموسم الأول راكبا حمارا، حيث لم يكن في أصيلة وقتئذ وسائل مواصلات من محطة القطار إلى المدينة.

قدم إليها بانسانية جميلة ترعرعت مع المواسم. سكن في الفندق الوحيد في السوق. كان يخرج كل صباح ليحمل الماء من البئر حيث لم يكن في الفندق ماء (٠٠٠) عرفته عن طريق صديقنا المشترك المهدي المنجرة. عشنا معاً كل الأفراح والأفراح. بعد ذلك احتل أصيلة. دخل ليسكن بيوتها كواحد من أهلها (٠٠٠).

وبعد أن اختطفته يد المنية، كان لي ولصديقي المهدي المنجرة بتكليف كريم من صاحب الجلالة الملك الحسن الثاني، الشرف في توديعه إلى مثواه الأخير (٠٠٠) وصاحبنا في «بوانت نوار» في رحلته إلى المقبرة الجميلة، حيث يرقد جثمانه قرب المحيط. وقال لي صديقنا المهدي أنها امتداد لشاعرية تشيكايكا على المحيط الأفريقي من أصيلة إلى «بوانت نوار».

يا له من عمل متحضر حقاً، أن ترسل دولة وفداً رسمياً لتشجيع جثمان رجل ليست له أي صفة رسمية. شاعر وحسب. ولا بد أن ذلك أسعد تشيكايكا حيث هو في العالم الآخر. إلا أن تكريم أصيلة للشاعر لم يفت عند ذلك الحد، فهذا العام افتتحت حديقة جميلة تحمل اسم تشيكايكا أوتامسي في الباحة أمام القلعة، في احتفال حضره ضيوف موسم أصيلة، وكان بينهم (جورج أمادو). وفي وسط الحديقة شيد نصب من الرخام، حفرت عليه أبيات من شعر تشيكايكا. وقبل ذلك أنشئت جائزة للشعر الأفريقي باسمه.

أنني أذكر كل ذلك، أحس بتقدير عميق لدولة المغرب ووزير ثقافتها الموهوب، إلا أنني أحس أيضاً ببعض الأسى، حين أفكر أن قليلين حتى في السودان، يعرفون ابن ثوي جثمان الشاعر العبقري التيجاني يوسف بشير، الذي يرقد في قبر معمر في أم درمان، ولم يخطر لأحد أن يسمى شارعاً باسمه أو يفعل أي شيء يمجّد ذكره. وقس على ذلك. والثورات تشب وتخدم. فهذا مثل جميل آخر يضربه المغرب الكريم، غسي أخواننا في السودان وفي غيره من ديار العروبة والإسلام، ينسجون على منواله.

هذا، ونقول ندوة عن حياة تشيكايكا، في كتيب صدر عن المنتدى الثقافي العربي - الأفريقي بأصيلة، أن تشيكايكا ولد عام ١٩٢١ في بلدة «سبيلي» في الكونغو - برازافيل. وكان والده فيليكس تشيكايكا، من زعماء الكونغو البارزين، وكان عضواً في الجمعية الوطنية الفرنسية.

لم يلبث تشيكايكا أن هجر الدراسة في فرنسا، حيث وصل عام ١٩٤٦، وأنصرف إلى كتابة الشعر. وكان يعيش من عمله في مهن صغيرة، فعمل حمالاً وبواباً في مطعم وعاملاً في مخزن وعاملاً في مزرعة. وفي عام ١٩٥٥ صدر ديوانه الأول «الدم الفاسد»، يحمل اسمه الكونغولي الخالص الذي عرف به، «تشيكايكا أوتامسي». بدلاً من الاسم الأوروبي الهجين «جيرالد فيليكس تشيكايكا»، وهو عمل، على بساطته، يلخص روح الشاعر، في حياته وفي شعره. الحنين إلى الجذور والتسرد على التزييف والوجه المستعار.

ظل يكتب الشعر، ويعيش كيفما اتفق، لا يبالي أي حرفة يحترف. وسرعان ما ظهر ديوانه الثاني «نار الادغال»، الذي أحدث صدى كبيراً. وفي عام ١٩٦٦ نال جائزة الشعر الكبرى في المهرجان العالمي للغنون الزنجية بكنار، على ديوانه «موجز: مداخل فهرست العشق».

ترجم شعره إلى لغات عدة وشرح أكثر من مرة لجائزة نوبل. وحين فاز بها الشاعر النيجري وولي شويكا عام ١٩٨٦، قال أنه يعتبر تشيكايكا أوتامسي شريكاً له في الفوز ■

(المحدث بقية)

نحو أفق بعيد

يقصد، لن أذعن و لن أرضخ و لن أهدأ و لن أقبل و لن أعمل و لن أنسى و لن أسلو و لن أعبر و لن أهمل و لن أنهب و لن أحضر و لن أقطن و لن أسكن، وهلم جرا.

كذلك كل شاعر مع وطنه، وكذلك كان حال تشيكايا مع الكنفو.

يعود إلى حديث شربل داغر الحصف عن تشيكايا أوتامسي:

«حمل الكنفو معه «على ظهره، بضفته - الدم المتشطر، الدم الأسود» فصاحبه ذقات طيل زنجي بعيد، مثل أصوات الليل تنفثها دون جدوى، مثل صياحات الخسبة الدامية (...) الإنسان ينسى، يتناسى، يتحائل أو ينضح، أما الشاعر فيتعذب ولا يغفر أبداً.

قد لا يكون الشاعر متشأ أو أعمى، ألا أنه كائن حزين مؤكداً، حزين لما جرى وللاترياح الحاصل بين... وبين... كان حزيناً دون هواده مثل سبه منطلق.

إن شربل داغر يعرف ما يقول، وإذا تحدث عن تشيكايا فعلياً إن زهره السمع. هذا الشاب اللساني الموهج هو نفسه من بركات «أصليلة». ثمة تعرف على تشيكايا، وأحببه وأحب شعره، وترجم عن الفرنسية ديوانه «دم هاسد»، كما ترجم مختارات من الشعر الزنجي سوف تصدر قريباً. وهو أمر مفرح طال انتظاره في عالم العربية الذي يصدق فيه قول شاعر الليل:

أمة تسدد نيتي في سماءهم
تسدد نيتي في سماءهم
والزنج والأفارقة، اهلمكم ونووا أرحامكم أكثر مما تتصورون! هذا وقد حاول تشيكايا أن يستقر في الكنفو، ولكنه لم يفلح. وهجره أثر الأحداث المأساوية على عهد باتريس لومومبا. ومنذ عام ١٩٦٠ عمل في منظمة اليونسكو إلى أن أحيل إلى التقاعد قبل وفاته. وكان ذلك من مائر أحمد مختار أمبو، مدير عام اليونسكو السابق، الذي فتح أبواب المنظمة لمبدعين ومفكرين من أفريقيا وبقيّة افطار العالم الثالث، كانت مغلفة في وجوههم قبله. وهو رجل يصدق فيه قول الشاعر القديم:

أصاعوني وأي منى أصاعوا
ليوم كسريه وسدداد شعر
هكذا ترى يا أصلحك الله، إن مبعث حفاوة محمد بن عيسى بهذا الشاعر الكنفولي الشابة، بالإضافة إلى التقدير والمحبة، ولكن أيضاً لتحقيق غاية نبيلة ما أكثر ما تحدثوا عنها ولم يفعلوا شيئاً، ألا وهي شد العرى بين أفريقيا السوداء والعالم العربي، عرى الروح والفكر والثقافة والفن. وهي بحق قارة شقيقة لعالم العرب، وتلقى منهم ما يلقي الأصدقاء. في غمرة هذا الاتصال، لا يملك المرء إلا أن يترجى إنشاء دولة العرب ووزير ثقافتها الذي أنشأ في وقت مبكر ضمن موسم أصليلة الثقافي «المنتدى الثقافي العربي - الإفريقي» ويشترك في رئاسته الرئيس الشاعر ليوبولد سيدار سنغور والأمير المفكر الحسن بن طلال ولي عهد الأردن. وكان شيكايا من أعضائه الذين أسهموا فيه بحظ واف.

أسمع يا صديقي إن استطعت، مناجاة خليك الشاعر العربي، الذي هو أيضاً «يحمل وطنه على ظهره»

«ما زالت في مقهانا الساهر حد البحر زوايا
تسالنا عن وعد آخر
عن مائة شعر

عن قصص وحكايا
عن بيت في غابات الكنفو عن نهر يشدو لرباهما
تسالنا إن لا ننسى موعدنا القادم في الصيف القادم
تسالنا عن غربتنا البقظي في الزمن الغائم
عن ألم أسود نحيا
وتابي إن نرت في لجة مرماه،
أتحليك طربت لقوله «تسالنا عن غربتنا البقظي في الزمن الغائم، بل، لقد أحيس. وأنه لأمر عسير كما تعلم، أن نصحو والزمان معتل ومختل ومملوح... ونائم»

(للحديث بقية)

في قصيدة رائعة تهز
الوجدان بحق، يقول الشاعر
الكبير بلند الصيدري في لقاء
تشيكايا أوتامسي:

«يا من أحيت بوضحك كل
الأرض
لا تغض
فأصيلة قد كثرت... صارت
أجمل من كل صبايا
الدنيا
وأصيلة أذ تحيا... نجيا
صارت تفهم سر الدفعة
والضحكة في عينيك
وصارت تعرف من قطع كل
أصابعي العشر
ومن اللقي في النهر بعفري
ومن داس رؤيا
صارت تكتب شعراً... ترسم



بقلم الطبيب صالح

تعرف كيف تغني ولن استغني
حفظت كل حكايات الانسى
وكل حكايات الجن
وصارت شيئاً منك وشيئاً مني
وصارت تعرف أن العم تشيكايا من بعض صباها
تؤمن أن تشيكايا لن ينساها
لكن تشيكايا
لوح لي ولها ومضى في العتمة حتى أقصى
أماها.

ما أجمل قوله «صارت شيئاً منك وشيئاً مني»، وذلك كما ينبغي أن يكون، وقد صدق الشاعر. بل انني لا أعرف مدينة عربية تعرضت لما تعرضت له «أصليلة» من ثقافة وفكر وفن. وإذا تجد عواصم عربية كبرى لا يميز أهلها هل أنت من اليمن أو عمان أو السعودية أو السودان، ها هنا، الناس في الأسواق والمقاهي والفنادق، يعرفون الكتاب والشعراء والفنانين باسمائهم. هؤلاء الشبان والشابات الذين يستقبلون الضيوف ببشاشة لا تكلف فيها، ويرثون شؤون أقاتهم وتنقلاتهم، ويعملون بسعادة واضحة، ويسألون ويحاورون ويناقشون، كانوا أطفالاً حين شرع محمد بن عيسى في تجربته الرائدة. كبروا الآن، وكبرت البلد معهم. بعضهم في الجامعات، وبعضهم تخرج وشق طريقه في الحياة، وبعضهم يواصل دراسات عليا في جامعات المغرب وخارج المغرب.

وكلهم ينكر تشيكايا أوتامسي، الشاعر الكنفولي، ذا الوجه الأبنوسي الوسيم، الذي كان السنوات مسسته برفق، فلم تجرحه بمخالبها القاسية كما تفعل الشعر والنحية وخطهما الشيب، والعينان العميقتان مفروقتان بالاحزان.

وفيم الأحران؟
يقول الكاتب الموهوب شربل داغر في كلمة جميلة مؤثرة عن تشيكايا:

«ألا أنه كان لا يني عن القول أن الشاعر مثل السلحفاة «بيته على ظهره»، كان يقول، ويعني ما يقول، أن وطنه أينما ينتقل، أي صورة الوطن فيه، أي غربته.

هذا يذكرني بتعبير إمام المفتريين، جيمس جويس:

«يا جنبي الأول والأخير، يا أرنلدا،
القسيس بك والقبصر،
مثل اليد في القفار،
أنني لن أذعن،
لكن هذه الترجمة، لا تحيط بالمرامي الشاسعة في عبارة جيمس جويس: I shall not serve

نحو أفق بعيد

أحاديث



بقلم الطبيب صالح

حين تقابل (ريبي دبستر) لأول مرة، تدهش لسببين على الأقل. لا تجد شاعراً كما يتخيل الناس الشعراء، ولكنك تلقى انساناً وبعاً يحتضن احزانه محلد كمن تظن المسافات الصحراوية بالماء

كنا في مبنى واحد في منظمة اليونسكو في باريس، في عمارة «ميوليس»، هو في الطابق العاشر وأنا في الطابق السابع رايت رجلاً مثل عرب موريتانيا او السودان او اليمن، اسود سحاراً، لانه هو ظل يؤكد في شعره انه زنجي، ولان الأوروبيين لا يرون من اللون غير البياض والسواد. الله اعلم من اين جاءه هذا اللون، كما يتعادل الشاي مع

الحليب مناصفة، خافت الصوت، وقور الحركات. ولكن انظر الى العينين. ثمة يكمن الشعر. الحزن، نعم، لا مفر من الحزن في عيني الشاعر الحق. وايضا اشياء اخرى. الكبرياء، والرفقة والاقدام والاحجام والحكمة والجنون، وما شئت.

... الا انني، مصاباً بحالة الشعر، كنت ابني بيتي قرب عصفور من الفريوس، حتى ان منحدراتنا ونيراننا تتلامس. كنت استمع في المساء لصديقي يطلب من رفيقة عشه اعداد حمام من الهرمونات الطازجة له. كنت اقبل مع هذا الثنائي برتقالاً واجنحة وصوراً بذينة وقصص الساحرات. كان يحدث لنا نحن الثلاثة بعد ظهر احد نهارات تشرين الاول، ان نرسم بالازرق احزان شجرة اللبمون الحامض الصديقه.

هذه الشراسة المهذبة لا تراها في عيني الشاعر من اول نظرة شيكايا اوتامسي كان شاعراً كما يتخيل الانسان الشعراء، متدفقاً حوله مثل عباءة فضفاضة. كان يضحك قهقهة، ويلعن منظمة اليونسكو علناً، ومع انني لم اره يبتكي، فاني اتخيل انه كان يبتكي بسهولة. اما هذا الشاعر الهاييتي، فهو بخلاف ذلك، من فصيلة محمد المهدي المحبوب.

لم ينلح المجر بعد في البيت
والخمين مستلق الى جاني
ينام، يستعيد قواه،
ذلك ان مصاحبة زيجتي
متعدد ورومانسي متعة

له خمس عشرة سنة او الف عام،
او ولد للثمن.
وما هو يومه الاول،
تحت السقف نفسه مع قلبي

منذ خمس عشرة سنة او منذ قرون
استيقظ من دون ان احسن التحدث
بلغة شمعي،
من دون مصاحبات اربابها الوثنيين،
من دون طعم خبرها من شتلة (المالبيهورت)

منذ خمس عشرة سنة او منذ عصور
دمي للشعر باكياً،
الحياة الاولى التي احييها عند استيقاظي،
هي هذه المبهولة ذات الحمرة النقية
التي تستنير عينا ذات يوم
من مرط استعمالها لعيبيها انحصاروين
وتعدادها للكثير التي اصعبتها

هذا، وقد جاء في كلمة محمد بن عيسى وزير الثقافة المغربي، في حفل تقديم جائزة شيكايا اوتامسي الى ريبي دبستر قوله:
«الفائز علم في سماء هذا الشعر، بعد ان نشر ما يزيد على عشرة دواوين وعددا من القصص والروايات والنحوت النقدية، وقد حظيت في حبيبنا وحتى ايامنا هذه باهتمام النقاد والقراء، حتى ان جائزة (ريبودو) المرموقة كرمته في عام ١٩٨٨ (٢٠٠٠).

الشاعر الفائز هو شاعر الحرية قبل اي شيء، وقد عانى من عذابات المنفى والسجن بعد ان طمع بعد افضل ومشرق لشعبه كما لشعوب القارة السمراء. بهذا الاحتفال نجتمع بين شيكايا اوتامسي وريبي دبستر، وبالتالي بين اطراف امريقتنا حينما كانت في العالم. كما اننا بتكريمه نسلط الضوء على رافد مهم في الشعر الزنجي - الافريقي، وهو القصيدة السوداء خارج افريقيا.

بدتشت ايضاً ان ريبي دبستر من (هاييتي) ذلك البلد الذي حوله الروائي الانجليزى (جراهام جرين) الى مبهزلة في روايته (الكومبيدون)، حكمة الدكتور السقاج (بابا دك) بخلط من السحر السدائي والدهاء الشيطاني وسفك الدماء بلا ادنى رحمة بواسطة زبانيته ال (تون تون مأكوت)، ويسار ابنه (بيبي دك) على طريقه النشع. ولعلك تعجب كيف ان شاعراً كبيراً مثل ريبي دبستر خرج من بلد مثل (هاييتي). وقد يخاطر لك ان (هاييتي) فطر تافه. تكون مخطئاً، وتذكره ان شعب (هاييتي) كان اول شعب اسود يثور ضد الاستعمار الاوروبي ويقيم جمهورية مستقلة عام ١٨٠٤. وحين تمنع المنظر في شعر ريبي دبستر، يتأكد لك انه لا يوجد شعب تافه. يوجد بعض الحكام التافهين احياناً.

ثمة ولد الشاعر عام ١٩٢٦، وقد اصدر ديوانه الاول (شرارات) وهو في التاسعة عشرة من عمره. وبعد ان لعب دوراً بارزاً في مقاومة النظام الديكتاتوري هرب الى كوبا، حيث اقام قرابة عشرين عاماً. ومن ثم سافر الى باريس حيث التحق بعد فترة بمنظمة اليونسكو، وقد عينه المدير العام احمد مختار امبو بمكتبه الخاص اول الامر. ثم عمل الى ان تقاعد عام ١٩٨٦ في قسم الثقافة، كان مكتبه في الطابق العاشر في عمارة (ميوليس) حيث سعت الى التعرف به.

بدا لي رقيقاً بل شتاً وأنا احاوره في تلك الصباح، وارهف السمع الى صوته الخافت، لكنني كنت اعلم ان مظهره الوبيع مظهر خادع، وان وراء ذلك ارادة مثل الغولان المطروق. والا فمن اين يجيئه مثل هذا الشعر؟

«المسكين دبستر»
قال رجل ذو عيني زائعتي
لماذا مسكين أنا؟
ليس العيش بعيداً عن الوطن
مضيق إلا من فاتهم قطار الطغولة الأزرق
قطار أيامي البهيجة
استقله دائماً كل صباح
على اصغر قشة

أسافر باستمرار طوع حذوري
حدائقي رطبة من قبلاتي الاولى
عجائلي ومرارحي وصوارخي
تعرف دروب الشعر السرية
ابها نهاية الرحلة
ليبق الجميع في الفطار
مما بعد حدود حياتي
تنقى مطاقات السعر سالحة
الحجر والعروب يسطار يعرج تحت فمي
حرراً اكثر استدارة من الحين.

• ترجم هذه القطعة لريبي دبستر وشعره المذكور في هذه المقالة، عن الفرنسية الكاتب اللبناني شربل داعر (للحديث مطبة)



بقلم الطيب صالح

حين يقرأ العربي أدب أمريكا اللاتينية، يدخل عالماً غريباً ومألوفاً لديه في الوقت نفسه. كأنه ينظر إلى نفسه في مرآة. كأنه يكتشف أشياء في ذاته كان قد نسيها. هذا لا يحدث له حين يقرأ الآداب الأوروبية

في أدب (أستورياس) و(بورخيس) و(فونتينس) و(أمادو) عوالم مثل عالمنا، تزخر بالحسوبة وتعج بالتناقضات، الأسان الفرد لا يفتقده الذكاء ولا سعة الخيال، ولا الطائفة على

العمل. ومع ذلك تجد المجتمعات على وجه العموم أقل من حصيلة قدرات الأفراد، في حالة غليان مستمر، لا تكاد تستقر على حال. ونحن نشترك وإياهم في التجربة الاستعمارية، والتراث العربي الإسلامي الذي أخذ إلى هناك، الأسبان والبرتغاليون.

أمريكا اللاتينية مثل أفريقيا، تهتما لعدة أسباب، ولا نعرف عنها إلا القليل. لذلك كانت دعوة محمد بن عيسى للكاتب البرازيلي الكبير (جورج أمادو) إلى أصيلة، مبادرة من مبادراته البارعة.

هذا عملاق من عمالقة فن الرواية في هذا العصر. ولد عام ١٩١٢ في مقاطعة (باهيا) في الشمال الشرقي من البرازيل، وهي المنطقة التي تجري فيها أحداث كل رواياته. وقد التحق عام ١٩٣١ بكلية الحقوق في (ريو دي جانيرو) لكنه لم يلبث فيها طويلاً، فقد قرر أن يتفرغ للأدب بعد نجاح روايته (أرض الكرفال) التي صدرت في العام نفسه. وفي عام ١٩٥٨، تأكدت شهرته حين نشر روايته (قابريلا - الكرفل والقرفة)، وهي رواية دأبت ذيوعاً واسعاً حين ترجمت إلى اللغة الإنجليزية. أنتج بغزارة، وزادت شهرته ذيوعاً، فقد حول كثير من أعماله إلى أفلام ومسلسلات تلفزيونية، وربما يكون هذا هو السبب أنه لم يزل جائزاً نوبل إلى اليوم، فقد ظل اسمه يتردد كمرشح لها منذ عام ١٩٦٢.

بلغت النظر في أدب (جورج أمادو) اهتمامه العميق بالتأثير الزنجي في البرازيل، حتى لتحسبه كاتباً أفريقياً مثل (أشيبى) أو (نقوى). بل هو في الواقع أكثر زنجية من بعض الكتاب الأفارقة الذين يكتبون باللغة الفرنسية أو اللغة الإنجليزية. تجد ذلك واضحاً في روايته (جوبيانا) ثم في روايته (خيمة المعجزات ١٩٦٩). وتعتبر روايته (الموت مرتين لكوكاس ووتريل - ١٩٦٥) من روائع الأدب المعاصر.

تجد في أدب (جورج أمادو) أن ارادة الانسان تنتصر على ظروفه، وأن يوسع الفرد أن يرتفع فوق عقبات الحياة التي تبدو مستحيلة أحياناً. وكثيراً ما تحدث المعجزات. وعالمه عالم متسامح، يغفر للناس أخطاءهم. قد تتحول فيه المرأة الساقطة إلى قديسة. وقد ابتدع

الكاتب نماذج لا تُنسى، كما في روايته (تيتادو أفرستي) لنساء تعلن ببساطة على ظروفهن البالغة التعاسة، وأصبحن ذوات هيبية ونفوذ في المجتمع.

بلغت النظر أيضاً في أدب (جورج أمادو) أن العربي عنده ليس إنساناً مخادعاً جباناً عادراً جنسها إلى آخر هذه الافتراءات التي تعودنا عليها في كثير من الأدب الأوروبي والأمريكي. وهو في أسوأ الظروف إنسان عادي كبقية خلق الله، عنده القدرة على فعل الخير والشر. بل أنه يفتخر بأنه ينتمى إلى التراث العربي الإسلامي الذي نقله البرتغاليون إلى البرازيل، وأن ذلك جزء من تكويبه الروحي، ويقول أن تاريخ أسبانيا والبرتغال، لا يمكن أن يغيب على الوجه الصحيح إلا بالرجوع إلى تاريخ العرب في الأندلس.

قل أن يسمع العربي مثل هذا الكلام من كاتب أوروبي أو أمريكي. لذلك أقول أنها كانت مبادرة موفقة من محمد بن عيسى أنه دعا (جورج أمادو) إلى أصيلة، وعقد ندوة عن التمازج الثقافي في البرازيل ضمن نشاط (جامعة المستند بن عباد الصيفية). إلى ذلك، نظم له وزوجته ومرافقيه جولة زاروا فيها طنجة والدار البيضاء وفاس ومراكش. في مراكش خاصة وجد (أمادو) ملامح واضحة للعالم الجديد الذي يدعو إليه، ويجد فيه خلاص الإنسان، مراكش تلك المدينة الحمراء الفريدة، بموقعها بين أفريقيا الزنجية ودنيا العرب والبربر وأوروبا إلى الشمال. وذلك الخليط البشري الجذاب المتعدد السحن والألوان.

كان هذا الكاتب العظيم حقاً مخلصاً حين قال لنا في أصيلة، أنه يعتبر أمريكا اللاتينية امتداداً لأفريقيا، وأن المحيط الأطلسي ليس حاجزاً بينهما، وأن يوسع الإنسان أن يلغى وجوده في خياله. وذهب أبعد، فدعا أن يغير اسم أمريكا اللاتينية إلى (أفريقيا اللاتينية).

وجد (أمادو) في المغرب أشياء كثيرة حركت وجدانه وأثارت خياله، وأكدت له صدق ما يدعو إليه. فهم أكثر من الاختلاط والتمازج وتوالد السلالات وتلاقح الأفكار والأخذ والعطاء بجرأة نادرة المثال، كل تلك أمور تميزت بها الحضارة العربية الإسلامية. بل هي أهم ما أعطته للتراث الإنساني. وإن بدا اليوم أننا ننحو نحو التطرف بدل الاعتدال، والتزمنا بدل التسامح، والجمود والصغار عوض الآفاق العقلية والروحية الشاسعة التي فتحتها العرب والمسلمون في تاريخهم، فما ذلك إلا لأننا نهنا عن منابع الصافية، وشرينا من أبار موبوءة المياه.

بلى، وقد صادف وجود (جورج أمادو) في أصيلة، بلوعة التاسعة والسبعين من العمر، فنظم محمد بن عيسى احتفالاً بالمناسبة كأنه عرس، انعكس ضوء التنوع على مياه النوافير في صحن قصر الثقافة الجميل. أنشئت جوقة الموشحات الأندلسية كما كانت تفنى ولا بد أنام محمد العرب في الأندلس. رقصت بنات أصيلة في ثيابهن المغربية الأخاذة. وجود عربية وبربرية وأوروبية وزنجية، ووجود مزيج من كل ذلك.

رأيت عيني الكاتب الكبير تفيض بالدمع، ولا أفن أنه سوف ينسى أبداً ■

(الحدث بقية)

نحو أفق بعيد

١٤٠



بقلم: الطيب صالح

والتمازج. أنجبوا أطفالاً غير شرعيين من النساء الزنجيات ونساء اليهود سكان البرازيل الأصليين. كان هدفهم إنتاج مزيج من الرفيق للعمل في حقول البن وفحص السكر. إلا أن هذا العنصر الخلاسي المولد جاء أكثر حيوية من البرتغاليين وأكثر ذكاء، بل وأكثر جمالا ووسامة. فلم يستطعوا أن يفرضوا سيطرتهم عليه مدة طويلة.

والحق، أن ما حدث في البرازيل وفي أماكن أخرى، نوع من المفارقة الحادة التي ما لبثت بقدما لدعاة التعوق العرقي والتفرد الحضاري. ظل البرتغاليون منذ عام ١٥٣٢ يجلبون إلى البرازيل الأقا من الزنوج الأرقاء من غرب أفريقيا، من قامبيا وسيراليون ومالي وساحل العاج وساحل الذهب وخاصة من أنجولا التي استعمروها ريثما لهذا العرض. وكان كثير من هؤلاء الأرقاء، كما يقول كاتب إنجليزي، مسلمين يعرفون القراءة والكتابة. وكانوا أكثر رقياً وتحضراً من ساداتهم البرتغاليين الذين كانوا أميين في الغالب.

وكما حدث للعنصر الأوروبي في أماكن كثيرة بدرجات متفاوتة، فقد عاش البرتغاليون في البرازيل النساء الزنجيات وأنجبوا منهن مزيداً من الأرقاء. ولكن هذا العنصر الجديد كما قال جورج أمادو، خرج يحمل «جينات» أكثر صلابة، ومصاربة على الحياة لا يملكها أسبادهم البيض. وكان حقاً أن يفقد البرتغاليون وضعهم المميز، ويذوبوا في هذا المحيط البشري الهجين. يقول جورج أمادو:

«في الموسيقى مثلاً، حين تستمع إلى «شيتور فلأ لويوس» أو إلى ملحنين أمثال «دورفال قايني» و«كايتانو فلوسو» و«كليتوتو جل»، تجد الأثر الأفريقي واضحاً. بلادنا فيها ثلاثة روافد ثقافية كبرى: البرتغالي الأوروبي الأبيض، رغم أن البرتغاليين لبسوا بسخاً تاماً، والأفريقي والمحلي. الثقافة البرازيلية هي جماع كل هذا. ثقافتنا صنعت في الفراش».

بدأ البرتغاليون تحرير الرقيق، بتحرير أبنائهم من أمهات مسترققات. وقد أصدروا عام ١٨٧١ قانوناً أطلقوا عليه اسماً عجيباً هو «قانون الرحمة الحرة». ولم يكن ذلك بدافع إنساني، ولكن لأن أسعار السكر في العالم كانت قد هبطت إلى مستوى جعل الاحتفاظ بالرقيق العاطلين في مزارع القصب أمراً ناشطاً التكلفة. وفي عام ١٨٨٥ أصدروا قانوناً بتحرير الرقيق فوق سن الستين. وفي عام ١٨٨٨ صدر قانون شامل

بتحرير الرقيق في ظل هذه الظروف القاسية نشأ كتاب وشعراء عظام من أصل زنجي، منهم الشاعر «كروزو داسوزو»، والكاتب الروائي «فلوسو هنريك دي ليمبا بارنو»، الذي تعالاه أعماله مشكلة الاضطهاد العنصري الذي تعرض له الزنوج والمولودون في مجتمع يعتبر نفسه أوروبياً. لا تيباً. وتعتبر روايته «المصير المحزن لبوليكاريو كوارسما»، ١٩١١، علامة هامة في تاريخ الأدب البرازيلي. وفي روايات «كليتوتو فريري»، تأكيد على عمق التأثير الأفريقي في الأدب البرازيلي، كما في روايته «السادة والعبيد»، ١٩٣٣. وهو مولد من الأقليم الشمالي الشرقي وهو الأقليم نفسه الذي جاء منه «جورج أمادو». وتجدر الإشارة إلى شاعر مولد من أصل عربي هو «كارلوس نجار»، يحظى بشهرة واسعة، ومن مؤلفاته «قصة للمواسم». هذا، ويقول العالم الكبير الدكتور عبد الله الطيب في إشارة جميلة إلى بيت عنتره العنسي:

بركت على حبّ الرباع كأنما
بركت على نصب أجش مهضم

يقول أن عنتره كأنما كان يصف صوته، ذلك لأن الناقة حين بركت على القصب أحدثت صوتاً كما تنفخ في مجموعة من النايات. نعم، بوسعك أن تسمع في هذا البيت، وفي كل شعر عنتره الخافل بالنبل والشجن، صوتاً كصوت المغني الأمريكي الزنجي العظيم «بول روبسن». هذه الأعماق والأبعاد جاءت إلى عنتره من أرثه العربي الزنجي.

ذلك أيضاً تجده في أدب «جورج أمادو». هذا الإنسان الأوروبي الذي يحمل روحاً زنجية. الكاثوليكي الذي يحتفي بتراث الإسلام. الأبيض الذي يتمنى لو كان هجيناً. المواطن البرازيلي من «باهيا» الذي اكتشف أشياء يعرفها ويحبها في «أصيلة»، في المغرب. يقول: «سوف يمضي الأدب البرازيلي في طريقه وفيه لخصائصه الأساسية ومحافظاً على التزامه بقضايا عامة الناس. في أدبنا وحدة عريقة منذ عهد شاعرنا العظيم «فريغوريو دي سانتوس». ذلك الرجل المولد من «باهيا»، لقد قاوم الاستعمار البرتغالي، وحتى في تلك الظروف العصيبة، رفع لواء الحرية وحارب في سبيلها. هذا التراث الذي وصل إلينا اليوم، يؤكد أن الأدب البرازيلي كان دائماً في خدمة عامة الناس».

في حوار أجري معه في باريس عام ١٩٨٧ قال «جورج أمادو»:

«أنا كاتب بسيط من (باهيا)، لا أعرف كيف أرقص أو أغني أو أقود السيارة، فقط أكتب. وأنا أكتب عن الأشياء التي أعرفها. أخذ من تجارب حياتي. منذ بدأت أكتب وأنا صبي، كنت أحس بتعاطف تلقائي مع الطقوس الأفريقية. وما زال. في البرازيل تعرض العنصر الزنجي والثقافة الزنجية إلى اضطهاد عظيم من قبل الكنيسة الكاثوليكية. كانوا هدفاً لضروب وحشية من الاضطهاد. اضطهاد على أساس العرق والدين والطبقة. وأنا كواحد من الذين قاوموا الاضطهاد باستمرار، فأنني أقف في صف عامة الناس. أقف في صف الثقافة الزنجية، في صف الجماهير الزاخرة التي يتكون منها الشعب البرازيلي».

في «أصيلة»، في شهر أغسطس الماضي، قال أمادو أن البرازيل أصبحت اليوم مثلاً يحتذى في التعايش السلمي بين مختلف الأجناس، والتمازج الخلقي بين الثقافات. وقد سأله كيف حدث ذلك، ولماذا في البرازيل بالذات، فقال:

«أنها معجزة». وبعد أن فكر قليلاً أضاف: «البرتغاليون رغم أي شيء، أمتازوا عن الأسبان والابجلوسكسون باستعدادهم العظيم للاختلاط

نحو أفق بعيد

١٤١



بقلم الطبيب صالح

ليستني كنت شاعراً مثل غازي القصيبي. إذا قلت شعراً في هذه المناسبة، ما أسرع ما نمر الأعوام. تغمض وتفتح فإذا عشرة أعوام، فإذا عشرون عاماً من عمرك قد ذهبت، لا تدري إلى أين وكيف ذهبت.

ويخيل اليك أنك أنت أنت، ولكن هيئات، أنني أذكر قصيدته الجميلة بمناسبة زواج ابنته. كان يتحدث بلسان الآباء جميعاً، كان سعيداً وكان حزينا، وهو يكون في أحسن حالاته حين يتراجع بين السعادة والحزن، الفرح لأن ابنتك قد كبرت وتزوجت، ولكن ماذا حدث لسنوات العمر، الطفلة شبت عن الطوق وذهبت إلى كنف رجل آخر. ولعمري أن في سررات الحياة المنسوبة بالاحزان، كعبيدها دائماً منسوبة بالاحزان، ما يغني الشعراء، خاصة الكبار منهم، عن مزالق الهجاء.

كنت وزوجتي نحضر حفل التخرج في كلية «قولد سميث» التابعة لجامعة لندن. لأن ابنتنا الكبرى (زينب) كانت بين المتخرجين، نادوا على اسمها فخرجت من بين صفوف الطلبة والطالبات في عبايتها الجامعية السوداء، والقبعة المستطحة ذات الذيل الذي يتدلى على الجانب. الفرح، نعم، كما أحس غازي القصيبي. شئت على المنصة واثقة الخطو، فيها طيبة السودانيين وعناد الاسكتلنديين، صافحها رئيس الجامعة وابتسم لها وابتسمت له، يا سبحان الله. هل هذه طفلة الاسم التي نعرفها؟

كان بين المتخرجين أيضاً ميسون ناصر، ابنة صديقنا بديم ناصر وزوجته مديحة المدفعي. كنا زملاء في شبعة

الإذاعة البريطانية. منذ متى ما أسرع ما نمر الأعوام.

إنما ليس هذا موضوع حديثي. كنت أفكر طوال الاحتفال الذي استمر نحو ساعتين، أفكر وأقارن وأسائل نفسي، لماذا هؤلاء القود على ما هم عليه، ولماذا نحن على ما نحن عليه، ما هو الذي عددهم وليس عدتنا، الذكاء، نحن ما شاء الله لا ينقصنا الذكاء، القدرة على العمل، في تاريخنا أدلة كافية على قدر استطاعتنا، الصموح، لعلنا أكثر طموحاً مما يحب، الحكمة، ربنا يكون هذا، لعلهم أكثر منا حكمة.

بدأ الاحتفال بأن عزفت الأبواق من موسيقي «مادل»، وسارت المواكب، موكباً في أثر موكب، موكب الرئيس، ثم مواكب العمدة، عمدة «لويشام»، عمدة «برملي»، عمدة «كرويدن»، عمدة «لاميث»، عمدة «مكسلي»، كل هذه مناطق في لندن لها صلة قديمة بهذه الكلية التي أنشئت أصلاً لخدمتها. مواكب تنبر خيالك وتدهش سمعك وبصرك، الموسيقي تصدح، وكل عمدة في زيه المميز، أمامه ووراءه حاشية يحملون شارات سلطانه العريقة التي توارثوها منذ قرون. كل شارة لها مغزى في ذاكرة الشعب، وكل خطوة لها معنى، فكان الزمان الذي ذهب لم يذهب سدى، وكان الماضي، تعاد صياغته في الحاضر ويفتد إلى المستقبل.

الحكمة، نعم، لعلهم أكثر حكمة منا. ساروا بتؤدة محسوبة على أنغام موسيقي «مادل»، موكباً في أثر موكب موكب الاساتذة وموكب الزملاء الفخريين. وارتقوا صفافاً فوق المنصة.

تحدثت أولاً عميد الكلية «مرفسر اندرو رذر فورده» بلكنة اسكتلندية واضحة، وأنا من زمن أحمل إعجاباً خاصاً بالاسكتلنديين. ناظر مبرسناً في وادي سيدنا «مستر فاركنس» لألح، كان اسكتلندياً. كان مريباً قاضلاً. يعجبني فيهم أنهم قبائل مثل العرب، وأن طبعهم فيه سباحة مثل العرب، وهم كرماء عكس ما يروج عنهم الإنجليز، وموسيقي «القر»، عندهم طليخة بالشجن خلاف موسيقي بقية أوروبا. وقد أخذنا عنهم. وأجاد فيها الجيش السوداني والجيش الأردني. وكانت فرقة الموسيقى في الجيش السوداني يضرب بها المثل، تعرف موسيقي القر كما تعرف في اسكتلندا. لا بد أنهم معترفوا الآن، كما خربوا سكة الحديد وجامعة الخرطوم والخدمة المدنية. وكسروا محطة السكة الحديدية في الخرطوم، وسوق الخضار وسوق اللحوم، بحجة أنها من مخلفات الاستعمار متى يفهم هؤلاء القوم أن الإشياء الحسنة التي تركها الاستعمار

هي ملك للشعب.

سير «والتر سكوت»، صاحب روايات «ويفرلي»، اسكتلندي، والشاعر العبقري الصعلوك «روبرت بيرنز»، اسكتلندي، أنه صاحب الأبيات الشهيرة التي اصنعت أغنية دانعة.

إذا انسان
قابل انساناً
سائراً في حقل الشعير،
إذا انسان
كلم انساناً

فهل لا بد أن يبكى ذلك الانسان،
كل النبات يعان لنسي بعيونين،
وأنا أسير في حقل الشعير

ولا يخفى، أن الانسان الذي كلمه الانسان، ليس انساناً بل انسانة. وقد اقتبس الكاتب الاسكتلندي «آر. آر. دز سالجر» من هذه الأبيات، عنوان رواية الشهيرة «صيدا في حقل الشعير». وقد ترجم بعض أخواننا كلمة Rye إلى «شوفان». وأنا شخصياً لا أعرف «الشوفان»، ولم أره، وما أفن إلا أنه «الشعير»، فكله عند العرب «شعير».

ذاك، وروبرت لوي ستيفنسن، صاحب رواية «جزيرة الكنز» اسكتلندي، و«هارولد ماخسلان»، آخر نهاية حكم بريطانيا اسكتلندي، وفوق هذا وذاك «توماس كارلايل»، الكاتب الشجاع الذي أنصف نبينا الكريم في زمن عز فيه الانصاف، اسكتلندي.

هكذا أحببت الاسكتلنديين إلى حد أن صار لي عندهم صلة ورحم، فهل أنا في ذا بال همدان ظالم.

بلادهم ذات طبيعة ساحرة، تتخللها البحيرات والخلجان التي يسعونها «لنجر»، واحدها «لنجر»، فهم ينطقون حرف «الخاء» مثل العرب. وقد كانوا فقراء مدفعين إلى عهد قريب، حتى وجد عندهم البترول والغاز في بحر الشمال، لذلك هاجروا زمراً وتفرقوا في البلاد فشب لديهم حين قوي إلى موطنهم الأصلي يظهر في أغانيهم كما عند اللبنانيين. وفي طبعهم ميل عظيم إلى العدل الاجتماعي ومناصرة المظلومين، وغالبيتهم العظمى تؤيد حزب العمال.

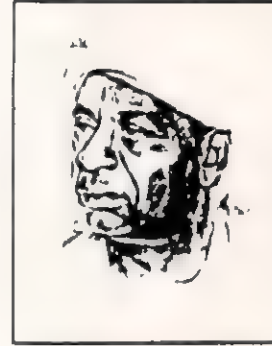
حاربوا الإنجليز حقاً قبل أن يتحدوا معهم، وعاصمتهم «أدنبرا» بقلعتها الضخمة ومعمار مبانيها الذي بنت إلى القارة الأوروبية أكثر مما بنت إلى الجزيرة البريطانية، تشهد على صلاتهم وقوة مراسهم.

جامعتهم الأولى، في «سانت اندروز»، لا تقل عراقية عن «أكسفورد» أو «كامبريدج»، وصحيفتهم «ال«سكسيمان» أكثر صحف بريطانيا رصانة، وأكثرها عدلاً وانصافاً في النظر إلى شؤون العرب ■

للحديث بقى

نحو أفق بعيد

١٤٢



بقلم الطبيب صالح

مباني كلية «قولد سميث» في منطقة «نيو كروس» العمالية في جنوب شرقي لندن، مثل البنت الجميلة التي تستعفي بشبابها عن الحلي والثياب العالية. غطت من الأبهة التي تفحصك في مباني الجامعات العريقة، مثل «أكسفورد» و«كيمبردج». تلك مؤسسات قامت في عهود الاقطاع وغلبة الطبقة الأرستقراطية والكنيسة، ففي معمارها أصداً من ذلك، انما جامعة لندن فهي وليدة علو نجم الطبقات العاملة، وكلية «قولد سميث» خاصة، يرتبط تاريخ مولدها ونشأتها بالتحويلات الاجتماعية الكبيرة التي تعرض لها المجتمع البريطاني منذ القرن التاسع عشر وإلى اليوم.

مدرسة الاقتصاد والعلوم السياسية، وهي أشهر كليات جامعة لندن، أنشأها «سدني وب»، كان أرستقراطياً، ولكنه احراز مثل كثيرين من تلك الطبقة إلى صفوف عمار الناس، انشأوا جمعية الفاسانيين التي كانت في العشرينات والثلاثينات من هذا القرن بمثابة العقل الذي غذى حزب العمال بالفكر. انضم اليهم الكتاب أمثال «بيرنارد شو» والعلماء أمثال «برفسر توني» العتيدي، وكان «سدني وب» وزوجته «بياتريس وب» من أقطاب الفاسانيين، وقادة الرأي في حزب العمال.

أيضاً كان «سدني وب» أحد الذين رعوا كلية «قولد سميث» منذ بدايتها المتواضعة. في عام ١٨٩١ اشترت شركة «قولد سميث» التجارية بخمسة وعشرين ألف جنيه، مباني كانت تستعملها البحرية البريطانية في اغراض التدريب وأنشأوا معهداً حددوا هدفه:

«تنمية المعرفة والقدرات الابداعية ومنح الصحة والسعادة للشبان والشابات الذين ينتمون إلى الطبقات العاملة والطبقات الفقيرة».

كان ذلك بلا شك، بدافع انساني، ولكن أيضاً بدافع غريزة البقاء والمحافظة على الذات، فقد بدأت الطبقات المحظوظة في بريطانيا تحس أنهم اساء ان يعطوا الفقراء والمساكين من فضول أموالهم طواعية، وأما ان الطوقان الجارف للمطالين بالعدالة الاجتماعية، سوف يفرقهم في وجهه.

فلت الشركة تنفق على المعهد من مالها الخاص، وكانوا يؤمنون ان يكون نواة لكلية جامعية تامة تستفيد منها مناطق جنوب شرقي لندن الفقيرة. وفي عام ١٩٠٤ قدموا الماني هدية لجامعة لندن مشترطين ان تظل تستعمل في الاعراض التعليمية.

هذا الحلم لم يتحقق الا في عام ١٩٨٨، بعد مفاوضات طويلة مع سلطات جامعة لندن، وجهود رجال وساء أذنان نوه بهم «برفسر رزفورد» في كلمته الافتتاحية. أخبرنا صدر «ميثاق ملكي» نص على ان تكون كلية «قولد سميث» (مدرسة)، اي كلية جامعية كاملة من كليات جامعة لندن.

فذلك الاحتفال كان مجموعة احتفالات كما قال العميد، ذلك الرجل الاسكتلندي الواضح، الذي تحس أنه يقول ما يعني ولا يبالي، وكان خطابه مزيجاً من الجد والهزل، والثناء والنقد، ووراء كل ذلك الحكمة في توخي المصلحة العامة. ذكر ان الاحتفال يصادف ذكرى مرور مائة عام على انشاء الكلية، وأنه اول احتفال بتخريج الطلبة، كما أنه احتفال بان كلية «قولد سميث» قد أصبحت كلية جامعية كاملة. واشاد بالدعم الذي قدمه «لورد وايتلو» للكلية، اثناء مفاوضاتها الطويلة مع سلطات جامعة لندن. وقد كان «لورد وايتلو» إلى وقت قريب نائباً لرئيسة الوزراء، وكان في نظر الكثيرين احق من تلك السيدة برئاسة الوزارة. كذلك اثنى على «لورد فلورز» للمساعدة التي وجدها منه، وقد كان رئيساً لجامعة لندن Vice Chancellor في الفترة التي كانوا يتفاوضون فيها مع الجامعة.

الا ان العميد لم يأل في نقد سياسة الحكومة ازاء الجامعات، وخاصة في عهد «مسز تاتشر»، وهي نفخة ظلت تتردد في ما تلي من كلمات. ومعروف ان «مسز تاتشر» ضيق الخناق على الجامعات وقترت اشد التقير في الدعم الذي تقدمه الحكومة لها. ذلك اثار حفيظة الاكاديميين، وهم أصلاً بحكم تقليد قديم لديهم، لا يكونون على وفاساق مع الحكومات خاصة حكومات المحافظين في هذا السياق، نوه «برفسر رزفورد» بالخدمة الاكاديمية

والاجتماعية المميزة التي تؤديها كلية «قولد سميث»، وقال ان بها اليوم ثلاثة الاف وخمسمائة طالب وطالبة يتلقون العلم في شتى فروع المعرفة، جاءوا من لندن ومن بريطانيا عامة، ومن أصاير كثيرة في العالم. هذا بالإضافة إلى ارب الاف طالب وطالبة في فصول «الدراس المستمرة». وقال ان الكلية حافظت على دورها القديم في تدريب المعلمين وفي تدريس الفنون، وقال ان بها اكبر قسم لتدريس الفنون في أي من جامعات بريطانيا.

فكرت وأنا استمع إلى الكلمات، وما تزال تترن في أذني أصداً موسيقى «شابل» التي كانتا تهيب بحشد ان يقدم، قلت، هؤلاء اناس احرار في بلد حر، كل واحد واثق من نفسه واثق من انتمائه لوطنه، مؤمن بأهمية العمل الذي يقوم به، لا يحس أنه اقل من الوزراء او رئيس الوزراء. كل واحد يقول بأمانة، في حدود اللباقة والكراسة ما يرى أنه الصواب. ان عاجلاً وان اجلاً تتلاقى الأفكار وتتفاعل وينتج فكر متجاسس يرضى به الناس ويرجمونه إلى عمل، الهدف هو المصلحة العامة، ولا هدف سواد.

وفكرت في السودان المسكين الذي انأخوا عليه بكلتهم منذ آمد. كل يجيء بخبيله وخيلائه ينادي بالاصلاح. ثم يذهب، فيهم يذهبون ثلثة ثلثة طال الزمان أو قصر. وتتلقت حولك فلا تحدد الا الخراب، هؤلاء قروا الآن ضربة لأزب ان يفتحوا جامعات جديدة، في كسلا وفي غطبره وفي شندي. الله اعلم أين، اسمعوا ذلك ثورة تعليمية. في اثناء ذلك خربوا الحاضرات القائمة اصلاً. خربوا جامعة الخرطوم العريقة فهجرها اساتذتها واصغر عشب مباديتها. وقرروا أيضاً كما ينطلق السهم الطائش وخلاف ما نصح به العارفون، ان يعربوا التعليم في الكليات العلمية مثل الطب والهندسة والزراعة، علماً بان هذه قضية معقدة لم يبت الخبراء في اسرها بعد، في منظمة اليونسكو وفي المنظمة العربية للتربية والثقافة والعلوم. عرب التعليم يا هذاك الله، ولكن خذ الاهمية واستعد الاستعداد. انما هكذا، فانك سوف تملا البلد حملة شهادات لن ينفغوك ولن ينفغوا البلد.

قارن يا اصلحك الله بين عجلة اصحابنا اولئك، وبين حكمة هؤلاء القوم. انتظروا أكثر من تسعين عاماً حتى يجعلوا كلية «قولد سميث» كلية كاملة بنص عهد ملكي، في نطاق جامعة لندن أما كان باستطاعتهم ان يفعلوا ذلك بين خمسة عين وانتباهاتها حسب هذه الاساليب «الثورية» وهم عديم المال والعدة والعتاد.

هل قلت الحكمة؟ بلى، لعنهم أكثر حكمة منا ■

نحو أفق بعيد

١٤٣



بقلم الطبيب صالح

الله اعلم ماذا حدث لتلك السيدة الجميلة الوجه التي أوفيت على الثمانين؟ لقد عرفتها وأبتسمت لي ذات يوم في مطار الخرطوم النجيين؟ من نواحي رفاعة أو الكاشين. أو لعلها من جهة أبعد شمالاً أو جنوباً. من «الجنيينة» أو «سار» من «المنعة» أو «الغدار» عرفتها لأنني أحببتها وأنا بعد طفل يقعد ويقوم، وحملت حبها وطوفت به في الأفق. ثم ها أنذا وقد تداعى البنبان وترعزت الأركان لم تجدي قبراً يسترك في ذلك البلد الطويل العريض. أجبروك على النزوح وقد حق لك أن تستقري وتستريح. لعلك تموتين وتدفنين في بلد بعيد، في أرض ليست أعطائك وجيرة ليسوا جيرانك. لك الله. والثورات تشب وتخدم، والعهود تجيء وتذهب.

...

نعم. قلت أن ذلك الاحتفال اشارني وحرك أشجاني، خصوصاً حين جاء وقت منح الزمالات الفخرية التي تعادل الدكتوراهات الفخرية في جامعات أخرى. خمسة رجال، كل واحد منهم بلغ شأواً في ميدانه، وكل واحد منهم قدم خدمة من نوع ما لكلية «قولد سمث».

ينادي الرئيس باسم الشخص الذي اختاروه للتكريم، فيقوم من مقعده ويقف متجهاً بوجهه إلى الجمهور في القاعة. وينادي الرئيس على اسم رئيس القسم الذي رشحه، فيقوم ويتخذ في تقريظ

الرجل وبيان الأسباب التي جعلت الكلية تمنحه زمالتها الفخرية. الموسيقي البارز «جاك براينر» حامل وسام الامبراطورية البريطانية OBE، ومن أشهر عازفي آلة «الكلاينت» في المملكة المتحدة. ترجع صلته بكلية «قولد سمث» إلى عام ١٩٣٣ حين التحق بها ليتدرب ليصبح مدرساً للموسيقى. كان يعزف مع فرقة معهد الدراسات المسائية. وكان أيضاً يلعب الـ «رأبي» مع فريق الكلية، ومثل كلية «قولد سمث» في مباريات جامعة لندن.

عمل مدرساً فترة، وحين شبت الحرب انضم إلى سلاح الطيران. وفي عام ١٩٤٧ اختاره «سير توماس ميتشام» عازفاً في فرقة «الفيلهارمونيك» الملكية، التي كانت قد أنشئت لتوها. لمع اسمه كواحد من أبرز عازفي الكلاينت في بريطانيا، وأصبح عازفاً أول في الفرقة السيمفونية لهيئة الإذاعة البريطانية، وأستاذاً في الأكاديمية الملكية للموسيقى.

إلى جانب اشتغاله بالموسيقى الكلاسيكية، اهتم بموسيقى الحجاز، وعزف مع فرق بريطانية وأمريكية. وقد أدى دور «السولو» للكلاينت أوائل هذا العام في الحفل الموسيقي الذي قدمته فرقة كلية «قولد سمث» في ذكرى عيدها المئوي، وعزفت فيه كثرثرون موزار، التي صادف أن مضى عليها هي أيضاً مائة عام منذ تأليفها.

فكرت في قومي رعاشم الله، غربي وشرفي السويش، وإلى الشمال منه والجنوب، حيث الأسوأ مثل الأفضل، كما قال أحد شعراء هؤلاء القوم، (ريدار كيلنج). ذلك، والرجل المحتفي به يستمع الثناء عليه في استحياء. رجل ربعة القامة في السبعين أو يزيد، ولكن كانه في الخمسين، أقرب إلى هيئة لاعبي كرة الـ (رأبي) منه إلى الموسيقيين. ولما فرغ الخطيب من تركيزه، اتجه نحو الرئيس، وانحنى كل منهما للأخر، انحناء لم تأخذ غير ثواني، ولكنها كانت حافلة بالمعنى. صافحه الرئيس وسلمته براءة زمالته الفخرية.

ثم.. الرأبي أنريل لورد فلورز، زميل في الجمعية الملكية، وعضو مجلس اللوردات. وقف رجل سديد القامة، فوق السبعين ولا بد ويبدو أصغر سناً. أخذ يصغي إلى رئيس قسم العلوم يعقد مناقشه، بانتباه وسعادة كأن ذلك أعظم شرف مثاله في حياته، رغم أنه نال أمجاداً كثيرة من قبل.

عالم «فيزيائي» خدم في جامعتي «بيرمنجهام» و«مانشستر»، كما عمل في قسم الأبحاث الذرية في «هارول». وفي عام ١٩٧٣ أصبح رئيساً للكلية الامبراطورية للعلوم، وهي من أشهر معاهد تدريس العلوم في العالم. ثم صار رئيساً لمجلس البحوث العلمية، ورئيساً لمعهد الفيزياء. وتوج حياته الأكاديمية

بان صار رئيساً لجامعة لندن. في تلك الفترة، كان له دور كبير في نجاح المفاوضات بين كلية «قولد سمث» والمجلس الأعلى لجامعة لندن، وحفل الكلية «مدرسة» كاملة في نطاق الجامعة. تعد تقاعده، أصبح له دور فاعل في مجلس اللوردات، الذي اختاره رئيساً للجنة المختارة لدراسة أوضاع العلوم والتكنولوجيا، كما ظل منذ عام ١٩٧٨، رئيساً لمؤسسة «فيلد» الخيرية.

ولم ينس الخطيب أن ينوه بالدور الذي يلعبه «لورد فلورز» على نطاق القارة الأوروبية، مثل عضويته للأكاديمية الأوروبية، وأنه يحمل وسام الشرف من فرنسا.

كيف لم ينو كاهل هذا الرجل تحت ثقل الأحمال التي يحملها والأعباء التي نهض بها؛ بحق له إلا أن يرتاح. ياوي إلى مزرعته في الريف، يربي الأنصار ويلعب الـ «جولف» ويقرأ روايات «آقانا كريستي». لكن هذا لن يحدث، هو الآن في قمة تضجعه العقلي، وسوف يحملوه أعباء أكثر في خدمة المجتمع. أناس أحرار في بلد حر، وكل يعطي حسب قدرته على العطاء، لا يمنع عن ذلك إلا حدود موهبته.

كم من الرجال والنساء. قلت لنفسي. حبل بينهم وبين خدمة أوطانهم وهم في ذروة العمر ضباط في الجيش قتلوا أو سجنوا أو أحيلوا للتقاعد معلمين أزعجوا على ترك وظائفهم سفراء استغنى عن خدماتهم ظلماً فتحولوا إلى تجار، موظفون انفقوا زهرة أعمارهم في الخدمة المدنية فالتقى بهم كما تلقى القمامة. أساتذة في الجامعات أضطروا على الهجرة اضطراراً فتشتتوا شرقاً وغرباً.

أكثر ما حدث في هذا السودان المسكين، ذلك البلد الغني الفقير، العظيم الصغير. وكل ذلك بسبب هؤلاء «الرعاة»، النجباء، الأذكى الأغنياء، الذين يتوهمون أن إرادة الله قد اختارتهم ليكتبوا الصيغة النهائية في سفر التاريخ. من الذي يبتلي لك المستقبل يا هداك الله، وأنت تدبج الخيل وتبني العرياء، وتبني الأرض وتحبي الأقات؟

المستقبل لن يجيء على صورة محددة. أما علموك ذلك في جامعات لندن و«هارفرد» و«سوربون»؟

الأوطان لا يبنيتها رجل واحد ولا حفنة رجال، مهما بلغ منهم الانبعاث والعقوبة. ولكن يبنيتها مئات الآلاف من الرجال والنساء. ناس أحرار في وطن حر. كل يعطي على طريقتيه وقدره. استطاعته. المستقبل بيد الله. المفتاح ليس بيدك، وأنت لا تدري ويعينك العرور والكبرياء أن تعترف أنك لا تدري ■

• أعطان الأبل، مرابعها

(استدعاء)

نحو أفق بعيد

١٤٥



بقلم الطبيب صالح

اول مرة زرت مدينة «نيويورك» كانت في عام ١٩٦٠، أرسلني القسم العربي بهيئة الإذاعة البريطانية لأصف وقائع جلسات الجمعية العمومية للأمم المتحدة، في تلك الدورة التاريخية التي حضرها أغلب زعماء العالم. أذكر وصولي من لندن قبيل الغروب، وأذكر احساسي بالغربة وأنا أنظر الى لون الشفق. لون بين البنفسجي والأرجواني والاحمر، كأنك تنظر الى رسم سوربالي. كأنه لا يأتي من جهة بعينها، فلم أستطع أن اسير أين الشرق وأين الغرب، وهل ثمة شروق أم غروب.

هل كان اسم المطار «ايدلوايلد» في تلك الأيام؟ لم يكونوا قد أسموه مطار «جون اف كيني». لم يكن «كيني» قد صار رئيساً بعد. كل تلك الأحداث المأساوية لما نزل في طيات الغيب. أحس بعير قليل من التوجس بعد رحلة طويلة عبر المحيط الأطلسي، وفارق الوقت، والزمن كأنه لا يتحرك، وصورة «أمريكا» في ذهني فوضي، خليط من انطباعات غير مترابطة.

من الكتب. كنت قد قرأت كثيراً بالطبع في الأدب الأمريكي. روايات «شتاينبك» و«همنجوي» و«سكوت فيتزجيرالد» و«سالنجر» و«فولكنر». خاصة «فولكنر» و«الشعراء» و«النثر» و«النثر» و«روبرت لويل» و«روبرت فرست». كنت وما أزال شديد الإعجاب بـ «روبرت فرست»، والمسرح. قرأت وشاهدت على مسارح لندن أعمال «يوجين أونيل» و«آرثر ميلر» و«تينيسي ويليز» و«النقاس» و«امسوند ولسن» و«ليند ترلينج» و«ماري مكارتني». والكتاب السياسي خاصة «والتر ليمان» و«برفسر كينان».

قرأ ذلك كله. تلك الصورة الزاهية التي انطعت في ذهني وأنا بعد صبي، من قراءة الطسعة العربية من «الريدز دايجست» التي كانت تصدر في الأربعينات باسم

«المختار». كنت انتظر صدورها لا اكاد أقوى على الصبر، أذكر من مصروفي القليل، لاستيربها كل شهر. كان يترجم المقالات عن الإنجليزية كمار الكتاب في مصر. أمثال ابراهيم عبد القادر المازني وأحمد زكي وهواد صروف، وربما العقاد أيضاً. انني أذكر شكلها الجذاب، بين الكتاب والمجلة، والرائحة العذبة النافذة حين تأخذ في قلبك أوراقيها، والمواضيع الطريفة المتنوعة. واللغة. انني ما أزال أذكر بعض العبارات التي انجذرت في ذاكرتي حفرًا. مثل قول «النس كارل»:

«ليس الشباب زماناً من أزمنة الحياة، بل هو شعور في النفس وراحات في العزيمة وتوقد في الخيال، وغلبة شهوة المعاصرة على حب الراحة....»

كنت أنتفض طرباً وأنا اقرأ مثل هذا الكلام. وأنا بعد صبي، وكانت عبارات مثل عبارة «شهوة المعاصرة» تحدث بليلة في وجداني. أنا الطفل المرهون بأصاقي وادي النيل.

كانوا يقدمون عالماً مزيجاً من الصدق والكذب. كما أدركت فيما بعد. عالماً مغرباً بسودة العدل والحب والسعادة. يتحول فيه الفقراء بجهدهم ومخابرتهم الى أغنياء. يتغلب الناس على الصعاب، لا يجد شيء من طموحهم. عالم مرح متفائل. وكانوا يقدمون في كل عدد ملخصاً لكتاب بسمونه كتاب الشهر. أذكر كتاباً عن حياة «فلن كتر»، تلك السيدة الكعكة الصماء التي لم تمنعها عاشاتها أن تتعلم ويصبح لها شأن. وكتاب اسمه «لوبو ملك الذئاب»، وكتاب اسمه «الملكات بعن كريمة» عن الأعمال (البطولية) لقاضيات القضايل الأمريكية في المحيط الهادي في الحرب العالمية الثانية وكتاب «أكسل ميني» الشهير «قصة سان ميشل». قرأت الكتاب باللغة الإنجليزية فيما بعد، وزرت «قلعة سان ميشل» في نورماندي، التي يقال انها أوجت لأكسل ميني بالكتاب، وعينها حاولت أن استرجع المنفعة التي وجدها من قراءة الملخص في مجلة «المختار».

ثمة سمعت لأول مرة عن «مارك توين» صاحب القصص الرائعة عن مغامرات «توم سوين» و«هكنيري فن». وعن «أمرسن» وهو توين، و«جك لندن». كانت «المختار» زويدة ثقافية بحق. لقد عادت الآن الى الصدور بعد أن كانت قد توقفت زماناً، ولا أعلم كيف هي الآن، وهل الأجيال الجديدة يقبلون عليها بشغف كما كنا نفعل. ولعل الأمريكيين لا يدركون أي رصيد من الإعجاب تجاه بلدتهم صنعتهم تلك المجلة لدى مئات الآلاف من العرب، وهو رصيد ظلت أمريكا تحبده بقسوة منذ عام ١٩٤٧ وإلى اليوم.

ضع الى جانب هذه الصورة المشرفة، صورة أخرى بدأت تتكون لدي بعد مجيئي الى لندن. الإسلام عن العنف والمافيا والأجرام. والأنباء في الصحف الإنجليزية عن حواشي الخطف والنهب المسلح. وخاصة في مدينة «نيويورك» حيث لا ينام الإنسان أن يسير في صبح النهار، حسب تلك الروايات.

مثل تلك الأحاسيس المتضاربة أتجهت الى جاري في الد (بحر). رأيت رجلاً ضخماً لا يكاد المقعد يتسع لحسنه، صارم الوجه، تناماً مثل مجرّد في قلم عن «ال كابون» صدمني المفطر وكندت أحجم عن السؤال. ولكنني تماسكت، كما افعل، ومضيت قدماً «معذرة». هل تعلم كيف أصل الى هوتيل (بلتمور)؟

أدخلني في ورطة حين قال علي الفور: «انني أنزل في هوتيل قريب منه. سوف أوصلك اليه».

عجبت لصوته. كأنه لا ينتمي الى ذلك الجسم. صوت رقيق مهذب فيه لثقة خفيفة. ربما تكون إسبانية.

كانت الشمس تؤذن بالغروب حين حبطينا من الد (بحر) في (مانهاتن). الغروب أو الشروق أو لعلها غربت بالفعل أو شرقت. لا تدري. إنما ذلك الضوء العجيب ينعكس من الزجاج، مساحات شاسعة من الزجاج، من المباني العملاقة التي حشدت في ذلك الحيز الضيق. أي خيال مجبور فعل هذا. ولماذا. والضوضاء والزحام. كانت في كوكب آخر.

قلت للرجل: «هل تأخذ تاكسي؟» «لا داعي لذلك. هوتيل «بلتمور» على بعد خطوات من هنا».

شكرته على لطفه ولكنه لم ينصرف، بل انتظر حتى انتهت إجراءات تسجيلي وصولي. وأعطوني مفتاح غرفتي. قلت له: «أنا حقا مسكين لك. أشكرك على مساعدتي. أظن انني سوف أنام مبكراً لأن أمامي غدا مهمة شاقة».

«عندك وقت كاف للراحة. سوف أتركك الآن وسوف أزعجك في الساعة التاسعة. يسعدني أن تقبل دعوتي للعشاء».

أي ورطة هذه؟ العشاء مع واحد من جماعة «ال كابون» ولكن «شهوة المعاصرة» الذي تغلبت على أبتشار السلامة، وقلت فليكن. وصلنا مطعماً في شارع شديد الاتساع، أوسع حتى من «الشارليزي» في باريس. عرفت من الرجل انه شارع الأمريكيين. وعلى العشاء أخبرني أنه محام من قوائم لا وله مكتب في نيويورك. كان مهذباً جداً، واسع الإطلاع، كثير الأسفار فيما يبدو. زار مصر وسوريا، وعنده فكرة عن السودان. يعرف على الأقل أن عاصمته شمس الخرطوم. لكنني رغم ذلك لم أستطع أن اتغلب على احساس الشك الذي ساورني ازواجه من أول وهله. لعله تاجر سلاح. لعله مهرب مخدرات. كل شيء جائز في هذا العالم العربي.

اعطاني الكرت باسمه وعنوانه وأرقام تليفونه.

«أرجو ألا تتردد في الاتصال بي اذا احتجت الى أي مساعدة».

الأنني لم أزد بعد ذلك. لم اتصل به، وحمدت الله انه لم يتصل بي. جذبتني فصول المسرحية المثيرة التي كانت تمثل على مسرح الأمم المتحدة ■ (الحدث تبة)

نحو أفق بعيد

١٤٦



بقلم الطبيب صالح

قاعة الجمعية العمومية في مقر هيئة الامم المتحدة. حين دخلت وجدت شاباً اسبوعياً غض الوجه واقفاً على المنصة. يخطب باللغة الفرنسية، صوته يرتعش بالغضب والعاطلة. يقول: «صحيح أنا امثل دولة صغيرة لا وزن لها بمقاييس القوة في العالم. لكن ذلك لن يمنعني من التعبير عن رأيي بصراحة...» ثم مضى الشاب يهاجم بشراسة ما وصفه بالتدخل الاستعماري في شؤون كمبوديا.

كان في صوته عمق ورثة صدق تهز مشاعر السامع، مهما كان. الأمير سيهانوك المسكين. تستمع اليه اليوم بعد مضي ثلاثين عاماً، فلا تشعر بشيء. هل هو تغير أم أنت تغيرت؟ ظل على خشبة المسرح لا يريد ان يختفي، يقول الكلام نفسه، ويلعب الدور نفسه، والسنوات تمر، وجسده يشيخ، وشعره يبيض، ووجهه يتجعد، ومشاكل كمبوديا لا تحل بل تزداد تعقيداً يوماً بعد يوم.

القاعة رحبة مصفوفة بعناية. دائماً نجلس في بناء القاعات. اجلس في غرفة زجاجية تطل على القاعة، في المكان المخصص للصحفيين والمراسلين على يمين المنصة. الرئيس والي يمينه «داج همرشولد» الامين العام. سوف تشهد فيما بعد، دراما احتمال استقالة «همرشولد». أمامي مباشرة لوحة جدارية تجذب انتباهي. وصفتها في اول رسالة اذاعية بعثت بها بانها تشبه قلباً آدمياً مفتوحاً او بحاجة مشوية.

يا له من وصف غريب! لماذا قلت ذلك؟ ولكنني حين افكر الآن أجد ان الصورة على عرابها لم تحل من صدق. التناقض العتيق بين احلام الاساسية المتعلقة بذلك المكان وواقع ما يحدث فيه بالفعل. الائمةات بالالم والمعاناة في صورة القلب الأدنى الذي شق أحد عنه الصدر وأخرجه منه. ثم كانه شوي

القلب وقدمه على طبق لأحد ما ليأكله لكن لعني لم اكن أعى تماماً ما أقول لعني فقط كنت تملاً براح الشباب. كالدائح من جدة المكان، مزهواً بما حسنته قدرتي على التعبير، أهدي بكلام لا أهمية معناه قلت أيضاً في تلك الرسالة، ان صوت الأمير «سيهانوك» العاصف هو صوت دول العالم الثالث.. دول عدم الاحياز.

ان كان ذلك حقاً، فار صوت الأمير «سيهانوك» اليوم، بعد ثلاثين عاماً، صوت ضعيف، متعب، بائس، مغلوب على أمره. كان التعبير جديداً تلك الأيام. العالم الثالث. وكان مفهوم عدم الاحياز، معبضاً الى الدول الكبرى في العرب، وخاصة الولايات المتحدة. وقد استمعت الى «جواهر لال نهرو» العظيم، استمعت اليه عدة مرات بعد ذلك، بشرح للأمريكان بصوته الهادئ المتحضر. ان عدم الاحياز، لا يعني الشيوعية، كما يظنون، وأنه لا يمثل اي خطر عليهم.

ما هم جميعاً في القاعة، انطال حركة عدم الاحياز، نهرو ونخروما وسكتوري وسوكاريو وحمال عبد الناصر. كلهم ما عدا تيتو. راحوا عن بكرة أبيهم، مالحق او بالباطل. يوعسلافيا التي كونها تيتو بعد جهد جهيد تتناثر أشلاء.

كأنت روح عدم الاحياز، هي الروح الطاعية على ذلك الاجتماع. وكنت اعمل في اذاعة دولة من الدول الكبرى التي يهاجمها هؤلاء الزعماء في خطبهم. ووجدتني في التقارير التي أرسلها أبنني موقف عدم الاحياز، ليس عن وعي او تدبير، ولكن بغفوة كاملة. كان ذلك هو الموقف الطبيعي. أليست هيئة الاذاعة البريطانية هيئة «مستقلة، محايدة»؟

لم يعترض رؤسائي الانجليز في لندن على ما كتبت أبعث به اليهم، فكانوا يبيعونه بلا حذف او تعبير. لم يقرضوا على رقابة من اي نوع، فقد كانوا يفهمون، أنني تعلمت منهم «الامانة المهنية»، لم اكن أزيغ شيئاً، او اعير او ابدل شيئاً. كنت انقل بأمانة ما اراد بحدث أماني. وكان معظم ما يحدث في ذلك الاجتماع مخالفاً لسياسات دولتهم. ومع ذلك تركوا لي الحبل على الغارب، وكابوا يقدرون بلا شك، ان ذلك لن يضرهم في نهاية الامر.

في جلسة بعد الظهر، سادت في المكان روح جديدة. اجتمعت كلمتهم، ونسوا خلافاتهم. احتفلوا بقبول نيجيريا التي استقلت لتوها، عضواً في الامم المتحدة. كان احتفالاً بهيجاً. شيئاً مثل العرس. دخل وفد نيجيريا القاعة في ثيابهم الجميلة الفضفاضة، يتقدمهم رئيس وزرائهم، أبو بكر تافاوا بليتوا. هل تذكرونه؟ وكان أبو العروس، ان صح الوصف، ذلك السياسي الداعية، هارولد ماكملان. وقف بمقامته الجديدة، وشاربه وعينيه اللتين تعطيان وجهه طابعاً مغولياً. وقف مرحباً ومهتماً. رجل تعجب به، كما تعجب نمضل بارع، حتى وهو يؤدي دوراً معيّنصاً اليك ارستقراطي. ولكن ليس بالوراة، فهو يحدّر من اسرة اسكتلندية، دفعها الفقر الى الهجرة الى انجلترا، دفعوا جدد، وكونوا ثروة، وأنشأوا دار ماكملان، وهي من دور

النشر الكبرى في لندن. تعلمت تعليماً ارستقراطياً، وتزوج ابنة (دوق). دخل البرلمان بسهولة، كما يحدث لآباء الاسرة العريقة، وكان حزب المحافظين يعتبره «تائراً»، ثم تحول تدريجياً الى اليسار، واصبح مغبولاً لأمطاب الحزب، الذين وجدوا صالحاً لرئاسة الوزارة، بعد فشل هناك المدلل «امتوني آيدن».

كان حزب المحافظين يسمى «ايدن» الفتى الذهبي، فقد كانوا يجدون فيه كل الصفات التي يطلبونها في الزعيم. كان ارستقراطياً اياً عن جد. وسيماً بمقاييس الانجليز، درس في جامعة أكسفورد، وخدم في الجيش، وأبلى بلاء حسناً. ولم يكن وفاد الدفن الى الحد الذي يخيفهم منه، فهم لا يطعنون الى النوايا، ولا بولولهم الا مسخطين. وكان يعرف الفرنسية والعربية والفارسية، واكتسب شهرة واسعة لمهارته الدبلوماسية اصبح وزيراً للخارجية ولما يبلغ الأربعين من العمر، ثم استقال من ذلك المنصب في وزارة «تشمبرلين». احتجاجاً على سياسة الحكومة في مهاذمتها لهتلر ونظامه النازي. ذلك فؤى من رصيده السياسي. ولما تولى «تشمبرشل» رئاسة الحكومة، عاد «ايدن» الى وزارة الخارجية واصبح نائباً لتشمبرشل في زعامة الحزب وفي رئاسة الحكومة. وتل سنوات ينتظر ان يحل محله، وبعد لاي قمل تشمبرشل ان يذهب.

لم يكد يمضي عامان على تولي «ايدن» رئاسة الوزارة، حين دخل في صراع مع شاب من صعيد مصر يسمى جمال عبد الناصر. وكان كل خبرته في الدبلوماسية، ومعرفته بشؤون الشرق الاوسط قد فارقت، فنورط في معاصرة طائشة حين تأسر مع فرنسا واسرائيل على غزو مصر. حول القضية الى صراع شخصي بينه وبين عبد الناصر، وحاول ان يقع الشعب البريطاني ان عبد الناصر «هتلر» جديد يجب القضاء عليه لكنه لم يفلح، بل احدث انشقاقاً خطيراً في الراي العام البريطاني، وفي البرلمان، وفي صفوف حزب المحافظين، واستقال «امتوني» نتيحة، وزير الدولة للشؤون الخارجية، وواحد من المقربين الى «ايدن». وتوترت علاقة بريطانيا مع امريكا. وانتهت المعامرة بالفشل.

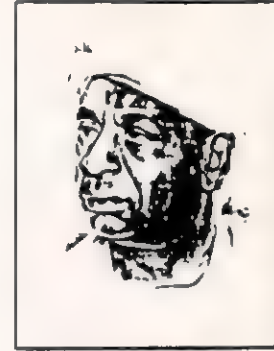
حين اضطر «ايدن» الى ايقاف الحرب، أعلن في البرلمان ان «الحملة» قد حققت اذاعتها، فتصدى له «انانين بيلان» نائب رئيس حزب العمال، من سلالة عمال المناجم في «ويلز». حاد الذكاء، سليلت اللسان، قوي الحجة، من الخطباء المعبودين في تاريخ البرلمان البريطاني. قال بصوت معلوء بالاحتقار الذي عرف عنه لحزب المحافظين: «ان رئيس الحكومة ينفخ ابواق النصر وهو يتجرع غصص الهزيمة».

البريطانيون، وحزب المحافظين خاصة، لا يغفرون لزعمائهم اذا قادوهم الى هزيمة لذلك ضحوا بفاتهم «الذهبي». تخلصوا منه بهدوء، كعادتهم، وجاعوا بدلاً منه، بهذا التعلل الماكر - هارولد ماكملان - ليخرجهم من الورطة ■

(المحدث بقية)

نحو أفق بعيد

١٤٧



بقلم الطبيب صالح

كان رجلاً عجيباً ذلك الرجل - هارولد ماكلان.

ما هو ذا يقف على المنصة الخضراء من الرخام وراءه على مستوى أعلى حيث يجلس الرئيس - وزير خارجية أرنلدا، إذا لم تخنى الذاكرة - والأمين العام، داج همرستول، الرجل السويدي الذي يتأرجح مصيره في الميزان.

حياهما بانحشاء خفيفة، ثم تمهل وهو ينظر في الساعة المحتشدة. رجل طويل القامة، غزير شعر الرأس، أشبه - ضيق العينين في وجهة شيء من وجه السحاب هبئته، خليط من الاستعلاء والسخرية والملل. كأنه يمثل على المسرح دوراً لا يكرهه ولكنه ليس راضياً عنه تماماً. كان كذلك طوال الفترة التي حكم فيها.

جاء به حزب المحافظين بعد ورطة «حزب السوييس» ليصلح ما أفسده «انتوني آيدن» فأتجه أولاً إلى إصلاح الأمور مع الأمريكان، ثم ساق الحزب ناحية اليسار، وهو يحدث حديث أهل اليمين، وعمل على تفكيك الامبراطورية البريطانية، وهو يؤكد لهم أن بريطانيا ما تزال دولة عظمى. قال للشعب البريطاني على التلفزيون، والسخرية في عينيه، توحى بأنه لا يعني ما يقول:

«يجب أن تعترفوا بأنكم أبدأ لم تتمتعوا بالحياة كما تتمتعون بها الآن».

حين ذهب حزب المحافظين وجاء حزب العمال، وجدوا الاقتصاد منهاراً والخزينة خاوية.

في خطبة له في «جوهانسبرج» معقل النظام العنصري في جنوب أفريقيا، قال قولته الشهيرة:

«أن رياح التغيير تهب على القارة الأفريقية».

واليوم ونحن ننظر إلى ذلك النظام الكريه يتقوض وتكاد نرى نهائيته رؤية العين، لا نملك إلا أن نتذكر بغير قليل من الإعجاب، هارولد ماكلان، الاستعماري القديم، الذي عرف أن زمان الاستعمار قد ولى.

كان يحب قراءة روايات «ترلوب» التي يسخر فيها من الطبقة الأرستقراطية وكانت فضيحة «برفيومو» التي حدثت في عهده، كأنها رواية من تلك الروايات. حين كتبت الصحافة عن علاقة وزير في الحكومة ببانعة هوى تسمى

«كرستين كيلر»، انكر الوزير العلاقة أول الأمر، ثم اضطر إلى الاستقالة تحت ضغط الرأي العام والبرلمان.

هاج التسعّب واضطرب حزب المحافظين، واشترت الحكومة وهذا الرجل العجيب هادي الأعصاب، يراقب ما يجري مثل رجل كبير يراقب عبث أطفال.

اختفى «برفيومو» عن مسرح السياسة، وقد كان أحد الذين يتنبأون لهم برئاسة الوزارة في يوم من الأيام، وانقطع لأعمال الخير في أحياء لندن الفقيرة.

أما «ماكلان» فقد جمع شتات الحزب كما فعل بعد «حزب السوييس»، وحكم بمزيج من الدهاء والسخرية إلى أن مل اللعبة فتنازل طواعية لـ «لورد هيو»، لكنه حتى وهو يفعل هذا، لم يستطع أن يقاوم رغبته في العبث، فرشح خلفاً له، «ارستقراطياً» من اسكتلندا، بشهد الناس له بالاستقامة وحسن الخلق، ولكن ليس بالكفاءة، وتجاوز «راب بترل» الذي شهدوا له بالقدره والكفاءة، كان بترل هو الذي اقنع حزب المحافظين بقبول الخطوات التي اتخذتها حكومة العمال من قبلهم، لخلق مجتمع أكثر عدالة، ووضع أساس «الاجتماع» الذي قبله الحزبان وحكما بمقتضاه، إلى أن جاءت «مسز تاتشر».

كان يؤمل أن يخلف «آيدن»، وظل ينتظر أن يخلف «ماكلان»، فلم يسعفه هذا الغلب المراوغ.

يقف الآن على منصة الجمعية العمومية للأمم المتحدة، يواجه الشباب المصري من الصعيد الذي تطاول على هيئة الامبراطورية. وثمة زعماء عدم الانحياز الذين عاونوه على جراته. بعضهم، مثل نهرو ونكروما، يمثلون دولاً كانت إلى الامس القريب، تخضع للتاج البريطاني.

بعد أن فرغ «ماكلان» من القاء كلمته، وقف رئيس وزراء نيجيريا، سير أبو بكر تافوا بليوا، فالتقى كلمة بلغة انجليزية رصينة، شكر فيها بريطانيا على حسن تصرفها لشؤون نيجيريا واعدادها للاستقلال. وكان «ماكلان» يستمع راضياً، مثل اب يشهد حفل تخريج ابنه من الجامعة، ولعله احس أن ذلك يكفي لازالة المرارة التي احسنتها غزو بريطانيا لمصر.

استمدت منه

نحو أفق بعيد

١٤٨



بقلم الطيب صالح

بينما كان «هارولد ماكملان» يقف خطيباً على المنصة، بتلك الثبوة المتعالية قليلاً، الساخرة قليلاً، التي يغلب عليها ذلك السأم الأرستقراطي، كان ينظر من حين لآخر إلى رجل يجلس في أقصى يسار القاعة، وكأنه يتوجه بحديثه إليه شخصياً. رجل قصير القامة، ممتلئ الجسم، ليس حسن الهندام، هيئته مثل هيئته رئيس عمال بناء، أو عمال شحن في ميناء. رجل لو خير «هارولد ماكملان» لما اختار أن يدعو إلى العشاء في داره في لندن، مع صهره «دوق دفتشاير»، إلا أن ذلك الرجل، الذي يجلس متحفظاً مثل ذئب رابض، هو نجم هذا المهرجان دون منازع. نكيتا سيرغيفيتش خريتشوف، أمين عام الحزب الشيوعي ثمة، وأقوى رجل في الاتحاد السوفيتي.

أراد بوضوح من حيث اجلس في غرفة من الغرف الزجاجية المخصصة للمراسلين، التي تشرف من عل على بحر القاعة، خيل إلي أنني رأيت شفتيه تتحركان بعصبية وكأنه يهمهم بعبارات بذينة. فيما بعد قال شيئاً بذينة بالفعل. حين أظن «هارولد ماكملان» في وصف خيرات الاستعمار على تيجريها، وكان الاستعمار نعمة كبرى من الله بها على تلك البلاد.

كان يصل دائماً قبل بدء الجلسة

بنحو ربع ساعة، يفود وفده الكثير العدد، تماماً كما يأتي رئيس عمال مع عماله لاستقبال سفينة بضائع حلت بالميناء. ويجلس متحفظاً طوال الجلسة، الاستماع على أذنيه، يكتب أحياناً، ويرفع رأسه إلى المتكلم أحياناً، لا يكمل ولا يكمل، ولا يترك مقعده حتى نهاية الجلسة.

مرة لاحظتة الحضور في جلسة صباحية، فهب واقفاً، وصرخ غاضباً قبل أن يعطيه الرئيس الأذن.

«أين يذهب هؤلاء المندوبون؟ ماذا يفعلون؟ إن دولهم الفقيرة تدفع أموالاً طائلة لترسلهم إلى نيويورك، ليس للفلسفة والتسكع ولكن للعمل». لم يلبث المندوبون الذين كانوا بالفعل يتسكعون في الردهات ويشربون القهوة في الصالة الفاخرة المخصصة لأعضاء الوفود، أن جاءوا يتسابقون إلى قاعة الجمعية العمومية.

حول جلسات تلك الدورة بمهارة عظيمة إلى فصول في مسرحية «تراجيكوميدي»، البطل الذي يمثل قوى الخير والعدل والحرية، هو الاتحاد السوفيتي. الشرير الذي يمثل قوى الظلام والباطل والقمهر، هو «الأمريكان»، ومعه حلفاؤه دول الغرب، وما أسماهم بالخدم والأذبال في بقية أنحاء العالم.

لم يكن يسفي الدول المتخاصم معها بأسمائها، وكأنه لا يعترف بوجودها، فيقول «الأمريكان»، و«الإنجليز»، و«الفرنساوي»، و«الطلياني»، وهكذا. ولم يكن راضياً تماماً عن دول عدم الانحياز، شأنه في ذلك شأن الأمريكان، فقد كان يريد أن يعلنوا صراحة انحيازهم إلى معسكر الاتحاد السوفيتي، لكنه كان يكف عن شتمهم، ويكتفي بالسخرية منهم من وقت لآخر.

ثم اختار عمداً بعض المندوبين ليمثلوا أدواراً كوميدية، ويكونوا هدفاً لمزاحه وعيبه وسخريته. فعل ذلك خاصة مع مندوب الفلبين.

كان مندوب الفلبين رجلاً قصيراً نحيلاً بلبس نظارة ويتحدث اللغة الانجليزية بلكنة أمريكية واضحة واسلوب متفعر. ومع أن الرفيق نكيتا سيرغيفيتش نفسه، كان أبعد ما يكون عن وسامة «كلارك جيبيل»، فقد وجد في ذلك الرجل الطيب ولا بد، هدفاً مستديماً لسلطة لسانه. وكان

«الفلبيني» استساع ذلك الدور، كما بين القط والفار، فكان يتحصى لخريتشوف، مدافعاً عن وجهات نظر يعلم أنها سوف تثير ثأرته. وخيل لي أنه نشأ بينهما شيء يشبه اللفة قال خريتشوف مرة، إن «الفلبيني» يتبع «الأمريكان»، كما يتبع الكلب سيده. فإذا «الأمريكان».. الفلبيني.. والكلمة بذينة ترجمتها المترجم الانجليزي بهدوء ورسامة. صوب مندوب الفلبين واقفاً، وقال بغضب، والناس يضحكون.

«أنني أحتج يا سيدي الرئيس على اللهجة البذينة التي يستخدمها رئيس وفد الاتحاد السوفيتي. أنه يتهم على ممثل دولة مستقلة ذات سيادة».

فقال خريتشوف: «الفلبيني يتحدث عن استقلال بلاده، أين هو هذا الاستقلال؟ الإنسان يحتاج إلى منظار مكبر كي يراه».

تحت ستار المزاح والعبث والبذاءة، كان واضحاً أنه يلعب دوراً ليس لعباً. كان بوجه ضربات موجعة إلى «هيمنة» الولايات المتحدة، ويريد أن يزعزع العلاقات بينها وبين حلفائها خاصة في آسيا وأفريقيا. وربما أراد أن يهيج الشعوب على حكامها في بعض البلاد. كان يخاطب الشعوب مباشرة فوق رؤوس حكامها من ذلك المنبر العالمي. وكان يعرف أوضاع الفلبين حق المعرفة، وإن أجزاء ليست صغيرة من الرأي العام متبرمة من النفوذ الأمريكي في الفلبين ووجود قواعد عسكرية هناك. في آخر جلسة حضرها قبل سفره اعتذر لكل الذين قد يكون أساء إليهم، وطيب خاطر «الفلبيني» بصفة خاصة. قال:

«الفلبيني رجل لطيف في الحقيقة. أرجو ألا يكون غاضباً مني وأسف إذا كنت قد ألمته أحياناً».

ضحك الناس وضحك مندوب الفلبين، الذي لا بد أنه تنفس الصعداء، وحمد الله أن ذلك العيب قد انزاح عن كاهله. إلا أن الصحفيين، وخاصة الأمريكان، أحسوا بغير قليل من الحزن لسفر خريتشوف قبل نهاية الدورة، فقد نشأت بينهم وبينه علاقة لا تخلو من الود ■

نحو أفق بعيد

١٤٩



بقلم الطبيب صالح

الساعة قبل منتصف نهار الجمعة الثاني والعشرين من نوفمبر عام واحد وتسعين وتسعمائة والف. هذه أول مرة أدخل قاعة الجمعية العمومية للأمم المتحدة منذ أن دخلتها قبل ثلاثين عاما.

تغيرت أشياء كثيرة، ولكن هذه القاعة كما أذكرها. أجلس الآن في المكان المخصص للجمهور. أصابي مباشرة منصة الرئيس، وأسفلها منصة أصغر حيث يقف الخطباء، السجاد أكثر اخضراراً مما أذكر، ومنصة الخطباء ليست من الرخام الأخضر كما ظننت، ولكنها رمادية اللون مشربة بالزرقاء، منصة الرئاسة أعلاها هي التي من الرخام الأخضر. اختلطت الألوان في ذاكرتي كما اختلطت أشياء كثيرة، فثلاثون عاما ليست بالأمر السهل. هنالك في أقصى الركن الأيسر من موضعي الآن، الغرفة الزجاجية حيث جلست طيلة شهر كامل، أراقب فصول مسرحية محزنة أحيانا، مضحكة أحيانا.

القاعة ما تزال كأنها بنيت لتوها، يعلق بها طابع الجدة، مستديرة، أو كالمستديرة، ينزل فوقها السقف في شكل مخروط يميل إلى الأسفل، المناضد، حيث يجلس المندوبون خضراء أيضاً. الجدران رمادية، يتخللها اللون البني، لون الخشب. أعلى منصة الرئاسة على الحائط

المواجه لي، دائرة واسعة، تضم غصن الزيتون الشهير، الذي يحمل خرطة العالم، كما تحمل راحة اليد الكاس. اللوحة الجدارية التي وصفتها قبل ثلاثين عاما بأنها تشبه قلبا آدميا مفتوحا، ما تزال في مكانها. أراها الآن على يميني. اصغر فيها النظر. الله اعلم. ماذا تعني؟ أخيل الآن أنني ألمس في الخطوط المنسأة المنحنية.

أرى على يساري لوحة لم انتبه لها يومئذ. تشبه اللوحة على اليمين، كأنها انعكاس لها في مرآة.

كنت برفقة زوجتي وشاب سوداني يعمل في سكرتارية الأمم المتحدة اسمه خضر الطيب عبيد الرزاق. سوداني كما يحب الإنسان أن يكون السوداني. درس الهندسة في موسكو وحاول أن يستقر في السودان. يعمل هنا مترجماً، يترجم من الروسية والإنجليزية إلى العربية. هو والدكتور علي عبيد الله عباس والدكتورة كنستانس بيركلي، كانوا لنا خير عون في هذه الرحلة.

الدكتور علي عبيد الله عباس، استاذ الأدب الإنجليزي في جامعة الخرطوم. إنسان نابغة، له شهرة واسعة في ميدانه. كريم الخلق، جم التواضع، أصيل، أهله نرحوا من «أبو حراز» إلى أم درمان. يحاضر الآن في جامعات أمريكا وقلبه يخفق بحب السودان ويهفو إلى جامعة الخرطوم. اخواننا هؤلاء أدخلوه السجن مكث ستة أشهر دون أن توجه إليه أية تهمة. حمد الله أنهم أدخلوه سجن «كوبر» فهو سجن قديم من أيام الإنجليز، تراعى فيه اللوائح والأصول. ثم خرج دون أن يكلمه أحد. جاء إلى الولايات المتحدة بمنحة من مؤسسة «فلبرايت».

كانوا قد صنعوا ذلك بشيخنا إبراهيم الصلحي أواخر عهد النميري. كان وكيلاً لوزارة الإعلام والثقافة. فنان موهوب، لوحاته تعرض في متاحف الشرق والغرب. رجل ثقافة وفن وسلام، لا صلة له بالثورات والانقلابات. وجدوه يعمل في مكتبته ذات صباح باكراً، وكانت تلك عادته، وصادف حدوث محاولة انقلاب في ذلك الصباح، وأن قائد الانقلاب كان من أقربائه. أدخلوه السجن حيث مكث ستة أشهر دون أن توجه إليه أية تهمة. ثم خرج وهو لا يعلم لماذا أدخلوه السجن ولماذا أخرجوه منه.

خرج فوجد منزله الحكومي لم يفرغ منه، ومرتبته الشهري يدخل حسابه في البنك بانتظام، وأكثر من ذلك أنهم كانوا يحسبون له «بديل طبيعة عمل» وهو في السجن. ثم طلبوا منه أن يعود إلى عمله، وكان شيئاً لم يك. يقول إبراهيم الصلحي: «قررت حينئذ أن أترك السودان. قلت هذا بلد مجانين».

السودان من أعقل بلاد الله، والسودانيون من أحسن خلق الله، ولكن بعض حكام السودان هم المجانين، وعجيب أن أمة كهذه تنتج حكاما كهؤلاء.

نعم، لا بد أن هذا الرسم على الجدار هو «قلب آدمي مفتوح»، فكل ما يستطيع الفن أن يفعله في نهاية الأمر، وسط هذا العالم الهمجى. أن يحول الأم الإنسانية إلى لوحات على الجدران، وكلمات على الورق، وذلك لغري، ليس بالأمر السهل.

ما أن استقر بنا المقام، حتى نادى الرئيس على المتحدث. يا لها من صدقة حسنة. الموضوع قضية فلسطين، والرئيس سعودي، والمتحدث ممثل دولة قطر في الأمم المتحدة. صديقنا من قديم الدكتور حسن نعم، تذكرونه؟ يوم زواجه، منسي وأنا في دلهي، حين كان سفيراً بها.

رجل عالم شاعر أدب، ناصع البيان قوي الحجة، هذه لغة لا تسمع مثلها كثيراً في مثل هذا المكان، لغة العرب حين يركض لها العنان، فيستخفها الطرب وتحلق بجناحين. تحدث عن مساعي السلام وتعتد الأسرائيليين وأحزان الفلسطينيين الشتات. كلمات تلمع مثل قصائد الدموع في عيون الأطفال في المخيمات. لا تقل أن الكلام الجميل لا يجدي. أن عاجلاً وإن أجلاً تتحول الكلمات الصادقة إلى أفعال.

تحدث الدكتور حسن نعم عن الجرب الباردة واللدادة التي انتشرت بين المعسكرين، قال إن ذلك كله قد انتهى.

نعم. اليوم لا توجد حرب ولا معسكران متقاتلان.

أما هذه القاعة هي هي، والعرب هموا هموا، بعض العرب ما يزالون كما قال الشاعر القديم:

وقد بنيت الخطي على دين الثرى

وتبقى حزازات النفوس كما هيا

(المنصة مغلقة)

نحو أفق بعيد

١٥٠



بقلم الطبيب صالح

أراد خريستشوف ان يشرب جرعة من الماء، وهو يخطب. رفع الكاس ونظر اليها برهة ثم قال:

«لو كنت في جورجيا لكنت هذه الكاس ملأى بالموادكا. فلنشرب نخب جورجيا».

هكذا كان، متقلب الأحوال، يذهب فجأة من النقيض الى النقيض. وهذا مسرح ليس له نظير في العالم، تذكرت الآن، انه يشبه «والس بيرى» ذلك الممثل الموهوب. كان يمثل ادوار التوار في افلام عن امريكا اللاتينية، واحيانا يمثل دور تاجر سلاح، يبيع السلاح للطرفين المتقاتلين.

يكون رقيقاً جداً أحياناً، معتدلاً في رأيه، بنادي بالتعاون مع الولايات المتحدة ودول العرب عموماً، يسعى الى «التعايش السلمي». واطن خريستشوف هو الذي ابتكر ذلك التعبير. ثم ما لبث ان يتحول فجأة الى حيوان شرس حاد الانياب. ولم يكن يفعل ذلك اعتباطاً، بل بحساب وتدبير. كان مسرح الأمم المتحدة في تلك الدورة حافلاً بممثلين لا يستهان بهم، اما هذا فقد كان شيئاً مختلفاً، نمطاً لم يعرف الناس مثله من قبل، ولعلمهم لن يروا نظيره من بعد.

ظن كثيرون انه عزم على تحطيم الأمم المتحدة، فقد اتهمها بأنها تخضع لسيطرة الولايات المتحدة ودول الغرب، وحمل حملة ضارية على الأمين العام «داج همرشولد» واتهمه بأنه يسخر المنظمة لخدمة سياسات دول الغرب، وقال ان الاتحاد السوفييتي لم يعد يثق فيه.

بعد أكثر من عشرين عاماً، شهدت في باريس مسرحية مثالية حين اتهمت

الولايات المتحدة مدير عام منظمة اليونسكو، أحمد مختار أمبو، بأنه يوجه المنظمة لخدمة سياسات تتعارض مع مصالح الولايات المتحدة. ودعيت أمبو، فانسحبت من المنظمة وجرت وراءها بريطانيا.

لم تكن الولايات المتحدة عادلة في اتهامها، ولا كان الاتحاد السوفييتي ولكنه منطق القوة، اذا دأ ان كافة الميزان اخذت تميل. وكان خريستشوف في تلك الدورة، يطالب أحياناً بنقل مقر الأمم المتحدة من نيويورك، وأحياناً يهدد بان الاتحاد السوفييتي سوف يسحب ويقيم منظمة جديدة لا تخضع لسيطرة الغرب، وأحياناً يطالب ان يكون منصب الأمين العام، «ترويكاً» من ثلاثة أشخاص مثل العربات الروسية التي تجرها ثلاثة خيول.

كان صراعاً بيناً، كما حدث طوال التاريخ، بين قوتين غوليين، كل منهما، تريد ان يستتب لها الأمر. وزعماء معسكر (عدم الانحياز) هؤلاء، صحيح ان كل زعيم منهم له مواهب لا تخفى، ويمثل جزء من العالم لا يستهان به. ولكنهم في نهاية الأمر، يحاولون أمراً مستحيلاً. ان يقيموا لأول مرة في تاريخ البشرية، نظاماً عالمياً لا يخضع لمنطق القوة. استتب الأمر طوال التاريخ، اما بتوازن القوى، اما بغلبة قوة واحدة. هكذا كان السلم الروماني، الـ (باكس رومانا) والسلم العربي، (باكس ارايكا). من يصدق اليوم ان العرب فرضوا نظاماً عالمياً في يوم من الأيام. والسلم السوفييتي (باكس سوفيتكا) والسلم الأمريكي (باكس أمريكانا).

لا غرابة، ان الأمريكيان والسوفييت، كانوا ينظرون الى زعماء (عدم الانحياز) باحتقار واضح أحياناً، ومستور أحياناً وكان احتقار الرقيق نكبتا سيرقيفتش لأولئك الزعماء لا يكاد يخفى.

كتم غيظه بصعوبة ذات مرة، وهو يستمع الى توبيخ الزعيم الصيني (سكتوري) له، كانت الصحافة الأمريكية تصف (سكتوري) بأنه شيوعي، وأنه يخضع لارادة الاتحاد السوفييتي، غير مكترفة بأنه كان يخرج من جلسات الجمعية العمومية بانتظام لاداء فريضة الصلاة. كان رجلاً حسن السمعة في ربه الأبيض، يجلس في اعتداد واضح بنفسه بين وفده من رجال ونساء، الوائهم بين خضرة الزنج وسفرة العرب. أجل سفره، لان خريستشوف اخرجته العصب عن طوره في جلسة مسائية، بسبب قضية الكونغو كان سكتوري اول من تحدث في جلسة الصباح، فالتقى خطبة أدهشت الناس لجرأتها، قرع فيها خريستشوف بعبارات حادة، وقال:

«ان الدول الأفريقية ودول العالم الثالث ليست لعبة تلعب بها أي من الدول الكبرى كيك تشاء».

كتم خريستشوف غيظه لانه كان يعلم ان (سكتوري) مهما كان، فهو ليس أكثر من

رئيس لدولة أفريقية فقيرة لا تقاس بجبروت الاتحاد السوفييتي في ميزان القوة. لم يرد على (سكتوري) وترد الأمريكيان ودول العرب بهلنول له على غير عادتهم، ويستمرئون مذاق الانتصار على الاتحاد السوفييتي.

قبل ذلك في جلسة المساء، حدثت له الحادثة الشهيرة، حين تطرأ خريستشوف جراً لا مثيل لها في تاريخ التعامل بين الدول، فخلع حذاه وضرب به المضدأة أمامه وصرح بعبارات روسية كان واضحاً انها شتانم. كان ذلك بسبب شيء قاله رئيس وزراء بريطانيا عن قضية التونغو، توقف (هارولد ماكملان) عن الكلام، ووضع السماعات على أذنيه، وقال ببراعة مصطنعة، وعلى وجهه تلك الابتسامة الغامضة:

«أشئ انتظر ترجمة ما تفضل به رئيس وفد الاتحاد السوفييتي».

الذي قاله الرقيق نكبتا سيرقيفتش، بلغ حداً من السوقيعة والبذاءة جعل المترجمين بجميع اللغات يتخرجون عن ترجمته. وسالت زميلي «مستر غولد بيرج» مراسل الاداعة العالمية بهيئة الاداعة البريطانية، وكان مهاجراً من أصل روسي، وكان شديد الكراهية للاتحاد السوفييتي، فشرح لي العبارة وقال:

«هذا رجل صعلوك لا يستحق ان يدخل هذا المكان».

كان خريستشوف بالفعل، شاذاً في ذلك المكان حيث تعود الناس على العبارات المرسنة والشتائم المهذبة. هذا كان شيئاً مختلفاً، كانه طاقة فحة من طاقات الطبيعة، لا تدري متى تعصف ومتى تهدب. ربما لأجل ذلك انجذب اليه الصحفيون، خاصة الأمريكيان، فكانوا يهرعون الى القاعة كلما تحدث، ويتبعونه حيثما ذهب.

قال لهم مرة «بما اننا نعسرف كل شيء عن جواسيسكم واجهزة مخابركم، وانتم كذلك تعرفون كل شيء عن جواسيس عندكم، فلماذا لا نوجد جهودنا بدلاً من تدبير الموارد واضاعة الجهد».

أضح فيما بعد، انه كان يعني ما يقول بأسلوبه العجيب، وانه لم يكن يمانع في الوصول الى تفاهم بين القوتين العظميين، يقتسمان بموجبه مناطق النفوذ في العالم، فلا تتعدى أي منهما على نفوذ الدولة الأخرى. ولكن الأحداث قد برهنت ان الأمريكيان كانوا يطلبون ما هو اعظم، ولعلمهم حصلوا عليه، فالعالم يشهد الآن، ولو الى حين، زمان الـ (باكس أمريكانا).

سال صحفي أمريكي خريستشوف عن تقسيمه لما أنجزته تلك الدورة للجمعية العمومية فاجاب ضاحكاً:

«كنت في شبابي اعمل حطاً في جورجيا. كنت أعرف آخر اليوم ماذا أنجزت، من كمية الحطب الذي قطعته. اما هنا، فكيف تقيس الانجاز؟» ■

(استدقت مئة)

نحو أفق بعيد

١٥١



يقلم الطيب صالح

صعباً أن تجد رجلين أكثر اختلافاً من هذين الرجلين، اللذين رمزتهما الأقدار، واحدهما أزاء الآخر، في ساحة الجمعية العمومية للأمم المتحدة، في شهر نوفمبر عام ١٩٦٠. نكيتا خروشوف، وداج همرشولد. الأول كأنه شخصية في رواية من روايات «دستوفسكي»، الطبع الروسي المتأجج، والاحساس الحادة المتقلبة، الذكاء والصراحة والمكر، والطيبة والقسوة. والثاني كأنه خرج من مسرحية من مسرحيات «أنسن»، القتامة الاسكتلندية، وضبط النفس، وتقديس الجهد في حد ذاته، والصراع بين نوازع النفس البشرية ومتطلبات المثل العليا، والشعور بالذنب من جراء محاسبة الذات بلا هوادة.

كان همرشولد من خلاصة الصفوة الاسكتلندية، من عائلة سويدية عريقة، تعلم في جامعة «أبسال»، حيث درس الأدب والفلسفة والقانون والاقتصاد. اشتهر بثقافته الواسعة وطاقته الذهنية الهائلة وكفاءته في الإدارة، تقلب في المناصب الى أن أصبح الرجل الثاني في وزارة الخارجية السويدية.

لكنه لم يكن معروفاً خارج السويد، وحتى اسمه الذي يعني «درع الحديد»، كان ثقيلاً على اللسان أول مرة. ولما اقترحه الإنجليز والفرنسيون عام ١٩٥٣ خلفاً لـ «ترجفي لي»، النرويجي، تعجب كثير من الناس، ولم يكن حتى الأمريكان قد سمعوا به. لكنهم لم يمانعوا في

ترشيحه أميناً عاماً للأمم المتحدة، ورضي به السوفييت في عمرة فترة الانفراج القصيرة التي أعقبت موت ستالين.

اتخذ مجلس الأمن قراراً بترشيحه دون علمه، ولما عرض المنصب على همرشولد تردد في قبوله ثم قبل على مضض.

قال له «ترجفي لي» يخوفه من صعوبة المهمة.

«إن مهمة الأمين العام للأمم المتحدة، هي أشق مهمة في العالم، ويكاد النجاح فيها يكون مستحيلاً. سرعان ما يكتشف أي أمين عام ذلك، إذا هو أراد أن يؤدي مهمته كما تصورها ميثاق سان فرانسيسكو. وإذا كان فهمه للمنصب كما أفهمه أنا، فإنه سوف يجد أن من المستحيل عليه أن يتجنب إغضاب دولة من الدول الكبرى أو الدول الصغرى. سوف يكون هدفاً للنقد من اليمين واليسار والوسط. وإذا أن الأمين العام يخدم الأمم المتحدة ككل فلا سبيل أمامه إلا أن يضحي بنفسه في سبيل إيجاد حلول عادلة».

وجد همرشولد كل ما تكهن به «ترجفي لي». وهو الآن في شهر نوفمبر عام ١٩٦٠ يقف في الجمعية العمومية يواجه قاعة مكتظة ليعلن قراره، هل يبقى في منصبه أو يستقيل. ويتوقع كثير من الحاضرين ومنهم الرفيق نكيتا سيركيفتش أن يقدم همرشولد استقالته.

قبل همرشولد المنصب عام ١٩٥٣ دون حماس، وقال في أول خطاب له أمام الجمعية العمومية بعد أن أذن القسم:

«المهمة التي أمامنا هي التصالح والواقعية والبناء».

وختم خطابه بببيت من الشعر لشاعر سويدي:

«أعظم صلاة يتوجه بها الإنسان، ليست التي تطلب النصر، ولكن التي تطلب السلام».

ولكن أحداث الكنفو، والصراع الشرس للدول الكبرى على السيطرة، سرعان ما كشف له، أن السلام مطلب عسير.

يستعد الأمين العام للأمم المتحدة سلطاته من المادة السابعة في الميثاق التي تجعل الأمانة العامة مساوية للجمعية العمومية ومجلس الأمن ومجلس الوصاية والمجلس الاقتصادي والاجتماعي. وينص البند ٩٧ بأن الأمين العام «هو المسؤول الإداري الأول في المنظمة». وينص البند ٨٦ بأن الأمين العام، إلى جانب صلاحياته المنصوص

عليها «يقوم بأي مهمة تكلفه بها أي من تلك الهيئات».

فوق ذلك، فإن البند ٩٩ يعطى الأمين العام الحق في أن يلفت نظر مجلس الأمن إلى أي وضع في العالم قد يهدد السلام والأمن، وأن مجلس الأمن لا يحق له أن يرفض الشغل في أي موضوع يرفعه إليه الأمين العام حسب نص تلك المادة.

استغل همرشولد هذا النص استغلالاً واسعاً خلال سنوات عمله، مما أغضب عليه بعض الدول أحياناً، وخاصة الاتحاد السوفييتي. وقد وجد أنه يستطيع أن يحرك كل جهاز الأمم المتحدة بناءً على تفسيره الخاص لما يمكن أن «يهدد السلام والأمن»، وأن يتخذ كل الخطوات التي يراها هو مناسبة للتأكد بأن وضعاً ما «يحتل أن يهدد الأمن». وقد أرسل مراقبين دوليين إلى «لاوس»، مثلاً دون تحويل من مجلس الأمن، مما أغضب عليه الاتحاد السوفييتي.

كان همرشولد في رأي المعجبين به «رمزاً أخلاقياً ونفوذاً ذا هيبة طاغية». وقد حول منصب الأمين العام بالفعل إلى دائرة نفوذ أوسع بكثير مما أرادته الدول الأعضاء، وخاصة الدول الكبرى. حدث ذلك بسبب تفوقه العقلي الواضح وطاقته الهائلة على العمل. وأيضاً بسبب توازن القوى السياسية في العالم، الذي أحدث شللاً في المنظمة وأصبح الأمين العام في حالات كثيرة، الجهة الوحيدة القادرة على الحركة.

كانت مغامرة جريئة انتهت بالفشل في الكنفو.

كان همرشولد يصف دوره قائلاً: «السياسة والدبلوماسية ليست قضية نهارة في اللعب لا صلة لها بمواقف اللاعبين. النتائج لا تحددها القدرة السطحية، ولكن يحددها عمق الالتزام بالمبادئ. إن النجاح السهل يحققه المهرجون، أما النتائج التي تبقى وتصمد، فلا بد لها من شخص يبني بعزيمة وصبر».

وكان يقول إن ولاء للمجتمع الدولي ككل يحتم عليه أن ينزع كل ولاءاته الأخرى حتى ولاء لوطنه ويضيف:

«كيف يستطيع شخص ما أن يفعل هذا دون أن يفقد المقومات الروحية التي يكتسبها الإنسان من انتمائه لبلد بعينه؟ الإجابة هي، أنه إذا فعل هذا، واعتمد على إمكانياته الذاتية، فسوف يجد بدلاً... وطناً في كل مكان. سوف يجد الأبواب مفتوحة أينما ذهب» ■

(استحدثت بقلم)

نحو أفق بعيد

١٥٢



بقلم الطبيب صالح

ليس جديداً هذا الموقف الذي يقبله (داج هيرشولد) اليوم في شهر نوفمبر عام ١٩٦٠، فقد كاد يستقيل من قبل، في شهر أكتوبر عام ١٩٥٦، المشكلة اليوم هي قضية الكنعان التي يتعرض بسببها إلى هجوم مركز من الاتحاد السوفييتي الذي يجلس حاكمه العلي إزام في هذه اللحظة في قاعة الجمعية العمومية للأمم المتحدة ينظر إليه شتراً، ومنذ أربع سنوات، قامت دولتان كمبرتان، وعضوان دائمان في مجلس الأمن، معدوان صريح على دولة من الدول الأعضاء، اغتصمه الأمن العام بمثابة ضربة مخزبة لكل المساعي التي بذلها لتحقيق السلام في منطقة الشرق الأوسط.

كان هيرشولد يحكم تكوينه الفكري والثقافي أقرب ما يكون إلى بريطانيا وفرنسا. كان يتقن اللغتين الإنجليزية والفرنسية، متعمقاً في أدبيتهما، محباً للشاعر الفرنسي «سان جيور بيرس» وصديقاً حميماً للشاعر الإنجليزي «ديليو أنش أودن». في لندن أو باريس، محيط نفسه بالشعراء والفنانين والكتاب والمفكرين، ويحس كأنه في ستوكهولم.

أيضا كان يحمل بعض الاعجاب لرئيس وزراء إسرائيل «دافيد بن غوريون» ويرى فيه مثلاً للزعيم الفيلسوف الذي يجمع بين الفكر والعمل، وكان يحب أن يتحدث معه في التاريخ والفلسفة، ويحاوره في أفكار الفيلسوف اليهودي «مارتن بوبر» الذي كان هيرشولد معجباً به.

أما في الجانب العربي، فقد كان بينه وبين الرئيس جمال عبد الناصر، احترام متبادل، ولكن علاقتهما كانت متحفظة من الجانبين، ينقصها البعد، فقد كانت مشاربهما وأنجاهاتهما الفكرية، مختلفة، كان أميل إلى الدكتور محمود فوزي، وزير خارجية مصر يومئذ، كان يحب فيه صفاء فكه، وهدوء طبعه، ومهارته في فن الدبلوماسية، وكان أيضاً يؤثر المحجي سليم، وزير خارجية تونس، وعمر عبد العزيز، مندوب السودان، وكان معروف أنه لم يكن يمانع أن يخلفه في منصب الأمين العام، واحد من هؤلاء الثلاثة، وخاصة محمود فوزي كانت صدمة كبرى لهيرشولد حين هاجمت

إسرائيل مصر في ٢٩ أكتوبر عام ١٩٥٦، وفي الوقت نفسه بدأت بريطانيا وفرنسا هجومهما جويًا على المختارات المصرية والقواعد العسكرية المصرية، وبدأت هوائيهما تتحرك نحو مصر، قامت حجة إسرائيل في الحضاء على معسكرات العدائين على الحدود بينها وبين مصر، وكانت دريعة بريطانيا وفرنسا هي «الفصل بين القوتين المتحاربتين على صنعتي القادة».

كان واضحاً منذ البداية، وتأخذ ذلك فيما بعد، أنه كان ثمة تواطؤ بين إسرائيل وفرنسا وبريطانيا، فقد كان الهدف واحداً، عبر عنه رئيس وزراء بريطانيا، أنتوني ايدن، صراحة في رسالة وجهها إلى الرئيس الأمريكي، ايزنهاور، بتاريخ ٦ سبتمبر عام ١٩٥٦، جاء فيها: «أما مصيغور، فإن الاستيلاء على القناة، ما هو إلا التمهيد الأول، في حملة مدبرة، خطط لها عند الناصر للتخلص من المعود العربي حملة، ومزج المصالح العربية من البلاد العربية، وهو يؤمن بأنه إذا نجح هذه المرة، متحدياً ثمانين عشرة دولة، فإن نفوذه في البلاد العربية، سوف يبلغ حداً يمكنه من تجميع ثورات بقويها ضمانة شيطان... ونحن نعلم من مصاربنا المشتركة أنه يدير بالفعل لثورة في العراق، الذي هو أكثر الدولة العربية استقراراً وتقدمية، سوف تكون الحكومات الجديدة في واقع الأمر، خاضعة لمصر، إن لم يكن لروسيا سوف يكون التزاماً عليهم أن يصغوا لمواردكم الشترولية تحت سيطرة دولة عربية موحدة بزعامة مصر وخاضعة للنفوذ الروسي. ونحن نجو ذلك الوقت، فمصرف يمنع عبد الناصر التزول عن أوروبا العربية وسوف تكون جميعاً تحت رحمته...».

كان المصراع أقرب الدول العربية إلى بريطانيا، وأكثرها صداقة لها، ورغم ذلك، اضطر الأمير عبد الله، حين قامت الحرب، أن يكتب إلى ايدن محذراً، وقال:

«إن عروني بريطانيا لمصر» وضع اصدقاء بريطانيا - وأنا أعد نفسي واحداً منهم - في وضع حرج إذا الرأي العام في العالم العربي وفي العراق».

وقد ابغ الوصي، السفير البريطاني في بغداد، أن الحكومة العراقية لن تستطيع أن (تست) أكثر من أسبوع واحد، ولا بد أن موقف العراق قد اهتز ايدن، الذي كان يتوقع منه تأييداً مطلقاً، غير مدرك، رغم برأسه للغة العربية، أن ثمة حدوداً لا يمكن لأي حاكم عربي أن يتجاوزها، مهما بلغ منه العداء لجناح عربي آخر، فكذب إلى عبد الله، مستنداً إلى حجج أخرى غير التي قدمها للرئيس الأمريكي.

«أؤكد لك تأكيداً قاطعاً بأن الهدف الوحيد لتدخل القوات البريطانية، هو إيقاف الحرب بين إسرائيل ومصر وضمان القناة (حرة الملاحة) ونحن مطمئنون بأن وجود قواتنا في مواقع حامة، هو وحده الكفيل بتحقيق هذا الهدف وتبذل كل المعلومات التي وصلت إلينا، إن إسرائيل قد ألغت معصر هزيمة ساحقة، وإن العمل الذي قمنا به هو وحده الذي انقذ مصر من حدوث مزيد من الكوارث، وقد علمنا أن القوات الإسرائيلية، سوف تستجيب لطلبنا بالاقتراب من القناة إلى مسافة أكثر من عشرة أميال، مع العلم بأن أبواب مصر، حتى القاهرة نفسها، مفتوحة على مصارعها أمامها، هذا على الأقل، يعتبر مكسباً، وأرجو أن يتضح قريباً للعالم، إن عملنا هو وحده الذي حقق هذه النتيجة، وبمجرد أن يحتل المواقع الهامة على القناة فسوف مطلب من الأسرائيليين الاستسحاب من الأراضي المصرية...».

لكن الذي اقلق ايدن أكثر من تحذيرات العراق، كان عاصفة الاستسكار التي هبت في وجسسه من أسرب الدول إلى بريطانيا في

التصولات، رابطة الشعوب البريطانية، فقد أرسل إليه رئيس وزراء سيدان معرباً عن احساسه بالصدمة والازعاج، لتدخل بريطانيا ومطالبا بالانسحاب الفوري، وخب جواشرا ل بنجرو رسالة مبندة ولحياً تنصبر سخطاً واضحاً، ختمها قائلاً:

«أبى غرت عن شعوري بوصوح وصراحة لأبى اعتقد أن هذا هو الأسلوب الذي يجب أن يتخذ الصديق نحو صديقه، وإذا لم يوضع حد لهذه الأعمال الخاطئة، فإن المستعمل سوف يكون فيما يبدو لي، مطلقاً جداً».

كذلك عبرت كندا ونيوزيلند عن سخطهما، وحتى روبرت مزييس رئيس وزراء استراليا، الذي كان قريباً جداً من السياسة البريطانية، لم يجد بداً من أن يكتب إلى ايدن معرباً عن حزنه لما وصفه به الصراع الواضح في مجلس الأمن بين بريطانيا وفرنسا من جانب والولايات المتحدة من جانب آخر، واصفاً قائلاً:

«يجب ألا تشك لحظة في ولاء هذا البلد لبريطانيا، ورغم ذلك أجد لزاماً علي أن اطلب منك أن تبذل كل جهدك، بشئ السبل، للوصول إلى تعاض مع الولايات المتحدة أخذاً بعين الاعتبار أن أعداءنا سوف يعمرون الاشتفاق في صفوف المعسكر الديمقراطي، أخذه انحصار حروره في الحرب الباردة».

بعد أن الدول الثلاث، بريطانيا وفرنسا وإسرائيل، كانت رغم ذلك، مضممة على بلوغ هدفها المشترك، تحطيم القوة العسكرية والمعوية المتزايدة لمصر، ومع قيام أي نوع من الوحدة العربية، لا سيما وحدة تشرعها دولة «نورية»، لكن من سبوه حظ ايدن بالذات، أن الولايات المتحدة لم تكن طرفاً في اللعبة، ولم تكن موافقة عليها، وعرب أن ايدن لم يدرك ذلك باكراً فقد أوفد إليه الرئيس ايزنهاور عدداً من المعوثين، منهم وزير الخارجية (جون فوستر دالاس) وكتب له عدة مرات، يحذره مخبة العمل الذي يتوي القيام به، وقد كتب له في ٩ سبتمبر ١٩٥٦ يقول:

«استعمال القوة العسكرية ضد مصر في هذه الظروف، سوف تكون له نتائج أخطر من دفع العرب إلى تأييد عبد الناصر، سوف يحدث ذلك خلافاً عصبياً بين بلدينا، ولا بد أن أخبرك بصراحة، أنه إلى الآن، لا يوجد أي اتساع في الرأي العام الأمريكي لتأييد عمل كهذا، بل أن الأمر المحسوس في الرأي العام، هو الاعتقاد أن الأمم المتحدة قد أسست أصلاً للحيلولة دون حدوث مثل هذا العمل

لذلك، فإما تأييداً تلقى تحركاتكم للقيام بعمل عسكري ضد مصر، ويحز معتقد أن عبد الناصر قد يلجأ إلى الأمم المتحدة مطالبا بإيادها شجب هذه الأعمال واعتبارها عدواناً، وأنها تطوني على رمض للنوسائل المتاحة لحل النزاع حلاً سلمياً».

إنه يبدو لنا - فوستر وأنا - أن الهدف الذي تسعى إليه، نحن وأنتم، يمكن الوصول إليه بوسائل أظن وأقل إثارة من استعمال القوة العسكرية. توجد محاللات واسعة للعمل، لم ندرسها دراسة كاملة، لأن ذلك سوف تأخذ وقتاً إن عبد الناصر يتألق ويزداد حيوية بالاثارة إذا صبرنا عليه حتى تخف عناصر الدراسا، ويتركنا على تمريره من البواء بوسائل قد تكون عطشة ولكنها مضمونة، كالتدبيرات، فإني أعتقد أننا سوف نصل إلى النتائج المطلوبة، أما الأمين العام للأمم المتحدة، داج هيرشولد، فقد وجد في أكتوبر عام ١٩٥٦، أن الهجوم الثلاثي على مصر، قد سدد ضربة كانت تقضي على كل آماله في إيجاد حل عادل لقضية الشرق الأوسط.

أي قضية فلسطين ■

(تحدث معنا)

نحو أفق بعيد

١٥٢



بقلم الطيب صالح

كان (داج همرشولد) يشعر بغير قليل من الرضى في ربيع عام ١٩٥٦. كان قد نجح الى حد كبير في تهدئة الامور على امتداد خطوط الهدنة بين اسرائيل والدول العربية، وخاصة مع مصر. كان يحس انه نجح في خلق حالة نفسية ايجابية يستطيع ان يستثمرها لتوجيه المنظمة لاجراء حل عادل لقضية الشرق الاوسط.

ظن همرشولد، وكثير من الناس حينئذ، ان منظمة الامم المتحدة، اخذت تشكل كقوة جديدة، لا تخضع لطموحات الدول الاعضاء، وخاصة الدول القوية، قوة معنوية هائلة، يسندها الرأي العام في العالم، يمكن ان تنجح اذا فشلت عصبة الامم، في اقامة نظام عالمي مستقر، لا يخضع لمنطق القوة، ولكن لمنطق العدل والمساواة. لذلك كان يقول بكثير من التفاؤل:

«ستطيع الدول، بقليل من التبصر، ان تستخدم المنظمة لمحاولة ايجاد حلول للقضايا الكبيرة في العالم، بدلا من محاولة حلها بطريقة فردية. هذا سوف يقوي المنظمة، ويجعلها بالتالي اقدر على معالجة قضايا السلام».

ثم، كانما فجأة، بدا كما لو ان كل جهود الامم العام، قد ذهبت سدى، ففي يوم الاثنين ٢٩ اكتوبر، شنت اسرائيل هجوما عسكريا واسع النطاق على مصر، وأعلنت ان قواتها اكتسحت سيناء للقضاء على قواعد الفدائيين..

لم يكن الحدث مستغربا تماما، فممنذ أعلن الرئيس جمال عبد الناصر تأميم القناة في ٢٦ يوليو عام ١٩٥٦، كرد فعل مباشر لسحب أمريكا عرضها لتمويل السد العالي، أخذت بريطانيا وفرنسا تخططان لتدخل عسكري في مصر.

اتضح فيما بعد، ان بريطانيا وفرنسا، بينما كانتا تحاولان في الظاهر التوصل الى حل من خلال منظمة الامم المتحدة، كانتا تعملان سرا بالتواطؤ مع اسرائيل، على فرض ارادتهما بالقوة على مصر.

لم يكن همرشولد يعلم حينئذ، ان بريطانيا وفرنسا واسرائيل، وقعت في ٢٤ اكتوبر اتفاقا سريا في Sevres في فرنسا ينص على ما يلي:

«في عصر يوم ٢٩ اكتوبر تشن القوات الاسرائيلية هجوما واسعا على القوات المصرية».

في يوم ٣٠ اكتوبر توجه الحكومتان البريطانية والفرنسية، نداء الى مصر لوقف اطلاق النار وقوبا تاما، وسحب قواتها الى مسافة عشرة اميال غربي القناة، وان تسمح للقوات البريطانية - الفرنسية المشتركة، ان تحتل بصفة مؤقتة، مواقع رئيسية على القناة.

في الوقت نفسه، يوجه نداء للحكومة الاسرائيلية لوقف اطلاق النار، وسحب قواتها الى مسافة عشرة اميال شرقي القناة.

اذا رفضت أي من الحكومتين، او لم تُعط موافقتها خلال اربع وعشرين ساعة، في تلك الحالة، تتدخل القوات البريطانية - الفرنسية. واذا لم تستجب مصر للنداء، فان القوات البريطانية - الفرنسية، تبدأ الهجوم في وقت مبكر من يوم ٣١ اكتوبر.

وعدت اسرائيل الأتهاجم الاردن، واذا هاجم الاردن اسرائيل فان بريطانيا لن تكون ملزمة بنص المعاهدة بينها وبين الاردن لمساعدته، لان المعاهدة تلزم بريطانيا فقط في حالة اعتداء اسرائيل على الاردن.

تحتل القوات الاسرائيلية الساحل الغربي لخليج العقبة وتحكم سيطرتها على خليج تيران..

في اليوم نفسه - أي يوم ٢٤ اكتوبر - عرض (انتوني ايدن) الخطوط العامة للخطة على مجلس الوزراء البريطاني، دون ان يكشف لهم ما اتفق عليه في Sevres مع فرنسا واسرائيل، وأضاف: «يمكن الاستعراض انه في حالة حدوث هذه العملية، فان اسرائيل

سوف تقوم بهجوم شامل على مصر. هذا سوف يساعد على اختصار فترة الهجوم الجوي (من القوات البريطانية - الفرنسية). الهدف الثاني من العملية هو ضمان سقوط نظام الكولونيل عبد الناصر في مصر».

لم يكن همرشولد على علم بكل هذا، لذلك حين بدأ الهجوم الاسرائيلي على مصر، اصيب بصدمة عنيفة، وكان غاضبا أشد الغضب حين اجتمع عشية ذلك اليوم مع (كابوت لدج) مساعد وزير الخارجية الأمريكي الذي ابغاه غضب الرئيس ايزنهاور لما حدث، وطلب منه ان يدعو مجلس الامن للانعقاد، فقال همرشولد انه كان ينوي ان يفعل ذلك على أي حال.

اجتمع مجلس الامن يوم ٣٠ اكتوبر، واستمر الاجتماع الى وقت متأخر من الليل، قوى اعتقاد الامم العام بتواطؤ بريطانيا وفرنسا مع اسرائيل، حين استعملت الدولتان حق الفيتو ضد قرار مجلس الامن الذي يطلب من اسرائيل وقف القتال فوراً.

قضى همرشولد الليل ساهراً يحاول ان يحدد موقفه. وفي بداية اجتماع المجلس في اليوم التالي - ٣١ اكتوبر - قرأ بياناً كتبه بيده، يطوي على تهديد واضح بالاستقالة، قال فيه:

«الامين العام يخضع لنصوص الميثاق ومبادئه. وهو لا يستطيع ان يؤدي واجباته، الا اذا أوفت الدول الأعضاء بكل العهود التي قطعتها لاحترام الميثاق بكل نصوصه».

ثم اضاف:

«اذا كانت الدول الاعضاء تعتقد ان مصلحة المنظمة تقتضي ان تكون واجبات الامن العام بخلاف ما ذكرت، فعليها في هذه الحالة، ان تفعل ما تراه مناسباً على ضوء اعتقادها هذا».

ادرك كل من يعنيههم الامر، خاصة بريطانيا وفرنسا، ان استقالة الامن العام في تلك الظروف، سوف تواجههم بوضع لا قبل لهم به، ويكون بمثابة احتجاج سوف يجد تأييدا واسعا من الرأي العام في العالم. لذلك سارعوا جميعا الى تأكيد ثقتهم به، والتمسك باستمراره في منصبه.

سوف تختلف المواقف ويختلف الممثلون في عام ١٩٦٠، ولكن جوهر القضية لن يتغير - الصراع الازلي بين ما تظن الدول، خاصة القوية منها - انه يخدم مصلحتها، وبين متطلبات نظام عالمي يقوم على العدل والاخلاق والمثل العليا ■

(المحدث مقة)

نحو أفريقا بعيد

١٥٤



د. يحيى صالح

خرجت منظمة الامم المتحدة من «أزمة السويس»، كما خرج أمينها العام «داج همرشولد» أكثر قوة ونفوذاً. حدث ذلك لأن القوتين العظميين في العالم الولايات المتحدة والاتحاد السوفييتي، كانتا متفقتين. القضية واضحة بالقياس إلى أزمة الكونغو فيما بعد. في جانب وقعت دولتان كبيرتان، أخذ نجمهما في الأفول، تشيكتان بتلابيب مجد غابر، تحاولان محاولة بائسة إثبات قوتهما باستعمال «ديبلوماسية البوارج». وفي الجانب الآخر وقعت القوتان الوليدتان ومعهما كافة القوى الحديثة في العالم، والرأي العام العالمي. كانت محاولة بائسة بحق. والإنسان اليوم يعجب حين يعيد قراءة تاريخ تلك الحقبة، كيف أن دولتين عريقتين في فن السياسة والحكم، لجأتا إلى تلك الحيلة التي ما كان لها أن تنطلي على احد، فرنسا التي انجبت ريشليو وتاليراند وكلمنصو. وبريطانيا «العظيمة» التي انجبت لورد قريي ولورد هلفاكس ولويد جورج. ولا بد أن أيدن وريت هؤلاء الدماقنة، شعر بمرارة شديدة، وهو يتلقى الدروس في فن الدهاء السياسي، من أيزنهاور، رئيس الدولة التي كانت مستعمرة بريطانية إلى عهد ليس بالبعيد.

الأمر في جوهره، كان وما يزال، كما قال ذلك الحبر البريطاني «لورد برايرلي»: «القانون الدولي ليس إلا عباءة تستر أوضاعاً شتات بالقوة». كذلك قال الأنثيون لاهل «ميلوس» في القرن الخامس قبل الميلاد: «... أما فيما يتعلق بالحق والباطل، فليس ثمة فارق بينهما في نظر الناس، الذين احتفظوا باستقلالهم إلى الآن، استطاعوا ذلك لأنهم أقوياء.. والذين لم

نهاجمهم، لم نهاجمهم لأننا نهاب قوتهم إن فرض سلطاننا عليكم، لن يضيف فقط إلى مساحة اسبراطورتنا ولكنه أيضاً سوف يزيد من احساسنا بالامن، نحن نسيطر على البحر، وأنتم اهل جزيرة ولكنكم ضعفاء، ليس لكم من القوة ما للجزر الأخرى، لأجل ذلك يعيننا عنابة قصوى إلا نغلثوا من قنضتنا».

لا توجد صراحة ولا صدق أكثر من هذا، أما ورقة أثينا - وروما - في النصف الثاني من القرن العشرين، فقد حاولوا استمر سياساتهم بـ «عباءة»، كما قال لورد برايرلي، ولكنها كانت عباءة مزقة مهلهلة لا تكاد تستر عورة.

لماذا فعلت بريطانيا وفرنسا ذلك؟ لماذا لم تمضيا قدماً كما فعل الأقوياء طوال التاريخ؟ لماذا البحث عن ذريعة؟ ربما لأن الدولتين لم تعودا قويتين بالفعل، أو لم تعد لهما القوة الكافية. تأكد ذلك حين شبت الحرب. السبب الثاني هو ظهور عنصر جديد في السياسة الدولية، ربما لا يكون واضحاً تماماً، ولكنه محسوس الأثر - ذلكم هو «الرأي العام» فيما بعد في حرب فيتنام أصبح الرأي العام قوة هائلة.

يبدأ ميثاق الامم المتحدة بعبارة فيها اصداء واضحة من مقدمة دستور الولايات المتحدة «نحن شعوب الامم المتحدة». من كتب ذلك؟ وهل كانت الدول الكبيرة التي خرجت ظافرة من الحرب العالمية الثانية، وأخذت المقاعد الدائمة في مجلس الأمن، وأعطت نفسها حق «الفيتو»، هل كانت هذه الدول تعني ما تقول حقاً؟ الأمن العام للامم المتحدة، أخذ العبارة مأخذ الجد. انه ابن السويد، الدولة التي لم تفرق في أحوال الاستعمار الأوروبي في افريقيا واسيا واستراليا والقارة الأمريكية. وفي النصف الثاني من القرن العشرين تقدم نموذجاً طريفاً، يعتبره كثير من الناس مخرجاً من غلواء الرأسمالية أو الشيوعية. وهمرشولد إلى ذلك من صفوة نتاج التراث الأوروبي «الإنساني». ذلك الوجه الآخر، الوجه المصيرى للحضارة الأوروبية فيه شيء من روح الشعراء والفلاسفة، وكان بالفعل يكتب الشعر. مثلاً هذه الفقرة من خطاب له، يخد الإنسان فيها أثراً واضحاً من فكر الفيلسوف الفرنسي «تيلهاردي» شاردارن: «السعي على هامش تطور المجتمع الإنساني، يعني السعي على حافة المجهول. سوف يظهر في المستقبل، أن كثيراً مما نذله اليوم، عديم الجدوى. لكن ذلك لا يشغلنا إذا نحن احييناً عن الفغل، حسب ما يملبه علينا ادراكنا، غير متغاضين عن قصور هذا الإدراك دون أن نفقد الأيمان بالنتيجة الحتمية للتطور الخلاق الذي أسعدنا لخط المساهمة في تحقيقه».

«التطور الخلاق»، وإذا شئت قلت «تراكم الأبداع». ذلك ما كان يدعو اليه «دي» شاردارن، ذلك الفيلسوف الزاهد، وقد كان همرشولد، احد حوارييه. انما تاريخ الإنسانية إلى الآن، لا يدل على أن «تراكم

الأبداع» له أي تأثير على سياسات الدول، معضتها أزاء بعض. بل إن منطق القوة يسير في خط مواز لمنطق الأبداع، ونادراً ما يلتقي معه. كان عبد الملك بن مروان رحمه الله، مع علمه وأدبه، يدرك ذلك تمام الإدراك، فقد كان من أوائل أساطين «الريال بولتيك».

الآن، في عام ١٩٥٦، يبدو لهمرشولد على أي حال، أن الامم المتحدة هي القوة المعنوية الجديدة، التي سوف تحدد من عطرسة الدول، وتحمل طموحات الشعوب نحو السلام. وقد أسعده ان الاسريكان والسوفييت، بالتعاون الوثيق معه، استخدموا الجمعية العمومية، التي يصغها بعض الناس بأنها «مستشودع ضميم الإنسانية». أغلقت بريطانيا وفرنسا الطريق في مجلس الأمن، فجأوا إلى وسيلة كانت الولايات المتحدة قد ابتدعتها للتدخل في كوريا باسم الامم المتحدة، واسميت ذلك «الاتحاد من أجل السلام». أصبح ممكناً تلك الوسيلة تخطي مجلس الأمن والعمل بتعويض من الجمعية العمومية، على اتخاذ الخطوات اللازمة لصيانة الأمن والسلام في العالم.

هكذا خرج «همرشولد» منتصراً من أزمة السويس، إذ خرجت بريطانيا وفرنسا مضعضعتين. كانت مرحلة فاصلة بالنسبة لهما. أصبح واضحاً انهما لم تعودا قوتين من الدرجة الأولى. لم تلبث فرنسا أن فقدت الجزائر، وكاد ينقرط عقدها لولا أن جاءها ديجول. وتنازلت بريطانيا عن دورها «شرقي السويس» للولايات المتحدة. اما اسرائيل، «سيارطة الشرق الأوسط» فانها لم تخسر كثيراً، ادخلت للقوتين العظميين، وخاصة امريكا، وانسحبت من سيناء، ظلت تترصص عشر سنوات، ثم انقضت، بمفردها هذه المرة، بعد أن حصلت نفسها وضمنت الولايات المتحدة إلى جانبها، والرأي العام في أوروبا وامريكا. وكانت مصر قد اعطتها المبرر الـ Casus Belli كما يقولون على طبق من ذهب.

ان سلوك اسرائيل، بنبرء بوضوح انها تعمل بوجي المبدأ القديم الذي حوذه الفلاسفة الألمان إلى مذهب محترم في السياسة - «الريال بولتيك». من هؤلاء «شبنجر» الذي يفضسه اليهود بغضاً شديداً، فهو يقول:

«الدولة، هي تصير قوية، لا بد لها من الدخول في صراعات مستمرة مع جيرانها». انهم يقولون، يمثل الصراحة التي خاطب بها الأنثيون اهل «ميلوس»:

«خود اسرائيل تكون حيث تنتهي قوة اسرائيل». وحين يقيمون المستوطنات فوق ارض فلسطين فإنهم يعلمون أنهم لا يفعلون شيئاً جديداً. لقد كانت المستوطنات طوال التاريخ طلائع وضع اليد على الأرض باكملها. ولا يحسون أنهم يحتاجون إلى أي مبرر «خلفي». كذلك فعل الغالبون من قبل. كذلك فعل الأنثيون منذ أكثر من ألفي عام ■

نحو أفق بعيد

١٥٥



يقام الطبيب صالح

العصابات، الكلاسيكية، التي شُيِّدَ دون هوادة

لم يكن سعيداً وهو يستمع الى خطاب الرئيس ايزنهاور، وأريد وجهه بوضوح حين قال ايزنهاور:

«إن الهجوم على الامين العام، هو في الواقع هجوم على منظمة الامم المتحدة نفسها».

ثم لما قال:

«ما سوف يحدث في الكونغرس سيقرّر مدى قدرة الامم المتحدة على حماية الدول الحديثة العهد بالاستقلال في افريقيا. ليس ذلك فحسب، ولكن قدرتها على حماية الدول الصغيرة اطلاقاً من العدوان».

كان ذلك ما يدعو اليه الامين العام. كانت تلك هي الفلسفة التي يستند اليها في عمله. ولكن لعنه تمنى لو ان ايزنهاور لم يذهب الى ذلك الحد، في تأييده، خاصة انه ربطه بقضية الكونغو، التي يعلم همرشولد انها تثير ثائرة الرفيق خرسنشوف.

هذا، منذ وصل الى نيويورك، وهو لا يكل عن مهاجمة الامين العام. وفي خطابه في الجمعية العمومية في اليوم التالي لم يترك مجالاً للشك. قال ان الامين العام منحاز «الى معسكر الاستعماريين»، وان الامم المتحدة لم تعد تعكس حقيقة الوضع في العالم. لا يوجد معسكران ولكن ثلاثة معسكرات. المعسكر الاشتراكي والمعسكر الرأسمالي، ومعسكر الدول غير المنحازة. لذلك يجب الغاء منصب الامين العام، واستبداله بثلاثة امراء «ترويكاء» يمثل كل منهم قوة من القوى الثلاث.

قال همرشولد في رده «القضية لا تتعلق بشخص الامين العام، بل بالمؤسسة. صف منصب الامين العام بأي كلمات تشاء. الاستقلال، الحياد، النزاهة. كلها صفات يجب ان يتصف بها الامين العام.. وهذه الصفات، ربما تقوم عقبات في وقت من الاوقات، في سبيل اولئك الذين يهمهم تحقيق اهداف سياسية يصعب عليهم تحقيقها ما لم يتنخل الامين العام عن مبادئه».

واضاف همرشولد ان كلام خرسنشوف «يطرح موضوع الثقة في الامين العام».

لم يتردد خرسنشوف عن إزالة اي غموض بهذا الصدد، فطلب حق الرد مباشرة، وقال:

«كي نتجنب اي لبس او سوء فهم، اريد انؤكد أننا لا نثق في مستر همرشولد ولا نستطيع ان نثق به. واذا لم يجد هو الشجاعة الكافية للاستقالة بأسلوب الفرسان. اذا صح القول. فاننا سوف نستخلص النتائج التي يحتملها

مثل هذا الموقف».

بوسع الانسان ان يتخيل وقع هذه الكلمات. هذا الرجل الذي قد تفتحه العين، ليس رجلاً عادياً. انه زعيم ثاني اقوى دولتين في العالم، وتطالب ان تعترف بها هذا للولايات المتحدة، الدولة الاولى. هل كان خرسنشوف يعني ما يقول، ام انه كان يمثل عمداً دوراً بغياً بمهارة عظيمة؟

في جلسة بعد الظهر، امتلات القاعة باعضاء الوفود والمراقبين والصحفيين. وازدحمت الامكن المخصصة للجمهور. لم يبق موطئ لقدم، وكان كثيرون يتوقعون ان يعلن همرشولد عن استقالته.

تحدث بصوت خفيض هادئ، يخفي توتراً عظيماً. قال:

«انني لو استقيلت سوف القي بالمنظمة في مهب الرياح، في هذه الظروف الصعبة المملوءة بالمخاطر. انه لا يحق لي ان افعل ذلك (...) انني اتحمل مسؤولية آراء الدول الاعضاء كلها، الدول التي تمثل المنظمة بالنسبة لها اهمية قصوى (...) الاتحاد السوفييتي ليس في حاجة الى حماية المنظمة، ولا اي من الدول الكبيرة. الدول التي تحتاج الى المنظمة هي الدول الاخرى. وبهذا المعنى فهي منظمة هذه الدول (الصغيرة) قبل كل شيء (...) سوف ابقي في منصبى الى نهاية فترتي، خادماً للمنظمة، وحامياً لمصالح تلك الدول، طالما ارادت لي البقاء (...) لقد تحدث مستر خرسنشوف عن الشجاعة. سهل جداً على المرء ان يستقيل. سهل جداً ان ينحني المرء لرغبة دولة كبيرة. انما ان تقاوم، فذلك شيء آخر، وهو امر يعلم اعضاء هذه الجمعية، انني لم اتردد عن فعله مراراً...».

إنني اذكر جيداً الاثر البالغ الذي أحدثه هذا الخطاب، والتصفيق الذي قوطع به عدة مرات. ثم في النهاية حين وقف الناس وظلوا يصفقون ويهتفون زمناً. الا الرفيق نيكيتا سيرغييفتش. ظل جالساً مع جماعته، يضرب على المائدة بكلتا قبضتيه. مثل دوره الى اخر مداد. في مساء اليوم التالي دعا خرسنشوف همرشولد الى حفل الاستقبال الذي اقامه في مقر الوفد السوفييتي في (بارك افينيو). استقبله بحفاوة عظيمة، وقبله وعانقه، وقال له ضاحكاً:

«لا تراهن على حصان الراسمالية. انه حصان خاسر. راهن على الحصان الأبيض، حصان الاشتراكية» ■

نحو أفق بعيد

١٥٧



بقلم الطيب صالح

لماذا الجزع يا قلبي؟ أما ودعت الاحباب من قبل؟ أنسيت ان الموت اقرب اليك من حبل الوريد يجيئك من حيث لا تحتسب؟ كأنك تمنيت ان يبقى بعيد، يرثيك ويترحم عليك. كان أوفى صلة بربه، واصفى روحاً، وابلغ دعاء، فياليته ظل، وانت ذهبت. ولو كان الموت يقبل المفاداة، لكانت تلك قسمة عادلة.

انما الله قاهر فوق عباديه، ومشيئته لا ترد، فالحمد لله.

جاءك الخير الفادح على غفلة، فزعزع اركانك، واحسرتاه. من لي بعدك بتلك الابتسامة المضيئة، وذلك الوجه الرضي، كأنه مرآة مجلوه تعكس دخيلة قلب يفيض بالخير والمحبة وتقوى الله؟

كان تاج السر محمد نور، اخي وصديقي، ابن عمتي وصهري من بقية النفر الابرار الذين متوا على الارض هونا، وناذتهم الحياية وناذوها بلسان المحبة. الاصفياء الذين صابروا ورابطوا في الحضي، وظلت نيرانهم موقدة. ولد في السراء فلم تبطره السراء، وحين تحول الزمان لم يأس على تحول الزمان، مثل الجيل الاثم، يرب به السحاب وتهب الاعاصير.

ما اوسع الحزن وما اضيق الكلمات، وهذا عدل نفسي بحق. الا

بعزيتك أن تعلم أنه رحل عن الدنيا قرير العين راضي النفس؟ أما كان دائماً كأنه على أهبة السفر؟ لم يترتب للموداع. لم يلوح بيسد. لم يتلفت وراءه. كان ذاهباً الى لقاء ربه في صلاة الجمعة، مقبلاً اليه بكلية، على أهبة الاستعداد للسفر. في الطريق، ثمّة، ناداه الصوت الذي تبعه منذ البدء. استحباب له ببساطة، بلا حيلة ولا ضوضاء، كان مقدراً ان يتم الأمر على هذه الصورة، فقد عبد الله في خفية.

عبد الله بخشية وخفية، فلا تكاد تعرف طول عبادته. ولكن سره كانت تفضحه الأنوار التي تلمع على وجهه.

نشأنا معاً منذ طفولتنا، فقد كنا من سن واحدة، يصغرني بعام. كان الزمان جميلاً، فتقاسمنا حلاوة الزمان. وحين تعبر الزمان، كان بعضنا يشد أزر بعض فلم نكتسرت لتغير الزمان. أولئك اخوتي في العهد الأول، هو وعلوب وسعيد وابراهيم عباس مد الله في اعمارهم.

وكان هو اسرعنا بذلاً، واصدقنا قولاً، وامضانا عزيمة، وارحنا عقلاً، واكثرنا مرحاً، واصبرنا على الشدائد.

كانت فيه غبطة وفرح داخلي، كأنه يتكتم نب سارا. وتلك السكينة لانه أبدا لم يجرب الاحساس بالذنب. ومن أين يجينه الاحساس بالذنب؟ نشأ في طاعة الله. اطاع الله ببساطة، وكأنه لا يبذل جيده، وكان سبيل الحياة المحيرة قد سدت كلها عليه، وانفتح أمامه طريق واحد، هو طريق الخير والصلاح، فسلكه، وظل يسير فيه الى لقائه الموعود بربه يوم الجمعة.

من أين يجينه الاحساس بالذنب؟ لقد أوفى بالعهود كلها واكثر، بر بابويه ووصل ارحامه، ورضي عن الناس ورضوا عنه. استقبل القادمين وودع المسافرين، وعاد المرضي ودفن الموتى. وفي بنصيبه ونصيبه ايضا. بسد كل تغرة اغفلتها، وينهض بكل واجب تركته يقبلني على علاتي، ويغض الطرف عن هفواتي.

رجل ثابت في زمان متقلب. كنت أعيب العام والعامين، وحين أعود أجده كما عهدته دائماً. داره تتسع قليلاً، واثاث بيته يتحسن قليلاً، أما أبداً لا تجد عنده آثار نعمة طائرة او ثروة مفاجئة. والدار أبداً عامرة

بالناس، عشيرته واصدقاؤه، لا يكادون يتغيرون على مرور السنين. عمل في مصلحة الجمارك وهو دون العشرين من عمره، وظل يرقى الدرجات بفضل اخلاصه وجده وذكاؤه الخارق، وتلك العناية الالهية التي كانت تقود خطاه، حتى وصل الى أرفع المناصب، واصبح من قلة يضرب بهم المثل في الكفاءة وعفة اليد. كان يقول انه قطع عهداً على نفسه ألا يطعم عائلته من المال الحرام، وما كان اكثر المال الحرام.

ظل من الصابرين المرابطين في الحضي. مرة سافر الى بعثة دراسية في معهد الجمارك في الاسكندرية. ومرة ذهب معاراً من حكومة السودان الى اليمن. وخرج مرتين لاداء فريضة الحج. غير ذلك لم يبرح السودان أبداً. وأنا وامثالي نضرب في البلاد ونجوب الافاق.

شجرة وارفة تنفياً ظلالتها وتاكل من ثمارها. تجلس اليه فتعرف من نبع لا ينضب. كان قوي الذاكرة بشكل عجيب، يحفظ القرآن والحديث والشعر الفصيح وشعر الدوبيت والتاريخ والانساب والملح والطرائف. يغمرك بروحانيته، وينسبك عنك الحياة. يجعلك تحس انك افضل مما انت في الحقيقة. تحس ان مجرد وجوده في الدنيا يجعلها اكثر خيراً وأقل عبواً.

رجل مصباح، يكون قدوة ويضرب به المثل. جاد به الزمان في لحظة من لحظات أرحبته النادرة، فرف مثل طيف جميل، مثل الغيث في الربيع، ثم مضى على عجل ويا للحسرة، ولما استرد الخالق وديعته، فكان الزمان عاد خيلاً كعهده. رحيله ورحيل الصالحين امثاله، علامة كما جاء في الاثر.

مضى الى حياة افضل ان شاء الله، مع الصديقين والابرار. وأنا لي الله. لانه اغنى حياتي بحياته، وافاض علي من بركاته، فأنت برحيله قد افقرني جداً، وتركني اقل مما كنت.

وأنا قليل أصلاً في ميزان الحق. أف للدنيا، تعطيك هباء بحسبه الناس هبات. والذي تحبه يذهب ولا يعود. ولا عزاء.

رحم الله تاج السر محمد نور. وصبر جميل والله المستعان ■

نحو أفق بعيد

١٥٨



بقلم الطبيب صالح

منذ القرن الخامس عشر، والبرتغاليون يحومون حول أفريقيا، كما تحوم النسور فوق جسد وعمل جريح، وقع من الأعباء، يحاول أن ينهض فلا يستطيع. الذهب بغيتهم، خاصة الذهب. لا عجب، فقد كانت كنوز أفريقيا تسيل لعاب الأوروبيين منذ أمد بعيد، يسمونها «الدورادو». أرض الكنوز الخرافية. وكان الذهب الأفريقي الذي يتسرب إلى (جنوا) والبندقية، وبقيّة مدن البحر الأبيض المتوسط يفتح شهيتهم، ويلهب خيالهم. ولكنهم لم يكونوا يعرفون من أين يجيء، وكيف يصل إليهم، وكانوا قد تسامعوا من قبل، أن السلطان موسى، سلطان مالي، قد مر بمدينة القاهرة في طريقه لاداء فريضة الحج، ومعه حاشية من خمسمائة مرافق، كل واحد منهم يحمل قضيباً من الذهب الخالص، زنته أربعة أربال، ليهديها إلى بيت الله الحرام. جن جنونهم، وتساءلوا، من أين يجيء كل ذلك الذهب؟

وفي نحو عام ١٤٨٠، نجح البرتغاليون في أن يجدوا لهم موطئ قدم على ساحل أفريقيا الغربي، وبدأت سفنهم تشحن الذهب في مصب نهر السنغال وفي خليج غينيا. يصلهم من أماكن غامضة في وسط القارة، لا يعلمون أين. لم يستطيعوا النفاذ إلى قلب القارة، فآخذوا يضفطون جنوباً. وفي عام ١٤٩٧

وصل (فاسكو داغاما) إلى طرف القارة من ناحية الجنوب، فسموه (رأس الرجاء الصالح) The Cape of good Hope، وكان آخرون بهم أن يسموه (رأس الجشع الغادح) فلم يكن البرتغاليون يأملون في شيء غير الكنوز والثراء. والآن انفتح لهم طريق بحري إلى الهند وبقيّة آسيا، بديل عن الطريق البري الشاق.

في أثناء ذلك، كان الفرنسيون والانجليز في سياق محموم، أيهم بفوز بقلب القارة. وكان الانجليز يحسون أن الفوز سوف يكون من نصيبهم، بسبب جهود مكتشفهم، أمثال (الفنچيستون) و(سبيك) و(غرانت) و(بيرثن) وأخيراً الملازم (كامرون). وقد بدا الرأي العام في بريطانيا يهتم بأفريقيا، حين أنشئت أول بعثة تشيرية على سفينة على بحيرة (نياسا) مما أدخل عنصراً جديداً أسيغ ثوباً أخلاقياً على الجشع الاستعماري. أما الفرنسيون فقد ظلوا يتلقطون أنبياء الرحالة الانجليز ويحاولون أن يجدوا منفذاً إلى قلب القارة من مستعمرتهم في (غامبيا).

لعل السعار الأوروبي كان سيتجه إلى الأمريكتين، بعد أن وصلوا إليها على أثر (كولمبس) في أواخر القرن الخامس عشر. ولكن التوسع في زراعة القطن وقصب السكر هناك، أضاف إلى سعارهم في أفريقيا، سبباً جديداً. كانت تلك المزارع تحتاج إلى أيد عاملة، ملايين الأيدي العاملة. وكانت أفريقيا، الوعل البري الجريح، لا حول لها ولا قوة، لا تستطيع أن تدافع عن نفسها في مواجهة التكنولوجيا المتقدمة. البوارج والمدافع والبارود. هكذا نشأت تجارة الرقيق. كما كان الذهب يصل إلى مساكن الساحل الغربي، أصبح الرقيق يتدفقون من وسط القارة، فيتم فرزهم وتصنيفهم مثل السلع التجارية، وشحنهم مكشزين في السفن في ظروف مخزية، إلى البرازيل وأمريكا وجزر الهند الغربية.

رحلت أوروبا نحو عشرة ملايين إنسي في هذه التجارة البشعة. كانت أكبر عملية تهجير قسري في التاريخ. سوف يجيء وقت يحس فيه الضمير الأوروبي بوطاة الإحساس بالذنب، فيبحثون عن شعب آخر يحملونه وزر خطاياهم. ومن تقطن الشعب الغافل الذي يحمل أوزار الآخرين عن طيب خاطر؟

كل ذلك وبلجيكا مغفل. كان ليوبولد الثاني يرى الكلاب الأوروبية تنهش في لحم أفريقيا، ويتلمظ يربد عظماً أو مرققة من لحم. عنده رأس مال حاضر، يبلغ خمسة عشر مليون فرنك، يريد أن يحصل به على مستعمره، ولا أحد يسخو بالبيع أو الإيجار. لا بد من الحصول على مستعمرة. كيف يفعل؟

خطر له فكرة ملهمة. يكسو الجشع رداء الحضارة والمثل العليا وخدمة العلم. فكر أن يعقد مؤتمراً كبيراً في برنسل، يدعو إليه العلماء والرحالة والمكتشفين. وفي الثاني عشر من سبتمبر عام ١٨٧٦، افتتح الملك المؤتمر في القاعة الكبرى في القصر الملكي، في جو ساحر من الأنبة والفخامة، وأنغام الموسيقى وأضواء الشموع. كان ذلك بداية شر مستطير للكنغو الباش. مأساة لم تتم فصولها بعد. حقاً التاريخ لا ينسى ولا يغفر. البذور الشريرة التي غرسها ليوبولد في تلك الليلة، أنبتت فيما بعد. كما كان حتماً أن يحدث. شجراً شوكة الندم، وثمره الحسرة.

خطب الملك في جمع العلماء والمكتشفين والرحالة والمغامرين والأفاقيين الذين شمووا رائحة الثراء، ولمع في خيالهم بريق الذهب من قلب أفريقيا المتعب. قال:

«... أن نفتتح للحضارة الجزء الوحيد من كوكبنا الذي ظل مغلقاً دونها... أن نضيء الظلام الكثيف الذي يخيم على شعوب باكملها... تلكم هي، إذا جاز لي التعبير، المغامرة النبيلة... الجهاد المقدس الذي يليق بهذا العصر. وأنه يبدو لي أن بلجيكا مؤهلة لاجتماعنا هذا، بحكم موقعها المتوسط في أوروبا، وبحكم حيادها. هذا هو الذي شجعني أن ادعوكم إلى داري المتواضعة في هذا الاجتماع الصغير الذي شرعني أن افتتحه اليوم. ولا حاجة بي أن أؤكد لكم، أن دعوتي لكم إلى هذا الاجتماع، لا تخفي وراءها أية أغراض أنانية. أبداً أيها السادة، صحيح أن بلجيكا دولة صغيرة. ولكنها دولة سعيدة راضية بحظها. أن طموحي الوحيد هو أن أخدم شعبي وبلادي».

بين عشية وضحاها، تحول ليوبولد الثاني ملك البلجيك، من ملك مغمور لدولة لا يؤبه لها، إلى نجم يتالق في سماء أوروبا كلها ■

(للتحديث نقياً)

نحو أفق بعيد

١٥٩



بقلم الطبيب صالح

كان المؤتمر ناجحاً بكل المقاييس، أَرْضَى تَوَقُّعَاتِ الْمَلِكِ كُلِّهَا. وَوَجَدَ أُولَئِكَ الْعُلَمَاءُ وَالرَّحَالَةَ وَالْمُكْتَشِفُونَ أَنْفُسَهُمْ غَرَقَى فِي مَحِيطٍ مِنَ الْعَطْفِ الْمَلِكِيِّ السَّامِيِّ، وَالْبَذَخِ وَالْأَضْوَاءِ وَالسَّحَرِ، إِلَى دَرَجَةِ دُوخَتْ رُؤُوسَهُمْ وَأَعَشَّتْ أَبْصَارَهُمْ، فَكُتِبَ الْعَالَمُ الْوَقُورُ «سِيرَ هَنْزِي رُولِسْن» مُكْتَشَفٌ طَلَّاسُ اللُّغَةِ الْهِيروغليفية، كُتِبَ إِلَى زَوْجَتِهِ فِي لَنْدُنَ بِحِمَاسٍ صَبِيٍّ يَرَى السَّرَّكَ لَوَّلَ مَرَّةً.

«تَصَوَّرِي أَنَّهُمْ خَصَّصُوا لِي جَنَاحاً فَخِراً، جَنَاحاً كَامِلاً لِي أَنَا وَحْدِي كُلِّ مَا فِيهِ أَرْجَوَانِي وَمَذْهَبُ. اللَّوْنُ الْأَحْمَرُ يَطْفَى عَلَى كُلِّ شَيْءٍ حَتَّى وَرِقَ التَّوَالِيَتِ».

وَقَالَ الْبَارُونُ (فُون رِيخْتِهوفن) رَئِيسُ الْوَفْدِ الْأَلْمَانِيِّ:

«أَدَارَ الْمَلِكِ جُلُوسَاتِنَا بِلُطْفٍ وَتَهْنِيبٍ يَفُوقَانِ الْوَصْفَ. أَنَّنِي لَا أَعْرِفُ تَظْهِيراً لِكَرَمِ الضِّيَافَةِ وَالتَّرَفِ الَّذِي عَوَّلْنَا بِهِ».

أَجَلْ، أَحْسَنَ لِيُوبُولْدَ بِالرَّضَى. تَحَوَّلَ بَيْنَ يَوْمٍ وَلَيْلَةٍ، مِنْ مَلِكٍ عَاطِلٍ الذِّكْرَ لِدَوْلَةٍ لَا وَزْنَ لَهَا، إِلَى نَجْمٍ يَشْعُ فِي سَمَاءِ أَوْرُوبَا، مِنْ بَحْرِ الْبَلْطِيقِ

إِلَى سَوَاحِلِ الْأَطْلَسِ وَمَا وَرَاءَهُ، تَهْفُو إِلَيْهِ قُلُوبُ سَيِّدَاتِ الصَّالُونَاتِ فِي «مَبْنَى فِير» فِي لَنْدُنَ وَال «فُوبُور» سَائِلَاتِ أُتْرِي» فِي بَارِيسَ. أَصْبَحَ رَمْزاً لِنُورِ الْحَضَارَةِ الْأَوْروبية، الَّذِي سَوْفَ يَجْلُو الْغِيَاظَ فِي قَلْبِ «الْقَارَةِ الْمُظْلَمَةِ». أَصْبَحَ بِمِثَابَةِ الْأَسْتِجَابَةِ لِلدَّعَاءِ الَّذِي وَجَّهَهُ «لَفْنَجِسْتُون» فِي الْخَامِسِ مِنْ دَيْسَمْبَرِ عَامِ ١٨٥٧:

«أَتَوَسَّلُ إِلَيْكُمْ أَنْ تَهْتَمُّوا بِأَفْرِيقِيَا. أَعْرِفُ أَنَّنِي سَوْفَ أَقْضِي عَمَّا قَرِيبٍ، وَبِنَقْطَعِ خَبْرِي، فِي تِلْكَ الْأَرْضِ الَّتِي انْفَتَحَتْ الْآنَ. لَا تَدْعُوهَُا تَنْغَلِقُ مِنْ جَدِيدٍ. سَوْفَ أَعُودُ إِلَى أَفْرِيقِيَا لِأَوَّاسِلِ الْجَهْدَ كَيْ أَفْتَحَ طَرِيقاً لِلتَّجَارَةِ وَلِلدِّينِ الْمَسِيحِيِّ. فَهَلْ تَوَاصِلُونَ أَنْتُمْ الْعَمَلَ الَّذِي بَدَأْتُمْ؟».

وَكُنَّيْ لِيُوبُولْدَ قَدْ هَتَفَ «لَبَيْكُ. لَبَيْكُ». فَقَدْ كَانَتْ التَّجَارَةُ وَالْمَسِيحِيَّةُ تَتَفَقَّانِ تَمَاماً مَعَ مَخْطَطَاتِهِ. تَحْتَ سَحَابِ الْكُرْمِ وَالْبَذَخِ وَالْآلِهَةِ الَّتِي دُوخَتْ كُلُّ أُولَئِكَ الْعُلَمَاءِ وَالْمُكْتَشِفِينَ فِي بَرَكْسِلْ، كَانَ الْمَلِكُ يَعْرِفُ مَا يَرِيدُ.

كُتِبَ إِلَى سَفِيرِهِ فِي لَنْدُنَ يَقُولُ: «يَجِبُ الْأَضْيَاعُ الْفُرْصَةَ لِلْحَصُولِ عَلَى قِطْعَةٍ مِنْ هَذِهِ الْكِعْكَةِ الْأَفْرِيقِيَّةِ الْمُدْهَشَةِ».

سَارَتْ الْأُمُورُ عَلَى مَا يَرَامُ، وَانْتَهَى الْمُؤْتَمَرُ إِلَى النِّتَاجِ الَّتِي أَرَادَ لَهُ لِيُوبُولْدُ أَنْ يَنْتَهِيَ إِلَيْهَا. وَكَانَ أَهْمُهَا «أَنْشَاءُ هَيْئَةٍ تَسْمَى (الْجَمْعِيَّةُ الدَّوْلِيَّةُ الْأَفْرِيقِيَّةُ) تَعْمَلُ عَلَى تَنْسِيقِ أَعْمَالِ الْأَسْتِكْشَافِ فِي أَفْرِيقِيَا، وَتَحَارِبِ تَجَارَةَ الرِّقِيقِ، وَتَنْشُرَ الدِّيَانَةَ الْمَسِيحِيَّةَ». وَطَبْعاً عُرِضَتْ رِئَاسَةُ الْجَمْعِيَّةِ عَلَى الْمَلِكِ، فَتَمَنَّعَ فِي الْقَبُولِ، ثُمَّ قَبِلَ بَعْدَ الْحَاجِ!

مَاذَا بَقِيَ إِذَا؟ بَقِيَ أَنْ يَحْصُلَ لِيُوبُولْدَ عَلَى رَجُلٍ عَلِيمٍ بِدُرُوبِ أَفْرِيقِيَا يَعِينُهُ عَلَى تَحْقِيقِ هَدَفِهِ. الْحَصُولُ عَلَى مَسْتَعْمَرَةٍ. وَكَانَ الْمَلِكُ يَظُنُّ أَنَّ «كَامَرُون» هُوَ ذَلِكَ الرَّجُلُ، وَلَكِنَّهُ اكْتَشَفَ فِي رَحْلَةٍ سَرِيَّةٍ قَامَ بِهَا إِلَى لَنْدُنَ مُتَخَفِياً، أَنَّ (كَامَرُون) كَانَ يَحَاوِلُ أَنْ يَعْضُرَ خِدْمَاتِهِ عَلَى الْحُكُومَةِ الْبَرِيطَانِيَّةِ، وَأَقْنَعَهَا بِبَسْطِ نَفُوذِهَا عَلَى الْجَزْءِ الَّذِي اكْتَشَفَهُ فِي وَسْطِ أَفْرِيقِيَا، بِعَنِي (الْكَنْغُو).

مَنْ هُنَاكَ إِذَا؟ سِتَانَلِي، لِمَعَ الْأَسْمَ

فِي ذَهْنِ لِيُوبُولْدَ، وَأَحْسَنَ بِالنَّشُوءِ. كُلَّمَا تَعَمَّقَ فِي التَّفَكُّيرِ، زَادَتْ قَنَاعَتُهُ أَنَّ «سِتَانَلِي» هُوَ الرَّجُلُ الَّذِي يَطْلُبُهُ. وَلَكِنْ أَيْنَ هُوَ؟ آخِرُ مَا سَمِعَ عَنْهُ أَنَّهُ فِي مَكَانٍ مَا وَسْطِ الْقَارَةِ يَحَاوِلُ أَنْ يَتَّبَعَ مَجْرَى نَهْرٍ (لُؤَا لَايَا) - النَّهْرُ الْعَظِيمُ، كَمَا سَمَّاهُ «لَفْنَجِسْتُون»، لِيَتَحَقَّقَ هَلْ هُوَ نَهْرُ النِّيلِ أَمْ نَهْرُ الْكَنْغُو.

تَارِيخُ الْأَسْتِكْشَافِ فِي أَفْرِيقِيَا بِمَوْجِ بِشَخْصِيَّاتٍ كَانَهَا مِنْ قِصَصِ رَوَائِيَّةٍ، وَكَانَ «هَنْزِي مَوْرْتَن سِتَانَلِي» مِنْ أَكْثَرِهَا غَرَابَةً. كَانَ طِفْلاً لَقِيطاً مِنْ أَبَوَيْنِ مِنْ مِقَاطَعَةِ (وِيلز)، فَنَشَأَ فِي مَلْجَأٍ أَبْتِمَامَ نَشْأَةِ بَائِسَةٍ، كَمَا رَوَى هُوَ نَفْسَهُ فِيمَا بَعْدَ. وَفِي سَنِ السَّابِعَةِ عَشَرَ هَرَبَ إِلَى أَمْرِيكََا، وَفِي مَدِينَةِ (نِيُو أَوْرْلِينز) فِي الْجَنُوبِ صَادَفَ رَجُلًا كَرِيمًا مِنْ أَصْلِ انْجِلِيزِيٍّ، يَمْلِكُ مَزَارِعَ لِلْقُطْنِ يَسْمَى (هَنْزِي هُوب سِتَانَلِي) فَآوَاهُ وَأَعْطَاهُ اسْمَهُ، وَأَنْفَقَ عَلَى تَعْلِيمِهِ.

عَمِلَ «سِتَانَلِي» مَرَّاسِلاً لِصَحِيفَةِ (نِيُو يُورْك هِرَالْد) وَاسْتَطَاعَ أَنْ يَجِدَ طَرِيقَهُ إِلَى أَفْرِيقِيَا مَرَّاسِلاً لِلصَّحِيفَةِ الْأَمْرِيكِيَّةِ بِالْإِضَافَةِ إِلَى صَحِيفَةِ (دِيلِي تِلْغْرَاف) الْأَنْجِلِيزِيَّةِ.

حِينَ التَّقَى بِ (لَفْنَجِسْتُون) عَامَ ١٨٧١، وَالرَّحَالَةَ الشَّيْخَ يَجْهَدُ أَنْ يَكْتَشِفَ (النَّوَاغِير) الَّتِي ذَكَرَ الْمُؤَرِّخُ الْيُونَانِيُّ «هِيروُدُوتِس» أَنَّ نَهْرَ النِّيلِ يَنْبُعُ مِنْهَا، قَالَ رَجُلٌ لـ «لَفْنَجِسْتُون» «هَذَا الشَّابُّ الْأَمْرِيكِيُّ الْمُتَعَجَّرُفُ سَوْفَ يَصْنَعُ مَجْدَهُ عَلَى حَسَابِكَ».

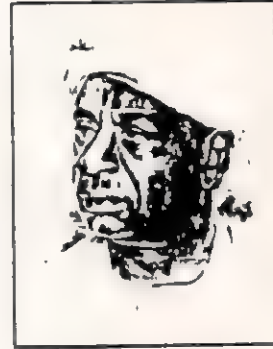
فَقَالَ «لَفْنَجِسْتُون»:

«إِذَا كَانَ ذَلِكَ مَا يَرِيدُ فَهَنِيئًا لَهُ. أَنَّهُ أَكْثَرَ مَعَ اسْتَطَاعَ صَنْعَهُ لِنَفْسِهِ».

بَعْدَ ذَلِكَ اللَّقَاءِ بِقَلِيلٍ كَانَ «سِتَانَلِي» وَاحِداً مِنْ ثَمَانِيَةِ رِجَالٍ أُعْطُوا شَرَفَ حِمْلِ نَعَشِ الرَّحَالَةِ الشَّيْخِ إِلَى مَثْوَاهُ فِي «وِسْتْمَنْسْتِر» أَبِي عَلَى حَافَةِ الْقَبْرِ إِلَى عَلَى نَفْسِهِ أَنْ يَكْمَلَ الْعَمَلَ الَّذِي بَدَأَهُ «لَفْنَجِسْتُون» أَنْ يَفْتَحَ قَلْبَ أَفْرِيقِيَا لِنُورِ (التَّجَارَةِ وَالْمَسِيحِيَّةِ). وَذَلِكَ تَحْدِيداً مَا كَانَ يَسْعَى إِلَيْهِ لِيُوبُولْد الثَّانِي مَلِكُ الْبَلْجِيكِ ■

نحو أفق بعيد

١٦٠



بقلم الطيب صالح

في بلدة تسمى «أوجيجي» على نهر «لوالابا» عثر «ستاني» على الرحالة الفس «ديفيد ليفنجستون» في أكتوبر عام ١٨٧١. كان لقاء درامياً طار ذكره في الأفاق. كان الرحالة الشيخ، رغم المرض والأرهاق، يواصل السعي بتصميم رجل اسكتلندي ينتمي إلى المذهب المسيحي الكالفيني، كي يجد منبع النيل، الذي يظن أن نهر «لوالابا» هو نهر النيل، الذي سوف يصل بواسطته «نور» المسيحية والتجارة إلى قلب إفريقيا المظلم. بعد أن يموت «ليفنجستون» سوف يكتشف الملازم «كامرون» أن الرحالة العنيد، كان يلاحق سرايا، وأن نهر «لوالابا» ليس هو نهر النيل، بل نهر الكنفو، وأن طريق «الحصارة» الأوربية، ليس من ناحية الشمال، ولكن من ناحية الغرب. وكان الأمران سيئين لدى الملك ليوبولد الثاني ملك البلجيك.

أحسن «ستاني» لاول وهلة، بألفة طائفة نحو ذلك الرجل العجيب. كان يحكم طفولته التعيسة يبحث عن أب. وجده من قبل في «نيو أورلينز» في «مستتر هنري» هوب ستاني، وما هي الأقدار قد قبضت له الآن هذا الرجل المهذب الرحيم القلب. كان رحيباً أكثر مما يجب، في نظر «ستاني»، فقد كان يعامل خدمه الزوج برفقة شديدة، ولا يقوى على عقابهم إذا أخطأوا. بعد موته، كتب «ستاني» في مذكراته يقول:

«أسأل الله أن يختارني كي أتم ما مداه في فتح إفريقيا لنور المسيحية الوهاج. لكن أسألهني سوف تختلف عن أسأله، كانت طريقته مليئة بالأخطاء، مع أن الرجل الشيخ نفسه كان مثل القديسين

في طبيعته وصبره وتضحيته. هذا العالم القاسي يحتاج إلى رجال أقوياء بوسعهم أن يتحسوا في أمور، أكثر من حاجته إلى رجال محبين.

كانا مختلفين أشد الاختلاف. فقد ترك «ستاني» وراءه، أثراً من الجثث والدماء وأد مات «ليفنجستون» وحيداً، إلا من أتباعه الزوج الأوفياء، في خيمة في الأدغال، مضي «ستاني» ليصبح نابه الذكر، يقابل الملكة فكتوريا، ويألق لقب «سير» ويقضي أيامه الأخيرة سبداً على مزرعة واسعة في الريف الإنجليزي. ولعل الكاتب العبقري «جوزف كتراد» كان يفكر في «ستاني» حين كتب روايته الشهيرة عن الكنفو، «قلب الظلام».

ولد «ديفيد ليفنجستون» في ١٩ مارس عام ١٨١٣ في بلدة «ملائير» في اسكتلندا، أحد سبعة أطفال، في عائلة فقيرة متدينة. تنتمي إلى المذهب الكالفيني المتزمت. وقد اضطره فقر أسرته أن يعمل وهو بعد صبي في محلح للقفن، فكان يعمل ويدرس. وفي عام ١٨٣٤ قرأ إعلاناً في الصحف عن حاجة «جمعية الكنائس البريطانية» إلى مبشرين أطباء للعمل في الصين، فالتحق بجامعة «غلاسكو» حيث درس، وهو ما يزال يعمل، اللغة اليونانية واللاهوت والطب. وفي عام ١٨٣٨، قبل في جمعية لندن التبشيرية، ولكنه لم يستطع السفر إلى الصين، وأقنعه أحد المبشرين في إفريقيا، رجل يسمى «موفات» أن يذهب إلى إفريقيا. سوف يتزوج «ليفنجستون» ابنة «موفات» هذا فيما بعد.

في ٢٠ نوفمبر عام ١٨٤٠ رسم كاهناً في الكنيسة، وسافر إلى مدينة «كيب تاون» في جنوب إفريقيا. كانت تلك بداية حياته الاستكشافية الحافلة. اتجه شمالاً فقطع صحراء «كالاهاري» إلى أن وصل في نوفمبر عام ١٨٥٥ إلى نهر «الزامبيزي». وقد قدر له أن يكون أول من أسمى الشلالات «شلالات فكتوريا».

كانت أنباء رحلاته وجهوده التبشيرية تتسرب إلى إنجلترا، بطريقة أضفت عليه رونقاً من الجاذبية والسحر. ولما عاد إليها عام ١٨٥٦، استقبل استقبال الأبطال، ووجد حفاوة عظيمة من المجتمع بمختلف طبقاته. وعزز شهرته حين نشر كتابه «رحلات مبشر وبحوثه في جنوب إفريقيا» لقي الكتاب رواجاً لم يحدث لكتاب من نوعه من قبل، وبيعت منه سبعون ألف نسخة في فترة وجيزة.

وهكذا حين لقى «ستاني» في «أوجيجي» لم يكن «ليفنجستون» في حاجة إلى الشهرة، بل الثابت أن «ستاني» هو الذي أقام شهرته على كسفي الرحالة الشيخ، وقد اتخذ لذلك أساليب خفية أغضبت كثيرين من محبي «ليفنجستون» وبعضهم تشكك في أن يكون قد قابله أصلاً.

أعطاه المؤن والمعدات التي أرسلها له اصدقائه في إنجلترا، وصحبه طيلة أربعة

أشهر في رحلاته حول بحيرة (تاتانانكا) عاد «ستاني» إلى إنجلترا ونشر كتابه «كيف وجدت ليفنجستون» الذي أحدث دوياً، وجلب للكاتب شهرة ومالاً.

أما «ليفنجستون» فقد واصل محنته عن منبع النيل، كأنه يلاحق طيفاً سحرياً. في ٣٠ أبريل عام ١٨٧٣، جُذ رحاله في قرية صغيرة على نهر (موليلامو)، كان قد بلغ منه الأعياء مبلغاً، وهذه النزيف الداخلي الذي كان يعاني منه، ليس معه غير أتباعه الأوفياء من الإفريقيين (سوزي) و(شوما) و(أجيكوب وبنرايت).

في صباح أول أبريل، وجدوه راكعاً عند سريره في الخيمة كأنما يصلّي. تأكدوا أنه قد مات. بعد ذلك قام هؤلاء الثلاثة بمغامرة الهنت خيال الشعب البريطاني، وكانت سبباً متهماً في أن تفسد الحكومة البريطانية نفوذها على منطقة البحيرات في إفريقيا. قرروا أن يعيدوا الجثمان إلى إنجلترا.

شقوا الصدر، وأخرجوا منه القلب، ودفوه تحت شجرة، وأقاموا شاهدة، عليه الاسم وتاريخ الوفاة. هذا العمل سوف يكون له مغزى رمزي عظيم فيما بعد. حنطوا الجثمان بطريقة بدائية وجفوه في الشمس، وحملوه في رحلة طويلة شاقة إلى زنجبار. كانوا يسهرون على حراسته بالليل حتى لا تخطئه الضاع من ثمة حمل على سفينة إلى لندن، يصبحه الصبي الزنجبي المخلص (جيكوب وبنرايت). جاشت عواطف الإنجليز من التائر، واختاروا لأجل ذلك (جيكوب وبنرايت)، ليكون واحداً من الثمانية الذين حملوا نعش الرحالة إلى مشواه في (وستمنستر أبي)، حيث يدفنون عظماء رجالهم. فيما بعد، دعوا الخادمين الآخرين (سوزي) و(شوما) إلى لندن، وعمرهما بالحفاوة والتكريم.

قبل ذلك، شاعت الصدف، أن يصل الجثمان في الطريق إلى زنجبار، إلى بلدة تسمى (تابورا). ثمة وجدوا الملازم (كامرون)، عجب أشد العجب لما فعله أولئك الثلاثة، ونصحهم أن يدفنوا «ليفنجستون» حيث هو، ولكنهم أصروا على المضي قدماً. أخذ منهم بعض معدات «ليفنجستون» وواصل رحلته غرباً. سوف يصل بعد نحو عامين إلى ساحل (أنجولا) ويكون أول رحالة أوربي يعبر القارة من الشرق إلى الغرب. لم يجد مصب نهر (لوالابا) ولكنه تأكد أن «ليفنجستون» كان مخطئاً، وأن الـ (لوالابا) ما هو إلا نهر الكنفو. سوف تنشر صحيفة «التايمز» أخبار هذه الرحالة، فيقرؤها ليوبولد الثاني ملك البلجيك في قصره في بروكسل، فيخطر في ذهنه الثلجي أفكار أبعد ما تكون عن المسيحية وخدمة العلم ■

• ويحدد محطات ليوبولد، ويألق لقب سير... إلخ

(المحبت نية)

نحو أفق بعيد

١٦١



بقلم الطبيب صالح

سوف يصل (ستانلي) الى مصب نهر الكنغو، ويثبت بما لا يترك ادنى شك، ان (النهر العظيم) الذي ظنه (الفنجستون) نهر النيل، ليس غير نهر الكنغو. ولكنه لن يجد حلاوة الانتصار. حين مات (فرانك بوكك) آخر مرافقيه من الاوربيين، كتب في مذكرته يقول:

«اه يا صديقي فرانك، انك رجل محفوظ ارتحت من هذه الفوضى الغليظة. نجوت من الوحل الذي غرقت انا فيه الى أدنى».

ان كان في هذه الكلمات، احساس بتوبيخ الضمير، فلا جرم، فقد ارتكب (ستانلي) كثيرا من الاثام للوصول الى غايته. وكأنه تنبأ بما سوف يحدث في المستقبل. سوف يغرق كثيرون بعده في «وحل» الكنغو. سوف يروح فيه (داج همرشولد) الرجل السويدي المتحضر الذي لم تكن له يد في كل ما حدث. سوف تشب حروب يقتل فيها الاف الناس، وتزهق روح (باتريس لومبيا) النعيس. وهي مأساة من ماسي جشع الانسان لم تكتمل فصولها بعد.

في الخامس من اغسطس عام ١٨٧٧، بعد نحو عام من انقطاع اخبار (ستانلي) اوصل اربعة سواحليين رسالة بالانجليزية، الى بلدة صغيرة عند مصب نهر الكنغو تدعى (بوما) جعلها الاوربيون قاعدة تجارية. كانوا خليطا من الانجليز والبرتغاليين

والاسبان والهولنديين. كانت من (ستانلي)، قراها تاجر برتغالي اسمه «داموتا فيجاء». تقول: «الي اي رجل كريم يتحدث اللغة الانجليزية في (امبوما)».

سيدي العزيز، لقد وصلت الى هذا المكان قادما من زنجبار وفي صحبتي مائة وخمسة عشر انسانا، رجالا ونساء واطفالا. اننا لا نستطيع ان تشتري شيئا من الاسالي، الذين يرفضون ما نقدمه لهم من الثياب والخبز ويجدون مدعاة للضحك والسخرية. لا يمكن شراء الطعام في هذه البلاد الا في ايام الاسواق، ونحن نكاد نهلك من الجوع ولا نقوى على الانتظار. لا اعرف من انت، وقد سمعت بوجود رجل انجليزي في (امبوما). لكنك مسيحي وجنتلمان، لذلك فأنني اتوسل اليك الا تصم اذنك عن ندائتي. ضروري ان يصلنا المدد في غضون يومين وإلا فأننا هالكون لا محالة».

ارسل له (فيجا) المدد المطلوب، وفي الثامن من اغسطس وصل (ستانلي) الى (بوما) - التي سماها في رسالته (امبوما) - وصل مع من بقي من اتباعه في حالة لا توصف من الجهد والاعياء. كان قد مضى على بدء رحلته من زنجبار قرابة ثلاثة اعوام، وقطع اكثر من سبعة الاف ميل. حين بدا كان معه مئتان وخمسون، وحين وصل الى (بوما) كان قد بقي منهم اقل من النصف. بعضهم هرب منه في الطريق، وبعضهم اهلكه المرض، وبعضهم قتل في المعارك التي خاضها.

اجهش (ستانلي) بالكاء، بينما اخذ اتباعه يغنون غناهم الافريقي عند النصر في الحرب، بأصوات ضعيفة متعبة. سوف يحزن اكثر، فما يزال القدر يخفي له مزيدا من الالم.

حين عاد الى زنجبار، وجد رسالة جرحت قلبه جرحا عميقا، من خطيبته (السون بايك). كانت فتاة امريكية في السابعة عشر، ابنة ثري يهودي من (سنتانتي)، تعاهدا على الزواج ووقعا ميثاقا بذلك يقول:

«نقسم على ان نظل وفيتين احدهما للأخر، وان نتزوج حالما يعود هنري مورتن ستانلي من رحلاته في افريقيا». كان يسميها «الحلم والملاذ والامل»، ولكنها لم تستطع الانتظار، فتزوجت رجلا مليونيرا من (اوهايو).

سمى قاريه (البيد اليسون) على اسمها. كان قاربا من عدة اجزاء، تفك ويعاد تركيبها، غرق في ما بعد في

مياه نهر (لوالابا). وكان يحمل صورتها في جيب (جاكته) الداخلي قريبا من قلبه.

التقى اثناء طوافه حول بحيرة فكتوريا بالكاباكا (مئسا) ملك الـ (بوغاندا)، وجده يميل الى اعتناق الاسلام، فأغراه بالدخول في المسيحية، ووجه نداء عبر صحيفتي الـ (ديلي تلغراف) والد (نيويورك هيرالد) بارسال مبشرين الى (بوغاندا). سوف يتدفقون وشيكا على شواطئ بحيرة فكتوريا، وفي اقل من عشرين عاما سوف تصبح بوغاندا باكملها مستعمرة بريطانية.

خرج (ستانلي) من بلاط ملك الـ (بوغاندا) سعيدا مرتاح الضمير، فقد احس انه حقق هدفا من اهداف (الفنجستون)، ولكن يديه سرعان ما تلطختا بالدماء، وكانت وصمة لاحقه طول حياته.

وصل الى جزيرة في بحيرة فكتوريا، تسمى (بمبيري). طلب من اهليها ان يبيعوه الطعام والمؤونة، فرفضوا. شن عليهم الحرب فقتل منهم اربعة عشر. لم يكف بذلك، بل عاد اليهم في اليوم التالي «كي يلقتهم درسا»، فأخذهم بغتة، وغمرهم بنيران بنادقه. كانت مذبحه قتل فيها اكثر من مائة انسان. كتب في مذكرته مرهوا بما حققه من (نصر):

«يا له من نصر عظيم! سارت قواربنا جذلي بجذاء شاطئ البحيرة. سبعة وثلاثون قاربا، كانت المجاذيف تضرب الماء على دقات الطبول وانغام الابواق، والاعلام الانجليزية والامريكية والزنجبارية ترفرف في الهواء. كان منظرا منعشا بحق».

كانت رحلته بتمويل من مصادر انجليزية - امريكية، وقد حق للاعلام الانجليزية والامريكية ان ترعرع في الهواء. اما العلم الأحمر القاني، علم سلطان زنجبار، فكان كما تنثر الرماد للريح. لقد استنعمان (ستانلي) بالزنجباريين لانهم كانوا ادرى بتلك الدروب. سوف يلتقي عما قريب بالعربي الاسطورية، حامد بن محمد المعروف بـ (تيسوتب)، الرجل الذي حملوه اوزارا في تجارة الرقيق، بعضها صحيح وأغلبها محض افتراء. كذلك فعلوا مع العربي السوداني الزبير (باشا) ود رحمة، وولديه رابع وسليمسان، وهي من الاوزار التي يحملها العرب الى اليوم - عن طيب خاطر - بدلا من الجناة الاصليين ■

نحو أفق بعيد

١٦٢



بقلم الطيب صالح

الآن (ستانلي) لم يكن أقل مراوغة من الملك. لم يلتزم لهم بشيء عاد إلى لندن وحاول من جديد أن يذكي حماسة الانجليز على استعمار الكنفو. ولا من محيب. ولم يكن يعلم أن صورته عند الانجليز قد ساءت تماماً، فقد أرسل القنصل البريطاني في زنجبار تقريراً سرياً إلى وزارة الخارجية وجه فيه اتهامات دامغة لـ (ستانلي).

كان رجلاً يدعى (دكتور جون كيرك)، وقد ثارت العداوة بينه وبين (ستانلي) لأن هذا اتهمه على الملأ في لندن بأنه تقاعس عن نجدة (الفنجستون). كال له (دكتور جون كيرك) الصاع صاعين، فاتهمه في التقرير بأنه اتخذ لنفسه حظيرة زنجبية. كان ذلك افطع ما يمكن أن يتهم به رجل (أبيض) في ذلك الزمان. لم يكف بذلك بل اتهمه بالقتل والنهب والاتجار في الرقيق.

كانت وزارة الخارجية بلا شك مثقلة بالعنجهية الطبقة الانجليزية، فسارعت إلى تصديق (دكتور كيرك). أو ليس انجليزيا جنتلمان؟ ومن هذا (ستانلي) اليس من ويلز؟ اليس امريكياً؟ ألم يكن لقيطاً نشأ في ملجأ أيتام؟

إذا لا مفر من ليوبولد الثاني ملك البلجيكي. في خريف عام ١٨٧٨ قرر (ستانلي) أن يضع نفسه تحت تصرف الملك، ويرتبط معه بعقد عمل لمدة خمس سنوات.

ماذا تطلب مني يا صاحب الجلالة؟ مشاريع بسيطة... مشاريع علمية وإنسانية. ثلاث مستشفيات... بعض محطات للبحوث... دراسة خطة للمواصلات النهرية تربط أعلى نهر الكنفو بأسفله. هذا كل ما في الأمر... انما عليك بمراعاة السرية التامة... لا تقل شيئاً لدزرائيلي... سوف يتم كل هذا بأشراف الاتحاد الأفريقي الدولي.

الآن (ستانلي) لم يكن سانجاً. كتب في فكرته:

«هذا الملك سياسي داهية. انه ذكي جداً! ولكنني لم أحس معه كل هذه الساعات دون أن أعرف حقيقة نواياه... انه يريد تحت غطاء (الاتحاد الأفريقي) أن يجعل من حوض الكنفو مستعمرة بلجيكية.»

(التمهيد بقية)

السياسيين ورجال المال غير متحمسين للدخول في مغامرات استعمارية جديدة. كانوا مثل رئيس وزراء ليوبولد، يقدرزون أن إقامة مستعمرة في الكنفو، يحتاج إلى رأسمال كبير. لن يدر ربحاً إلا بعد زمن طويل. حتى رجال الكنيسة لم يكونوا متحمسين. كانوا منصرفين إلى فتح ارساليات في يوغندا ونياسالاند.

كل ذلك كان يثلج صدر ليوبولد. كان سفيره في لندن يرصد تحركات الرياح ويرسل إليه الأخبار أولاً بأول فتتزل على قلبه برداً وسلاماً. فليبتظره، ولكن يجب ألا ينتظر طويلاً. صحيح أن الانجليز ليسوا متحمسين لاستعمار الكنفو اليوم، ولكن من يضمن أن شهيتهم لن تنفتح غداً؟ هؤلاء القوم الماكرون، إذا أرادوا شيئاً حصلوا عليه، فليتنصب الشراك لـ (ستانلي) وينتظر.

أما (ستانلي) فإنه أراء صدود الانجليز وسخريتهم، فقد ندم انه لم يستجب من قبل لدعوة الملك. أول ما أرسلت سفينته في ميناء (مرسيليا) في الطريق إلى لندن، وجد في انتظاره دعوة من ليوبولد لزيارته في بركسل. كان (ستانلي) يعلم أن الملك لن يتحدث معه عن أنواع النباتات والطيور في غابات الكنفو، فضرب عنها صفحاً. سوف ينيخ أسأله وأحلامه عند قوم أجدر بها وأقدر على تحقيقها.

وهكذا حين أعاد ليوبولد الكرة في شهر يونيو عام ١٨٧٨، سارع (ستانلي) إلى تلبية الدعوة. وصل إلى بركسل في الحادي عشر من يونيو، فاستضافه الملك في قصره وأصبح عليه الواث من بذخ الضيافة أدارت رأسه، كما حدث من قبل مع أولئك العلماء الأجلاء. لكنه لم يفتاحه في موضوع الكنفو. تركه أياماً يتقلب في ذلك الترف ولا يقول له شيئاً.

عرف (ستانلي) مقاصد الملك فيما بعد على مستوى أدنى من مستوى صاحب الجلالة. في باريس في شهر أغسطس افتتح عدد من اتباع الملك المفاوضات مع (ستانلي) في موضوع الكنفو. كانت مفاوضات دقيقة مفصلة عن الأسعار والتكاليف والوسائل والسبل.

حين عاد (ستانلي) إلى لندن في يناير عام ١٨٧٨، استقبل استقبالاً محيراً. اعتبر كثيرون اكتشافه لنهر الكنفو أعظم اكتشاف في أفريقيا، ووجد ترحاباً على نطاق واسع. وفي المقابل استقبله كثيرون بفتور واضح. وقد حرّ في نفسه أن بعض المقاعد كانت شاغرة في قاعة (سانت جيمس)، حين ألقى محاضرة عن رحلاته لأعضاء الجمعية الجغرافية الملكية.

أسوا من ذلك أن الحكومة لم تتحمس لاقتراحه أن تستعمر بريطانيا حوض نهر الكنفو. وكتب في فكرته:

«لقد عجزت عن فهم هؤلاء الانجليز، أما أنهم يظنون أنني أعمل لمصلحة الخياصة، أو أنهم يعتبرونني كاذباً... كان جزائي أنهم يصفونني بأنني لست أكثر من مغامر يبحث عن الثراء... ونظير اغاثي لـ (الفنجستون) اسموني محتالاً. وحين أحاول تحريك عزائهم للعجل يسخرون مني ويقولون أنني غر لا أفهم أمور المال والتجارة.»

كان الانجليز بالفعل في شغل عن الكنفو في ذلك الوقت. كانت الحكومة منصرفة إلى أمور أخرى، مثل أحداث البلقان وديون الخديوي في مصر. وكان عدد كبير من

نحو أفق بعيد

١٦٣



بقلم الطيب صالح

أَنْ تعجب فأعجب لرجال يقتحمون
سبح التاريخ - من أين لهم كل هذه الثقة
بالنفس - كان الأوطان صفحات بيضاء
تخط فيها كيف تشاء. كان أحداً لم يجز
قبلهم ولا أحد سوف يجيء بعدهم. وقد
زعموا أنهم أهل تقوى وقرآن. أفلا
يتنبهون معاني كتاب الله الكريم؟ ومن أين
لهم أن يحيطوا بكل احتمالات المستقبل؟
بدأت الأمور في الكنفو البائس مثل
اللعب، وانتهت بمأساة. والتاريخ كذلك في
الأغلب الأعم، إلا من رحم ربي.
لكنني لن أتحدث اليوم عن الكنفو. ولا
عن أصحابنا هؤلاء، النجباء الأذكياء
الأغبياء، أصلحهم الله. فقد شاقني حديث
الشعر، وكان من فوائد زيارتي الأخيرة
للرياض أنني لقيت شاباً يدعى عبد الله
نور، من تلاميذ استاذنا حمد الجاسر،
طويلاً نحيلاً أسمر متوضّع العينين، حسن
الصوت حين ينفث الشعر، نجدباً كأنه من
عندنا من نواحي (بابوسه). جلسنا في
(قصر الرياض) مع جماعة نتشاهد الأشعار
إلى أن طلع الفجر.
أتشبّهنا من شعر الصنم بن عبد الله
القشيري، وأتشبّههم من شعر ذي الرمة
وأبي العلاء. وما شعر مثل شعر العرب
يطرد بذات الكرى ويحرك بلابل الفؤاد.
والصنم هذا، هو صاحب الأبيات
الشهيرة التي أبكت عيون الزمان منذ ألف
عام..

نحن إلى ربنا ونفسك ناعيت
مزارك من ربنا وشبعاكنا معا
وما حسن أن تأتي الأمر طامناً
وتخرج أن داعي العساة استمعا
إلى أن يقول ذلك البيت الفريد، الذي

تغديه دواوين من معض شعر هذا الزمان..

ولست حسناً أحسن بروجع
ألم ولكن حل عمت تدعنا

أود يا أم عمرو: من لي بعشيات
الحسن لو تعود
كذلك مثل هذا الشعر، يحرك أريحيات
الإنسان الكريم، أو كما قال المحترق..

إذا نحن وسواس الخلي تولعت
بنا أريحيات الجوى والوسواس
ومهر مشغول به الطرف هارب
معيبة من لحظ الحب المحاسن

وقد ذاق (الحردلو) مثل هذا العناء في
نواحي (الرضيم)..

بث أليارمان قتل (الرضيم) تنافى
مها حسن حرير شورتن عفت حنافة
ثلث وتكت العاص الفسرة دفاقة
موت (ها) على الناة ثمره لسان وحداقة

العاج، وفي رواية (الضوخ) البقرته
دفاقه، هو «وسواس الحلي، عند نساء
المحترق، فقد حركت الفتاة عند الحردلو
يدها فاصططت الأساور بالعاج، وبعضها
تبعض، فاشاحت الوسواس الذي يلبس فؤاد
الشاعر. وهي بعد طويلة الرقة، قاسها
الشاعر كأنها بالمشطرة، فيها خمس طيات
(جزور) تحتها عقدان (شورتين) ثم عقد
(حنافة).

عشرت في الرياض أيضاً، على أبيات
من شعر الحردلو ضاعت مني ولبست
أبحث عنها زماناً لسبب ما اسقطها جفد
الشاعر، الدكتور إبراهيم الحردلو من
الديوان الذي جمعه من شعر جدد. وذلك
جهد عظيم يحمده له. لقبت الأبيات عند
شاب اسمه عوض الله يعمل في إذاعة
الرياض، من سوداني إلى «دياسبورا»،
لكثرة ما تجد من السودانيين في بلاد الله،
تحسب أن لم يبق عندهم أحد يتأمر عليه
أخواننا هؤلاء.
قال الحردلو رحمه الله..

البارح نشوف بشله برق التو
وحسن ريداً بذكر في الصمير كوكو
داك طير القطى دور مشارع الهو
ومرقان الطانة اتماكن بالخنو

(بريق) تصغير (برق). و(يشلع) يلعب.
والنور، يعني النوء، يقصد الرياح التي
تسوق المطر، ولعله غنى المطر بعينها.
و(الهو) ترخيم لـ (الهُوج) وهي ناحية
الجنوب من أرض الطانة.

هذا وقد فعل البرق الأعاجيب في شعر
الأقدمين، ولكن أثره انقطع في شعر هذا
الزمان، اللهم إلا في الشعر البعدي وشعر
الدوييت والرجل، فشعراء هذه الأيام في
الغالب، مشغولون بصخرة سيزيف ودموع
عشتار وهموم يولييسيس وما شابه. ولن

تجد شعراً عربياً غفلاً من لمع البروق
وسجع النمام وهبوب الصبا وريح
الخرامى، وقعقعة سنائك الخيل وحسين
الإبل واصطخساب الدلاء في الأبار، إلا
وجدته شعراً كأنما تخرج اللبن الحليب
بالماء

كان الشعراء يفعّدون أم لمع البرق، من
شدة التبايرج، ويقول الواحد منهم (أعني
على برق أريك وميضه). وأنت تعلم ما فعل
البرق نابل أبي العلاء، بل بابي العلاء
نفسه حين..

إذا لاح أيماس سرت وحومها
كناى عمرو والمضى سمالي

ثم حين وصف لمعان البرق في ليلة
ظلماء كأنه «زجاجة هضت عرقاً،
جل المستكة هضت عرقاً، أم أن أحداً
ما أذى ظهرها بسوطه كما فعل (ستانلي)
وأضرابه في الكنفو البائس، وكان الشيخ
الضريز المنصر يشير من وراء الحجب إلى
(المأساة الخونية) والدماء التي لم تزل
تسيل من ظهور المستعبدين على أيدي
المستأسيدين.

كيف قال الحردلو غفر الله له؟
وحسن رعداً بذكر في الصمير كوكو

يا له من شعرا وفي رواية:
وحسن رعداه يجرح في الصمير كوكو

وهذا عندي أبلغ، فكون الرعد بعزق
نباط الضمير، أشد أيلاماً من أن (بكركر)
فيه كما تطرق على باب مغلق.
هذا وقد اختلف الشراح في معنى
قوله:
ومرقان الطانة اتماكن بالخنو

وقد ذهب بعضهم إلى أن أضواء
مضارب تماثل الطانة الذين تجمعوا في
موسم المطر. قد تماسكت واقتربت وربطت
بين كل حي وآخر. لكثافة القطان، وهو
معنى جميل يذكر بقول شوقي يصف
التماتيل العرقى في النيل ممسك بعضها
من الدعر بعضاً.

لكنني لا أرى أن الشاعر ذهب إليه، ففي
ديارنا في شمال السودان، نقول (نمماسك
بالضو) أي ندخل بيوتنا قبل أن يخيم
الظلام، يكون ذلك أيام العواصف والأمطار.
وعندي أن الحردلو أراد أن الناس أووا إلى
بيوتهم أو خيامهم قبل مغيب الشمس
وحلول الظلام، والمعنى هكذا أقرب منلا
وأصدق بواقع الحال.

وبعد، فهذا بعض ما استفدته من
رحلتي للرياض. وقد دعا قال الاسم
الشاعقي رحمه الله..

سافر في الأسفار عشر فوائد.
أم تراه قال أسبع فوائد) أما بقية
الفوائد فلها حديث آخر أن شاء الله ■

(استمرت بقية)

نحو أفق بعيد

١٦٤



يقلم الطيب صالح

واضح «أن تلك الأبيات، صدرت عن قلب مكلوم بحق. عاش الشاعر التجربة، كما يقال بلغة هذه الأيام، واحتمل من الألم ما احتمل. ثم حول التجربة إلى فن. ذهب، وعفى الزمان على ملابس حياته، وظلت الأبيات مثل نجم في السماء يضيء من زمان إلى زمان... ولعل الشاعر كان يفضل لو أنه سعد في حياته ولم يقل الأبيات، فأي عزاء له أن الناس بعده يظربون للشعر؟

حدث صاحب الأغاني أن الصمّة بن عبد الله القشيري، أحد أبناء عم له تسمى العاصرية، فخطبها إلى أبيها فابى أن يزوجه أباهما وفضل عليه رجلاً من بني مالك بن ملاعب الأسنة، لكثرة ماله ولا بد، فقد كان دميماً فيما روي، فلم يطق الشاعر صبراً وانطلق إلى الشام. وفي رواية أن عمه أشتط عليه في المهر، فطلب من أبيه أن يعينه، وكان ذا مال، فابى عليه، فسأل عشيرته فاعطوه، فجاء بالأبل إلى عمه فلم تعجبه وقال له لا أقبل هذه في مهر ابنتي، فأسال أباك أن يبدلها لك. فاستمع أبوه أن يبدلها، فلما رأى الصمّة ذلك من أبيه ومن عمه سرح الأبل وهام على وجهه. ورات ابنة عمه ما صار فقالت «تالله ما رأيت كاليوم رجلاً باعته عشيرته مبيعة».

ولحق الصمّة بأحد ثغور الشام. ولما طال مقامه، تشوق إلى ابنة عمه ففاقت قريحته بتلك الأبيات، التي لم تزل تهيج لواعج المحبين منذ ذلك العهد.

حننت إلى رياء ونفستك ماعدت
مزارك من رياء وشعباكما معا

وفي رواية «تحنّ إلى رياء، وفي رواية «اتبكى على رياء، وكله محزن.

والقصيدة تروى على أوجه عدة، فهي من الشعر الذي يصل غوراً بعيداً، فأصبح أهل كل زمان يضيفون إليها شيئاً ويحذفون منها شيئاً حتى لكنها ليست لشاعر بعينه.

قالوا ونكر ابن زريق أن أبا حاتم أكد نسبتها للقشيري وكان يستجدها وكذلك إبراهيم بن محمد بن سليمان الأزدي الذي قال:

«لو حلف حالف أن أحسن أبيات قيلت في الغزل في الجاهلية والإسلام هي أبيات الصمّة القشيري، ما حدث».

هذا يا عمرك الله، من قبيل المبالغه المستحقة التي يدفع إليها التحيز للشاعر. ولم لا؟ أما أنها حقيقة أجمل ما قيل من شعر الغزل في الجاهلية والإسلام، فاللهم لا. إذا ابن يروح غزل امرئ القيس كمثل قوله:

ديار لسلمى عياميات بذى خال
الح عليهما كل أسحم مطال

وإين ينهب أكثر شعر أبي الخطاب الذي شغل ابن عباس عن وفده في مسجد الرسول صلى الله عليه وسلم، وقد ضربوا إليه أكباد الأبل؟

أمن آل نعر أنت غاد فمُكر؟
غداة غد أم رانح فمُهجّر؟

وماذا تقول في غزل جرير، عفا الله عن جرير؟

يا أم عثمان ما تلقى روحاً لنا
لو قست مصيبتنا من حيث مُعسانا
ترى باعيتها نحدأ وقد قطعت
بين السلوطن والروحان صوفاً
يا حسداً جبل الريان من جبل
وحسداً ساكن الريان إنساناً

وهي القصيدة التي قال فيها بيته الشهير:

يا أم عمرو حيزاك الله صالحة
ردي علي فؤادي مثل ما كانا

إنما هيهات يا أم عمرو!

وإين تذهب شعر غثلان في صاحبتة (خرفاء) الذي أطرب الرجل الكريم عبد الله أولد أرميه رحمه الله، والكريم يضرب لمثل شعر غيلان:

وقفتنا فسلطنا مردت تحية
عنيا ولم يرجع جواب الخاطب
عصمتي بها نفس ترجع إلى النهوى
إذا ما دعاها دعوة لم تغالب

وعين أرشتها باكناف (مُشرف)
من (الزرق) من سفت ديار الحنات

ثم غزليات أبي عبادة البحثري الذي أنبرى البرق له ولأصحابه وهم «هجوم على بطن مر» وقوله العجيب:

ظاء شناه البنيب وحشاً وقد ثرى
لرؤع الشباب ومي حسد أوانس
صدتن بصحراء (الأريك) وربما
وصلن باخنا (الححول) م (راكس)

ذغ ذار، وخذّ أبيات (الرماح بن ميادة) وهو شاعر لا يعد بين الفحول:

وحرائر قد قلّ يوم تواعد
قول المجد ومن كُـسـأـرُاح
يا لبيثنا في غير أمر فادح
طلعت علينا الحسبيل بالرماح
بيننا كذاك رائسي متسربلاً
بالخيز موق حلالة سرداح
فيسهن صغراء المعاصم طفلة
بيضاء مثل غريضة النفاح

فسروا (الجلالة السرداح) بأنها الناقة العنبة العظيمة، والشاعر عليها (متسربلاً بالخز) في تلك القفار، فأي نعمة هو فيها! والفتاة التي يطلبها (صغراء المعاصم) لأنها تلبس أساور الذهب، وهي بعد غضة كتفاح لبنان، فما أجمل الحال وما أحسن المقال.

ذكر أستاذنا الدكتور عبد الله الطيب، أن أستاذه الشاعر الكبير المرحوم عبد الله عمر البنا كان يحب هذه الأبيات. وأنا أيضاً.

هذا، والرواية الثالثة لقصة الصمّة القشيري، أمر وأشد إيلاماً، قالوا إن الصمّة أخبر أباه بطلب عمه، فساق الأب الأبل إلى العم، فعندنا فوجدنا نقصاً بعيراً، فحلف لا يقبلها إلا أكاملة، وأقسم الأب ألا يزيد عليها. غضب الشاعر لذلك، وحق له أن يغضب، وقال «والله ما رأيت قط الأم منكماً».

ثم ركب ناقته وضرب على وجهه حتى أتى ثغراً من الثغور. قال بعضهم الشام وقال آخرون طبرستان.

هكذا ولدت هذه الأبيات الجميلة، التي أن لم تكن أجمل ما قاله العرب في الغزل، فهي من أكثر الشعر رقة وأثارة للشجي:

ألا يا خليلي الذين تواصينا
بلموسى إلا أن أطيع وأنيسعنا
قبسنا إنه لا مد من رجح نظرة
يمانية شتى بها القيوم أو معا
لمفحسب قد عزه الفهم أمرة
حسبنا يكف الدمع أن يتطلعنا
فليت عششيات الحمى برواح
إليك ولكن خل عينيك تدمعنا
(الصبيعة)

نحو أفق بعيد

١٦٥



بقلم الطبيب صالح

غفلتُ زماناً عن هذا الشعر الجميل، شعر ذي الرمة، حتى نبهني إليه عبد الله أولد أربيه. كانوا في سورتانيا يعدونه من الحفاظ، وإذا علمت أن أهل سورتانيا من أحفظ خلق الله لشعر العرب، أدركت كم كان يحفظ عبد الله أولد أربيه. تزامننا في غفلة من صروف الدهر في الدوحة المنسوبة الطالع. رحمه الله. كان انساناً كريم الشيمائل بشكل عجيب. من بادية بتلميت من أرض شليف، وهي بلاد تذكر بشارية كردفان في غرب السودان، وفي كليهما أوجه شبه بأرض نجد، حيث غنى غيلان ما شاء له الغناء، شعراً يجري تحت مظهره الخشن، كإبه نهر سلسيل. وبين غيلان والحردلو شاعر النطانة، وشائج من قرى لا تخفى.

كانت عينا تدرقان حين ينشد شعر ذي الرمة. وكنت أعجب لذلك أول الأمر. ثم لما أطلت صحبة عبد الله وصحبة الشاعر، وصبرت على شوارب عباراته، وغريب استعاراته، تكشفت لي أعاجيب مذايب هذا الشاعر العجيب. اليس جميلاً هذا؟

ونشوان من طول النعاس كأنه
بحلن من مشونة يتسرح
أطرت الكرى عنه وقد مبال رأسه
كما مبال رباب المسال المريح
إذا مات فوق الرحل أحبت روحه
مذكور والعيس المراسيل حن

إذا ارمض أطراف المساط وهلت
حروم المطايا عندنهن صيد

جعل صاحبه دلوا معلقا بحبل
النعاس في بشر الكرى، وهي بشر لا بد
أن الشريف الرضى رحمه الله متح
منها حين قال:

ثم انشبتنا إذا ما هزنا طرب
على الرخمال تعللنا مذكرا

ونذكروا أن «رثاف الفضال المريح»
هو الذي يشرب تمالة الكاس، فانتظر أي
سكر حلال هو فيه، لأن المتشرب نعاس
وليس خمر. وهلت جروم المطايا،
يعني أن أجساد الإبل صارت مثل
الأملة من شدة الهزال بفعل ما
جشموها من أسفار. وصدح. هي
ناقته التي تكبدت منه مثل ما تكبد
العاني، جعل الحردلو في طلاب
المحبوبة. قال الحردلو:

يا غنيت كبرنا وحالنا قط ما رل
وفي كل يوم ترابي يستفك منزل
كل ما طربت الزول ال دقة حسا منهل
خلق الريف بفتح ناري وغنيت قل

صغر اسم جملة (العاني) إلى
(غنيت) فكانه عاد وإياه إلى عهد
الصبي. وفجأة قال لك (كبرنا)، فادخلك
في حيرة. وحال الغواية مع الشيب،
كما كان في عهد شباب الجمل وشباب
الجمال. وهو كل يوم يقول له «خذ هذا
المكان وخذ هذا المكان»، فمن الذي يأخذ
ومن الذي يعطي؟ كان أبو الطيب أدري
حين خيرته خيله عند تقاطع الدروب:

وبانت تحسيرا ما انتاب
وادي المسيل وادي الغرى
مقلنا لها أير أرض العراق
مقلنا لها وحر بترابها

وفي لهجتنا «بطرى» تعني «يتذكر»
و«خلق الريف» خلقان من الفضة أو
الذهب تجيء من مصر «الريف».

هذا ولا بد أن الذكرى أبكت الشاعر
أيضا، رغم أنه لم يصرح وجعل أن
المحبوبة «الزول» هي التي بكت. وعليك
أنت أن تتخيل أيهما بكى وأيها بكى
أكثر. لم يكونوا يتخرجون من النقاء
في مثل هذا الموقف، ودموعهم لم تزل
تدرف منذ أن قال طرفه

وقوسا بها صبحي علي مطهم
يتسولون لا تملك أسى وتحلد

فماض الحردلو لو بكى وماض
غيلان:

كان ديار الحى (الرؤ) حنسة
من الأرض أم مكنوبة بمداد
إذا قلت تعسوا، لا ح منها مبيع
علي الهيسرى من طارف وتلاد
وما أنا في دار لي عرسها
حلد ولا عيني بها مسمار

لك الله! هذا وقال أناس أن (خرقاء)
(مي) امرأة واحدة، وأن (خرقاء) لقب
ل (مي). وقال آخرون أنها مختلفتان.
وأنا أميل إلى رأي ابن سلام أنها
امرأة واحدة، إذ أن هؤلاء الشعراء في
نهاية الأمر، كل واحد له معشوقة
واحدة. وإن اختلفت الصور والأسماء.

رووا أن ذا الرمة واسمه غيلان بن
عقبة بن مسعود بن بني عدي بن عبد
مناد، من بخصاء مي وهي بجوار أمها،
وكان معه أخوه وابن عمه، ولما راها
صعق لجمالها وخرق أداته، وقال لها
«أخزي لي هذه». قالت «والله لا أجسن
ذلك وإني لخرقاء». فقال لأمها «مريها
أن تستقيني ماء». فقالت لها «قومي يا
خرقاء فأسقه ماء». فجاءت له بالماء،
وكان على كتفه رمة، أي قطعة من جبل،
فقالت له «اشرب يا ذا الرمة».

هكذا صار. تقول أن القصيدة من
تلخيص الرواة، ربما. ولكنني أرى أن
الأمر قد صار على هذا النحو. أسماها
(خرقاء) واسمته (ذا الرمة). أي أنها
جعلت منه رجلا آخر، وجعل منها امرأة
أخرى. هذا ما يصنع الفن ويصنع
الجمال ويصنع الحب.

بعد قرون وقف شاعر السودان
الفحل، محمد سعيد العباسي الموقف
نفسه بادية كردفان، واستسقى وجين
له بالماء، فقال:

حسرات ماء نلت مل
حاحا مستلي مند ماء

أم ماذا تريد يا عمرك الله؟ هذا وقد
ذكروا أن ذا الرمة قال في ذلك الموقف
أول شعر له:

قد سحرث أحت بي لسيد
مني ومن سلم ومن مسعود
رأت غلامي مسر بعيد
يدرعسان الليل ذا السدود
مسئل أدراع البلق الحسيد

نحو أفق بعيد

١٦٦



بقلم الطبيب صالح

مرت سنوات قبل أن يحول الشاعر ملاسيات لقائه الأول مع محبوبته إلى شعر فيه «فن» وصنعة، فكانت قصيدته الشهيرة (هل نعرف المنزل بالوحيد)، التي يقول فيها:

يا مَنِي ذات المِسْم البرود
معد الرقاد والحناء المحمود
والقُشْبِيَّ وبياض المسيد
والكنخ من أدمسنة عود
عن الطيباء منسجع مرود
أملكتني بالثوم والتسميد

نزوح من أخرى، وأصبح أبا كما توضح الأرجوزة، فزادت القصة تعقيدا. وحين نتذكر أن الشاعر يسترجع شيئا عزيزا ضيعه، تتحول لديك أوصاف الفتاة التي تبدو عادية، إلى امر غير عادي. وقد غير تلك الأبيات التي عنت له عفو الخاطر أول ما صغقه حب (في) فقال:

ند عحيبت أحت سي لسيد
ومزنت مني ومن مسعود

وكانت (أخت بني لبيد) - قد (سخرت) منه ومن سلم ومن مسعود. لكن سخرية الفتاة بقيت تضي في أكناف القصيدة وتعطيها جانبية لا تخفي.

قالوا أن الكنخ في الجسم ما بين الخاصرة إلى الضلع، ولا تفس أنه يصف امرأة، والأدمانة في الظباء البيضاء أو هي البيضاء المشربة، والعنود التي ترعى وحدها بعيدة عن القطيع. والمتبعة الظبية التي يتبعها صغارها.

وتما نرى مان الشاعر ينظر إلى المرأة فيرى ظبية. وينظر إلى الظبية فيرى

محبوبته. براها حقيقة وليس مجازا. كذلك كان الحرذلو، كمثل قوله:

من أثير مر حير غير (أشعر)
دمع الذي صرف يوم غنناها (الشيرة)

في بيت واحد تتحول الظبية أمام عبيك إلى امرأة. ليست المرأة (كأنها ظبية) بل هي الظبية بعينها. وإذا تخيلت، كما يحدث في بعض الحيل السينمائية، سوف تجد العزال الذي شرد نحو (القفوة) في أول البيت، قد عاد اليك امرأة تعسل شعرها بالشاي الصوف في نهايته. ولا بد أن عسل الشعر بالشاي في ذلك الزمان كان من مظاهر الشرف. وقوله (أل يا زسان) فيه طلاوة، إذ أدخل أداة التعريف على المنادي، كمن يتنست بعنة الرياح.

يصرّب الشاعر في تلك الغلوات، فتعز له سوايح الظباء مثل أطياف الذكرى التي تزحم حياه.

أقول لدعناوية غزفي حيرت
لما بين أغني برقة بالمرام
أبا طيبة الوفاء بين جلال
وبين النقا أنت أم أم سالم

لا فكاك له منها، براها حينما اتجه، وقد عاب عليه أخوه مسعود. وكان شاعرا أيضا. تشبيهه بمحبوبته بالظبية، فقال:

فلو تحسن التشبيه والعنت لم تقل
لشاة النقا أنت أم أم سالم
جعلت لها فرين فوق قصاصها
وظلمين مسودين تحت القسائم

مسعود كان يمزح ولا شك، والأف هو مثل النقد الذين أشنى بهم أبو الطيب المتنبي. واضح أن الشاعر لم يقصد بالتشبيه (كل) الظبية، حتى أطلاقها وقرونها، ولكنه أراد روحها، وتلك (الأنوية) التي تحيط بالظبية، وتجعلها أقرب مخلوقات الله إلى (الأنثى الأدبية). بل أن كتمان الرمل ومعونتها وانحفاءاتها واستداراتها، كانت تذكر الشعراء الأوائل بحسد المرأة. وقد قال ذو الرمة:

أناة تلوث المرط منها مدغصة
ركام وتحتات الوشاح ميقتز

يعني أنها تلف إزارها على مثل كتمان الرمل (مدغصة) وتضع وشاحها فلا يستقر عليها لضفور بطنها ثم تجر أكثر فقال:

ورمل كأزواك العذارى قطعته
إذا حلفته المظلمات الحناس

إذا كيف المفر، فهي أفا ظباء تسبح على كتمان الرمل، أو هي الكتمان بعينها. وأنا أحد حلاوة لقوله (أ أنت أم أم سالم) فكانه يسأل الظبية: هل أنت ظبية حقا أم أنت أم سالم، لشدة ما اختلط عليه

الامر، وكأنه يقول لها: يرمك البست أم سالم أجمل منك، وفي ذلك أي خلط.

كان جرير والغزقي، أياهما الشعر في ذلك الزمان، يحسدان ذا الرمة لفصاحته وعذوبة شعره وأنه داع حتى كاد يطمس شعرهما أحيانا، وقال إنه لم يكن يحسن المديح والهجاء. وقال آخرون مثل ذلك، حتى الشيخ الحليل عمرو بن العلاء عاب عليه ذلك فقال:

«أنا شعر ذي الرمة يعر ظباء، لها شم في أول شمة ثم تعود إلى أرواح البعر»
ولعسري ما أنصف الشيخ، وكأنه من بعض (دكاترة) هذا الزمان.
حدثنا أن الغزقي وقف على غيلان وهو يشتد قصيدته التي مطلعها:

أمرلني (مر) سلام عليكما
على الناي والساني يود وينصح

فقال ذو الرمة: كيف تسمع يا أبا فراس.

قال الغزقي: «أسمع حسنا،
سأل ذو الرمة: أذا صا لي لا أعذ في
الفحول من الشعراء».

فقال الغزقي: «منعك من ذلك اكثارك من ذكر الأبيار وبكاؤك على الديار».

سبحان الله! حتى في تلك الأيام كانت عيشهم هذه السنويهم، أم كيف تقولون يا أم عمرو!

سرق الغزقي في وقفته تلك، عيانا بيانا قول ذي الرمة:

إذا أرفض أطراف السباط وهلت
جروم المطايا عدتتهن صيد

سطا على البيت، وقلبه إلى حياء للشاعر، فقال:

ودية لو (أو الرمية) أمها
لنصر بها (أو الرمام) وسيد
قطعت إلى معروفها منكراتها
إذا أشند ال الأعر المتروحة

جعل (ذا الرمة)، (ذا الرمية) و(ذا الرمام) ولعله قال (ذو الرمية) تصغير (رمة).

هذا، وقول الغزقي (قطعت إلى معروفها منكراتها) قول عميق بلغ لشاعر طويل الباع في حيلة الشعر. ولكن أبا فراس لم ينصف، إذ أنك قل أن تجد في ديوانه كلمة شيئا يقارب قول غيلان عذوبة ودقة وصفه.

ذكرت أن مرت منا أم شادن
أسيام المطايا يترب وتسن
من المؤلفات الرمل أنما حرة

شعاع الصبي بر مشها بتومح
تصادر بالوضاء، وعساء (مترف)

طلاء طرف عينيها حوائيه يلح
رأنا كائنا قاصدين لعيدها

به، مهي تبدو تارة وتزخر
في النشأ أعظاما وحيدا ومقة

وسية أنهي بعد منها وأصح
(الحسن طية)

نحو أفق بعيد

١٦٧



بقلم الطبيب صالح

(هذه المقالات عن ذي الرمة، تحية لذكرى الصديق عبدالله أولد أورييه رحمه الله.)

سرّني إذ علمت أن من المعتز، كان يُعجب بذي الرمة ويقدمه، وكان يجمع براعة في التصوير عند الشاعر كقول ذي الرمة:

فلما رأين الليل والنسيم جبهة
حياة الذي نفسى حسانية نازع

فإن يارح، لم يتحفظ عن إبداء إعجابه براعة فكان آخر، مثل هذه التحيزات، عند الشعراء الكبار، بعضهم لبعض، تلتفت النظر، تجسدها عند أبي نواس وأبي العباس، والحريز، والصورة بديعة حقاً، إذ أن الحمر الوحشية رأت أنها مألوف، ولما يحل الليل، فلم تكن الشمس قد غربت بعد. كانت بين الحياة والموت، وهو بيت يكاد يعدل قول أبي العلاء:

لعل كراماً قد أراها حذاهما
بوان طم بالمشيق وصالح
وسرّنيما هي طم أخرى كسرتها
إذا أمهرت فيه دوات حمال

يعني أن الأبل لما تعسفت في سيرها، تخيلت الحمال التي تقاد بها، كأنها أعصان طلع غضة تاكلها، وأنها ترعى بين شجر وأرف في مراتعها. وقوله (إذا أظهرت فيه دوات حمال) يعني أن الأبل وقفت تستعرض جمالها وزينتها كما تفعل النساء. وقد وقع الحريدو على المعنى نفسه، فقال يصف الظباء:

تمرت في شياهم الرضاد والغز
مبلاح المني يسهو تير توري
قصد أنها تقف على شعاب الحمال
ومساقط المياه، مختالة بجبالها. ذلك قوله (تير توري)، ولا يخفى أن كلمة (توري) مضحكة، تعني (يظهر).

كان ابن المعتز شاعراً مثرفاً ليس في حياته وحسب، بل في شعره أيضاً، وقد

احتجى القدماء بقوله يصف الهلال:

سبح الله تسربور من مسحة
مسد اثنته حصة من حشر
قالوا لابن الرومي، وهو من الشعراء (المصورين)، ما لك لا تقول مثل هذا فاجابه، هذا أصبر يصف ما يراه في العصور، أما أنا فمن أين لي محلة، إلا أن المحدثين، قد لا يتحزنون لهذا التشبيه، ويجدون فيه (استعجية) واستغلاً، ولو تميلوا قليلاً لوجدوا أن الصورة لا تخلو من (ثراء) (وترف) كما في ألوان أماتيس). وفيها (فر صرف) كما تجد في رسوم (الحياة الساكنة Still life) هذه الأيام. الفنان يستعرض أدواته، لا أكثر ولا أقل. ليس هذا ما تغير له عيون بعض اصحابنا من الداعية (الشيوعية) وال (الشيوعيين) في زماننا هذا.

ربما هذا (الفن الصراف) في شعر ذي الرمة، هو الذي أعجب ابن المعتز، فانت إذا استتميت (طريقات) أبي نواس، لعل لا تجد في العربية، شعراً أصعب على الوصف وتفنن فيه، وذهب فيه كل مدح، حتى أصبح الوصف هدفاً في حد ذاته. لا تجد ذلك كما في شعر ذي الرمة

والقصيدة التي ورد فيها البيت الذي أعجب ابن المعتز، هي التي مطلعها:

حلبلي عوحاً عوحاً نانسكنا

على طلل بين (الفلات) (والشمارع) وهي تبدأ بالتسبيح، كعادة الشعراء، وهو عند غيلان أكثر رقة منه عند كثيرين.

ولما تلافينا حيرت من عجبونا
مسرور كسما ساما بالأسنان
ولما سافنا من حديث كانه
حتى النعل مروحنا ماء الونان

تقول، وهل ماء العيون إلا الدموع، ولكن صبراً. حين يقول لك الشاعر: مروحنا ماء الونان، ألا تحس أن ماء، الأولى هي ماء، الثانية وكان الشاعر قد شرب العسل مروحاً ماء، موعه، والونان جمع وقعه، وفي نقرة في الصخر يجتمع فيها ماء المخر، كما هو يطلبون طلاء الحديث لا أكثر.

تلفت الشاعر من التسبيح، كما يفعلون، ويوغل في (الرحلة) كخروج من (المازق) والمازق هو الحب، أو كسما قال عدة بن الطبيب:

ممد عينا ولا تسمك عن عسل
أن المصاة بعيد التي تمليل
و(العسل) هنا هو السفر، لذلك أسموا المطايا (البعلمات). وقد قال (الاستاذ):

وأصدي ملاً أي الماء حياحة
واللشمي مسوق البسملات لمار

يدخل ذو الرمة في الرحلة، فيعكف على وصفها بدقة مذهلة قل تغيرها في الشعر العربي، بل في كل ما نعرف من شعر الإسماعيلية، تطاوعه لغة شائعة وقريحة دافقة:

مسدد ذا، ولكن رباً وخاء عرس
بوا لعل السارح استبداه
ناقته (الوجاء العرس) هي وسيلته إلى البهروب، ومحاولة الخلاص من الذكرى التي تشغل ناله، ولا خلاص ولا مهرب في الغالب. كذلك فعل محمد سعيد العناني إذ قال:

ثم يمز عيسر السري ما شمر له
بمعي وعيسر مات العبد من عيسر
ثم أنكر بعد لأي وعابده داؤه القديم.

سبعبر الله في نسو محسدة
تبر الحسا والمعالي أي محسدة
وقد أعاد، شوق وراءه وسوق أمامه، يخبط في الغبوات على نافيته التي تشبه الحمر الوحشية في سرعة عدوها.

تسبني ورخي يهوي أثبت لاج
من أصف نل الطليهار الرءاء
ذلك حمار الوحش الذي أضمر جسمه كثرة ملاحقه للأنث من الحمر الوحشية. وحين يرد الحمر الوحشية الماء، يتألقها الشاعر بعيني، رسام، عبقري، لا تقلت منها صغيرة ولا كبيرة.

سبباً تمت النور عن مزارعها
سبح كسما ساما، الرؤوس الواسع
يُدس عن أفراسهم مزارعهم
وأشار زغر الهلب، يوز المقام

الحمر واقفة (صياماً) تذب الجشرات عن أنوبها، بتحريك رؤوسها كمن يوقى (بالأ) والنخرات في الأوب، واحتنتها نخرة وعندنا في السودان، الأنف هو النخرة وليس (الشم) الذي يعني (العجم) بلهجننا ومن بطرين الذباب الأزرق، أو الأسسود. نادنا بين القليلة الشعر (زغر الهلب) فالزغر هو الغليل الشعر، وتم من زغر كخيف الشعر في هذا الزمان.

ثم لما شربت الحمر الماء، وصف الشاعر شربها وصفاً لا أعرف أن أحدا سبقه إليه:

يدأويس من أوجاسين مسرارة
سرح كسما ساما القطا المتساب

وفي صورة في غاية الإعجاب، إذ جعل سرعة شرب الحمر الوحشية وتتابعه كأنه أمواج متتابعة من طير القطا. وإذا تخيلت الربيع تحرك صفحة الماء، وتحصل منه (أنشاجاً) متدافعة نحو حمر الوحش، سوف ترى أمواجاً في السماء وأمواجاً في الأرض.

لم يكف الشاعر بأنه أعطاك (سرعة) الشرب (وصوله) (ولونه) ولكن كأنه نفذ إلى أعقول الحمر الوحشية، وجعلك ترى، كيف رطبت هذه الحمر، بين الشاي (الماء) وأنشاج (الطير) وكيف أحست بالشرب نفسه، بطريقة (Abstract).

ثم أخذ كل هذه الألوان، وطلى بها سرعة عدو الأبل:

أولك أنشياء القلاحي التي طوت
ما النعد من نقي (فسا) من المساح
لاسماسها بالليل وفي كسنة
على البيد نرشيف الطسا البواب

الله أكبر! شرب الحمر الوحشية يشبه تتابع أمواج القطا، وسير الأبل يشبه شرب الفناء اللاني لم يشربن لسمع، فانظر كم صورة ولد الشاعر، وفي صور تتكاثر وتزداد عجبا كلما تعمقت

ولا تنتهي القمصيدة قبل أن يفجأك الشاعر بصورة ترج خيالك رجاً. يقول لك أن الأبل:

إذا أفسفت يمساً فمار تسمرت
غلاة نجم أحمر الليل طاب

تخيل النجوم التي استلقتها هذه الأبل، وكلما أهل مجد، تسجرت ببقايا نجم طلع لب قبل الفجر! ولد أحد في شعر المحدثين على عراة طرائفهم، شاعراً (أعنيق) نجم (وتسحر) نجم

كان الشعراء، الواحد منهم يحيط رأسه بالخاتمة لجمال مثل هذا البيت

نحو أفق بعيد

١٧٢



بقلم الطبيب صالح

(هذه المقالات عن ذي الرمة، تحية لذكرى الصديق عبدالله ماولد أوربيه رحمه الله)

بلغ بهن القصده، ولم يكد ينصدع عمود الفجر، وسمعن تقيق الضفادع وبليطة الحيتان في البحيرة. ثم راين في الضوء الشاحب ماء (أثال)، الحلم الذي احتمل في سبيله وعشاء الطريق، يحدوهن قائد همام شجاع رابط الجأش، كما وصف ابن المعتز:

شاحج يرفع الهيق كما غرد
حار بايقر نجدي

بطل ملحني في الحقيقة، بصفه كل واحد من هؤلاء الشعراء الثلاثة الفحول، كل على طريقته، وكأنه يصف جانباً في شخصية واحدة متعددة الجوانب. اناج خيال ذي الرمة رياح الصيف، فاذهبت الماء وضيعت العشب، وهضمت الحمر آخر ما تبقى من الطعام المخزون في بطونها. نجمعن حوله واخذن ينظرن اليه بتلك الطريقة التي تنير بها الأنثى هموم البعل. لم يبق ماء ولا طعام يا أبا العيال، فماذا انت فاعل؟

الا ان صاحبهن ليس بالمتواني ولا التكله. فهم لغوره ما يجب عمله، واستقر عزمه ان يسري بهن بليل، ويبلغهن الماء بالغداة.

والهم (عين أثال) ما ينازعهم من نفسه لسواها سروداً أرو

كذلك هو عند ابن المعتز، الى جانب ان فيه حمية وغيرة على حريمه.

شعلته له اقمه ملاله
عسيرة بهبه حليبه
فاحمر حسيماً إنه عسا
حسمه أتيهه إليه الوصي
مدعاهما لتسبر الماء
عظمنان فكرت لو تسبر لعي

هذا، والطريق عند الحردلو أطول، والهدف أبعد، ولابد من الإقامة والرحيل وعلى (البعل) أعناء أثقل، فساووه يظلم مكاناً أبداً يضعن فيه أحماهن، لذلك هو شديد الحذر يخلو كل خطوة بحساب.

حلاهن يذوع في بقل وحزجت نال
لا من دور الوادي السري سيال
موق (قمرود) طلع شام في مبيته زوال
وقلعه (كرو) حميرها لقي له ميا عال

ترك حلالته رثعاً في مرعى من المقل والنال، وراح يرتاد سيرة الوادي، أي أعلاه، والوادي سائل مائه. رأى من هضبة (قمرود) أطلساً فأحس الخطر، ثم وجد قليلاً من الماء، بمقدار ما يغلي البعل (شعال) في الحفرة أسفل قلعة (كرو). عاد اليهن عند العصر، وقد استقر عزمه ان يسري بهن بليل.

حامر منقلب وقتاً عصير وشفاف
وكاس لله بهن من صيد ما خاف
يدل الطبعين دأيم الأبد عفاف
ومي (نايط السروج) لقين بقليل حاف

فلتقر أعينهن، هؤلاء الظلاء المضيفات. انهن في حنى بعل باسل لا يهاب فجاءات السري، ولا مخاض الطريق. سوف يوصلهن سالمات الى الهدف ان شاء الله. لندعهن يرتحن قليلاً في (نايط السروج)، ولنذهب الى ابن المعتز لنعري كيف فعل صاحبه ونساووه.

فتمسدي لهن بالتحف المفطر
ماء صامي الحمام غري
يتشمشني على حمري بيل
الريح فداء مسكته مسجلي
فاذا صاحكته ذرة شمس
خلته كسرت عليكيه الحلي
وسط غساب وأبكة يتشمشني
سوق اغصان أيكها القمري

هذا الفردوس العجيب، فردوس ملعون؛ وصلته الحمر، يسوقها الفحل الكريم، وقد اذاب أحسادها الجوع والظما. لكنها لن تنعم بالورود، ثمة بكمن شيطان على هيئة انسان، يذكره لك الشاعر، وكأنه لا يبالي.

عندما ملحم سيهم خصم
كل يوم له شواء طيري

يا له من جزار، اقام عند ذلك السبع الصائدي، ليكرز على مخلوقات الله الجميلة عيشها، ويعكر صفو أحلامها. وهذا

الشاعر المجيد المزهف كأنه لا يبالي. علينا ان نلصق الى الشاعر الكبير حقاً، كبير القلب والخيال، لمعرف حقيقته كذا الشيطان الجالس عند باب الفردوس.

وبالمسائل من (حلال) مبتحج
رذل الشياح حفي النجس مرور
معد زور هيت فحسا حبيزة
مفس البطون حذاها الريش والعف
كسات اذا دقت أمثالهن له
سبعهن عن الألف منسعر

جالب أوصاب، ومفرق أحباب، هذا (البلاء) الأدمي. رث الشياح، شبع قصي الهبة، كأنه شبح، موزب في جلبابه، أعد سهاماً طلس البطون مثل الأفاعي. (الرجل) الكريم، بعلهن قد بلغ بهن القصد، أو ظن أنه، وقد ظهر لهن ماء الشبع كأنه حلم قريب المثال. ومن فائتات سرايبلهن ناعمة الوبر تضرب الى السواد، وفي أحقابهن بياض، يدخلن الماء، فاحسسن شيئاً وتوجسن خيفة. اخذت اكبادهن ترتجف في أحشائهن من الهلع.

تجاذبهن الرغبة في النجاة، وشهوة العب من ذلك الشراب السحري الذي قطع اليه كل تلك الأبعاد، ثم طغى خريز الماء على الخوف.

فأقبل الحقب والاكباد ناشرة
فوق الشراسيب من أحشائها تجب
حسنى اذا زلحت عن كل حسيرة
الى الغليل، ولم يقصصنه، ثقب

تخيل! بعد كل ذلك العناء، لم تكد تيل ريقها من الماء. هنا يخبرنا ابن المعتز دون اكتراث:

تمسلي له باهزاع مياض
سوقد النصل منته مسري

هكذا تنتهي قصته، لم يقل لنا هل الراي أصاب أم أخطأ. ولكن قوله (ماض) يرجح انه قد أصاب، فلا بارك الله له. أما ذو الرمة، الشاعر الفنان حقاً، الانسان حقاً، فإنه لم يترك مجالاً للشك. عاطفته مع الوحش.

رمى فسأخطا والانداد غياليه
فانصن، والويل مجبراه والحرب
يفسفن بالسفح مما قد راين به
وقسا يكاد حمري المعزاء يلتهب

تتنفس الصعداء، وتقول الحمد لله، تنترك الانسان المعتدي، يولول ويبدي، ويعزبك أنك تعلم ان ذلك البعل الكريم، سوف يجد لنفسائه مورداً آخر، لعله أقل عذوبة من (عين أثال)، ولعله لا يعود ابداً الى ذلك النبع المحبوب الملعون ■

نحو أفق بعيد

١٧٢



بقلم الطبيب صالح

(هذه المقالات عن ذي الرمة، تحية لذكرى الصديق عبدالله أولد أوريبي رحمه الله)

كما يطرف جفن العين، أو كما تقلب الصفحة في (البوم) صور، أو كما يتبع مشهداً مشهداً على شاشة السينما - أو قل، كما يتلاعب رسام عبقري مجنون مثل (فان غوخ) بالألوان - يصرف هذا الشاعر العجيب المشهد الأول، وينادي مشهداً آخر.. يفعل ذلك بشجاعة وجراءة تتركك تلهث.

إذاك؟ أم نمش؟ يا يوشى أكثره مسبق الحد عاد ناشط شنب

بين قوله (إذاك؟ وقوله أم)، يخنفني عالم كامل، ويولد عالم جديد. أساجر هو؟ روي عن جرير، أنه خرج حساجاً مع المهاجر بن عبيد الله، فلقبها ذا الرمة، فاستنداه، فقال:

ومن حاسحتي لولا الثاني ورتما
محت الهوى من ليس بالمشقارب
عطابيل (١) بيص من ربيعة عابر
عذاب الثنايا بشرمات الحنائب (٢)
يقطن (٣) (الحصى) (الزمل) منهن مربع
يشترين البنان الهجان الحنائب

فقال المهاجر لجرير «امجنون هو».
لا بل هو شاعر موهوب حتى الجنون.
ساجر، مثل (برسبرو) عند شيكسبير، يشير بعصاه، فيخنفني عالم في الخيال، ثم يشير، فيظهر عالم.
انظر! يلتحم الشاشة مخلوق يصنع بالحياة من مخلوقات الله متفرد وحده في الأفق. لم ذلك؟ حوله الثرى والنبات والجماد والأشياء. وفوقه قبة السماء. تلتئم عليه الأفاق، كأنه (أمير) من أسراء الحياة. انظر

اليه يتشكل في الخيال، ويتوضح. موسى مثل نسيح باد، أبيض، على سيقانه فقط سود، خده مسبق دائر يعلى بالمشاط ويتعجز بحيوية السحاب، كما وصف ابن المعتز..

فاعدأ في الثرى يطير ساقاً
بشسر مبيها سماء ودي

لث يفتات مفا تنفطر عنه الأرض آخر الصيف بلا ماء، الأمن الذي في برودة الليل. يُظله ظل شجر الأرض. ثم حملت اليه الرياح عبق نبات الرية، فتدعها الى (ذي الفوارس)..

أسمى - (ومين) محسناً طريق
من (ذي الفوارس) تدعو أمه الرية (٤)
حتى إذا حبلت بين أظهرها
من عجمة (٥) الزمل أشباح لها حب (٦)
سم الظلام على الوحشي تملكه
ورائح من شصاص الدلو مسك

كم لجة غاب في غمراتها هذا النور الوحشي! انبجح الزمل، واسواج الليل، ثم هطل عليه طوفان من السماء، فهو في ظلمات بعضها في بعض. وقوله (ورائح من شصاص الدلو مسك) يقصد السحاب الكثيف الماطر الذي يأتي في موء الدلو، ولكن الشاعر كأنما جعل في السماء دلاء تصب الماء على ظهر النور.

فسات ضيفاً الى أرطاة مرتكم
من الكشيح بها دم ومحتصر
مبلاء من معدن الصبران (٧) قاصبة
امسار من على أهدامها كشي

لا افلك لم تلتفت لقوله (فات ضيفاً الى أرطاة مرتكم)، فهذا الشاعر السابق لزمانه، لا يرسي الكلام جزافاً، الطبيعة، أو (البيئة) كما نقول اليوم، هي لديه في إزاء تام. ما خلا الأسان: هذه السيدة الكريمة، شجرة الأرضي والأرضي مثل الطرءاء - النامية في كتيب مزاركم، أعصانها مثبلة على الزمل حوالها، فيها وقاية ودفع. وقد استضافت من قبل قطعاناً من بقر الخلاء، تركن عندها ذكريات القاستن، أنصاراً حال لونها ويبست فكانها التوت والعنب

من مساحتها عابر سبيل، طارق ليل من مخلوقات الله، والرياح تنفخ بالبرد، والمطر يهطل، فهتت له وقالت «يا هلا ويا حيا».

إذا استهلكت علي عيباً أرحت
مرامض العين حتى يارح الحش
كلته بيت عطار بمسك
لطانم المسك يحويها وتشت

يا لها من ضيافة: أعدت له مخدعاً أمنا دائماً بهوج بروائح الصندل والمسك. هطل المطر غزيراً رخة بعد رخة، فاستل الحطب في مراض البقر الوحشي، ففاحت المراض بروائح شذية، خلطت من رائحة الأرض والحطب الميت، والروائح التي تركتها الوحوش وراحتها، روائح أجسادها وأعيادها وأحلامها وذكرياتها. كتابات غامضة في سجل الطبيعة، أذاع أسرارها هطول المطر.

أنلق المطر وأصبح الكون بأسره (بيت عطار)، فسبحان الله الخالق المصور الفخار هل يوجد نزال غير صديقنا النور الوحشي في تلك (المحسانف) أنى أوثر أن أنخيل ابنه وحده في تلك الغلاة، في ضيافة شجرة الأرضي.

تخلو السساروق عن منظر ليز
كسنة مستشفي يلق (٨) عرر
والودق يست من أعلى طريفته
جول الحمام حري في سلكه التفت

قول الشاعر (عرر) بقسوي ظلي إن صاحبنا وحده، ليس معه أحد. هل تزوج وطلق؟ هل هجرته خلاته؟ هل أحب ولم يمل من حب؟

أنه هنا وحده، محل وحده، ويرحل وحده، ويحارب وحده، كما سوف نرى. يلعب البرق كما تفتح العين وتغضب، فنرى (رجلاً) أعز مشتتلاً بعباطه، متجمعاً على ذاته في جوف الكهف وجوف الظلام. ثم يومض البرق، فنرى قطرات المطر تتخرج على ظهره كما تنفجر حبات خمان أفرط عفتها. تفاصيل دقيقة بريشة فنان فارع، هي عناصر في (دراما) بالغة البساطة وبالعلة التعقيد. وحسبك هو من بطل (ملحمي) وإذا شئت، من بطل (وجودي):

يمشى الكناس بروقيته وبهيمته
من هائل الزمل متناض (٩) ومثكث
إذا أراد انكراساً فيه عن له
دين الأرومة من أخابها طنب

لا يكاد المكان يتسع له، كأنما تحرك اصطدم قرناء العظيمان (روفاة) بجوانب الكناس، فيهدمها ويهيل عليه الزمل، وإذا انضم أو تعطل في مرقده، ضرب قرناء معروف الشجرة وعاقاه عن الحركة.

وقد توخى رجزاً مقصراً نرس (١٠)
بناة الصوت، ما بي يسمعه كبد
مسبات يشهيرة ثاد ويسهره
تدوب الريح والوسواس والهصد

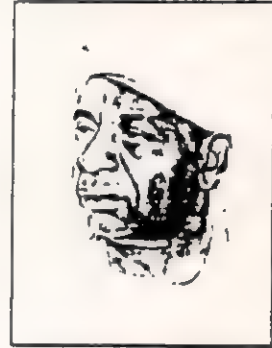
لله امت من عابر سبيل، ساجراً تتقلب، تُصغي الى عواء الريح والوسواس، وانت في ضيافة شجرة الأرضي تنفطر الصباح، يجلو عنك البرق في ظلمات كهفك، مرة بعد مرة، كما يضيق الفن العظيم ظلام الحياة. اترك في رعاية الله، فامامك منذ الغداة موقف عسير ■

- (١) العطابيل النساء اللسان الفارغات الطول
- (٢) الحنائب، الكمال
- (٣) يقطن، أي يقس أيام الحر
- (٤) البرج جمع ربة، مات طيب له شدي
- (٥) عجمة الزمل معصم
- (٦) حسب الزمل طرائفه
- (٧) الصبران جمع صوار، وهو انفسه من بقر الوحش
- (٨) التليق الفاء، أو هو ما يشتمل به كالأصا
- (٩) المتناض من الزمل من الانضمام، الذي سهار، والمتكث الثابت المستقر
- (١٠) النسر الذكي المعلى (يشهيرة) أي تلفة وال (ثاد) اللل والرطوبة مع برودة

(محدث مئة)

نحو أفق بعيد

١٧٤



بقلم الطيب صالح

(هذه المقالات عن ذي الرمة، تحيةً لذكرى الصديق عبدالله أولد أورييه رحمه الله)

تدرك الآن، لماذا ركّز الشاعر انتباهك على قرنيّ النور. لشدة ما فعل ذلك، فكان النور كله قرون. تذكره يتلمّظ في الكهف، يتقلب على جانبيه، يضرب قمرناه الجدران، فينهزم عليه الرمل، ويصطدمان بالأرض ويعروق شجرة الأرضي. القرنان سلاحه، فهو مدجج بالسلاح، يحارب في ظلمات الكهف، معركة لم تحدث بعد. ثم كما يفعل مخرج سيمفاني ملهم، يسلط الشاعر الضوء، درجة درجة، على وجه (البطل):

حتى إذا ما حلا عن وجهه فلق
هادبه في أخريات الليل منتصب
أعشار ليل تمام كيان طارقه
تطلطح العيم حتى ماله جوب

تطخّطخ الغيم، أي تراكمت ظلماته على ظلمات الليل، فكان كطراق النمل، طبقة على طبقة. وكل ذلك تطلّخ به وجه النور الوحشي. ثم جلا عنه ضوء الصباح، قليلاً قليلاً، كما تغسل الخضاب الأسود الكثيف. وفجأة ينطلق الجن من الحبس:

غدا كساناً به جثاً تذامة
من كل أقطاره يخشى ويرتقب

عجيب! أمجنون هو؟ المثل هذا قال المهاجر لجبرير حين أشدخما، أمجنون

هو...
الآن سوف تقع الحرب. في جانب، هذا (القرن). وحده أزاء جيش. عابر سبيل، لا تعلم من أين جاء، والي أين يقصد، وما هي قصته. لا يضمّر شراً ولا عدواناً. مسافر وحده في سمحات ملكوت الله. فوقه السماء، وتحت حوافره الثرى، وحوله الأماق. حرّ طليق، نبيل أرسقراطي في مملكة الحياة. ليس أقل. وفي الجانب الآخر، في المعسكر الآخر، من يا ترى:

ماحت له جوع رزق محصورة
نوارز لاحيا التفريث والجنب
غضب هيرة الانساق ضاربة
مثل السراحين في أعناقها العدد

هذا هو الجيش، وبأله من جيش كلاب سود ضامرة البطون من الجوع. أذانها مائلة الى الوراء كأيها الريش في السهام، وفي أعناقها سيور الجلد، رمز عبوديتها، وهي في شراستها مثل الذئب.

أنما ابن سيد هذا الجيش الكتيب، الذي يحرك الحرب من وراء ستار:

ومطمّ الصبيد قتال لثغيبته
التي أناه نذاك الكسب بكنسب
مفرّع أطلس الأضمار ليس له
الأضمار، والأصبيدما نشب

بوتك هو. ادعي كربة الهيئة، عليه اطمار ثياب بالية متسخة، وشعره في رأسه مقر مثل قتل متفرقة من الغيم. العبدوان تجارته، أخذها أباً عن جد. ذلك ديدنه وميراثه.

هنا، يفعل الشاعر شيئاً عجيباً حقاً. لا يزوج به (البطل) في المعركة فوراً كما يفعل الحقيقي، وقد أخبرك من قبل أنه (مفرّس) أي أنه ذكي فطن مراعٍ عليم بتلك القفار. ولا بد أنه خاض حروباً من قبل. ولا بد أنه قدير أنه قد ينجو بنفسه دون قتال، والعز، ولا أقول العزاز، ليس عاراً، حين تكون القوى غير متكافئة:

فانصاع جانبه الوحشي وأنكرت
يلحجن لا ياتلي المطلوب والطلب

الجانب (الوحشي) هو الجانب الأيمن، أما الأيسر فهو الجانب (الأنسي). وتلك في نظر الشاعر قسمة عادلة، فالإنسان في رأيه (أعسر) على مذاهب الحياة.

المطلوب هو النور الوحشي، فمن الطالب ليس الكلاب بالتاكيد، فهي ليست إلا أدوات يحركها مكر الإنسان. الآن، يفعل الشاعر ما هو أعجب، كان

بوسع النور ان ينجو بنفسه، ولكن فجأة يكف عن الجري:

حتى إذا دومت في الأرض راحمه
يثر، ولو شاء، حتى ممسه الحر
حراية أدركته بعد جيلوته
من حاس الحمل معلوماً بها العصر

توقف، وتركها تلحق به، مدسوعاً بأحاسيس الكبرياء، وبخافة العار والعضب. وقد غضب، ربما، لأنه أحس أن الحرب قد فرضت عليه فرضاً دون نيب، وهو سائر في طريقه، لا يضمّر شراً لأحد. أما الآن، وقد وطن نفسه على القتال، دفاعاً عن النفس، فسوف نرى منه العجب، وسوف نفهم لماذا ركّز الشاعر انتباهنا منذ البداية، على قرنيّ النور، فهما سلاحه الوحيد في مواجهة هذا الجيش الكتيب:

مكر يمشو طعناً في حراشها
كبنه الأجر في الإتيال يختبئ
مشارة بحس الأعناق عن عرس
وخضاً وتنتظم الأسحار والحج
يتحي لها حد مذي بجوف به
حالا ويمسرد حالا لهدم سلب

ها أنت ترى (الرجل) المسالم قد تحول الى مقاتل شرس، يطعن صدور الكلاب، طعناً سريعاً متتابعاً، ويضرب مقرنيه ذات اليمين وذات الشمال، فيبفر البطون ويمزق الجلود، كأنه رمز للحق أزاء الباطل، يطلب الثواب بقضائه على الشر والعدوان:

حتى إذا كثر مسحوراً سائمة
برامناً وكبلاً روقه مختصب
ولى بيد أنهراماً وسعياً زعلاً
حذال قد أفرحت عن روعه الكر

ترك جثث الكلاب منشورة على أرض المعركة، ومز بينها فرحاً نشطاً غاضباً، قترناه بقطران دماً يلمع ولا بد في ضوء الصباح.

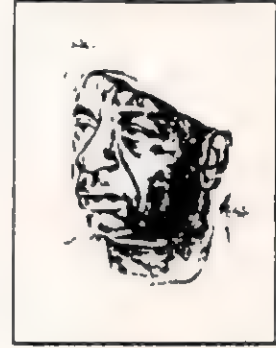
كأنه كسوك في اثر عفرته
مسوم في سواد الليل منتصب

كانه شهاب ثابت انقض على شيطان من مرده الجن في ظلام الليل. أنظر اليه مهبوماً في الفضاء الرحب، مزهواً بانتصاره، فرحاً بحريته، وقد التامت حوله الأفاق. وهل كثير على هذا الشاعر العمقري أن يقول، أنه أقام هذا النور الوحشي رمزاً لنوازع الخير في الوجود، في مجابهة قوى الشر والعدوان:

(المدت طبة)

نحو أفق بعيد

١٧٥



بقلم الطيب صالح

(هذه المقالات عن ذي الرمة، تحية لذكرى الصديق عبدالله ولد أوريه رحمه الله)

ان كنا قد راينا في مشهد الحمار الوحشي مثلاً حياً على غير (البغل) على حريمه، وراينا في مشهد الثور صورة ناصعة للكبرياء والاعتداد بالنفس، وأباء الضنم فسوف يقدم لنا الشاعر في قصة الظليم، فعل النعام، صورة عجيبة من معاني الأبوة والأمومة.

لشدة ما تستهويننا هذه المشاهد، لعلنا ننسى ان الشاعر إنما يصف ناقته، ليس أنها تشبه حمار الوحش والثور البري والظليم، بل هي (تصير) حمار وحش، ثم (تصير) ثوراً برياً، ثم (تصير) ظليماً، وكل واحد من هذه الوحوش، له صيرورات عدة، فكان الشاعر يمتطي ظهر حيوان أسطوري، يتناثر شظايا في الخيال لا حصر لها. يصرف المشهد، كما يفعل الساحر، ويدعو مشهداً آخر، يقول (إذاك) سيختفي عالم، ويقول (أم) فيظهر عالم جديد.

إذاك؟ أم خاضب؟ (السّي مرتفعه) أبو ثلاثين أمسى وهو منقلب

نعرف حالاً، حقيقة مهمة عن هذا

(البطل) - أنه أب وإن له عيالاً ثلاثين وسوف تدرك فيما بعد، أن الأبوة هي جوهر هذه القصة. وتعرف أيضاً أن هذا الشخص الغريب مخضر الساقين والركبتين لكثرة ما أكل من العشب (خاضب) وسوف ترى وشيكاً أن الشاعر لم يلفت انتباهك إليها اعتباطاً. و(السّي) أو (السّي) تعني الفلاة، وقد قال هتاناً في معرض الفخر:

من قومة الجبل ماني المسرى النّبي
ما يجيد مقبهي وما يرقص (الحبيبي)
وكم حمل حمل بركتين في (السّي)

يقول انه منذ صغره، لم يعرف عنه انه رخص فاطر الهمة بسد وقته في اللهو، يخلع قناعه ويرقص (الحبيبي)، وهي رقصة فيها ضرب بالأيدي والأرجل مع حفحة. ولكنه يوسق الجمال، ويسافر بها بعيداً كأنه من أبطال ذي الرمة:

شخت الجزارة مثل البيت سائر
من السروح خدب شيقوب خشب
كان رجله مسما كان من عشر
صقبان لم يتقشر عنهما النجب

أسود، ضخّم كأنه خباء شعر، غليظ خشن، ساقاه كأنهما أعواد لم يتقشر عنها اللحاء من حطب العشر.

يظل مختصماً يسد فتنتكده
حالا ويسطع أحياناً فينتسب

يتماهى للعين، يختفي ويبين، إذا هبط براسه للرعي، لا تميزه، وإذا رفع رأسه (سطع) فعرفته. وقوله (ينتسب) كأنما أراد ان يقول (من أي قبيلة هو).

كأنه حبشي يستغي أثراً
أو من معاشر في أذانها الحرث

مثل حبشي أسود مطاطيء براسه
كمن يقتغي أثراً، أو زنجي مثقوب الآن.

فتحّ راح في سواد مخملة
من القطائف أعلى ثوبه الهدب

يهيل عليه سواداً فوق سواد، فهو على سواده، يشتمل عباءة من الخمل الأسود، ذات أهداب

أو مخمّ أصعف الأنطار حادجه
بالأمس فاستأخر العذلان والقتب

اضله راعياً كلبية صدرها
عر مطلب وطلى الأعناق تصطب
مأصبح البكر مرداً من حلالته
يرقاد أحلية أعجازها سذب
عليه زاد وأهدام وأخففة
قد كاد يستلها من ظهره الحقب

صور تعيد إلى صور، وصور تدفع إلى صور، كأنك أزاء مراباً متحركة، تعكس أضواء من زوايا عدة. الناقصة مثل الظليم، والظليم مثل جمل أسود من أبل كلبية خرج عن جماعة الأبل وراح يرقاد نبات الحلى اليابس، الذي سذبه الرعي. ولعل الشاعر جمع (حلالل) إلى (أحليه) فيكون البكر قد ذهب لشبان آخر.

والجمل أبا مخم، وهو البعير الذي يقحم سنين في سن، عليه هودج أنزلق إلى مؤخرته لاسترخاء رباط البطن، وأما عليه حمول ثياب خلقه كادت تسقط عن ظهره، يشبه بذلك جناحي الظليم.

كل من المنظر الأعلى له شبهة
هذا وهذان قد الحسم والنقب

ها هو الشاعر قد استخدم الكلمة التي راودت خيالك منذ البداية - (البغب) أي (الأوان)، فانت معه في فيض من الألوان والأضواء والظلال. ولكن ماذا أراد بقوله (كل من المنظر الأعلى له شبهة) وما هو المنظر الأعلى؟ يقول الشارح، أي، كل واحد من هؤلاء، أعني الثور الوحشي والظليم والجمل المخم، سواء في قد الحسم.

أما الشاعر لا يتحدث هنا عن الثور الوحشي. لقد انتهت قصة الثور الوحشي، كما انتهت قصة الحمار الوحشي. انه يتحدث عن ظليم أسود وحبشي أسود، ومعاشر سود من الزنج، وبعير أسود. فلم كل هذا السواد؟ ومن هذا؟ ومن هذا؟

لعله لم يرد شيئاً محدداً، لعله أراد ان يقول، كل هذا العالم الذي أصفه لك بما فيه من حيوية وتنوع، ونبات وحيوان وجماد، وسواد وبياض، وأرض وسماء، إنما هو انعكاس لحقيقة كبرى، لمثل أعلى.

هل تستكثر على ذي الرمة ان يكون قصد الى هذا تكون مخطئاً، فهذا شاعر كبير حقاً، يمكن ان يقارن أيضاً، بكبار الشعراء (الميتافيزيقيين) في تراث الانسانية ■

نحو أفق بعيد

١٧٦



بقلم الطبيب صالح

(هذه المقالات عن ذي الرمة، تحية لذكرى الصديق عدالله أولد أوربيه رحمه الله)

تري رجلاً راجعاً الى داره اول المساء، والظلام لم يستتب له الامر بعد. منقلباً من مكان ما، الى مكان ما. معه زوجته وعياله. وهو (مجنح)، طويل، في كتفيه أنحاء. رأسه يميل الى أمام. وهو أسود. كأنك لم تر سواداً من قبل. جن جنون الشاعر وهو يصف سواده، مثل عاشق مستيم، أو أكل بهم. أسود مثل بعبير من أبل كلبية، وفي أبل كربية مشهورة بسوادها. والبعبير أضله راعيان، أسودان ولا بد. أسود مثل حبشي يقتفي اثراً، فهو مطرق برأسه الى الأرض. أسود مثل زنجي من معاشر مثقبي الأذان. هل الحبشي والزنجي هما الراعيان اللذان أضل البعبير الكلبى؟

لم يكذ بقوى على مفارقة السواد، فكسا كل ذلك بعباءة سوداء من المخمل لها ذنب. وتخيل ما طاب لك عن الهدب. مثل أهداب العيون، مثل الطحالب الطافية على وجه البحيرة، مثل وذيب شجر الطلح، مثل أبيات القصيدة تتخلق في خيال الشاعر.

صور لا حصر لها. صور تردك الى صور، وصور تدفعك الى صور. كان بوسع الشاعر ان يعكف عليها الى الأبد. كان يقدر ان يقضى حياته كلها يصف هذا الظليم.

ولم كل ذلك السواد، كان ذو الرمة،

وهو عربي من عدى، أسود وضاح السواد، فهل نشر نفسه سخاياً فرقها على نخوص فصته

حتى إذا التفت أمسى، سام أترحة
وفر لا مؤس ساداً ولا عسا

كأنه أحس بتعبير الضوء وانتراب الليل، أو هو شعور الأب. اتعبه حجارة. وكان قد انشغل بالرعى. تلفت حوله فإذا صغاره لا شيء بعيدة عنه بعدا يدعو الى اليأس، ولا شيء قريبة قربا يجلب الاطمئنان. انطلق من لحظته لا يلوي، وانطلقت معه الأفاق والأرض والسماء، وأحوال ترى وأحوال لا ترى.

يرقد (١) في ظل غراس وبغيره
حميف نامحة غنوبها حسد

عدا (الرجل)، فعدت فيه ومعه كل تلك الشخصوس التي ركبها الشاعر منها. معه وحوله وفوقه وتحته وأمامه ووراءه. جرى البعبير الكلبى والراعيان. جرى الرجل الحبشي والرجل الزنجي. شاجت أحوال الطبيعة دفقة واحدة، فعصفت الريح وحملت في وجهها الرمل والحصى وورق الشجر، ودفعت (الرجل) تلهذا لزا ولع البرق، وغام الرعد خطيباً مرتجذاً في الأفاق، واسويت الدنيا بالسحاب الكثيف والظلام، وانتشرت عباءة المخمل السوداء على كل ذلك، فأهالت ظلاماً على الظلام. هذا حال الأب، فكيف حال الأم؟

تبرى له صعلقة جرحاء خاضعة
فألخرق دين بنات البعير منتهد
كأنها دلو بشر حد ماتحيا
حتى إذا ما راحا حياه الكبر

دونك هي، تقتحم المشهد اقتحاماً مفاجئاً عنيفاً من حيث لا تدري. وتخيل شاعراً يوقف دلواً مملوء ماء شامياً في بئر، يوقفه في منتصف سقوطه. يوقف النعامة في سرعة عدوها لحظة، فيحذف فيها بتلك العين الفاحصة التي لا يفلت منها شيء. هي (صعلقة) أي صغيرة الرأس، وهي (جرحاء) أي أنها ذات ألوان يغلب عليها اللون الأسود. وهي (خاضعة) فسر ذلك بعضهم بأنها ذليلة منكسرة، وقال آخرون منكسة الرأس في عدوها. وقوله (تبرى) أي أنها تناري الأب في عدوه، وقد تلحق به وتنفوته

ويلمها روحة (٢) والريح مفصبة
والبعير مرتحمر والثيل مقتنرب

لا يذخران من الأبنال باتسبة
حتى تكاد ترمى (٣) عبيها الأفت

هل تسمع صوت هذه الأم المذعورة على صغارها تصرخ وتولول (يا ويلي يا ويلي)؟ تقول فيختلط عويلها بصراخ الريح، والرعد يوزم في الأفاق. والظلام عبر بعيد قد جل أو كاد. قال الشاعر (ويلمها) وهو تعبير يأتي على غنائه فلا تلتفت إليه. إنما هنا، فإن كلمة (ويل) ترن في أذنك، وكلمة (أم)، فكانك تسمع هذه العبارة القديمة لأول مرة. كذلك صنع (الاستاذ) في هوله.

ألا يا ليت شعر بيدي أشسبي
تقلب في قناة أو حسمام

وبعيداً ما بين فولي (يا ليت شعري) وقول أبي العليل، (يا ليت شعر بيدي)، هذا كما وصفوا، هو ما يفعله الفن العظيم. إنه يجعلك تنظر الى الشيء الذي ألفتته، فكانك تراه لأول مرة. بتلك الحساسية الشاذة المثال، حذق الشاعر وهلة في (الأم) وأسبغ عليها من مؤثرات الشفقة والرحمة. راحا (صعلقة) يبدو رأسها الصغير محزناً وهي تعدو عدوها المرتاع، (جرحاء) فكان ثوبها قد انحسر عن رأسها، وقد يسقط عن جسدها لشدة ما أخذها من الروع على صغارها. وهي (خاضعة)، وفي الكلمة ما فيها من إحياءات الذلة والانكسار. مهما كان مذلولها في سياق البيت. ووصف الفراخ بـ (بنات البعير) وهي أناث وذكر، فجعلها كلها أناثاً، أمعنا منه في تأكيد الجانب (الأنثوي)، وهو الجانب الذي لم يزل يقع عليه العنف والعدوان.

أنت اذا، أزاء (أم)، فطلق أم. ككل الأمهات اللاتي تراهن صباح مساء على شاشات التلفزيون، يحملن في أذرعهن جثث أطفالهن الذين ماتوا أو قتلوا في المجاعات والحروب، مثل نعامة ذي الرمة، يبيكين ويندبن (يا ويلي يا ويلي). والناس عنهن في شغل، كما قال أبو العلاء.

نيسمة القوم متبسة
لا يرقون لدمع الشيماء والخنساء

(١) يرقد بعدد عدواً سريعاً جراحاً، سحاباً كثير النورق الباهية، أول الريح، غنوبها، أي مقدمتها وأصل الغنوب، اللحية

(٢) البروحة الحديثة أو العمودية في المساء العتث مرتحمر بنفسه ارتعد، وكبر، يستهين ارتعد بالراجر أو محبس

(٣) ترمى الأم، أي ترمى

نحو أفق بعيد

١٧٧



بقلم الطيب صالح

(هذه المقالات عن ذي الرمة، تحيةً لذكرى الصديق عبدالله أولد أوديبه رحمه الله)

رجل وامرأة، أم وأب، وحدثهما في كون
بكر كانه خلق لساعته يعدوان حتى تنقطع
أنفاسهما وتشرق جلودهما، ينضم اليهما
بعير أسود، ينضم اليهما راعيان سودان،
ينضم اليهما حبشي أسود، ينضم اليهما
زنجي أسود، يطاردان عجم كثيف متشعب
البروق، تطاردان ربح نافحة تجعل في
وجهها الحصى، يطاردان نيل يضمر شرا،
سبا للطلاب والمطلوب، مثل الملك (الير)
ورقيقه في العاصفة والثلج، كان (الير)
المستكين يطلب ابنه، وهذان طفلان
أطفالهما، فما أعجب اتفاق الأفكار الجليلة
عند العبقريين

لا يمان سماع الليل أو برداً
ان اظلماء من اطفال لها لحن

قصد ب (سماع الليل) مطلق الوحوش
والافات التي تفكك ليلاً، ولم يرد السباع
تحديداً، والأطفال لها (لحن) أي ضجيج
وصو صوة وشغب، تلك ما تخيله الأبنان
وهما يجريان، وكان الأم تسمع خيالها
صراخ أطفالها، فتجيبهم مولولة (يا ويلي)
يا ويلي، وهكذا نجد أن الشاعر أقام لك
محطتين من القلق الدرامي، أب يجد وأم
تولول في مكان، وأطفال يصرخون في
مكان، وبينهما أحوال الطبيعة تعلو وتهبط
وتريد وتنقص.

هذا البيت الجميل، يرى العالم الحبر
الدكتور عبد الله الطيب، أنه منحول على
ذي الرمة، يورد ذلك في كتابه القيم (شرح
أربع قصائد لذي الرمة) الذي صدر عن

جامعة الخرطوم عام ١٩٥٨. وقد أسعدني
أنني حصلت عليه أخيراً. يقول
«ويسدو لي أن صانع هذا البيت نثر
إلى القصائد التي وصفت فيها القطاة، لأن
الشعراء هناك يصغون أفرح القطا بأن لها
(لجنا)، ولم أجد شاعراً وصف أفرح الله
بذلك.

إذا قالت حزام قصيدوها، إذ لا يخفى
أن الدكتور عبد الله من علماء العربية
المعدودين في هذا الزمان، وهو إلى سجله
الأكاديمي الحافل، ناقد بعيد النظر، وشاعر
عميق عور العاطفة مالك لأغنية لغة العرب
عليه مدقاق أسرارها، ومثله قليلون في
حفظه للشعر العربي، ونوقه ومنهم
وكتابه (المُرشد إلى فهم أشعار العرب
وصانعيها) من الكتب المصاحبة، وهو بعد
استاذي، واكن له محبة وتقدير.

وجد الدكتور عبد الله، أن البيت لا
يناسب تفسيره لجملة تلك الآيات، فهو
يرى منذ البداية أن الظلم كان قد ترك
صغاره (بيضا) لم يغض بعد، ويقول في
شرح البيت:

حتى إذا البقيت أمي شام امرح
ومن لا مونس يابا ولا كسند

«شام امرحه، من باب الإيجاز الشديد،
لأن ما سبق من الكلام، يدلنا أن هذه الأفرح
بحسب علم الظلم، لم تكن إلا بيضا
وكان وجه القول للشاعر أن يقول (شام
بيضه)، ولكن أراد ليدلنا أن البيضا صار
أفرحاً أثناء غيبة الظلم...»
ويقول في تفسير البيت:

جاءت من البيض زعراً لا لباس لها
الألوان والدماس وأم سررة وأب

«جاءت، أراد (جاءتا) أو (جاء)، فعامل
المتنبي هنا معاملة الجمع، ومعنى (جاء)
هنا (وجد) ... (الدماس) بالرفع والندب،
الرمز الناعم، وأم برّة الخ عطف على (إ)
لباس لها)، كانه قال (لا لباس لها ولا أم
برّة ولا أب إلا الدماس)، هذا وقوله (من
البيض) أي بدل البيض، واستعمال (من)
بمعنى (بدل) كثير، ومنه قوله تعالى
(أرضيتكم بالحياة الدنيا من الآخرة) أي
بدل الآخرة. وقصد ذو الرمة هنا أن يبين
أنها وجدت أفرحاً وقد كانت تركتها
بيضا.

ويختتم تفسيره للبيت بقوله:
«يقول، وجد هذا الظلم ونعاسته مكان
البيت الذي تركاه، أفرحاً ضعافاً قليلة
الرئس، ليس عليها لباس من أحسنتها
بقبها المظر وليس لها من معين ولا أب ولا
أم، اللهم إلا هذا الرمل الناعم المنتشر».

هذا كما ترى تفسير غاية في الطرافة،
جدير بالتقدير، وإذ الدكتور عبد الله بحر،
فلأعانس بالسباحة في بحره، وإذ هو
استاذي، فلا بأس أن أضع معه ما يصنع
التميز مع الأستاذ، فأقول، عفا الله عني،
أن الأستاذ الجليل، قد أرق نفسه أي

أرقاق كي يستعيد له أن الفراح ليست
فراخاً وإنما هي بيض، جعل البيت الذي
يصف الفراح بابها (أطفال لها لحن) أنه
منحول على ذي الرمة، فلهذا البيت وحده
المنحول، وجعل الجميع مثني في قول
الشاعر (جاءت)، وفسر (جاء) بابها تعبر
(وجد)، وبدل أن تجيء (الفراح من البيض،
صار المعنى أن الظلم والمعاملة وحدا
البيض قد صار فراخاً، فمتى وجداه، وفسر
حرف الجير (من) بأن معاشها (بدل)، وهكذا
بعدت الشقة.

وعندي، أن المعنى الظاهر والأقرب
مثلاً، والأوفق بالسياق (الدرامي) للقصة،
هو أننا حيال (عائلة)، أب وأم وأطفال، وقد
كانت العائلة أول ما تعرفنا عليها ملتزمة
الشمل، الأب بكل ما حمله الشاعر من أقال،
سمحان الله، بينها (زاد وأندام وأخفئة)
والأم المسكينة ضعيفة الرأس، خاضعة
كالمختصرة، والعيال يتشبثون بأبويهم
يسسرون في بلاد الله، كما يفرح
السودانيون من الجيوب إلى الشمال،
يحملون زادا قليلاً، وأنداماً نالبة ممرقة،
وأخفئة أشياء تافهة لا تغني.

هذا وقد أسماها الشاعر (أفرح)
واسماها (أطفال) وعندها منذ البداية، فهل
عد بيضا أم عد فراخاً، ونعت الظلم ب (أبي
ثلاثين) كما تقول (أبو سعد) أو (أبو زينب)،
وأغلب الظن أن عود الفراح قد أشد إلى حد
أنها تستطيع أن تخرج مع أبويها، ولكن
ليس إلى حد أنها تستطيع أن تسرح
وحدها.

انشغل الأب برحه بالرعي، وانشغلت
الأم، انتهز الأطفال الفرصة، كعادة الأطفال،
فراحوا يلعبون ويمرحون، فاستعدوا عن
أبويهم بعداً مطلقاً، انتهز الأب وانتهت الأم،
فكان ما علمت من هلع وولول وأحوال.

في آخر القصيدة، أن كان لها آخر،
صور الشاعر الفراح، ليس كما هي الآن، بل
كما كانت أول ما تكسر عنها البيض، وذلك
شيء معروف عند ذي الرمة، أن الأمر يقوده
إلى أمور، والصورة إلى صور، عاد بالذاكرة
إلى الوراء، وتصور الفراح في هشاشتها
وغضاضتها أول ما خرجت من البيض،
وكانه أراد أن يستن عطفك، ويعطي مبرراً
مضاعفاً لهنع الأبوين، هكذا يتخيلان
صغارهما، كما يتخيل كل أبوين أطفالهما
صغاراً حتى حين يكبرون.

هذا، وإذا أخذنا برأي الدكتور عبد الله
أن الظلم والمعاملة وحدا بدل البيض
فراخاً، فهذا يعني أن القصة قد انتهت
نهاية سعيدة، وفي ظني أن الشاعر لم يفرغ
من القصيدة، بل تركها مفتوحة مثل
سفوفية نافصة، ترك لك احتمالات لا حصر
لها، وترك لك صورة رمزية لا نفس، لا تقل
روعة، لو أنصفنا، عن الصورة التي صنعها
شيكسبير في الملك (الير)

وبعد، فانه يجعني بالدكتور عبد الله
أيضاً حب العربية والعروبة، والسودانيين
والسودان، وحب ذي الرمة وأبي الطيب،
فليت أنا بقدر الحب نقسم ■

نحو أفق بعيد

١٧٨



بقلم الطيب صالح

(هذه المقالات عن ذي الرمة، تحية لذكرى الصديق عبدالله اولد أوربيه رحمه الله)

قضى ذو الرمة هذا الشاعر (الجسيم)، كما ينعته الدكتور عبد الله الطيب، ولما يبلغ الأربعين. ويقول الدكتور عبد الله في المقدمة البيعة لشرحه لقصائد اربع من شعر ذي الرمة: «وان القلب ليتعطر ان يجد قلبا كبيرا كغيلان، عاجله الموت في عنفوان الأمل، وفي السن التي يكتمل فيها النضج. ولعله لو عاش لكان عفى على اثار من تقدموه من فحول الشعراء». وصفوا موته، كما كان يصف شخوص عالمه المتخيل. اذاك؟ أم؟ الحقيقة ليس لها وجه واحد، ولكن عدة وجود.

قال هارون بن محمد بن عبد الملك، حينئذ القاسم بن محمد الاسدي قال، حينئذ جبر بن رباط قال: «اشد ذو الرمة الناس بالشعلبية شعرا وصف فيه الفلاة، فقال له حابس الاسدي: «انك لتنتع الفلاة نعتا لا تكون منك الا بها».

قال وصدر ذو الرمة علي احد جفري بني تميم وهما على طريق الحاج من البصرة. فلما اشرف على البصرة قال:

إني لعاليها وإني لخائف
لما قال يوم الشعلبية حابس

فلما توسط الفلاة نزل عن راحلته،

فنفرت منه، ولم تكن تنفر منه، وعليها زاده، فظل يطلها وهي تنفر منه حتى مات.

إن قبلنا هذه الرواية فلنقبل إن صوتا غامضا هتف بـ (صديق) فتبعته، حتى تأخذ المقابر مجراها. كانت وصاحبها من قبل كأنهما شيء واحد. مات ظلنا، وهل ارتوى ابداء وهل زارته (مي) في موقفه ذلك، وهل اعانته على الرحيل.

الا خيلت خرقاء وسنا لفضية
مجرد وأنيسار المهني وساند
اناخوا لتطوى تحت أعجاز (١) سدفة
أيادي المهاري والحسود سواده

روى احمد بن عبد العزيز، عن الرياش عن الاصمعي عن ابي الوجيه قال: دخلت على ذي الرمة وهو يجود بنفسه، فقلت له (كيف تجدك؟) قال (اجدني والله، اجد ما لا اجد أيام أزعج) أني اجد ما لم اجد، حيث أقول:

كأنني غداة (الزرق) يا مي متبئ
يجود بنفس قد أحم حمامها

قال ابو الوجيه (وكانت منيته هذه في الجدري). غفر الله لأبي الوجيه، فما اظن الا ان الشاعر قد وجد ما وصف انه وجد غداة (الزرق) والمنايا تكون.

الا خيلت مي وقد نام صحبتي
مبا نغر التهورم الأسلامها
طروقا وجلب (٢) الرجل مشدودة به
سيفته بر تحت خدي زمامها
أنبخت مسالمت لدة (٣)
قليل بها الاصوات الأبامها

اذاك؟ أم؟ عن هارون بن الزيات عن موسى بن عيسى الجعفري عن ابيه قال: «اخبرني رجل من بني تميم ان ذا الرمة وكان قد اعتل، قال لأخيه مسعود (يا مسعود، قد اجدني تماثلت وخفت الأشياء عندي واحتجنا الى زيارة بني مروان، فهل لك في ذلك؟) قال نعم، فارسله الى ابيه ياتيه بلين يتزوده وواعده ان يلتقي في مكان. وركب ذو الرمة ناقته فقصت به وكانت قد اعفيت من الركوب زمنا، وانفجرت العلة التي به. وبلغ الموعد وجهد، وقال (ارمنا سبينا وأراد الله شيئا). ودفن برأس (حزوي) وهي الرملة التي كان يذكرها في شعره».

ألم تسال اليوم الرسوم الدوارس
بحروي وهل تدري القفار السابس

متى العهد من حلتها أم كم انقصي
من الدهر ان جرت عليها الرواس
ديار لمي ظل من دور صحتي
لنفسى بما هاجت عليها وساوس
فكيف مي لا تواتيك دارها
ولا انت طوي الكسح (٤) عبا ميانس

قالوا انه مات وهو قاصد هشام بن عبد الملك، وكان ذلك عام ١١٧ هـ عند ابن خلكان. وللدكتور عبد الله الطيب قول جميل في هذا يقول:

وهذا خير تشتم منه رائحة المساحة.
وكان شيطان الحب والشعر قد غارا من
غيلان ونقما عليه خروجه عن مذهبه
(....) الا ترى ان وفاته قد حدثت اثناء
مهاجراته للمرنى وقد كاد يعلو عليه،
وقبل رحيله الى الخليفة، وبعيد
مصارمته لمية.

لعل الشاعر، عزم اخيرا، تحت وطأة الحاجة، ان يمدح الخليفة كما ينبغي، وكان قد مدحه في سالف الايام، ببنت واحد في قصيدة من كذا وستين بيتا، ثم بحفنة أبيات في قصيدة من ثمانية وأربعين بيتا، يقول فيها:

جشمتك اليك البعد لا في خصومة
ولا مستجبرا من حريزة مجرم
ولو شئت قصرت النهار بطلقة
مضيم الحشا براقية المتبسم

وأي جراحة، ان يقول الشاعر لصاحب التاج، «كان يوسعي ان اقضي وقتي فيما هو أكثر متعة من المجيء اليك»، لا غرو ان هشام قال له: «انك لم تمدح الا ناقتك فخذ منها الثواب».

ليس انه لم يكن يحسن المديح، بل كان معرضا عنه اعراضا متعمدا. ولو كان الخليفة يحتفي بالموهبة من حيث هي ويقدّر الفن في حد ذاته، لوجد جمالا كثيرا في تلك القصيدة، كمثّل قول الشاعر في «مي»:

أحب المكان القفر من أجل أنني
به أتعنى باسمها غير معجم
ولم يبق الا ان مرجوع ذكرها
نهوض بأحشاء الفؤاد المشيم

١. اعمار سدفة، بقصد احره الليل

٢. حلت، كسر انجيم المعجمة وسكون اللام، عياد الرجل

٣. لدة الاولى، صدر النعير

٤. طوي كسحه عن الامر، تركه وانصرف عنه

نحو أفق بعيد

١٦٨



بقلم الطبيب صالح

روى صاحب الأغاني عن الضحك بن بهلول الغفني قال:
«بينما أنا بكافضة وذو الرمة ينشد قصيدته (الأحي) اطلالاً كحاشية البرد) إذا راكبان ملتزمان قد تدبلا من نغف كافضة فوقها يسمعان. فلما وصل إلي الأبيات التي يقول فيها (أحين أعانت بي تميم نساعها) حسرت الفرزدق عن وجهه وقال لراويه «يا عبيد، أضحمها إليك». فقال ذو الرمة «نشدتك الله يا أنا فراس». قال «دع عنك ذا. أنا أحق بها منك». والأبيات هي:

أحين أعانت بي تميم سباعها
وجردت تحسريد الحسام من العمد
ومدت بصبيعي (١) الزباب ومالك
وعمره وسالت من ورائي بنو سعد
ومن ال يربوع رهاء (٢) كسائه
دجى الليل محمود النكاية والرفد
تمنى ابن راعي الأبل شيمى ودوبه
معاقل صغبات طوال على العند
عنى براعي الأبل، الراعي النعميري الذي محقه جرير ببيته الذائع:

نعمض الطرف أنك من تميم
فلا كمها بلغت ولا كلالا

في تلك القصيدة، أحرق جرير بصواعقه جمهرة شعراء في آن واحد، منهم خصمه الألد الفرزدق الذي قال فيه:

لقد خزي الفرزدق في معذ
فأسى جهد مصرته اعتيابه

كان فحلاً كاسراً في الهجاء، لا يفاربه ذو الرمة ولا حتى الفرزدق الذي وصفه بقوله «قاتله الله، فما أخشن ناحيته وأشرد قاصيته». والله لو تركوه لأبكى العجوز على شيباتها والشابة على أحسانها. ولكنهم هرود فوجدوه عند الهراش ناسجا، وعند الجراء فارحاً. كذلك هو. وفي تلك القصيدة أبيات عذبة في المطلع، كأنها قصيدة قائعة بذاتها، يقول فيها:

وهاج السرور ليلة أدرعات
هوى ما يستطيه له طلالاً
مقلت محاجة وهوى أخرى
مهاج على يمينها اكتنابا
سألمها الشفاء مما شمشا
ومشأ المواعد والحلا

هذا، وقد حجت (أدرعات) أشجاناً كثيرة، من ذلك قول امرئ القيس العجيب:

تورثها من أدرعات وأهلها
بيشرب أدنى دارها بطر عالي
نظرت إليها والحدوم كأنها
مصابيح رهبان تشد لفقائل

عجيب، لأنه استشف من وراء الحجب النور الذي تفجر من يثرب وشيكا وغمر الدنيا. وصلى الله على سيدنا محمد وآله وأصحابه ما وضعت مثقلة أحمالها، وما استقبلت يثرب زوارها.

هذا، ولا يصير ذا الرمة، أنه لم يكن مثل جرير في الهجاء ولا الفرزدق في الفخر، فقد شيد بناء شامخاً لم يعترفوا له به. وأحسب أنه لو خير لما قال مديحاً ولا فخراً ولا هجاء، ولا نصرف إلى الغزل والوصف. لكن الشاعر في تلك الأيام كان يضطر إلى الخوض فيما يخوض فيه الشعراء.

حدثوا أن جريراً غضب على ذي الرمة لأنه ظن أنه يتحيز للفرزدق، فكان يعد خصومه بالشعر لهجائه. فجاء ذو الرمة واعتذر له وأرضاه. وكانت بحريز قرابة برهط ذي الرمة من ناحية أمه. فعانته بأبيات في هجاء هشام المري. قالوا، ولما سمع هشام الأبيات جعل يلطم ويولول ويقول «قتلني جرير قتلته الله. هذا والله شجرة الذي لو نطقت منه نقطة في البحر لكدرته».

الشعر في ذلك الزمان، كان (بضاعة) عزيزة، ثباع وتهدي وهدان وتثني. وكان الفرزدق من أكثرهم انتهاها لشعر الشعراء الأقصر منه قامه. وكما فعل مع ذي الرمة فعل مع جميل فاعتصبه بيته الشهير:

نرى الناس ما سرنا بسيرور خلنا
وان بحر أومنا إلى الناس وقموا

كذلك فعل مع الرماح بن ميادة. حدثوا أنه وقف على الرماح وهو ينشد حتى أتى

إلى قوله:

لو أن جميع الناس كانوا متلعة
وحسنت حسدي ظالم وأسر طائم
لحسنت رقات الناس سباحة لنا
سجوداً على أقدامنا بالبحاح

فخلع لشامه وأقبل عليه وقال «أنت يا ابن برد صاحب هذه الحففة، كذبت والله وكذب من سمع ذلك منك فلم يكذبك. أنا أولى بها منك». وذلك قوله:

لو أن جميع الناس كانوا متلعة
وحسنت حسدي دارم وأسر دارم

ولا ينكر أن أباء الفرزدق كانوا أشبه ذكراً من أباء الرماح الذي أسود أنف ميادة، لأنهم كانوا يعيرونه بأفه التي قالوا أنها من صفلية أو أسبانية. والأبيات ليست بشيء، وما كان الفرزدق يعجز أن يأتي بمثلاً، ولكنه طعيان هؤلاء الشعراء العمالقة. وكان أبو نواس يقول «والله لا يقول شاعر في الخمر وأنا حي».

حتى (الأستاذ) لم يترفع عن الغارة على شعر غيره. وقد ضح التقاد في ذلك فالحوا الكتب عن «سرققات المتنبي». والأسر أهون من ذلك. كان متبعاً عندهم لا يرون فيه أي عيب.

ذلك، وقد رووا أن جريراً قبل أن يصطليح مع ذي الرمة، جاءه هشام المري فأنشده في هجاء ذي الرمة فقال له جرير «لم تصنع شيئاً». قال «فماذا أفعل يا أبا حزره، وأنا راجز وهو بقصد، والرجز لا يقوم للقصيد في الهجاء؟ فلو ردتني، فعانته جرير بالأبيات التي يقول فيها:

مقل بعدي تسنن مسانها
على فقد أعيا غداً وحالها
إذا الرم قد قلدت قسومك رمة
طينا ناسر المطلق أحلالها

فلما بلغت الأبيات ذا الرمة قال «والله ما هذا بكلام هشام، ولكنه كلام ابن الأتان». كان جرير، كما وصفه الفرزدق، خشن الناحية شرود القامية. وكان في الهجاء صاعقة لا راد لها. وما أبعد الشاعر. وأظنه الراعي. حين قال:

دم الفرزدق بالفخار وأشبه
حلو الفريش ومرة الحسير

وفي مذهبي، أن «حلو القريض» لذي الرمة

١. مدنت بضبيعي، يعني نصبرشني
وشدت إزري
٢. رهاء، أي جيش ضخم

نحو أفق بعيد

١٦٩



بقلم الطبيب صالح

(هذه المقالات عن ذي الرمة، تحية لذكرى الصديق عبدالله أولد أوريبه رحمه الله)

اختلف الرواة في صفة ذي الرمة بعضهم قال جميل وبعضهم قال دميم. نسب إلى رمة بن أدبول، وهو من عدي قوم ذي الرمة أنه قال:

«كان ذو الرمة مدور الوجه، حسن الشعر أجوده اقنى أنزع خفيف العارضين أكحل حسن الضحك مفوها إذا كلمك كان أبلغ الناس. يضع لسانه حيث يشاء».

ومن الروايات التي تناقض هذه الصورة ما حدث به ربيع النعمري قال: «اجتمع الناس مرة وتحلقوا على ذي الرمة، وكان دميماً شخناً أجناً. فقالت أمه: اسمعوا إلى شعره ولا تنظروا إلى وجهه».

يشكك في هذه الرواية أن المنسوب إليه من نمير قوم الزاعي، الذين جرحهم ذو الرمة بهجانه. وقد يلصقونها بجرير، فقد كان أكثر لهم أساعة، والافتعال فيها واضح.

وروى نضر عن رجل يُسمى أما حفصة عن عمته عافية وغيرها من أهله أنهم رأوا ذا الرمة باليمامة عند المهاجر بن عبد الله، شيخاً أجناً سقاطاً متساقطاً.

وهذه الرواية يسقطها أن ذا الرمة بما يشبه الأجصاع، مات وهو بعد في

أوج الشباب، لم يدرك التميخوخة. وقد ذكروا أن الصيقل لما سمع شعر ذي الرمة استحسنته وقال: «ما له قاتله الله! ما كان إلا ربيقة. هلاً عاش قليلاً».

ولا خلاف بين القدماء أن ذا الرمة كان أحسن شعراء الاسلاد تشبيهاً، ولكنهم نزلوا به عن طبقة الفحول وكان رأي الشعراء فيه، بوجه العموم، خيراً من رأي النقاد. روي عن الكنيت الشاعر أنه حين سمع قول ذي الرمة:

أعاذل قد أكثرت من لوم قاتل
وعيب على ذي الود لوم العواذل

قال: «هذا والله مثله، وما علم بدوي بدقائق الغطنة ونضائر العقل المعد لدوي الألباب» أحسن ثم أحسن. ثم لما سمع البيت:

دعاني وما داعي الهوى من ملأها
إذا ما مات حرقناً عني معازل

قال: «لله بلاد هذا الغلام! ما أحسن قوله وما أجود وصفه».

لقد شفع السيت الأول بمثله في جودة الفهم والغطنة.

نفع إذا وهو غلام. ومات في عز الشباب. وكان جميل الصورة فيما يبدو لي، فشعره شعر (وسيم) فيه روح «ارستقراطي، كما عند ابن المعتز» وكان يترفع عن بذاء الهجاء واستخذاء المديح. وفي لاميته التي مدح بها بلال بن أبي بردة بن موسى الأشعري يقول:

فلم أقذّب لمؤمنة حسان
محمد الله مرحبةً غصلاً
ولست ماذج أندأ لتيسماً
شعري أن يكون أفاد مالا

وهي قصيدة من مائة بيت أكثرها في الوصف، وأقلها في المديح، تذكرني في رصانتها بقصيدة الحسن بن هانئ في مدح الخصيب، حيث يقول بيته السامخ النبيل:

وما أنا بالمشفوف ضربة لأرب
ولا كل سلطان علي أمير

هذا، وقد ذكروا أن ذا الرمة كان حين يفرغ من الإنشاد يقول: «سبحان الله والحمد لله والله أكبر».

نسب إلى حماد الرواية أنه قال: «ما آخر القوم ذكره إلا لحدائث سنه وأنهم حسود».

وقال الأصمعي: «ما أعلم أحداً من العشاق الحضريين وغيرهم شكاً حياً

أحسن من شكوى ذي الرمة مع عفة وعقل رصين».

وقال أبو عبيدة، ذو الرمة يخبر فيحسن الخير، ثم يرد على نفسه الحجة من صاحبه فيحسن الرد، ثم يعتذر فيحسن التخلص، مع حسن أنصاف وعفاف في الحكم.

وروى عن محمد بن سلام أنه قال: «كان لذي الرمة حظ في حسن التشبيه لم يكن لأحد من المسلمين كان علماءنا يقولون».

أحسن الجاهلية تشبيهاً امرؤ القيس، وأحسن أهل الإسلام تشبيهاً ذو الرمة.

ولعل الأصمعي قد أجمل أحساس القدماء تجاه شعر ذي الرمة بقوله: «كان ذو الرمة أشعر الناس إذا شبه ولم يكن بالمخلف».

الأثنا في هذا العصر أقدر على فهم مرامي قول أبي عبيدة: «مع حسن أنصاف وعفاف في الحكم». هذا ما قصد إليه الشاعر الإنجليزي الكبير، وليام بيردزويرث، بقوله: «التأمل سكبنة، وما أوصى به الكاتب جريهام قربن، حين قال: «لا بد أن تقطع الحبل السري الذي يربطك بالتجربة، يعني تنظر إليها بحياد وتجرد كأنها حدث لشخص آخر».

ذاك، وقد وصف ذو الرمة صلبته بغثة أحسن وصف حين قال: «من شعري ما طواعني فيه القول وساعدني. ومنه ما أجهدت نفسي فيه. ومنه ما جنت به جنونا. فاما ما طواعني القول فيه فقولتي (خليلي عوجاً من صدور الرواحل). وأما ما أجهدت نفسي فيه فقولتي (إن توسّست من خرقاء منزلة). وأما ما جنت به جنونا فقولتي (ما بال عينك منها الماء ينسكب)».

لا عجب أن جريراً وهو من هو، غبطه على تلك القصيدة، وقال: «ما أحببت أن ينسب إلي من شعر ذي الرمة إلا قصيدته (ما بال عينك منها الماء ينسكب) فقد كان شيطانه له فيها ناصحاً».

وروي عن حماد أنه قال: «ما تمّم ذو الرمة قصيدته (ما بال عينك منها الماء ينسكب) حتّى مات. كان يزيد فيها منذ قالها حتّى توفي».

كانت القصيدة لوحة فنية لا تنتهي، وكأنه أراد أن يصل إلى نهاية (القول) وفصل (الخطاب) بطريقة نهائية ومطلقة، ولكن هيهات. كان (فناناً) بالمعنى الدقيق لكلمة (فن) كما نفهم ذلك اليوم ■

نحو أفق بعيد

١٧٠



بقلم الطبيب صالح

(هذه المقالات عن ذي الرمة، ترجمة لذكرى الصديق عبدالله اولد اورييه رحمه الله)

القصيدة مفتوحة، لا أول لها ولا آخر، مثل بحر محيط، تبدأ بداية معتادة، كما تخيل اليك، تظن أنك تقف على الساحل تنظر الى عرض البحر، والأمواج تذهب بعيداً عنك في اتجاه الأفق، وفجأة حين تصل الى البيت الثلاثين، إذا أنت في قلب اللجة، وإذا الأبيات السابقة مثل أمواج تجيء من ناحية الأفق في اتجاه الشاطئ، تصبح البداية لا نهاية، والألا نهاية مثل المنتدأ. لا عجب أن الشاعر (جن جنونا)، وقد كان يوسعه أن ينطلق من هذا الموضوع.

زار الخيال لي ما جساماً لعنت به الثنائيف والمهزيف البليغ ممرساً في بياض الصبح وقبعت وسائر السير الا ذاك منحذب أخا تنائف أغفر عند سيامة بأخلق الدف من تصديرها جلى

الوقت بين الليل والصبح، اللون بين السواد والبياض، المكان متحرك، ليس ثابتاً، كأنه (لا مكان)، الشاعر، وإذا شئت (بطل القصة) هو وراحلته شيء واحد، ولكنهما ليسا جسماً صلباً ذا حدود وأبعاد. محض (صوت) أو (طيف) أو (هاجس) مما تهجس به تلك الغلوات، ولا يقلل من هذا أن الشاعر لا

ينى يعطيك اوصافاً بالغة الدقة توهمك أن كل ذلك واقع ملموس. تخيل! الشاعر قد أغفى في ذلك الوضع المتأرجح، كأنه على ذروة موجة في البحر، وأسند رأسه الى جنب راحلته، جنبها أبلس، عليه آثار جروح بفعل حزام الرجل. وقد كان سيره مثل حبل متصل، لم ينقطع إلا الآن، في هذه الأغفاء القصيرة، من هذه النقطة، كما يبدو لي، تتناثر أطياف القصيدة، وتذهب كل مذهب الآن الخلق في اتجاه المطلق، سوف تبدو لك الأبيات مختلفة كلية، من قبل تخيلتها (أعضاء) في جسم متناسك، له رأس وله ذيل، أو ربما أجزاء في بناء هندسي له جدران وغرف وموافد وأبواب. الآن لعلك تراها ككتابان رسال متحركة كما وصف الشاعر.

من دمنة سمعت عنها الصبا سفعاً
كما تنثر بعد الطية الكث
سلا من الدغص أغشته معارفها
نكاه تسحر أعلاه مبسحاً

بلى، لعلك ترى القصيدة الآن، وما لا تتفرق وتتجمع أو موجات في بحر متلاطم، كل بيت موجة، وكل موجة هي البحر. من قال أن القصيدة العربية تكون لها (وحدة عضوية) ولماذا تكون لها وحدة (عضوية)؟

ما بال عينك منها الماء ينسكب
كأنها من كل مفسرة سر

قل أن دمعها كالماء يتبرزل من قرية مخزقة: تبكي لماذا يا مسكين؟ حب هي، تذكر الديار التي عفت، ثم ماذا؟ حدثوا أنهم رأوا ذا الرمة واقفاً في مرصد البصرة، ينشد قصيدته (ما بال عينك منها الماء ينسكب) ودموعه تسيل على لحيته.

لعلك بكيت لجسمال (الفن) الذي صنعته، كما بكى (أوسكار وايلد)، أو لعلك بكيت من الغيظ لأنك أحسست أن الذي بقي في صدرك، أكثر بكثير مما أسعفت به الكلمات. تعرف ما تريد أن تقول، ولا تطاوعك الكلمات، تريد أن تصل إلى نهاية (القول) بشكل (مطلق)، لذلك جنبت جنونا، وتركت القصيدة مفتوحة بلا نهاية. وبعدك أحسن الحسن بن هانئ الأحساس نفسه، فالتبس الخلاص حيث لا خلاص: أدبرا على الكاس تنكشف (البلوى).

ما هي (البلوى) يا غفر الله لك
It is the cause my soul

(أنها البلوى يا روحى)
هكذا قال شيكسبير على لسان عطيل.
هذا، وحين زاره طيف (مي)، أم هل زاره طيف (مي) فهي معه أنى توجه وحيثما ذهب. جاءتته متجربة من نيابيا كما عند (روبنز)، فإرعة الطول، عظيمة العجز، ضامرة البطن، كحلاء شديدة بياض العينين، في غمائم من العطر حملها في خياله كل تلك الأعوام، لا بياض ولا صفراء، لونها بين الفضة والذهب:

إذا أخو لذة الدنيا تمضيها
والبيت فوقهما بالليل يحنجب
سامت بطيئة العرين، مازنها
بالمسك والعبر الهندي مختصم
ترداد العين أنيابها إذا سمرت
وتصرخ العين فيبها حين تنتف
لمياء في شفتيها حوة لعس
ومي اللثات وفي أنيابها شب
كحلاء في برج صفراء في معج
كأنها مصة قد مسها ذهب

لا يغرنك دقة الوصف، فما هي الا طيف، محض طيف يجيء ويذهب، أو كما قال ابن المعتز يصف ليلة ممطرة:

جاءت بجفن أكجل وانصرفت
مرها من أسبال دمع ينسكب
إذا تمرى البرق فيها خلقة
بطن شجاع في كتيب يضطرب
وتارة تبصره كأنه
ألق مسبال حله إذا وثب
وتارة تخالاه إذا بدا
سلاسل مصقولة من الذهب

تقول هل أخذ ابن المعتز ذهبه من خزان ذي الرمة؟ لا بد.

هذا وقد فسروا أن اللحاء هي التي في شفتيها سمرة تضرب إلى السواد، وكانوا يرون ذلك من آيات الجمال، وهو كذلك في ديارنا إلى اليوم، يصنعه صناعة إذا لم يكن خلقة. والشيب عذوبة في الفم مع حسن في الأسنان. والبرج أنشاع في بياض العين. والنعج البياض في لون الجسم.

كل ذلك يتشكل ويذوب في خيال الشاعر، وهو مسند رأسه إلى جنب راحلته، بين الظلام والضياء، بين السواد والبياض
عنده (مي) وال (مي): ■

(السمت لغة)

نحو أفق بعيد

١٧١



بقلم الطبيب صالح

(هذه المقالات عن ذي الرمة، تحية لذكرى الصديق عبدالله أولاد أورييه رحمه الله)

استند الشاعر رأسه الى جنب راحلته، كأنه وأياها على ذروة موجة في بحر. بين الليل والصباح. بين الظلام والضياء. رفقة الدرب والوسيلة، وشريكة (الإنسان) في المغامرة. يعرفها ولا يعرفها، كما يعرف نفسه ولا يعرفها. كأنها جميل وهم وما بقيت إلا النخيلة والألواح والقصب مثل الجمل لعظمها، أنثى كالذكر، لكنها نخلت وذابت. أذابها طول السير، فاصبحت كلا شيء. محض طيف يختفي ويتشكل في صور عدة. تارة حمار وحش وتارة ثورا برياً، وتارة ظليماً (الإنسان) وهم، يمتطي وهماً، يروح ويجيء وهماً بعد وهم. نصمي إذا شدنا بالكور راكبها جئنا إذا ما استوى في غرزا تشو وثب المسح من عسانات (معلقة) كأنه مستبان الشك أو جنب عجيب. كانت في البيت الأول (ناقة) نكية تعرف صاحبها. أصغت اليه. وأميلته حتى استوى على (غرزا)، وهو السير، الذي توضع فيه القدم. لم تنتظره حتى يجلس على الرجل. ثم وثبت. وفجأة أصبحت في البيت التالي شيئاً آخر أصبحت حماراً وحشياً معضضاً لكثرة ما هاوش الحمار، من قطع من مكان بعينه هو (معلقة) يظلع كأنه يشكو شيئاً في جنبه. الطيف تشكل صورة محسوسة واضحة كل الوضوح.

يحدو نحيانهم أسماءاً مقلحة
رؤى السراويل في الواح خط
له عليين د (الجنسية) يستره
د (العذبات) محني (وحده) صحر
مع وثوب الناقة، انفض الشاعر
هواجع الخيال، كما تهب العاصفة في
البحر. فجأة ترى (رجلاً) كالمجنون، دائم
الحركة والصراخ والصخب، يسوق
(نسوة) بين (الخصاء) و(الفودجات)
(واحف). يسوقهن سوقاً عنيفاً، لأنه
يعرف الهدف، وقد قرر عزيمته على أن
يوصلهن اليه طوعاً أو كرهاً. وهن
متشابهات نحائض، لم يحظن بعد،
متسريلات بسراويل ورق، ناعمة الوبر،
والواهن تضرب إلى السواد
سراج منسلطاً يحدو جباله
أدنى ثيابيه الشفيرة والحسد
كسائه مغول يشك بليله
إذا تنكح عبر أجوارها مكر
هن زوجاته حاللاً، حسب أعراف
الوجود الأزلية، مشغول بهن، يحمل
هنهن، يحدو بهن، أدنى سيره الركض،
لأنه يعلم أنه إذا لم يصل بهن إلى الهدف،
فسوف يهلكن ويهلك. وكلما تنكحت منهن
واحدة عن القصيد، أعادها بصراح
وعويل. أنه (البغل) المسؤول، وتذكر أن
من معاني (بغول)، كثير العيال. وسوف
ترى وشيكاً أنه يسوقهن إلى حيث يكن
الهلاك، إذ ظن أنه يجد النجاة.
كأنه، كأنه أرفضت حزينتها
بالصلب من نهشه أكفاليها، كلب
كأنها ابل ينحو بها نفر
من أخريين أغاروا غارة، حب
هذا الجن الذي عن الشاعر في غفوته،
وهو مسند رأسه إلى جنب راحلته، هذا
السائق الشرس المجنون (العصلي)،
بصرخ وينوح وينهش أكفاليهن كأنه
مصاب بداء الكلب، إلى أين يقصد
والهم (عين أثال) ما ينارعه
من نفسه لسواها مؤرداً أوث
لا عجب. جرب موارد كثيرة، لكنه لم
يجد شيئاً لغزوية (عين أثال). ثمة الرمي
والامان. ذكرى الورود في ذلك النبع،
ذكرى لا تنسى. وهي ذكرى أفسدت على
ابل أبي العلاء شربها عند ملتقى الأنهار
بالبصرة، فقال يعزينا:
فأبك هذا أخضر الحال بعرضاً
وانق مسكسرت وأرع ناعم بال
ستس مباهاً بالفلاة نيرة
كسيانها ورداً د (عين أثال)
وحين تعرف ما سوف يحدث، تعجب
هل كان أبو العلاء يسير إلى ورود حمر
ذي الرمة، وهل الضيفر في (كسيانها)
يعود إلى تلك الحمر، فما أظن أنها عادت
إلى تلك العين بعد الذي حدث لها ثمة.
● وصل (البغل) بحالته عند الغلس،
وقد انصدع غمود الفجر، وصل بين
الظلام والضياء، بين السواد والبياض،

كما تتخلق أمشاج القصيدة.
معلست وعمود الصبح معبد
عينا وسائرته بالليل محب
عيناً مضطحة الأرجاء طامية
مينا الصنادع والحيثان تصطب
لنترك صاحبتنا ونساء عبد (عين
أثال) فلن يبنوا بالورود ولنخرج على
محمد أحمد عوض الكريم الملقب
بالحريلو، ولننظر كيف فعل (البطل)
عنده، النيس، فحل الضياء، ذاك أيضاً
مشغول بهن حالته، يسوقهن إلى هدف
بعينه. جذر كثير الشوك لا يسير على
غير هدى، لذلك تركهن وذهب يرتاد
ويحقق من مخاطر الطريق. عاد اليهن مع
الفجر، وصرح بهن مؤذنا بالرجل.
من (أيات رمله) متركبات لأشغال
سمير مدري لأقدام كزير واضلال
أسرحه بريث راح ينيل ولوال
وتيسر راعل مكر مع الشلال
طن يسارا من (أيات رمله) فلم يلبث
أن سمع شير الرعد واقلنتهن فلل غيم
كتيف، وتلاعت البروق في السماء كأنها
تولول، وهن بلا (بعل). لبيث ينتظرن
عودته، على قلق وخوف، حتى جاءهن مع
الفجر وأعضنه وأعضهن على المسير.
عند الفجر أيضاً تبدأ قصة ابن
المعتر، لكن ما بعد الفجر عنده، عن فجر
الحريلو وفجر ذي الرمة.
لما تقسرى الأمر بالضياء
مثل استبام الشفة الضياء
وشمطت ذائب الظلماء
وهم دم الليل بالاعفاء
فدنا لعين الوحش والظلماء
دامية محذورة الضياء
لماذا يا رحمتك الله، ما كان غيلان ولا
أبو العلاء ولا الحريلو، يرضى بهذا. وقد
قال الحريلو:
خلفن كيف برمولهن نير خيال
يعني أن الضياء، هذه المخلوقات
الجميلة، كيف ينصبون لهن الشراك
أي شر مستطير يحمل في جوفه، هذا
الفجر الجميل الذي أفر كافرار الشفة
الضياء، بينما هم النجم المنعم بالاعفاء،
بعد أن قضى الليل في السر والقصص،
وشتان بين ماء ذي الرمة الذي تطفو عليه
الطحالب وتصطب فيه الحيثان
والضفادع، وماء ابن المعتر.
وترى الرياح إذا مسح غديره
صقلته ونفيس كل فداة
ما أن يزال عليه ظي كسارغ
كسظم الحسناء في المراء
سوف تتحطم المرأة وتتناثر الدماء
وبعكر (الإنسان) السادر في غمه سكية
الأنساء. وهو شعر جميل، لا شك، ولكن
الفارق بين هذا وذاك، كالفارق بين الموهبة
والعبقرية ■

نحو أفق بعيد

١٧٩



بقلم الطبيب صالح

(هذه المقالات عن ذي الرمة، تحيةً لذكرى الصديق عبدالله أولد أوربي رحمه الله)

كانت نهايته، ان صحت أقوال الرواة. ولم لا؟ مثل نهايات قصائده، نهاية مفتوحة، غيبوه في رمال الدهناء، عند رأس (جزوى)، كأنه معنى شرود مغيب في تلافيف القصيدة، عاش كالخلم، وكل شيء منه أسبغ عليه رواء الخلم. عن محمد بن الحجاج الاسدي التميمي قال:

«حجبت فلما صرت بمران منصرفاً، إذا أنا بسلام أشعث الذؤابة قد أورد غنيمات له، فجئته فاستشنته، فقال لي (اليك عنى فاني مشغول عنك). ولما ألححت عليه قال (أرشدك الى بعض ما تحب، أنظر الى ذلك البيت الذي يلقاك فان فيه حاجتك. هذا بيت «خرقاء» صاحبة ذي الرمة) فمضيت نحوه فطرحت السلام من بعيد، فقالت (أين). فدنوت، فقالت (إني لحضري فمن أنت؟) قلت، من بني تميم، وأنا أحسب انها لا معرفة لها بالناس. قسالت (من أي تميم؟) فأعلمتها، فلم تزل تغزلني حتى انتسيت الى أبي.. قالت (حيك الله يا بني وقربك. من أين أقبلت؟) قلت من الحج، قالت (فمالك لم تمر بي) قلت، وكيف ذلك؟ قالت «أما سمعت قول عمك غيلان:

تمام الحج ان تقب المطايا
على خرقاء واضعة للثام.

قال «وكانت هي قاعدة بفناء البيت، كأنها قائمة من طولها، بيضاء، شهلاء فخمة الوجه». يا له من بيت! كأنه أسكنها كوكبا سيارا، أعطاه أبعادا مترامية في الخيال، فودت لو يراها الناس، لا كنا هي في الحقيقة، ولكن كما مثلها لهم في مرآة الفن.

وعيناه منباج كأن إزارها
على واضح الأعطاف من رمل عاجف
تبسم عن أجرى اللثا كأنه
ذرا أقحوان من أقاصي السوائف
دعني بنسب الهوى ودعوتها
به من مكان الألف غير المساعف

عن ابن ثريد، عن أبي حاتم عن الاصمعي عن محمد بن بكر المخزومي قال:

«قال رؤبه (كلما قلت شعرا سرقه ذو الرمة) فقيل له (وماذا؟) قال (قلت: حي الشهيق ميت الانفاس، فقال هو: تطرحني بالمهمة الاغفال)»

كل حصين لصيق السربال
حي الشهيق ميت الاوصال

فقيل له (فقلوه أجود من قولك، وان كان أخذه منك) قال (ذلك أغم لي).

ما حاج عينيك من الاطلاع
الزمنات بعسك النبوالي
كالوحي في سواعد الحوالي (٢)
بين التقا والأجرع المحلال

حدث ابن عبد العزيز قال «قيل لذي الرمة، إنما أنت راوية الراعي. فقال (أما والله لئن قيل ذلك ما مثلي ومثله إلا شاب صعب شتخا فسلك به طرقا، ثم فارقه فسلك الشاب بعده شعابا واودية لم يسلكها الشيخ قط».

وشعر قسب أرقب له غريب
أجته السائد (٣) والمحال
نست أقيميه وأقيد منه
قسوافي لا أعيد لها مثالا
غرانب قد عزم بكل أفق
من الاماق فتشعل استعالا

رووا ان ذا الرمة حين حضرته

الوفاة، قال: «أني لست ممن يدفن في الغموض والوهاد»

قالوا «كيف نصنع بك ونحن في رمال الدهناء»

قال «أين أنتم من كئلبان جزوى» قالوا: «كيف تحفر لك في الرمل وهو هائل»

قال «أين الشجر والمدر والاعواد»، قالوا، وصلوا عليه في بطن الوادي، وحملوه وحملوا له الشجر والمدر على الكباش وهي أقوى على الصعود في الرمل من الأبل، فجعلوا قبره هناك واثروه بالشجر والمدر. وقالوا إن قبره باطراف (عناق) من وسط الدهناء قبالة (الأواعس) وهي جبال سوارع يقابلن (الصريمة) النعام.

بلى. كانت نهايته كما وصفوا، لا بد. سارت في جنازته الكباش الوديعة المسالمة، كأنها حرس شرف. صنعت له الطبيعة لحافا من أوراق شجر الارطي، وفروع شجر السبال والطرفاء، وعطرته بازهار الطلح، خباته رمال (جزوى) في طياتها، كما خبا المعاني في تلافيف القصائد. رحمه الله، حياه شاعران عظيمان، ابو العلاء بقوله:

وإني تيممت العراق لغير ما
تيممه غيلان عند بلال

وحياه أبو تمام:

ما رتب مئة معمورا يطيف به
غيلان أبهى ربي من ربعها الخرب

رحمه الله. ما أجمل ما غنى الحب والحياة والاشياء، لن يلبث ان ينطلق على كور ناقته الأسطورية، كأنه وإياها سفينة فضاء، تحل وترحل من زمان الى زمان. أو كما قال:

نقلت أجعلي ضيوء الفراق كئيبا
يمينا ومهوى السر من عن شمالك

(١) الاناس في اندوار، طبعة مكارثي، تصحيح مطبع بيبي المصادر عن المكتب الاسلامي للطباعة والنشر، بيروت

نظر عن مائة الف اعمار، من جهمير لق السربال
حي الشهيق ميت الاوصال

(٢) الحوالي، أي اللامات الحلي

(٣) السداد في الشعر، اختلاف الحركة في الغامية
كان يأتي الحرف الذي قبل الغامية مكسورا، وانحرف قبل الغامية في البيت الذي يليه مفتوحا

نحو أفق بعيد

١٨٠



بقلم الطبيب صالح

(هذه المقالات عن ذي الرمة، تحيةً لذكرى الصديق عبدالله اولد أوربي رحمه الله)

أيام عملي في باريس مع منظمة اليونسكو، انفتحت جهدا كبيرا على الصومال، وهذه القصة هي في الاصل، قصة بعض ما جرى لي مع الصومال، وان كان الحديث، كما قال الأولون، أودية، واد يؤدي إلى واد، وشعاب شعب يوصل إلى شعب. يقولون لك ان منظمة اليونسكو، اكرم وانعم بها من منظمة - ليست منظمة عون ودعم مالي، مثل صندوق النقد والبرنامج الإنمائي والفاو واليونيدو واليونسف وهلم جرا، لأي شيء هي اذا؟ انها تعطي ما هو اعلى من المال، تعطي النصح والخبرة والأفكار وايضا قليلا من المال.

كان المال قليلا، وهو اليوم اقل بمراحل، كان المبلغ المخصص لمساعدة الدول العربية لتطوير وسائل اتصالاتها، من اذاعة وتلفزيون ووكالات انباء وغيرها، يوزع على ست دول تعتبر اكثر حاجة من غيرها. بهذه الوسيلة، كان جا تحصل عليه أي من هذه الدول لا يجدي الا كما تنقط قطرات الماء للظمان.

بذلت جهدا عظيما حقاً لاقتناع مساعد المدير العام ان ذلك الاسلوب لا يجدي، وانه من الأفضل ان تركز المنظمة كل كذا عام على دولة واحدة، بحيث يكون للمساعدة أثر واضح.

وحين تعلم من هو مساعد المدير العام هذا، تقدر كم من الجهد بذلت في اقتناعه. كان رجلاً أوروبياً كيف اسأل - لشيئا - او هكذا خيل الي ولؤمه لم يكن ينبع من كونه أوروبياً فقد عرفت أوروبين ارق من بني عذرة واسلس قياداً مما كان الحسن بن هاشم رحمه الله لجهالات الشباب. كان هذا لثما في نفسه وفي حد ذاته، تماماً بخلاف ممدوح ابي تمام حين قال:

هذب في نفسه وشذ عن جلوسه فهو وحده جئس.

بدا صاحبي هذا، ولنسمه مستر (سين). - بدا حياته موظفا ادارياً صغيراً في المنظمة اوائل انشائها، وظل يصعد السلم درجة درجة، بمزيج من الجهد والكفاءة وغير ذلك، الى ان اصبح قاب قوسين من منصب المدير العام. ولعله ظن ان ترقبته جاءت متأخرة، وامر من ذلك ان (السيد) الامر الناهي، الجالس في الطابق السادس في عمارة (فونتلوا) المجهزة، رجل من العالم الثالث، واضح جداً انه من العالم الثالث، وهو نفسه يزعم بكونه من العالم الثالث. وكان صاحبي هذا، (مستر سين) لا يكاد يخفي احتقاره للعالم الثالث.

امر محير، لم الاحتقار فكرت ملياً في سبب هذا الاحساس الذي تلمسه عند بعض الأوروبيين، والامريكيين بطبيعة الحال. ومن يدري، لعل اليابانيين ايضاً بدأوا يحسون مثلهم.

هل هو احتقار القوي للضعيف؟ لقد تعلمنا من تراثنا ان الضعيف امير الركب. وهؤلاء لعلهم يحملون الضعيف مسؤولية ضعفه، واذا سقط

في الطريق من الاعياء، لا يبالون ان يواصلوا السير، فلا تتوقف القافلة لأجله. وجاء حكيمهم فقال لهم (البقاء للأصلح)، وهو في واقع الامر لم يقل ذلك، بل قال بالانجليزية Survival of the Fittest والـ Fittest في مذهبى ليس (الأقوى).

هل يعقل ان يخرج من أظهرنا حكيم مثل (تشارلز دارون) هذا؟ كنت ابدله احتقاراً باحتقار، كما قال (الاستاذ) (جزييت على ابتسام بابتسام) وكان صديقي حمدي قنديل الذي كان يومئذ مديراً لقسم تدفق المعلومات، وقد اعانني وشد أزري، كان يعجب من أمري وامر (مستر سين) ويقول لي:

«هو صحيح ابن... بس طول بالك عليه».

كان محقاً، فقد كان مساعدو المدير العام، وما يزالون، اباطرة، يخضعون ويرفعون ويشيلون ويحطون. لكنني رغم ما اظنه لدي من لين العربية، أخو جهالة حين أرى انه تحسن الجهالة بالرجل. ورثت ذلك عن قومي، ولنا في عمرو بن كلثوم أسوة حسنة، ثم أنا لم اجئ الى هذا المكان لأصبح أي شيء، وقد كنت مع اهلي القطريين حياتهم الله وزادهم من فضله كما قال الشاعر:

حللت على ال المهلب شاتياً
عريباً عن الاوطان في زمن نخل
فما زال بي اكرامهم واحتفاؤهم
والطامهم حتى كاتهم اهلي

بل كانوا لي اهدلاً بالفعل. كنت عندهم حيث اسمع نداء الاذان في الفجر، حيث تتنزل الملائكة عياناً بيانا على حلقات القران في المساجد في شهر رمضان. حيث الناس على علاقتهم اهلي، والزمان على غبراته زمان. وام القرى على مرمى حجر، ويشرب بمقدار ما ينطلق السهم. والنيل قريب... النيل قريب.

لك الخير، انني لم اجئ لشيء من هذا، وانما جئت لأكون قريباً من (بنياتي) في مدارسهن في لندن. واذا كان القرب يقتضي ثماً باهظاً كان اسالي هذا (العلاج) اذا لعصري ان في الارض مشعاً للرجل الكريم ■

نحو أفق بعيد

١٨١



بقلم الطبيب صالح

طغى حب المعرفة لدي على الكره، واستيقظ عندي الحس الروائي، فأصبحت أنظر الى «مستر سين» كأنه شخص في رواية. أراقبه يصول ويجول، ويجر ويرد، ويرغي ويزيد. كان حقيقة يرغي ويزيد. وأتعجب، وأقول لنفسى: «ما الذي جعل هذا الرجل هكذا؟ ما الذي حدث له في حياته جعله بهذه التعاسة؟» وبأى للفرابة، أصبحت أحس تجاهه احساساً لا يبعد عن الرثاء.

مرة طلب منه المدير العام، دون سابق انذار، أن يحضر فوراً ليعرض قضية في المجلس التنفيذي. هكذا كان أحمد مختار أمبو، يعامل مساعديه الأوروبيين والأمريكان خاصة، بشدة تقرب من الشراسة.

من قبيل الدفاع عن النفس، فقد لاقى منهم ما لاقى.

طلب منى (مستر سين) أن أصبح، فقد كانت القضية تتصل بعطلى. دخلت معه المصعد، وكان بادي الاضطراب، محمراً الوجه، صدره يعلو ويهبط، يحمل حقيبتين منتفختين بالأوراق، واحدة باليمين وواحدة باليسار. وكان علياً أن نسير على الأقدام مسافة، من حيث نحن الى مكان الاجتماع في المبنى الرئيسي.

عطفت لحاله، وقلت له:

«تسمح أحمل عنك إحدى

الحقيبتين».

نظر الى متعجباً، وتردد قليلاً، ثم اعطاني الحقيبة.

مشى يهرول، وأنا أسارع الخطى لالحق به، وأسمع صوت تسهيقه وزفيره. كان قد جاوز الستين. دخلنا مبنى «فونتينوا» وعدينا فناء الواسع وقاعاته المتعددة وبهاليزه الطويلة، حتى وصلنا الى قاعة المجلس التنفيذي. أعشيت الأضواء عيني وهلة، ثم جولت نظري في الحاضرين. رأيت وجوها أعرفها. منهم الرجل الكريم عبد العزيز حسين عضو المجلس عن دولة الكويت. ابتسمت له وابتسم لي بطريقته الودودة دائماً.

كان المدير العام، أحمد مختار أمبو متصديراً المائدة المستديرة، متحفظاً مستأسداً، ممسكاً بمجامع المكان. نظر الينا ونحن ندخل. كنت أقبله لما في المناسبات، لا بكاد يعرفني. فيما بعد سافرنا معاً وحججنا معاً، وأعجبت به وصرفنا صديقين، وأصبحت أدعو صراحة لإعادة انتخابه، وهو أمر لم يحببني الى قلوب المعسكر المناوئ وهو معسكر الغالبين.

رشق المدير العام «مستر سين» بنظرة تخلو من أي ود، ولم يمهله حتى يستقر في مقعده، بل قال له فوراً: «هيا».

أحسست بعطف شديد على صاحبي. هذا موقف ليس سهلاً. المجلس التنفيذي هو أعلى سلطة في المنظمة. يصنع القرارات ويرسم السياسات ويأتمر المدير العام والسكرتارية بأمره. ماذا يفعل

«مستر سين» المسكين، وقد جاء يهرول حتى انقطع نفسه؟

تعلقت به الابصار وساد الصمت. وضع الحقائق على الأرض بجوارده. لم يفتحها ولم يأخذ منها أي ورقة يستعين بها. أخذ يتحدث ارتجالاً. كان صوته هادئاً محايداً. تحدث نحو ربع الساعة، فعرض الموضوع عرضاً بيتاً مقنعاً. وحين فرغ من حديثه أقر المجلس التوصية المقدمة دون أي اعتراض.

عدنا أدراجنا نعشى على سهل، وإن كان «مستر سين» حتى في الظروف العادية، يمشي على عجل، كأنه يطلب شيئاً أو يهرب من شيء، نظرت اليه برهة. ربعة القامة أقرب الى القصر. متجمعاً على ذاته أخذاً نفسه بالشدّة. يرى الأمر جليلاً، ولا يميز انه ما من أمر يستحق كل هذا الغناء. يخاف الشيخوخة، واضح ذلك من ميالغته بالعناية بشيابه ومظهره. يرعبه الموت، لا بد. حين يجيئه الموت، فلن يكون مستعداً له. استبقاه «أمبو» بعد سن الستين لحاجة في نفس يعقوب.

عرضت أن أحمل عنه إحدى الحقيبتين، كما فعلت من قبل. رفض والحث فرفض باصرار أدهشني. سبحان الله. كأنه لا يأمني على أوراقه، فكيف استأمنني عليها ونحن راثنان؟ قلت لعل تلك التجربة الانسانية الفريدة التي ربطت بيننا وهلة. رجلان يهرولان، كل منهما يحمل حقيبة مملوءة بأوراق لا قيمة لها في موازين الحياة والموت. قلت لعلها تمتد، فأنظر الى (مستر سين) نظرة حديدة.

أبدأ. أعاد صاحبي سيرته الاولى. أول ما دخلنا مبنى «ميوليس» حيث هو مساعد للمدير العام، أشرق ورباً، وسرى في عينيه البريق، وفي وجهه الدماء. لم يتركني استغريء أحساس العطف الذي أحسست به تجاهه، وهو يركض كأنه تلميذ تأخر عن المدرسة. متى اتعلم ألا أشفق على أناس هم في واقع الأمر، أقدر مني وأكثر حيلة على تقلبات العيش؟ وكنت أريد أن أسأله: لماذا جيل كل تلك الأوراق وهو لم يستفد منها شيئاً؟ ■

(استمرت بقية)

نحو أفق بعيد

١٨٢



بقلم الطبيب صالح

قد لا يصدق الإنسان، ان اهم موظف في منظمات الأمم المتحدة، بعد الامن العام، كان الى عهد قريب صوماليا، هو السيد عبد الرحمن فرح. رجل مؤهل كفاء بجميع المقاييس، يصلح ان يكون رئيسا للوزارة او رئيسا للدولة. جلسنا نتحدث في الاستراحة، اثناء انعقاد مؤتمر وزراء خارجية الدول الاسلامية في الرياض. قلت له:

«ليس عجيبياً ان يوجد صوماليون امثالك، ويكون الصومال بهذه التعاسة».

نظر الي مبتسماً، وكنت اعرف الاجابة عن سؤاله، فالصومال مثل بلاد كثيرة في العالم الثالث، وهو اسوأ من السودان مثلاً، فقط من حيث درجة السوء. سألني اسئلة فاحصة واستمع الي بدشة احبانا وبحن احبانا. كان بحكم منصبه في سكرتارية الأمم المتحدة في نيويورك، يعرف حقيقة الوضع في الصومال، ورغم ذلك فقد كان يبدو على وجهه احبانا انه لم يكن يتصور ان الحال قد وصل الى ما وصل اليه.

كنت احس بالحزن كلما زرت الصومال، ولكنني ايضا كنت احس ببعض الارتياح - انني اجيد بلدا اسوأ حالا من السودان. كنا تلك

الأيام او آخر عهد النميري، وكان قد ضل الطريق وافلس تناساً من أية افكار نافعة. ولم يعدم من زبنوا له، وحسنوا له سبل الخراب، قد تنكروا له، وبعضهم ما يزال يخرب الى اليوم.

لكن النميري على الاقل بدأ بداية طيبة، واخذ براحاً من الوقت، فقد كان في السودان اشياء كثيرة صالحة حصلت على مدى سنوات، اشياء كثيرة تحتاج الى جهد ووقت لانقاذها. اما في الصومال المسكين، فقد بدأ زياد بري عهده (الثوري) وهو خالي الوفاض كلية، مثل رجل يفتح شركة وليس في يديه رأس مال.

تزور مقديشو، وما كان اصعب الوصول الى مقديشو، فلا تجد شيئاً. لا تجد دولة ولا حكومة. ولا توجد حتى ادنى مظاهر العهود الثورية. على الاقل في الخرطوم، عملوا بعض الاشياء، وغيروا بعض الاسماء، وبنوا التذكارات والانصاب، وهدموا كثيراً، واصلحوا قليلاً. الشعارات في الشوارع والصحف والاذاعة والتلفزيون تخبرك بان هذه (ثورة) ولك ان تصدق او تكذب.

اما هنا في مقديشو، فلا شيء. صور (الزعيم القائد) قديمة باهتة ولا تكاد تراها لقلتها. الشعارات بائسة مثل صرخات مكتومة، مثل محاولات انسان ابكم ان يفصح عن نفسه. لا توجد نصب ولا تماثيل ولا أي من مظاهر الانبهة التي تحيى عادة مع هذه النظم (الثورية). هذه ثورة نسيج وحدها بحق، فلا اظن ان التاريخ على طول امتداده، قد شهد ثورة قسامت وعاشت بمثل تلك اللامبالاة.

كانت مدينة مقديشو كما رايتها تلك الأيام، شاهداً بليغاً على سخرية افريقيات بالحلم الاستعماري الاوروبي. اخذت (موسولين) بكبريائه وصلفه، وجريته من ثيابه العسكرية ونياسينه، وحولته الى متسول يقف على باب الكاتدرائية الضخمة التي اقامها الايطاليون وسط المدينة. وياله من حلم مجنون. كأنهم ارادوا ان يجعلوها رمزاً ابدياً لاتساع (الحضارة) الاوروبية.

وقفت انظر اليها في صباح يوم احد، استمع الى اجراسها تدق بقات متعبة، قاتي كأنما من بعيد، وكأنها

صرخات (حضارة) تغرق. بناء بنهار، بهتت الوانه وتساقطت حجارته، وتساقطت نوافذه الملونة، ودخلت يحدوني حب الاستطلاع فوجدت رجالاً ونساء طاعنين في السن، لا يزيدون عن العشرة، يتلون صلوات باللغة اللاتينية! لا تميز من وجوههم فل هم ايطاليون ام اثيوبيون ام صوماليون، ام مزيج من كل هؤلاء. هذه الوجوه مثل الابنية، مثل الشوارع، مثل شعارات الثورة، ذاب بعضها في بعض فكونت خليطاً لا يفصح عن شيء.

مطار مقديشو، كأنهم غيروا رأيهم فجأة ونفضوا ايديهم. تركوه، لا هو ناقص فيتم، ولا تام فينقص. الشوارع كأنها اطلال شوارع لمدينة مهجورة من عهد غابر. الاتجار قليلة. لعلمهم زرعوا اشجاراً ذات يوم، ثم اهلوا ان يسقوها فذبلت وماتت.

وهذا النزول حيث اقيم، لا بد انه اخذ يتداعى اول ما فرغوا من بنائه. جديد وقديم في الوقت نفسه. رائحة الطلاء جديدة، ولكن الحيطان مشققة مخدشة. قماش الستائر ليس قديماً ولكنه ممزق مهلهل. مكيفات الهواء كالجديدة ولكنها لا تعمل.

كان الانهيار مكتملاً وفظيعاً. وهل اقول رائحة... كأنك تشاهد لوحة للفنان الايركي المعسود. (اندي وور هول).

وهي جميلة بالفعل، احببتها رغم كل ما ذكرت. موقعها جميل، وبحرها جذاب، وثربتها تتوضح مثل التبر. فيها مساكن ودور لا تخلو من الفخامة على الشاطئ، وفي الحي الذي يقطنه الرئيس. وسط ذلك الموت، تجيش الحياة احبانا في دفقات مددشة. تمتلئ المساجد بالمصلين، وتتعج الطرق بالناس رجالاً ونساء.

في غمرة ذلك الموت، تخطر نساء الصومال بقاماتهن الشوامخ كأنهن اميرات وافدات من زمان آخر. والرجال يسبرون لا يعاونون بأحد ولا بشيء. كان الثورة لم تحدث، وكان زياد بري لم يكن. ترى لبرهة قصيرة ذلك الاحتمال الرائع. لو ان هؤلاء البشتر أتيح لهم ان يمتدوا في المساحات التي يستحقونها من افاق الحياة ■

نحو أفق بعيد

١٨٣



بقلم الطبيب صالح

أعظم بها من وزارة تشمل الاعلام والثقافة والسياحة. لها وزير ومساعد وزير ووكيل وزارة ومدير عام، وعدة مدراء، بينهم مدير للتلفزيون، ولم يكونوا قد انشأوا التلفزيون بعد، ولا أحد منهم يهتم الامر.

لا أحد يرد على التلكسات ولا الرسائل ولا البرقيات ولا التلفزيونات. وكنت حين تعييني الحيلة الجا الى الملحق الثقافي للصومال في باريس، وهو رجل فاضل اسمه أحمد قورو، فيبذل هو ايضا قصارى جهده، مستنفرا وزارة الخارجية في مقديشو. ولكن لقد اسمعت لو ناديت حيا. لم أدهش حين علمت ذات يوم أنه ترك العمل مع حكومة الصومال، وأصبح لاحقا سياسيا في لندن. كذلك استقال السفير ونجا بجلده.

كان الصومال ينهار ويتساقط في الداخل والخارج، والثورة ماضية قدما، والزعيم القائد، يحتفل احتفالاته البائسة بانتصاراته الموهومة، عاما بعد عام. أكثر من عشرين عاما.

لو كنت حكيما لنفضت يدي حينئذ، ورضيت من الغنيمة كما فعل أحمد قورو، ولكنني قلت أسافر الى مقديشو على أي حال، وقد استبد بي ان أعرف أي دولة هي هذه الدولة العجيبة التي أقضت نفسي في

أمورها طواعية واختياراً. وكان صاحبي «مستر سين» يتابع مصاعب علاقتي بالصومال، لا يكاد يخفي سعادته انني دخلت في ورطة. سوف يقعد مني فيما بعد مفعد القاضي «ن» المتهم، انني بددت مال المنظمة على قلته، في السفر والدراسات وإرسال الخبراء الى الصومال، دون أي أثر يذكر، ولم اكن وحدي في ذلك، لو يعلم، فقد وجدت في مقديشو عشرات أمثالي، من موظفي منظمات الأمم المتحدة وخبرائها، ومنظمات الجامعة العربية وغيرها يلاحقون سراب الصومال الخادع.

لم أجد أحدا ينتظرني حين وصلت، كنت قد تنقلت من طائرات الى طائرات، وغفوت وصحوت في مطارات بعد مطارات. حتى مكتب الأمم المتحدة للتنمية لم يحرك ساكنا. وجدت فيما بعد ان مديرة الهولندي قد يش تماماً من عمل أي تنمية في الصومال، فاستسلم لتيار الخمول السائد، وانصرف الى لعب «الجولف» وصيد السمك وعمل رحلات في البر. والصومال بلاد متنوعة الجمال، مليئة بالمسرات لمن يطلبها.

ولم أجد أحداً من «المسؤولين» في وزارة الاعلام والثقافة والسياحة. لا الوزير ولا نائب الوزير ولا وكيل الوزارة ولا مدير عام الوزارة. وكنت أجد دائماً مدير المطبوعات، وهو ايضا مسؤول عن شؤون الرقابة. وأد انني لم اتبين صحفاً ولا كتباً، فقد عجزت من أمره. أصبحت الاحق «المسؤولين» كمن يطلب ديناً. ثم ذات يوم، وبمحض الصدفة، وجدتهم جميعاً مرة واحدة، وقابلتهم جميعاً، الواحد تلو الآخر، ببساطة، كأنهم كانوا موجودين دائماً، ينتظرونني، وانني لم أجدهم لأنني أعشى، لا أرى الشيء وهو واضح أمامي.

استقبلوني بحرارة بالغة ولطف عجيب. وذلك في طبع الصوماليين عموماً، ثم لأنني سوداني، فبين الصومال والسودان صلات وعلائق من نوع خاص، يرون في السودان القدوة والمثل. مستلهم من (عرب الاطراف)، عربيتهم قد يطلب لها البرهان. وأيام الاستعمار الانجليزي، كانوا يرسلون الصوماليين في بعثات الى مدارس السودان، وإلى كلية غوردون، ثم جامعة الخرطوم. بعد الاستقلال، اعتنى السودان

بالصومال، فاعانهم بالاطباء والمدرسين والمهندسين والقضاة وخبراء الزراعة وغير ذلك. شعب الصومال الوفي لم ينس ذلك للسودان. هذا الى جانب وشائج أخرى. فوجود الصوماليين وسحبهم لا تكاد تغيرهما عن السودانيين. وموسيقاهم وغانيتهم، يحبون أحمد المصطفى وحسن عطية والكابلي والبلابل مثل السودانيين.

قلت لمدير عام الوزارة ذات يوم، وكنت قد انتت له بصفة خاصة:

«لماذا لا تجلسون في مكاتيبكم؟ اين تذهبون كل صباح؟» اجابني بتلك الطريقة الصومالية الحذابة:

«يا اخي انت ما تعرف اننا في حالة حرب» نحن مشغولين في حرب الاوغاديين.

«وانتو في وزارة الاعلام مالكم ومال حرب الاوغاديين؟»

«كيف ما لنا ومال حرب الاوغاديين؟»

يا اخي الدولة كلها في حالة استنفار.

«طيب يا اخي فلهنا الجيش يحارب في الميدان. مش مفروض الاعلام يساعد المجهود الحربي؟»

«نعم. لهذا السبب القيادات في الدولة في حالة اجتماعات مستمرة.»

لا عجب ان الدولة انهزمت في حرب الاوغاديين. وثمة امر آخر حيرني في الصومال. النظم الدكتاتورية، كما هو معروف، تفعل صراعات خارجية، تكون حروبا في الغالب، تقدم للشعب على انها دفاع عن تراب الوطن وذود عن كرامته. نعبا الجماهير، وتؤجج نيران العواطف الوطنية، وتقوم المظاهرات، تحرق اعلام بعض الدول، ويعتدي على سفاراتها، وتقدم العرائض وترسل الاحتجاجات. اصبح هذا اجراء روتينيا تفعله أي ثورة تحترم نفسها، تلهي به الناس عن فساد الادارة، وسوء الحال، وبؤس الحياة في داخل البلد.

ألا هذه «الثورة» العجيبة التي لم يشهد العالم مثيلاً لها من قبل، اشتعلت نيران الحرب وخمدت، وقتل من قتل وجرح من ابناء الصومال، وضاعت الاوغاديين، ومدينة مقديشو تتقلب في بؤسها العادي، كان لا علم لها ولا خير، و(الزعيم القائد) لا يسمع ولا يرى، ووزارة الاعلام والثقافة والسياحة تسير او لا تسير، بلا وزير ولا وكيل ولا مدير ■

نحو أفق بعيد

١٨٤



بقلم الطبيب صالح

وشأنه؟ لماذا قطعوا أوصاله بكل ذلك الاستهتار؟

يقول مؤرخ انجليزي بسخرية واضحة:

«... أثناء ذلك انتهى الصراع الفاتر (بين بريطانيا وفرنسا) على البلاد الفقيرة على ساحل البحر الأحمر، وصحاري الصومال، دون أن يخلف وراءه مرارة كبيرة».

كان الصومال في واقع الأمر، شيئاً ثانوياً، بلداً لا يؤبه له، مجرد محطة في الطريق، تلهت به القوى الأوروبية بعض الوقت في لعبة الشطرنج المدمرة، بعضها مع بعض، كان مساحة فارغة على الخريطة، يجب أن تُملا. كان الاستعمار الأوروبي في أوجه، مثل كلب أصيب بالسعار، يعض وينهش دون سبب.

فهم (منليك) الداهية أصول اللعب، ولم تكن يده غفلاً من أسباب القوة، فقد كبد الجيش الإيطالي في موقعة (عدوه) هزيمة نكراء جلتهم بعار حاولوا أن يغسلوه باحتلال اثيوبيا بعد ذلك، في عهد موسوليني. رمى (منليك) بسهم، وخرج بنصيب الأسد. أسد يهوذا.

هكذا حكموا على الصومال البائس بالشقاء زمناً لا يعلم مداه إلا الله. شعب ذو انفة وكبرياء وملاحم بطولية وذاكرة ترجع إلى الوراء بعيداً. تركوه ممرق الأوصال، مهزوز الهوية اجزأوه يحن بعضها إلى التوحد مع بعض. ولا حول له ولا قوة.

كان الصومال، غداة استقلاله عام ١٩٦٠، يحتاج إلى معجزة. يحتاج إلى زعماء ذوي حنكة ودراسة وبصيرة، يللمون أجزاءه المبعثرة، ويعيدون له أحساسه بذاته. وبدأ أول الأمر أن ذلك قد يحدث. ثم حلت الكارثة مع (تورة) زياد بري ■

على الجيران وابتداء السبيل. اعطوا كينيا قطعة، واعطى الانجليز قطعة لـ «منليك»، امبراطور اثيوبيا لقاء وعده أيامهم بمساعدتهم على أخمد الثورة المهدية في السودان. كان داهية لا يشق له غبار، أجاد لعبة الـ (ريال بولتيك) وكان صلاً أفريقيا مع افاعي أوروبا. ففي ذات الوقت أذ تعاهد مع الانجليز لاسقاط نظام الحكم في السودان، أبرم معاهدة مع حكومة السودان للتبادل التجاري.

كذلك اخذ قطعة كبيرة من الفرنسيين، منحوه أيامها من حصنتهم في الصومال، أذ وعدهم سراً أن يساعدهم ضد الانجليز لبسط نفوذهم في جنوب السودان. ولو أن ذلك حدث بالفعل، وقد كاد يحدث، أذا لتغير الوضع كلية في السودان، ولراينا اليوم في جنوب السودان دولة (فرانكوفونية) ناطقة باللغة الفرنسية. ومن يدري، لعل السودان كان سوف ينجو من كثير من التعاسة ووجع القلب.

الأ أن القوتين الأوربيتين وقفنا وجهاً لوجه في (فشوده) في اعالي النيل، وحملت العيون الزرق في العيون الزرق بغضب وأشرعت المدافع الأوروبية قبالة المدافع الأوروبية، وكانت تنشب الحرب. ثم رأوا رأياً وأبرموا امورا، ورضي الفرنسيون بالانسحاب، وترك ذلك الجزء من افريقيا للانجليز.

ماذا رأوا في الصومال؟ كان يفي بحاجة أهله، وكانوا في الغالب من البدو رعاة الأبل، وقليل من الزراعة وقليل من التجارة. لكنه لم يكن مثل الكنقو حلما يسيل اللعاب. لم يكن فيه ذهب ولا فضة ولا ماس ولا بترول ولا رقيق ولا اراض واسعة خصبة للاستيطان. وكان أهله مسلمين كلهم لا سبيل إلى أي نشاط ببشيري بينهم. لماذا لم يتركوه

لا أدري من قال «القرن الأفريقي»، والقرن يكون في الرأس، فكانهم قلبوها رأساً على عقب، وجعلوا عاليها سافلها، وهو أمر لا يبعد عن الصواب. ولو كان استعماراً واحداً لخف البلاء، ولكنهم ممرقوه ثلاث ممرق. ممرقة أخذها الانجليز، فبذلك حيث «هرقيسا» في الشمال، وممرقة أخذها الطليان، فذلك حيث مدينة «مقديشو»، وممرقة أخذها الفرنسية، حيث جيبوتي اليوم. كان الصومال مثل لحم لم يسع لطماعه، فتصدقوا بقطع كبيرة منه

نحو أفق بعيد

١٨٥



بقلم الطبيب صالح

فدخول الـ (كروشي دي سود) في مقديشو لم يكن أقل صعوبة من دخول نادي (الأنبيم) الإيستقراطي في لندن. وقد كان سودانيا - بمحض الصدفة. أقول بمحض الصدفة، لأن أبناء الحلال وبنات الحلال، لم ينعموا في الدنيا من سائر الملل والنحل، وإن بدا الأمر بخلاف ذلك أحساناً. وتصور أن استطعت، مدى سعادتني بتلك النعمة السابغة، ذلك من بعض بركات السفر والترحال في أفاق الأرض، أن الإنسان قد ينسى لطائف حيات المولى سبحانه وتعالى عليه، لكثرة ما ألفها واعتاد عليها.

فجأة تستعيد طعم (الحدة) ومذاق (الدّهشة)، كما يحلو لبعض أخواننا النقاد أن يقولوا. وهم على حق، وهل الشباب الأهدأ وهل الشيخوخة إلا فقدان هذا أنظر إلى لبدي:

ولقد سئمت من الحياة وطولها
وسؤال هذا الناس كيف لبدي.
لأنك لم تسافر إلى مقديشو يا عمرك
الله. كان الكاتب الإنجليزي (أولس هكسلي) يقول:

«إذا لم تكن قد قطعت تذكرتك إلى اثينا فإني لم تجرب شيئاً». يقصد اثينا حين كانت اثينا. وأنا أقول (إذا لم تزر مقديشو فإني لم تر شيئاً).

أذهب إلى مقديشو، إذا مللت الحياة لكثرة ما أغدقت عليك من هبات لم تعد تحسها أو تراها لكثرتها، فإذهب إلى مقديشو. إذا مللت الدار الواسعة والسيارة الفارهة والمائدة العامرة، والنبات الزاهية، فإذهب إلى مقديشو، خاصة في هذه الأيام. سوف ترى وتسمع عجباً، سوف يفارقك الملل، وتستعيد طعم (الحدة) ومذاق (الدّهشة). ويقتني أنك سوف تجد وسط كل الخراب الذي نقرأ عنه ونسمع، تلك السيدة الإيطالية الباسلة، أن كانت ما تزال على قيد الحياة. تجدها تدبر (بنسيون الكروشي دي سود) بكفاءة ومقدرة، وسط كل ذلك الدمار.

سوف تعطيك غرفة نظيفة، وسريراً مريحاً، وطعاماً بسيطاً، لا يسبب لك التخمّة. ولعلني لا أكون مخطئاً إن قلت لك، أنك سوف تلقى في العشيّات، في فترات الهدنة بين المعارك، كل القادة المتحاربين، يسلمون في مقهى البنسيون، يشربون قهوة الـ (كابوشينو) أو ما هو أقوى، يتمازحون ويتضاحكون، ثم يعودون إلى حروبهم التي لا يموتون هم فيها، ولكن يموت الرجال والنساء والأطفال، من شعب الصومال الكريم المسالمة ■

(للحديث بقية)

القياصرة ويوقف الفلك عن الدوران. ألا التليان، مثل الأقريق، مثل العرب، كانوا قد شبعوا من المجد، وأخذوا حظهم من الفتوحات والغزوات، فأصبحوا كما قال الخطيب للزرقان:

دع المكارم لا ترحل لبغيتي
واقعد فانك أمت الطاعم الكاسي.
حيثما وجدت الأقريق والتليان في بلاد العرب، وجدت خيراً وبركة. وقد يكون أن كل ما حدث للسودان من مصاعب بعد الاستقلال، هو بسبب جلاء هذين العنصرين الطيبين منه. ولعل هذه تكون (ايولوجية) لنظام جديد، فيقوم ضابط في الجيش بحب هذين، ويعمل (ثورة) يكون شعارها (إعادة الأقريق والتليان إلى بلاد السودان).

حدثت الله أن التاريخ قد دار دورته، فقبلت هذه السنويّة الإيطالية أن تكون صاحبة (بنسيون) في مقديشو، بدل أن تكون زوجة لحاكم روماني في سوريا أو بلاد إفريقية. قبلتني نزيراً عندها في الـ (كروشي دي سود)، وكنت قد تعبت من صراصير هوتيل (جوبا) وفئران نزل (العروبة).

وجدت نزلاً صغيراً من نحو عشرين غرفة، أغلبها محجوز على طول العام لموظفي وكالات الأمم المتحدة وهيئاتها، والهيئات والصناديق العربية. كانوا مثلي يذهبون ويجيئون، بحدوهم الأمل أن تحدث معجزة ويلمع فجأة بريق ضوء في غياهب الصومال. تتحرك المشاريع، وتجيش الطاقات، وتعمل الحماسة في الصدور، ويتحسن الأداء الحكومي. يكتبون في تقاريرهم إلى منظماتهم، أن النظريات التنموية التي سهرروا على دراستها وتحصيلها في اجتماعاتهم ومؤتمراتهم، في نيويورك وباريس وروما وفرنسا وجنيف، أنها برهنت على صلاحها وقابليتها للتطبيق. أن تلك الحالة المستعصية في الصومال، بدأت تستجيب للعلاج، انتظمت دقات القلب، وضبطت درجة الحرارة. فتح المريض عينيه، وانفتحت شهيته للطعام والشراب. كان الصومال بالفعل، مثل حالة مرضية نادرة، من الحالات العسيرة التي ينكب عليها الأطباء يجربون فيها فقههم وشهارتهم، وإذا نجحوا، يجدون تلك المنفعة المهنية النادرة التي تهون عليهم مصاعب عملهم. ربما لأجل ذلك أعدت منظمات الأمم المتحدة من الخبراء على الصومال، ما لم تعقد إلا على قليل من بلدان العالم الثالث. كنت مثله في ذلك، وأيضاً، كما أدركت فيما بعد، أنه كان بحدودي حافز آخر، هو الشعور بالذنب.

قلت أن ابن حلال قد توسّط لي لدى السيدة الإيطالية فقبلتني نزيراً عندها،

في زيارتي التالية دلتني ابن حلال على (بنسيون) صغير تملكه سيدة إيطالية طاعنة في السن، من بقايا الوجود الإيطالي في الصومال. علمت منها فيما بعد، أنها ولدت في الصومال، ونشأت وتزوجت وأنجبت في الصومال. استقل القطر، وجلا الإيطاليون، ومات عنها زوجها، ولكنها أثرت أن تبقى في المدينة التي ألفتها وأحببتها، مع من فضل البقاء من أبنائها وبناتها.

لو كان لي من الأمر شيء، لفتحت أبواب العالم العربي على مصاريحها لـ (التليان) والأقريق) اليونانيين - خاصة اليونانيين - هؤلاء أوريون ليس فيهم عنطزة المستعمرين، تجدهم في الحارات والأسواق، يكسبون لكسب عيشهم كسائر الناس، يصلحون السيارات، ويبنّون العمارات، ويبيعون الجبنة والزيتون.

الأقريق أقل نجمهم ودالت دولتهم قبل ظهور المسيح عليه السلام، فلم يستعمروا بعد ذلك أحداً ولم يتسلطوا على أحد. والتليان كذلك، انتهى أمرهم مع نهاية الـ (باكس رومانا)، اللهم إلا من بضع سنين على عهد زعيمهم المخبول (موسولين)، الذي ظن أنه يرجع زمان

نحو أفق بعيد

١٨٦



بقلم الطبيب صالح

واسماعيل، وانهم اعطوا اليهود وعد ملفور، مما نتج عنه ضياع ارض فلسطين الغالية اخرى لليالي، وانهم عاثوا ما شاءوا بارض الراسدين، وتركوا جزيرة العرب (مثل الخبياء المبقوق).

نعم، كل ذلك لم يكن خافيا عني، انما سبحان الله، الشياطين يفعل كما وصف الحسن بن هانئ أن الخمر تفعل بالمرء، ترك القبيح جميلاً، او على الأقل تلهيك عن الله قبيح. الحكمة تجيء ضحى الغد، وقد لا تجيء ابداً. وإذا كان في الشياطين عذر عن الضلال، فاني عذر للمرء اذا ضل بعد ضياع الشياطين.

في تلك المرحلة الهوجاء من العمر، من يلتفت الى هذه القضايا المعقدة الذي تعرفه وتحسه وتلمسه انك في عالم جديد، يضغط على سمعك وبصرك وعقلك في كل لحظة. وانت مستنفر الحواس، يقظ العقل، مليء بحب المعرفة، شهيتك مفتوحة للحياة. هل تجلس وتفكر في الآثار المترتبة على معركة أم درمان وصندوق الذين في مصر، وكيف سرق دزانييلي قناة السويس، وكيف تأسر الانجليز والفرنسيون على تقطيع اوصال بلاد الشام، وماذا فعل ساكس وينكو، وماذا فعل لوريس، وماذا فعلت قبر تروديل؟ مستبعد هذا، اغلب الخلق انك تلقي بنفسك في اللجة، تغطس وتطفو وتضيع وترجع. عندك متسع من الوقت، ما افسح ما يبدو لك العمر حينئذ، غداً، وغداً، وغداً. سوف تجد براحاً من الوقت للتأمل، والتحسس على الزمن الضائع. فسحة من الوقت للذم حينئذ فقط تفهم معنى قول الحسن بن هانئ:

كان الشياطين مطبئة الجهل ومحسن الضموات والعذل

لا عليك الآن، فانت في عشرينات العمر، وهذه مدينة الضوء، الضوء في باريس ليس كما عهدت في لندن، هذا جزء من جسد القارة الأوروبية الممتد، وبلاد الانجليز تنتمي الى العالم الجرمانى. الاسكندنافي الداكن، كانت لندن تلك الأيام، سماؤها ابداً كالحلقة بسبب السحاب الذي يغطيها اكثر العام، والضباب الكثيف المخلوط بدخان الفحم الحجري من مداخن البيوت. اليوم تغير الطقس، وتوقف استعمال الفحم، وقل الضباب، كان الظلام، يومئذ هو الاصل، والضوء هو الاستثناء.

رائحة لندن رائحة مبتلة. رائحة الشوارع المبتلة، رائحة التراب المبتلة، رائحة القطارات المبتلة، رائحة البيوت المبتلة. أضف الى ذلك روائح الطعام.

القرنبيط المغلى والكرب المغلى، والمفل المغلى، والبيض المغلى ولحم الخنزير المغلى، والبطاطس المغلى. أضف الى ذلك رائحة البحر الذي يحيط بالجزيرة ويعترض مزارع الرياح.

رائحة باريس خليط من روائح القهوة والنوم والنبات والعطور والخبز الساخن الذي خرج لتوه من الفرن. لم يكن الانجليز يشربون القهوة تلك الأيام ولا يستعملون الثوم في طهيهم، وما يزالون الى اليوم يعتبرون الاسراف في استعمال العطور من فساد الذوق. وكان خبرهم بلا رائحة.

اليوم تغير الحال قليلاً بدأ الانجليز يقتربون متربدين من القارة الأوروبية ورغم معارضة جزء كبير من الرأي العام، كاد النفق الذي يربط بينهم وبين فرنسا ان يتم. لا عاصم لهم بعد اليوم، سوف يدخلون في غمار العالم الأوروبي العريض، شاءوا او ابوا. تجد الآن في بعض الاماكن القهوة الفرنسية والثوم في الطعام، وفي بعض المخابز تجد الـ (Baguette) الخبز الفرنسي المستطيل مثل العصا.

كان الضوء في باريس هو الاصل والظلام طارئ عليه. وليس ذلك فقط لأن الشمس تسطع اكثر والسماء اقل كثرة مما هي في لندن، انما ايضا اتساع الشوارع والميادين، وطراز العمارة، والوان اسقف البيوت. ينعكس الضوء عليها بطرائق والوان تغطي المدينة بهاء لا يوجد في لندن.

ميدان الطرف الاغر، رغم ما بذله الانجليز من جهد، لا يقاس بميدان الـ (بلاس كونكورد) وشوارع الـ (Mall) الذي يؤدي الى قصر كنجهام، لعله اعرض في الواقع، ولكن لماذا يخلل اليك ان الـ (شانتز البيزيه) اكثر اتساعاً، حتى نهر التمزز العتيق يبدو متواضعاً بالقياس الى نهر السين.

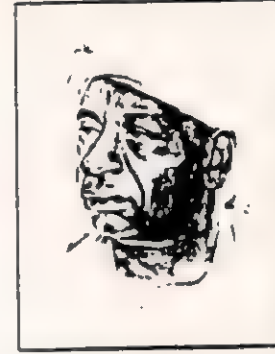
هذه مدينة تجعلك تتذكر باستمرار، اذ لندن تجعلك تنسى، اشياء تجيبك كأنما من ماضٍ سحيق ومن عصور غابرة. لعلها الاشياء التي اخذوها عن العرب زمان تالقي مجدهم في الاندلس. ايام كانت غرناطة واشبيلية وقرطبة، اشياء اخذوها ثم اغفلوا ان يذكروها، عن قصد او عن غير قصد. بل ان العرب انفسهم نسوا انهم اعطوها ذات يوم لعلنا حين نفع في غرام حضارات الآخرين، انما نجب اجزاء ضائعة من انفسنا، لا نعلم انها جاءت من عندنا، ونظن انهم اجترحوها من العدم.

كنت انحب واجيء كمن يحل دينا، كمن يقضي بئرا، كمن يكفر عن خطيئة، وكان في الصومال عوضاً عن السودان. لانني كنت اعيش في باريس، وباريس (مدينة النور) كما اخبرنا اساتذتنا من الرواد، من مصر ولبنان، وعرب البحر الابيض المتوسط المنجدين ابداً الى حواضر أوروبا. ومن يلومهم؟ انه عالم جذاب، وباريس مدينة مضيئة فعلاً، ربما اكثر مما زعموا لنا، وبطرق مغايرة عما زعموا لنا.

زرتها اول مرة عام ١٩٥٤، جئتها من لندن، وما هي الساعة بالطائرة، او بعض يوم بالقطار والسفينة والقطار. لكنها دنيا اخرى. كنت متلقياً بعبادة الحضارة الانجلو - سكسونية، شغوقاً بادابها، مقبلاً على تاريخها، معجباً بنظمها واساليبها في العيش. اعلم بالطبع ان الانجليز قد فتحوا السودان واستعمروه دون وجه حق، وانهم فعلوا الافاعيل بمصر منذ عهد محمد علي

نحو أفق بعيد

١٨٧



بقلم الطبيب صالح

حدثت له.. لا، وليست زياد بري، الرجل المسؤول مسؤولية مباشرة انه الآن عاطل عن العمل.

ماذا اعطيته. يضع شلنات. لا اقله اخذ مني طول مدة اقامتي اكثر مما قيمته عشرة دولارات. يذهب في سبيله واذبح في سبيلي. احبانا اراه في المسجد القريب من الهوتيل في صلاة العشاء. كان يحلو لي ان اصلي العشاء في ذلك المسجد. صوت الامام حنون حزين، يرثل القرآن بقراءة ورش. اراه، نظيف الثياب، حسن الهدام، مؤثراً ازاراً يمانياً، وعلى رأسه الطاقية الصومالية المزكشة، يتجاهلني كلية كانه لا يعرفني. انه هنا شخص آخر.

ليس بيد الامريكان ولا الانجليز ولا الفرنسيين. ليس بيد زياد بري. انه هنا، في هذا المكان، يعلم في حقيقة نفسه ان الامر بيد الذي لا مانع لما اعطى، ولا معطى لما منع. سوداني، او صومالي، مثله. وايضا عبيد من عبياد الله سخره لما جعله مستخلفاً فيه، على قتلته. مثله، عابر سبيل، ضيف على مائدة الحياة. وكون الحياة اعطتني اكثر مما اعطته، وجعلتني اعيش في باريس وهو في مقديشو، واعمل في منظمة اليونسكو وهو عاطل بلا عمل... اه. تلك ايام يداولها الله بين الناس وهو العليم الخبير.

باريس. شوارع باريس في شهر اغسطس جسيم مقيم لاولي النهي. مدينة تعرض مفاقتها على قارعة الطريق ولا تترك للخضال بقية. عالم جذاب، اي نعم، لكن ما ابعد كل هذا عن منحني النيل وعن مقديشو. خيرات الارض الفرنسية مكنته، تلالاً تلالاً، في ال (موبيري). ال (باقت) حار بقرقش، خرج لنود من الفرن في المخبز على ركن شارع (قوتبيرج). ال (كرواسان) التي تغني بها محمد الصاوي محمد رحمه الله. قرأنا له ونحن صبية في المدارس الثانوية، انه كان يتمتع بها مع القهوة الفرنسية بالحليب، ال (كافي اوليه) وهو جالس في الصباح في ال (تراس) الزجاجي في مقهى ال (دوم). يقرأ صحيفة ال (فيقارو) ولا يد.

اي سحر في تلك الاسماء؟ كان (جان بول سارتر) يلم احبانا بمقهى ال (دوم)، يجني من مرابعة المعتادة في (سان جرمان دي بري) ومقاهي الحي اللاتيني حول ال (بولفار سان ميشيل). معه رفيقته (سيمون دي بو فوار) وحوله المعجبون والحواريون. يجادلون في هيقول وماركس وكبيركتقارد والوجودية. يلعبون بالافكار كما تلعب بكرة ال (بنج بنج). لا توجد حدود ولا

قيود في ذلك العالم المفتوح. الأستاذ العميد عشق كل ذلك، وبقية الاساتذة الرواد، من مصر وبلاد الشام. ومن يلوميه. نقلوا لنا نقفاً من تلك الافكار، وربما اخذوها مأخذ الجد اكثر مما اراد اصحابها. ونقلوا لنا الاسماء. نفراً، ونحس النسوة وانصاب بالدعر. يا لها من اسماء! يا لها من افكار! يا له من عالم جذاب!

صدقوا. ولكنه (عالم ليس لنا)، كما قال غسان كنفاني رحمه الله. لم تشارك في مخاضاته السياسية، ولا ثوراته الصناعية، ولا قفزاته الفكرية. تقول، ابن رشد وابن سينا وابن الهيثم وابن خلدون، من يذكر لك هؤلاء الآن؟

تمتع بها ما استعفتك، ولكن تذكر ان تحت هذا المظهر اللاهي، تحت معرض الازياء المتصل الذي يتدفق اسامك في شارع ال (شاراليزيه)، تحت العبد الفكري والجدل الفلسفي والسياسي في مقاهي الحي اللاتيني، تحت بذات حي (مونبارناس) وال (بيقال) وخلاصة ال (فولي بيرجير) وال (مولان روج) تحت كل هذا قاعدة صلبة من الصناعة والبنوك والشركات العملاقة، والعتاد الحربي، وقطارات ال T.G.V الكهريائية السريعة، وخريجي ال (ايكول نورمال) سوبيرير (ير) وال (ايكول ناشيونال د ادمستراسيون). المعهد القومي للإدارة، العقول التي تحكم فرنسا في كل العهود، ومهما تغيرت النظم والحكومات، ثم بعد كل هذا عام، يجيئهم رجل عظيم حقاً مثل ديغول.

يا لها من اسماء لها في اللسان طعم الشهيد. وقد اعطانا الدكتور العميد رحمه الله عدداً منها. حدثنا عن (كورني) و(موليير) و(راسين) و(بلزاك) و(فكتور هوقو) و(اميل زولا). اسماء.. اسماء.. اسماء. امن مخلصاً ان يربط مصر بالعالم (الهليني) عبر البحر، ومن ثم بفرنسا، فقد كانت (لا فرائس) في رايه، في وريثة (اينا) وحاملة مسفل الحضارة بعدها.

لا تثريب عليه، فهو عالم اسر بحق. ولعلني لو كنت مكانه، لفعلت فعله، ورأيت رايه. ولكن ما بال الدكتور العميد، رحمه الله وغفر له، لم يشك (حسب علمي) ان هومير هو مؤلف (الابادة) وال (اوديسه)، وقد زعموا انه عاش منذ الف ومائتي عام قبل ميلاد المسيح، ولكنه شك في ان يكون اسرف القيس هو اسرف القيس، وما اسرف القيس منا بعيد.

اعترض طريقني منذ اول يوم، رجل معتدل القامة، متوسط العمر، دقيق تقاطيع الوجه، كانه من قبيلة ال (بنى عامر) في شرق السودان، الدم الحامي والسامي فيه بكميات متساوية. ليس به عاهة ولا توجد في عينيه ذلة او انكسار. تقدم نحوي كانه كان ينتظرني، ونظر الي بجرأة تقرب من الوقاحة.

«يا سوداني، هات (.....) شلن»، اعطيته ما سال، عدتها عدا، لا اقل ولا اكثر، كانني اقضي ديناً، كانني اوفي نذراً، كانني اكفر عن خطيئة. صار هذا شأني معه، مدة اقامتي، وحين انتقلت الى هوتيل ال (كروشي دي سود) لحق بي. لم يكن عسيراً عليه ان يعرف اين ذهبت. لم يكن متسولاً. كان طالب حق. يدخل يمشي على مهل، وقد يحني احداً، وقد يجلس في المقهى، وقد يطلب قهوة.

لا يتحدث معي ولا يشكرني. ياخذ (حقه) دون اي احساس بالجميل. لا يعرف اسمي ولا عملي، وانا لم اساله عن اسمه ولا عمله. كان عاطلاً بلا عمل، لا شك.

انا (سوداني) وكفى... لست انجليزياً ولا فرنسياً ولا ايطالياً... الناس الذين تسببوا في البداية فيما

نحو أفق بعيد

١٩٤



بقلم الطبيب صالح

يُعَدُّ المؤرخ الفرنسي (فيرناند برودل - Fernand Braudel) بين عظماء المؤرخين في هذا العصر. ولد عام ١٩٠٢ في قرية من قرى منطقة الـ (لورين) - المنطقة التي انضمت (جان دارك)، وتوفي عام ١٩٨٥. كان (خلدون) النزعة، مثل (أرنولد توينبي) في بريطانيا، يمزج بين التاريخ وعلم الاجتماع في دراسته لماضي الإنسانية. اشتهر أول الأمر بكتابه (عالم البحر الأبيض المتوسط في عهد الملك فيليب الثاني)، ثم شغل كرسي الأستاذية في معهد الـ (الكوليج دي فرانس) المرموق. وقد كان أيضاً استاذاً في معهد الدراسات العليا، الذي أنشئ في باريس لتشجيع الدراسات التي تزوج بين التاريخ وعلم الاجتماع.

كتابه (هوية فرنسا)، هو آخر كتاب له، وقد نشر بعد وفاته، يحاول فيه أن يتعرف على العناصر التي تكونت منها شخصية فرنسا. يقول فيه:

لستم لي القارئ أن أقول بوضوح منذ البداية، أنني أحب فرنسا حباً قوياً عميقاً لا يقل بأي حال عن حب (جول ميشليه - Jules Michelet) (١). لا أميز في هذا الحب بين ما هو حسن وما هو قبيح، بين ما يعجبني في فرنسا، وما أجد من العسير عليّ تقبله. إنما هذا الحب لن يمنعني أن أقول الحقيقة كما أراها. سوف أحرص أن أضع حبي لفرنسا جانباً، سوف أراقب نفسي

مراقبة صارمة، ولعل الحب يغلب عليّ أحياناً، متخذاً شتى الحيل. حين يحدث هذا فسوف أتبه القارئ أنني عكست العزم أن اكتب عن فرنسا، وكأنها بلد آخر، وطن آخر، أمة أخرى. ومهما يكن فإن صناعة كتابة التاريخ اليوم، أصبحت تقتضي منا مزيداً من ضبط النفس والسيطرة على العواطف.

على المؤرخ بصفته (مراقباً محايداً) أن يأخذ على نفسه (عهداً بالصمت). إذا صح القول، ولعل العمل الذي أنجزته من قبل، يسهل مهمتي هذه، إذ أنني في كتابي عن البحر الأبيض المتوسط والراسمالية، نظرت إلى فرنسا من بعيد، وأحياناً من بعيد جداً. وهكذا أعوّد الآن إلى أرض الوطن، ربما في وقت متأخر. إلا أنني لا أنكر أنني أجد سعادة عظيمة في هذه العودة، إذ لا مساء في أن المؤرخ لا يقف على أرض صلبة إلا حين يكتب عن وطنه. إنه يعرف دون جهد، تموجات ذلك التاريخ، وصعوده وانحداره، وعناصر القوة والضعف فيه. أبداً، لن يكون بمثل هذه الثقة، مهما بلغ من العلم، إذا هو نصب خيمته في بلاد غير بلاده. لذلك يصح القول أنني أنخرت (خبري الأبيض) إلى النهاية، أبقيت تلك الفضلة زائداً لشيخوختي.

هدفنا إذا أن نتحرر من العاطفة مهما كانت دوافعها، سواء كانت في طبيعتنا، أو وضعنا الاجتماعي، أو بسبب (معادلتنا) الشخصية، أو أي من هذه الدوافع التي ترى بها الحياة في وجوهنا. هذا بالتأكيد لم يفعله (هوليت تين) (٢) في كتابه (مقومات تكوين فرنسا الحديثة)، مهما خيل له عكس ذلك. لقد زعم أنه أراد أن ينظر إلى فرنسا (كأنها حشرة في مراحل نموها)، كان (الكسي دي توكفيل) (٣) أكثر توفيقاً منه في كتابه الجميل (المعهد الملكي والثورة الفرنسية). (...)

وأضح أن الأمة في أطوار نشوئها، لا تكون مخلوقاً بسيطاً. لا تكون (شخصاً) محدداً، كما قال (ميشليه) متغزلاً. بل هي انقاض تراكمات، وأشباح تصورات، ومجموعات كائنات حية. لا يستطيع أن يفهمها حقها، المؤرخ (السردي) الذي ينظر إلى الأحداث في تسلسلها، يوماً بعد يوم، وأسبوعاً بعد أسبوع، وعاماً بعد عام.

يوجد في نظري نوع آخر من التاريخ، تاريخ يعنى بالأماد المتطاول، ويميز بين العناصر المكونة للتراكبات العجيبة، ويتبين دورات الحياة البشرية في أقبالها وأدبارها. هكذا نصل إلى

أسلوب في كتابة التاريخ، فاحص عواص في الأعماق، بالطريقة نفسها التي كشف بها التحليل النفسي في مطلع القرن العشرين، مجاهاً العقل الباطن. ولعل (أرنولد توينبي) قد بالغ قليلاً حين قال (أن الأربعة أو الخمسة نرون التي تحسرت منذ كولمبس وفاسكو داغاما، ليست أطول من اغماضة العين بالقياس إلى عمر الأرض كما حدثنا علماء الجيولوجيا). ومع ذلك فإن في عبارته تحذيراً لأولئك الذين يفسون التاريخ بمقاييس قصيرة. (...)

إنما الذي يعطيني أكثر من أي شيء، هو ضيق الأفق الذي تفرضه هذه الثورة. النظام الملكي والثورة الفرنسية، قريبان لنا في الزمان، إذا مددنا أيدينا نكاد نلمسهما، وكأنهما معاصرين لنا ما يجب علينا عمله هو أن ننظر إلى تاريخ فرنسا في تدفقه المتصل منذ احتلال الرومان لبلاد الـ (غال)، حين وصل الملك لويس الرابع عشر، كان تاريخ فرنسا قد أصبح رجلاً طعن في السن جداً لأجل ذلك فإنه يحزنني أن الجهد الضخم الذي بذله (ثيودور زلدن) (٤) في كتابه (تاريخ الإحساس الفرنسي)، يفض منه أن التاريخ لديه يبدأ عام ١٨٤٨.

كأنما التاريخ لا يعود إلى تلك العهود السحيقة التي يحجبها الضباب! كأنما التاريخ القديم والحديث ليسا نهراً واحداً! كان قري بلادنا لم تكن قد قامت وضربت جذورها في الأرض في الألف الثالث قبل الميلاد! كان أرض الغال لم تكن قد اتضحت معالمها، التي سوف تتشكل في إطارها شخصية فرنسا! كان تدفق القبائل الجرمانية عبر نهر الرين، لم يصبح سمة مهمة من سمات العالم الحديث! كان الدماء التي تجري في عروقنا لا تحمل خصائص واضحة مورثة من تلك القبائل (البربرية) الغارية في ذلك الزمان البعيد! كان معتقداتنا ولغتنا لم تنحدر إلينا من عصور الظلام تلك!

هذا ما يعني تحديداً في كتابة التاريخ، التاريخ الغامض، الذي يجري تحت السطح مثل نهر جوفي. التاريخ الذي يرفض أن يموت ■

١ - حول ميشليه - (١٧٩٨ - ١٨٨١) - أكثر مؤرخ فرنسي في القرن التاسع عشر كتابه (تاريخ فرنسا) من أربعين مجلد.
٢ - (هوليت - تين) - ورد ذكره صمير أسدفا، الأديرة (مكتبة موناكوت).
٣ - (الكسي دي توكفيل) - (١٨٠٥ - ١٨٥٩).
٤ - (ثيودور زلدن - Zeldin) - مؤرخ معروف نشر الكتاب المختار إليه مائة الأسابيع أولاً، عام ١٩٧٣ وصمير بالفرنسية عام ١٩٧٨.

نحو أفق بعيد

١٨٨



بقلم الطبيب صالح

ليس هذا قلب باريس. باريس لها أكثر من قلب. ولكنه أوضح علامة في المدينة. تراه حينما كنت، مضيقاً بالليل، وبالنهار يلعب في شمس الصيف، وإذا كان الفصل شتاء، ياخذ لونا رماديا داكنا.

تخرج من مبنى منظمة اليونسكو في (بلاس فستوا). تتجه يساراً حتى تصل الى شارع (سوفرن) الواسع، تتجه فيه يمينا وتسير ناحية النهر، لن تسير طويلا. عند ضفة النهر على يمينك تجد البرج. (برج أيفل).

يحرك الدليل السياحي، انه اقيم في عامين، من عام ١٨٨٧، حتى عام ١٨٨٩، وان ارتفاعه ٩٨٤ قدماً، ويزن سبعة الاف طن، وكلف سبعة ملايين ونصف مليون فرنك، رغم حجمه الهائل، فانك لا تحس به جسماً صلباً، لانه مفتوح على الافق من النواحي جميعها، يرتفع في شكل هرمي، وينتهي بمسلة طويلة من الحديد. احد اعاجيب الدنيا، وواحد من اهم رموز باريس. يصنفه المفكر الفرنسي الكبير (رولان بارت) قائلاً:

«... في أي فصل من فصول السنة، في الضباب والغيم، في الأيام التي لا تشرق فيها الشمس، وفي أيام الضحو، في المطر، اينما كنت... ثمة البرج. يتغلغل في نسيم الحياة اليومية حتى لا تستطيع أن تتصور له صفات محددة.

مثل ظاهرة من ظواهر الطبيعة، يتساءل الانسان عن معانيها الى ما لا نهاية. ولكن وجودها ثابت بما لا يدع مجالاً للشك....

...بالأضافة الى ما يعنيه البرج لأهل باريس. فإنه ينفذ، عند الناس قاطبة، الى مستودع التذاعيات الدفينة في مخيلاتهم. حيثه البدائية البسيطة. تسبغ عليه صفة لغز لا قرار له. أنه حسب ما يشط بنا الخيال. رمز باريس، رمز الحداثة، الاتصالات، العلم، القرن التاسع عشر، صاروخ، جذع، ولس. Phallus (رمز الذكورة)... برق، قضيب حديد، حشرة. يشتمل على انواع احلامنا كلها. أنه (العلامة) التي لا يهرب منها... وظليفته المثولوجية الوحيدة، كما يبدو في شكله البسيط ان يجمع القاعدة الى القمة، او الأرض الى السماء، كما عبر الشاعر....

... يجذب البرج المعنى اليه، كما تجذب الأسلاك الصواعق. أنه يلعب بالنسبة لعشاق اصطلياد المعاني، دوراً مدحشاً.. انه المعنى الذي ياخذونه من تجاربهم واحلامهم وتاريخهم، دون ان يكتسب هذا المعنى بعداً نهائياً ومحدداً. كتب (رولان بارت) هذا، في مقالة نشرت باللغة الفرنسية، عام ١٩٧٠ او نحوها، ونشرت باللغة الانجليزية عام ١٩٧٩ مع مجموعة مقالات، وهو كما لا يخفى، من كبار علماء (السيميو لوجية) ومن اخبار المذاهب الحديثة في النقد. ولد عام ١٩١٥ وتوفي عام ١٩٨٠. وكان الى حين وفاته أستاذاً في ال (كوليج دي فرانس). يصغه البعض بأنه (البنيوي الذي وضع علماً للادب). وقد ناصر (الرواية الجديدة) ونادى بما سماه (صوت المؤلف)، يقصد أن النص هو المفعول، وان المؤلف لا اهمية له. ذلك لم يمنعه هو نفسه ان يكتب عن (راسين) و (ملرك). وقد كان مثار اهتمام عظيم، شخصه وبغره، لا يقل عن الاهتمام الذي اثاره (جان بول سارتر) في الخمسينيات والستينيات. مساهماته الفكرية لا تنكر، واثره واضح في كثير مما يكتب من نقد ادبي هذه الايام، حتى في العالم العربي.

قارن بين وصفه لـ (برج أيفل) وبين هذا الوصف في قصة تسمى (دومة ود حامد) لشجرة دؤم، في قرية في شمال السودان. والدؤم كما تعلم مثل النخل، الا انه اكبر وأطول. وقد نشرت القصة باللغة العربية عام ١٩٦٠، ونشرت مترجمة باللغة الانجليزية عام ١٩٦١، او نحوها.

... ها هي ذي.. دومة ود حامد. أنظر اليها شامخة براسها الى السماء، أنظر اليها ضاربة بعروقها في الأرض، أنظر الى حديقها المكتنز المحتل كقائمة المرأة البدينة، والى الجريد في اعلاها كأنه

عُرف المهر الجامحة، حين تعبل الشمس وقت العصر، ترسل الدومة ظلها من هذه الربوة العالية عبر النهر، فيستظل به الجبالس على الضفة الأخرى. وحين تصعد الشمس وقت الضحى، يمتد ظل الدومة فوق الأرض المزروعة والبيوت حتى يصل الى المنيعة.

اتراها عقابا اسطورياً باسطاً جناحيه على البلد بكل ما فيها....

... اغلب الفن انما نمت وحدها.. ولكن ما من احد يذكر انه راها على غير حالتها التي رايتها عليها الآن. اناؤنا فتحوا اعينهم فوجدوها تشرف على البلد. ونحن حين ترد بنا ذكريات الطفولة الى الوراء، الى ذلك الحد الفاصل الذي لا نذكر بعده شيئاً، نجد دومة عملاقة تغف على شط في عقولنا، كل ما بعده طلاس، فكانها الحد بين الليل والنهار. كأنها ذلك الضوء الباهت الذي ليس بالفجر، ولكنه يسبق طلوع الفجر (... كل جبل يجيء، يجد الدومة كأنها ولدت مع مولده وبنت معه (... وهكذا يا بني. ما من رجل او امرأة، طفل او شيخ، يحلم في ليله، ألا ويرى دومة ود حامد، في موضع ما من حلمه....

الفرق شامع بالطبع، كالفارق بين قرية في شمال السودان وبين باريس، كالفارق بين شجرة دؤم تظل على نهر النيل، وبرج من الحديد زنته سبعة الاف طن، يظل على نهر السين.

انما احسن من هذا وذلك، ما صنعه ابو عبادة البحري منذ اكثر من الف عام. لا يغرنك قذاكي (الحبر) الفرنسي، وتلاعبه بالكلمات والافكار كمثل قوله «البرج حماد يرى (يفتح الباء) ونظرة ترى (بضم التاء). أنه فعل تام، لازم ومستعدي». تحت هذا اللعب الذكي فكرة بسيطة، هي ان برج أيفل (رمز).

كذلك فعل البحري في قصيدته السبينة العصبية عن (الايوان). الرمز عند العلامة الفرنسي (فارغ) يملؤه الرائي بالصور والاحاسيس والمعاني، كيف يشاء. وهذه فكرة اساس في مذهب الاستناد (بارت). اما البحري قد صنع رمزاً داخله مجموعة رموز، مثل كهف مسحور مليء بالجنائات، لغز وراءه لغز، المتلقي لا يملأ متخيلاته فراغاً كاملاً، ولكنه يملأ فراغات بين دروب المعاني التي اختطها الشاعر سلفاً وعن عمد.

انها قصة طويلة ليس هذا محلها، ولكن من يوازن لك في زحمة هذه السوق، بين ابي عبادة البحري (رولان بارت) وهل كانت بعدد زمان البحري الا كمثل باريس على عهد بارت، وهل (دومة ود حامد) الا (برج ود حامد) وهل (برج أيفل) الا (دومة باريس)؟ ■

نحو أفق بعيد

١٨٩



بقلم الطيب صالح

الأمر البالغ الأهمية هو أن قائد الفرنجة السالبيين، أكبر القبائل الجرمانية، أصبح في عام ٩٦٦م حامي العقيدة الكاثوليكية...

التحالف الطويل بين الملكية الفرنسية وكنيسة روما، الذي انتهى عام ١٨٣٠، بفرار آخر ملوك البوربون من باريس أمام غضب الجماهير والدشماء، تعمد بالدم في ساحة القتال في الأتراس، قبل ألف وثلاثمائة عام. كانت نقطة تحول في تاريخ الـ (غال) بل وتاريخ أوروبا، حين أصبحت الكنيسة الكاثوليكية، سيدة بلا منازع، من سواحل الأطلنسي حتى نهر الراين، بعد أن أذن ملك (همجي) لسلطان الكنيسة ورعى أن يحكم بواسطة الأساقفة حسب النظم الإدارية التي أعطتها روما في عهودها الأخيرة إلى فرنسا في القرون الوسطى. قائد محارب، وضع نفسه على رأس كنيسة مقاتلة.

جاءت الثورة الفرنسية، متاثرة بأفكار (روسو) و(فولتير) والأفكار العقلانية من الـ (رينسانس) وأرادت أن تقضي على العلاقة بين الكنيسة والدولة قضاء مبرماً، وذهبت في ذلك مذاهب بعيدة في التطرف. لكنها لم تفلح، وبقيت فرنسا إلى اليوم، دولة كاثوليكية وثورية في الوقت نفسه.

وما هو ذا الدليل، ماثل أمامك، قف على جسر (بونت نف - Pont Neuf) عند رأس أصغر الجزيرتين، أنه أقدم جسر في باريس. افتتح عام ١٦٠٤ في عهد الملك هنري الرابع، انظر ناحية الشرق، بل انظر في أي اتجاه تشاء، فسوف يرتد بصرك مكرها إلى هذا الهيكل الضخم الذي يحتم كالجبل على وجه الأرض، كاتدرائية (نوتردام دي باري)، مبوها على الطراز القوطي الصرف، متعمقين أن بملا البناء أكبر حين من الفراغ، مهيمناً على الأفق، ساداً منافذ الخيال.

بعد ذلك تعلموا من المعممار الإسلامي في الأندلس أن يوسعوا القوس القوطي، ويبسطوا الأعمدة، ويحاكوا رشاقة الماذن في الأبراج، ويقتصدوا في الزخرفة، ويخففوا من كتل الصخر التي تجعل العمارة عبئاً ثقيلاً على جسم الأرض.

كان المستشرق الفرنسي (ماسينيون) رجلاً مصصفاً. قال إن المسلمين صنعوا في الأندلس، عمارة متينة راسخة في الأرض، وفي الوقت نفسه تكاد تطير في الهواء لخفتها ورشاقاتها ■

(للمتحدث بقية)

روح (الإمبراطور)، القائد العبقرى، نابليون بونابارت، قد ترفرف على باريس. لكنك لا تحس بوجوده إلا إذا زرت ضريحه في الـ (انفاليد)، نابليون الذي ترك أثراً أوضح، وأعلى المدينة هيبتها التي هي عليها الآن، هو ابن أخيه، نابليون الثالث. وهذا أيضاً من بعض سخریات التاريخ الفرنسي، مثل شوارع باريس، ملوك الـ بوربون ذهبوا ثم عادوا ثم ذهبوا، والثورة الفرنسية بقيت حين بدا أنها لن تستطيع البقاء، وحين استتبت لها الأمر، وظن أهلها أنهم قادرون عليها، فجأة رحلت. وكان في موتها حياتها، فإن روحها تغلغلت في باريس وفي فرنسا وما وراءهما. وأل بونابارت أقاموا ثم رحلوا، ثم عادوا ثم ذهبوا.

أخيراً استقرت باريس، وفرنسا بطبيعة الحال، على وضع لا يحسنه إلا الفرنسيون. جمهورية ثورية كانتها ملكية. انظر إلى متحان ومن قبله الجنرال ديغول. ودولة كاثوليكية وعلمانية في الوقت نفسه. ومجتمع لعله أكثر مجتمع في أوروبا اشتراكية. وفي الوقت نفسه أكثر مجتمعات أوروبا رأسمالية.

لا يسعك إلا أن تعجب بهذه المهارة في عمل توازن بين نقائص يصعب التوازن بينها. أنه دليل على مرونة فكرية وصلابة، وثقة بالنفس نادرة المثال. ولعل في تاريخهم ما يعين على قدر من فهم ذلك. يقول المؤرخ الانجليزي الكبير (اتش. إيه. إل. فيشر H.A.L. Fisher):

«عند (كلوفيس) مؤسس الأسرة الميروفنجية، وأول من أنشأ دولة فرنسا (٤٨١ - ٥١١)، تميز بثلاث انتصارات. الأول انتصاره على (سيباريس) ملك الرومان في (سواسون) عام ٤٨٦، والثاني على الألمان في الأتراس بعد عشر سنوات، والثالث على (الايك) ملك الـ (فزيقوث) بالقرب من (بواتيه) عام ٥٠٧. بعد انتصاره الأول، انتقل (كلوفيس) من (سواسون) إلى باريس فجعلها عاصمته. وبعد انتصاره الثاني تحول من الوثنية إلى الكاثوليكية. وبعد انتصاره الثالث، طرد أعداءه الـ (فزيقوث) إلى اسبانيا، ودفع بحدود مملكته إلى جبال البرنيس. وسواء كان تحول (كلوفيس) إلى المسيحية بسبب تأثير زوجته (كلوتدا) الأميرة النيرفندية أو لأنه آمن أن المسيح هو الذي نصره على أعدائه الألمان، أو بسبب حسابات سياسية ذكية، فإن

إن تجد مدينة تمشي في شوارعها ليلاً أو نهاراً خيراً من باريس، مدينة كأنها متحف مفتوح، طبقات من التاريخ تمتد أكثر من ألفي عام، متراكمة بعضها فوق بعض، الوثنية والمسيحية، الملكية والثورة، عالم البحر الأبيض الجنوبي والعالم الجرمانى الشمالي، العالم الكلاسيكى القديم وعالم التكنولوجيا المفرط في الحداثة. المحافظة الصارمة والتحرر المنفلت من كل القيود، تخطف لك أفكار متناقضة وانت تسير. ترى شيئاً فتقول، باريس هي هذا، ثم تسير بضع خطوات، فإذا المدينة، وكأنها تعبت بك، تقدم لك ليلاً آخر، مناقضا تماماً لما رأيت من قبل.

هذه مدينة لم تخلق لتتطوي على نفسها، ولكن لتنظر إلى المفتونين بها وهم يعمنون النظر في مفاتها. وكأنما البارون (هوسمان) وضع ذلك في اعتباره. الشوارع واسعة، على جوانبها دائماً طرقات للمشاة. وحتى الشوارع الضيقة، بها طرقات للمشاة. نادراً ما تمتد في خطوط مستقيمة من بدايتها إلى نهايتها، ولكن فجأة تجد ميداناً أو لم تتوقع أن تجد ميداناً، وإذا شوارع أخرى تخرج في زوايا حادة ذات اليمين وذات اليسار.

نحو أفق بعيد

١٩٠



بقلم الطبيب صالح

بعد مارسيل بروست بحق (١٨٧١ - ١٩٢٢) واحدا من عظماء كتاب الرواية في القرن العشرين، وروايته الضخمة (البحث عن الزمن الضائع) من العلامات المهمة في تاريخ الأدب. كان يعيش مدينة باريس، لا يفارقها إلا مضطرا وفترات قصيرة، يتحرك بين دور أصدقائه من الطبقة الأرستقراطية التي كان مأخوذا بها. وقد كتب مجموعة من المقالات، نشرها باسم مستعار في صحيفة الـ Figaro. وهو هذا، في إحدى هذه المقالات بصف (صالون) الأميرة (متلدا) ابنة أخي نابليون بونابارت.

كان الأمير لوي نابليون يقول ذات يوم لبعض أصدقائه في صالون الأميرة (متلدا) أنه يجب أن يكون ضابطا في الجيش. صاحت عمته الأميرة، وقد أزعجها أن ابن أخيها المفضل قد يبعد عنها. «يا لك من ولد أحمق. كون عائلتك انجبت بمحض الصدفة رجلا عسكريا، هل هذا ميراثك أن تدخل الجيش؟» لا يمكن أن يتصور الإنسان استخفافا بالمظاهر والرتب، أكثر من قولها (رجلا عسكريا) وهي تشير إلى نابليون بونابارت.

والحق، أن البساطة، كانت أبرز صفة في الأميرة (متلدا). كانت تتحدث عن أي شيء يتعلق بالنسب والحسب والمصنف باستخفاف واضح. سمعتها تقول مرة لسيدة من برجوازي آل (فويور سان جرمان):

«الثورة الفرنسية: لولا الثورة الفرنسية لكنت أنا اليوم لا أكثر من بائعة برتقال في شوارع أجاكيو». هذا التواضع مع الكبرياء، هذه

الصراحة التي تصل أحيانا إلى درجة السوقية، يعطي حديث الأميرة طعنا حارقا مثيرا. أنني لن أنسى أبدا تلك الحدة التي اجابت بها ذات يوم على سيدة سألتهما باحترام مبالغ فيه «هل تفضلين يا صاحبة السمو أن توضح لي أن كانت الأميرات أمثال سموك، عدهن الأحاسيس نفسها التي نحس بها نحن المسكينات بنات الطبقة البرجوازية». اجابتها الأميرة باحتقار «هذا السؤال لا يوجد لي أنا. أنني لست من سلالة (الحق الأنبي)».

هذه الخشونة الرجالية لدى الأميرة، يخفف من حدتها، رقة عظيمة في العينين وعذوبة في الابتسامة، وحفاوة لا مثيل لذتها.

لكن لماذا احاول ان اصف لك سحر تلك الحفاوة، دعي اجعلك تدومها بان اصف لك كيف تستقبل الأميرة ضيوفها، تعال معي إلى (رو دي بري)، واسرع، فهناك تبدأ السهرة في وقت مبكر.

انتهى العشاء باكرا ربما ليس مثل بكور تلك الأيام، حين جاء (السردي دي موسيه) (٢) للعشاء للمرة الأولى والأخيرة. وصل متأخرا جدا، فوجد أن العشاء قد انتهى. وكان لا يستطيع الكلام من شدة السكر، جلس صامتا لم يفتح فمه بكلمة، وحين قاموا من المائدة، خرج...

بعد العشاء، تدخل الأميرة غرفة الجلوس الصغيرة، وتجلس في كرسي كبير، يكون على يمينك حين تدخل من الباب الرئيسي، ويكون على يسارك اذا دخلت من القاعة الكبيرة.

لم يصل كل الضيوف بعد، فقط النخبة الذين دعيتهم الأميرة للعشاء. بجانبها بعض الذين تجدهم غالبا على مائدتها، الكونتيسة (بيثي)، جميلة جدا ولطيفة جدا، مدام (راستوني)، مدام (اسيناس) وصيفة الأميرة، ثم السيدة التي يحبها الجميع، مدام (قاندراكس)، زوجة محرر الـ (ريفيو دي باري).

تجد أيضا على مائدة الأميرة أغلب الأيام رجلا صغير الحجم، ورغم أنه طاعن في السن فهو في مثل حيوية الشباب خذاه منوردان وناعمان كخدي طفل.. شعره قصير، حسن الهندام، شديد التهنيز والذكاء، هذا هو الكونت (بيثي) والد الكونت الحالي، وقد كان سفيرا لفرنسا في برلين...

يفتح باب الصالون، تدخل الأميرة (جان بونابارت) يتبعها زوجها الماركيس (دي فيلنوا)، يقف الجميع، حين تصل إلى نصف المسافة بينها وبين الأميرة (متلدا) تقف الأميرة وترحب بها وبدونة (دي تريفييس) التي دخلت لتوها مع دوقية (دالبوفيرا).

يفتح الباب، انه دوق (قراسون) وزوجته، ثم تدخل الأسرة البونابارتية رقم واحد، العائلة المثقلة بالألقاب الضخمة، عائلة شارع (ريفولي)...

الأميرة (متلدا) لم تعد جالسة، انها تسرح بين الضيوف، ترحب بكل قادم

جديد، تتوسط معهم في الحديث، تسحر كل واحد منهم بكلام يجعله يظن انه اهم شخص بين الحاضرين

أنني استعمل كلمة (صالون) بالمعنى المجرد، إذ أن الصالون الفعلي كان في شارع (رو دي كورسيل) قبل أن ينتقل إلى (رو دي بري). حين يفكر الإنسان أن تلك (الصالون) كان ملتقى للحياة الأدبية في النصف الثاني من القرن التاسع عشر، أن (مرمي) (٣) (Memmee) و (فلوبير) (Flaubert) (٤) و (غونكور) (Goncourt) (٥) و (سانت - بوف) (Sainte - boeue) - أن هؤلاء كانوا يجيئون كل يوم بحرية مطلقة دون أية قيود، وانهم كانوا يجدون الأميرة دائما مستعدة لاستقبالهم، ومائدتها دائما عامرة بالطعام

كانت تعاملهم بصراحة وعفوية، وهم أيضا، لا يخفون عنها شيئا من أسرارهم وكانت تسعى دون توقف إلى مساعدتهم وإسداء خدمات اليهم. ليس فقط المساعدات اليومية الصغيرة، ولكن أيضا الخدمات الجليلة المدهشة، كانت تحميمهم من الفهر والأضطهاد وتزيل الكراهية ضدهم، تسهل أعمالهم، تعمل على نجاحهم وديوع شهرتهم، تساعد ماديا وتصلح أحوال معيشتهم، تغير مصائرهم.

كان (سانت - بوف) يقول أن دار الأميرة (متلدا) هي بمثابة (وزارة للعطف).

حين يفكر المرء في هذا، لا يسعه إلا أن يؤمن أن بعض اصحاب النفوذ الدنيوي، قادرون فعلا، ورغم كل شيء، على التأثير في مجرى تاريخ الأدب، وقليل هم الذين استعملوا نفوذهم وسلطانهم في خدمة الأدب، كما فعلت الأميرة (متلدا بونابارت).

قال (سانت - بوف) أن ذوق الأميرة (كلاسيكي) مثل كل الأسراء، انها ألهمه ينساع، فل كان (سانت - بوف) محقا، فل كان عملا (كلاسيكيًا) أن تصطفي الأميرة (فلوبير) وأن تتحسس لـ (غونكور) في ذلك الوقت، حين كانت مستعدة على ذوق عصرها، بل على ذوق (سانت - بوف) نفسه، لكن لعل الأفضل أن ننظر إلى حماسيتها لهذا، على انه وفاء صديق بحسن اختيار الأصدقاء، أكثر من كونه بعد نظر ناقد، عرف عبقرية الأول وموهبة الثاني ■

(١) تشير إلى أسرة (ال بوربون) الذين كانوا يرعون، ككل ملوك أوروبا، أهم حكماء مفتنسي (حق أمي)

(٢) المردي دي موسيه (١٨١٠ - ١٨٥٧) شاعر وكاتب مسرحي، أحد ضحايا الكانتة (محرر صائد)

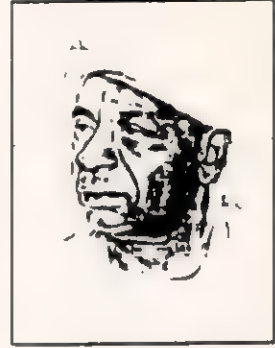
(٣) (مرمي) (١٨٠٣ - ١٨٧٠)، كسانت رومسني أشهر فصحاء (كارم) التي أصبحت أوبرا مشهورة

(٤) فلومير (١٨٢٩ - ١٨٨٠) روائي وكاتب مسرحي صاحب رواية (مدام بوماري) إحدى العلامات في تاريخ الرواية

(٥) غونكور، إيموند (١٨٢٢ - ١٨٩٦) الأخ الأكبر من اثنين من قلمير - أشهرنا مذكرات وناقد الأدب المعروفة التي تحمل اسمها

نحو أفق بعيد

١٩٢



بقلم الطبيب صالح

يوميات الأخوين (قنكور)، من أشهر المذكرات في تاريخ الأدب، ليس في فرنسا فقط، ولكن في العالم. كانا يكتسبانها معا، كما كتبا كل أعمالهما الأدبية. تبدأ يوم ٢ ديسمبر عام ١٨٥١، وهو اليوم الذي قام فيه (لوي نابليون بونابارت) - الذي عرف فيما بعد بنابليون الثالث، وكان إلى ذلك الوقت، رئيساً منتخباً، بانقلاب، حل بموجبه البرلمان، وحظر الأحزاب، واعتقل زعماءها، وأعلن نفسه امبراطوراً لفرنسا. وكما تقدم، فقد كان الأخوان (قنكور) وخاصة أكبرهما (ادموند)، من أصدقاء الأميرة (متلدا) ابنة أخي نابليون الأول، وابنة عم نابليون الثالث.

وفيما يلي مقتطفات من اليوميات، يصف فيها الأخوان (قنكور) بعض الأمسيات التي قضوها في دار الأميرة (متلدا).
الأربعاء ١٩ أغسطس ١٨٦٣.
انتقل الحديث في دار الأميرة إلى (مدام صاند) (١)، تحدثنا عن علاقاتها الغرامية، واهتم رابنا على أنها مسترجلة، ليس فيها رقة انثوية. وفي طبعها قسوة وبرود، يجعلانها تكتب عن عشاقها، أثناء علاقتها بهم. وروى أحد، أن (مرمي - Mémée) كان معها ذات يوم، قرأ ورقة على المنضدة وحين أخذ يقرأها، اختطفها من يده بعنف. كانت تتحدث عنه في الورقة.
كانت أحياناً ترتدي زي الرجال، خاصة خلال علاقتها بـ (صاندو - San-

deau)، كانا يترددان على مطعم صغير يملكه رجل يسمى (مسون)، كان يقول: العجيب أنني حين أراها في ثياب رجل أقول لها (مدام)، وحين تكون في ثياب امرأة، أقول لها (مسيو).
حكى لنا (سانت - بوف)، أنه رآها في زي رجل، مرة واحدة. ذهب يزور (بولور) أيام عزوبته. أول ما دخل، قفز شاب من (الكنبة) وحياه قائلاً (هلو). حل تأخذي إلى الأب (الأمي) (٢) لم يكن ذلك الشاب غير مدام صاند، وكانت علاقتها قد ساءت بـ (موسيه)، اثر عودتها من (فيسيا). قال (سانت - بوف): تصوروا. كان (الأمي) ما يزال قسيساً، وكان الفصل شتاء، وكان (الأمي) يعيش في آخر الدنيا، في (برتاني).

انتهى الأمر بـ (سانت - بوف) أنه بدل أن يأخذها إلى (الأمي) أخذها إلى (موسيه)، عند الباب قال لها (هل ادخل معك؟) فسلت سيفها في وجهه - كانت تحمل سيفاً - وقالت له (لا، مع السلامة). يرى المرء، في كل هذه القصص التي يحكيها (سانت - بوف) نوع الدور الذي كان يقوم به تلك الأيام. دور المتسقط لأخبار الفضائح، المصلح بين العشاق، الذي تقضي إليه النساء بأسرارهن، ولا شك عندي، أن حب الاستطلاع، كان يبلغ به أن يختبئ في غرف النوم، يسجل ما يجري، ليضمه مذكراته.

٦ يناير ١٨٦٤.
حملنا إلى الأميرة (الأمي) الذي طلبته. تحدثنا عن لقاء (سانت - بوف) للامبراطور في (كسييني) حيث لم يحسن التصرف.

تصوروا، تركنا وخرج لاسور غرامية. كل الحاشية الامبراطورية لاحظت ذلك.
هل ترك اثراً حسيماً لدى الامبراطور؟

أبداً، لم يستطع أحد أن يفهم ما يقول. الامبراطور يفهم فقط الأشياء العملية. لو أن (سانت - بوف) طلب منه شيئاً محدداً، منصفاً مثلاً. ولكن يبدو أنه لا يحب أن يتحمل أية مسؤولية. يريد أن يكون طليقاً لينتقد من يشاء وما يشاء بحرية.

ثم أخذت تستدرجنا لنحدثنا عن ذوقه في النساء، وكانت تتظاهر أنها لا تصدق ما نقصه لها، لنعطيهما المزيد. تقول ضاحكة:

«لو كان شاباً: مثل هذه الأعمال، تكون مسلية في الشباب، ولكن هو، وكرشه ذلك».

الأربعاء ١ فبراير ١٨٦٥.
في دار الأميرة، ضمت المائدة هذا المساء عدداً من رجال الأدب، منهم (دوما) (٣) الأب. ضخم الجسم، عملاق، شعره أكثر نثلاً شعر الزنوج، وعيناه

صغيرتان كعيني فرس البحر، يقظ ماكر، يرى كل شيء حتى وهو مغمض العينين حينته تذكر بعامل في سرك، أو حمال في نصحصر ألف ليلة. أنه الصنابغي المصحصح، عداء المسافات الطويلة رياضي القصة المسلسلة، لا يشرب، لا يبيذ، ولا حتى القهوة. ولا يدخل

يتحدث بطلاقة، ولكن دون أي بريق أو جاذبية. كل ما يفعله أنه ينتقل المعلومات من اعماق ذاكرته الواسعة ويلقيها بصوت أجش. يتحدث عن نفسه أغلب الوقت، بمرور صبياني لا يخلو من ظرف. أيضاً (السبس) (٤) شاق القنويات، وسيم، عيناه داكنتان تحت شعر مبيض. كان على مائدة الأميرة هذا المساء، على اثر عودته من مصر. هذا الرجل الحديدي اعترف لنا، أنه احجم عن القيام بعدة أعمال مهمة في حياته، بسبب تنبؤات عرافة في شارع (تورنون)

الأربعاء ٢٦ أبريل ١٨٦٥.
استقبلتنا الأميرة هذا المساء ببرود شديد لا يتقنه أحد مثلاً. تجاهلنا تماماً ولم تتفضل علينا بأي نظرة. وكانت تخالفنا في كل ما نقول. ركزت اهتمامها فقط على (فلوبير) الذي اجلسته بجوارها. أخبرني (فلوبير) فيما بعد ونحن خارجان، أنها جعلته يتمشى معها في الحديقة مرتين.

من حسن الحظ أن الأمراء، والأميرات خاصة، تتناهم هذه الحالات الغريبة من النفور وتقليبات المزاج، ولا لأصبح الإنسان اسيراً لحبهم بشكل مطلق ■

١ - جورج صاند، الاسم الأدبي المستعار للكاتبة (أورود دومار، السارومة دو ميان - ١٨٠٤ - ١٨٧٦) من عائلة إرستفراطية، ثرت في دير، ثم تأثرت بأفكار روسو وبابريو وشلتر برياد، وتركت روحها السارون دو ميان، بعد أن ولدت له طفلين، وعاشت حياة يومية في باريس متفرقة للأدب. اتصلت أولاً بالكاتبة (جول صاندور) وبدأت تكتب باسم (جول صاند) ثم أخذت اسم (جورج صاند) الذي عرفت به. كانت كاتبة ناجحة في رمانها، عشقها كثيرون منهم (الغرد دي موسيه) والموسيقى (شومان) نشرت رسائلها الكاملة عام ١٩٦٤، وهي ذات أهمية أدبية عظيمة.

٢ - الأب روبير دي لامي De Lamennais - ١٧٨٢ - ١٨٥٤، كاتب ديني خرج على أفكار الكنيسة، ووحدت أفكاره ترحيباً كبيراً من أبناء أمثال (هوف) و(المارتين) و(سانت - بوف)، وأحدث اثراً عميقاً لدى (جورج صاند).

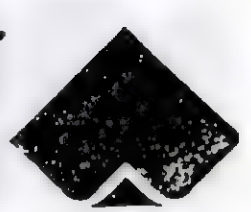
٣ - الكسندر دوما الأب - (الاسكندر دوما) - ١٨٠٢ - ١٨٧٠، من عائلة نبيلة وكانت حذته رجعية. كان كاتباً ناجحاً غير الانتاج، بلغت أعماله ١٠٣ مجلدات من رواياته المعروفة (الكومت دي مونت كرسنو) و(الفرسان الثلاثة).

٤ - ميسرمداد دي لسييس (١٨٠٥ - ١٨٩٤) دبلوماسي واداري ومغامر ارتبط اسمه بقيادة أسويس ومائة سنة.

مقالات الأستاذ الراحل (الطيب صالح) ..

والتي نشرت بمجلة (المجلة .. السعودية) ..

تحت عنوان (نحو أفق بعيد) ..



نحو أفق بعيد

١

وأما اليهود، فإنهم بطريقتهم، المثلجية، في النظر إلى تاريخهم، أعطوا مأساتهم، وهي مأساة لا شك فيها، أبعادا ملحمة كما في الأساطير القديمة، فجاء ألن تيلور، ونظر إليها كما ينظر إلى مصائر البشر كافة عبر التاريخ. هذا، ولأن اليهود لم يكونوا بمعزل تماما عما حدث لهم، في تلك الآونة أيضا، صدر كتاب للفيلسوفة اليهودية الشهيرة همن أرندت اسمه «ايخمان في القدس»، قالت فيه أن اليهود في ألمانيا كانوا يحرقون قسورهم بأيديهم، ثم يدخلون فيها فيقتلون رميا بالرصاص. وكانت الكاتبة تتساءل، ماذا لو قد أبقوا بالموت، فلماذا لم يفعلوا شيئا؟ لماذا لم ينوروا؟ لماذا لم يقاوموا؟ والكتاب كله دراسة رائعة في ظاهرة الشر، وأنه ليس أمرا خارقا، ولكنه أمر عادي، يقوم به أناس عاديون. لقد اختطف الإسرائيليون ايخمان، وكان من كبار النازيين الذين تسببوا في مصرع آلاف الناس، وجاءوا به في ضوضاء اعلامية لمحاكمته، على أنه وحش مصاص دماء مثل دراكيولا. ولما أظهِروه للناس في قفصه الزجاجي في المحكمة، اسقط في أيديهم، ظهر للناس رجلا عاديا، كأنه



يكتبها: الصيب صالح

موظف في بنك أو مسؤول صغير في دائرة حكومية. وكان دفاعه أنه كان ينفذ أوامر رؤسائه، تماما كما يقول الموظفون في دوائر الحكومة. واتضح في المحاكمة أنه كان منظما جدا، دقيقا في حساباته، مثل موظفي البنوك. كذا ألف إنسان أحرقوا في دكاو، وكذا ألف إنسان أحرقوا في أوشفيتز. كشوفات مفصلة بوسائل النقل، وأرقامها وأوقات مغادرتها ووصولها، ووسائل القتل وأنواعها وأسماء القائمين عليها. رجل عادي، يؤدي وظيفة عادية يأخذ عليها مرتبا. له بيت وزوجة وأطفال. يحنو على القطة، ويزرع الورود في الحديقة. هذا أيضا كتاب عظيم يعلق بالذاكرة، يقترب فيه التاريخ من الأدب، في ملاحقته لنوازع الخير والشر الكامنة في تلافيف روح الإنسان. وما اصدق قول أبي العنابي:

لسدواعي الخير والشر ندنو ونسزوح

● ● ●

أذكر ندوة تلفزيونية تلك الأيام، كان ألن تيلور يرد فيها عن أسئلة حول كتابه. قال له أحد المشاركين، وكان واضحا أنه يهودي، أنك باعتراضك هذا تغض من عظمة الكفاح البطولي للشعب اليهودي في إقامة دولة إسرائيل، فرد عليه تيلور بتبرير واضح، «اسمع، لا تحدثني عن إسرائيل والكفاح البطولي وهذا الكلام الفارغ، إسرائيل لا شيء، بريطانيا لا شيء، فرنسا لا شيء، أمريكا لا شيء، روسيا لا شيء».

يعجبني من المؤرخين الإنجليز المعاصرين، أي، جي تيلور، أو ألن تيلور، كما يسميه أنصاره، فهو رجل له معجبون كثيرون وخصوم كثيرون. ذلك، لأنه ينظر إلى التاريخ بجرأة وطرافة وغير قليل من السخرية التي تقترب من روح شكسبير التي ترثي لتفاحة مسعى الإنسان، وهو يشن الحروب ويبدل الدول ويرتكب المحالقات، في سمت هذا المؤرخ العتيق، تيرم كأنما بنفسه وبالناس، وضيق صدر، ربما لكثرة ما يعلم من قصور طموحات البشر عبر التاريخ. هذه المعرفة تعني بعض المؤرخين سماعة ورجابة صدر، لكن ليس ألن تيلور. تقرا كتابه، فإذا فرغت منه فكانما قرأت رواية عظيمة لروائي عظيم. حياته قلقة، فقد تزوج وطلق، وتزوج وطلق، وتغير موقفه في السياسة من أقصى اليسار إلى لا قرار، كان متحمسا لحزب العمال، ثم فتر حماسه، أنه الآن في نحو الثمانين، عليل، يقف على حافة القبر. أسأل الله أن يشفيه، فهو من هؤلاء الإنجليز الذين يجعلونك تغفر لقومهم كثيرا من سيئاتهم.

قرأت كتابه، جذور نشوب الحرب العالمية الثانية، وأنا اصارع الموت في مستشفى الدكتور بدر في بيروت، عام ستين، أو ثراء واحدا وستين؟ في ذلك العام قتل داج همرسلد في الكنجو، ووقعت اتفاقية أيفيان التي أدت إلى استقلال الجزائر. قضيت ليالي وأنا أقاوم مع الجزائريين، ولو مت حينئذ، لعلمي كنت أموت شهيدا بمعنى من المعاني. ثم بدا كما لو أن حبل العمر لم ينقطع بعد، فأخذت أطمو قليلا قليلا، يساعدني على التثبت بالحياة هذا الكتاب الجميل. قامت زويعة أول ما صدر الكتاب، أخريات الخمسينيات، لأن ألن تيلور قال، أن أدولف هتلر لم يكن «عقريا شيطانيا»، كما يزعم، ولكنه كان رجلا عاديا، لا يملك أية مؤهلات خارقة، وأنه لم يكن يعمل وفق «خطة جهنمية»، ولكنه كان «يتخطى» كبقية الزعماء والسياسيين وأنه نجح لأن الإنجليز والعربيين كانوا أكثر تخطيا منه. هذا الرأي أغضب اليهود وكثيرا من الأوروبيين. أما الأوروبيون فلأنهم لم يجدوا سببا منطقيا لما حدث، فخلقوا أسطورة «أدولف هتلر العبقري الشيطان»، كانت ألمانيا أكثر الدول الأوروبية تحضرا، وكان اليهود في ألمانيا، من أكثر الجاليات اليهودية في أوروبا رخاء واستقرارا. لماذا إذا حدث ما حدث؟ لماذا أقام هذا الشعب المتحضر معسكرات الاعتقال، التي رُج فيها بالآدميين كما تزج البهائم؟ لماذا أقيمت أفران الغاز التي مات فيها فيما يقدر ستة ملايين إنسان؟ وإذا كانت ألمانيا قد فعلت هذا، فهل كان محتملا أن تفعله فرنسا أو بريطانيا؟ هل السبب الحقيقي نزعة دمجية قابعة في أعماق اللاوعي الأوروبي عموما؟ أبدا، السبب هو رجل مجنون يدعى أدولف هتلر.

نحو أفق بعيد

-٢-

بدراسته عن تاريخ فرنسا ، وتاريخ الثورة الفرنسية خاصة . من ذلك كتابه «الجيش الثوري في ليون» وكتابه «الموت في باريس» عن الفترة من عام ١٧٩٥ الى عام ١٨٠١ . لا عجب اذا انه اغتاز ان المؤرخ الفرنسي قال في مطلع كتابه المسمى «هوية فرنسا» . «لا يستطيع المؤرخ ان يكتب بفهم تام الا عن تاريخ وطنه .. مثل هذا الفهم لا يتأتى له ابدا . مهما بلغ علمه . اذا نصب خياله في ارض قوم آخرين» . ويعلق المؤرخ الانجليزي بفيظ واضح . هذا الرأي الاحتكاري يناقض عمل «برودل» نفسه الذي اكتسب احتراماً كبيراً لمؤلفاته عن تاريخ اسبانيا والامبراطورية الاسبانية وعالم البحر الابيض المتوسط في عصر فيليب الثاني . وانا اعجب ماذا كنت افعل اذا طيلة الخمسين عاما الماضية ؟

وفي فترة قاسية تتم عن رأي الانجليزي في الثقافة الفرنسية . عموماً يقول المؤرخ الانجليزي . «يشتمل اغلب هذا الكتاب على بديهات ترتدي اثوابا براقه . لا تثبت لضوء اللغة الانجليزية النافذ» . وفي اغلب الاحيان يقدم المؤلف اشياء واضحة كأنه اكتشف امورا عظيمة . والهدف هو - كما يقول برودل - (ان نخرج تاريخنا من وراء الحيطان التي اقامها حوله الآخرون) اي

المؤرخون الذين لا ينتمون الى النادي . يعني المؤرخين الانجليز . ويتضح غبط المؤرخ الانجليزي «ريتشارد كيمب» من احتقار المؤرخ الفرنسي «برودل» لجهد المؤرخين الانجليز . وضوحا لا مراء فيه . في هذه الفقرة . يخصص برودل صفحات عدة لميناء «روان» الصغير متجاهلا ذلك التحليل المفصل لسكان البلدة الذي عمله «كلن روكاس» (الانجليزي) في كتابه الرائع (مقومات الرعب) . ويتحدث عن موجات الهجرة دون اشارة واحدة لاعمال «الون هفتن» (الانجليزي) . ويسرد باسهاب اصناف الطرق عبر القرون . غير مدرك فيما يبدو . ان مؤرخا انجليزيا (يعني نفسه) قد كتب عن الناس الذين قطعوا الطرق مشيا او على ظهور الدواب متجهين صوب باريس . وفي كتابه فصول طوال عن حروب وراثة العرش الاسبانية دون ان يشير ولو مرة واحدة الى تاريخ كيمبريدج الحديث الذي اشرف عليه المؤرخ النابغة «جون برمل» .

ويكاد هذا المؤرخ الوقور يفقد اتزانته حين يصل الى هذه الفقرة . حقا انه ليس اكتشافا عظيما ان تقول ان روان و في هامر ميناءان وان مرسيليا تطل على البحر . ثم ان مؤرخين آخرين قد اشاروا الى السخط الذي احسه سكان البلدان الصغيرة على الضفة الشرقية لنهر الرون . تجاه مدينة ليون . حتى المؤرخون الانجليز يستطيعون ان يفهموا شيئا من خرائط ترودين عن احوال الطرق والانهار في الستينات والسبعينات من القرن الثامن عشر .

ويختتم الاستاذ الانجليزي «ريتشارد كيمب» عرضه لكتاب الاستاذ الفرنسي «فريماند برودل» قائلا هل اوصي بقراءة هذا الكتاب ؟ ربما .

كأنني بهذا العالم الوقور . وهو يركب دراجته في الشارع الرئيسي في مدينة اكسفورد . وقد نفخ الهواء عباءته الجامعية السوداء . يصرخ بأعلى صوته «بريطانيا تحكمي في امواج البحر» .

اما الحبر الفرنسي برودل . فإنه ينظر اليه بتلك الدهشة الفرنسية الجذابة على طريقة الممثل «موريس شفالييه» . بهز كتفيه ويمط شفقيه ويقول «بوف . هؤلاء الانجليز» . ثم يضحك بصوت مرتفع ويقول عبارة بذيلة لا تليق بالاساتذة المحترمين ■



يكتبها: الطيب صالح

العداء القديم بين الانجليز والفرنسيين . تحول على مر السنين الى مرارة خالقة يشوبها حجاب متبادل . يظهره كأنما قسراً الجانبان من وقت الى آخر . احدهما نحو الآخر . لم يغفر الانجليز الانغلو سكتسون للفرنسيين اهم غزوا بلادهم مع وليم الفاتح عام ١٠٦٦ . واحتلوا ردها من الزمن . وغروها الى الابد . والفرنسيون لم يغفروا للانجليز . بصفة خاصة . انهم مزمو امبراطورهم المحبوب . نابليون . عام ١٨١٥ في موقعة واترلو . وغروا بذلك مجرى التاريخ وفشل الشعبان ينظر بعضهما الى البعض الآخر . عبر المضيق . الذي يسميه الفرنسيون «المانش» . ويسميه الانجليز . «مضيق دوافر» بمزيج من الحذر والاعجاب والغبط . ولكن ربما يكون الانجليز اكثر غيظا . فانه يجدون في الفرنسيين صفة غامضة لا يفهمون سرها . تجعل كل عمل ياتونه يبدو اكثر جاذبية . من طعامهم الى ازيائهم . وعطورهم . ومدنهم وثقافتهم . حتى «الستريتيز» تؤديه الانجليزية فيبدو مبتذلا . وتؤديه الفرنسية . فيبدو جذابا . وقد تكون الفرنسية اقل جمالا من الانجليزية . ولكنها لسبب ما . تبدو اكثر منها حيوية وجاذبية ووقعا

على السمع والبصر . نشيد «المارسييز» الذي نبع ارتجالا . وتغنى به ثوار مرسيليا وهم يسرون للانضمام الى الثورة في باريس . وتحول بعد ذلك الى نشيد وطني لفرنسا . لسبب ما . يبدو اصديق واكثر اشارة للحماس . من النشيد الوطني «يا بريطانيا تحكمي في امواج البحر» الذي يؤديه الانجليز على استحياء . وكانهم لا يؤمنون تماما بما يقولون . وحين كان شارل ديغول لاحقا في لندن يطلب النجدة من الانجليز . يوم احتل النازيون فرنسا . كان يعامل الزعيم البريطاني ونستون تشرشل بتعال واضح . كما يقول المثل العربي «حسنة وانا سيده» . وتقرأ الفيلسوف الانجليزي «برتراند راسل» فاذا فكر نائب واسلوب ناصع وقول ليس عسيرا على الفهم . وتقرأ الفيلسوف الفرنسي «جان بول سارتر» . وهو اقل عظمة من راسل في رأي الكثيرين . فاذا اراء متضاربة . واسلوب مفتعل واحابيل عقلية لا تنطلي على ذي فطنة . ومع ذلك فان شهرة «راسل» تقتصر على الخاصة . بينما شهرة «سارتر» قد طيفت الافاق . ومذهبه الوجودي مايزال له اتباع وانصار . ورغم ذلك فقد وجد في فرنسا دائما . فرنسيون يحبون الانجليز او على الاقل يحترمونه . ربما يكون منهم «الامبراطور» نفسه الذي اثر . حين مالت به اقداره . ان يلجا الى رحمة الانجليز . مؤثرا اياهم على الالمان والروس . ومنهم «شانتوبريان» العتيق . صاحب «مذكرات من القبر» . ومنهم في الاونة الاخيرة «اندريه مورو» . والانجليز كذلك . كان منهم دائما محبون للفرنسيين او معجبون بهم . منهم الشاعر الانجليزي العظيم «ويردزورث» الذي تغنى في شعره بالثورة الفرنسية . ومنهم الناقد الكبير «وليم هازلت» الذي سيج ضد الشعور الوطني الطاغى في انجلترا . بتأييده لنابليون

سقت لكم كل هذا . لانسني قرات مؤخرا مقالة للمؤرخ البريطاني المعروف «ريتشارد كيمب» . ينقد فيها كتابا لشيخ المؤرخين الفرنسيين «فريماند برودل» . وقد توفي قبل ان يخرج كتابه باللغة الانجليزية . كان «ريتشارد كيمب» استادا للتاريخ الحديث . في جامعة اوكسفورد حتى عام ١٩٨٤ . وقد عاش في فرنسا تسع سنوات . واشتهر

نحو أفق بعيد

-٣-



يكتبها: الطيب صالح

.. انما واصلن السير بئيل . وفي الليل بطيب الغناء للمغنين . ويطيب السير للسائرين . وعند الصباح يحمد القوم السرى . كما قال خالد بن الوليد . اذا لحذا يا هذاك نفس . يستكثر على الشاعر انه انفق كلمتين لقاء كل هذا الزاد الشعري ؟

ومن اين بدأت الرحلة ؟

الم تسمع ؟ اما قال لك الشاعر ؟

امن ام اولى بمنة لم تكلم
بحومانة الذراج فالتكلم
ديار لها بالرفعتين كانها
مراجيع وشم في منابر معظم
بها العين والارام يمشين خلفه
واطلاوها ينهضن من كل مخلم
وقفت بها من بعد عشرين جنة
فلابا عرفت الدار بعد ثوبهم

من تلك الديار بدان رحلتين . وظللت يسرى . ولعلهن ما زلت سائرات في مسارب الخيال الى يومنا هذا .

هذا ما يفعله الشاعر العظيم . انه يفتح لخيالك افقا لا تحد .

فتخيل كما يحلو لك . ولا عليك من هؤلاء الاسمين والسمائين واليمنيين والتعيريين والسورياليين والمادين والجدلين وما شابه . انهم جاءوا من اودية شتى الى وادي الرس ووادي العقيق ووادي الخزامى . فلن يطول مكثهم ان شاء الله . تبصر خليلي . كما حثك الشاعر . ولا تكن اقل بصيرة من مطايا ابي العلاء المعري

تخلت الصباح معين ماء
فما صدقت وما كذب السعيان
وكاد الفجر يشربه المطيا

كنت اظن هذا البيت لابي تمام .

وحبب اوطان الرجال اليهمو

مارب قضاها الشباب هناك

ولكنني اراد احيانا ينسب لشعراء آخرين منهم ابن الرومي . هل يقوى

ابن الرومي على مثل هذا ؟ ثم الا يمضي ابو تمام فيقول

اذا ذكرنا اوطانهم ذكرتهمو

عهود الصبي فيها فحنوا لذلك

لا ادري . فليس بين يدي الان ديوان ابي تمام لانظر فيه . ولكن هذا شعر

نبيل . وابن الرومي كان شاعرا كبيرا . ولم يكن شاعرا نبيل

واذا كنت قد اوردت البيت الثاني على وجهه . فما قولك ان الشاعر كثر

ذكرنا . وذكرتهمو ؟ اليس هذا عيبا في البيت ؟

لذلك انت تفضل ان يكون بيت المتنبي :

ولم ار في عيوب الناس عيبا

كنقص القادرين على التمام .

على هذا النحو :

ولم ار في عيوب الناس شيئا .

هكذا يرد البيت في اغلب طبقات الديوان .

لا يارعبك الله . المتنبي عظيم لا يقول شيئا .

هذا شاعر عرف دقائق اسرار لغة العرب . وما تحويه الكلمات من طاقات .

كان يستعمل الكلمات كأنها عملة غالية . ليست مثل جنيه السودان وليرة

لبنان . فلم يخش ان يقول عيبا . بعد ان قال عيوب . لان في الكلمة

الواحدة سعة مزيد من الانفاق . وقبل قال زهير

بكرن بكورا واستخزن بشخرة

فهو وادي الرؤس كاليد للقم

انظر كم انقضى وقت . كم انطوت مسافة . بين البكور والسحور . لذلك فان

هؤلاء النسوة . حين اضرفن على وادي الرؤس . كن مثل الصائم الذي دنا

موعد افطاره . ليس فقط . لان اليد لا تخطيء الفم .

ولم قال الشاعر بكرن بكورا ؟ اما كاه ان النسوة قد بكرن . صدقت .

ولكن لم يكن هؤلاء النسوة على سفر ؟

الم ينهضن مبكرات فيصنعن الزاد ويجمعن المتاع . وتقوم الخيام

وتشيد الخمول ؟ تذكر ان الخدم لم تضع لهن حوائجهن في حقائب

السمنونيات . وتحملن سيارات المرسيدس . الى المطار . وتقلن طائرة

الـ «بوينغ» الى وادي الرؤس . انهن سيرا مضنيا قبل ان تحر شمس

النهار . ثم ربما قبلن . في الظهيرة . لا كما فعل صديقنا عبد الرحمن

الابنودي

نحو أفق بعيد

-٤-

غزَلَتْهُ بِقُوْدَةٍ وَحِكْمَةٍ ، اصابع رجال عباد
زهاد ، ونساء صابرات قانتات ، فمزقته وانت
تظن انك تحسن صنعها ؟

● ● ●

المدينة مثل ثوب قديم مبتل ، لم يغسل منذ
زمن طويل . دار عثمان محمد الحسن في
«المفرق» اغرقها المياه ، ومحت بعض رسائل
جمال محمد احمد التي يعمل عثمان على
جمعها واخراجها في كتاب . ان الله سبحانه
ونعالي قد راف باستاذنا الجليل انه مضى وله
يشهد كل هذا الخراب . الشوارع مثل اطلال
خولة ، وانصاب «ثورة» مايو التي مشتموها
ايام الانتفاضة لم يستطيعوا ازالتها بعد .
كتل قبيحة من الاسمنت والحديد . لا تقول
شيئا ولا تعني شيئا ، الا انهم اعطوها
صفات طنانة مثل «تحالف قوى الشعب
العاملة» او «الثورة فكر وعمل وانتاج» . ولا
فكروا عمل ولا انتاج . وقد اصبحت ازالتها
مشكلة ككل بقايا ذلك العهد الميمون
ونقول ، ما لهم وللتعائيل ؟ في مدينة ارضها
صلصال ونيلها زلال ، اما كان يكفي قليل من النبات وقليل من
الازهار ؟ لكنهم جاءوا بخبراء تخطيط المدن من ايطاليا والسويد ،
مدفع من مدفع ، واخذ من اخذ ، ورحل الخبراء وازدادت المدينة قبجا

● ● ●

انني ادري لم انا حزين الان في هذا المكان . لقد وقفت على قبر
انسان عزيز ، اعز انسان عندي ، وانقطع اهم خيط كان يربطني الى
هذه الديار . الحزن يعلو ويخبو ، ويعتمد عبر زمن طويل ، ويأتي على
اشكال عدة ، ويهجم عليك من حيث لا تحسب . لقد صبرت حين كان
يتحتم علي ان ابكي ، وبكيت حين كان يجعل بي الصبر . لذلك يدهمني
الحزن الان . في هذه الصالة الرثة ، في هذا المطار القميء ، في هذه
المدينة المهملة ، في هذا الوطن الحبيب اللعين . وتحول الحزن
الخاص الى حزن عام ، بسبب هذه اللوحة امامي في صالة المغادرة .
منذ قَمَّ الف عام وضعت هذه اللوحة في هذا المكان ؟ ومن الذي
وضعها ؟ وماذا كان يدور في راسه ؟ لوحة بهتت ألوانها واختلطت ،
عُتِبَ عليها باللغة الفرنسية Bon Voyage وباللغة العربية «رحلة
سعيدة» .



يكتبها : الطيب صالح

الاربعاء ٨٨/٩/٢١

مطار الخرطوم ، صالة المغادرين .
الساعة ٤،٥٠ مساء

خرجنا من دار عثمان محمد الحسن متأخرين
لانه وقف طويلا في صف البنزين . هذه
الطوابير اصبحت سمة من سمات الخرطوم
منذ عهد بعيد . طابور الخبز ، تقف فيه منذ
منتصف الليل حتى طلوع الشمس . نساء
حرائر ، ماكن يلفن مثل هذا الموقف من قبل ،
من اللائي قال فيهن الشاعر «ما خرجن لريبة
كقلب مكة صيدكن حرام» . طابور السكر ،
الرجال والنساء والكهول والشيوخ
والصبيان . طابور الاحذية التي جاءت من
مصر ، والنياب الجاهزة التي وصلت من
كوريا والصين . طابور حلويات العيد .
طوابير عند ابواب السفارات ، للسفر ،
للخروج ، للهروب ، للرحيل . ناس من
الشمال يضربون في ارض الله شرقا وشمالا ،
وناس من الجنوب ، مثل جيوش النمل ،
تسير ، تسير ، من جوبا الى ملكال ، ومن

ملكال الى شندي ، ومن شندي الى اثرا ، الى مروي ، الى الدبة ، الى
حلفا على حدود مصر . امواج في اثر امواج من اقوام زلزلتهم الحروب
والمجاعات والفيضانات ، والحكام الاغبياء والوعود الكاذبة . ما
كانوا من قبل يابهن للطعام والشراب ، فاصبح همهم الطعام
والشراب . «فلا تكن يا عبد الله كالسائمة التي وجدت مرعى خصبا ،
فاصبح منها في الشمن وداوها لو تعلم في السمن» . ما كانوا يابهن
للمظهر ، فاصبحوا يتناذبون باللقاب ، ويتطاولون في البنيان ،
ويتفاخرون بسيارات المرسيدس ، وترى المرأة وهي تحمل على جسمها
من الثياب والحلي ما كان يكفي لاعاشة اسرة كاملة ، حولا كاملا ، في
الزمان القديم . زاد الكلام عن الاسلام وكثرت المساجد ، وضعف
الايمان . زادت المدارس ، وعمّ الجهل . زادت المستشفيات وتفشت
الامراض . لا عدل ولا حرية ولا ديموقراطية الا في بيانات الحكومة
ومحطات الاذاعة .

الحكام السابقون واللاحقون والسابقون اللاحقون . وجعفر محمد
النميري في منفاه يحلم بالعودة . تعود لأي شيء يا رعاك الله ؟ اما
حكمت قرابة عشرين عاما ، فكنت مثل طفل شرس اطلق سراحه في
متحف للخزف النادر ، فكسرت وهشمت ؟ اما وجدت ثوبا ناعما فريدا

نحو أفق بعيد

-٥-

الأربعاء ٢١/٩/٨٨

مطار الخرطوم . صلاة المغادرين . الساعة ٤,٥٠ مساء

انما هذان البيتان . حتماً . لا يي تمام :
سود الوجوه كأنما شجبت لهم

أيدي الشموس مذارعاً من قار
لا يبرحون . ومن راحم خالهم
أبدأ على سفر من الاسفار

وكانما عني بهما هؤلاء القوم . الذين
يسمّون مجازاً . السودانيين لأن زعماءهم
عشيرة الاستقلال . لم يستقروا على رأي . ويا
ليتهم عادوا الى الاسم القديم . سنار . كان
السناريون معروفين في العالم الاسلامي شرقا
وغربا . لهم وقف في المدينة المنورة والازهر
الشريف . وهداياهم تذهب كل عام في محفل
عظيم الى مكة المكرمة . وربما يكون من
اسباب ان هذا البلد لا يستقر على حال . ان
اسمه لا يعني لاهله شيئا . فما السودان ؟
مصر مصر . واليمن اليمن . والعراق عراق .
ولبنان لبنان . ولكن ما السودان ؟ لقد اطلق
المستعمرون هذا الاسم على كل تلك الرقعة
الممتدة من حدود الحبشة شرقا الى غاية بلاد
السنغال غربا . فوجد الناس لبلادهم اسما
تعني لاهلها شيئا . وبقينا نحن وحدنا نحمل
هذه التركة الاستعمارية الجوفاء . لذلك
يستند جون قرنق . على الرمز الاستعماري في
دعواه الباطلة . فيقول . هذه بلاد السود .
بلاد الرنخ . وانتم اهل الشمال عرب دخلاء .

ويعتبر الارض مفتصة . يريد ان يحرقها شبرا شبرا . كما يزعم
والاف من يريد ان يحرر السودان ؟ وما معنى جيش تحرير
السودان ؟ واذا سار الحال . على هذا المنوال . فما الذي يحول بينه
وبين تحقيق هذا الحلم ؟ انه الآن . في هذه اللحظة . يستطيع ان
يسقط مئات من المظليين من طائرات الهليكوبتر . التي تعد بها هذه
الدولة او تلك . ويحرك مئات الآلاف من اعوانه الذين يحيطون
بالخرطوم كحلقة الخاتم . حينئذ سوف يجد الصادق المهدي وحسن
الترابي ومنصور خالد وبقية هؤلاء السادة النجباء . ان النسيج
الذي نسجوه . اوهى من بيت العنكبوت . سوف تراق دماء كثيرة .
حينئذ سوف نسمع نشيدا جديدا . ونرى وجوها جديدة على شاشات
التلفزيون . سوف تغلق ابواب وتفتح ابواب . وتعيش احلام
وتموت احلام . وسوف يكون السودان . سودانا . بحق وحقيق
حينئذ .

اه . صدقت يا ابا تمام . ولكن هذا السواد مثل غيم كثيف في ليلة

قفر . فواء الظلام الذي تراه ضوء كثير . وقد اعطت تصاريح
الايام ونوايب الدهر . بعدا آخر للبيتين . كما يقول نقاد الشعر . لم
يكن هؤلاء القوم . يبرحون . هذه الديار المترامية الاطراف . كانوا
قائمين بما قسم الله لهم فيها . وهو كثير . يزرعون النخل في ديار
المخس . والسكوت . ويزرعون الحنطة والشعير في ديار البديرة
والشايقية والزكابين . يزرعون الموز في كسلا . والبرتقال والجوافة في
شندي . والذرة في ارض البطانة . والقطن في ارض الجزيرة .
ويجنون الصمغ العربي من شجر الهشاب في كردفان . يصيدون البقر
الوحشي في جبل مزه والظباء عند تخوم بحر
الغزال . ياكلون سمك النيل الابيض وسمك
البحر الاحمر . يخرجون الذهب من مكانه في
حلايب . وفي جبل شنقول . كانوا
يتناشدون شعر الدوبيت . على الابار .
ويرقصون . الذليل . في ضوء الاقمار .
ويرتلون القرآن في جوف الاسحار .
ويستخفهم الطرب في حلقات مديح المصطفى
المختار . كانت البلاد تضج في الغشيات بثغاء
الشيء . وزغاء الابل . وصهيل الخيل .
وكان الرجل يعيش من . ابو حمد . الى . ابو
دليق . فلا يخشى الا الله والذنب على غنمه .
لكن انظر اليهم الآن يا ابا تمام . في هذه
الصالة الرثة . في هذا المطار القمي . في هذه
المدينة المهملة . في هذا الوطن الحبيب
اللعين .

هذه المرأة الوسيمة من عرب النطاحين
دون شك . وهذه الشلوخ الافقية على الحدود
الحنطية . لا بد انها شايقية . من نوري او
تنقاسي وهذا الرجل الاخضر . سواده زنجي

وسفته عربي . وهذه المرأة . لونها مثل الذهب المترب . بجاوية لا بد .
من القوم الذين امتطى المتنبي ناقه من نوقهم حين خرج هاربا من
مصر :

الا بكل ماشية الخيرى فدى كل ماشية الهيدى
وكل نساء بجاية خسوف وما بي حسن المي
انظر اليهم يا ابا تمام . ينتظرون الطائرات تحملهم الى بلدان
الخليج . الخروج . الهروب . الرحيل . انهم ينتظرون . وانا مثلهم
انتظر . ولكن الحزن الذي يلسع قلبي . وكأنما ينبع من هذه اللوحة
الباهتة امامي . يخصني وحدي . فانا بعد كاتب . وهذه الاحزان هي
زادي وعدتي . كما يتزود الاثرياء بحساباتهم في البنوك . لقد اختلط
الحابل بالنابل . واصبح النازح كالمقيم . والمقيم كالمسافر .
هل انت قلت حقا يا ابا تمام ؟

وحبيب اوطان الرجال اليهم
مازب قضاها الشباب هنالك ؟



يكتبها : الطيب صالح

نحو أفق بعيد

-7-

مرايها ؟ وهذا الشاب سفته سمعت ضابط في الجيش . ربما أرسلوه في بعثات عسكرية الى امريكا وبريطانيا وموسكو . ثم اخرجوه في حركة من حركات التطهير الكثيرة . قد ينتهي به الامر ان يعمل حارسا في محل تجاري في دبي . وهذا الشاب واضح انه من هذه الطبقة الجديدة التي ولدت ورنث مع ثورة مايو . الله اعلم يهرب ناذرا . او يبيع ويشترى ماذا . يريد ان يفتني باي وسيلة . ثم يفعل ماذا ؟ وهذا شاب يافع . تخرج لتوه من جامعة الخرطوم . درس الزراعة . يكون محظوظا لو وجد عملا كتابيا في شركة مقاولات في غجمان . انهم ينتظرون وانت مثلهم تنتظر . وتسال نفسك . ما الفرق بين هذا الحشد في هذا المطار . وبين جمع من اهل الشام ؟ في اولئك حركة وتوتر وتذافع . وطنوا انفسهم على الاغتراب منذ زمن . وهم اهل حياة ومطلب عيش . ينظرون الى امام . الى حيث يقصدون . اما هؤلاء فلي حركتهم بطء وتراخ . ينظرون الى الخلف . تشدهم الى مواطنهم . من حيث خرجوا . قبيو لا فكاك منها . تحسبهم كسالى . وما هم بكسالى . لكنهم لا يعملون للعمل في حد ذاته . يعملون حين تستثار همهم . نخوة او خيبة او غيره .

لذلك هبوا في اكتوبر وهبوا في ابريل يعملون محبة . ويعملون جلبا للمدح ودفعاً للذم . ولا يعملون لمجرد الطعام والشراب . حينئذ يعمل الواحد منهم عمل عشر رجال . وقد يعمل بلا مقابل . فيهم . حين يكونون في احسن حالاتهم . كبرياء وعذوبة وزهد . وتسال نفسك وانت تجلس في هذا المكان الذي تسلخت حيطانه وتشققت جدرانها وبهنت ألوانه . تنظر الى لوحة تقول لك بالفرنسية «Bon Voyage» وبالعربية «رحلة سعيدة» . هل بقيت من ذلك بقية ؟ ام ان صروف الزمان ونوائب الدهر . وغباء الحكام . قد قضت عليه الى غير رجعة . كما قضى النيل على العالم الذي حملته في خبالك كل تلك الاعوام . واخذت تسافر وتعود . تسافر وتعود . تبحث عنه . مثل جندي في جيش منهزم ؟ ■



يكتبها : الطيب صالح

الاربعاء ١٩٨٨/٩/٢١
مطار الخرطوم . صالة المغادرين .
الساعة : ٤ . ٥٠ مساء .

نعم . لا بد ان يكون البيت لابي تمام . فما لابن الرومي وذلك ؟ انه شاعر كبير لا شك . احسن القول في وصف المغنيات ومجالس الطرب . وولد معاني عجيبة عن الآلات والاصوات . وهل مثل شعر العرب في الحنين الى الاوطان ؟ وقد قال اخو بني خنيفة :
الا هل الى شم الخزانى ونظرة
الى قرقرى قبل المات سبيل
فاشرب من ماء الخبيلاء شربة
يداوى بها قبل المات عليل
فيا أثلاث القاع قلبي موكل
بكن وجدوى خيركن قليل
ويا أثلاث القاع قد ملل صحتي
مسيري فهل في ظلكن مقيل
اريد انحدارا نحوها فيردنى
ويعننى دى على ثقيل
أحدث نفسي عنك اذ لست راجعا
اليك . فحزنى في الفؤاد دخيل

وقد رووا ان عبد الملك بن مروان . وقد كان ملكا عالما بالشعر محبا له . بكى لما سمع هذه الابيات . فارسل الى الشاعر مالا يقضى دينه ويرده الى اهله . فلما جاء الرسول وجد الشاعر قد مات .

وانت ايها المسكين . تجلس كأنما منذ قرون وكانك سوف تظل جالسا الى الابد . في هذا المكان الامل المهجور . في هذه المدينة الجميلة المهمله . في هذا الوطن الغني الفقير . ينتظرون طائرات الخليج . هذان عريسان جديان يجلسان خجلين في بركة من العطر والحناء . والعروس في وجهها ذلك الخفر القديم . وهذه الطفلة البسوها «فستانا» ابيض مزركش الاطراف . لا يليق بها ولا يليق بهذا المكان .

وهذا رجل مريض مسافر للعلاج . ربما في الرياض او في الدوحة . وهذه المرأة المسنة . بين السبعين والثمانين . وجهها جميل يذكر بوجوه احببتها في الزمان القديم . ربما من نواحي زغاغة او الكاملين . ساكنة وادعة مطمئنة . ما الذي اخرجها من جفاتها واجلاها عن

في رحاب عبد الله بن عمر

(6)

وسبعين، خطب الناس بالمدينة فقال: «أما بعد، فأني لست بالخليفة المستضعف (يعني عثمان)، ولا الخليفة المدهن (يعني معاوية)، ولا خليفة المنافون (يعني يزيد). إلا وأن من كان من الخلفاء كانوا ياكلون ويطلعون من هذه الأسرار. إلا وأني لا أدوي أدواء هذه الأمة إلا بالسيف، حتى تستقيم لي قناتكم. تكلفونا أعمال المهاجرين، ولا تعملون مثل أعمالهم! فلن تزدادوا إلا عقوبة حتى يحكم السيف بيننا وبينكم. هذا عمرو بن سعيد، قرابته قرابته، وموضعه موضعه» برأسه هكذا، فقلنا بأسيا فها هكذا.

الا وإنا نحمل (نحتمل) لكم كل شئ وثوباً على أمير أو نصب راية. الجامعة (الأغلال) التي جعلتها في عنق عمرو بن سعيد، عندي. والله لا يأمرني أحد بتقوى الله بعد مقامي هذا إلا ضربت عنقه».

هذه الخطبة النكباء، لا تكاد تصدق، لولا أنها تواترت لدى عدد من المؤرخين الثقات، مما يرجح صحة روايتها. وما أقدم عليه عبد الملك قبل وبعد، يؤكد على الأقل صحة النوايا التي انطوت عليها. حديثه عن (تقوى الله) يؤكد ما روي عن الحجاج أنه كان يقول (انظروا إلى هذا! إنه يأمرنا بتقوى الله)، وما كان الحجاج لعبد الملك بن مروان إلا كما كان (أيضاً) لهتلر!

أنه مذهب بائس في الحكم، هو النقيض تماماً من مذهب الرجل العمدة حقاً، أبي عبد الرحمن، عبد الله بن عمر بن الخطاب.

حدثوا عن خالد بن سمير قال: «قيل لابن عمر (لو أقمتم للناس أمرهم فإن الناس كلهم قد رضوا بك). فقال أرايتم إن خالف رجل بالمشرك؟ قالوا (أن خالف رجل قتل، وما قتل رجل في صلاح الأمة؟). فقال:

«والله ما أحبُّ لو أن أمة محمد صلي الله عليه وسلم، أخذت بقائمة رُمح، وأخذت برُجِّه، فقتل رجل واحد من المسلمين ولي الدنيا وما فيها» ■

* فسروا أن رُجَّ الرُمح هو الحديد التي تُركَّب في أسفل الرُمح، تركز به في الأرض، والسنان أعلا الرُمح يطعن به.

(للحديث بقية)

من ذرية عبد الله بن عمر رحمه الله، عبد الله بن عمرو بن عثمان بن عفان رضي الله عنه. أمه حفصة بنت عبد الله بن عمر بن الخطاب. كان من أمجد قتيان قريش، وكانوا يلقبونه بـ (المطرف) لشدة وسامته. تزوج فاطمة بنت الحسين بن علي بن أبي طالب، رضوان الله عليهم، فولدت له محمد بن عبد الله بن عمرو بن عثمان، الذي أسماه (الديباج) لشدة وسامته أيضاً. ذكروا أن عبد الله بن عمرو بن عثمان كتب إلى الخليفة عبد الملك بن مروان يقول:

«أما بعد، فإنك تعلم بلاء أمير المؤمنين عثمان عندكم في رفع أقداركم وإحسانه اليكم. وإن مروان أوصي بقضاء دين عمرو بن عثمان، فإن تفعل فأهل ذلك نحن، وإن لم تفعل فسيغني الله عنك والسلام».

فرد عليه عبد الملك بن مروان: «أما بعد، فإن عمرو بن سعيد كان أقرب رحماً بي منك. وأنه لما أخطأ قدمه، فرقت بين رأسه وجسده. ولقد هممت أن الحق به». فرد عليه عبد الله بن عمرو: «أن تفعل فأني لمعرق في الشهادة، فانا ابن أمير المؤمنين عمر وعثمان». تلك الجذوة العمرية لا تخبو أبداً.

هذا، وعمرو بن سعيد الذي أشار إليه عبد الملك، هو عمرو بن سعيد بن العاص بن سعيد بن أمية. وأبوه سعيد بن العاص، هو الذي ذكرنا من أمر توليه الكوفة على عهد عثمان، وفتح طبرستان وغيرها من بلاد ما وراء النهر. وهو الذي ذكره الراجز الغوغائي من الذين تسوروا الدار على الخليفة الشيخ رحمه الله بقوله:

يطلبن حق الله في الوليد

وعند عثمان وفي سعيد وكان مروان بن الحكم، بعد أن وثب على الملك أثر انتصاره في موقعة (مرج راهط) قد أوصى أن يكون عمرو بن سعيد خليفة بعد عبد الملك، لكن عبد الملك لم يلبث أن قتله. وقالوا أن ذلك أول غدر كان في الإسلام. وفي ذلك قال بعضهم:

يا قوم لا تغلبوا عن رأيكم فلقد جريتم الغدر من أبناء مروانا أمسوا وقد قتلوا عمرواً وما رشدوا لكي يولوا أمـور الناس ولدانا روي أن عبد الملك بن مروان، بعد أن قتل عبد الله بن الزبير بن العوام عام خمسة

الطبيب صالح



الطبيب صالح

نصر أنق بعيد

372

نحو أفق بعيد

-٧-

تقوم الطائرة ؟ فقلت لا ادري . ياخذون متاعك ويختفون . لا احد يسأل ولا صحف تقرا ولا ماء يشرب . وسوق الاشياء المعفاة من الضرائب . مثل قطعة من الاثاث الحديث في دار انسان فقير . عطور «شانييل» وسجائر «مارلبورو» وربطات عنق «ايف سان لوران» . انه امر عسير .

لماذا لا يبدأون بالاشياء الصغيرة لانجاز الاحلام الكبيرة ؟ كل واحد من هؤلاء الناس الاذكىاء الاغبياء عنده مشروع شامل ، لقامة مجتمع «فاضل» يدوم الى الابد . وما ادراه ما الابد ؟ ويقتلون انفسهم ويقتل بعضهم بعضا لتطغى احلام على احلام .

المرأة المستنة الجميلة الوجه من نواحي زهاغه او الكاشلين ابتسمت لك . كأنها تعرفك . نعم . انها تعرفك . فقد احببتها . اذا أنت تطلب حبوا . واذا انت صبي دون البلوغ . لهم الويل . كيف اجلوها عن جفاتها . وقد ان لها ان تستريح ؟

انهم ينتظرون . وانت مثلهم تنتظر . وحاك كما قال مجنون بني عامر :

كان فؤادي في مخالب طائر
اذا ذكرت ليلى يشد به قبضا
كان فيجأ الارض حلقه خاشم
علي فما تزداد طولا ولا عرضا
تجلس . وفي خيالك ذلك العطر الذي لن ينضب مادمت حيا . وهو حب اودي قبلك بالتجاني يوسف بشير ومحمد المهدي المجذوب . ومثلك كثيرون . منهم صلاح احمد ابراهيم في باريس . وسيد احمد الخزندل في صنعاء . والفيتوري في الرباط . وابراهيم الصلحي في الدوحة . وعبد الواحد يوسف في عمان . وحسن ابشر الطيب في الكويت .

ان تنتمي الى هذا الوطن البعيد المثال . ذلك امر عسير . ان تكون سمعت زغاريد النساء في الاعراس . ورايت انعكاسات الضوء على وجه النيل وقت الشروق ووقت الغروب . ان تتذكر مذاق تمر «القنديل» اول الموسم . ولبن البقر الغريص . ورغوته معقودة عليه في «الحلابات» . ذلك امر عسير .

وهؤلاء الزعماء النجباء . الاذكىاء . الاغبياء . الا يحبون الوطن كما تحبه انت ؟

بلى . اذا لماذا يحبونه وكأنهم يكرهونه . ويسعون الى اعمارهم وكأنهم مسخرون لخرايبه ؟ ■



يكتبها : الطيب صالح

الاربعاء ١٩٨٨/٩/٢١
مطار الخرطوم . صالة المغادرين .
الساعة ٤.٥٠ مساء .

تجلس في هذا المطار الذي لم تعد تنزل فيه الطائرات الا لاما . واذا نزلت لا تقوم الا بشق الانفس . في هذه الصالة التي تسخت حيطانها . وتشققت جدرانها . تنظر الى الصور التي اخذها مصورو وزارة الاعلام . منذ كم الف عام اخذت هذه الصور . فكانت تنظر اليها من وراء سحاب او من تحت ماء عكر ؟ مجموعة من رجال «الهندود» بشعورهم الكثة وسراويلهم الطويلة وصديرياتهم القصيرة يرقصون بالسيف .

نساء «الرشايدة» الجميلات في عيونهم بقية من بريقي رغم تقدم العهد بالصورة . قافلة من «البقارة» ربما في نواحي «بانتوسه» . رجل ضيرير تلعب اصابعه باوتار الطنبور . ذلكم الشام ادم . العازف الموهوب . انه من ديار قريبة من ديارك . ويغني الحانا قريبة الى قلبك . رجال من جبال النوبة . على رؤوسهم

قرون النيران وفي اذرعهم الخيز . وفي ارجلهم الخشاخيش . يرقصون رقصة «الكفيلة» . نساء «الدنكا» الفارعات . صدورهن نصف عارية ونصف مغطاة . غابة نخل في «نوري» هاماتها تنوء باحمال الشبيط . وساقية الله اعلم اين . لقد انقضت الشواقي وصمت غناؤها للنيل منذ سنين . وحيد القرن وفرس النهر . ووعل في «الدندر» وقطيع اغيل عند خط الاستواء . جبل البزك وجبل مزه وجبل ثوريت . اه . اي وطن رائع يمكن ان يكون هذا الوطن . لو صدق العزم وطابت النفوس وقل الكلام وزاد العمل !

اعلان يحثك باللغة الانجليزية واللغة العربية ان تجيء الى «اركويت» . ماذا في اركويت ؟ وكيف تصل الى اركويت ؟ الجبال التي ربطت هذه البلاد بالعالم شرقا وغربا . شمالا وجنوبا . تقطعت حبالا بعد جبل . وقفت سفن النيل وقطارات السكة الحديد والطائرات الا القليل . وال هذا المطار كأنه محطة خلوية في صعيد مهجور . لم تبق الا قوافل الابل كما كان منذ قرون . وحافلات هالكة تسير طرقا غير معبدة . تنوء وتقوم . انه امر عسير .

الطفلة التي زينوها مثل وصيفة في عرس . جاءت وقبلك بغتة . فانتبهت فرحا . ونظرت اليها توزع قبلايتها كيف تشاء . شاب استعارك قلما فاعرته . ورجل طلب «فكة» عشرة جنيهات فلم تجد له الفكة . رجل استكتبك رسالة فكتبتها له . منذ كم وانت تكتب الرسائل لغوم لا يقرأون ولا يكتبون ؟ . وسالك واحد واثنان وثلاثة متى